عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس

دراسة تاريخية، معمارية وفنية

نادين مهيب عفيف طوقان

رسالة ماجستير

القدس- فلسطين

1435هـ/ 2014م

الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري
في مدينة القدس
دراسة تاريخية، معمارية وفنية

اعداد الطالبة

نادين مهيب عفيف طوقان

بكالوريوس هندسة معمارية- جامعة البتراء- الأردن

المشرف

أ.د. مروان أبوخلف

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الآثار من المعهد العالي للآثار في جامعة القدس

القدس - فلسطين

1435هـ/ 2014م

جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

برنامج المعهد العالي للآثار

إجازة الرسالة

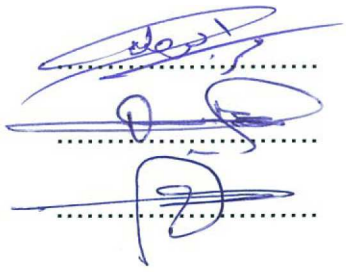
الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس
دراسة تاريخية، معمارية وفنية

اسم الطالبة: نادين مهيب عفيف طوقان

الرقم الجامعي: 20810094

المشرف: د. مروان ابوخلف

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 1/ 3/ 2014 من لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتوقيعاتهم:



رئيس لجنة المناقشة: أ. د. مروان ابوخلف

الممتحن الداخلي: د. ابراهيم ابو أعمر

الممتحن الخارجي: د. جمال عمرو

القدس– فلسطين

1435هـ/ 2014م

إهداء

الى ذكرى مَنْ وطئت أقدامهم هذه الأرض المباركة

مِنْ علماء وأبطال وشخصيات تاريخية بارزة

ممن جُبِلَتْ أُصولهم ودمائهم وعَرقهم مع تراب الأرض

فأهدتها حضاراتٍ عظيمةٍ متتاليةٍ قامت عليها

وأنعشتها بنسائِم تفوحُ بهجةً وتنشرُ السِحر في العقول

وجعلتها موطناً للعِلم والثقافة والعمران

فإلى ذكرى الأمير تنكز الناصري الذي أثمرت جهوده

بصروحٍ شامخةٍ تتباهى بها مدينتنا، القدس

إقرار:

أقِرُ أنا معدة الرسالة بأنها قُدمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير، وأنها نتيجة أبحاثي الخاصة، باستثناء ما تمَّ الاشارة له حيثما ورد، وأنَّ هذه الرسالة، أو أي جزء منها، لم يقدم لنيل درجة عليا لأي جامعة أو معهد آخر.

التوقيع: .....

نادين مهيب عفيف طوقان

التاريخ: .....

الشكر والتقدير

أبدأ بحمد الله وشكره على ما قدَّرني وأعانني على اتمام هذا البحث، فالحمد لله ربِّ العالمين.

وأتقدم الى الأستاذ الدكتور مروان أبوخلف بجزيل الشكر والعرفان على متابعته ودعمه ومساندته لي في جميع مراحل كتابة واعداد البحث. واشكر كل مَنْ قدَّم لي يدّ المساعدة في مراحل التحضير للرسالة، وأخص بالذكر السيد حسين غيث وجميع العاملين في مكتبة الآثار البريطانية، لحُسن تعاملهم وتقديمهم المساعدة لي أثناء زياراتي الى المكتبة، وامدادي بالعديد من المراجع الهامة التي استعنت بها في فصول البحث. والى اساتذتي في جامعة القدس لِما قدموه من معلومات وخبرات اثناء مرحلة الدراسة.

ويرجع الفضل الأكبر في وصولي الى هذه المرحلة من الدراسة الى أهلي، أبي وأمّي واختي، فأُكِن لهم كلَّ الشكر والامتنان لدعمهم وتحفيزهم المتواصل لي. والى زوجي لصبره ومشاركته لي في أثناء قيامي بالبحث والدراسة، فأرجو أنْ اكون مدعاة لفخرهم ولأولادي كامل وعمر.

ملخص الرسالة:

تناول موضوع الرسالة الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس، في الفترة الواقعة ما بين عامي 1312م و 1340م، ودراستها كوحدة معمارية متكاملة تمَّ تحليلها معمارياً وزخرفياً، لبيان علاقة هذه المنشآت بعضها ببعض وماهية التركيب الفراغي فيما بينها، وربْطِها مع محيطها وعلاقتها كمخطط تفصيلي مع المخطط العام للمدينة، لما لها من أهمية في الإضافة على المخطط الهيكلي لمدينة القدس القديمة، وتطوير مفهوم المخطط الحضري لها، بالإضافة الى الأهمية التاريخية والأثرية والطراز المعماري المتميز لهذه المنشآت. والتي ساهمت في إظهار طابع معماري إسلامي في العصر المملوكي الذي وُصف بالعصر الذهبي في فن العمارة والبناء.

وتكمُن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على جانب من جوانب العمارة المملوكية التي كان لها أثرها في اضافة نموذج تخطيط جديد لمدينة القدس وتطوير المخطط العام للمدينة من خلال الأعمال المعمارية للأمير سيف الدين تنكز الناصري، حيث كان له دوراً بارزاً في تطوير النسيج الحضري للمدن من خلال الحفاظ على إرثها المعماري وتطوير الأماكن الدينية الواقعة ضمن حدود سلطته خلال فترة توليه منصب النيابة، خاصة مدينة القدس لمركزها الديني وأهميتها الحضارية. فعمل على تطوير الفكر المعماري في تخطيط المدينة، من خلال طرحه لنظام المجمعات المعمارية كأسلوب في التخطيط ودمجه مع نسيج المخطط الحضري المتماسك للمدينة.

وقد هدفت الدراسة الى بيان أهمية الجانب العمراني لمدينة القدس في تلك الفترة، وابراز جميع مناحي اسلوب الأمير تنكز في التخطيط والتطوير الحضري، خاصة وأنَّ جميع الدراسات والأبحاث التي تطرقت الى ذكر الأمير تنكز سواء من الناحية الاجتماعية أو انجازاته المعمارية، لم يتم فيها التطرق الى جانب أعماله المعمارية بشكل مُفَصَّلْ، بالرغم من مدى التأثيرالإيجابي الذي خلَّفه نمط مخطط مجمعه المعماري على محيط منطقة المسجد الأقصى المبارك، بالإضافة الى المخطط العام للمدينة. فإنَّ الأمير تنكز استطاع تنفيذ مخططه ضمن خطةٍ مدروسةٍ وتسلسلٍ زمني ومكاني محدد من خلال اتباعه منهجية معينة كان اساسها تقسيم تنفيذ المشروع الى مرحلتين: الاولى اتسمت بإنشاء مباني ذات طابع ديني، كالمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة والمطهرة.
والمرحلة الثانية اتسمت بطابعها التجاري، واشتملت على حمّاميّ الشفا والعين وخان تنكز وسوق القطانين. وارتبطت هذه المرحلة بالمرحلة الاولى من خلال أنَّ العائد المادي لهذه المباني يُنْتَفَع بها في التجديد والاعتناء بمباني المرحلة الاولى والحفاظ عليها لاستمرارية أداءها لوظائفها.

وللوصول الى دراسة متكاملة فقد تمَّ الاستناد في منهج وخطوات الرسالة على مناهج البحث العلمي كالمنهج الوصفي من خلال متابعة الوصف التاريخي والمعماري للمواضيع المتعلقة بالأمير تنكز

واعماله، والتي قد تضمنتها المصادر والمراجع التاريخية المختلفة والمخطوطات بالاضافة الى الكتب الخاصة بالعمارة والفنون والوثائق والسجلات الرسمية، كالوقفية التي وضعها الأمير ووضحت معلومات هامة عن منشآت دينية وخيرية واجتماعية وتعاملات مختلفة تمت في تلك الفترة. كما اعتُمِدَ المنهج التحليلي في الرسالة من خلال دراسة المخططات المعمارية لعمائر تنكز والبحث في الدوافع وراء انشاءها، وعلاقتها مع بعضها ومع الحيز الذي أُنشأت فيه. حيث أنها وإنْ شكلت مجمعاً معمارياً إلا أنَّ دراسة التخطيط الحضري والعلاقة التي تربط هذه المباني مع بعضها البعض لم يتم دراسته سابقاً، فهل كان فضاءً فراغياً أم ابنية تمَّ ازالتها أو البناء فوقها، وما الرؤية التي امتلكها الأمير تنكز واراد تحقيقها من خلال عمائره وعلاقتها مع المكان واسلوب تخطيطها. ثمَّ اجراء الدراسة التحليلية لعمائر تنكز خارج نطاق مدينة القدس، واجراء المقارنات مع عمائره في المدينة، لاستنباط النتائج والوصول الى اتمام دراسة شاملة لأعمال الأمير تنكز في مدينة القدس.

وبالتالي فإنَّ الدراسة قد خلُصَتْ الى بيان أهمية ربط أعمال الأمير تنكز ضمن مجمع التنكزية وطرح الأسباب والدوافع المقترحة وراء تبني الأمير لفكرة انشاء مجمع معماري في القدس، والمنهجية الشاملة التي اتبعها في تنفيذه، وتطبيقه لذلك من خلال اقامته لمنطقة خدمات متكاملة ضمن مجمعه يوفر من خلالها حلولاً حضريةً وعمليةً لكافة فئات المجتمع، خاصة وأنَّ المدينة كانت مركز استقطاب للعديد من الحجاج والتجار وطالبي العلم والزائرين، بالإضافة الى سكان المدينة. فاستطاع بذلك ربط الأبنية مع بعضها فراغياً ومادياً ووظيفياً، ورَبْطِهَا جميعها ككتلة واحدة مع رمز المكان الديني بقربها من المسجد الأقصى المبارك. بالاضافة الى توحيد العناصر المعمارية والزخرفية التي شُكلت منها عمائره مع انجازاته المعمارية المختلفة في مدن وبلدان اخرى، بحيث طُبعت جميعها بصبغة موحدة جعلت من أعمال الأمير تنكز المعمارية شواهد لبراعة منهجية تخطيطه ورؤيته الثاقبة في الإضافة على المخططات الحضرية للمدن الى جانب ابرازه للجوانب المختلفة للفِكر الهندسي المملوكي.

The Architectural Works of Al-Amir Tankiz Al-Nasiri in Jerusalem city
Historical and Architectural study

Prepared by: Nadine Muhib Afif Toukan
Supervised by: Dr. Marwan Abu Khalaf

Abstract:

The Thesis addresses the architectural works of Al-Amir Tankiz Al-Nasiri in Jerusalem, in the period between 1312 A.D. and 1340 A.D., where these works are studied as an integrated architectural unit, analyzed architecturally and decoratively to show the connection between the structures and the composition of the surrounding space between them, highlighting its importance to the overall structural plan of the city and its urban planning development concept in relation to the historical, archeological and architectural style importance of these outstanding structures. These works illustrated the Islamic architecture that was formed with the influence of functional intent, as well as the social factor in terms of certain traditions and beliefs namely the Islamic faith. The Mamluk dynasty, highlighted a new stage in the history of architecture of cities, preserving the Islamic characteristics, which made the Mamluk era worthy of what was considered to be the golden age in the art of architecture.

The significance of this study that it emphasizes the main aspect of the Mamluk architecture which had an impact on introducing a new planning form to the layout of Jerusalem city and to the improvement of its general plan through the architectural works of Al-Amir Saif Eddin Tankiz Al-Nasiri. Therefore, he had a significant and active role in the Mamluk era, through his urban planning, preservation of its' architectural heritage and the development of religious places located within the limits of his authority especially the city of Jerusalem for its religious and cultural significance. Tankiz was able to introduce a new planning concept with his systematic architectural complex and combine it with the cohesive urban plan of the city.

The study aimed to establish the importance of Al-Amir Tankiz's technique towards the city planning development of Jerusalem, particularly when all the other studies and researches which addressed Al-Amir Tankiz both in terms of social or architectural achievements did not introduce his design work in details. Eventhough, his architectural complex pattern had its positive impact on the surrounding area of Al-Aqsa mosque as well as to the general plan of the city.

Following certain methodology, Tankiz was able to implement his plan effectively and efficiently dividing his project into two phases: the first, was characterized by establishing buildings of religious theme (Al-Tankaziyya, Ribat Al-Nisa', the Bab al-Silsila Minaret and the Mathara). The second phase consisted of commercial buildings (Al-Shifa and Al-Ain bathhouses, Khan Tankiz and Suq Al-Qattanin). Tankiz idea was to employ the

financial return of the second phase buildings to the renovation of the first phase structures to ensure the continuity of their functioning.

The study undertook a scientific research methodology which was based on a descriptive methodology; research made on all historical and architectural writings (manuscripts, historical references, Architectural books, official documents (Alwaqfieh) related to Al-Amir Tankiz works. An analytical methodology; studying the architectural plans of Tankiz's structure, his vision and purpose of his project, the site archeology, its space planning and the relation between the buildings which form a COMPLEX. As well, making comparison in his designs throughout his architectural projects in the region.

In conclusion, the study emphasizes on the new concept developed by Tankiz having an integrated services area within a compound; linking structures to become one functional complex, of which provides practical urban solutions for all segments of society, especially since the city was a center of attraction and frequently visited by many pilgrims, traders, learners and visitors, as well as the city's residents.
He was able to link the buildings within one space, physically and functionally to become a singular bloc in contiguity with Al-Aqsa Mosque. He also linked these building structures by unifying the architectural and decorative elements which also formed his various architectural achievements in different cities in other countries, and this standardized his scheme. Which conclude that Al-Amir Tankiz's architectural work is considered evidence of his exceptional systematic planning and his vision in the adding up to the urban planning of cities as well as highlighting the different aspects of the Mamluk architectural concepts.

المقدمة:

القدس، أرض الحضارات المختلفة، والمعرض الإبداعي الحي الذي كشف عن طبيعة تفكير الشعوب التي مرّت بها، والتي ساهمت في التطور الحضاري والمعماري الذي وصلت إليه. فلقد واكبت مدينة القدس مختلف جوانب الحياة الدينية والسياسية والإجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية لأمم متعددة، حيث شكلت أرضها قاعدةً رئيسة لأمم عديدة منذ ما قبل الاسلام لبناء حضاراتها عليها. حيث كان للموقع الجغرافي لمدن بلاد الشام عامةً ومدينة القدس خاصةً بوقوعها بين بلدان الشرق والغرب، الأثر الأكبر في أطماع امبراطوريات للسيطرة عليها. فقدّمت الإمبراطوريات اليونانية والرومانية والبيزنطية ثقافاتها المعمارية من خلال صروح ضخمة، هدفت من خلالها الى إرساء مفهوم القوة لتدعيم سيطرتها على هذه المناطق.

ومع ظهور الاسلام شكلت الحضارة العربية الإسلامية على مدى العصور منذ العصر الأموي حتى العصر العثماني الطابع المعماري المتميز في مدينة القدس، حيث جعلت هذه الحضارة من المدينة مقصداً للعلم والعلماء ومنارةً ثقافيةً تُرَسِخُ أساساً لبناء الحضارة والسلام، على عكس الحضارات الأخرى السابقة التي اتخذت من المدينة مسرحاً للنزاعات والعدوان بغية السيطرة. وقد تم إنشاء عمارة متميزة بنسبها المعمارية المتقنة وزخارفها الرائعة، وكان لعاملين طبيعيين اساسيين الأثر في ذلك، أولاً العامل الجغرافي من حيث طبيعة مناخ منطقة البحر الأبيض المتوسط عامةً والقدس خاصةً، وثانياً العامل الطوبوغرافي حيث تتميز المنطقة بطوبوغرافية جبلية. فقد اعتُمِدَ الشكل المكعب البسيط في العمارة والذي اصبح الشكل المهيمن للعمارة الاسلامية، حيث يُوفر واجهات بفتحات قليلة وصغيرة من الخارج تضمن الخصوصية الإجتماعية، وصحن داخلي مفتوح يوفر الإنارة والتوزيع الحراري المناسب، وتم التكيف مع هذا الشكل للتأقلم مع العوامل الطبيعية الأساسية المؤثرة فيه، من خلال التوزيع الوظيفي المتناغم للمساحات والحدّ من امكانية سيطرة الملل والجمود على الواجهات من خلال التنوع في الزخارف المستخدمة، كما وساعدت طوبوغرافية المنطقة من هذا الحدّ حيث أوجدت انسيابية في توزيع الكتل المعمارية بشكل متوازن مع المنحدرات.

ومن العمارة التي تميزت على مدى العصور الاسلامية بناء قبة الصخرة المشرفة في العصر الأموي والتي لا يمكن تجاهل وصفها في أي من كتب التاريخ والعمارة والآثار والفن، كما وبناء المدرسة الصلاحية والمدرسة التنكزية والمدرسة الأشرفية وسوق القطانين وتكية خاصكي سلطان....الخ، في العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية.

ولقد غدا عصر سلاطين المماليك بفترة العصور الاسلامية المتأخرة في 1250م في تمثيل مرحلة جديدة في تاريخ مدينة القدس، حيث استطاع المماليك السيطرة على الحكم ونزع السلطة من ايدي

الأيوبيين من خلال احترافهم العسكري واحترامهم النظام وتمسكهم بالإسلام كعقيدة، بالرغم من أصولهم غير الإسلامية، إلا أنه قد تمَّ تعليمهم الدين الاسلامي في منشآت اسلامية، فأظهروا انتمائهم الكامل للدين الاسلامي على مدى فترة حكمهم الممتدة لنحو 267 عاماً، الأمر الذي أثّر في قيام دولتهم على اساس الدفاع عن الكيان الإسلامي وجَعَلَ مبدأ سياستهم من شقين حربي وديني، هذا الأمر الذي جعل المدينة تنعم بالأمن والاستقرار من خلال قوتهم العسكرية، وتشهد الثراء والازدهار.

وبالتالي فإن السياسة الدينية لدى السلاطين والأمراء المماليك قد انعكست على إبراز اهتمامهم بين كافة المسلمين بمدينة القدس ومؤسساتها الدينية والاجتماعية والخيرية، لوعيهم بمكانتها الدينية وخصوصيتها المقدسة عند عموم المسلمين، فعملوا على إنشاء وتعمير العديد من المنشآت المختلفة من أماكن الإقامة (الخانات) والخانقاوات للمتصوفين وأماكن الدراسة والعبادة. فأنشأوا المدارس من أجل ترسيخ المكانة الدينية للمدينة، والأسواق التي تضمنت على العديد من المحال التجارية بالإضافة الى أماكن للسكن، والحمّامات للراحة والمآذن والأسبلة والأضرحة....الخ. ولم يتوانوا في اقتطاع جزء من ثرواتهم الضخمة في سبيل رعاية مقدسات المسلمين والعناية بالمؤسسات العلمية والخيرية، من أجل ظهورهم دائماً في صورة رعاة الدين القائمين على خدمته، وتوفير الحياة الجيدة بشتى مجالاتها في المدينة. ولم يقتصر اهتمامهم على المؤسسات الدينية الاسلامية فحسب، بل إن الطوائف المسيحية تمتعت بالحرية الدينية في المدينة، وقاموا بترميم واصلاح مؤسساتهم الدينية.

ومن منطلق حرص سلاطين المماليك في انشاء عمائر ترسخ غايتهم في اظهار مكانة مدينة القدس، فقد أبدعوا في تصاميم العمارة، سواء من الداخل أو الواجهات الخارجية، والتي شكلت طرازاً معمارياً يُحتذى به. وأصبح للعصر المملوكي الدور البارز في تشكيل الطابع المعماري لمدينة القدس، بما طبعه من طرازٍ متميزٍ وتحفٍ معماريةٍ شامخةٍ الى يومنا، تشهد بأصالة هذا العصر، وبعمق الفكر المعماري المنقطع النظير، الذي هدف الى إنشاء عمائر وتركيب فراغاتها الداخلية وعلاقتها مع بعضها البعض بشكل يخدم هدفها الوظيفي، وتزخر بالزخارف الراقية المتنوعة، مما جعلها تحاكي الوظيفتين الإنشائية والجمالية في آنٍ واحد. فاستخدام الإيوانات في التخطيط المحوري للمدارس، واستخدام القباب، كما التصميم المتوازن للمآذن وتحديد مستوياتها بواسطة الزخارف الخارجية، حقق الهدف الوظيفي والجمالي بشكل متناغم. وبالرغم من اختلاف الوظيفة الداخلية للمباني، إلا أنه بالإمكان تمييز عناصر موحدة تميز واجهات العمارة المملوكية. فقد جاءت معظم المباني المملوكية ملاصقة لبعضها البعض، على طول المحاور المطلة عليها وبالقرب من منطقة الحرم القدسي، بالتالي شكلت أهمية في بعدها الثنائي، حيث أن الواجهة الأمامية للمبنى هي فقط الظاهرة، وعكست هذه الواجهات الغنية بالعناصر المتميزة من اطار الواجهة والمقرنصات

والأدراج والمكسلتين والمصبّعات الحديدية وغيرها، اسلوباً راقياً وفرضت ارتفاعات هذه الواجهات عظمة ومهابة للمباني، وأرست اساساً راسخاً في الفن المعماري.

ويُمكننا متابعة وملاحظة ذلك في المباني التي أُنشِئَت خلال فترة حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطان المملوكي في مصر ونائبه على بلاد الشام الأمير سيف الدين تنكز الناصري في الفترة الواقعة ما بين عامي 1312م و 1340م، حيث تُعتبر المرحلة الزمنية التي تمت فيها نيابة الأمير تنكز على بلاد الشام عامة ومدينة القدس خاصة، من المراحل المتميزة في العصر المملوكي، حيث عُنِيَ الأمير بتطوير المدينة وذلك لأهميتها الدينية، فسعى الى اقامة منطقة خدمات متكاملة يُعزز من خلالها المكانة الدينية للمدينة كما ويحقق مكانة اقتصادية وخيرية واجتماعية وثقافية لها. فعمل على تعمير واعادة استخدام العديد من المنشآت المعمارية كالأسواق والخانات والمدارس والمآذن والحمّامات، وتُعتبر هذه المنشآت كاملة على اختلاف وظائفها معالماً معماريةً وأثريةً في مدينة القدس، وتحفاً معماريةً يُشار إليها بالعظمة والدقة على المستويين المعماري والفني حتى يومنا هذا.

ومن خلال تعقُب المنشآت المعمارية في القدس، يتبين أنه قد تم إنشاء العديد من العمائر المملوكية على فترات متعاقبة لحكم السلاطين المماليك والأمراء في مختلف مناطق المدينة، من مدارس وخانات وحمّامات،...الخ. ولكن تُعد أعمال الأمير تنكز اعمالاً متميزة ومتفردة، حيث أنها ارتبطت جميعها ضمن نطاق مساحة واحدة والتي من خلالها كان للأمير دوراً بارزاً في التأثير على تخطيط مدينة القدس ومخططها العام، من خلال طرحه لنظام المجمعات المعمارية كاسلوب في التخطيط ودمجه مع نسيج المخطط الحضري للمدينة. وستتناول هذه الرسالة موضوع دراسة هذا المجمع المعماري كوحدة معمارية متكاملة من خلال التخطيط الحضري للمنطقة الواقع فيها، وابراز المنشآت الواقعة ضمن المجمع وتحليلها معمارياً وزخرفياً، ووضع هذه المعلومات عن عمائر تنكز في مجموعة خاصة لما لها من اهمية تاريخية أثرية وطرازٍ معماري متميزٍ.

وقد تمَّ تقسيم الدراسة الى الفصول التالية:

الفصل الأول: تطرق في هذا الفصل للحديث عن نشأة المماليك تاريخياً (أصولهم، تقسيم عهدهم، البعض من أبرز سلاطينهم وعوامل ضعف دولتهم) ثمَّ تطورهم العمراني.

الفصل الثاني: تناول هذا الفصل الجوانب الادارية المملوكية لبلاد الشام، من خلال الحديث عن التقسيمات الادارية (النيابات) فيها، والوضع الاداري لمدينة القدس كما الجوانب المختلفة للحياة الثقافية فيها.

الفصل الثالث: تطرق هذا الفصل للمحة عن حياة الأمير تنكز من جوانبها المختلفة (كنشأته، صفاته، القابه وأهم اعماله...)، ثمَّ الحديث عن انجازات الأمير المعمارية ضمن مجمعه المعماري ذات الأثر البارز في التطور المعماري للنسيج الحضري لمدينة القدس.

الفصل الرابع: تناول هذا الفصل العناصر المعمارية والزخرفية لعمائر تنكز، كما والمواد المستخدمة في البناء. وتمَّ اعتماد معظم هذا الفصل على المشاهدة والوصف.

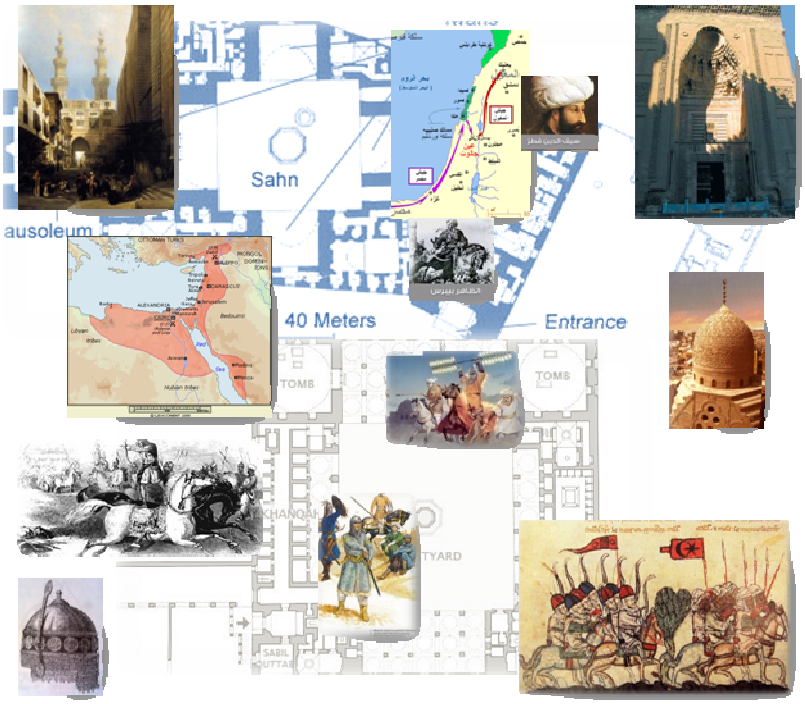
الفصل الخامس: تمَّ الحديث عن الأعمال المعمارية للأمير في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من خلال تحليلها معمارياً وزخرفياً.

فأرجو الوصول الى اتمام دراسة شاملة لأعمال الأمير تنكز في مدينة القدس، والتي آمل من خلالها أنْ اكون بتوفيق من الله قد ساهمت مع الجهود العلمية التي بُذِلَت في سبيل توثيق واظهار المعلومات القيمة لهذه العمائر، مع اضافة مجهود متواضع في عرضها بمضمون جديد وكدراسة متكاملة عن أعمال الأمير تنكز التي جمعت ما بين الآثار والتخطيط والعمارة والفنون، وجَعْلِها منفعة للجميع.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

نشأة المماليك وتطورهم العمراني



الفصل الأول

نشأة المماليك وتطورهم العمراني

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول الحديث عن نشأة المماليك تاريخياً من خلال التطرق الى أصولهم وسلاطينهم ثم عوامل ضعفهم وانهيارهم. أما القسم الثاني فيتناول موضوع العمران في العهد المملوكي بشكل عام، موضحاً قِوام هذه النهضة العمرانية وما انبثق عنها من انشاء مختلف الطرز المعمارية، بالإضافة الى الوصف البسيط لبعض أبرز الانجازات المعمارية في تاريخ هذه الدولة، وما امتازت به من مميزات.

1.1 نشأة المماليك:

1.1.1 أصلهم: هم أقواماً من الأتراك والشراكس أو الجراكس الذين كانوا يؤخذون أسرى في الحروب أو يُفتدون من التتار أو يتم شراؤهم للخدمة في الجيش ويُجلبون الى البلاد الإسلامية[1]، أو يُقدموا كهدية للسلطان. وأصل الكلمة في اللغة العربية يعود الى الفعل مَلَكَ، ومملوك اسم مفعوله ويُقصد به الرقيق الأبيض، حيث كان يتم شرائهم واستملاكهم، فأُطلقت عليهم هذه الصفة والمُسمى[2] . ولكن لا يمكن الخلط بين هذه التسمية وكلمة " عبد "، الذي يتم شراؤه للقيام بمهام متدنية الأهمية، وغالباً يكون أسمر اللون، أما التعريف بالمملوك فهو الفرد الذي يتم المتاجرة به قبل أن يصل سن النضج ويكون من خارج حدود الدولة الإسلامية، ليتم تربيته ولينشأ نشأة اسلامية، وتكون خدمته في الجيش أو في بلاط السلطان، ويُشكل هو والمماليك الآخرين قوة اساسية للسلطان أو الحاكم[3]. ولكن مع مرور الزمن أصبح هذا الوصف لا يتناسب بتعريف المماليك لعظمة قوتهم وحنكتهم وانجازاتهم العسكرية والثروة العمرانية التي خلّفوها من بعدهم[4].

---

[1]. Atil, Renaissance of Islam, p.12 ؛ الموسوعة الفلسطينية، مج4 طب1، 1984، ص290

[2]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص1.

[3] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem p.53.

[4]. حميد، فلسطين التاريخية، الأرض الانسان الحضارة ص341 .

في بادئ الأمر كان يتم شراء المماليك من قبائل تركية فقط من آسيا الوسطى ولاحقاً من آسيا الغربية. وكانوا جميعاً من اصل غير مسلم وذلك تماشياً مع عقيدة الاسلام بمنع اقتناء خدم من المسلمين. ومن بداية نشأتهم يتم تدريبهم فن القتال والفروسية الى جانب التعليم الأساسي، ثم يتم اختيار الصفوة منهم ليكونوا المرافقين والخدم الشخصي للسلطان، فشكلوا الحرس المملوكي على مدى العصور وتباعاً الدولة المملوكية. وبسبب بعدهم عن موطنهم الأصلي وعن عائلاتهم كانوا موالين تماماً للسلطان، الذي كان بدوره يعطيهم حريتهم ويكسبهم القوة، خاصة البارزين منهم[1].

وكان أول من استخدمهم هم الخلفاء العباسيون الذين اكثروا من شراء المماليك لدعم قوتهم وسلطتهم خشية من نفوذ الفرس، كما أنه عند بدء تفكك الدولة العباسية ورغبة الحكام في الاستقلال بولاياتهم، دفعهم الى شراء المماليك ليشكلوا جيشاً يحقق لكل منهم رغباته ومطامعه. وكانت مصر من بين هذه الولايات التي شهدت ازدياد في أعداد المماليك من الأتراك والديلم[2]، خاصة من قِبَل خلفاء الدولة الفاطمية الأواخر في وقت لاحق.

حتى قيام الدولة الأيوبية التي اشتهرت بعظمتها وقوتها وسطوتها وازدياد جموع المماليك فيها، حيث اتخذ السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب والذي قضى على الدولة الفاطمية، عسكره من الأكراد والأتراك خاصة، وأزال الأجناس الأخرى. إلا أنَّ الإنقسام الداخلي الذي شهدته الدولة الأيوبية في بدايات القرن الثاني عشر الميلادي عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي عام 1193م[3]، والأخطار الخارجية التي تعرضت لها من قِبل القوى الصليبية والخوارزمية والمغولية، وتحالفها مع السلاطين الأيوبيين في بعض الأحيان من أجل تحقيق مكاسب سياسية، جعل من أمر النزاعات على الحكم بين الأمراء الأيوبيين من أولوياتهم، وأدى ذلك الى إضعاف وحدة الدولة الأيوبية وانتشار الفوضى في مصر وبلاد الشام، خاصة بعد وفاة السلطان الكامل ملك مصر في 635هـ/ 1238م، حيث كان بوفاته بداية لتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها. الأمر الذي دفع بالأمراء الأيوبيين الى الإكثار من شراء المماليك وتدريبهم ليشكلوا منهم فرقاً عسكرية خاصة وقوة وسنداً لهم في صراعاتهم القائمة. وكان من بينهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (ابن الكامل) الذي أسس هذه المجموعة من المماليك بعد توليه الحكم على دمشق في 636هـ/ 1239م ليشكلوا نظاماً عسكرياً، حيث دخل في صراعات داخلية ضدَّ أخيه السلطان العادل وأمراء آخرين للهيمنة على الحكم، فكان في حاجة الى جيش قوي يسانده ويساعده في دحر المؤامرات على السلطنة،

---

[1] . Auld, S, J. Palestine Exploration Quarterly, pp. 85-87; Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.3-5; Atil, Renaissance of Islam, p.12.

[2]. الديلم: هي المنطقة الجبلية من بلاد جيلان، والواقعة في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وقد نُسِبَ إليها سكانها فعُرفوا بالديلم أو الديالمة. (المقريزي، السلوك ج1 قسم1 ، ص23، حاشية 1)

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج1، ص94؛ عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص1-3 .

واستطاع بعد ذلك من دخول القاهرة سلطاناًعليها لمدة عشر سنوات من 637هـ – 647هـ/ 1240م– 1249م[1]. إلا أنه بوفاته ازداد نفوذ المماليك بقوتهم وعددهم واصبحوا يدبروا المؤامرات ضدَّ الأمراء، فكان لهم الرأي في عزل أو تعيين الأمراء تبعاً لمصالحهم الشخصية. وقد امتاز المماليك بالقوة والشجاعة والمنظر الحسن والبشرة البيضاء اللون، وبسبب تربيتهم العسكرية كان مفهومهم لأحقية اعتلاء الحكم تقوم على اساس الشجاعة والذكاء وليس على اساس الوراثة، فاستطاعوا الوصول الى حكم مصر في 1250م بعد الخلاف بينهم وبين الملك المعظم غيّاث الدين توران شاه (ابن الملك نجم الدين ايوب)، الذي أُعلن عنه سلطاناً في دمشق وهو في طريقه الى مصر، بعد النصر الكبير الذي حققه المماليك ضدّ الحملة العسكرية للصليبيين بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع في فارسكور قرب دمياط في مصر. وقد شكلّ هذا الانتصار للمماليك احساساً بتفوقهم وازدياداً لقوتهم، فتنبه الملك الى محاولتهم الاستيلاء على السلطة والغدر به مما أدى الى توتر علاقته معهم، وازداد استياء المماليك منه خاصة بعد انشغاله باللهو وسوء ادارته للمُلك، فلم يستغل النصر الذي تحقق لتأكيد بسط نفوذه على مصر إنما كان يفتقر الى الحنكة السياسية وغير مكترث بأمور الدولة الأيوبية في مصر.

فاتفقوا على قتله وبتأييد من زوجة أبيه شجرة الدّر تمّ ذلك[2]، حيث مات في فارسكور وسقط في مياه النيل بعد أن دامت مدة ملكه واحد وسبعون يوماً. بالتالي انتهى حكم الدولة الأيوبية على مصر بعد حكم دام واحداً وثمانين عاماً من 567هـ – 648هـ/ 1169م–1250م، واصبحت السيطرة لقوة المماليك البحرية[3]. إلا أنّ هذا الأمر كان له ردة فعل لدى الأيوبيين في بلاد الشام، فتوجهوا الى مصر للقضاء على القوة المملوكية الناشئة، وحدثت صدامات كثيرة أسفرت في نهايتها الى عقد معاهدة سنة 651هـ/ 1253م، بموجبها تم الاتفاق على الإعتراف بالدولة المملوكية الناشئة وأن تكون فلسطين بما فيها القدس حتى نهر الأردن للمماليك، أما الأجزاء الشمالية لبلاد الشام فتبقى في أيدي الأيوبيين تحت حكم الملك الناصريوسف بن أيوب حاكم دمشق والملك المغيث عمر حاكم الكرك.

إلا أنّ بلاد الشام استمرت في معاناة الفوضى والقلق في عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي، واستمر الصراع بين أيوبية الشام ومماليك مصر حتى عام 1259م حين اشتد الخطر التتاري على الدول الأيوبية، فما كان من الملك الناصر يوسف إلا طلب العون من المماليك لمجابهة القوة التترية. فخرج سلطان المماليك قطز لمواجهة قوات التتار والتقى الطرفان في عام 1260م والذي شهد

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص10–11.

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص20–22 ؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص188–189.

[3]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، قسم2، ص360–361.

موقعة عين جالوت ونقطة تحول حاسمة في الصراع ضدّ الصليبيين والتتار حين نالت القوات المملوكية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري النصر في المعركة[1]. وهكذا استطاعت حينها القوة الناشئة لدولة المماليك في مصر تحقيق الامن والاستقرار من خلال السيطرة على بلاد الشام وطرد بقايا الصليبيين منها. فامتد حكم المماليك لمصر وبلاد الشام مدة قرن ونصف من الزمن بين عامي 648هـ –922هـ/ 1250م– 1517م[2]، وفي أثناء سلطتهم الحاكمة استمروا في خلالها بجلب المزيد من المماليك الى مصر من أصول مختلفة سواء من الصقالبة أو اليونانيين أو الاسبان أو الألمان وتربيتهم وتدريبهم، وقام المماليك بدورهم في خدمة اسيادهم والدفاع عنهم، حتى ضعف دولتهم وازالة نفوذها على يد العثمانيين[3].

وقد قُسِّم عهدهم الى قسمين:-

1. عهد المماليك الأتراك أو المماليك البحرية 648هـ – 784هـ/ 1250م– 1382م
2. عهد المماليك الجراكسة أو المماليك البرجية 784هـ – 922هـ/ 1382م– 1517م

1.1.2 المماليك الأتراك أو البحرية:-

يُعد المماليك الأتراك من جند الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب، معظمهم من بلاد القَبْجَاق[4] وبلاد القوقاز قرب بحر قزوين. كان عددهم حوالي سبعمائة وخمسون الى ثمانمائة مملوك، وكانوا موالين تماماً للملك، فعظمت مكانتهم عنده وجعل منهم أمراء لدولته، وسمَّاهم المماليك البحرية لأنه قد بنى لهم واسكنهم معه قلعة الروضة على جزيرة الروضة وسط النيل في مصر[5]. وقد يكون هناك سبب آخر لهذه التسمية ولكنه غير مرجح، هو أنَّ هؤلاء المماليك كان يتم جلبهم عن طريق البحر بصحبة التجار ولذلك سُمّوا بالبحرية[6]، فعُرفت هذه الفرقة بالبحرية الصالحية، وكان أمراؤهم هم الذين اسسوا الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام[7].وقد انقسموا لاحقاً الى المماليك الظاهرية اتباع الظاهر بيبرس والمماليك الأشرفية اتباع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

---

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ص394–396.

[2]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص305.

[3]. الزيدي، العصر المملوكي، ص21.

[4]. القَبْجَاق: يُعَد القَبْجَاق فرع من الترك الذين تعود اصولهم الى حوض نهر إرتش، وتنقلوا الى أن استقروا بحوض نهر إتل(الفلجا) في جنوب روسيا، فعُرفت تلك المنطقة بالقَبْجَاق، كما عُرفت به دولة المغول المعروفة باسم القبيلة الذهبية.(المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 قسم3 ص663).

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2 ص236؛ عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص176–177.

[6]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص5.

[7] .Atil, Renaissance of Islam, p.12.

كان من أبرز سلاطينهم:-

أ. **الملكة عصمة الدين الصالحية الملقبة بشجرة الدُّر وأم خليل،** كما عُرفت باسم المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل[1]. كانت في الأصل جارية تركية ويُقال أرمنية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب وحظيت بمكانة عالية عنده فتزوجها، وانجبت منه ابنهما خليل الذي مات وهو صغير. ويُنسب تلقيبها بالمستعصمية الى أنها كانت جارية للخليفة العباسي في بغداد المستعصم قبل أن يشتريها الملك الصالح أيوب[2]. إلا أنها بعد وفاة الملك وبتآمرها مع المماليك البحرية لقتل ابنه توران شاه استطاعت الوصول الى حكم مصر واصبحت سيدة البلاد في عام 648هـ - 1250م، وتم اقامة الأمير عزالدين أيبك التركماني الصالحي على رأس جيشها[3]. إلا أنَّ تنصيب شجرة الدُّر على مصر لم يرضِ الخليفة العباسي المستعصم لإستنكاره بحكم امرأة للبلاد[4]، كما لم يُرضِ أيوبي بلاد الشام وواجهه الأمراء في الشام برفض تقديم الولاء لها، وبأنهم اصحاب الحق الشرعي في حكم مصر، فاتفقوا على مواجهة المماليك في الشام وفي مصر. فأدرك المماليك في مصر الخطر الذي يهدد سلطتهم بعدم اعتراف أمراء الشام بحكمهم، فاقترحوا زواج شجرة الدُّر من الأمير أتابك[5] العساكر عزالدين أيبك، وتم ذلك في عام 648هـ - 1250م، وتخلت له شجرة الدُّر عن السلطة بعد أن حكمت ما يُقارب الثمانين يوماً، فأصبح زوجها ملكاً وراح يُدعى الملك المعز عزالدين أيبك الجاشنكير التركماني[6].

ب. **السلطان الملك المعز عزالدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي،** تركي الأصل، اسمه أيبك وهو اسم تركي مُرَّكب من لفظين وهما "أي" بمعنى القمر و"بك" بمعنى أمير. لُقب بالصالحي النجمي حيث كان من حرس الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي أحضره من أولاد التركماني فعُرف بذلك بالتركماني، وأصل أولاد التركماني يعود الى بلاد التركمان مع أنهم عرب غسانية، فنُسبوا الى غسان كما نُسبوا الى التركمان، وقد أتوا الى بغداد كما سكنوا اليمن[7]. لقد ارتفع شأنه عند الملك الصالح فنصّبه من أمراءه برتبة جاشنكيره فعُرف بالجاشنكير أي ذوّاق طعام السلطان،

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص21-22.

[2]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 قسم 2، ص361-362.

[3]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص197 ؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص189.

[4] .Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.8

[5]. اتابك: لقب من زمن السلاجقة مكون من لفظين، أتا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، أي الأمير الوالد، درج بهذا المعنى للشخص المسؤول عن تربية اولاد الملوك وتعليمهم، ثم أصبح يدل في العصرين الأيوبي والمملوكي على قائد العسكر. (بن تغرى بردى، المنهل الصافي، ج1،ص7،حاشية6؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص35).

[6]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص237 ؛ الزيدي، المصدر السابق، ص22-23.

[7]. المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 قسم2، ص368؛ بن تغرى بردى، المنهل الصافي،ج1،ص5-6.

حيث يقوم بتذوق الطعام قبل السلطان تحسُباً من أن يكون قد دُسَّ فيه السم، وله رنكة أي شعار تتناسب وهذا المنصب وهي صورة مائدة[1].

بعد وفاة الملك الصالح أيوب ومقتل ابنه الملك توران شاه، تنصّب الأمير أيبك أتابك العساكر أي مقدم العسكر في السلطنة مع شجرة الدُّر وقد عُرف حينها بين أمراءه بالدين والكرم والرأي السديد، تزوج من شجرة الدُّر لاحقاً وأقيم ملكاً على مصر. إلا أنَّ أمراء بلاد الشام اتفقوا على تنصيب واحد من بني أيوب ليشارك في السلطنة وذلك لتخوفهم من الملك المعز أيبك، فأجمعوا على إقامة الأشرف مظفر الدين موسى بن أيوب ملكاً، إلا أنه لم يكن له سوى اللقب في شراكة الملك وذلك لصغر سنه حيث لم يتعدى العشرسنوات من العمر وأن يظهر اسمه مع الملك على التواقيع والمراسيم وينقش على السكة ويتم الخطبة لهما في المنابر، وكانت أمور الدولة جميعها تُدار من قِبَل الملك المعز أيبك[2]. حتى عام 650هـ – 1252م حين وصول خبر بحركة التتار على بغداد فألغى المعز اسم الأشرف من الخطبة وانفرد بالسلطنة وقام بالقبض على الأشرف وسجنه، فكان بالتالي آخر ملوك الأيوبيين في مصر[3].

امتدت مدة حكمه سبع سنوات استمرت في خلالها النزاعات بين الأيوبيين في بلاد الشام تحت حكم الملك الناصر يوسف بن أيوب والمماليك في مصر، إلى أن تم الاتفاق على الصلح عام 651هـ – 1253م بأمر من الخليفة العباسي المستعصم بالله، وذلك لتوحيد الجهود لمواجهة الخطر المغولي للعالم الاسلامي[4].

فقضى أيبك معظم ايامه في ساحات القتال في مصر وسوريا وفلسطين، وكان شجاعاً صارماً ظالماً سفاكاً للدماء حيث قتل العديد دون ذنب ليوقع مهابته بين الناس[5].

وفي خلال فترة حكمه واجهت زوجته شجرة الدُّر صعوبة في تركه يحكم بنفسه وشعرت بندم لتخليها عن السلطة، ففرضت قوتها عليه وهي التي عُرفت بشخصيتها القوية وسطوتها فاستبدت بالأمور السياسية وحاولت التخلص من زوجها فبادرت بالاتصال بالملك الناصر يوسف لإعلامه بنيتها التخلص من زوجها والزواج به فيصبح سلطاناً على مصر، ولكنه شعر بأن هذا قد يكون خديعة فامتنع عن الجواب. إلا أنه لم يمنع شجرة الدُّر من تنفيذ ما تريد خاصة بعد علمها بنية

---

[1]. الجَاشْنكِير: لقب مركب من لفظين فارسيين، الأول: جاشنا ومعناه الذَّوقْ، والثاني: كير بمعنى المتعاطي لذلك أو الذي يقوم بالتذوق.(القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، ص460)؛ بن تغرى بردى، المنهل الصافي،ج1، ص5، حاشية (3) و(4)؛ Palestine Exploration Quarterly, The Mamluks and the Venetians, p.87.

[2]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ص369–370؛ بن تغرى بردى، المصدر السابق، ج1، ص6–7.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2،ص237.

[4]. الزيدي، العصر المملوكي، ص23.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص238 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 قسم2، ص404.

زوجها من الزواج بأُخرى، فحرّضت الخدم على قتل المعز أيبك وساعدت في ذلك، مما أدى الى غضب مماليكه فتوجهوا الى شجرة الدُّر وقتلوها انتقاماً لسيدهم وكان ذلك في عام 655هـ – 1257م.

تولى من بعده المُلك ابنه السلطان الملك نورالدين علي بن أيبك وتلّقبَ بالمنصور. كان عمره خمسة عشر عاماً، ولصغر سنه عُيِّن الأمير سيف الدين قطز نائباً له ومدبراً لأمور الدولة، والذي قام بدوره بعزل الملك المنصور بعد أن دام حكمه سنتين وثمانية أشهر. ففي عام 656هـ – 1258م استولى المغول على عاصمة الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ودمروا وحرقوا، فشكلوا خطرا هدد بلاد الشام ومصر، رأى الأمير سيف الدين قطز الفرصة سانحة للسيطرة على الحكم، فخلع الملك المنصور عام 657هـ – 1259م واعتقله وأنهى حكمه، بحجة خوفه من الغزو المغولي وأن البلاد بحاجة الى سلطان قوي يقاتل العدو، ليس الى صبيٍّ يشغله اللعب ومستهتر بأمور الدولة، فانتقل له الحكم وأصبح الأمير سيف الدين قطز سلطاناً[1].

ج. **السلطان سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي، اسمه الأصلي محمود بن ممدود[2]**، عُرف بالمعزي لأنه من مماليك الملك المعز أيبك، هو من الخوارزميين فهو ابن أخت الملك خوارزم شاه، تم أسره في حروب التتار ثم احضاره الى مصر واشتراه الملك المعز أيبك، لُقب بالملك المظفر واتصف بالشدة والحزم[3].

شهد عام 658هـ –1260م معركة عين جالوت، حيث هدد الزحف المغولي بقيادة هولاكو بلاد الشام ومصربعد سيطرتهم على بغداد وزحفهم نحو حلب، مما دفع بالملك الناصر يوسف حاكم دمشق الى طلب العون من الملك قطز من مصر والمغيث عمر حاكم الكرك، إلا أنّ الملك الناصر قام بالفرار لشدة خوفه واضطرابه متجهاً نحو غزة، كما أنّ معظم الناس رحلوا وتركوا دمشق خالية[4]. واتجه المغول نحو دمشق بعد أخذ حلب، فقرر من بقي فيها من الناس تسليم المدينة الى هولاكو الذي قُرأت فرماناته بأمان أهل دمشق[5]. واستمر المغول بالزحف نحو بعلبك وغزة وبانياس، حينها أرسل هولاكو خطاباً الى الملك قطز في مصر يهدده ويطلب منه التسليم، مما دفع بالملك الى قطع رؤوس الرُسل وتعليقهم، ونادى بالخروج الى الجهاد في سبيل الله، وأمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بأن يسير وجيشه نحو غزة لاستطلاع أخبار التتار، فنزل بها ودفع

---

[1]. بن تغرى بردى، المنهل الصافي، ج1، ص11–14؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص24–25 ؛
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.9.

[2]. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج24، ص252 ؛ المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص435.

[3]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص198 ؛ Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 9

[4]. المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص419.

[5]. المقريزي، المصدر السابق، ص 423–424.

التتار الى الرحيل عنها فتملكها[1]. فأمره السلطان قطز بأن يتحرك باتجاه بيسان حيث وافاه عند عين الجالوت وهي بلدة صغيرة بين بيسان ونابلس في فلسطين، وبها دارت المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة الملك المظفر قطز والأمير بيبرس البندقداري وبين المغول بقيادة كتبغا نائباً عن هولاكو بحلب وبيدرا نائباً عنه بدمشق، حيث أن هولاكو قد اضطُر الى العودة الى آسيا الصغرى لوجود فتنة داخلية في بلاده بوفاة اخيه الخان الأعظم على جميع التتار، ووجود الطامعين في المُلك من أبناء بيت جنكزخان.

تقدم الملك المظفر قطز في طليعة العسكر لقتال المغول وأبلى بلاءً حسناً في المعركة التي انتهت بانكسار التتار وقَتْلْ كتبغا ومنَّ الله على المسلمين بالنصر. بعد انقضاء المعركة وورود الخبر الى دمشق بانهزام التتار فرّوا منها بعد أن استولوا عليها مدة سبعة اشهر وعشرة أيام، وانحصرت سيطرتهم عند حدود العراق. بعدها وصل الملك المظفر الى دمشق واسترد سائر بلاد الشام من الفرات الى حدّ مصر بمعاونة الأمير ركن الدين بيبرس[2]. وأصلح من حال البلاد وعيّن النواب والولاة ودانوا له بالولاء وجعل من دمشق نيابة مستقلة يرأسها أمير ذو رتبة عالية، وبهذا فإنَّ السلطان قطز هو الذي أدخل النظام الإداري المملوكي بتقسيم البلاد الى نيابات وأنهى النظام الإداري الأيوبي[3]، الذي اعتمد على تقسيم المملكة بين أمراء البيت الحاكم، حيث كانكل أمير يُعهد إليه بإقليم من أقاليم الدولة[4]. وقد وعد بيبرس بتوليته نيابة حلب، وخرج من دمشق قاصداً مصر وفي خلال طريق عودته انحرف عن المسار بغية الصيد ومعه الأمراء، إلا أنَّ الأمير بيبرس قد انتهز الفرصة للغدر لعدم وفاء الملك له بتوليته حلب وولاها لآخر، فقبض على الملك المظفر هو والأمراء المتآمرين معه وقتلوه قرب الصالحية بمصر، وكانت مدة ملكه لا تتعدى السنة[5]. دفِنَ ببلدة القُصَيّر وبقيّ قبره فيها يُترحم عليه ويُشتم من قتله إلى أن تم نقله الى مكان غير معروف بأمر السلطان الذي حكم بعده وهو ركن الدين بيبرس البندقداري[6].

د. **الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي النجمي**، هو تركي الأصل من بلاد القَبْجاق، اشتراه الأمير علاءالدين أيدكين البندقدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أخذه منه، ثم ترقّى في مناصب الدولة حتى أصبح ملكاً لمصر وبلاد الشام. كان شجاعاً حكيماً

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص26.

[2]. المقريزي، السلوك، ج1، قسم 2، ص430–433.

[3]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ص397.

[4]. الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص36.

[5]. المقريزي، المصدر السابق، ص435.

[6]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج24، ص253.

مقداماً قيادياً ذو مهابة وله صوت جهوري، طويل القامة، أسمر اللون وعينيين زرقاوين وفي احداهما غشاوة. كان خفيف الحركة ومولع بالتنقل[1].

تَلَقَبَ بيبرس ومعنى اسمه الأمير الفهد[2] بالملك القاهر، ثمَّ أشار عليه أحد وزراءه بأن يغير هذا اللقب الى الملك الظاهر، حيث لم يُلقب به أحد قبله، فأصبح يُعرف بالملك الظاهر بيبرس[3]. كما عُرف بيبيرس البندقداريّ[4] نسبة الى الأمير علاء الدين البندقدار، وهي كلمة فارسية بمعنى حامل البندقية[5].

يُعد أول المماليك العُظماء حيث استمرت مدة حكمه سبعة عشرسنة، قضاها في العديد من الحملات الموفقة ضدَّ الصليبيين والتتار، حيث قاد العسكر في معركة عين جالوت مع الملك المظفر قطز وحققوا النصر ضدّ التتار، وكان له الفضل في فتح العديد من البلاد ودحر الصليبيين عنها مثل قيسارية، صفد، طبريا وبانياس وغيرها، فتملك سائر اقليم مصر والشام وآخر ما فتح كانت قيصرية عاصمة سلاجقة الروم.

الى جانب انتصاراته الحربية قام بتدبير أمور الدولة، فعُنيَّ بالجيش حتى وصل عدد عسكره اثنى عشر ألفاً وهم خاصته، منهم أربعة آلاف يخرجوا معه في غزواته عُرفوا بجيش الزحف، والثلث الآخر بدمشق والثلث الأخير بحلب، يتم استدعاءهم اذا اقتضى الأمر[6]. كما قام بشراء جنود من اجناس مختلفة من بلاد القبْجاق وتركستان ومصر وشكّل منهم جيش ضخم وصل عدده الأربعون ألف فارس[7].

كما اهتم بتعمير البلاد فحسَّن الأقنية والموانئ والتحصينات حين أمر بإعادة تعمير القلاع المهدمة وأبراج المراقبة، واهتم بالأماكن المقدسة فبنى الجوامع وعمَّر مؤسسات دينية وخيرية. وأنشأ نظاماً للبريد بين القاهرة ومختلف أنحاء دولته، مما جعل من أعماله تلك وادارته الحكيمة للبلاد

---

[1]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 2، ص637؛ Muir, TheMameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 30-31

[2]. المقريزي، المصدر السابق، ص368.

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ص437.

[4]. البندقدار : هو حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير. والبندق هي كرات من الطين أو الحجارة أو الرصاص، تُستخدم في تطيير الحمام. وقد استخدمها الرُماة بعدة طرق سواء رمي بالأقواس أو بالأنابيب التي يتم ضغط الهواء بها واطلاق البندق. (المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص350، حاشية 2؛ عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص420)؛ والبندقدار لفظ مكون من كلمتين فارسيتين، أحدهما بُنْدُق، والبندق الذي يُرمى به، وقد يكون البندق الذي يؤكل وهو الجِلَّوْز بالعربية، وثانيهما دار بمعنى ممسك فيكون المعنى ممسك البُنْدُق. (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص458–459).

[5] .Muir, The Mameluke or Slave Dynasty, p. 13

[6]. المقريزي، المصدر السابق، ص638.

[7]. الزيدي، العصر المملوكي، ص35.

عاملاً شجع الناس على حبه، فكانت له شعبيته وأيضاً قوته التي عُرف بها في انحاء بلاده وخارجها.

وقد قام بإحياء الخلافة العباسية في مصر بعد سنة من توليه المُلك، بعد أن تم القضاء عليها في بغداد من قِبَلْ هولاكو[1]. حيث أراد بذلك تأكيد شرعية حكمه وأن تكون له سنداً في حكم المماليك، فأصبح يُدير أمور السلطنة كلها بشرعية من أمير المؤمنين الذي احتفظ بهذا اللقب للخليفة العباسي[2]. استمرت حياة الظاهر بيبرس في سلسلة من الصراعات الداخلية والخارجية والحروب، كما التعمير والتحسين والتي من خلالها اشتهر بالشجاعة والعزيمة والسيرة الحسنة، واستطاع تحويل الدولة المملوكية من دولة ناشئة الى دولة قوية، حتى عام 676هـ –1277م حين دخل الى دمشق وتوفي فيها مسموماً وتم دفنه هناك[3].

هـ. **السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي النجمي العلائي الصالحي،** هو من أسرة قلاوون والتي تعني "البطة"، حيث أنَّ العديد من أسماء السلاطين والأمراء المماليك كانت لها دلالات لأشياء أو حيوانات أو صفات في اللغة التركية أو الفارسية أو التترية[4]. وهو قبجاقي الجنس، من قبيلة مرج أُغْلِي، تم احضاره الى مصر وهو صغير واشتراه الأمير علاءالدين آق سنقر الساقي العادلي بألف دينار ولذلك عُرِفَ بالألفي، كما نُعِتَ بالعلائي بأنه من مماليك الأمير علاءالدين. عند وفاة الأمير انتقل سيف الدين الى الملك الصالح نجم الدين ايوب وأصبح من مماليكه[5]. تبدَّل حاله حتى أصبح في عهد الملك الظاهر بيبرس الأقوى في بلاط السلطان والرجل المُعتمد في الصراعات الحربية، حتى أنَّ الملك الظاهر قد صاهَرَهُ لرغبته في بقاء الحكم لأولاده من بعده ولاعتقاده بعدم وجود أطماع لقلاوون في الحكم، إلا أنَّ الأمير سيف الدين الذي تنصَّب أتابك العساكر في عهد سلطنة الملك العادل سلامش بن الظاهر بيبرس في 678هـ – 1279م، ظهرت لديه طموحات بالسيطرة على العرش[6]، خاصة أن الملك كان قد بلغ عمره سبع سنوات عند توليه الحكم، فقام الأمير بتدبير أمور الدولة وكان يُذكر اسمه مع اسم الملك على المنابروكان يتصرف كالملوك لمدة ثلاثة أشهر[7]، وبفضل شخصيته القوية وبُعد نظره استطاع ترسيخ سلطته ونفوذه وعمل على تمهيد الطريق لنفسه لتولي الحكم، فقام بحبس عدة أمراء من اتباع الظاهر

---

[1]. الموسوعة الفلسطينية، مج 4، ص 291 ؛ Muir, The Mameluke or Slave Dynasty, p. 14؛
Atil, Renaissance of Islam, p.13.

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص28.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم2، ص635 .

[4]. المقريزي، المصدر السابق، ص368.

[5]. المقريزي، السلوك، ج 1 قسم3 ص663؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2 ص238.

[6]. الزيدي، المصدر السابق، ص39.

[7]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3 ص663.

بيبرس وأبعد الكثيرين، واستبدلهم بأعوان مخلصين له. وتناقل أمْرْ صِغَرْ سِن الملك العادل وعجزه على إدارة شؤون الدولة كما يجب، فتم الاتفاق على خلع الملك العادل سلامش ونفيه الى الكرك وإقامة قلاوون سلطاناً وتلقَّبَ حينها بالملك المنصور وحكم مصر ما بين عامي 678هـ – 689هـ / 1279م –1290م[1].

كان لأمر تولي السلطان سيف الدين قلاوون الحكم وقعاً محبباً لدى الناس حيث استبشروا بحلول العدل والإصلاح وتعميم الخير والأمن وزوال الظلم، ودخلوا في طاعته بقبولٍ دون صَدّ[2]، فقد عُرِفَ بالشجاعة والهيبة والحُلم وقربه من نفوس الناس، وكان جميل المنظر، عريض المنكبين، ذا رقبة قصيرة، طليقاً بلغة الترك والقَبْجاق وقليل المعرفة باللسان العربي[3]. كانت له مآثر كثيرة منها تعمير منشآت عدة كالمدارس والأربطة والبيمارستانات والمساجد، وتجديد القلاع والحصون[4]. كما استطاع مواجهة التتار والصليبيين في معارك عديدة تكللت بالنصر، وواجه ثورات وفتن داخلية واستطاع التغلب عليها وإبطالها، فقد بدأ بعض أمراء المماليك الظاهرية عصيان حكم قلاوون وأرادوا التحالف مع الصليبيين، فقام أعوانه بالقبض عليهم وسَجْنْ بعضهم وإعدام البعض الآخر، الأمر الذي دفع بالملك المنصور الى إنشاء مجموعة أخرى من المماليك لتكون مخلصة له وقائمة على حمايته وخدمته، واختارهم من المماليك الجراكسة وشكلوا فرقة مقاتلة جديدة[5]، كانت النواة الأولى لقوة المماليك الجراكسة.

أما آخر غزواته فكانت عند خروجه لمواجهة جموع الصليبيين الذين وصلوا عكا من ايطاليا، وقتلوا أعداداً كبيرة من المسلمين فيها، فأراد أن يثأر لهم وجهّزَ للسير الى بلاد الشام عام 689هـ/ 1290م، إلا أنه وهو بطريقه قد ألمَّ به المرض واشتدَّ، الى أن مات بمخيمه تجاه مسجد تِبْر خارج القاهرة في الطريق الى الشام.

وبهذا فقد قضى مدة ملكه ما يُقارب الأحدَ عشرَ سنة[6]. عُرف بها بأنه من أعظم سلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس، وبأنه الوحيد الذي امتدت سلطة الحكم لأبناءه من بعده حتى أربعة أجيال[7]. فتولى الحكم من بعده ابنه الثاني الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، حيث أنَّ ابنه الأكبر علاءالدين علي بن قلاوون كان قد تسلطن في حياة والده وعُرِفَ بالملك الصالح، إلا أنه قد مرض

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص39–40.

[2]. الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، 232–233.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3، ص756.

[4]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص200؛ الزيدي، المصدر السابق، ص40.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص238؛ الزيدي، المصدر السابق، ص41.

[6]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص754–755.

[7]. الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص291.

وتوفي قبل والده. كما أنَّ الناصر محمد بن قلاوون قد مَلَكَ أيضاً، أما الأمير أحمد فقد مات في فترة سلطنة اخيه الأشرف خليل[1].

وتُعد فترة حكم أسرة قلاوون الممتدة لما يزيد عن قرن من الزمن بين عامي 678هـ – 784هـ/ 1279م – 1382م الفترة المزدهرة في حكم المماليك، حيث تميزت بالعلم والفن والأدب، والسعي لتأكيد حكم السلطان من خلال مجابهة وطمس أي تهديدات داخلية أو مؤثرات خارجية، ومحاولة ترسيخ مفهوم وحدة الدولة، مما جعل السلطان يُشَكل رمزاً للأمن والاستقرار والوحدة[2].

و. **السلطان الملك الناصر ناصرالدين أبو الفتح محمد بن قلاوون،** هو ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي، وُلد في مصر عام 684هـ، اتصف بِقِصَر القامة وبلون بشرته البيضاء وفي عينيه حَوَلْ وبأحد رجليه عَرَجْ. درس القانون وعِلْمْ اللاهوت في دمشق. استقر في السلطنة ثلاث مرات، الأولى كانت بعد مقتل أخيه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عام 693هـ / 1293م، حينها أُقيم سلطاناً وهو في التاسعة من العمر[3]. لكنه واجه صعوبات عديدة وذلك لمبدأ أحقية المُلك عند المماليك، حيث كانت على أساس تولي الحكم من لديه القوة والشجاعة وليست على أساس الوراثة، وكان الملك الناصر حينها لصغر سنه لم تتحول شخصيته الى شخصية القائد الحازم النافذ الشجاع، بالتالي لم يكن له سوى اسم المَلِكْ في السلطة، أما أمور الدولة فقام بتدبيرها نائب السلطنة الأمير زين الدين كتبغا[4]، الذي استغل لاحقاً أمر الفتنة الداخلية التي أثارها المماليك الأشرفية وفسادهم في المدينة، فتوجه الى الأمراء والى الخليفة العباسي لاقناعهم بحاجة البلاد الى سلطان قوي يسيطر على الأوضاع الداخلية والخارجية، فتم له ذلك بخلع الملك الناصر محمد بعد سنة واحدة تقريباً من توليه الحكم، وأقيم مكانه وأصبح الأمير كتبغا سلطاناً. إلا أنَّ أصوله المغولية وسوء ادارته للحكم قد أدارت إليه فعلته وتم خلعه بعد سنتين من توليه الحكم، عاشت خلالهما البلاد حياة الفقر والفساد وانتشار الأوبئة والمجاعة[5]، ليحكم بعده السلطان الملك حسام الدين لاجين المنصوري والذي دامت مدة حكمه اكثر من سنتين بقليل حيث قُتِلَ عام 698هـ / 1299م، تم بعدها تولية الحكم للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية، وعمره أربعة عشر عاماً، واستمر حكمه لمدة عشر سنين وأربعة أشهر[6]، حقق في خلالها

---

[1]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص755؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص42.

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص39.

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص437؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص260؛ Muir, The Mameluke, pp. 82-83.

[4]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص794؛ الزيدي، المصدر السابق ، ص44–45.

[5]. المقريزي، السلوك،ج1قسم3، ص806؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص356؛
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 48-49

[6]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص437؛ العيني، عقد الجمان، ص558.

نصراً بارزاً على التتار في معركة "مرج الصُفَّر" بأرض شَقحب جنوبي دمشق[1]، كما استطاع مواجهة الفتنة الداخلية والقضاء على مفتعليها، وتم إبعاد الصليبيين الذين هددوا سواحل بلاد الشام. إلا أنَّ مشاعر الضيق كانت تتزايد لدى الملك الناصر من تصرفات ونوايا أعوانه الأمير سالار نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير الأستادار[2]، وفكّر في التخلص من سيطرتهما عليه. كما أن وفاة والدته أشلون ابنة الأمير سكناى بن قراجين بن جيغان المعروفة بأم الناصر محمد[3] عام 702هـ / 1302م كانت عاملاً اساسياً في مرارة هذه المشاعر، فقرر الملك الناصر ترك السلطنة وخَلْعْ نفسه ليستريح، فادعى بخروجه لأداء فريضة الحج واتجه الى الكرك، حيث أقام هو ومماليكه في قلعة الكرك. وتسلطن بعده الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، وهو أول سلطان ذا أصول جركسية، إلا أنه لم يدُم طويلاً على العرش حيث أنه لم يحظَ بقبول الأمراء له، بل وجهوا خطابات الى السلطان الناصر محمد يُعربوا عن رغبتهم في عودته الى عرشه، كما أنَ الناس قد ضجروا من سوء حكم الملك بيبرس الذي عَلِمَ برغبة السلطان الناصر استرداد عرشه، فخلع نفسه بعد أحد عشر شهراً وانتهت بذلك فترة حكمه ليعود السلطان الناصر محمد في سلطنته الثالثة[4]، وعمره خمسة وعشرون عاماً، وتُعَد أطول فتراته في الحكم حيث امتدت لمدة اثنتين وثلاثين عاماً من عام 709هـ / 1309م الى 741هـ / 1341م. وقد ثبَّت فيها حكمه حيث اتسعت خبرته وتمرسه في الحياة السياسية وإدارة شؤون الحكم، فأصبح ملكاً راشداً ذو مكانة عالية ومآثر كثيرة، حيث استطاع تحقيق الاستقرار في أرجاء دولته، فقضى على الفتن وقهر التتار وألزم بلاد الأرمن بمستحقات مادية وسيطر على بلاد الحجاز واليمن، فاتسع نطاق دولته وفَرَضَ مهابته في داخلها وخارجها. وكان له رؤية واضحة لمستقبل الدولة، فعمد على تدبير شؤونها سواء السياسة أو الاقتصادية أو الاجتماعية، فطوَّر المؤسسات واستحدث مناصب ونشَّطَ الحياة الزراعية التي أدت الى ازدهار الحركة التجارية وتطور الاقتصاد في الدولة. كما اهتم بالعمران فأنشأ العديد من

---

[1]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص361؛ الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر ج9، ص87-88؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص52. وقعة شقحب: وعُرفت كذلك بغباغب، لأنها اشتملت على أطراف شقحب وغباغب والصنمين وهي قرى في المنطقة ذات أراضي وعرة وأحجار سوداء.(العيني، عقد الجمان، ص680).

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص53-54

الأستادار: هي لفظ فارسي أصله أصطاسرا ويعني أصطا كبير، أي سرا تعني الكبير، ثم تعربت الكلمة وعَنَت أستاذ، فكانت استاذ الدار، ثم تحورت الكلمة وأصبحت أستادار، أي الاستاذ الكبير.(المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص794) وهي وظيفة من وظائف الدولة يقوم صاحبها بتولي شؤون بيوت السلطان جميعها من الحاشية والغلمان والمطابخ والشراب، وله مطلق التصرف في النفقات ذات الخصوص. (عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص411). أما القلقشندي فيذكر أنَّ الإسْتَدَّار هو مركب من لفظين فارسيين أحدهما إسْتذ بمعنى الأخْذ، والثانية الدار بمعنى مُمْسِك، فأصبحت المتولِّى للأخْذ وهو من وظائف أرباب السيوف، ويتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصَرفه، وتُمْتَثَل أوامره فيه. ثمَّ ادمجت الذال مع الدال في الإستذدار وصارت إسْتَدَّار. (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص457).

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ص755؛ المقريزي، السلوك ج2 قسم2، ص523.

[4]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص239؛ الزيدي، المصدر السابق،ص 54-58؛ Muir,The Mameluke,pp.62-63

القصور كالقصر الأبلق في القاهرة، والمدارس كالمدرسة الكريمية بباب حطة في القدس، والمساجد كمسجد القلعة في القاهرة، والميادين كالميدان الناصري لسباق الخيل في القاهرة، واهتم بتعمير الجسور والقناطر وغيرها من العمائر. كما شجع الحركة العلمية التي انتجت فيض وافر في شتى العلوم والتي كان عمادها المؤسسات الثقافية من مدارس وجوامع وخانقاوات وبيمارستانات منذ الدولة الزنكية الى الدولة الأيوبية ثم الى الدولة المملوكية، والتي تُوِجَتْ بانجازات في كافة الميادين الثقافية في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون. والذي امتاز بأنه أطول عهود السلاطين المماليك حيث امتد في ولاياته الثلاثة مدة ثلاثاً وأربعين سنة وسبعة أشهر[1]، كان في خلالها ملكاً عظيماً جمع من المحاسن ما انفرد به عن غيره من الملوك، حيث أنه لم يكن قط إلا من طبقات الملوك فهو ابن ملك وأخو ملكين وأب لملوك وأُحيط بالملوك فكانت بداية ملكه نهاية مَلِكْ آخر[2]. وكان حازماً ذكياً كريماً حيث اشتهر بعطاءه، مسامحاً مُطاعاً في داخل بلاده وخارجها، حيث كان ملوك بلاد الشرق وبلاد الغرب يُهادونه ويُراسلونه ومنهم بوسعيد ملك التتار، حيث استطاع تحقيق الصُلح عام 721هـ/ 1323م مع هذه القوة والعدو الدائم لبلاد المسلمين[3].

وقد اتصف الملك الناصر بالحشمة والتروي وضبط النفس واتزان الكلام، فلم يتفوه بكلام فاحش حتى في مواضع غضبه الشديد، وإذا غضب على أحد لا يأخذه غضبه الى تذنيبه فوراً إنما يتروى مدة طويلة الى أن يختار له العقاب المناسب، وذلك بأنه كان يكره الظلم فيسعى الى ذكره بالجميل، وعَدَمْ إقرانه بالظلم أو الجور. كان كثير العناية بأُمرائه ومماليكه حيث كان يدعوهم بأسمائهم ويذكر ألقابهم، ويُغدق عليهم بالمال الوفير والثياب الفاخرة والخيول، كما كان شديد الفطنة بمعرفة مماليك والده وأولادهم واسمائهم ووظائفهم وكانت له مهابته وحرمته بين الجميع.

كان شغوفاً بجمع المال والجواهر واللؤلؤ، فاقتنى منها النادر والنفيس، وبالرغم من ذلك كان زاهداً في ملابسه، لا يميل الى الفاخر منها إنما الى البسيط الخالي من الجواهر أو الذهب. لكنه كان ينتفع بها في نيل مقاصده فيحمل منها الهدايا الثمينة الى ملوك الشرق والغرب الذين بدورهم خضعوا له ومالوا الى مصادقته، فساعد ذلك في توفير الأمن والاستقرار في البلاد بشكل لم تشهده من قبل، كما أدى الى ازدهار الحركة التجارية الخارجية بين مصر ومختلف الدول.

كان للملك الناصر نزعة في التدين، فيؤدي الفرائض وكان يكره شرب الخمر ويُنزل عقوبة على شاربيه ويُبعد عنه أمرائه الذين يشربونه.

---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص438-439؛ اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص40-41.

[2]. الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر ج8، ص352-353.

[3]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص370-371، Atil, Renaissance of Islam, p.15.

كان يحرص على الإحاطة بأمور وأعباء الدولة، ويتفرد بالأحكام، فقام بإبطال منصب نائب السلطنة لينشغل بأمور مملكته لوحده، وعمل على إبطال عدة مظالم من ضرائب وضمانات أو التخفيف منها، وقام بإعادة إقطاع أرض مصر والشام بما عُرف بالروك الناصري، حيث أعاد مسح الأراضي الزراعية وأعاد تقسيمها على اساسٍ عادلٍ بين الأمراء والجنود والعامة بحيث لم يظلم أحداً[1].

لقد اتصف بالدبلوماسية التي اتقنها واشتهر بها أكثر من بروزه في ساحات القتال كما اتصف بالمكر والدهاء واتباع الحيل لتنفيذ مآربه خاصة عند ظنه بأمراءه نيتهم السوء له، فيقوم بالتدبير والايقاع بهم ومعاقبتهم[2].

كان للناصر هواياته الخاصة حيث كان شغوفاً بالخيل، له معرفة بأصولها وانسابها واثمانها، فيُنفق على شرائها الكثير كما على الاعتناء بها حتى بلغ عدد خيوله بضع آلاف. كما كان يحب الصيد وعمل على جلب الطيور الجوارح التي تُعين على الصيد، وله اهتمام بجمع الأغنام والأوز.

وقد اكثر الملك الناصر من شراء المماليك والجواري خاصة عند قُرب نهاية فترة ملكه حيث بالغ في ذلك، وأنعم عليهم بالخير الوفير والعطايا وتعليم الأدب، لينتقلوا في وظائف الدولة ويصلوا الى مراتب عالية[3].

وبِرغم أنَّ الملك الناصر قد عُرِفَ بكثيرمن الصفات الحميدة وتمتع بمحبة الناس، إلا أنَّ استبعاده عن السلطة عدة مرات وانتزاع حكمه من قِبَلْ من حوله أثَّر في جعله اكثر حذراً وحيطة واكثر قلقاً، وزاد من شعوره بالخطر من مؤامرات وأطماع أمرائه فكانت أحياناً تسيطر عليه مشاعر الحقد والانتقام، مما دفعه للسعي الدائم لإبعاد إمكانية الغدر والدفاع عن حكمه وملكه، حيث كان دائم التغيير والتبديل في مناصب أعوانه وأمرائه وإذا اشتبه في اخلاص أحدهم لعرشه قام باعتقاله ونفيه أو قتله، بالرغم من تقربه منهم واغداقه عليهم بالعطايا المادية والألقاب وأحياناً المصاهرة. وهذا ما قد حصل مع العديد من أمرائه ومنهم الأمير سيف الدين تنكز الناصري الذي تمت فترة ولايته على بلاد الشام من 1312م– 1340م[4]، والذي سيشغل موضوع الدراسة.

وفي عام 741هـ / 1341م توفي السلطان الملك الناصر محمد، بعد معاناته مع المرض وهو في السابعة والخمسون من العمر، ودُفِنَ في القبة المنصورية بين القصرين في مصر. له من الأبناء

---

[1]. المقريزي، السلوك ج2 قسم2، ص532–537.

[2]. اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص100؛ Muir, The Mameluke, p. 73.

[3]. المقريزي، السلوك ج2 قسم 2، ص524–531.

[4]. اليوسفي، المصدر السابق، ص99.

أربعة عشر بعضهم توفي أو قُتِلَ، وسبع بنات. تولى السلطنة من أبناءه ثمانية، أولهم أبا بكر[1]، الذي عهد له بالحكم من بعده قُبيل وفاته بيومين، ولقبه بالملك المنصور وأوصاه بالأمراء وأوصى الأمراء به[2].

1.1.3 عوامل ضعف دولة المماليك البحرية :-

استمر الحكم في اسرة قلاوون من أولاد الناصر محمد وأحفاده لمدة طويلة تعدَّت الأربعين سنة، فتولى عرش مصر والشام ثمانية من أولاده واثنان من أحفاده واثنان من أبناء أحفاده[3]. ويعود هذا الأمر الى تعلق الناس بأسرة قلاوون، فما عانوه من فتن ومجاعات وأوبئة وفقر خلال الفترات التي تخللت عزل الملك الناصر محمد عن العرش، وعلى نقيضه ما ذاقه الناس من طعم حياة الاستقرار والأمن والرخاء أيام الملك الناصر، دفعهم الى التمسك في إبقاء الحكم ضمن إطار أسرة قلاوون لاعتقادهم بأنَّ هذا يحقق ضمان لحياة الاستقرار تلك. إلا أنَّ تعاقب عدد كبير من أبناء وأحفاد الناصر محمد على الحكم ومعظمهم كانوا صغاراً في السن وقليلي الخبرة في أمور الدولة، أدى الى زيادة أطماع الأمراء في الحكم واستبدادهم بالأمور المالية وقدرتهم على السيطرة، فعينوا وعزلوا السلاطين تبعاً لمصالحهم، فلم يدم حكم غالبية السلاطين منهم سوى بضع سنوات أو شهور قليلة ثم يتم نفيه أو سجنه أو قتله.

هذا العامل كان من العوامل الأساسية في اضعاف الدولة المملوكية الأولى وبدء انهيارها، فَفَقَدَ السلاطين هيبتهم وسلطتهم فيما زادت سيطرة الأمراء على شؤون الدولة والتصرف بالأموال والأنفس. كما أنَّ الصراع قد دبَّ بين الأمراء، فأصبحت الدولة تُعاني من تعدد الأحزاب الذين انشغلوا عن مصالح الدولة التي أصبحت تعاني حالة الفوضى الشديدة[4].

كما أنَّ انتشار وباء الطاعون أو الوباء الأسود في أنحاء العالم مشرقه ومغربه، وفي بلاد الشام ومصر عام 749هـ / 1348م خلال فترة حكم السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون بدورته الأولى، كان من العوامل التي ساعدت في ضعف وانحلال الدولة المملوكية، حيث أنَّ هذا الوباء قد فتك بالملايين من البشر وصاحب ذلك آثار خطيرة من مجاعات وتردي حال الأراضي الزراعية لعدم وجود من يفلحها وانتشار الآفات الزراعية التي ترتبت عليها أزمات اقتصادية وسياسية، فزادت أحوال البلاد سوءاً[5]. كما أدى الى خلل في النظام الإقطاعي الذي بنيت

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2، قسم 2، ص523، ص546؛ الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص439.

[2]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص190؛ المقريزي، المصدر السابق، ص523.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص239-240.

[4]. عاشور، العصرالمماليكي في مصر والشام، ص125-126، ص134.

[5]. العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص263؛ Atil, Renaissance of Islam, p.16.

عليه دولة سلاطين المماليك؛ إذ استطاع العديد من عامة الناس الإستيلاء على الإقطاعات التي كانت مخصصة لجنود الجيش المملوكي.

وفي عصر أحفاد الناصر محمد ازداد الانحلال الخلقي، الذي أَثَّرَ بشكل سلبي على مهابة السلاطين وبالتالي قوة الدولة، حيث أنَّ السلاطين قد انغمسوا بالملذات وشرب الخمر واللهو عوضاً عن القيام بمتابعة شؤون دولتهم[1].

ومن العوامل الخارجية التي كان لها أثر في اضعاف دولة المماليك هو ما نهجه الصليبيون من طرق لِشل الاقتصاد المصري، إيماناً منهم بأنَّ الدولة المملوكية تَستَمِدْ ثروتها وقوتها من التجارة الخارجية، فنادوا الى فرض حصار اقتصادي على شواطئ مصر والشام للحيلولة دون وصول السفن التجارية بالتالي كساد التجارة. كما شنَّ الصليبيون بقيادة ملك قبرص عام 767هـ / 1365م هجمة عنيفة على مدينة الاسكندرية، وكانت حينها الدولة تعاني زيادة في الاضطرابات الداخلية والفوضى أيام السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون، الذي أُقيم سلطاناً عام 764هـ/ 1363م وله من العمر عشر سنوات، فاستطاع الصليبيون اقتحام المدينة وتدميرها بالتخريب والحرق والنهب والاعتداء لمدة ثلاثة أيام، دون وجود أي صدّ من قِبَلْ المسلمين. الى أُن غادر الملك وأسطوله محملاً بالبضائع المنهوبة والأسرى قبل وصول أي جيوش انقاذ من القاهرة. فشكلت هذه الغارة كارثة على مدينة الاسكندرية وميناِئها الأشهر في الدولة الاسلامية، إذ ضَعُفَ نشاطها التجاري واهتزت مكانتها الاقتصادية[2].

لقد شكلت هذه العوامل مجتمعة أساساً في ضعف اتزان الدولة المملوكية الأولى وايذاناً بنهاية حكم سلاطين المماليك البحرية، بحيث أنه بعد سبعة عشر عاماً من غارة الصليبيين على الاسكندرية سقطت دولة بني قلاوون، لتقوم دولة مكانها وهي دولة المماليك الثانية والتي عُرفت بدولة المماليك الجراكسة أو البرجية. وهي ليست دولة مختلفة تماماً وانما هي نفس الدولة ولكن غلب على سلاطينها العرق الجركسي، وانتهى بظهورها عهد سيطرة الأمراء المتنافسين والمسيطرين على السلاطين الضعفاء صغار السن وبدأ ظهور السلاطين الأقوياء من جديد ولكن بأسس مختلفة، حيث تمهدت الطريق أمام أمراء آخرين للهيمنة على الحكم، ومنهم الأمير المملوكي برقوق الذي استطاع في ظل هذه الظروف السيئة خَلْع السلطان الصالح زين الدين حاجى عام 784هـ / 1382م وهو آخر سلطان من سلالة الناصر محمد بن قلاوون، وأعلن نفسه سلطانا. فانقضت

[1]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص135.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص 136–139؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص264–265.

دولة المماليك البحرية الأتراك بعد حكم دام مائة وست وثلاثون سنة ونصف، وبدأت هذه المرحلة الجديدة[1].

1.1.4 المماليك الجراكسة أو البرجية :-

يُعد أصل المماليك الجراكسة من جند الملك السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، حين عَمَدَ في عام 681هـ/ 1281م الى تكوين فرقة خاصة له من المماليك، غير الفرق الأخرى السابقة مثل فرقة الظاهرية مماليك الظاهر بيبرس، لتتفرد هذه الفرقة الجديدة بالموالاة الخالصة للسلطان فيكون اعتماده الكامل عليها من دون الأُخر[2]. ولقد بلغ عدد هذه الفرقة ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك، طغى عنصر الجركس على غالبيتهم، وقد تم جلبهم من اقليم كوبان وهي مناطق القسم الشمالي الغربي من القوقاز، من الجزء الجنوبي لشبه جزيرة القِرَم، بقرب اسواق ثغر كفا، والتي اعتُبرت من اكبر اسواق الرقيق الأبيض في العصور الوسطى، كما أنَّ قسماً منهم تم جلبه من مناطق الشاطئ الشرقي للبحر الأسود الى أطراف بلاد الأبخاز جنوباً، وكان من فروعهم السركس والأركس والكسا والآص[3].

ولقد وقع اختيار السلطان المنصور سيف الدين قلاوون على العنصر الجركسي ليكون الأساس في تكوين فرقته الجديدة وذلك تجنباً منه للأجناس السابقة في الدولة المملوكية الأولى من الأتراك والخوارزمية والتركمان والتتار، كما أنَّ وفرة العنصر الجركسي في الأسواق وقلة ثمنه مقارنة بالعناصر التركية السابقة كانت عاملاً مساعداً لهذا الاختيار.

لقد عُنيَّ السلطان قلاوون بإقامة مماليكه الجُدد بالقرب منه، ليشكلوا حصناً له، فاسكنهم في أبراج القلعة وطباقها، حيث كانت ابراج القلعة كبيرة تتسع لجميع الفرق المملوكية الجديدة، خاصة بعد إقامة السلطان لبرج عظيم ذو طبقات وقاعات بالقرب من باب السر الكبير، عُرِفَ بالبرج الكبير، وقد خصَّ به مماليكه الجُدد، اضافة الى أبراج اخرى مثل البرج الأحمر، وبرج الزاوية، وبرج الحداد، وبرج الرملة، وبرج الإمام وغيرها، والتي اقامت بها الفرق المملوكية القديمة. وبذلك فقد عُرفت هذه المجموعة من المماليك الجُدُد بالمماليك البرجية نسبة الى مكان اقامتها[4].

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص240-241؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص265؛ عبده قاسم، في تاريخ الأوبيين والمماليك، ص288-289.

[2]. السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص11-12.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3، ص756؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص241؛ السيد، المصدر السابق، ص12؛ مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص13.

[4]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص204؛ السيد، المصدر السابق، ص12-13.

اشتهر المماليك البرجية بصفات الشجاعة والفروسية، ولقد حظوا بعناية خاصة من قبل السلطان المنصور قلاوون، فنشأوا على التربية الدينية وحُسن التدريب. كما أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون قد اهتم أيضاً بعد أبيه بهذه المجموعة من المماليك، فأكثر منهم وميزهم بالترقية الى وظائف السلاحدارية[1] والجمقدارية[2] والجاشنكيرية والأوشاقية[3]، حتى أُطلق عليهم اسم الأشرفية نسبة الى الأشرف خليل[4].

فأضحى المماليك البرجية على درجة من وفرة العدد والقوة والتماسك، مما مكنهم من شقّ طريقهم نحو اقامة دولة جديدة لهم. فاستطاع المماليك البرجية لاحقاً من التغلغل الى مقاليد الحكم، وعند توليهم السلطة بعد القضاء على الدولة المملوكية التركية كان من أبرز سلاطينهم :-

أ. السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين بَرْقوق بن أنس[5] العثماني اليلبغاوي الجركسي، يُعد أول ملوك الدولة المملوكية الجركسية والمؤسس الحقيقي لها، والثاني من المماليك الجراكسة الذين اعتلوا الحكم، بعد الأمير بيبرس الجاشنكير الذي تسلطن عام 708هـ/ 1307م أيام السلطان الناصرمحمد بن قلاوون، ولكنه لم يدم طويلاً وتم عزله[6]. وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك المماليك. تلقب بالملك الظاهر حيث تمت مبايعته على السلطنة وقت الظهيرة.

أصله من بلاد الجركس من فرع الكسا. أُخِذَ من بلاده وتم بيعه في مدينة القِرَم وهو في العشرين من عمره، فاشتراه الخواجا فخر الدين عثمان بن مُسافر وجلبه الى القاهرة، ولذلك عُرِفَ بالعثماني. ثم اشتراه منه الأمير يلبغا العمري الخاصكي الناصري في حدود عام 764هـ/ 1363م[7]، واسمه حينئذ " الطَنْبُغَا " فسمّاه برقوق لوجود نتوءٍ في عينيه[8]، ثم اعتقه بعد مدة قصيرة لا تزيد عن أربع سنوات وجعله من بين مماليكه المقربين، لِما أظهره من ذكاء وفطنة وحُسْنِ خُلق وتواضع وإحسان ودراية في موضوع الفقه والعلوم الدينية والتفوق في ميدان فنون الحرب والفروسية. وكان حسن المظهر، عريض الكتفين ذو أدب ووقار ورزانة عقل[9].

---

[1]. السلاحدار: لفظ مركب من كلمتين السلاح كلمة عربية ودار كلمة فارسية، فهو لقب حامل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمره، بمعنى ممسك السلاح ويُعهد إليه العناية بالأسلحة.(دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص91؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص462).

[2]. الجمقدار: هو الشخص الذي يمشي على يمين السلطان موجهاً نظره إليه على طول مسافة السير في المواكب السلطانية، حاملاً عصاً لها رأس ضخم مُذهب. (عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص427).

[3]. الأوشاقية أو الأوجاقية: هي فرقة من خدم السلطان تقوم بركوب الخيل للتسيير والرياضة.(القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص454 ؛ عاشور، المصدر السابق، ص419).

[4]. المقريزي، المواعظ الاعتبار، ج2، ص214؛ السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص12-13.

[5]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص440.

[6]. عاشور، المصدر السابق، ص148.

[7]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج11، ص221؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241؛ الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص440.

[8]. العسقلاني، إنباء الغُمر بأنباء العُمر، ج2، ص66؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص6.

[9]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص6؛ السيد، المصدر السابق، ص38، ص108.

لكن عند مقتل يلبغا الناصري تشتتت مماليكه فتنقل الحال ببرقوق من مصر الى الكرك حيث سُجنَ عدة سنوات ثم قام بخدمة الأمراء في بلاد الشام ومصر، فحظي بإمرة طبلخاناة[1] ثم أخذ امرة مائة وتقدمة ألف[2] كما صارأمير آخور[3] ثم صار اتابك العساكر، وكان ذلك حتى عام 782هـ الى أن قام بخلع السلطان حاجى حفيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وتسلطن، فكانت توليته للمُلك عام 784هـ/ 1382م[4].

امتد حكمه لمدة حوالي الواحد وعشرون سنة، حتى توفي عام 801هـ/ 1399م، وتم خلعه في اثناءها لمدة ثمانية اشهر عام 1389م حين قُبِضَ عليه ونُفِي الى الكرك وأُعيد السلطان الصالح حاجى ليكون الملك في تلك الفترة الوجيزة[5].

استطاع الملك الظاهر سيف الدين برقوق بسياسته الحكيمة ودهاءه أن يقضي على دولة المماليك الأتراك واستكثر من جلب الجراكسة، واستطاع الحفاظ على قوة دولته حيث رسخ لها اساساً بالوقوف في وجه المغول والصليبيين، واقام علاقات ودية مع الدول التي تتشارك معه بالمصالح الأدبية والمادية، فغدت دولة المماليك الجراكسة دولة ذات نفوذ امتد حتى شمل جميع المناطق التي كانت تحت سيطرة دولة المماليك الأتراك. كما اعتمدت على نظام حكم عسكري يقوم على رأسه السلطان يعاونه في الحكم مجلس الدولة ونواب السلطان في النيابات المختلفة، ولم يعُد نظام الحكم وراثياً كما كان في دولة المماليك الأتراك.

كما كان لبرقوق عناية بالنواحي الثقافية والعمرانية، حيث بنى المدرسة الجركسية في القدس، وعمَّرَ بركة بالجهة الغربية لمدينة القدس والتي تعرف ببركة السلطان، وعمَّرَ خان السلطان الذي كان يُعرف بالوكالة، على طريق باب السلسلة في القدس. كما اهتم بشؤون دولته وابطل العديد من المظالم والمكوس التي كانت قد فُرِضَتْ من مَنْ سَبَقَهُ[6]. فنعُمَت الدولة بالسيادة والقوة بجهود

---

[1]. أمير طبلخاناه: هي مرتبة من مراتب أرباب السيوف، تقل درجة عن مرتبة أمير مائة مقدم ألف، يكون لصاحبها أحقية في دق الطبول على بابه كما يفعل السلطان ولكن بصورة مصغرة. ويُطلق عليه أيضاً أمير أربعين لأنه يكون في خدمته أربعين مملوك وقد يزدادوا الى سبعين أو ثمانين.
وأصل الكلمة طبلخاناه مكون من لفظين، هما طبل باللغة العربية، وخاناه وهي كلمة فارسية بمعنى مكان الفرقة الموسيقية السلطانية، أو الفرقة نفسها، حيث تقوم بدق الطبول بالقلعة كل يوم بعد صلاة المغرب، كما تكون بصحبة السلطان في اسفاره وحروبه.(المقريزي، السلوك،ج1قسم1، ص46 حاشية(2)؛ عاشور، العصر المماليكي، ص414).

[2]. أمير مائة مقدم ألف: هي أعلى مراتب الأمراء وهي مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف، حيث يكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ويتقدم ألف جندي في أوقات الحروب. وقد شغل هؤلاء الأمراء الوظائف العليا في الدولة مثل نائب السلطنة، نائب دمشق، الاستادار، نائب حلب، وغيرها من المناصب الكبرى.(المقريزي، السلوك، ج1قسم1، ص239، حاشية(1)).

[3]. أمير آخور: لفظ مكون من كلمتين، الأولى عربية بمعنى أمير، والثانية فارسية بمعنى المعلف، فتصبح أمير المعلف أي المسؤول عن أمر الدواب. وكانت هذه الوظيفة يقوم متوليها بالاشراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من الخيل والإبل. (المقريزي، السلوك،ج1قسم 2، ص438، حاشية(3)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص461).

[4]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج11، ص223؛ المقريزي ، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241.

[6]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص440-441؛ الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص292

برقوق لتثبيت حكمه بالرغم من المطامع والثورات التي حُبِكَت ضده، وبعد سنوات من النزاعات والضعف التي هيمنت على دولة المماليك الأتراك في نهاياتها.

ب. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، هو أحد مماليك الظاهر برقوق والحاكم السابع لدولة المماليك الجراكسة بعد الملك الظاهر برقوق. أُخِذَ من بلاد الجركس وتم بيعه بالقِرم، ثم أوتي به الى مدينة ملطية حيث اشتراه نائبها الأمير دقماق المحمدي، فعُرف بالدقماقي، ثم أرسله الى الملك الظاهر برقوق الذي أعتقه لاحقاً. تنقل في مناصب الدولة الى أن قام بانتزاع السلطنة لنفسه، بعد أن كان وصياً على السلطان الملك الصالح محمد بن ططر لصغر سنه، فتولى السلطنة مكانه عام 825هـ/ 1422م ولقب نفسه " الملك الأشرف".

دام حكمه لمدة تزيد عن ستة عشر عاماً[1]، امتازت بشكل عام بسوء الأحوال الاقتصادية بسبب سياسة الاحتكار وكثرة الضرائب، وبالرغم مما اتصف به الملك الأشرف برسباي من حسن الخلق والشجاعة والتواضع والمهابة وحُسن المظهر، إلا أن قسوة حكمه وحبه لجمع المال قد قلل من محبة الناس له. وقد عاشت البلاد مرحلة من الاستقرار والهدوء الظاهري[2]، حيث أن الطائفية قد سادت اثناء حكم الملك الاشرف، فكانت المماليك مقسمة الى سبع طوائف منها الظاهرية والناصرية والمؤيدية وغيرها... وكانت هذه الطوائف متخالفة في باطنها، الأمر الذي ساعد في بدء ضعف قوة المماليك وانكسارهم فيما بعد[3].

إلا أن طول مدة حكم الملك الأشرف برسباي قد أتاح له المجال لتحقيق نصر سياسي خارجي بغزو جزيرة قبرص عدّة مرات وإدخالها تحت حكم المماليك في مصر. حيث أن هذه الجزيرة كانت تشكل مركزاً للعمليات العسكرية ضدّ موانئ المسلمين وتهديداً لتجارتهم. فاستطاع في عام 1426م، بعد غزوتين سابقـــتيـــن موفقتين، تحقيق النصر على جزيرة قبرص بأكملها واخضاعها تحت حكمه. فكانت هذه الحملة تسجل نصراً سياسياً خارجياً للملك الأشرف تعوضه عن فشله السياسي الداخلي في حكم البلاد[4].

لقد كان للملك الأشرف برسباي اعتناء بالمنشآت المعمارية، كسائر السلاطين المماليك. فمن الآثار الظاهرة من عهده في مدينة القدس هي المدرسة الباسطية والمدرسة القادرية والمدرسة العثمانية،

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص244؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص441؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص238.

[2]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص239؛ عاشور، العصر المماليكي، ص177.

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص95.

[4]. قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص302-303؛ عاشور، المصدر السابق، ص169-177.

كما يعود له الفضل في تجديد سبيل شعلان، وقد انشأ المدرسة الأشرفية بين القصرين في القاهرة، وغيرها من المآثر العمرانية[1].

توفي الملك الأشرف برسباي بعد مرضه عام 841هـ/ 1438م، وكان قد عهد الى ابنه ابو المحاسن يوسف بالسلطنة من بعده، وأقام الأمير جقمق وصياً عليه، الذي بدوره ما لبث أن خلع الملك يوسف الملقب بالملك العزيز بعد أربعة أشهر من توليه السلطة، وسجنه وتولى العرش مكانه وتلقب بالملك الظاهر جقمق[2].

ج. السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق بن عبدالله العلائي الجركسي الظاهري، تم سبيه وهو صغير من بلاد الجركس واحضاره الى القاهرة حيث اشتراه الأمير اينال اليوسفي وقام بتربيته، ثم طلبه الملك الظاهر برقوق فأصبح من مماليكه ونُسب إليه. تنقل في وظائف الخدم والمناصب الحكومية الى أن أصبح أميراً وصياً على الملك العزيز ابو المحاسن يوسف ابن السلطان برسباي[3]، حيث انتهز فرصة صغر سن السلطان يوسف وأثبت عدم أهليته لتولي الحكم لسوء تصرفه، فخلعه وتولى السلطنة وكان ذلك في عام 842هـ/ 1438م، ودام حكمه مدة خمسة عشر عاماً. عُرف خلالها بالاعتدال في حكمه مقارنة بالملك الأشرف برسباي، فدّبر أمر توزيع المناصب الادارية والعسكرية على اعوانه الطموحين، وصرف لهم العطايا والهبات وصرف مالاً كثيراً في جهات الخير. كما كان متديناً حرَّم المعاصي وشرب الخمر، ورعاً حيث لم يدخر الأموال في خزائنه الخاصة، شجاعاً، له دراية بأنواع الفروسية، عفيفاً وكان محباً للعلماء والفقهاء مهتماً بمرافقتهم. وكان له اهتماماً بالتعمير فأُنشأت في أيامه عمائر كثيرة من جوامع، قناطر، جسور وغيرها[4].

واجه العديد من الثورات الداخلية ضده عند توليه الحكم، واستطاع القضاء عليها بقسوة، الأمر الذي دفعه الى التفكير في صرف انظار المماليك عن أمور النزاعات والثورات الداخلية بتوجيه اهتماماتهم وطاقاتهم نحو الجهاد. كما أن رغبته في تحقيق نصراً بارزاً لنفسه كما فعل الاشرف برسباي، يجعل به الناس لا يتفكرون لأمر اغتصابه للمُلك، دفعه الى التجهيز لغزو جزيرة رودس في شرق البحر المتوسط، والتي كانت تشكل مركزاً هاماً للصليبيين يشنون منها غاراتهم على الشواطئ المصرية.

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص240؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص208

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص114.

[3]. المقريزي، السلوك،ج4 قسم3، ص1086.

[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2،ص442؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص291؛ الزيدي المصدر السابق، ص114.

فقام السلطان جقمق بإرسال ثلاث حملات عسكرية، كانت آخرها شبه موفقه تم بموجبها الصلح بين الطرفين والتعهد بعدم التعرض للسفن التجارية الاسلامية[1].

تمتعت البلاد خلال فترة حكمه بالأمن والسلم الداخليين، بالرغم من وقوع مظالم من الأمراء المماليك على أفراد المجتمع، وعدم معاقبة السلطان لهم لتخوفه منهم. كما سادت العلاقات الودية بين بلاده والبلاد الاسلامية المجاورة.

توفي السلطان جقمق بعد مرضه عام 857هـ/ 1453م، وأمر بولاية العهد لابنه عثمان، الذي لم يستطع البقاء في الحكم وتم خلعه[2].

د. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر اينال العلائي الناصري، هو جركسي الأصل جلبه الخواجا علاء الدين الى مصر فعُرف بالعلائي، ثم اشتراه الظاهر برقوق، ونُسب الى الناصر فرج بن برقوق الذي أعتقه. كان طويلاً خفيف اللحية فاشتهر باينال الاجرود. تنقل في مناصب الدولة الى أن تسلطن[3]، وتُعد المدة التي تولى فيها الملك الأشرف اينال الحكم، والممتدة لفترة ثماني سنوات ما بين عامي 857هـ/ 1453م الى 865هـ/1461م، من السنوات الهامة في تاريخ دولة المماليك الجراكسة ولكن ذات التأثير السلبي، حيث كثرت ثورات المماليك الأجلاب، الذين تم جلبهم من قبل السلاطين على مدى سنوات حكمهم، فقد ثاروا سبع مرّات في عهد السلطان اينال، وازداد اعتدائهم وظلمهم للناس، فنشروا الفساد ونهبوا وخربوا البلاد واصبحوا أقوياء باستطاعتهم العزل والتعيين في المناصب، ولم يستطع السلطان ايقافهم لضعف شخصيته وحسن خلقه فلم يستطع مواجهتهم، بالرغم من أنه كان قائداً بحرياً وحربياً، فأصبحت البلاد في عهده تعاني فشلاً في سياسة الحكم وانتشار الفتن والاضطرابات والسرقة وقلة الأمن وضعف الأحوال التجارية. الأمر الذي دفعه عند شعوره بقرب أجله الى خلع نفسه من السلطنة، وعهد بها الى ابنه أحمد بن اينال.

فشكلت فترة حكمه حلقةً ضعيفةً في تاريخ المماليك الجراكسة وعاملاً مساعداً في انحلال قوة هذه الدولة[4].

هـ. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر قايتباي بن عبدالله الظاهري، هو من أصل جركسي، كان من مماليك الأشرف برسباي، ثم أعتقه الملك الظاهر جقمق في عهده فنُسِبَ إليه، تنقل في مناصب الدولة الى أن تمت مبايعته للسلطنة عام 872هـ/ 1468م، حيث لُقِب بالملك

---

[1]. عاشور، العصر المماليكي، ص178-179؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص303-304.

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص116.

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص444 ؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص305.

[4]. عاشور، المصدر السابق، ص181؛ الزيدي، المصدر السابق، ص117-118.

الأشرف، كما لُقب بخادم الحرمين الشريفين المسجد الأقصى ومسجد الخليل وذلك لحبه لمدينة القدس التي قضى بها ما يُقارب الخمسة أعوام قبل أن يتولى السلطنة[1].

تميز عهده بين السلاطين الجراكسة بطول مدته التي بلغت نحو تسعة وعشرين سنة، حتى عام 901هـ/ 1496م، ويُعد عهده من أفضل عهود دولة المماليك الجراكسة، حيث امتاز السلطان قايتباي بالشجاعة والفروسية والذكاء وحسن ادارة الحكم والخبرة والحكمة[2] والتواضع وكثرة الخيرات فعُرف عنه الكثير من الصفات الحميدة والأعمال الجليلة ما جعله ملكاً وسلطاناً نبيلاً وعظيماً. وقد استطاع الإبقاء على زمام الأمور في دولته لهذه المدة الطويلة وذلك لاختياره مماليك مخلصين له من حوله ومرتبطين به بمصالحهم الخاصة، كما وتعامله مع خصومه بقسوة وحزم، ونزاهته في التعامل بأموال الدولة، فبالرغم من إكثاره من فرض الضرائب وجمع الأموال إلا أنه كان ينفقها في الإنشاء والتعمير وفي الحروب وفي الترميم والإصلاح، ويوزع الخيرات على من له حاجة بها[3].

وتُعد آثار السلطان الأشرف قايتباي ظاهرة من خلال المنشآت العديدة التي شيدها في أنحاء دولته، حيث عُرف عنه شغفه بالسفر والتنقل، الأمر الذي مكنه من تخليد اسمه اينما ذهب من خلال إنشاء القلاع والمدارس والمساجد والأسبلة وغيرها، كما الإصلاح والترميم لمنشآت أقامها أسلافه.

وتشهد لذلك مآثره الكثيرة في مدينة القدس ومنها المدرسة الأشرفية بقرب باب السلسلة وسبيل قايتباي بين باب السلسلة وباب السكينة، كما مسجد قايتباي في القاهرة والذي يُعرف بأنه من أجمل المباني المشيدة في ذلك العصر، وقلعة قايتباي في الاسكندرية ورمم الجامع الأموي بدمشق، وأقام منبراً عظيماً للمسجد الحرام وأنشأ بجانب المسجد مدرسة ورباطاً، وأنشأ مدرسة بالمدينة المنورة، وأصلح عين عرفة وبئر زمزم وغيره الكثير...[4]

وقد تخلل حكم السلطان الأشرف قايتباي العديد من التهديدات والمصاعب،حيث أنه واجه قوى التركمان على الحدود الشمالية للدولة التي عانت عدم استقرار في تلك الفترة، كما أن نفوذ العثمانيين أخذ يزداد وأصبحت قوتهم تشكل خطراً على دولة المماليك.

وقد ازدادت الأوضاع سوءاً خاصة في اواخر عهد السلطان قايتباي حيث كثر جمع الأموال للحروب مما شكل أزمة مالية على الدولة، كما أن انتشار الوباء عام 1492م وما ترتب عليه من

---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 616-617 ؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص210، حاشية(1).

[2]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص8-9؛ عاشور، العصر المماليكي، ص182.

[3]. الزيدي، العصر المملوكي، ص127؛ Atil, Renaissance of Islam, p.17.

[4]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص7-8؛ عاشور، المصدر السابق، ص182-183؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص213؛ الزيدي، المصدر السابق، ص126.

موت آلاف الأشخاص وقحط وغلاء الأسعار بسبب ندرة الموارد، أدى الى تخلخل الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في الدولة، مضافاً الى ذلك استمرار النزاعات والصراعات بين أمراء المماليك.

وبهذا فإن أيام السلطان قايتباي الأخيرة كانت بائسة وكانت صحته تزداد سوءاً، وما لبث أن تنازل عن السلطنة لابنه محمد قايتباي، حتى توفي في اليوم التالي وكان ذلك عام 901هـ/1496م، ودُفن في قبة بناها بتربة بصحراء مصر شرقي القاهرة[1].

و. السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبدالله الجركسي المعروف بالغوري نسبة الى طبقة الغور أحد الطبقات المعدة لتعليم المؤدبين بمصر.

كان من خدم السلطان الأشرف قايتباي ثم ترقى في مناصب الدولة فكان أمير عشرة[2] ثم أخذ نيابة طرسوس وحلب وملطية ثم ترقى الى أمير ألف، وهكذا الى أن أُختير سلطاناً عام 906هـ/ 1501م وكان قد تجاوز الستين من عمره.

اتصف بالفطنة والدهاء والرأي السديد والتعسف فاستطاع قمع الأمراء وفرْض هيبته في انحاء الدولة التي عمل جاهداً لإعادة النظام والاستقرار إليها. إلا أنه كان شديد الطمع في جمع الأموال كثير الظلم، حيث أنه اتبع سياسة تعسفية لحل مشكلة الوضع المالي المتأزم للدولة، ففرض الضرائب وضاعف الرسوم وأبطل الميراث بحيث اذا مات أحد، أخذ جميع ماله، فاستطاع بذلك جمع المال الكثير وامتلأت خزائن الدولة، إلا أنه كان ذلك على حساب الشعب الذي ازدادت أحواله سوءاً بسبب كثرة الضرائب الباهظة. على نقيض مماليكه الذين أكثر من شراءهم وأنفق عليهم الكثير فاظهروا الفساد في الدولة وظلموا الناس. كما أنفق على نفسه، فاهتم بالخيول والجواهر وعُني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره. كما أنفق من ذلك المال في التشييد والإعمار، فمن مآثره المعمارية مسجداً ومدرسة ومدفناً في حي الغورية المسمى باسمه، كما أنشأ جوامع ومدارس وقصور ومنتزهات في مصر، كما أولى عناية لطريق الحج وقام بها عدة خانات وآبار وغير ذلك من الأعمال المعمارية[3].

واجه السلطان الغوري بعض الثورات الداخلية من قبل المماليك والأجلاب والعربان، إلا أن الخطر الحقيقي كان خارجياً وكانت تشكله قوة البرتغاليين الذين هددوا مركز مصر الاقتصادي كوساطة تجارية بين الشرق والغرب، فحقق البرتغاليون النصر لأنفسهم عام 1513م بعد سنوات

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص9؛ عاشور، العصر المملوكي، ص183.

[2]. أمير عشرة: وهي مرتبة حربية، تقل درجة عن أمير طبلخاناه، حيث يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك، ويكون من هذه الطبقة صغار الولاة. (المقريزي، السلوك، ج1 قسم1، ص239، حاشية (1)؛ عاشور، المصدر السابق، ص 415) .

[3]. الحنبلي، المصدر السابق، ج8، ص113–114؛ عاشور، المصدر السابق، ص185–186؛ Atil, Renaissance of Islam, p.18.

من الصراع واستطاعوا نقل زمام التجارة من ايدي المماليك الى أيدي البرتغاليين، فضاعت مكانة مصرالتجارية وساعد ذلك في عوامل ضعف الدولة[1].

كما أن خطراً خارجياً آخر قد شكل تهديداً لدولة المماليك تمثل في قوة الدولة العثمانية التي اتسعت سيطرتها لتشمل آسيا الصغرى والبلقان الى أواسط اوروبا، وارادت التوسع لضم الدولة الاسلامية، فتنبه السلطان الغوري لهذا الخطر الذي بات يهدد حدود دولة المماليك وجهز الاستعدادات للمواجهة، فالتقى الطرفان بموقع مرج دابق إحدى قرى بلدة عزاز شمالي حلب عام 1516م. فأبلى المماليك بلاءً حسناً حتى اقتربوا من تحقيق النصر، إلا أن الخيانة من قبل خاير بك نائب حلب الذي أخذ يشيع الأكاذيب بين صفوف جيش المماليك، قد أدارت اتجاه المعركة وجعلت الجيش المملوكي يتراجع، مما سبب في سقوط السلطان الغوري من فوق فرسه ميتاً، بحيث لم يستطع تحمل قسوة الموقف. وبهذا كان النصر حليفاً للعثمانيين وكانت موقعة مرج دابق فاصلاً حدد مستقبل مصر والشام في القرون التي تلت[2].

وهكذا انتهى حكم السلطان قانصوه الغوري بعد سلطة دامت ما يُقارب الستة عشر سنة، تولى من بعده السلطة في مصرالأمير طومان باي، حيث أن بلاد الشام كانت قد وقعت تحت سيطرة الدولة العثمانية وسلطانهم سليم العثماني.

ز. الملك الأشرف طومان باي الجركسي، هو آخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة، وهو ابن أخ السلطان الغوري الذي ولاه نيابة السلطنة في أثناء غيابه لمواجهة العثمانيين، ثم تمّ اختياره لتولي الحكم في مصر عام 1516م، بعد الهزيمة التي مُنيّ بها المماليك ضدّ العثمانيين. فتمنع في بداية الأمر لعلمه بالأحوال السيئة التي تدور حول السلطنة والسلطان، إلا أنه لاحقاً قَبِلَ ولاية الحكم بعد أن أخذ عهداً من الأمراء بأن يرضوا بقوله ولا يخونوه أو يغدروا به.

ومنذ بداية توليه الحكم واجه خطرالعثمانيين على مصر، فخرج للدفاع عن دولته، وأظهر شجاعة وبسالة في كل موقعة سواء في الريدانية شمالي القاهرة عام 1517م ولاحقاً في الصليبة أو في وردان، ولكن جميعها كانت تنتهي بانتصار العثمانيين، وذلك لوقوع الخيانة أيضاً من قبل خاير بك وشركاءه، مما سبب في تفرق رجال طومان باي من حوله، وعدم استقرارهم في المواجهة وانما الفرار. وهكذا استمر الحال إلى أن وجد السلطان طومان باي نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة، فقرر اللجوء الى أحد مشايخ العربان الذي خانه أيضاً وقام بتسليمه الى السلطان سليم العثماني، الذي أمر بدوره إعدام طومان باي بالرغم من اعجابه بشجاعته وعزة نفسه، فتم اعدامه عام

---

[1]. عاشور، العصر المملوكي، ص186.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص187–193؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص114؛ العريني، المماليك، ص263–264.

922هـ/ 1517م وسقط ميتاً على عتبة باب زويلة في القاهرة، وأمرالسلطان سليم بدفنه قرب مدفن الغوري. بذلك تكون نهاية سلطنة المماليك الجراكسة وحكمهم على مصر وبلاد الشام، والتي تولى فيها الحكم اثنان وعشرون سلطاناً، ثمَّ كانت بداية لحكم دولة العثمانيين[1].

1.1.5 عوامل ضعف دولة المماليك البرجية:-

لقد كان لعدة عوامل مجتمعة الأثر في ضعف دولة المماليك الجراكسة وتخلخلها ثم انهيارها، منها عوامل سياسية وعسكرية حيث أحاطت قوى خارجية بالدولة، وكثرت هجمات الأعداء لأطماعهم بالسيطرة والقوة، كما تعددت الفتن والثورات الداخلية ضدّ السلاطين المماليك خاصة في المرحلة الأخيرة من تاريخ دولتهم. ويعود ذلك الى انّ سلاطين المماليك في فترة القرن الخامس عشر كانوا يشترون مماليكهم كبار السن أو تخطوا سن البلوغ، والذين عُرفوا بالجلبان أو الأجلاب. فكان من الصعب تنشأتهم على الولاء لاستاذهم أو غرس المحبة في نفوسهم، فنشأوا ورابطة الاخلاص والمحبة ضعيفة بينهم وبين استاذهم، كما وبينهم انفسهم في الطائفة الواحدة. مما جعل اولئك الجلبان يشكلون خطراً على السلطان، وأصبح بامكانهم عزل أو اقامة السلاطين تبعاً لأهواءهم حيث زادت قوتهم وكثرت ثوراتهم. على عكس سلاطين المماليك في فترة منتصف القرن الثالث عشر، حيث كانوا يشترون مماليكهم صغار السن ويقومون بتربيتهم وتنشأتهم على أسس الولاء والمحبة، فيشبوا ونفوسهم تمُنّ بالولاء للسلطان الذي له الفضل في تربيتهم.

هذا الأمر الذي جعل سياسة الحكم ضعيفة وأدى الى وهن سلطة أواخر السلاطين المماليك الجراكسة وعجزهم عن السيطرة الفعّالة على الحكم[2].

كما وأن مستوى التربية التي حظي بها المماليك في الدولة الأولى كان على درجة عالية من التدريبات العسكرية وتدريبات الفروسية والتنشأة الخلقية السليمة، والتي لم ينعم بتلك التنشأة المماليك في دولة المماليك الجراكسة، حيث ضعُف نظام الفروسية وتمَّ إهمال التدريبات الحربية التي أدت الى ضعف الجيش المملوكي، كما أن التربية الاخلاقية لم تكن على درجة كافية، بحيث تشكل رادعاً لهم عن الفساد واللهو والفحش والجهل والعبث وسوء التصرف بشكل عام[3].

وقد أدى ذلك الى تعدد السلاطين المماليك قُبيل نهاية حكمهم، وأصبحوا يحكمون لفتراتٍ قصيرة ومحددة، مما يؤكد على مدى حالة عدم الاستقرار والفوضى وعدم ثبات الحكم الذي ساد في البلاد.

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص115-116؛ عاشور، العصرالمماليكي، ص194-199.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص181 ص184؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص298؛ الموسوعة الفلسطينية ،مج4، ص293.

[3]. السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص115-116.

كما أن ضعف قوة سيطرة السلاطين المماليك الجراكسة خاصة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وكثرة الفتن والقلاقل، أدى الى ظهور قوى خارجية جديدة ذات نفوذ. حاولت استغلال الوضع السيئ للبلاد، فظهرت قوة البرتغاليين الذين هددوا السيادة المملوكية على طريق البحر الأحمر والحقوا الهزيمة بالقوات الاسلامية، وانتزعوا طرق الخط التجاري عبر مصر كحلقة وصل تجارية بين الشرق والغرب واوروبا، لتفقد بذلك مصر هيبتها كقوة تجارية في البحر الأحمر[1].

كما أن الدولة العثمانية قد شكلت خطراً على استمرارية حكم دولة المماليك، فسرعان ما اتسعت رقعة حدود الدولة العثمانية، واقتربت من الحدود الشمالية للدولة المملوكية. والتي استطاعت لاحقاً بسبب تفكك الطوائف المملوكية المتعددة الاستيلاء على السلطة الكاملة للشام ومصر[2].

كما كان هناك قوة اخرى تتنامى هي قوة الدولة الصفوية" الشيعية" في الشرق، والتي كانت تشكل مصدر خطر وتنافُس على زعامة العالم الاسلامي، مما دفع بالمماليك الى التواطؤ مع القوة الصفوية ضدّ العثمانيين الذين كانوا بدورهم قد تحالفوا سابقاً مع المماليك في دائرة صراع ضدّ قوى عالمية اخرى تريد السيطرة لزعامة البلاد الاسلامية، الأمر الذي أدى الى اصرار الدولة العثمانية لضم البلاد الاسلامية الى امبراطوريتهم واستطاعوا تحقيق ذلك وسدّ الفجوة التي شكلتها الدولة المملوكية بكونها الحلقة الأضعف في سلسلة صراعات القوى العالمية[3].

ومن العوامل الاخرى التي أثرت في ضعف قوة السيادة المملوكية هو العامل الاقتصادي، حيث ساءت الأحوال الاقتصادية في البلاد نتيجة لتكرار مراحل الجفاف والقحط وانتشار الأوبئة التي كان نتاجها الفتك بالآلاف من الأرواح، وندرة القوت وغلاء الاسعار والمجاعات. وبالرغم من هذا التدهور المتكرر للوضع الاقتصادي خلال فترة حكم أواخر السلاطين المماليك، إلا أن النزاعات والخلافات التي بالأساس شكلت نواة لضعف الدولة، باتت مستمرة بين طوائف المماليك، الذين ازدادت اعدادهم ومراتبهم ومخصصاتهم بحيث شكلت عبئاً على خزينة الدولة، وازداد أمر الرشوة والفساد لتحصيل هذه الأموال التي لم تعد الدولة قادرة على سدادها[4].

فكان لهذه العوامل السياسية والاقتصادية السيئة ناتج أثَّرَ على العامل الاجتماعي، حيث تغيرت به مميزات المجتمع الذي عُرف بالايمان والتقوى والتصوف وانتشار الزهد في العقود الأولى للسيادة

---

[1]. عاشور، العصر المملوكي، ص186–187؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص304.

[2]. قاسم، المصدر السابق، ص305؛ Landay, Dome of The Rock, p.110.

[3]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص325–328.

[4]. قاسم، المصدر السابق، ص299؛ عاشور، العصر المماليكي، ص183؛ الموسوعة الفلسطينية، مج 4، ص293؛ Atil, Renaissance of Islam, p.17 ؛ Landay, Dome of the Rock, p.106 .

المملوكية، وتحول الى مجتمع تسيطر عليه الصفات السيئة، من تفشي ظاهرة الفساد والجشع والرشوة والاحتيال وسرقة أموال الناس والدولة والتنازع الدائم على المناصب، مما أدى الى غياب العدالة وانتشار الظلم والفقر والتسول والأمراض، في حين عاش الحكام حياة البذخ مع ممارسة الانحلال والفسق والفجور وشرب الخمر وغيره، مما أفقدهم هيبتهم وسيطرتهم واحترامهم بين عامة الشعب[1].

وبهذا يُمكن اعتبار عهد المماليك الممتد لفترة 267 عاماً والتي تولى خلالها السلطة 47 سلطاناً، عهداً يعج بالتناقضات حيث أنَّ طول هذه المدة وتعدد السلاطين سواء العظماء أو صغار السن، طبع ميزات لهذه الحقبة ففيها العزّ والذل، وفيها العظمة والانهيار، وفيها القوة والضعف وفيها الوفاء والفتن، وفيها الارتفاع والمجد كما السقوط والوهن[2].

إلا أن العوامل التي أثرت في ضعف دولة المماليك الجراكسة كانت لها نتائج قاسية من خزينة دولة خاوية وموارد مستهلكة وجيش ضعيف ومتقهقر وأوضاع داخلية متردية أدى الى عجز المماليك الكامل عن حماية البلاد الاسلامية ودَفَعَ بالدولة المملوكية الجركسية أن تنهار أمام قوة الدولة العثمانية.

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص300-301.

[2]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص217.

1.2 العمران في العصر المملوكي:

تُعتبر العمارة الاسلامية بشكل عام الشاهد المادي الأبرز الذي يجسد الحضارة الاسلامية، وقد بُنيت ضمن نطاق عوامل دينية واجتماعية وثقافية وسياسية وعسكرية واقتصادية وجغرافية باستخدام اساليب معينة لتخدم اغراض انسانية محددة. فأنتجت هذه العوامل مجتمعة أنماط مختلفة من العمارة، فظهرت العمارة الدينية كالمساجد والجوامع والمدارس والمقابر، والعمارة السكنية كالقصور والبيوت، والعمارة المدنية كالمراكزالحكومية والمحاكم والبلديات، والعمارة التجارية كالأسواق والخانات، والعمارة الدفاعية كالقلاع والأبراج والموانئ والبوابات والأسوار، والعمارة الصحية كالمشافي (البيمارستانات) والحمامات، والعمارة الصناعية كالمشاغل والمعاصر[1].

ومن بين العصور الاسلامية المتعاقبة وآثار عمارتها الشاهدة عليها، يُعتبر العصر المملوكي هو العصر الذهبي في فن العمارة والبناء[2]، فقد حذا سلاطين المماليك حذو اسلافهم من سلاطين الأيوبيين والفاطميين والعباسيين وغيرهم في الاهتمام بالحركة العمرانية. وبالرغم من أن اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك كان مركزا باتجاه تحريرالبلاد الاسلامية من براثن قبضة الصليبيين والمغول وكانت جهودهم منصبة على أمر الجهاد وصدّ العدو، إلا أنهم لم ينسوا أمر ترسيخ الهوية العربية الاسلامية في البلاد التي كانت تحت سيطرتهم فأكثروا من إنشاء المؤسسات العلمية والثقافية والتعليمية الاسلامية في مصر وبلاد الشام وفلسطين.

وقد تدرج الأمر من حركة عمرانية مصاحب لها تحويل مؤسسات ذات طابع ديني ووظيفي مختلف لمؤسسات اسلامية في العصر الأيوبي، الى نهضة عمرانية كاملة في العصرالمملوكي تشهد لها آثارها المعمارية الباقية والبارزة والتي تُظهر أسس فن عمارتها وفن زخارفها المتميز.

ولم يقتصر أمر الاهتمام بالحركة الثقافية والعمرانية على السلاطين المماليك وحدهم كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وأبناءه الأشرف خليل والناصر محمد بن قلاوون ثم السلطان حسن بن الناصر محمد، ومن بعدهم الظاهر برقوق وابنه فرج بن برقوق والأشرف قايتباي، انما تعداه الى نواب السلاطين الذين اسهبوا في اهتمامهم بالمنشآت المعمارية أمثال نائب الشام الأمير تنكز الحسامي ونائب غزة الأمير علم الدين سنجرالجاولي، وغيرهم من الذين تعدت انجزاتهم المعمارية ما قد انجزه السلاطين انفسهم. كما كان للأمراء المماليك وبعض الأعيان من المحسنين دور كذلك في الحركة العمرانية بما أنشأوه من مؤسسات خيرية كالمدارس والزوايا والاسبلة وغيرها....[3]

---

[1] .Zahlan, The Recontruction of Palestine, pp.395-396.

[2]. حسن، فنون الاسلام، ص71.

[3]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص401-402.

وتعود اسباب هذه النهضة العمرانية في العصر المملوكي بالأساس الى انتشار الأمن والاستقرار في الدولة خاصة في بداية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري، الأمر الذي تبلور عنه وجود نهضة تعليمية، دعت الحاجة الى ترسيخها انشاء مؤسسات مختلفة تُعنى بأمور التعليم والتثقيف جنباً الى جنب مع توفير الراحة لطالبي العلم.

وقد كان لنظرة العامة من الناس على المماليك بأنهم طائفة من الأتراك الأجانب أثره الايجابي في دفع الحكام المماليك على تأكيد انتمائهم للدين الاسلامي وتطبيقهم لشعائر الدين، فجاءت اعمالهم مركزة على أمر تأسيس العديد من المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية، فغدت حضارتهم ذات طابع ديني الى جانب الصبغة العسكرية.

وكان لأمر احياء الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ/1261م، على يد الظاهر بيبرس عاملاً اكسب مدينة القاهرة نفوذاً سياسياً ودينياً، وجعل السلاطين المماليك يظهرون كحماة للدين الاسلامي، فكان الإقدام على تشييد العمائر المختلفة أمراً يدعم هذه الخطوة ويؤكد على أحقية المماليك في السيطرة على العالم الاسلامي[1].

كما أن توفر الثروة والمال الوفير في هذه الحقبة نتيجة للعلاقات التجارية مع دول الشرق والغرب وازدهار اقتصاد الدولة، مكّن السلاطين والأمراء وغيرهم من أصحاب الخير من استغلال هذه الثروة في انشاء ودعم مؤسسات دينية وتعليمية وخيرية، تشهد لمقدار هذا الانفاق من المال والجهد عظمة العمائر المملوكية الفائقة الروعة والرقي.

وقد كان لرغبة سلاطين وحكام المماليك في التقرب الى عامة الشعب أثره في ازدهار التعليم. فقد كان أمر الحياة اليومية هو الاساس الذي تمحورت حوله اهتمامات السلاطين والأمراء حيث تعددت مظاهر هذه الرغبة من خلال الاهتمام بتوفير الخدمات لكافة فئات الناس، وسدّ احتياجاتهم في مختلف جوانب حياتهم سواء الدينية أو الثقافية والتعليمية أو الاجتماعية أو الصحية أو التجارية. وأُنشئت لذلك العمائر المتعددة والتي اختلفت وظيفياً تبعاً للغاية من انشاءها. فأقيمت الجوامع والمساجد خدمة لأهل الدين لتسهيل اقامة الشعائر الدينية. ولم يقتصر الهدف من انشاء هذه المؤسسات الدينية على كونها مراكز للتعبد وقراءة القرآن الكريم فحسب، انما شكلت صرحاً تعليمياً كذلك من خلال كونها مؤسسات عُنيت بالعلم والتدريس وتقديم التوجيه والنصح، فكانت تضم اعداداً من الطلبة ورجال العلم والفقهاء.

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص245–246؛ الحجي، صور من الحضارة العربية الاسلامية، ص12، ص135.

وقد اختص سلاطين المماليك الفقهاء والعلماء بالعناية الخاصة، فأوجدوا مجالس تشاور معهم، وحرصوا على توثيق علاقاتهم بهم وعلى مرافقتهم، حيث شكل العلماء في مفهومهم القوة الروحية، وانفسهم القوة العسكرية، فكان لا بدّ من وجود روابط قوية بينهم تُشكل دعماً اساسيا هدفه خدمة المجتمع والنهوض به[1].

وكان أمر تدريس العلوم الدينية من علم دراسات القرآن كعلم التفسير وعلم القراءة هو من أولويات السلاطين. كما الاهتمام بعلم التاريخ وعلم اللغة العربية كأداة اساسية لتعلم واتقان العلوم الاخرى، فأقيمت مؤسسات هدفها الاساسي العلم ونشر التعليم. فأسست المدارس للصغار والتي عُرفت بالكتاتيب، كما أُنشئت المدارس لرواد العلم والتعليم والتي ارتبطت بالفكر المذهبي. وقد بلغ عدد المدارس التي اقيمت في عهد المماليك في دمشق ما يقارب 125 مدرسة، وفي القاهرة 82 مدرسة وفي القدس ما يُقارب 50 مدرسة. وكان الهدف الرئيسي من الاكثار في انشاء المدارس هو خدمة الدين الاسلامي وما يتعلق به من أمورعقائدية وتشريعية. كما اقيمت دور الحديث التي كان لها دوراً في تعليم أصول الحديث النبوي والفقه والشريعة والسيرة النبوية وغيرها[2].

وقد أُولي عنايةً انشاء مكاتب سبيل لتعليم أيتام المسلمين القرآن والقراءة والكتابة وتوفير المسكن والملبس لهم كسباً للأجر والثواب. وتم الحاقها بالمدارس أو الجوامع من أجل تيسير الاشراف عليها والعناية بها بالشكل الجيد.

كما كان للمؤسسات ذات الطابع الديني الخيري جزءاً يسيراً من هذا الاهتمام، حيث أُنشئت الخانقاوات للمتصوفين، والتي شكلت تعبيراً عن التوجه الاسلامي للثقافة الصوفية الاسلامية، يمارس فيها المتصوفون طقوسهم للتقرب الى الله، كما يقيمون بها ويقدمون خدماتهم لطالبي الانتفاع ببركتهم. وقد تميزت الخانقاوات بالعصر المملوكي بحسن التنظيم وبأعلى درجات اساليب التعليم وبنخبة من العلماء والمشايخ[3].

كما أن الأربطة والزوايا شكلت ملجأً للزهاد المنقطعين للعبادة والعلم ومكاناً للفقراء والمحتاجين، تُوَفَر لهم فيها منافع تعليمية واجتماعية. كما عُنيت هذه المؤسسات بالنساء، فاقتصرت بعض الأربطة على خدمة النساء اللواتي تقطعت بهن السُبل، فكان يتم ايوائهن وتعليمهن[4].

---

[1]. الزيدي، العصرالمملوكي، ص296؛ الحجي، صور من الحضارة العربية، ص135، ص146، ص195؛ عاشور، العصر المماليكي، ص384؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص512.

[2]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص204، ص404؛ الزيدي، المصدر السابق، ص257.

[3]. الحجي، المصدر السابق، ص161، ص187.

[4]. الحجي، المصدر السابق، ص163-165.

وقد عُني سلاطين وأمراء المماليك بإنشاء مبانٍ مخصصة لدفنهم، وتُعرف بالمدافن (التُرب) والمشاهد والمزارات. وكانت التربة أو الضريح عبارة عن مبنى يتخذ عادة الشكل المربع وتقع في مركزه قبة، فأصبحت " القبة" اسماً مرادفاً للتربة.

وكان انشاء الترب تقليداً عرف قبل العصر المملوكي، ولكنه لم يقتصر حينها على السلاطين والأمراء، انما كان يتم انشاء هذه المباني أيضاً للعلماء والفقهاء والمتصوفين. أما سلاطين وأمراء المماليك فقد اختصوا هذه الاماكن لهم واحياناً لأسرهم.

وكانت تأتي هذه المباني إما مستقلة أو أن تُلحق بمسجد أو مدرسة أو خانقاة، وحينها تفرض عظمتها من خلال الموقع الرئيسي الذي تشغله في المجمع أو من خلال واجهتها الرئيسية المسيطرة على واجهة المجمع. وكان بعض هذه التُرب ذو حجم ضخم بحيث يشتمل على العديد من المرافق للعاملين في خدمة التربة، أو اجنحة للزائرين القادمين لزيارة القبور في المناسبات والأعياد حيث خصصت لهم مساكن للإقامة والاستراحة، وهناك أجنحة فخمة عادة في الدور العلوي مخصصة لإقامة السلطان وعائلته وحاشيته.

والى جانب كون هذه الترب مزارات فإنه كانت يُرتب بها دوماً تلاوة القرآن وتجري بها عملية تدريس منتظمة لأمور العلوم الدينية، كموضوع تفسير القرآن والحديث النبوي[1].

كما كان للمماليك اهتماماً بالخدمات الصحية، فانشئت البيمارستانات والتي كانت تقدم مستوى عالي من الخدمات الطبية، اضافة الى ذلك فقد تم تشجيع الأطباء، حيث اقتضت كثرة الحملات العسكرية مرافقة الأطباء للعساكر، للعناية بصحة الأمراء والقادة. مما دفع الأطباء الى زيادة وتطوير مستواهم العملي والعلمي من خلال الاهتمام بالعلوم الاخرى والتي لها علاقة بعلم الطب كعلم الأحياء والنبات والكيمياء وغيرها، الى جانب الإحاطة بحقول المعرفة الاخرى كالفلسفة واللغة والأدب وغير ذلك من العلوم النظرية[2].

ولقد شكلت الحمّامات مكاناً لتوفير خدمات صحية واجتماعية في آنٍ معاً، فكان يتم استغلال هذه الأماكن للاغتسال وللمعالجة الطبية للذين يُعانون من امراض جلدية أومشاكل الأعصاب والمفاصل. كما كان الحمّام يُشكل مكاناً تُمارس فيه الأنشطة الاجتماعية، من تبادل الأحاديث ولغايات التزيُن قبيل المناسبات الاحتفالية. وقد كانت هذه الحمّامات تعمل ضمن نطاق حدود

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص31–32؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص412–413؛ القحطاني، مبادئ العمارة الاسلامية، ص198.

[2]. عثامنه، المصدر السابق، ص418.

صحية واجتماعية وأخلاقية، فكان يتم الاعتناء بنظافة مرافق الحمّام كاملة الى جانب الالتزام بقواعد الآداب الدينية والأخلاقية.

وقد عُنِيَّ سلاطين المماليك عناية خاصة ببناء الحمّامات، وكانت جزءاً من اهتمامهم بتوفير خدمات كاملة لعامة الناس، وضمن اطار اعمالهم الخيرية لكسب الأجر ومحبة الشعب.

لقد أولى المماليك عناية بتوفير المياه للمدن، ليس لأن الماء مصدر للحياة الحضارية فقط، وانما لارتباط المياه بالعقيدة الاسلامية لإقامة الشعائر الدينية. فحرص السلاطين والأمراء على بناء القنوات في الأماكن التي تنقصها المياه، لتكون من ضمن أعمالهم الخيرية لمنفعة الناس. فكان يتم انشاء الأسبلة والبرك لتيسير المياه للمارة والمنتفعين[1]. وقد كان لفظ سبيل وفعلها الثلاثي أسبل بمعنى صبَّ المياه، قد ظهر في الفترة المملوكية بمعنى عين المياه، وذلك تأكيداً على استمرار الصدقة وفعل الخير في "سبيل" الله[2].

كما لم يُهمل السلاطين المماليك بناء الجسور والقناطر في أنحاء الدولة المملوكية، لتساعد السكان والمسافرين على الوصول الى غاياتهم بأمان ودون مشّقة. ولم يقتصر اهتمام سلاطين المماليك والأمراء على أمر التنقلات الداخلية فحسب، إنما تعداه الى توفير الأمن للقوافل على الطرق الخارجية وضمان الراحة للمسافرين والتجار من خلال تشييد الخانات على طول الطرق التجارية الرئيسية[3]، والتي أقيمت كمحطة للراحة، ومكان آمن لمبيت المسافرين حيث أُحيطت هذه الأماكن بالأسوار العالية التي تتخللها أبراج الحراسة، واستُخدمت أيضاً كمخازن للبضائع المنقولة. وهناك نوع آخر من الخانات التي أقيمت في داخل المدن، وتُعرف أيضاً بالفنادق أو الوكالات أو القيساريات (القياسر)، تشترك جميعها بنفس الوظيفة وقد تتباين قليلاً بمساقطها الأفقية. وتقع في مركز المنطقة التجارية حيث تقوم على توفير نُزُل للتجار ومكان لتخزين وتصريف بضائعهم. وكان لهذه العناية باستمرار النشاط التجاري وتطويره أن يقوم بعض كبار التجار أنفسهم بإنشاء الخانات، فلا تكون المبادرة فقط من السلاطين أو نوابهم[4]. وكان لهذه الخانات دوراً بارزاً في ازدهار الحركة التجارية وتمتع مصر وبلاد الشام بالثراء[5].

لقد كانت هذه المنشآت من أهم الطرز المعمارية التي لها علاقة مباشرة بحياة عامة الناس، ولكن بالرغم من التطور والازدهار والرقي الذي وصلت إليه العمارة المملوكية وتنوع طرزها،

---

[1]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص 423، ص431-432.

[2]. بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص89.

[3]. عثامنه، المصدر السابق، ص438؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص233؛ Sims, Architecture of the Islamic World, p.97.

[4]. عثامنه، المصدر السابق، ص433-434؛ مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص72-75.

[5]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص86.

واستخدام عناصر معمارية وزخارف متميزة أضفت لها طابعاً مميزاً، إلا أنه بسقوط الدولة المملوكية الجركسية تحت الحكم العثماني، أدى الى تراجع عمارة ذلك العصر ويعود ذلك الى تأثيرات العمارة العثمانية وترحيل خيرة المهندسين والعمال الى اسطنبول[1].

1.2.1 أبرز الانجازات المعمارية:

أما أبرز الانجازات المعمارية في دولة المماليك فكانت كثيرة ومتعددة، وقد تأثرت العمارة المملوكية بتأثيرات معمارية من العصور السابقة، فيظهر تأثير العمارة الفارسية والعمارة الساسانية في تخطيط المساجد والمدارس، حيث أصبح المسقط العام للمسجد أو المدرسة أو المجمع هو الصحن المحاط بأربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك في مصر مدرسة السلطان الظاهر بيبرس (660هـ -662هـ/ 1262م-1263م)، ومسجد ومدرسة ومدفن وبيمارستان السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين (683هـ -684هـ/ 1283م - 1285م)، ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون (695هـ -703هـ/ 1295م -1304م)، وخانقاه ومدفن بيبرس الجاشنكير(706هـ -709هـ/ 1306م ـ1310)، ومدرسة ومسجد ومدفن السلطان حسن (757هـ -764هـ/ 1356م ـ1362م) والذي يُعتبر المَعْلَم الأبرز للعمارة الاسلامية في مصر، ومدرسة ومدفن وخانقاه برقوق بالنحاسين (786هـ -788هـ/1384م-1386م)[2]. وفي القدس تعتبر المدرسة التنكزية (729هـ/ 1328-1329م) الواقعة في الجزء الجنوبي من طريق باب السلسلة، من أبرز الأمثلة على مخطط المدرسة ذي الايوانات الأربعة، كما والمدرسة الأشرفية والتي قام السلطان الأشرف قايتباي بإعادة بناءها عام (887هـ/ 1483م)[3].

وهناك امثلة لاستخدام الأروقة حول الصحن في المساقط الأفقية للمساجد بتأثيرات من العصور السابقة، منذ الفتح الاسلامي 20هـ/ 640م وحتى نهاية العصر الفاطمي 567هـ/ 1171م، إلا أنها تختلف في العصر المملوكي بصغر مسطح الصحن المكشوف بالنسبة للأجزاء الاخرى المغطاة من الأروقة بعكس العصور السابقة، ومثال على ذلك في مصر المسجد الكبير للظاهر بيبرس (1267م-1269م)، ومسجد الناصر محمد بالقلعة (735هـ/ 1335م)، ومسجد فرج بن برقوق (811هـ/ 1408م) ومسجد الأشرف برسباي (841هـ/ 1437م)[4].

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص14.

[2]. مصطفى، المصدر السابق، ص19-20؛ حسن، فنون الاسلام، ص73؛ آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ص59-60؛
Hoag, Islamic Architecture, pp.80 -82

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص388؛
Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 47 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.223

[4]. مصطفى، المصدر السابق، ص20-21؛ Hoag, Islamic Architecture, pp.78-79.

وقد يقوم بعض سلاطين المماليك كالظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون بإنشاء مسجدين بحيث يكون احدهما على نظام المدرسة ذات مسقط الصحن وأربعة ايوانات، ويكون داخل حدود المدينة بحيث يكون قريباً من الطلاب، أما الآخر فيكون على نظام الأروقة ويُبنى خارج المدينة ويكون للصلاة والعبادة[1].

وهناك نوع آخر يجمع بين المسقطين، أي الإيوانات والأروقة في مسقط واحد، ومثال على ذلك في مصر خانقاه فرج بن برقوق بمدافن المماليك (801هـ –813هـ/ 1399م ـ1411م)، وقد كانت مساقط الخانقاوت لا تختلف عن مساقط المدارس إلا في بعض الأحيان. ويُعتبر مسجد وخانقاه فرج بن برقوق من أعظم المنشآت الدينية الخيرية، حيث ضمَّ الى جانب المسجد والخانقاه ضريحين لأسرة برقوق وسبيلين وكتّابين ورَبْعاً سكنياً. كما وترتفع بالمبنى منارتان متماثلتان وتتميز قبتان متماثلتان كبيرتان في طرفي المبنى بزخارفها المحفورة بالحجر على شكل رقمي" ٧ و٨"، وقبة اخرى صغيرة فوق المحراب[2].

لاحقاً تطورت هذه المساقط خاصة في نهاية العصر المملوكي الجركسي، بحيث صغرت مساحة الصحن والايوانات الجانبية، كما وتداخلت الفراغات مع بعضها، وتمت تغطية الصحن بفانوس خشبي به فتحات زجاجية ملونة، أضفت على العمارة الاسلامية رونقاً ورُقِياً، مثلما توضح مدرسة ومسجد ومدفن قايـتبـاي بالصحراء الشرقية في القاهرة (877هـ – 879هـ/ 1472م–1474م)، وكذلك مدرسة ومدفن الغوري (909هـ –910هـ/ 1504م–1505م)[3].

لقد برزت هذه النماذج للعمارة المملوكية في مصر باعتبارها مركزاً لحكم سلاطين دولة المماليك، أما بلاد الشام فإنَّ الاهتمام ببناء المدارس خاصة أو المساجد كان قد تراجع بعد عام 1250م، أي بعد سقوط دولة الأيوبيين والتي كان مركز قوتها يتمحور في بلاد الشام، خاصة بعد الظاهر بيبرس الذي كان له اهتمام بالتعمير في سوريا. أما مَنْ تبعه من السلاطين فإنه كان نادراً اهتمام أي سلطان بإنشاء مجمع في سوريا كما تم انشاؤه في مصر. ويُستثنى من بلاد الشام فلسطين باعتبار اهميتها الدينية حيث استمر الاهتمام بإعمارها حتى عهد قايتباي. وبذلك فإنَّ الاهتمام بإنشاء المدارس في القاهرة قد حظي بالاهمية المميزة دوناً عن أمر تعميرها في بلاد الشام، وأصبح اهتمام المماليك منصباً أكثر حول بناء الأضرحة والمساجد التي تشتمل على المدافن.

---

[1]. حسن، فنون الإسلام، ص24.

[2]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص21؛ عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الاسلامية، ص200–201.

[3]. مصطفى، المصدر السابق، ص21؛ عكاشة، المصدر السابق، ص200–201.

وكان هناك اختلاف في تخطيط المدارس في بلاد الشام عنها في مصر، حيث امتازت بالمرونة في استخدام وتحويل الايوانات في المدرسة، وتغيير حجمها. فقد يتم تحويل ايوان الى مدخل وأحياناً يتم تركه مكشوفاً وتحويره لخدمة زيادة مساحة الصحن الداخلي المكشوف. كما وهناك امكانية تحويل ايوانين الى تربة ومسجد، وبهذا فإن مرونة تحويل الايوانات بحيث يمكن أن يتم تصغيرها لتصبح تجويفاً في الحائط أو تكبيرها لتصبح مسجداً، قد أثَّر في مخطط المسقط الأفقي للمدارس، الذي أصبح بشكله الأساسي ذا ايوانين. وأصبح الاهتمام مركزاً على الواجهة المطلة على الطريق باحتواءها المدخل الرئيسي وبعض النوافذ، أما بقية المبنى فيكون امتداده بشكل عمودي على الطريق.

ومن الأمثلة على ذلك في دمشق المدرسة الظاهرية (676هـ/ 1277–1278م) وفيها ضريح الظاهر بيبرس، ومدرسة الشيخ حسن راعي الهِمة (863هـ/1459م)، ومدرسة السيّدة، والمدرسة الرشيدية (750هـ/ 1349م) والمدرسة الجقمقية (822هـ/1419م) ومسجد الطُرُزية (825هـ/ 1422م).

أما التأكيد على استخدام المدرسة كمسجد فيكون بإضافة مأذنة الى المبنى، كالمدرسة الصفهية والتي قام ببناءها القاضي ابن الصفه في (868هـ/ 1464م) والمدرسة الأنصارية وكلتاهما في مدينة حلب.

أما مدينة القدس والتي حظيت بالاهتمام، فقد تعددت المدارس التي تم انشاؤها مثل المدرسة الدوادارية (697هـ/ 1298م) والمدرسة الخاتونية (784هـ/ 1382م) والمدرسة السلامية (700هـ/ 1300م) والمدرسة الطشتمرية (785هـ/ 1383م) والمدرسة المُزهرية (885هـ/ 1480م) والمدرسة الجواهرية (844هـ/ 1440م) والمدرسة الأسعردية (760هـ/ 1359م) والمدرسة التنكزية (729هـ/ 1328–1329م) والمدرسة الأشرفية (887هـ/ 1483م) والتي قام بإعادة بناءها الأشرف قايتباي وتُعتبر أبرز الأمثلة للمدارس المملوكية خارج مدينة القاهرة. وقد تمَّ في جميع المدارس التركيز في تخطيطها على المداخل، حيث تمت العناية بزخرفتها لإعتبار ضيق الطرق في المدينة، الأمر الذي دعى الى حاجة اظهار المباني[1].

أما الأسبلة فقد تُبنى كوحدة معمارية منفردة، كما في سبيل الناصر محمد بن قلاوون (726هـ/ 1326م) في القاهرة[2]، وفي القدس كسبيل قايتباي (887هـ/ 1483م) وسبيل علاء الدين البصيري المعروف أيضاً بسبيل باب الحبس (666هـ/ 1267م)[3]. أو أن يُلحق بالسبيل كُتّاب

[1] .Hillenbrand, Islamic Architecture, pp.202-203

[2]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص33.

[3]. العسلي، من آثارنا، ص223، ص238.

على الطابق العلوي، وقد عُرف حينها بمكتب السبيل. وقد يأتي السبيل والكُتّاب كأحد العناصرالمعمارية المكونة لمبنى المدرسة أو الخانقاه او المسجد ويشغل ركناً هاماً من أركان المبنى، وحينها يتم تمييز واظهار السبيل والكُتّاب عن طريق معالجة الحوائط بطريقة مخالفة لحوائط المبنى الاخرى، حيث يتم استخدام الرخام الملون مثل الأبيض والأسود، وتغيير الفتحات به كما وابراز شرفات الكُتّاب الخشبية المزخرفة، ويظهر ذلك بوضوح في مدينة القاهرة في سبيل مسجد فرج بن برقوق (811هـ/ 1408م)، وكُتّاب مدرسة الأشرف برسباي (829هـ/ 1425م)، كما وفي مسجد ومدرسة ومدفن قايتباي بالصحراء الشرقية (877هـ -879هـ/ 1472م- 1474م)، وأيضاً في قبة وسبيل الغوري (909هـ -910هـ/ 1504م- 1505م)[1].

أما المدافن فإن مدفن شجرة الدّر(648هـ/ 1250م) يُعتبر من أبرز الأمثلة على المدفن الواقع كمبنى مستقل. أما المدافن الملحقة بالمباني فهي متعددة في القاهرة، ويُعتبر مدفن مدرسة برقوق بالنحاسين (786- 788هـ/ 1384-1386م) ومدفن خانقاه بيبرس الجاشنكير ومدفن مدرسة السلطان حسن (757-764هـ/ 1356-1362م) من أروع الأمثلة في اظهار أهمية المدفن بإبراز موقعه في المجمع المعماري، كما ومدفن قايتباي ومدفن برسباي[2].

وفي القدس يُعتبر مدفن "بركة خان" ذو الزخارف الحجرية الرائعة، على طريق باب السلسلة من ضمن مجموعة ترب انشأت في المدينة لدفن أمراء كانت منيتهم في المدينة أو في خارجها، وذلك للإيمان في الدين الاسلامي بأن البعث يوم القيامة سيكون من مدينة القدس، فتم اقامة العديد من التُرب خاصة في المنطقة المحيطة بالحرم القدسي الشريف[3].

ومن أبرز الأمثلة على عمارة البيمارستانات، يظهر بيمارستان قلاوون بالقاهرة (683-684هـ/ 1284-1285م) والمعروف بالبيمارستان المنصوري نسبة الى المنصور قلاوون الألفي والملحق بمدرسته ومدفنه، كشاهد على مدى الاهتمام بمختلف العلوم الطبية من خلال الأقسام المتعددة فيه[4].

وقد ظهرت الحمّامات كطراز معماري استوجبته تعاليم الدين الاسلامي ومناخ منطقة الشرق الأوسط الحار نسبياً، وجاءت طريقة التشغيل مشابهة للطريقة التي استعملها الرومان من خلال التدرج في التنقل بين الغرف تبعاً لدرجة الحرارة، بحيث يضمن للمستحم الراحة والسلامة في الانتقال بين درجات الحرارة المختلفة، ويظهر ذلك في الحمّام المؤيدي (823هـ/ 1420م) في القاهرة. ومن الحمّامات الشهيرة أيضاً ولكن المدّمرة، حمّام بشتاك بالقاهرة (740هـ/ 1339م)،

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص33-36.

[2]. مصطفى، المصدر السابق، ص31-32؛ حسن، فنون الاسلام، ص77.

[3] .Kroyanker, Jerusalem Architecture, p.47

[4]. مصطفى، المصدر السابق، ص71؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص420.

والذي لم يبقَ من آثاره سوى مدخله[1]. كذلك في مدينة القدس يشتهر حمامي الشفا والعين في سوق القطانين[2].

وكان من أبرز الجسور التي أقيمت، جسر دامية على نهر الأردن في منطقة الأغوار بأمر السلطان الظاهر بيبرس عام 665هـ/ 1266م. كما وقناطر أرسوف في منطقة الساحل الفلسطيني في فترة النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وقناطر برقوق في القدس[3].

وكما تم ذكره فإن العلاقات التجارية في الدول المملوكية كانت تشغل اهتماماً كبيراً من قبل السلاطين والأمراء، ولذلك عُنيوا بإنشاء الخانات التي هدفت بالأساس الى توفير الأمان للتجار ولبضائعهم على الطرق التجارية، كما وتوفير الراحة والمسكن لهم ومخزن لبضائعهم. وقد تم إنشاء العديد من الخانات كان من ابرزها خان الظاهر بيبرس (662هـ/ 1263–1264م) في ماميلا خارج اسوار القدس، وخان يونس في غزة المُقام على الطريق التجاري بين مصر والشام، من قِبَل الأمير يونس بن عبدالله النوروزي، وخان العقبة (914هـ/ 1508–1509م) الذي بقيت آثاره مدمَرة منذ عهد الأيوبيين الى أن قام السلطان قانصوه الغورى بترميمه وتجهيزه على طريق الحج بين مصر والشام[4].

أما الخانات التي كانت تُقام داخل المدن الكبرى ووسط الأسواق، والتي عُرِفت كذلك بالوكالات أو القياسر فكان من أبرزها وكالة قايتباي بالقرب من باب النصر بالقاهرة (885هـ/ 1480–1481م)، ووكالة الغورى في القاهرة (909–910هـ/ 1504–1505م)، والتي تتكون من عدة طوابق عددها خمسة، تُطِل على صحن داخلي مشترك ومفتوح، ويُشكل فيها الطابقين السفليين مكان لتخزين البضائع، أما الطوابق العليا فهي تتشكل من وحدات سكنية منظمة بشكل عمودي يتخللها أدراج منفصلة كل على حِدة. أما الوكالات في بلاد الشام فتختلف عن مثيلاتها في مصر، حيث أنها لا تتعدى الطابقين، طابق أرضي وطابق علوي مكون من غرف تفتح على دهليز ثم يُطل الدهليز على الصحن، أما في الأمثلة المصرية فإن الغرف عبارة عن مساكن مطلة مباشرة على الصحن. ومن بين الوكالات والخانات التي أُنشأت في فلسطين، خان تنكز الذي أقامه نائب دمشق الأمير تنكز الحسامي بسوق القطانين في القدس. كما وخان أو وكالة السلطان الذي جُدِدَ

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص76؛ حسن، فنون الإسلام، ص81.

[2]. العسلي، من آثارنا، ص175، ص190.

[3]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص438– 439.

[4]. عثامنه، المصدر السابق، ص435– 438.

أيام السلطان برقوق، وخان الزيت؛ حيث أنَّ بعض الخانات قد عُرِفَتْ تبعاً لنوع البضاعة التي اختصت بها.[1]

1.2.2 مميزات العمارة المملوكية:

لقد تم ذكر بعض أبرز الإنجازات المعمارية للسلاطين أو الأمراء المماليك، حيث أنَّ أعمالهم متعددة لا يُمكن حصرها. وكان لجُل هذا الاهتمام بالحركة العمرانية أنْ أصبح للعمارة مميزات خاصة تمتاز وتتميز بها، يمكن قراءة بعض منها من خلال أنَّ العمارة المملوكية امتازت بالآتي:-

- أنَّ العمارة الاسلامية عامة والمملوكية خاصة اتسمت بطابع تعدُد الوظيفية، فالبناء نفسه يتم استخدامه لوظائف متعددة مثل المسجد أو الخانقاة أو الضريح؛ فالمسلمون لم يقوموا بالعبادة فقط في المسجد، ولم يتلقوا التعليم الديني فقط في المدرسة، ولم يتم دفنهم فقط في الأضرحة، إنما تم توظيف المباني لعدة غايات واستخدامات، ولذلك نشأت ظاهرة المجمعات المعمارية، حيث أنَّ المجمع يتكون من أكثر من بناء كالمسجد والمدرسة والخانقاة والمدفن والكُتّاب والسبيل. وقد اتخذت هذه المجمعات بُعداً عمودياً في تكوينها نظراً لضيق المساحة المتاحة والنسيج الحضاري المتماسك[2].
- تأثرت العمارة المملوكية بحضارات مختلفة، فظهرت تأثيرات ساسانية وفارسية وايرانية ورومانية وبيزنطية واناضولية، فارتقت العمارة المملوكية بصبغات مختلفة أكدت على طابعها المتميز[3].
- تُعتبر العمارة المملوكية هي عمارة احتواء، حيث أنه بالرغم من الاعتناء بالواجهات الخارجية والمداخل إلا أنَّ المبنى يفتقر الى ما يوضح شكله أو حجمه أو وظيفته، فمن الصعب الادراك من خلال السطح الخارجي للمبنى ما يحويه داخله من ملامح رئيسية، وبذلك فإن البناء من الخارج يظهر وكأنه قلعة من الحجر، أما من الداخل فتذوب الكتلة وتظهر كنحت لاحتواء الفراغ.
- امتازت العمارة المملوكية باستهدافها للجماعة، بإنشاء العمائر المختلفة التي أقيمت لخدمة عامة الناس، في حين أنَّ القائمين عليها كانوا يقصدون بها كفارة أو تقرباً الى الله.
- للعمارة المملوكية صلة وثيقة بالعقيدة الاسلامية ومظاهرها المختلفة سواء الدينية أو السياسية أو الاجتماعية[4].

---

[1]. Sims, Architecture of the Islamic World, p.90;
مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص73-74؛ عثامنه، المصدر السابق، ص434- 435؛ عكاشة، القيم الجمالية، ص212-214

[2]. القحطاني، مبادئ العمارة الاسلامية، ص196-197؛ Hillenbrand, Islamic Architecture,p.6.

[3]. مصطفى، المصدر السابق، ص13؛ Hoag, Islamic Architecture, p. 7.

[4]. القحطاني، المصدر السابق، ص284-285؛ عكاشة، المصدر السابق، ص146 ص150.

- امتازت العمارة المملوكية بالاهتمام بالنسب، حيث روعي علاقة ارتفاع البناء مع عرض الطريق وذلك لتوفير الاضاءة والتهوية المناسبة لداخل المبنى. كما وروعي تنظيم الفراغات بين المباني بحيث تشكل رابط فيما بينها[1].
- امتازت العمارة المملوكية بتخطيط الصحون المحاطة بأربعة ايوانات لخدمة المذاهب الأربعة. وهذا تصميم تجريدي يمتاز بمرونته ويحقق سهولة في اختيار الاستخدام الوظيفي للمبنى، حيث أن العمارة الاسلامية بشكل عام تُؤْثِرْ أهمية الاستعمال على الشكل وتُخْضِعْ الشكل للاستعمال[2].
- لقد أولى المماليك عناية خاصة بواجهات عمائرهم؛ فجاءت الواجهات كبيرة ومرتفعة، وظهر التنوع والاتقان في العناصر المعمارية من المداخل، المآذن، القباب، العقود، الأعمدة وغيرها...، وكان الحِرص بألا يكون المدخل في وسط الواجهة، بل في ركن منها وأن يكون مرتفعاً ويتم الصعود إليه بدرجات، ويكون المدخل شاهقاً قد يمتد الى ارتفاع البناء وفيه عمق. كما أسرفوا في الزخارف والنقش على الحجر بزخارف توريقية وأشكال هندسية ونباتية. وعمدوا الى تغطية المساحات وعدم ترك أي مساحة دون زخرفتها، فلجأوا الى تكرار الموضوعات الزخرفية. وكانت تعكس هذه الزخارف وكثرتها أهمية القائم على البناء، فكلما زادت الزخارف وتنوعت كلما كانت مرتبته أعلى. كما لجأوا الى تغطية الجدران بالفسيفساء والأرضيات بالرخام المُلون، وأبدعوا في زخرفة المآذن والقباب سواء من الداخل أو من الخارج[3].
- استخدام المقرنصات كعنصر انشائي وزخرفي، واستخدام الحنيات العمودية الطويلة التي قد تُفْتَحْ فيها نوافذ وتنتهي في أعلاها بالمقرنصات. واستخدام الأشرطة الكتابية التي ظهرت فيه ضُروب مختلفة من الكتابة، واستخدام الأبلق (الحجارة الملونة) باللونين الأحمر والأصفر أو الأسود والأبيض، واستخدام التعشيق، والمصبغات الحديدية، والرنوك، والمكسلتين (المسطبتين)[4].
- تميز تصميم المآذن المملوكية بالانتقال من المسقط المربع الى المسقط الدائري. والتدرج في نِسب مستويات المأذنة، بحيث تتناقص كلما ارتفعنا الى أعلى بغية جذب النظر الى أعلى. كما تم التأكيد على موقع المأذنة بوضعها بجوار المدخل، في حين أنها وُضعت فوق المدخل في العصرين الفاطمي والأيوبي.

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الإسلامي، ص91-92.

[2]. عكاشة، القيم الجمالية، ص148.

[3]. حسن، فنون الاسلام، ص71 ص80؛ Hillenbrand, Islamic Architecture, p.195 .

[4]. حسن، المصدر السابق،ص79 ص677؛ عكاشة، المصدر السابق، ص74؛Kroyanker, Jerusalem Architecture, pp. 50-51.

- تميزت العمارة المملوكية بكثرة استخدام الحجر، وصناعة الزجاج بالمينا، وتطعيم الخشب بالنحاس والتكفيت بالفضة[1]، وتقدمت صناعة الأسقف الخشبية ذات المقرنصات[2].

وأخيراً فقد كان لهذه السِّمات الرئيسية للعمارة المملوكية أنْ صبغتها بطابعٍ مميزٍ وراقٍ وبريقٍ لمعت به عن سائر العمائر الاخرى على مدى الزمان، وأبرزت عصرها الذي تستحق ما وُصِفَ به بأنه العصر الذهبي في الفن المعماري.

[1]. التكفيت بالفضة: حفر في النحاس يملأ بأسلاك الفضة.(مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص118).

[2]. عكاشة، القيم الجمالية، ص200؛ مصطفى، المصدر السابق ، ص13 ص114.

الفصل الثاني

الإدارة المملوكية لبلاد الشام



الفصل الثاني:

الإدارة المملوكية لبلاد الشام

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول الإدارة المملوكية الداخلية لبلاد الشام والتقسيمات الادارية (النيابات) فيها، ومهام وصلاحيات النواب مع ذكر لمكانة نيابة الأمير تنكز على دمشق. أما القسم الثاني فيتناول الحديث عن الوضع الاداري لمدينة القدس خاصة، وادراجها لأهميتها الدينية والجغرافية نيابة مثل سائر النيابات الاخرى. ويأتي القسم الثالث لبيان اهمية مدينة القدس من خلال التطرق الى مختلف جوانب الحياة الثقافية فيها، من حركة النشاط الفكري والعلمي والحضاري والمعماري.

2.1 الأوضاع الداخلية في بلاد الشام:

لقد تمكن سلاطين المماليك من السيطرة الكاملة على بلاد الشام وذلك عقب معركة عين جالوت في 658هـ/ 1260م، وقاموا بتقسيمها ادارياً الى ستة أقسام كبرى. كل من هذه الأقسام يرأسها نائب[1] لسلطان المماليك في القاهرة، ينوب عنه ويقوم بأعماله فيها، لذلك أُطلق عليها اسم نيابات، وكان هذا النائب أمير كبير من أمراء المماليك يتم تعيينه فقط من قِبَلْ السلطان المملوكي في مصر، والذي ينفرد أيضاً بأحقية تعيين أو عزل كبار الموظفين في النيابات الشامية.

وقد ظهرت هذه النيابات تدريجياً تِبعاً للظروف التي أوجبت اقامتها وحسب تغيرات الصراع مع الصليبيين، فكان يتم إبراز أهميتها وتسليحها بالعوامل الإدارية والعسكرية والاقتصادية لكي تستطيع مجابهة أطماع الغزو الصليبي المستمر على المنطقة. فكان أولها نيابة دمشق ونيابة حلب عام 1260م، عقب معركة عين جالوت، ثم نيابة الكرك عام 1263م في عهد الظاهر بيبرس، ونيابة صفد عام 1266م، ثم نيابة طرابلس التي أُنشأت في عهد قلاوون الذي استولى على المدينة من الصليبيين عام 1289م. أما حماة والتي اختار المماليك بأنْ تبقى تحت حكم الأيوبيين فقد

[1]. النائب: هو لقب مَن يقوم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص453).

أصبحت نيابة عام 1314م بعد وفاة الملك المؤيد علي آخر ملوك بني أيوب عليها. ثم أُضيفَ في القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) نيابة غزة والتي أقامها الناصر محمد بن قلاوون ونيابة حمص ثم نيابة القدس وملطية.

لقد تميزت هذه النيابات باتساع حدود مساحتها، وكان يتبع لها ادارياً عدد من المدن والموانئ والقلاع المهمة. وقد انقسمت كل من هذه النيابات الى أقسام ادارية صغيرة عُرفت بالولايات أو النيابات الصغيرة. وكان كل نائب من نواب الشام يدين بالولاء الكامل للسلطان المملوكي في مصر، ولكنه كان سلطاناً في نيابته، فكان له حاشيته ومماليكه واتباعه وأمراءه ووزراءه[1]، وتمتع في بيوته بالخدمة ووظائف الأمراء كما في بيوت السلطان، وقد كان هذا النائب برتبة "مقدم ألف". كما وُجدت في كل نيابة من نيابات الشام وظائف إدارية قُسِّمَت الى ثلاثة أقسام، الأول: الوظائف العسكرية وهم أرباب السيوف ومنهم نائب القلعة أو مقدم العسكر ووالي المدينة والحاجب. الثاني: الوظائف الديوانية وهم أرباب القلم ومنهم صاحب الرسائل وناظر المال، أما الثالث: الوظائف الدينية كالقاضي والمفتي والمحتسب ووكيل بيت المال[2].

وقد تفاوتت أهمية نيابات الشام من ناحية الرتبة، فلم تكن جميعها في مرتبة واحدة، فكانت نيابة دمشق وحلب من أرفع هذه النيابات مقاماً، أما أوسطها مرتبة فكان نيابة حماة وطرابلس وصفد، وأدناها نيابة غزة وحمص والكرك. وقد أكدت على تلك المراتب الرسائل والكتب التي تضمنت الألقاب والصفات الصادرة عن السلطان الى نواب هذه النيابات. وبالرغم من تصدر نيابة دمشق وحلب للمرتبة الأعلى بين النيابات، إلا أنَّ نيابة دمشق تميزت بأهمية نيابتها عن سائر النيابات الاخرى، فكان في دمشق كل ما في مصر من الوظائف وفاق نائبها أهمية النواب الآخرين، فأُطلق على نيابة الأمير فيها بنيابة الشام أو مملكة الشام والنائب بملك الأمراء[3]. وقد أكد على أهمية نيابة دمشق سعة المناطق التابعة لها، إذ اتسعت الصلاحيات الادارية لنائبها لتشمل أجزاء واسعة من الأراضي اللبنانية والفلسطينية والأردنية.

كما أكد سلاطين المماليك في القاهرة على أهمية نيابة دمشق وتميُز نائبها من خلال زيادة صلاحياته وموافقتهم على تدخله في شؤون النيابات الاخرى، فكانوا يحولون تقاريره بخصوص ما

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص13؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص33؛ اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص62؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص193-194.

[2]. الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص291؛ دجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص404؛ الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص299.

[3]. ملك الأمراء: وهو من ألقاب كُفَّال الممالك من نُواب السلطنة، كأكابر النُّواب بالممالك الشامية، فهو يقوم مقام الملك في التصرف والتنفيذ، والأمراء في خدمته كخدمة السلطان. وتستخدم كثيراً في مخاطبة النواب في المكاتبات (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص455).

يجري في النيابات وبشأن النواب الى قرارت سلطانية يتم تنفيذها دون البحث في مصداقيتها، الأمر الذي أدى الى وجود العديد من الخلافات بين نواب الشام ونائب دمشق لوجود المنافسة فيما بينهم ومخالفة النواب لتعليمات وأوامر نائب دمشق لشعورهم بوجوب تساويهم معه وبأنهم جميعاً نواب للسلطان، الذي كان بدوره يُقَوّي سلطة ملك الأمراء ويؤكد على علو كلمته.

وقد اعتاد نائب دمشق على زيارة السلطان في مصر مرَّة في السنة، عن طريق غزة حيث يُقيم فيها لحين موافقة السلطان بهذه الزيارة، وعندها يُطْلِع السلطان على أحوال بلاد الشام والأمور الخاصة بأمن الدولة وأمور الموظفين والخطط المستقبلية.

وقد تعدد نواب بلاد الشام، ولكن كانت لنيابة الأمير سيف الدين تنكز" ملك الأمراء" على دمشق أهمية خاصة، حيث استمر في النيابة ما يُقارب الثمانٍ وعشرين سنة، من سنة 1312م الى أواخر سنة 1340م وقد احتل خلالها مكانة عالية، حيث أنه وفي عام 720هـ/ 1320–1321م أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً بتجريد نيابات الشام من الاستقلالية ومنعهم من الاتصال مع السلطان مباشرة، إنما افتُرِضَ من النواب الآخرين إذا أرادوا الاتصال مع السلطان أنْ يبعثوا أولاً الى نائب دمشق ويراجعونه بالأمور المتعلقة بشؤون نياباتهم، ويقوم هو بدوره بالاطلاع على كتبهم ثم ختمها وبعثها الى السلطان[1].

وفي أواخر حكم السلاطين المماليك وبالأخص في فترة حكم السلطان قانصوه الغوري (1501–1516م) تم استحداث أمر إداري لم يكن سابقاً، حيث تم إسناد أكثر من نيابة في آن واحد لأمير واحد. ويتم ارجاع سبب هذه الظاهرة الى سيطرة الاضطراب والقلاقل بكثرة في تلك الفترة، الأمر الذي أدى الى محاولة جعل القيام بالمسؤوليات لرجل واحد يكون الأكثر قدرة على تحملها بين النواب الآخرين، من أجل ضمان الهدوء الداخلي والحدّ من التمردات والعصيان. وقد شكلت هذه الخطوة ركيزة في أمر توكيل النيابات اعتمد عليها العثمانيون بعد احتلالهم لبلاد الشام[2] .

[1]. اليوسفي، نزهة الناظر، ص63–65؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص303–305 ص321.

[2]. عثامنه، المصدر السابق، ص302–303.

2.2 الوضع الإداري لمدينة القدس:

لقد اتخذ أمر إدارة مدينة بيت المقدس أهمية تدريجية في العصور السابقة للعصر المملوكي، وذلك لمكانتها الدينية والسياسية والجغرافية، حيث كانت إدارتها في الفترة الأيوبية بيد أمير من أمراء السلطان والذي عُرِفَ بلقب" وال"، واستمرت القدس كولاية من ولايات الشام حتى أوائل عصر سلاطين المماليك حيث كانت ولاية صغيرة تتبع نيابة دمشق إدارياً، وفي قلعتها نائب صغير يعينه نائب دمشق. وكان يُطلَق احياناً على الوال لقب النائب. أما نائب دمشق فكان يملك صلاحية تعيين ولاة المدينة وجميع أصحاب المناصب الادارية فيها. ولكنه أيضاً يخضع لقوة السلطة المركزية لسلاطين المماليك في القاهرة والذين تتجاوز صلاحياتهم الادارية صلاحيات جميع النواب[1].

واستمرت القدس ولاية تابعة لنيابة دمشق الى أنْ أقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون نيابة غزة، وعين نائباً لها الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولي عام 745هـ، فأصبحت القدس ولاية تابعة لنيابة غزة الى جانب ولايات الخليل ونابلس وقاقون واللد والرملة[2].

لاحقاً تم تحويل ولاية بيت المقدس الى نيابة، فصارت ثالث نيابات فلسطين المملوكية بعد صفد وغزة، حيث شكلت صفد المركز السياسي والعسكري، وغزة المركز التجاري والاقتصادي، والقدس المركز الديني والثقافي[3].

وتأتي النية في تحويل بيت المقدس لنيابة عام 767هـ/ 1365–1366م، عندما تمَّ تحديد رتبة أمير طبلخاناة في منصب نائب، وبهذا تكون رتبة الأمير لهذا المنصب الإداري العامل الذي يُوضح أهمية تحويل بيت المقدس الى نيابة. كما وأنه في عام 777هـ/ 1375–1376م، خلال سلطنة الأشرف شعبان بن حسين، تمت نيابة الأمير تمراز المؤيدي على القدس وكان أول من وُليَ نيابتها. ثم توالى على هذا المنصب العديد من الأمراء الذين كان يتم تعيينهم من قِبَلْ السلطان المملوكي في القاهرة[4].

وقد كان الهدف من أمر استحداث نيابة القدس ذا بُعدٍ سياسي وإداري، لإعطاءها الاستقلالية الادارية وإلغاء تبعيتها، فدولة المماليك ارتكزت على شطري قوة؛ القوة العسكرية وتتمثل بقوة السلطان ومماليكه من حوله، فكان دائم السعي للتقرب الى كبار الأمراء وخَلْقْ مناصب عليا كبيرة

---

[1]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص323–324؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص33.

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص13.

[3]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص298.

[4]. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص199؛ عثامنه، المصدر السابق، ص325.

لهم، وقوة الدافع الديني، بأن المماليك هم حماة الدين الاسلامي وتَمَثَّلَ ذلك بعنايتهم ورعايتهم للمقدسات الاسلامية مما دفعهم الى هذا التطور الاداري[1].

كما أنَّ مدينة القدس بقيت مطمعاً يراود الفرنج والتتار. فبعد سقوط عكا بيد المسلمين عام 690هـ/ 1291م وكانت آخر معاقل الصليبيين في فلسطين، بقيت فكرة السيطرة على بيت المقدس أملاً يراود الفرنج، فقاموا بحصار اقتصادي ضدَّ المماليك، وأقاموا حلف مع التتار والغرب الأوروبي لإبقاء حدود دولة المماليك الشرقية في خطر دائم ومن أجل محاولة استعادة الأراضي التي فقدوها في بلاد الشام وأهمها بيت المقدس. وقد أدى عدم يأسهم واستمرار محاولاتهم وهجماتهم لعدة سنوات من أجل إعادة السيطرة على بلاد الشام، الى ادراك السلطان الأشرف شعبان بن حسين لهذا الخطر، فعمد الى رفع رتبة نائب القدس الى أمير طبلخاناة، وزوده بالقوات والمعدات لأجل تمكينه من صدِّ هذا الخطر. كما أنَّ حالة الاستقرار التي شهدتها البلاد بوجه عام وبيت المقدس بشكل خاص، وحُسن إدارة السلطان الأشرف شعبان وقمعه لعدد من الأمراء الطامعين والمتمردين، كان له الأثر في قرار هذا التحويل، وبقيت النيابة حينها مرتبطة بنائب دمشق. الى أنْ عمد السلطان الظاهر برقوق الى جَعْل القدس نيابة مستقلة يتم تعيين نائبها فقط من قِبَلْ السلطان المملوكي في القاهرة بإصدار كتاب تعيين، ولا يحق لنائب دمشق أو أي جهة اخرى بعزله إلا بأمر من السلطان. وذلك لكي تستطيع مواجهة خطر التتار الذي هدد بلاد الشام بقوة فعمل على تحصينها اقتصادياً وعسكرياً، وعيَّنَ الأمير قردم الحسيني في منصب نيابة بيت المقدس عام 796هـ/ 1393م[2].

إنَّ هذا المشهد التاريخي والصراع الدائم للسيطرة على بيت المقدس إنما يؤكد أهمية هذه المدينة وتمتعها بمكانة دينية وروحية وتاريخية واقتصادية لدى المسلمين، الأمر الذي دفع المماليك الى جعلها نيابة مستقلة كسائر النيابات الكبرى وعينوا فيها الأمراء الكبار وجعلوا لها مناصب عليا وأصبحت مركز حُكم كغيرها من مدن بلاد الشام الهامة الاخرى[3].

وبالنسبة لحدود نيابات فلسطين المملوكية (خارطة (1)) فقد اشتملت نيابة صفد على أجزاء من جنوب لبنان والجولان وأغوار الأردن. وتكونت من إحدى عشر ولاية، يرأس كل ولاية والٍ برتبة جندي يتم تعيينه من قِبَلْ نائب صفد.

أما نيابة غزة، وكانت تُعرف بالشام الأعلى فامتدت حدودها الى مناطق كثيرة شملت مناطق ساحلية وأخرى جبلية. فحدّها من الشمال قاقون ومن الشرق الخليل ومن الغرب البحر الأبيض

---

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص34-35.

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص16-19؛ علي، المصدر السابق، ص35-36.

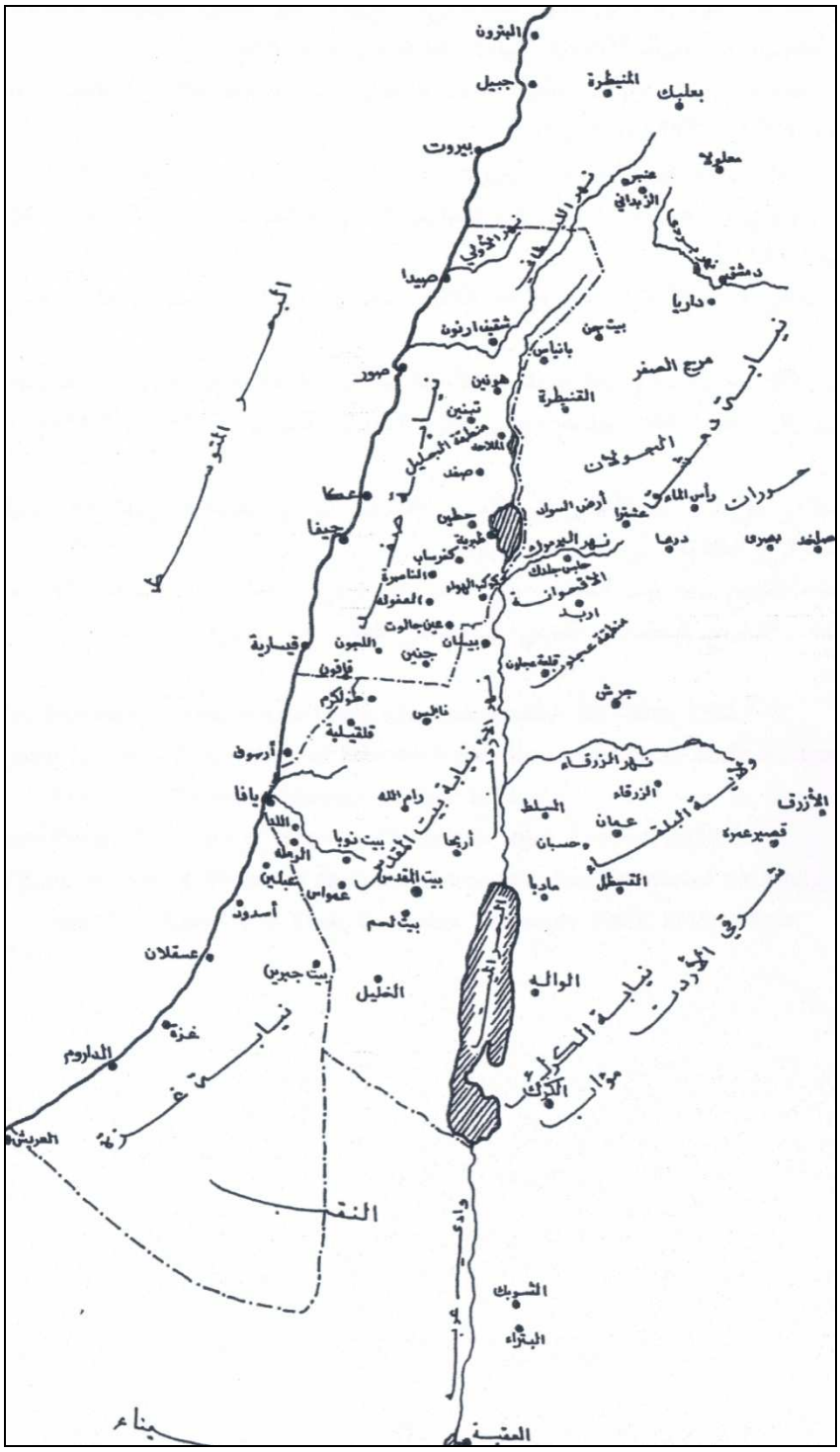
[3]. غوانمة، المصدر السابق، ص21.

المتوسط ومن الجنوب سيناء والنقب حتى حدود العريش أول الأراضي المصرية. وقد ضمَّتْ عند استحداثها سبع ولايات، تم لاحقاً ضم بعضاً من هذه الولايات الى نيابة بيت المقدس واخراجها من نيابة غزة.

أما نيابة بيت المقدس فكان أغلبها جبالاً وأوديةً، حيث اشتملت على المنطقة المحيطة بالقدس الى نهر الأردن المُسمى بالشريعة، ثم الى الرملة طولاً. وامتدت عرضاً من البحر المتوسط الى البحر الميت. وكان لنيابة بيت المقدس ثلاث ولايات وهي: ولاية الخليل، ولاية نابلس وولاية الرملة[1].

ولأهمية نيابة بيت المقدس فقد وُجِدَت فيها معظم الوظائف الإدارية التي وُجِدَت في النيابات الاخرى، كالوظائف العسكرية والوظائف الدينية والوظائف الديوانية. فالوظائف العسكرية وهي وظائف أرباب السيوف وعلى رأسهم نائب السلطنة، الذي يرأسه أمير برتبة كبيرة كرتبة مقدم ألف، تتم توليته النيابة بمرسوم سلطاني يُقرأ على القضاة والمماليك وأعيان المدينة والمجتمعين حول النائب عند دخوله المسجد الأقصى، وقد تنافس على هذا المنصب العديد من الأمراء والقادة. وكان النائب يُقيم في قصر خاص سُمِيَ بدار النيابة، الواقعة قرب مأذنة الغوانمة في الزاوية الشمالية الغربية من سور المسجد الأقصى، بجانب الرواق الغربي. وكان الوالي سابقاً يُقيم في قلعة بيت المقدس الواقعة عند باب الخليل في الجهة الغربية من المدينة، وبعد استقلال نيابة بيت المقدس كان نوابها يُقيمون في زاوية الدركاة قرب البيمارستان الصلاحي. وكان النائب يجلس في الايوان الخاص المعروف بايوان الحكم أو دار العدل، لينظر في شؤون نيابته ويحكم بين الناس ليحقق العدل ضمن حكم الشرع ويعلمهم أمور دينهم. وكان للنائب استقلاليته في معظم الأمور الداخلية لنيابته، كالأمور الادارية والمالية والعسكرية، وله مطلق التصرف فيها. وكانت تُدَقُ الطبلخاناة على باب بيته كل ليلة بعد صلاة المغرب، كما يحدث للسلطان المملوكي في القاهرة.

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص401-403.



خارطة (1): نيابات فلسطين في العصر المملوكي

من الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي،432

وفي بعض الأحيان كان يُجمع الى منصب نائب السلطنة وظيفة جليلة عُرفت بإدارة المقدس وهي وظيفة ناظر الحرمين الشريفين؛ القدس والخليل، فيُطلق عليه" ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل". وهي وظيفة أضافت الى نائب السلطنة القوة والتشريف اللذان لم يحظَ بهما أيٌ من نواب بلاد الشام. وقد اهتم المماليك بتطوير هذه الوظيفة عن اسلافهم الأيوبيين خاصة في العناية بالمرافق الدينية والانفاق عليها لأمر الترميم والإصلاح، كما والتأكيد على إسناد هذه الوظيفة الى أمراء أتقياء صالحين أو علماء أجلاء.

إلا أنه وفي أواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي تبدل الأمر حين انتشرت ظاهرة الفساد الإداري في أواخر عهد سلاطين المماليك الجراكسة، فتولى هذا المنصب نواب عُرفوا بالظلم والقسوة، ومنهم من استخدم وسيلة الرشوة لشراء منصب النيابة من اصحاب القرار وحتى من السلطان نفسه. فباتت الوظائف رفيعة المستوى سهلة المنال لمن يُغَلِّي الثمن من الفاسدين والجُهال، وبذا فقد أساؤوا الى النيابة والى رِفعة هذا المنصب والى سكان بيت المقدس[1].

ومن الوظائف العسكرية الاخرى في النيابة وظيفة نائب القلعة ووالي المدينة والحاجب والدوادار. فنائب القلعة يكون من أمراء مقدم ألف أو أمراء طبلخاناة ويتم توليته بمرسوم سلطاني. ونيابة القلعة منفصلة عن نيابة السلطنة، ويقوم فيها نائبها بإبلاغ السلطان في القاهرة أمور نائب السلطنة والموظفين الاداريين، كما وتُسنَدْ إليه مهام الحفاظ على القلعة وتجديدها وصيانتها والاهتمام بما فيها من ذخائر ومؤن، والاشراف على فتح واغلاق ابواب القلعة كما والاشراف على حراس القلعة لحماية أسوارها.

أما والي المدينة فيكون من الجند وتتم توليته من قِبَل نائب بيت المقدس، ويقوم بالمحافظة على الأمن ومراقبة أمور الناس فيعاقب من تثبُتْ عليه الإساءة والفساد، ويحافظ على أموال الناس وأرواحهم.

ومهمة الحاجب الذي يتولاها أحد أمراء المماليك فهي الاهتمام بالجند وتفقد أحوالهم ونقل أخبارهم الى النائب، ويحكم بين الناس ويفض المنازعات، كما ويقوم بمهام النيابة في مقام النائب اذا غاب عنها لفترة ولحين عودته[2].

---

[1]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص299؛ غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص228–230؛ غوانمة، تاريخ بيت المقدس، ص30–31.

[2]. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص199؛ دجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص405–407؛ غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص230.

أما آخر هذه الوظائف فهي وظيفة الدوادار[1]، ومهمته تقديم البريد الى النائب كما وتبليغ رسالاته واشراكه في القصص ومشاورته فيمن يحضر لمقابلته، وأحياناً يُكَلَفُ بمهام حربية.

أما الوظائف الدينية فمنها ناظر الحرمين الشريفين ومشيخة الصلاحية والقضاة والخطابة والتداريس والمحتسب وناظر البيمارستان. والوظائف الديوانية وهم أرباب الأقلام فمنهم كاتب الدست وناظر بيت المال وناظر الجيش[2].

ومثلما حظيت نيابة بيت المقدس بالوظائف الهامة فقد تمتعت بالقوة العسكرية والقوة الاقتصادية، وتمثلت قوتها العسكرية بجيشها وقواتها الخاصة، والتي بلغت أعداداً كبيرة اشتملت على الأمـــراء والأجناد والمماليك وأحياناً رجال القبائل. كانت مهامها الحفاظ على الأمن والاستقرار في داخـــل حدود النيابة وخارجها، كالقضاء على المتمردين وقمع الفتن وخوض المعارك ضدَّ العثمانيين.

أما ازدهارها الإقتصادي فكانت ركيزته الاساسية هي التبادل التجاري الداخلي والخارجي مع دول اسلامية ودول أوروبية، فاشتهرت المدينة بأسواقها المتعددة والمتخصصـــة للســـلع وببضـــائعها المتنوعة. كما كان للنشاط السياحي الداخلي لزيارة الأماكن الدينية المقدسة وحركة الحجـــاج فـــي مواسمها نصيبه في دعم هذا الازدهار.

وبذلك فقد كان لأهمية بيت المقدس الادارية والعسكرية والاقتصادية أثره في ظهور نهضة علمية رائدة، فأصبحت قِبْلَةً للعلماء والفقهاء وطالبي العلم، وتمخض عنها إنشاء العديد مـــن المـــدارس والزوايا والخانقاوات وغيرها من الصروح العلمية والدينية[3].

---

[1]. الدَّوَادَار: هو لفظ مركب من كلمتين، عربي وهو الدواة وفارسي وهو دار بمعنى ممسك الدواة. وهو لقب الشخص الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير، ويهتم بكافة الأمور المتعلقة به. والدوادارية: هي وظيفة نقل الرسائل والأمور عن السلطان وعرض القصص والبريد. (دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص77؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم 2، ص237 حاشية (3)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص462).

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص29 ص34-35.

[3]. غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص246-249.

2.3 الحياة الثقافية في مدينة القدس:

لقد كان للفكر الديني أثره في تطور الحياة الثقافية في بلاد الشام، حيث خرجت أول بعثة علمية من بلاد الحجاز الى بلاد الشام بعد الفتوحات الاسلامية مباشرة بغية نشر الدين الاسلامي وتعليم اهلها وتثقيفهم بأمور دينهم. وقد ساعد أمر استقرار الوضع العام في بلاد الشام بتشكيل أرضاً خصبةً لقيام حركة علمية ارتبطت بالاسلام فكرياً، حيث تركزت موضوعاتها بالدراسات الاسلامية المتمثلة بعلوم قراءة القرآن والتفسير والحديث والفقه وما ارتبط به من دراسات اللغة العربية كعلوم النحو والبلاغة والشعر، كما والاهتمام بالدراسات الانسانية كالسيرة والتاريخ.
وبما أنَّ فلسطين كانت احدى أهم أقطاب بلاد الشام، فقد امتدت اليها النهضة العلمية، وبرز من رجالها العديد من العلماء في شتى العلوم والفنون منذ القرن الأول الهجري، أمثال رجاء بن أبي سلمة، والفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي ، وروح بن زنباع الجذامي وغيرهم[1].

وتوالت حركة الازدهار الثقافية والعلمية في بلاد الشام وبلاد الرافدين حتى القرن الثالث الهجري، حيث اعْتُبِرَ عصر العلوم والإبداع الفكري في العراق، حين وصلت بغداد أوج عظمتها العلمية. في حين أنَّ بلاد الشام لم تصل الى هذه الدرجة من الثقافة كالعراق عامة وبغداد خاصة ولكنها مع ذلك ازدهرت فكرياً ونبغ من مدنها العديد من العلماء، خاصة في الثقافة الأدبية؛ حيث اعْتُبِرَ القرن الرابع الهجري هو عصر الابداع الأدبي والشعري في بلاد الشام بشكل عام، حين ظهر العديد من الشعراء أمثال أبي فراس الحمداني، وأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري وغيرهم كثير. أما مدينة القدس خاصة فاتخذت جانب آخر من الحركة العلمية حيث اصطبغت بالثقافة الدينية وسيطر عليها الطابع الديني المحافظ، الى أنْ تصدرت في القرن الخامس الهجري حركة الازدهار الثقافي، فانتعشت فيها الحركة العلمية والثقافية، خاصة العلوم الدينية كالحديث والفقه والتفسير، وأصبحت فلسطين عامة ومدينة القدس خاصة قبلة للعلماء والفقهاء، كما استقطبت أعداداً من علماء الشرق والغرب، خاصة في أواخر القرن الخامس الهجري، حيث ترافق مع هذه الحركة نشوء العديد من المدارس وانتشار حلقات الدرس[2] والمناظرة.

واستمرت هذه الحيوية العلمية على هذا الشكل الى أنْ كان الغزو الصليبي لبلاد الشام واحتلال بيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري في 492هـ/ 1099م. والذي قُتِلَ على أثره العديد من العلماء والأدباء، مما أدى الى إخماد شعلة هذا النشاط الثقافي طيلة فترة الاحتلال الصليبي للبلاد، حتى عام 583هـ/ 1187م عندما تمَّ تحرير بيت المقدس من العدوان الصليبي على يد

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص141.

[2]. حلقات الدرس: مفردها حلقة وسُمي الدرس بالحلقة وأحياناً الزاوية لأنَّ الطلاب يتحلقون أي يشكلون حلقة أو دائرة حول الشيخ. (غوانمة، المصدر السابق، ص184).

صلاح الدين الأيوبي، فعادت للبلاد الحركة الثقافية والفكرية من جديد، وإنْ كانت بعد فترة من الزمن؛ حيث أنَّ الصليبيين كانوا قد محوا معالم الحياة الاسلامية من المدينة المقدسة وذلك بتحويلهم الأماكن المقدسة الى أماكن مسيحية، فعمل صلاح الدين على اصطحاب العديد من العلماء الأجلاء معه وتم إنشاء العديد من العمائر المختلفة في بلاد الشام ومصر من أجل دعم وتنشيط الدراسات الدينية واللغوية، خاصة أنَّ الأيوبيين أرادوا نشر المذهب السني، فعملوا على بناء المدارس في العصر الأيوبي ثم لاحقاً في أوائل العصر المملوكي، فبلغ عددها في مدينة حلب وضواحيها ست وأربعين مدرسة، وفي دمشق تسعين مدرسة للمذاهب الأربعة. وقام صلاح الدين بترتيب أمور المدينة المقدسة وأنشأ فيها العديد من المؤسسات العلمية والاجتماعية كالمدارس والخانقاوات والبيمارستانات وغيرها. كما نشطت العلوم الاخرى الى جانب العلوم الدينية كعلوم اللغة العربية والعلوم الطبيعية في الهندسة والنجوم والفلك والعلوم الإنسانية، والتي كان عِمادها خيرة العلماء والفقهاء.

وفي العصر المملوكي فقد ازدهرت الحياة الفكرية في بيت المقدس واصبحت مركز استقطاب للعلماء والفقهاء من الشرق والغرب، أمثال الشيخ الرباني علاء الدين علي العشقي البسطامي والشريف موسى بن أحمد بن منصور شرف الدين العدوي المغربي المالكي وغيرهم الكثير[1].

وقد ازدادت هذه الحركة خاصة بعد أنْ أخذت دولة المسلمين بالتراجع سياسياً وحضارياً في الأندلس بعد أنْ تعمقت المسيحية في سيطرتها عليها. كذلك بعد سقوط بغداد في 656هـ/ 1258م بيد التتار وانهاء الخلافة العباسية فيها، لا سيما وأنَّ المسلمين كانوا قد ارتبطوا بهذه الزعامة الروحية التي كانت تُذَكِرهم بأمجاد وعظمة الماضي، ولم يعتادوا الحياة منذ أيام الرسول –صلى الله عليه وسلم– دون وجود نفوذ للخلافة في حياتهم. فكان النشاط الديني والعلمي يتكاثف حول الخلافة، وأينما يحلُّ الخليفة يتواجد حوله العلماء ورجال الدين تبركاً به ورغبة بصحبته. وبالتالي فإنَّ انتهاء دور الخلافة في بغداد أدى الى زعزعة وجود العلماء والفقهاء، ورغبتهم في الهروب واللجوء الى من يُعيد لهم الاستقرار في نفوسهم. فعندها قام السلطان الظاهر بيبرس بإحضار أحد أبناء العباسيين الى القاهرة حيث تمت مبايعته خليفة على المسلمين، وقام هو بدوره بتفويض السلطان المملوكي في حكم البلاد. وبذا فبإحياء الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ/ 1261م، أصبحت المقر الجديد الذي استقطب علماء المسلمين ووفر لهم الدعم الأدبي والمادي[2].

فكان لهذا الاضطراب وعدم استقرار المسلمين سواء في بلاد الشرق أو الغرب أُنْ أدى الى هجرة علماءها الى مصر والشام والديار المقدسة خاصة الى مدن القاهرة وحلب ودمشق والقدس ومكة

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص142–145 ص147–152.

[2]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص80 ص88–89؛ غوانمة، المصدر السابق، ص145.

والمدينة، إلا أنَّ مدينة القدس كانت الأوفر حظاً فقد آثرها العديد من العلماء ورجال الدين الذين لم يستطيعوا الاستمرار بالبقاء في مدن مكة المكرمة أو المدينة المنورة بالرغم من مكانتهما الدينية، وذلك لافتقارهما لظروف الحياة الطبيعية المريحة فيهما وبُعدهما عن مركز النشاط الحضاري للعالم الاسلامي. على نقيض مدينة القدس التي وفرت لهم الجو المناسب لحياة مريحة، وتمتعت بوقوعها في دائرة النشاط الحضاري[1]. الأمر الذي أدى الى تطور نشاط علمي في كافة المجالات العلمية والأدبية والدينية، خاصة أنَّ هذا النشاط قد جُبِلَ بخبرات علماء من أقطار مختلفة بلغ عددها زهاء اثنين وعشرين قطراً بين القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) والتاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وتراوح عدد المدن التي خرج منها هؤلاء العلماء ما بين ستين وسبعين مدينة من شتى البلدان مثل العراق وايران والهند وتركستان وبلخ وشيراز واذربيجان وهراة وقرمان والمغرب والأندلس واليمن وغيرها...، وأصبحت مدينة القدس من مراكز الاشعاع العلمي والفكري والحضاري[2].

وقد اتسعت دائرة النشاط العلمي لتشمل دراسات العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وتصوف وغيرها. وكانت هذه الدراسات هي المحور الاساسي في دائرة هذا النشاط، والتي خصتها مناهج التدريس في ذلك العصر بالاهتمام الأشمل. ثم تأتي علوم الدراسات الأدبية من اللغة والأدب والنثر والنحو والبلاغة والتاريخ وغيرها، فأدت المدارس من خلالها خدمة جليلة للعلم من خلال حفظ هذه العلوم الدينية واللغوية. كما وأكدت على هذا النشاط العلمي وجود العديد من المؤلفات والتراجم التي تزخر بأعداد كبيرة من سيَر أبناء مدينة القدس أو من الوافدين إليها. كما كان هناك اهتمام بدراسات العلوم العقلية والتجريبية ولكن على نطاق أضيق كدراسات الحساب والجبر والمنطق وغيرها. وقد كان للطب أيضاً دراساته الخاصة التي كانت تُدَرَسْ في البيمارستانات المنتشرة في المدن المختلفة[3].

وقد ترتب على هذا النشاط امتداداً متطوراً عن العصر الأيوبي الذي يُعتبر فيه فترة التأسيس الفعلي لمعاهد العلم، فتم انشاء العديد من المؤسسات التعليمية، سواء للتعليم في المراحل الأولى من الطفولة حتى سن العشرين أحياناً، أو المرحلة الثانية للتعليم العالي. وازداد عدد العلماء والفقهاء وأصحاب الفكر وطلاب العلم الذين قصدوا مدينة القدس للاقامة والتحصيل العلمي، نذكر بعضاً من أسماء العلماء ورجال الدين والفقهاء الذين كان لهم دوراً في حركة النشاط العلمي والثقافي وارتبطت أسماؤهم بمدينة القدس، سواء من المقيمين بها أو من الوافدين إليها أو من

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص89-90.

[2]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص512؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص178 هامش(5).

[3]. الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص521.

الذين ترددوا عليها لتحصيلهم العلمي ومزاولة نشاطهم في البحث والدراسة. وإن كان من الصعب ذكر وضبط جميع اسماء هؤلاء العلماء الذين تزخر بسيرهم كتب التراجم والتاريخ. فمن العلماء الذين كان لهم نشاط في العلوم الدينية نذكر منهم القاضي شيخ الاسلام بدر الدين أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن سعدالله ابن جماعة الكناني، الذي تولى قضاء القدس، توفي سنة 733هـ/ 1332م وله كتابات كثيرة منها 'التبيان لمهمات القرآن'، و'الفوائد اللائحة في سورة الفاتحة' وغيرها[1].... ونذكر أيضاً الشيخ كمال الدين أبو المعالي محمد بن الأمير ناصرالدين بن أبي شريف المقدسي، توفي سنة 906هـ وقد تولى التدريس في المدرسة الأشرفية كما والمدرسة الصلاحية، وتتلمذ عنده المؤرخ مجيرالدين الحنبلي فكتب فيه سيرة مفصلة. سمع عن كثيرين من علماء الاسلام وحفظ ودرس الكثير من العلوم الدينية واللغوية، حتى قيل عنه بأنه صار نادرة وقته وأعجوبة زمانه. وصار قدوة بيت المقدس ومفتيه وعين أعيان المعيدين بالمدرسة الصلاحية، وتميز عن غيره من العلماء حتى أصبحت طلباته أوامرمنفذة من قِبَل السلطان أو ممن دونه. له العديد من المصنفات والتي انتشرت في سائر الأقطار، ومنها 'الاسعاد بشرح الإرشاد في الفقه'، و' الفرائد في حلّ شرح العقائد'، وغيرها[2]...

ومن العلماء الذين برزوا في ميدان علوم اللغة العربية نذكر شهاب الدين بن جبارة المقدسي النحوي الحنبلي، توفي سنة 728هـ واشتغل بعلوم العربية وشرح الشاطبية؛ وهي من الكتب التي ركز عليها علماء القراءات، فكان اهمها 'حرز الأماني ووجه التهاني– الشاطبية' للشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي، وشرح الرائية في الرسم. كذلك نورالدين البدرشي المالكي المصري، توفي سنة 878هـ وقد اشتغل بالنحو وألّفَ فيه، وعبدالله بن محمد الواسطي وله كتاب 'الكنز في القراءات العشر'[3].

وفي علم التاريخ حيث يشهد له مؤرخان ارتبطا بمدينة القدس، أولهما الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن نورالدين علي بن حجر، ولد في مصر ونشأ بها، وهو عسقلاني الأصل، فعُرِفَ بابن حجر العسقلاني. وهو من مؤرخي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، توفي سنة 852هـ/1448م وقد تردد على مدينة القدس ودرس بها وله من المؤلفات كتابه في التاريخ 'إنباء الغمر بأنباء العمر'، وله الفضل في طرح فكرة الكتاب الشامل لوفيات قرن بأكمله وتسمية هذه الكتب بعناوين القرون، كما وله الفضل في ذكر تراجم كتاب ضخم اشتمل على تراجم العديد من العسكريين والقادة والعلماء والفقهاء والأدباء في القرن الثامن للفاضلات المحدثات من النساء،

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص90–91؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص156.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص91؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص516–517. انظر ترجمة الشيخ كمال الدين المقدسي من: الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص706–710.

[3]. عاشور، المصدر السابق، ص91؛ الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص521.

كما في كتابه في التراجم 'الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة'، وهو الهجري حسب الترتيب الأبجدي. ومن أشهر مؤلفاته الضخمة المتعددة في الحديث والفقه والتراجم كتابه 'فتح الباري في شرح البخاري' ويقع في ثلاثة عشر مجلداً، وغيرها الكثير. أما العلّامة الثاني فهو مجيرالدين أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن العمري المقدسي العليمي الحنبلي، ولد بالقدس وتوفي بها سنة 927هـ وكان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباي، وكان قاضياً للقدس. ومن مؤلفاته كتابه 'الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل'، حيث كان شاملاً لعدة موضوعات منها الفتوحات وتراجم الأعيان والفضائل والبناء والحوادث السياسية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية.[1]

أما العلوم العقلية والتجريبية فقد برز منهم شيخ الاسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين بن علي المصري المقدسي والمعروف بابن الهائم، وفد الى القدس واشتغل بها حتى صار من شيوخ المقادسة. توفي عام 815هـ/1412م وقد نبغ بالعلوم الرياضية حيث كان له مهارة بالحساب والفرائض وله فيها مؤلفات كثيرة منها 'التحفة القدسية' وهو منظومة في الفرائض، و'ترغيب الرائض في علم الفرائض'. كما له مخطوطة هامة في دراسة الحساب بعنوان 'مرشدة الطالب الى أسنى المطالب' والتي تدل على سعة اطلاع وعلم ابن الهائم في ميدان علوم الرياضيات. ومن علماء الرياضيات أيضاً موسى بن محمد الخليلي شرف الدين وله من المؤلفات الكثير منها مخطوط 'رسالة في الاسطرلاب ومعرفة الأوقات'[2].

أما العلوم الطبية فقد ظهر العديد من الأطباء الذين درسوا ومارسوا الطب، والذي يُعتبر امتداداً لنشاط مدرسة الطب من العصر الأيوبي، ومنهم أحمد بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عوض المقدسي الأصل وعُرف بابن المحتسب، كان عطاراً وتوفي عام 772هـ. وهناك أيضاً محمد بن حسن بن أحمد بن محمد الشمس أبوعبدالله الكردية المقدسي وعُرف بابن الكردية، كان من علماء القدس الذين اشتغلوا بالطب وتوفي عام 843هـ. كما قد وُجِدَ التخصص في فروع العلوم الطبية، حيث يُستدل على ذلك من أحد مؤلفات جمال الدين يوسف بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي، المتوفي سنة 880هـ، ويقع تحت عنوان 'الاتقان في أدوية اللثة والاسنان'. كما كان لعلماء بيت المقدس مساهمة أيضاً في علوم الفلك والكواكب والنجوم[3].

ولم يقتصر هذا المجهود العلمي على العلماء فقط وإنما كان للمرأة دورا كذلك في الحركة العلمية والدينية، فاشتهرت منهن زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية وعُرفت بـ "بنت الكمال" ولها

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص92؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص144-147. انظر: بن تغري بردي، المنهل الصافي، ص130-132 عن سيرة ابن حجر العسقلاني.

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص455-456؛ عاشور، المصدر السابق، ص92؛ علي، المصدر السابق، ص148.

[3]. علي، المصدر السابق، ص151.

نشاط في العلوم الدينية. كما واشتهرت زينب بنت أحمد بن عمر المقدسية، توفيت سنة722هـ. وهناك أيضاً ست العرب بنت سيف الدين علي المقدسية، وتوفيت سنة 734هـ، وهناك الكثير غيرهن يضيق البحث لذكرهن جميعاً[1].

ولم تقتصر أهمية دور العلماء والفقهاء في الدراسة والبحث العلمي فحسب وإنما لعبوا دوراً بارزاً كذلك في الحياة العامة في مدينة القدس؛ حيث كان لهم نفوذ مباشر على المسلمين باعتبارهم المثل الديني الأعلى وحماة العقيدة الاسلامية، كما كان لهم تأثير على الحكام حيث حرص هؤلاء على التقرب من العلماء من خلال مصاهرتهم ليكتسبوا مركزاً بين أفراد المجتمع خاصة وأنهم الغرباء فيه.

وقد عزز من تأثير العلماء على طبقات المجتمع المختلفة وطبقة الحكام كثرة ثرواتهم حيث أشرفوا على كثير من الأوقاف، كذلك توليهم مناصب هامة وعليا من مناصب الدولة، كما أنَّ دورهم الديني والقضائي والسياسي والتجاري والمالي والاجتماعي والذي مكنهم من التعامل المستمر مع أبناء المدينة، ساعدهم لكي يصبحوا المتحدثين الرسميين عنهم في كثير من الشؤون القانونية والدينية والاجتماعية والتجارية. وأصبحت كلمتهم لها هيبتها سواء بين الحكام الذين كانوا يخشون غضب العلماء ورجال الدين، أو بين العامة من سكان المدينة[2].

لقد عُني السلاطين والأمراء بمدينة القدس خاصة وأقاموا فيها العديد من المنشآت العلمية والدينية والاجتماعية والخيرية، من أجل توفير المناخ الملائم للعامة والراحة لسكان القدس ورواد العلم على حدٍّ سواء، خاصة بعد أنْ عانت البلاد من الاحتلال الصليبي لفترة من الزمن.

ولم يقتصر هذا الاهتمام بتعزيز مدينة القدس ثقافياً ودينياً على السلاطين والأمراء فقط، وانما شاركت النساء الثريات بالعمل على إقامة المدارس، حيث بلغ عددها ثلاث مدارس في مدينة القدس وحدها، وبلغ عدد المدارس التي بُنيت زمن المماليك في المدينة قرابة خمسين مدرسة، نذكر بعضاً منها: كالمدرسة الدوادارية، وهي مدرسة وخانقاة، أسسها الأمير علم الدين سنجر الدوادار سنة 695هـ/ 1295م، والمدرسة التنكزية التي أسسها الأمير تنكز سنة 729هـ/ 1328م، والمدرسة الأرغونية التي أسسها نائب الشام أرغون الكاملي سنة 759هـ/ 1357م، والمدرسة الطشتمرية وأسسها الأمير طشتمر العلائي سنة 784هـ/ 1382م، والمدرسة العثمانية التي أسستها احدى السيدات اللواتي كانت لهن مشاركة في اقامة المدارس وهي السيدة أصفهان خاتون وقامت بتأسيسها سنة 840هـ/ 1436م، والمدرسة الجوهرية ومؤسسها الأمير جوهر

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص90-91.

[2]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص173-174.

القنقباي الخازندار سنة 844هـ/ 1440م، والمدرسة الأشرفية وكانت أفخم مدارس القدس بناءً كما تفوقت بين مدارس القدس بمستواها الأكاديمي في فترة مؤسسها السلطان الملك الأشرف قايتباي سنة 887هـ/1482م. هذا بالإضافة الى المدارس الاخرى التي تم انشاؤها في عصر الأيوبيين، وبقيت قائمة طوال عصر المماليك وبعدهم.

كما واشترك أهل الخير وأعيان من بلاد اسلامية مجاورة في إنشاء معاهد علم وذلك تبركاً بالمدينة المقدسة، فبلغ عدد هذه الخانقاوات والأربطة والزوايا ما يقارب المئة مُنشأة[1].

ولقد كان لعدة عوامل أثرها في تطور الحركة العلمية في مدينة القدس فكان النمو الاقتصادي عاملاً مساعداً، حيث نعمت البلاد بحالة من انتعاش الأحوال الاقتصادية، الأمر الذي دفع السلاطين والحكام والتجار الى المشاركة والتسابق في إقامة معاهد العلم ومكنهم من الإنفاق عليها بسخاء. فظهرت الكثير من المدارس الفخمة كما وأوقفوا عليها الأوقاف الطائلة للإنفاق عليها. وقد تباينت دوافعهم، فبالنسبة للسلاطين والأمراء كان هدفهم الأساسي هو تحقيق غاية سياسية وتثبيت أقدامهم في مجتمع هم غرباء عنه ومحاولة التقرب الى الشعب واسترضاءهم للقبول بهم حكاماً عليهم، واعتمدوا بذلك على النزعة الدينية للدفاع عن البلاد الاسلامية ضدَّ العدوان الخارجي من خلال مفهوم بأنهم حُماة للدين الاسلامي وحُماة للمسلمين. وإنْ كان هذا لا يمنع وجود بعض السلاطين الذين اتصفوا بالتقوى والصلاح فعلاً، فكانت غايتهم التقرب الى الله وهذا ما أظهروه من خلال كتاباتهم المنقوشة على مداخل المؤسسات التي أمروا بإنشائها. أما الحكام والأمراء فتركز هدف أغلبهم في انقاذ أموالهم من المصادرات، بحيث يضعون ثرواتهم في بناء هذه المؤسسات التي يصعب على السلطان مصادرتها كما ويقوموا بوقف أموالهم وأملاكهم فتُصبح مصونة لا تُصادر، ويضمنوا لأنفسهم وذريتهم نصيباً من ريعها. والبعض الآخر منهم كان وازعه الديني هو الأساس وراء وقف العديد من المنشآت ذات الايرادات الوفيرة، فضمنوا لمنشآتهم وأملاكهم البقاء والاستمرار. أما البعض وعددهم قليل فكان تعصبه لمذهبه الفقهي هو وازعه أمام إنشاء مؤسسة لضمان إتّباع ذلك المذهب. ولكن مهما اختلفت دوافعهم فإنَّ ترجمتهم لهذه العناية من خلال إنشاء المرافق المختلفة، أدت الى انجازات كانت حصيلتها بلا شك مكسباً للعلم والعمارة[2].

وكما تمتعت مدينة القدس بحالة من الاستقرار الاقتصادي الذي دَعَمَ حركة النشاط العمراني، فقد انتعشت كذلك الحالة التجارية والاحوال الزراعية فيها وارتبط بأثرها سيادة الأمن والاستقرار في

---

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص511 ص513؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص152.

[2]. الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص512؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص32 ص153.

البلاد. فإنَّ تدفق أعداداً من المماليك الى مدينة القدس ممن نُفوا إليها أو ممن آثروا الإقامة فيها، كان له أكبر الأثر في رواج التجارة فيها، حيث شكلوا حلقة المستهلك والممول للسلع والمنتجات، مما أدى الى ازدهار التجارة ونشوء الاسواق المتعددة والمتخصصة حسب طبيعة السلع التي كانت تُباع بها، ولكنها جميعاً تشابهت من حيث تخطيطها الهندسي، فكانت عبارة عن شوارع طويلة مسقوفة إما بالعقود الحجرية أو أسقف من ألواح خشبية لحماية المارة من عوامل الجو المختلفة سواء الحارة أو الماطرة، ويتخللها نوافذ أو فتحات لينفذ من خلالها الضوء. وعلى جانبي الشارع توجد الدكاكين والمحلات التجارية، فضلاً عن وجود بعض الحوائط المنخفضة الممتدة داخل السوق يستخدمها المارة للجلوس، أو يتم استخدامها من قِبَل التجار لعرض بضائعهم، وتُقفل الاسواق بأبواب كبيرة.

كما لم يغفل المماليك عن حماية التجار الوافدين الى مدينة القدس أو الحجاج القادمين إليها وتوفير الراحة والأمان لهم، فأُنشأت الخانات أو القيساريات والتي انتعشت انتعاشاً كبيراً منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وكانت قبلاً في القرنين الخامس والسادس الهجريين تُعرف بكلمة دار أو دار الوكالة ثم حلّت تدريجياً كلمة "خان" مكان دار الوكالة أو القيسارية أو الفندق. وقد شملت وظيفتها لتكون مؤسسة تقوم بمهمة التجارة الى جانب وجود المخازن لحماية وحفظ أموال التجار، وكذلك اشتمالها على الفنادق لتوفير المسكن لهؤلاء الناس[1]. وبذلك فإنَّ الحركة التجارية في البلاد قد ساهمت في تطور الحركة العمرانية من خلال انشاء هذه العمائر المتمثلة في الأسواق والخانات أو القيساريات.

وكما كان للحركة التجارية أثرها في تدعيم الحركة العمرانية، فإنَّ الحالة الاجتماعية كان لها نصيب أيضاً في هذه الحركة العمرانية، من خلال الاهتمام بالمنشآت الاجتماعية والصحية كإنشاء الأسبلة والحمامات والبيمارستانات. والتي عُنِيَ بها سلاطين وأمراء المماليك، من خلال تجديد المباني القائمة أو إقامة مبانٍ جديدة. فكان هدفهم الأساسي من إقامة الاسبلة هو التأكيد على سياستهم الدينية، حيث أنَّ الماء ضروري لممارسة الشعائر الدينية، وبذلك فقد روعي في موقع الأسبلة بأن كانت معظمها على الطريق الرئيسي المؤدي الى الحرم القدسي ليتسنى للمصلين أو الزوار شرب الماء قبل الدخول للصلاة. كما حرصوا على توفير مياه الشرب للناس وتوصيلها الى المدينة خاصة انَّ مدينة القدس كانت تعاني قلة المياه بسبب ندرة الأمطار وعدم وجود أنهار بها، فاهتموا بتعمير القنوات لتوصيل المياه وإنشاء الآبار لتخزينها. ولم يقتصر اهتمام السلاطين بتوصيل المياه للمدينة لتوفيرها كمياه للشرب أو لأداء الفرائض الدينية، إنما لاستخدامها كذلك في

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص200–203؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص39.

الحمامات العامة[1]. حيث عرفت مدينة القدس الحمامات كمرافق عامة منذ حوالي المائة العاشرة قبل الميلاد، حيث ذكرت اسطورة شعبية بأنه قد تمَّ بناء حمّام لبلقيس ملكة سبأ بباب الأسباط، وأنه أول حمّام وُجد على وجه الأرض[2]. ثمَّ كان يقصد هذه الحمامات الناس من مختلف الأجناس رجالاً أو نساءً ومن مختلف الطبقات، وذلك لأغراض اجتماعية كتبادل الأخبار أثناء الاستحمام أو لأغراض صحية لعلاج بعض الأمراض. وكان لزاماً انشاء هذه الحمامات العامة ذلك بأن الناس في ذلك العصر وطوال العصور الوسطى لم يعهدوا وجود حمامات في منازلهم بشكل عام، وقد يرجع ذلك الى مشاكل الصرف الصحي في المدن في ذلك الوقت. وبذلك فقد عُني سلاطين المماليك وأمراءهم بإنشاء الحمامات والعناية بها وتوفير سُبل الراحة والخصوصية والاعتناء بالصحة العامة فيها[3].

ومن المنشآت الاخرى كانت البيمارستانات والتي عُني بها سلاطين المماليك وأصحاب الجاه والمال، سواء بتجديد ما كان قائماً أو بإقامة أبنية حديثة. ويرجع وجود البيمارستان في مدينة القدس الى العصر الفاطمي حيث وصفه الرحالة الفارسي ناصر خسرو عندما زار المدينة عام 438هـ/ 1047م. ولم تكن مهمة انشاء البيمارستان فقط لعلاج المرضى إنما خدمت كمدرسة لتعليم العلوم الطبية. وقد قُسمت البيمارستانات لأقسام حسب الأمراض المختلفة، كما وُجد بها العديد من الموظفين القائمين بالمهام المختلفة. وكان يُلحق بالبيمارستان صيدلية كانت تسمى شرابخاناه وفيها أنواع من الأشربة والأدوية والعطريات وغيرها. وبالتالي فإن هذه المؤسسات الاجتماعية من اسبلة وحمامات وبيمارستانات كانت ذات أهمية كبيرة في حياة عامة الناس ولذلك فقد حظيت برعاية الكثير من سلاطين وأمراء ونواب وحكام المماليك[4].

وبهذا التطور والازدهار الثقافي والعمراني، فقد طُبعت المدينة بالطابع الاسلامي وكانت في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي مدينة عامرة ومزدهرة، تفوقت في ذلك على المدن الأوروبية[5]. وكانت من جملة المدن الاسلامية التي يجوبُها الرحالة، والذين تعددت غاياتهم، فمنهم من يسعى للترحال للاطلاع ووصف أرجاء الدولة الاسلامية الواسعة لتسهيل مهمة الحكام في تدبير أمور دولتهم، ومنهم من يسعى طلباً للعلم كذلك التوسع بالتجارة، ومنهم من يتم ارساله لغاية معينة كرسول من قِبَلْ الحكام، أما أكثرهم فكان يقوم بالترحال لأداء فريضة الحج[6]، وكانت مدينة

---

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص241-243 .

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج1، ص125؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص169.

[3]. علي، المصدر السابق، ص245.

[4]. علي، المصدر السابق، ص247 ص250.

[5]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص439.

[6]. بكّار، بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته، ص325.

القدس مقصداً دينياً يسعى الجميع للوصول إليها، فأصبحت منبراً يُقبل إليها العديد من الرحالة لزيارة أماكنها المقدسة ووصفها، بالإضافة الى المؤرخين الذين شغلتهم مدينة القدس واحتلت مكاناً في نفوسهم فوصفوها بدقة، أمثال مجيرالدين الحنبلي والمقدسي. ومن الرحالة فهناك ثلاثة ايطاليين زاروا المدينة عام 1384م وذكروا عن مدينة القدس بأن فيها بيوت قديمة وجميلة وشوارعها نظيفة ومعظمها مسقوف أو مقبب وفيها اسواق متخصصة للسلع كما أنَّ دكاكينها نظيفة جداً، وهي مدينة تعج بالناس والبيوت. وبالنسبة لموقعها فإنّ جزء منها يقع على سهل وجزء آخر على منحدر ومحاطة جزئياً بأسوار بعضها سميكة وأحجارها ضخمة. كما وصفوا المدينة بوقوعها في بلاد جميلة وخصبة ومعتدلة الحرارة والبرودة، وفيها من الخيرات الكثير[1]. كما وصفها رحالة آخر وأكد على وصف الآخرين بأن بناء بيت المقدس كان أتقن عمارة وأحسن رؤية من أي مكان آخر[2]، كما شاركهم الرأي مؤرخين كُثر من بينهم المقدسي والاصطخري حيث وصفا المدينة وشوارعها وأهلها ومناخها وخيراتها[3].

كما وكان للرحالة أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي دليلاً على طابع مدينة القدس حيث وصفها في رحلته التي استغرقت حوال السبع سنوات، بلغ فيها مدينة بيت المقدس سنة 438هـ/ 1047م وكان برفقته أخوه الأصغر وغلام هندي، فوصفها بأنها مدينة مشيدة على قمة جبل، ومحصنة بسور من الحجر والجص، ولها بوابات حديدية وليس بقربها اشجار بسبب وقوعها على رأس القمة، وأرض المدينة مبلطة بالحجارة وبها أبنية عالية وأسواق جميلة فيها صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة. وأراضي بيت المقدس جبلية كلها، فيها أشجار زيتون وتين تنبت كلها بغير ماء فقط مياه الأمطار، ويُصدر اهلها زيت الزيتون الى أطراف العالم، وفيها اشجار حور وفيها الكثير من الخيرات. أما المياه التي تُجمع في أحواضها فقد عدَّه الرحالة بأنه أعذب وأنقى من أي ماء آخر. كما وصف المناطق المحيطة بالمدينة وصفاً دقيقا مع ذكر المعتقدات والأقاويل التي عُرفت حول هذه الأمكنة كسهل الساهرة ووادي جهنم وعين سلوان. وقد اهتم بالعمارة فقد وصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة والساحات والحوائط والبوابات وصفاً دقيقاً دعَّمَه بالمقاييس والأرقام الدقيقة، حتى غدت رحلته مرجعاً فيه توثيقاً شاملاً للعديد من البلدان والمدن والمناطق[4].

أما العلاّمة المؤرخ مجيرالدين الحنبلي فإنه يصف مدينته معتزاً ومفاخراً بها حيث يصفها بأنها "مدينة عظيمة محكمة البناء بين جبال وأودية وبعض بناء المدينة مرتفع على علو وبعضه

---

[1] .Frescobaldi, Gucci, Sigoli, A Visit to the Holy Places,p.127 p.180

[2] .Da Poggibonsi, A Voyage Beyond the Seas, p.10

[3]. المقدسي، احسن التقاسيم، ص165-166 ؛ الاصطخري، مسالك الممالك، ص56-57.

[4]. خسرو، سفرنامه، ص14-15 ص19.

منخفض في واد"، وهناك أبنية في المناطق المرتفعة واخرى في المنخفضة، وشوارع المدينة بعضها وعر وبعضها سهل، والمدينة مكتظة بالبناء ويصف اسواقها وحاراتها وشوارعها وكنائسها وأديرتها وغيرها من المؤسسات الدينية والثقافية، وقد ذكر بأنَّ البناء" غاية في الاحكام والاتقان جميعه بالأحجار البيض النحت وسقفه معقود وليس في بنائه لبن لا في سقفه خشب". أما المياه في المدينة فتُجمع من مياه الأمطار في الآبار المعدة لخزن المياه، كما وذكر واصفاً عيون الماء كعين سلوان وبئر أيوب والبرك والقنوات. أما وَصْفْ محيط المدينة فإنه يذكر بأن بيت المقدس تقع على جبال كثيرة الوعر والأحجار، والسير فيها وإليها فيه مشقة، وفيها أشجار من أنواع الفاكهة المختلفة من عنب وتين وتفاح وغيرها...

بالتالي فإنَّ أهمية مدينة القدس جعلتها مقصداً دينياً وعلمياً وإن كان هناك مشقة في الوصول إليها، كما يؤكده قول الشاعر الحافظ ابن حجر عند زيارته بيت المقدس في الأبيات التالية:-

الى البيت المقدَّس جئت أرجو جنان الخـــلد نزلا من كريـــــم

قطعـــنا في محـــبته عقـــابا ومـــا بعد العقاب ســـوى النعيم[1]

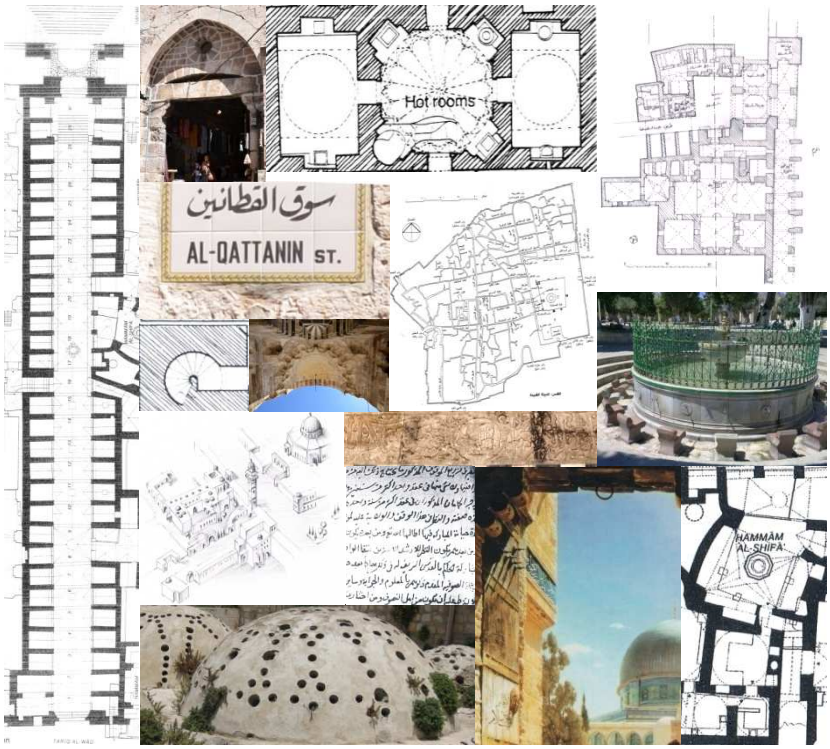
بعد هذا العرض المختصر لأهمية ومكانة مدينة القدس بين المدن الاخرى، حيث أنَّ الحديث حتماً يطول في ذكر المدينة وذلك لأهميتها من جميع الجوانب تاريخياً ومعمارياً وأثرياً وعلمياً ودينياً وسياسياً وغيره... وكثرة المؤلفات التي كُتبت في شأن المدينة، يمكن الاستدلال الى مظاهر نشاط الحياة الفكرية والعلمية في فترة عصر المماليك حيث تتجلى من خلال توافد العديد من العلماء وهجرتهم للمدينة المقدسة طلباً للعلم والمعرفة، الأمر الذي أثْرته حالة الاستقرار العامة في البلاد وسيادة الأمن والازدهار والثراء في المدينة. فاستقطبت المدينة أعداداً كبيرة من العلماء بالاضافة الى العلماء المحليين، الأمر الذي أدى الى كثرة عدد الفقهاء والعلماء بالنسبة لصغر حجم مساحة المدينة نسبياً، فغدت مدينة القدس من احدى المراكز الحضارية الهامة. حيث نشأت فيها العلوم المختلفة وتطورت في شتى المجالات الدينية والتاريخية والعلمية واللغوية وغيرها. ولعب فيها دوراً تَفَوق العلماء في هذه المجالات وانتشار عدد كبير من المؤلفات والتراجم والرسائل.

فكان لتكاتف هذه العوامل المختلفة من أمور مدينة آمنة ومستقرة تنعم بالثراء والازدهار الثقافي والعلمي أثره في كثرة المؤسسات التعليمية والخيرية والاجتماعية، وإنَّ مدى ضخامة عدد هذه المنشآت بالنسبة لمدينة صغيرة كمدينة القدس هو خير برهان على مدى هذا النشاط العلمي.

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص400-401 ص406 ص409.

الفصل الثالث

أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس



الفصل الثالث

أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول حياة الأمير تنكز من جوانبها المختلفة. والقسم الثاني يخص انجازات الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس وتحليلها. أما القسم الثالث فيتناول أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية.

3.1 لمحة عن حياة الأمير سيف الدين تنكز:

3.1.1 نشأته:

هو سيف الدين أبو سعيد خليل تنكز بن عبدالله الأشرفي الحسامي الناصري. ولد في دمشق ثم جلبه التاجر الخواجا علاء الدين السيواسي وهو صغير الى مصر، فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون وكان من مماليكه. ثم اشتراه الأمير حسام الدين لاجين، الذي اشترك في مؤامرة قتل الأشرف خليل بن قلاوون وتنقل بين منصب نيابة السلطنة عام 694هـ/ 1294م وبين اعلان نفسه سلطاناً باسم المنصور لاجين عام 696هـ/ 1296م، ولكن قد تمَّ الغدر به وقتله عام 698هـ/ 1299م. حينها انتقل تنكز الى الملك الناصر محمد بن قلاوون وأصبح من خاصكيته[1] وخدم السلطان الناصر وشهد معه وقعة وادي الخازندار ثم وقعة شقحب. تدرج في مناصب الدولة حيث أمره السلطان إمرة عشرة قبل توجهه الى الكرك، الذي رافقه اليها، ولاحقاً جعله أمير طبلخاناة. وبسبب استمرار وجود النزاعات الداخلية بين النواب والأمراء المماليك، عمل الناصر محمد في فترة توليته الثالثة للحكم، ما بين عامي 709هـ/ 1309م الى عام 741هـ/ 1341م على التخلص من العديد من الأمراء الذين سلبوه سلطته في فترات توليته السابقة، فقام باسناد

[1]. الخاصكية: هو لفظ مملوكي، مفرده الخاصكي. وهم المماليك الذين يختارهم السلطان من الأجلاب، ويكونوا صغار السن ويجعلهم في حرسه الخاص. وأُطلقَ عليهم هذا الاسم الخاص لأنهم يتميزون عن غيرهم حتى عن أكابر الأمراء بحضورهم على السلطان في أوقات خلواته وفراغه، ويكونوا في طرفي كل نهار في خدمة القصر والاسطبل، ويركبون مركوب السلطان ليلاً ونهاراً، ويتوجهون في المهمات الشريفة حاملين سيوفهم ومرتدين لباسهم المطرز المزركش، فيتأنقون ويتميزون في مركوبهم وملابسهم.(دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص66).

المهام الى اشخاص يناصرونه، وسعى الى تدريب الأمير سيف الدين تنكز وتعليمه أمور النيابة والأحكام ثم ولاّه نيابة دمشق عام 712هـ/ 1312م، فحلَّ مكان جمال الدين أقوش الأفرم ونزل بدار السعادة[1]، وكان أول أمير يقفز قفزة واحدة الى النيابة. وقد تمكن الأمير تنكز من أمور نيابته حيث استطاع عام 715هـ/1315م من السير بالعساكر الى ملطية وافتتحها، وعظم شأنه وعدَل واشتدت قسوة عقوبته حتى هابه الأمراء ونواب الشام ولم يتجرأوا على ظلم أحد خوفاً من قمعه وشدته.

وكان السلطان الناصر محمد على علاقة جيدة مع الأمير تنكز فولّاه جميع بلاد الشام وكتب الى كل من نواب حماة وحمص وطرابلس وصفد للرجوع إليه. وكان يستشيره في أمور دولته ويأخذ برأيه ولا يُرَدُ له مطلب بل يُوَقِعُ بالتواقيع السلطانية على قراراته بأمور النيابة أو الاقطاعات أو غير ذلك. حتى ازداد نفوذ تنكز خاصة أنه ارتبط مع السلطان الناصر محمد بعلاقة النسب والمصاهرة حيث تزوج السلطان من ابنة تنكز خوندة قطلوبنك وكانت من المقربات للسلطان. وتزوج ولديّ تنكز من بنات السلطان عام 739هـ/ 1339م. وكان يُكرمه كرماً زائداً عند زياراته وفي المناسبات، ويزيد في إكرامه وإنعامه كل مرَّة، فعظمت ثروته وازدادت أملاكه[2].

3.1.2 صفاته وألقابه:

اتصف الأمير تنكز ببياض البشرة المائلة الى السمرة قليلاً. وكان رشيق القامة، حسن الشكل مليح الشعر، خفيف اللحية وقليل الشيب.

كان مُغرماً بالصيد فيتوجه له مع العسكر عدة مرّات في السنة. كان متواضعاً لا عنده خديعة ولا مكر، ولم يتصف بحدة الذكاء فلم ينظر الى عواقب الأمور، وكان لا يحتمل على الأذى ولا يداري عن خطأ حتى ولو للأمراء فكان صارماً وشديداً، إلا أنَّ ذلك كان مُرحباً به من قِبَلْ الكثيرين، فلم يتمكن أحد في ولايته من ظلم أحد. كان الناس في أيامه قد أمِنوا كل سوء فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأزال المظالم وقمع الفساد وولّى الوظائف لمن هو أهلٌ لها، وأنعم الرتب لمن يستحقها، فكان يعطي الطبلخانات والتقادم[3] والإقطاعات والنيابات والوظائف الدينية من القضاة

---

[1]. دار السعادة: دار بمعنى ممسك وهي لفظ فارسي. كانت تقع غربي التكية الأحمدية (جامع الأحمدية) في سوق الحميدية بدمشق، وكانت داراً للملك الأمجد الأيوبي صاحب بعلبك، ثم امتلكها الملك الأشرف. وفي العهد المملوكي أصبحت مقراً لنواب دمشق، فانتقل هذا الاسم من دمشق الى بقية الممالك المملوكية، بحيث بات في كل من القاهرة وحمص وحماة وحلب دار السعادة. وقد انتقل هذا الاسم في العهد العثماني الى بلاد الأتراك بحيث سُميت بعض قصور السلاطين بدار السعادة. (دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص72).

[2]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص251؛ بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج9، ص327؛ اليوسفي، نزهة الناظر، ص113؛ الحجي، صور من الحضارة العربية الاسلامية، ص25 حاشية (3).

[3]. التقادم: جمع تقدمة وهي الرتبة العسكرية التي ينالها المقدم، ومنها مقدم الألوف الذي يتولى قيادة ألف عسكري، ومقدم الجيش الذي يتولى أمرة الجيش. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص232 حاشية4).

والخطابة ونظر الجامع[1] والحسبة[2] وأنظار المباشرات الدينية[3]، دون أنْ يأخذ مقابلها مالاً أو رشوة. وكان مقصده الحق والعمل به ونصرة الشرع وايصال الحق الى مستحقه، فعدل بين رعاياه وأكرمهم حتى أنَّ أموالهم كانت موفرة عليهم فشهدوا في أيامه الأمن والعفة والحياة الكريمة والعدل ووفرة المال والبضائع والحاجات. وكان له اهتمام بالعلم والتعمير فكان يوقر الفضلاء لعلمهم، ويرعى أمور دينه من الصلاة والزكاة والدعاء، حتى صار أعظم رجل في الدولة بعد السلطان وأعدل أمير من أمراء عصره[4].

أما ألقابه فقد عُرِفَ بالأشرفي نسبة الى الملك الأشرف خليل بن قلاوون، كما عُرِفَ بالحسامي نسبة الى السلطان حسام الدين لاجين، كما وعُرِفَ بالناصري نسبة الى الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وقد تَلَقَبَ بالأمير الكبير المُهيب العادل الفريد، والعالم وذلك لأنه سمع صحيح البخاري من ابن شحنة الدمشقي، كما سمع كتاب الآثار للطحاوي وصحيح مسلم وسمع من عيسى المطعم وأبي بكر ابن عبد الدايم، وقرأ عليه أحد المحدثين ثلاثيات البخاري بالمدينة المنورة.

كما وحظي بألقاب كالأتابكي والزاهدي والعابدي، التي كان يُنْعِم عليه السلطان الناصر محمد بها. أما النعوت فقد قيل عنه" معز الاسلام والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين"، وهذا نعت لم يحظَ به أي من النواب أو غيرهم على اختلاف مراتبهم ومناصبهم من قِبَلْ السلطان.

ولعلو منزلته وصفاته الحسنة وأملاكه المتزايدة فقد كُتِبَ له: " أعزَّ الله أنصار المقرّ الكريم العالي الأميري"، وأيضاً "المقرّ الشريف العالي المولوي الأمير الكبيري الغازي المجاهدي الملكي المخدومي السيفي سيف الدنيا والدين عزَّ نصره"[5].

---

[1] . نظر الجامع: ومتوليها الناظر الذي يكون مسؤولاً عن الأموال ويتصرف بها ويكون محاسباً عليها. وناظر الجامع الأموي يكون مسؤولاً عن أوقاف الجامع ووجوه الصرف وأرزاق المستخدمين فيه.(الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية1).

[2]. الحسبة: يقوم بها المحتسب وعمله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحدث بأمر المكاييل والموازين والعيار، فيكون مسؤولاً عن أمور الأسواق. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية2).

[3]. أنظار المباشرات الدينية: أي نظر ديوان الصدقات والأوصياء والأيتام والحرمين والمدارس. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية3).

[4]. الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص251 ص253؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص420؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص510–511؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج1، ص448–449 ص451–452؛ دهمان، ولاة دمشق في عهد المماليك، ص166–167؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2،ص232–233.

[5]. دهمان، المصدر السابق، ص156ص174؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص420–421؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص252.

3.1.3 أهم أعماله وأملاكه:

لقد كانت المدة التي أقام بها الأمير سيف الدين تنكز نائباً على دمشق والممتدة لفترة 28 سنة مدة طويلة، جعلت البلاد تنعم بحالة من الاستقرار خاصة أنه لم يحصل في زمنه غارات من قِبَلْ التتار أو فتن داخلية، وذلك بأنَّه قد عُنِيَ بأمور نيابته واهتم بإنصاف رعاياه وإزالة الظلم والفحش، وكان يتفقد أحوال الرعية متخفياً ليلاً، ثمَّ يُشير بما يجب عمله واصلاحه. وقد اهتم بالأمور الداخلية فمنع شُرب الخمر حتى للأمراء أو أولادهم، وأنزل عقوبة بالغة لمن يُخالف هذا الأمر، فتعذر وجود الخمر في أيامه. كما لم يُقْدِم على أخذ الهدايا إنما أغدق على الناس بالمال وصرفه للفقراء والمحتاجين وأرباب البيوت. ومنع الأمراء من استغلال الفلاحين والمزارعين في أعمالهم كما اهتم بإصلاحات المدينة، فجدَّدَ قنوات المياه وتم تنظيفها وإعادة استخدامها مما قلل من انتشار الأوبئة والأمراض. وأمر بهدم الأملاك التي استجدها الناس فضيَّقوا بها الشوارع والطرق العامة، فوسَّعَ الطرق ورصفها وسهلها لراحة الناس. كما عُنِيَ بالأوقاف الاسلامية فعمَّرها وأمر بعدم صرف ريعها لمستحقيها حتى تكتمل عمارتها، واهتم بالأسرى وأكثرمن تحرير رقابهم حتى أنه أنعم على التجار بالأرباح الوفيرة لمن يفك أَسْرَهُمْ ويدفع المال الى آسريهم. وازدهر العمران في دمشق في هذه الفترة ازدهاراً بارزاً وطغى على العديد من أعمال غيره من النواب الذين كانت مدة حكمهم قصيرة نسبياً، فأُنشأت العديد من الأبنية في أنحاء المدينة وتوسعت أرجاؤها وأُنشأت عدة أحياء وحارات خارج سور دمشق. وقد جَهِدَ تنكز في كل عملٍ ينفعُ دمشق ويوفر الراحة لأهلها فأحبوه وأكثروا من الدعاء له.

وقد أنشأ العديد من الأبنية الفخمة من مدارس وجوامع وحمّامات وقياسر وخوانق وربط وزوايا، ومنها الجامع المعروف باسمه" جامع تنكز" بحكر السماق[1] بدمشق ويُعد أحد الجوامع الثمانية العظيمة في دمشق، تمَّ بناءه عام 717هـ –718هـ، وله منارة مملوكية وفيه روائع فنية، والى جانبه أنشأ تربة وحمّاماً، كما عمَّرَ تربة لزوجته الست ستيتة بنت الأمير سيف الدين عمر الكوكبائي وتشتمل على أربعة أقسام وهي قبة للدفن ومسجد للصلاة ومكتب للأيتام ورباط للنساء، وعمَّرَ داراً للقرآن بجانب داره دار الذهب عُرِفَت بدار القرآن والحديث التنكزية وهي الآن معروفة بالمدرسة الكاملية. وقد عمَّرَ قلعة جعبر[2] التي تقع على حدود بلاد الشام وبلاد التتار بعد

---

[1]. حكر السماق: وهو مكان بدمشق عُرِفَ بشارع جمال باشا، يمتد من أول سوق الحميدية الغربي وباب القلعة الغربي الى محطة الحجاز غرباً، ويُعرف حالياً بشارع النصر.(الصفدي، تحفة ذوي الألباب،قسم 2، ص239 حاشية1).

[2]. جعبر: هي بلدة صغيرة في سوريا وقلعة بين الرقة وبالس، قرب صفين. عُرِفَتْ قديماً باسم دوسر، ثم عُرِفَتْ باسم جعبر نسبة الى أعرابي أعمى من بني قشير اسمه جعبر بن مالك ، وكان يقطع الطريق ويلتجأ إليها وقد استولى عليها. ثمَ صارت الى عدد من السلاطين أولهم السلطان ملك شاه السلجوقي الذي أخذها من جعبر بن مالك وتبعاً سلاطين آخرين، حتى تملكها الملك العادل الأيوبي (أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي)، لاحقاً دمرها هولاكو بعد فتحه بغداد وبقيت بذلك خراباً الى أيام الأمير تنكز، الذي قام بتعميرها.(دهمان، ولاة دمشق، ص158–160).

أنْ دمرها هولاكو وبقيت خراباً فشحنها بالرجال والسلاح والذخائر، وتُعَدُ عمارتها من أعظم الأعمال الكبيرة التي قام بها الأمير تنكز.

كما أنه قد قام بالعديد من الأعمال الخيرية في فسطين، ففي القدس أنشأ مدرسة وداراً للحديث وخانقاة ورباطاً وحمامين وخاناً وسوقاً أوقفه على المسجد الأقصى وساق الماء الى ساحة المسجد الأقصى. وأنشأ جامعاً بنابلس وبيمارستاناً بصفد، كما أنشأ جامعاً بعجلون وله في سائر بلاد الشام عمائر وآثار عديدة[1]. وزادت أمواله وعظُمَتْ أملاكه المنتشرة في عدة مناطق، فله في دمشق قصور وأبنية فخمة من أهمها دار الذهب القديمة والجديدة وهي الدار التي أقام بها، وله قصر خارج دمشق بالقطائع، وله دار فخمة وحمام بجانب جامعه الكبير جامع تنكز بدمشق، وله دور أخرى مثل دار الزمرد ودار الزردكاش كما له عدة حمّامات بدمشق أمثال حمّام القابون وحمّام العمري وله بساتين وحدائق وجنان عديدة كبستان العادل وبستان الرزاز وجنينة وبستان غيث وله العديد من العقارات الاخرى كالخانات والاسطبلات والحوانيت والأفران. كما وله أملاك اخرى عديدة في حمص وبيروت والبقاع، كالدور والحمّامات والاسطبلات والحوانيت والبساتين والقصور والطواحين والقرى. كما كان له أملاك خارج دمشق كصفد وعجلون والقدس ونابلس والرملة وجلجولية ومصر، فله في القاهرة بحي الكافوري داره العظيمة المعروفة به واسطبل وحمّام وحوانيت. هذا الى جانب ممتلكاته من المماليك والجواري والخيول والدواب والجواهر والذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة والقماش والثياب الفاخرة والأثاث. فَتُعَدُ ثروته ثروة عظيمة، إلا أنَّ قيمة ما تركه الأمير تنكز من أموال وأملاك لم يختص بها وحده إنما تنعَّم العشرات غيره من الأمراء بمثل قيمة هذا المال. ولكن الذي اختص به عن غيره وكان صفة حسنة هو أنه كان له كاتب خاص، مهمته الأساسية والوحيدة هو تسجيل ما عند الأمير من أموال على مدار العام، وعندما يمر العام يُخْرِج زكاتها لذوي الحاجة، أما الأمراء الآخرين فلم يتصفوا بهذه الخصلة الحميدة[2].

ولهذا فقد نَعُمَ الأمير تنكز بالحياة الرغيدة التي عصبها المال الوفير والأملاك الطائلة كما وأنه بمقدرته وحرصه على العدل في ذات الوقت استطاع توفير الراحة للناس وعاشوا في فترة نيابته حياة مستقرة.

---

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص157 ص165–166 ص172؛ المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص510–512؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1،ص252؛ الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص451؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ط1، ص133 ص144.

[2]. دهمان، المصدر السابق، ص167 ص176–179؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص429–432؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص458.

3.1.4 وفاته وما قيل فيه:

بما أنَّ الأمير تنكز لم يوصف بحدة الذكاء فإنه لم ينظر الى عواقب الأمور وأغفل عنها، ولم يعتبر بعقوبة مَنْ تَقَدَمَ غيره من النواب والأمراء وما آل إليه حالهم من قتلٍ و نفيٍ ومصادرة أموالهم وأملاكهم، بسبب غضب أي من السلاطين عليهم. فاطمأن للسلطة اللامحدودة التي منحها إليه السلطان الناصر محمد، ومارس قوته وسعة نفوذه مرتكزاً على علو شأنه وماله وجاهه ومكانته العظيمة والمتميزة عند السلطان، فأصبح غير مبالٍ بما يصدر عنه من قول أو فعل، وغافلاً عن المتربصين له الذين يوشون به وينقلون عنه الأخبار للسلطان ، ويحيكون حوله المؤامرات.

ولقد كان السلطان الناصر محمد بدوره كثير الشك وتباينت سياسته إزاء كبار رجال دولته، حتى أعوانه المقربين الذين ما يلبث أنْ يرفع من شأنهم حتى يسعى الى التخلص منهم، وذلك خشية منه على سلطانه من قوتهم وهيبتهم وخوفاً من تكرار ما حلَّ به في سلطته الأولى والثانية. فكان لذلك إنْ أراد التخلص من أحدهم حقد عليه ولكنه يُظْهِر له الحُبَّ والاحترام ويصبر عليه حتى ولو لفترة طويلة، إلى أنْ تأتي الفرصة المناسبة له لتنفيذ مبتغاه[1].

وهذا ما قد حصل مع الأمير تنكز، فبعد تقربه منه واعتماده عليه ومصاهرته، تغير حاله وأصبح يكن له البغض ويتربص له وصمّمَ على الامساك به، وكان لسبب هذا التحول عدة أحداث منها:
أنَّ الأمير تنكز لم يأبه في بعض الأحيان لمطالب السلطان الناصر محمد، وإنما تمسك برأيه، وهذا ما قد حصل في حادثة عندما غضب تنكز على جماعة من مماليكه وسجنهم، فكتب له السلطان يتشفع لأحد من المماليك ولكنه لم يُجِبه لمطلبه، فغضب عليه السلطان خاصة وأنه قد بعث إليه عدة مرّات لشفاعة المملوك ولكنه ردَّ له أمره.

وفي حادثة اخرى حين بعث نائب بلاد الروم رسولاً يحمل رسالة الى الملك الناصر محمد ولم يبعث بواحدة الى الأمير تنكز، فعدَّ ذلك تنكز إهانة له وردَّ الرسول من دمشق. وحين علِمَ السلطان بذلك لم يعجبه، وعدَّه تدخلاً بأموره من قِبَلِ تنكز وتعدياً على شؤونه وحجزاً لحريته، حيث اعتبره أنه يريد الاطلاع على كل شأن من شؤون المَلِكْ.

ومن الأمور الاخرى التي أثرت في السلطان وجعلته عازماً على الامساك بالأمير تنكز، أنَّ الأخير استأذن من السلطان للسفرالى ناحية جعبر، فردَّ عليه بالمنع تكراراً، فغضب تنكز وتفوه بكلام تم نقله الى السلطان الذي تأثَّر بهذا الكلام وأخذ يبني عليه التخيلات.

---

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص161.

كما أنَّ الأمير تنكز قد عزم على التوجه الى بلاد التتار وعلم أهل دمشق بذلك، فنقل أحدهم بعض الكلام الى السلطان الناصر وقد حرَّف به، فتغير السلطان تغيراً عظيماً[1]. بعدها شَعَرَ تنكز بتغير حال السلطان تجاهه، فعزم لاحقاً على أنْ يخرج محملاً أمواله الى قلعة جعبر بحجة الصيد. ولكن أمر الفساد والتربص به وبأعماله وبأقواله منعته من ذلك، حين علم السلطان بنيته اللجوء الى قلعة جعبر. فأمر بإرسال حملة عسكرية من الأمراء والنواب والمماليك للقبض على الأمير تنكز وذلك لخروجه عن طاعة السلطان. وتم تجهيز الاستعدادات للإحاطة بالأمير الذي علم بالأمر فدخل الى دار السعادة وحاول تجهيز نفسه ومماليكه للدفاع، لكن بوصول الأمير سيف الدين طشتمر نائب صفد الى دمشق ومعه عدداً وفيراً من الجنود والأمراء، تم تبليغ الأمير تنكز مرسوم السلطان بالقبض عليه. ولعلمه بأنَّ الفوضى قد عمَّتْ في دمشق وبأنَّ الناس ينهبون، آثَرَ إخماد الفتنة وعدم إشهار السلاح، فخرج إليهم مستسلماً وأُخذ سيفه وقُيد خلف مسجد القدم، وكان ذلك في عام 740هـ/1340م. ففرح السلطان لخبرالقبض عليه بسهولة ظناً منه بأنَ هذا الشأن سيكون صعباً وقد شَكَلَ له قبلاً قلقاً شديداً[2].

بقي تنكز مسجوناً الى أنْ تم نقله الى القاهرة عام 741هـ/ 1340م وهو مريض وأُنزل بمكان ضيق بقلعة الجبل، ثمَّ بعث له السلطان بتهديد ليعترف بأمواله، ولكنه نفى بأن يكون لديه أموال وأنَّ ما لديه سوى وديعة للأيتام وأنكر أنه قد خرج عن الطاعة فأمر السلطان بإرساله الى الاسكندرية واعتقل فيها نحو الشهر، ثمَّ تمَّ قتله خنقاً أو سمَّاً على يد المُقدم ابراهيم بن صابر، كما قيل بأنه لمّا عَلِمَ باستخراج ودائعه وأخذِ أمواله، حصل له غيظ عظيم فأصابته حُمى شديدة وتوفي من أثر ذلك، وكان ذلك في منتصف محرم عام 741هـ/ 1341م، وتم دفنه في الاسكندرية وقد جاوز الستين من العمر. الى أنْ مات السلطان الناصر محمد بن قلاوون فنُقِلَ تنكز في تابوت الى دمشق عام 744هـ/ 1344م، ودُفن في تربته التي عمّرها بجانب جامعه، وقد تبعثرت أمواله بعد وفاته لكن دون أنْ يؤثر ذلك على أوقافه[3].

لقد أسِفَ أهل الاسكندرية ودمشق لموت تنكز، وحزنوا حزناً شديداً لأنه كان رجلاً كريماً عادلاً يُقيم حدود الله والصلاة والزكاة، إلا أنَّه في آخر عهده قد تغير حاله وتقلَّبَ سلوكه فبطش بين الناس واتخذ الأملاك وأخذ عدة أوقاف من أبناء الملوك، واستخدم الفلاحين لخدمته وقطع الزكاة، وظلم حيث بالغ في العقوبة وأخرج أناس من دمشق وساء خلقه كثيراً. وقد يعود ذلك الأمر لصفته

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص509؛ دهمان، ولاة دمشق، ص161 ص163.

[2]. الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص254-255؛ الصفدي، أعيان العصر، ص452-453؛ دهمان، المصدر السابق، ص163-165.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص187-188؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، قسم1، ص126؛ الصفدي، المصدر السابق، ص454-455؛ دهمان، المصدر السابق، ص165.

الملازمة له بأنه كان يتخيل خيالاً ويشتد غضبه كثيراً بحيث لا يقدر أحد على مجابهته أو الحديث معه[1].

وبالرغم من ذلك فإنَّ ما وفره الأمير تنكز لأهل دمشق خاصة وبلاد الشام عامة من حالة استقرار وازدهار وحياة كريمة، جعل الكثيرين يكتبون عنه ويُطروه ويترجموا له تراجم طويلة. فمن الأشعارالتي قيلت فيه حين قال صلاح الدين الصفدي في أبيات شعره، يصف حال أيام نيابة الأمير تنكز وصفاً شاملاً، فيقول:

ثم أتى مَنْ كان نِعْمَ النائبْ تَنْكِزُ جادَتْ قَبْرَه السَّحائبْ
فَنَشَر العَدْلَ بها والحُرمَهْ فانْتَعَشَتْ به وكانَتْ رُمّه
واتصلتْ أيامه وامتدّتْ وأَدْبَرتْ نُحُوسُها وارْتَدَّتْ
وأمّنَ البلادَ والعِبادا كأنّما أيامُه أعيادا
وسارَتِ القُفُولُ في الأقطارِ آمنةٌ من سائر الأخطارِ
بِهَيْبَةٍ تُراعُ منها الأُسْدُ وعِفّةٍ ما مثلُها تُحّدُ
وعَمّر الجامعَ والمدارسَ وكلَّ وقفٍ كان قبلُ دارسا
وجدَّد القُنِيَّ حتى نَظُفَتْ ورَسَتِ الأَقذارُ بعد ما طَفَتْ
ووسَّع الطريقَ في الأسواق فأصبحت نهاية الأشواق
وطارَ عنه الصِّيْتُ ما بينَ التترْ حتى استلانَ عَزْمُهُم ثم فَتَر
وقطع الفراتَ ثم اصطادا هناكَ أياماً وكم أعادا[2]

كما قال عند وفاة الأمير تنكز:

فكأنه برقٌ تألَّقَ بالحمى ثمَّ انطوى فَكأنه لمْ يلمعِ

كما قال فيه عند نقل تابوته من الاسكندرية الى دمشق:

إلى دِمَشْق نقلوا تنكزاً فَيَا لَهَا مِنْ آيةٍ ظاهرة
في جَنَّةِ الدُّنْيَا لَهُ جُثَّةٌ ونَفْسُهُ في جَنَّةِ الآخِرَة

كما قال أيضاً لنفس الحدث:

في نَقْلِ تَنْكِزَ سِرٌّ أَرَادَهُ الله رَبُّهْ
أتى بِهِ نَحْو أرض يُحِبُّهَا وَتُحِبُّهْ

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2قسم2 ص512.

[2]. الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص229-230.

وقد قال فيه عندما قُبِضَ عليه أبيات منها الآتية:

تَنَكَّـــرَ يَـــومَ تَـــنْكِزَ كُـــلُّ عُـــرْفٍ وسَـــامَ الـــذُلُّ فينَـــا كُـــلَّ سَـــامِ
وَمَـــالَ إلـــى المَنِيَّـــةِ كُـــلُّ مَـــوْلَى وَحَـــام عَلَـــى الرَّزِيَّـــةِ كُـــلُّ حَـــامِ
وَأَذْهَـــلَ يَـــوْمُه الألبـــابَ حَتَّـــى كأنَّـــا فِيـــهِ صَـــرْعَى بِالـمُـــدَامِ
بَكَيْـــتُ دِمَشْـــقَ لَـــمَّا غَـــابَ عَنهَـــا وأوحـــشَ أفـــقها بـــدرُ التَّمَـــامِ
فَيَـــا تَمْزِيـــق شَـــمْل العـــدلِ فِينَـــا ويَـــا تَفْرِيـــق ذاك الإنْتِـظَـــامِ
ويَـــا لِمُصِـــيبَةٍ بدِمَشْـــقَ حَلّـــتْ شَـــدَائِدُهَا بِأَحْـــدَاثٍ عِظَـــامِ
فَكَـــمْ مِـــنْ مُقْلَـــةٍ لِلحُـــزْنِ تَجْـــرِي مَـــدَامِعُهَا بِأَرْبَعَـــةٍ سِـــجَامِ
رَعَـــاهُ اللهُ مِـــنْ رَاعٍ أَمِـــينٍ أَنَـــامَ بِعَدْلِـــهِ عَـــيْنَ الأَنَـــامِ
وكَـــفَّ حَـــوَادِثَ الأَيَّـــامِ عَـــنْهُمْ فَلَـــمْ تَطْـــرق حِماهـــم بِانْتِقَـــامِ

وأيضاً في نفس القصيدة الأبيات التالية وتُبين حكم الأمير تنكز العادل:

ولِيـــتَ فَلَـــمْ تَخُـــنْ للهِ عَـــهدَاً ولَـــمْ تَجْـــذُبْكَ فِيـــهِ عُـــرَى المَـــلامِ
حَاشَـــا أن يـــراك الله يومـــاً تَعَـــدَّيْتَ الحَـــلالَ إلَـــى الحَـــرَام
وَنِلْـــتَ مِـــنَ السَّـــعَادَة وَالمَعَـــالي منَـــالاً حَـــازَ غَايَـــاتِ المَـــرَامِ
وَكُنْـــتَ تُحِـــبُّ نُـــورَ الـــدِّينِ طَبْعـــاً لأَنَّكُمَـــا سَـــوَاء فـــي الْتِـــزامِ
رَعَيْـــتَ كمَـــا رَعَـــى وَحَمَيْـــتَ مَـــا قَـــدْ حَمَـــى نَفْـــدِيكَ مِـــنْ رَاعٍ وَحَـــامِ
وَكُنْـــتَ إذَا دَجَـــا لَيْـــلُ القَضَـــايَا وَكَانَـــتْ مِـــنْ مُهِمَّـــاتٍ جِسَـــامِ
تُفَرِّجُهَـــا بِقَـــوْلٍ مِـــنْكَ فَصْـــلٍ لأَنَّ القَـــوْلَ مـــا قَالَـــتْ حَـــذَامِ[1]

وعندما ولى الأمير الطنبغا الصالحي نيابة الشام بعد الأمير تنكز، قال الشيخ صلاح الدين الصفدي عام 745هـ/ 1344م أبياتاً منها:

ألا هَـلْ لُيَـيْلاتٌ تقضَّـتْ عَلـى الحِـمى تَعُـودُ بِوَصْـلٍ للسُّـرورِ مُـنَجِّـزِ
لَيَـالٍ إذا رَامَ المُبَـالِغُ وَصْفَـها يُشَـبِّهُها حُسْنَـاً بأيـام تَـنْكِـزِ[2]

وبهذه الأبيات الشعرية التي وُصِفَ بها الأمير تنكز يتبين لنا ما تحلى به من صفات حميدة وأعمال صالحة وانجازات مميزة، استحق على اساسها التقدير والموالاة. وما قد تميزت به أيضاً فترة نيابته الطويلة من تحقيق أمجاد عسكرية وحياة اجتماعية مستقرة للعامة ومنارات علمية تشهد لها عمائره المتميزة والمنتشرة في مختلف المدن، مما جعله أيقونة لامعة بين نواب عصره.

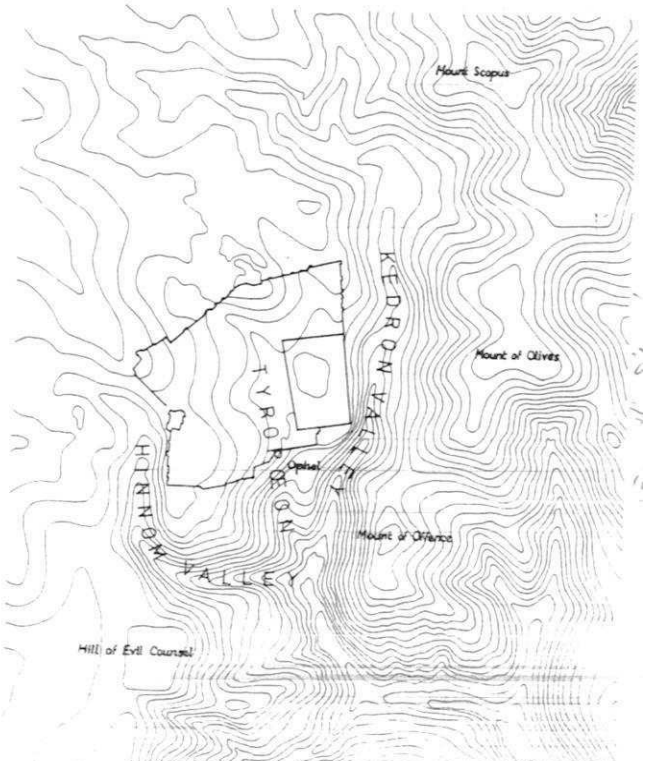
---

[1]. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص432-435.

[2]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج9، ص327؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص244.

3.2 انجازات الأمير تنكز المعمارية:

من خلال الحديث عن حياة الأمير تنكز وبعد التطرق الى جوانب مختلفة سياسية وثقافية في مدينة القدس، نستطيع أنْ نؤكد على أهمية الفترة الواقعة ما بين 712–740هـ/ 1312–1340م؛ وهي الفترة التي تولى بها الأمير تنكز نيابة بلاد الشام، وما كان له من دورٍ بارزٍ في تطور النسيج الحضري لمدينة القدس من خلال انجازاته المعمارية. وقد شكلت هذه المنشآت المميَّزة جزءاً اساسياً في عمارة مدينة القدس، مما يدفعنا لدراسة التخطيط الحضري للمنطقة وتبيان اهمية المجمع المعماري للأمير تنكز في المدينة؛ فكيف حقق بناء هذا الصرح المعماري في الجهة الغربية من الحرم القدسي، والمتمركز ما بين منطقة سوق القطانين شمالاً ومنطقة حارة المغاربة جنوباً. وما كانت عليه معطيات المكان قبل بناءه وما الدوافع وراء اختيار هذا المكان، وكيف استطاع هندسة وربط هذه العمائر والتي تمثلت بالمدرسة التنكزية، ورباط النساء، ومأذنة باب السلسلة، والسقاية أو المطهرة، وسوق القطانين، وخان تنكز، وحمَّاميّ الشفا والعين لتُشكل مجمعاً معمارياً ضخماً.



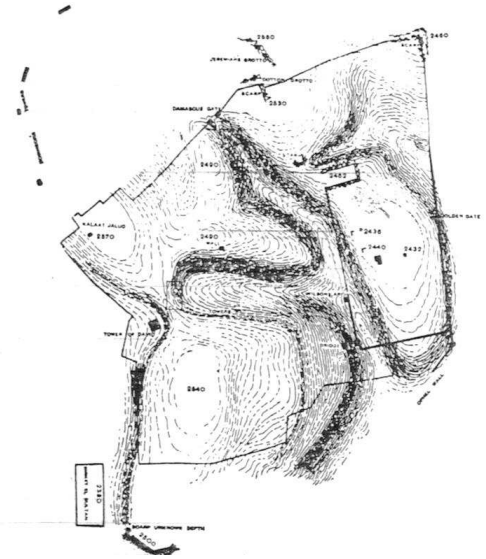
مخطط رقم 1 أ. الخطوط الكنتورية لمدينة القدس القديمة ومحيطها من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 40, fig. 3

فبشكل عام كان امتداد تطور البناء في مدينة القدس باتجاه الناحيتين الشمالية والغربية للمدينة، وذلك لوقوعها على اعلى تلة وطوبوغرافية المنطقة المحددة بتلال ووديان خاصة من الناحيتين الشرقية والجنوبية (مخطط رقم1 أ، ب). ويمتد أُخدود باتجاه الشمال الغربي، ومنفصل من الشمال الى الجنوب بوادٍ غير عميق عُرِفَ بوادي الطواحين (في الفترة المملوكية) أو طريق الواد[1]، كما عرَّفَه مجيرالدين الحنبلي بالشارع الأعظم[2] (مخطط رقم2). ويُعتبر هذا الطريق أحد الطرق الرئيسية في مخطط المدينة؛ حيث أنه الطريق الأقرب الى منطقة الحرم من الناحية الغربية والواصل من الجهة الشمالية للمدينة من باب العمود او باب دمشق، حيث كان الخط الرئيسي للحجاج القادمين من منطقة

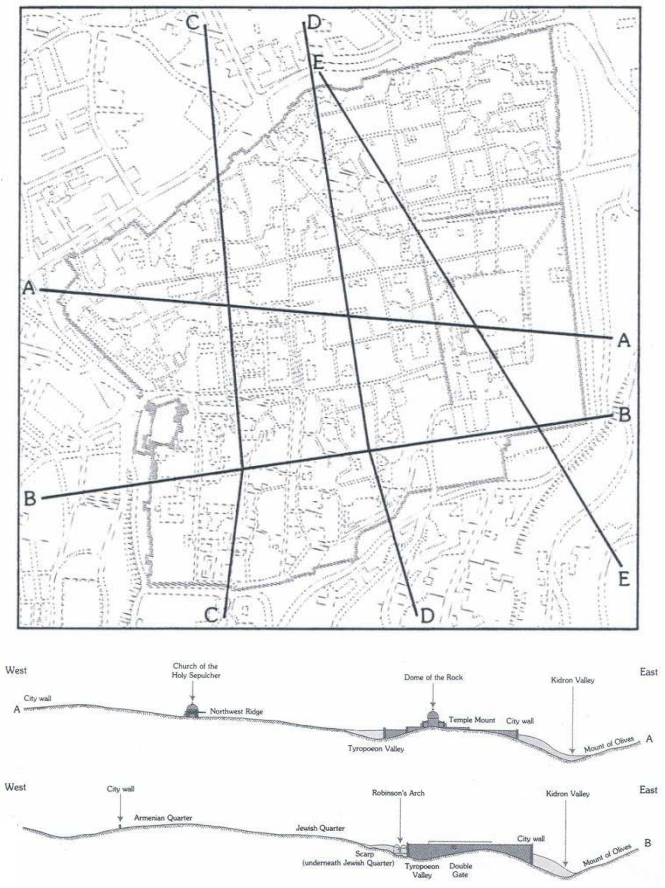
[1] Wilson and Warren,The Recovery of Jerusalem, pp. 5-6; Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 40

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص404.

الساحل الفلسطيني من الرملة، واللطرون، والقبيبة وغيرها الى القدس[1]. وقد شكل مصباً للطريق الوحيد المتجه من باب الأسباط باتجاه المدينة، كما ويتعامد هذا الطريق مع المحور الرئيسي الذي يصل بين قلعة داوود في الجهة الغربية عند باب الخليل



مخطط رقم 2 الخطوط الكنتورية للقدس القديمة
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 78, fig. 4



مخطط رقم 1 ب. مقاطع A-A و B-B
من Bahat, Illustrated Atlas, 15

أو باب يافا وبين منطقة الحرم عند باب السلسلة[2] والمعروف بطريق باب السلسلة[3]. والذي قد شكَّل أحد الخطين الرئيسيين في مخطط شبكة الطرق في الفترة الرومانية، واستمر هذا المحور كشريان رئيسي في المدينة عبر العصور المختلفة. كما ووصفه الحنبلي بأنَّه الشارع الأعظم أيضاً لأهميته، حيث يتم الخروج اليه من أهم أبواب المسجد (وهما باب السلسلة وباب السكينة) الى معظم أسواق

[1] .Prawer, Jerusalem in Crusader Days, p. 104

[2]. باب السلسلة: له عدة اسماء حيث عُرف قديماً بباب داوود(الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 383) وعُرف بالفترة المملوكية بباب السَحَرة (العمري، مسالك الأبصار،ج1،ص 163) وكما عُرف بالفترة الصليبية بِـ'Porta Speciosa 'The beautiful gate (Hawari, Ayyubid Jerusalem, p.74 ؛Prawer, Jerusalem in Crusader Days, p.103).

[3]. لقد عرَّفَ مجيرالدين الحنبلي طريق باب السلسلة بخط داوود وذلك كما ذكر بأنَّ سيدنا داوود كان له سرداب تحت الأرض معقود بالأقبية المحكمة البناء يمشي فيه من منزله بالقلعة التي عُرِفت قديماً بمحراب داوود الى باب السلسلة الذي عُرف قديماً بباب داوود (الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص403)؛ Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 203

البلدة وشوارعها[1]. وقد اعتُبر باب السلسلة الباب الأهم تجارياً وحضارياً في تلك الفترة بين المواقع الاخرى (مخطط رقم3).



مخطط رقم 3 مدينة القدس القديمة

من الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، 474.

وبالتالي فإنَّ نقطة التقاء طريق الواد مع طريق باب السلسلة والتي شكَّلت مصبَّاً رئيسياً للوافدين الى منطقة الحرم، من الحجاج أو التجار أو اهل المدينة أو الزائرين، من جميع اتجاهات المدينة، قد شكَّلت منطقة جَذْبْ للأمير تنكز لتنفيذ مخططه الشامل. كما أنَّ وجود الأبنية القائمة في الناحية الشمالية والشمالية الغربية لمنطقة الحرم القدسي والتي قد تمَّ استغلال معظم هذه المنطقة للتطور العمراني من فترات سابقة، لتلائم منسوبها نسبياً مع منسوب ساحة الحرم[2]، قد دفع الأمير الى اختيار هذا الموقع في الناحية الغربية لقربه من منطقة الحرم ولاتساع مساحته، خاصة وأنَّ هذه المنطقة كانت فارغة من أية منشأة معمارية، فقط ما بقي من انقاض آثار معمارية هُدمت من

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 383ص403 .

[2] .Rosovsky, City of The Great King, p. 399 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 78-80

فترات سابقة، مما شكَّل مساحة كافية لتنفيذ كامل المخطط في حدود منطقة واحدة. وبعد الدراسة والتحليل للمنطقة المحيطة بالحرم القدسي، وبالاطلاع على المخططات الخاصة بمنشآت الأمير تنكز وغيرها من المنشآت المجاورة، تُبين اهمية اختياره للموقع لاقامة منطقة خدمات متكاملة يحقق من خلالها مكانة اقتصادية وخيرية واجتماعية لمدينة القدس. فإنه من خلال متابعة التسلسُل الزمني للأعمال المعمارية للأمير تنكز، يتبين بأنَّ المدة التي قام الأمير بتشييد عمائره الواقعة في حدود منطقة الدراسة والواقعة ما بين 728–737هـ/ 1327–1337م تُعتبر مدة قصيرة نسبياً (وهي حوالي التسع سنوات) بالنسبة لعدد وحجم انجازاته، مما يُظهر إصراره وعزمه على إحياء المنطقة وربط المباني ببعضها البعض وتخصيص حيز في نطاق مساحة منطقة الحرم الشريف تقترن به اعمال تنكز، من اجل نيل فضائل عمل الخير في مدينة القدس لما لهذا الأمر من اهمية لدى حكام المماليك لمضاعفة الأجرعند الله تعالى.

وإنَّ اختيار الأمير تنكز لهذا الموقع في الجهة الغربية من الحرم لم يأتِ بمحض الصدفة، إنما كان هناك اعتبارات ومعايير لابدَّ وقد تمَّ أخذها بعين الاعتبار لإعادة تخطيط هذه المنطقة والتي كانت بداية تطورها بالمدرسة التنكزية، والتي قد شرع بتعميرها في عام 728هـ/ 1327م. فمع وجود آثار ابنية سابقة من فترات زمنية ماضية في موقع المدرسة ومحيطها قد سهَّلَ استغلال هذه المساحة واعادة تعميرها. فإنَّ المدرسة التنكزية تقع على بركة عُرفت ببركة البراق ويقع فوق البركة قبو سليماني قد استغله الأمير تنكز وجدده عند تعميره المدرسة. ويُعرف هذا القوس حالياً بقوس ويلسون، ويقع تحت الجانب الشرقي للمدرسة[1]. ولتوفير المياه للاستخدام داخل المدرسة فقد استُغِلت مياه البركة التي فُضِّلَ اهل المدرسة أولاً لاستخدامها ثم ما يحتاج اليه في حمامي الشفا والعين ثم بقية عامة الناس[2]. كما ويقع تحت حائط المدرسة القبلي مجموعة أقباء رومانية عُرفت قديماً باسطبلات الداوية[3] (مخطط رقم 4 أ، ب، ج، د)، وقد تمَّ استغلال هذه المنطقة عبر العصور المختلفة، ولكن مع حدوث الزلزال المدمِّر عام 702هـ/ 1303م في فترة الحكم المملوكي للبلاد، اثَّر على المنطقة وأدى الى دمار في الأبنية[4]، فأصبحت المنطقة ذات انقاض معمارية. مما حفَّزَ الأمير تنكز على اعادة هيكلية المنطقة بايجاد مزيج من أرض ممهدة للبناء بأساسات موجودة وبقايا آثار معمارية يُمكن استغلالها ودمجها مع اتجاه الأمير في هندسة مجمعه

---

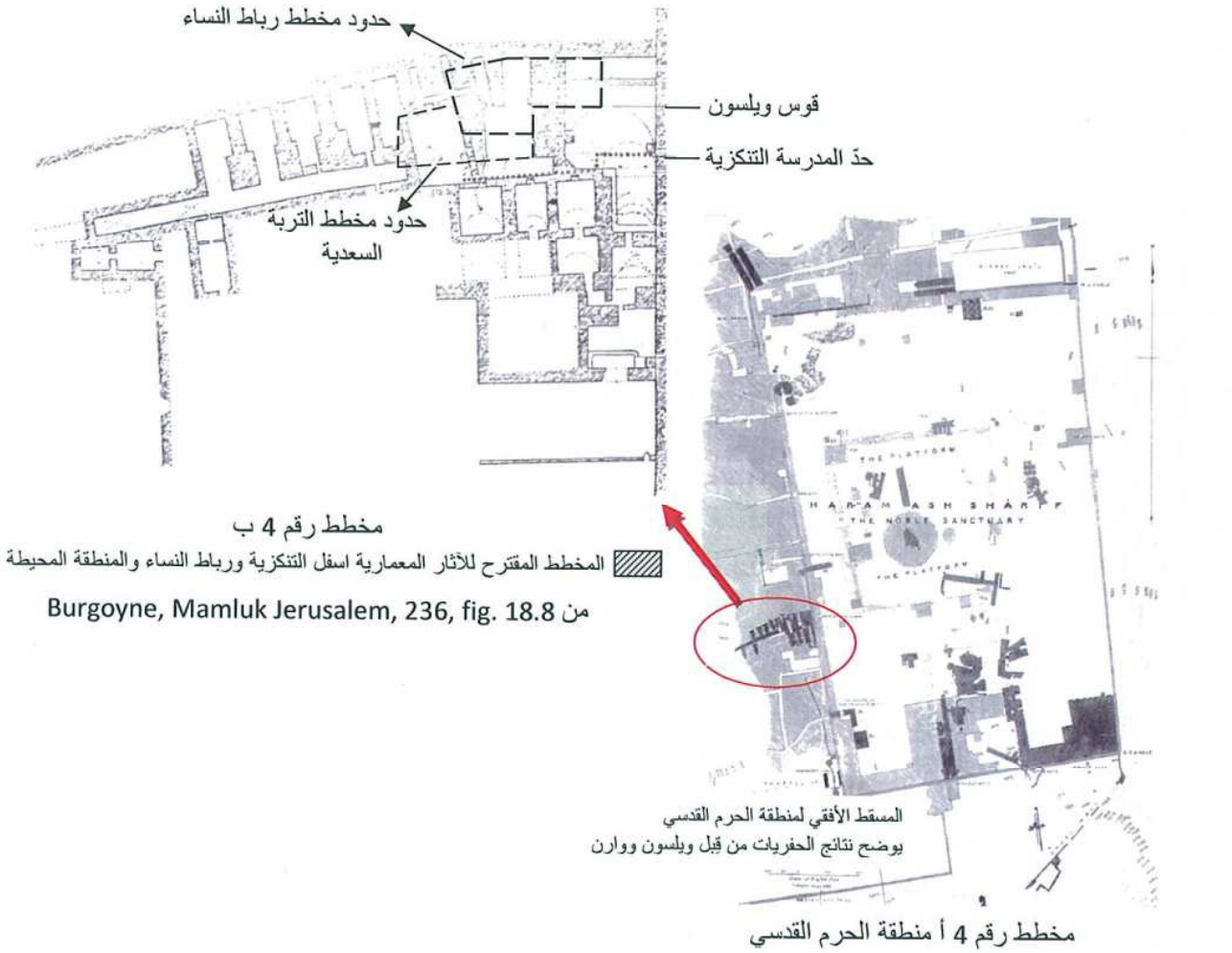
[1] Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 13؛ العسلي، من آثارنا، ص 127؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص 110
Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 193

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص 110.

[3]. كان يتم الدخول الى هذه الأقباء عبر باب خاص من حارة المغاربة في فترة تعمير المدرسة وقد اصبحت من حقوق المدرسة (العسلي، وثائق مقدسية، ص 109؛ العلمي، المدارس المملوكية في القدس، ص31؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.225) وهي قد شكلت فيما قبل سلسلة من الأقواس كان يعبر فوقها طريق يمتد من منطقة الحرم الى قصر هيرود بباب الخليل.
(Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 13).

[4]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.41 p.80.

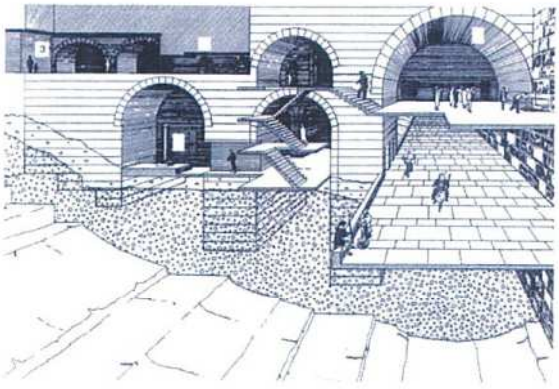
المعماري. آخذاً بعين الاعتبار طوبوغرافية المنطقة، وانخفاض منسوب بعض المناطق المحيطة بساحات المسجد الأقصى المبارك، وصعوبة البناء فيها والذي يحتاج الى تسويتها وانشاء اساسات ضخمة لتدعيم المباني فوقها لرفعها الى مستوى ساحة المسجد[1]، مما يتطلب مجهود وايدي عاملة كثيرة وزمن اضافي لاتمام البناء. ولكن مع وجود هذه البقايا المعمارية شكلت له اساسات لانشاء المدرسة على مستوى منسوب الطريق، لتشكل بذلك جزءاً من المرحلة الأولى لمشروع مجمعه المعماري الضخم والذي لابد وأنْ كان له رؤيته الخاصة في تحقيق تنفيذه، خاصة وأنه قد تمَّ ذكر المطهرة (المتوضأ) والحمامين القبلي والغربي من جملة الموقوفات للأمير تنكز في وقفيته المؤرخة بتاريخ سنة 730هـ/ 1330م، أي بعدة سنوات قبل اتمام تعمير هذه المنشآت.



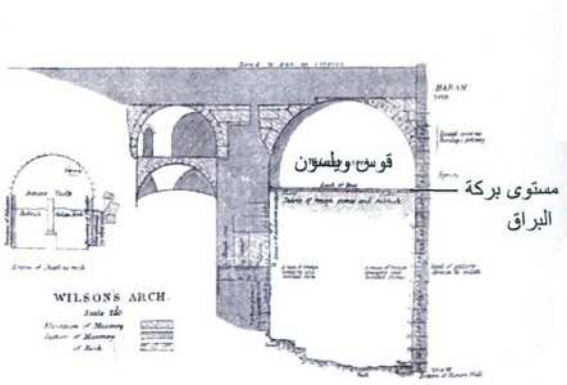
مخطط رقم 4 ب
المخطط المقترح للآثار المعمارية اسفل التنكزية ورباط النساء والمنطقة المحيطة
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 236, fig. 18.8

مخطط رقم 4 أ منطقة الحرم القدسي
من Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, 8

[1] . Bahat, Jerusalem Down Under, B.A.R.21.6, p.39.



مخطط رقم 4 د
منظور لقوس ويلسون الواقع اسفل المدرسة التنكزية
من Bahat, B.A.R.21.6 Jerusalem Down Under, 37



مخطط رقم 4 ج
مقطع قوس ويلسون ومستوى بركة البراق
من Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, 62

كما أنَّ اتجاه الأمير تنكز في البناء قد ارتكز على هدف المماليك بشكل عام، ألا وهو التأكيد على أهمية مدينة القدس وجعلها مركزاً دينياً وحضارياً، فعمل على انشاء مجمع التنكزية من أجل تحسين مكانة المدينة الدينية والثقافية، وكان هذا الموقع بجوار الحرم مفضلاً وذلك للحصول على بَرَكَة المكان بالبناء في أقرب منطقة للحرم، وهذا ما أكدته الكتابة في مسجد التنكزية بأنه بجوار المسجد الأقصى، وما أفضل من هذا الجوار[1]. كما أنَّ وازع الأمير تنكز الديني قد دفعه لتعديل المنطقة وتطوير المشهد الثقافي والحضاري لها بعدم ترك الآثار المتبقية من عمارة سابقة البناء على مدخل رئيسي للحرم القدسي من هذه الناحية، ولترسيخ اهمية اهتمام المماليك عامة وهو منهم بتعمير بيت المقدس وإنَّ عهدهم هو العهد الذهبي في تاريخ فن العمارة والبناء. وقد اهتم الأمير تنكز باختيار موقع مميز لمدرسته يتناسب مع مرتبته ومكانته في الدولة[2]، فبشكل عام كلما كانت العمارة مميزة ومتقنة وذات موقع مميز كلما دلَّتْ على مكانة القائم بالعمل وعلى علو شأنه في الدولة، وبذلك فإنَّ قوة الأمير تنكز السياسية وعلو مكانته وشأنه عند السلطان وعند سائر النواب والحكام وعامة الناس، قد تطلب منه الاختيار الأفضل كهذا الموقع ذا الأهمية الدينية والحضارية والواقع في مركز الحياة اليومية للمدينة.

ولتدعيم هذا الاختيار للأمير تنكز بالرغم من صِغَر المساحة المتوفرة للبناء نسبياً والمحددة من جميع الجهات، ولاصراره على اقامة كتلة معمارية شاملة من النواحي الدينية والثقافية، فقد عمل على الاتجاه ببناء المدرسة بشكل عمودي. وكان هذا اتجاه جديد في تطور العمارة في الفترة المملوكية، حقق من خلاله تعدد الاستخدام الوظيفي للمجمع. فمن خلال اتجاهه العمودي في البناء، أتاح له المجال في استغلال مرحلة التطور في انجاز القسم الثاني الجنوبي من الرواق الغربي

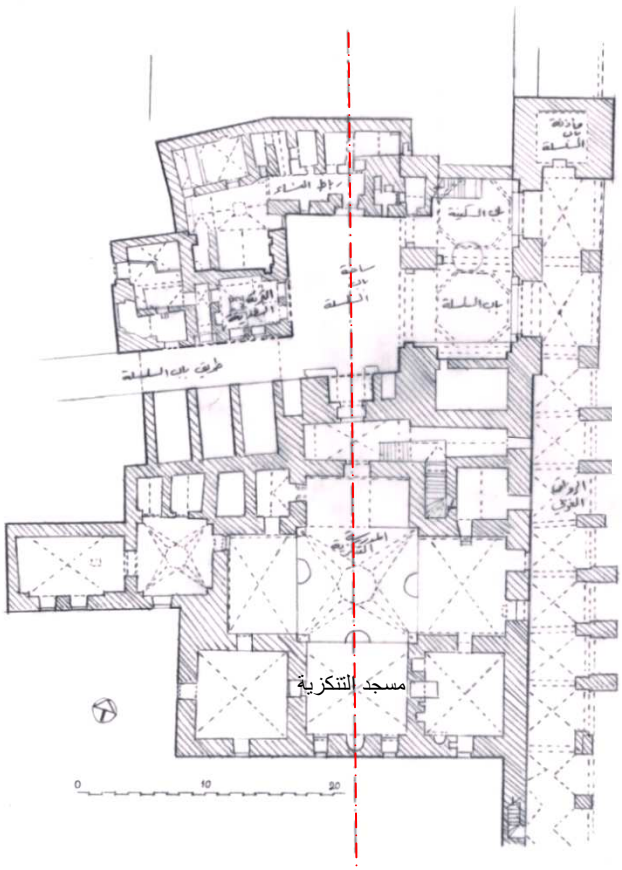
[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 65.
[2]. Burgoyne, Ibid, p. 80.

للحرم[1]، والذي تم عام 713هـ/1314–1315م [2]فشكل اساساً متيناً لتحمل ثقل جزء من المدرسة في طابقها العلوي والذي تشغله الخانقاة، مما أتاح المجال لابراز واجهة المدرسة الشرقية على الحرم مباشرة، بحيث يتجه نحوه الصوفية بنظرهم ووجدانهم اثناء تعبدهم ودراساتهم وليتبركوا بالمكان. وليس هذا فحسب وإنما عُني كذلك باسلوب المعالجة الخارجية للمجمع من خلال الاهتمام بطبيعة ادراك الفرد للمكان، فعمل على التدرج في استيعاب المكان خاصة للقادمين من باب الخليل نزولاً باتجاه الحرم عبر الساحة الوسطية أمام المدرسة، فحقق مدخلاً ضخماً وبذات الوقت شعوراً برابط مع المكان من خلال تناسُب حجم باب المدرسة وتراجعه الى الخلف مع طبيعة ادراك الانسان للحيز. وإنَّ هذا التجويف الى الداخل قد أكسَبَ مدخل المبنى اهميته وفخامته، كما واثرته مجموعة الزخارف التي صُممت عليه. كما وقد شكَّل اتجاه مدخل المبنى العمودي على الطريق والساحة المستطيلة الشكل أمام المدرسة محوراً رئيسياً يمتد في نهايته الى نقطة محورية وهي محراب مسجد التنكزية، وفي الجهة المقابلة للساحة على امتداد المحور مدخل رباط النساء، والذي راعى الأمير تنكز في اختيار موقعه منفصلاً عن المدرسة الشريعة الاسلامية من ناحية الفصل بين الرجال والنساء في أمور اجتماعية ودينية وحياتية[3]. ويظهر من مخطط الرباط الغير منتظم بأنه لربما قد تم بناء اجزاء منه على آثار سابقة ثم اضافة جزء آخر له، متماشياً بذلك مع حدود مخطط التربة السعدية 711هـ/ 1311م والواقعة على الزاوية بين طريق باب السلسلة والساحة امام الرباط، والذي يوضحه مخطط رقم4 ب.

وهكذا فقد عمل الأمير تنكز على استغلال الامكانيات المتاحة في المكان والاستفادة من افضلية ومميزات هذا الحيز ليستطيع من خلاله البدء في المرحلة الاولى لمشروعه والذي امتد على هذه الرقعة من الأرض المقدسة. والذي ساعده على اختيار هذا المكان للمدرسة والتي تشتمل على المسجد، هو قُرب وجود اساس قاعدة مأذنة سابقة البناء منذ العصر الأموي[4]. فبعد الانتهاء من تعمير المدرسة التنكزية ورباط النساء في 729هـ/ 1328–1329م، عمل الأمير تنكز على اعادة تعمير مأذنة باب السلسلة في 730هـ/ 1329–1330م، فقد وقع اختياره على هذه المأذنة خاصة لقربها من مجمع التنكزية ولوجود اساسات قائمة يمكن التعمير عليها، وببناءه لهذه المأذنة جعل هناك تكاملاً معمارياً في منطقة باب السلسلة (مخطط رقم 5).

---

[1]. Rosovsky, City of the Great King, p.401.
[2]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p.191.
[3]. Rosovsky, Ibid, p. 399.
[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص379؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.244.

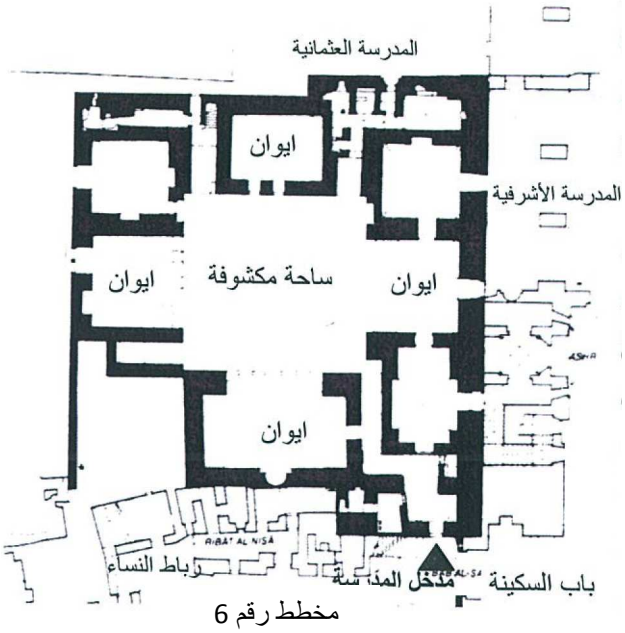


مخطط رقم 5 : مخطط اعادة رسم وتجميع المساقط الافقية من كتاب Mamluk Jerusalem للمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة مع اضافة التحديد للمباني والمحور الممتد من المدرسة والرباط

وللمضي قدماً لانعاش المنطقة القريبة من المسجد واستكمال تخطيطها، فقد اتجه الأمير تنكز لتنفيذ مخططه باتجاه شمالي المدرسة التنكزية ورباط النساء حيث المنطقة المواجهة لقبة الصخرة من الجهة الغربية. ولكن كان هناك محددات طبيعية اعاقت البناء، حيث انخفض منسوب هذه المنطقة عن مستوى ساحة المسجد بعدة امتار، مما لابد وقد تطلب جهداً كبيراً لردم المنطقة قبل الشروع في أي بناء. حيث أنَّ هذه المساحة لم يتم تعميرها سابقاً، الى منطقة السقاية أو المطهرة والتي قام بإنشاءها الملك العادل الأيوبي في 589هـ/ 1193م[1] والتي تقع على آثار معمارية لفترات سابقة حيث أن باب المطهرة (باب المتوضأ) مفتوح منذ الفترة الصليبية[2]، وأنَّ أسفل باب المطهرة كان هناك أقباء رومانية عمودية على الجدار الغربي للحرم[3]. لكن دُمرت المطهرة ولم يبقى من آثارها الا القليل، فأعيد تعميرها في الفترة المملوكية في عام 665هـ/ 1266–1267م، ولها مدخلها

[1] . Hawari, Ayyubid Jerusalem, p.52.
[2]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p.188.
[3]. Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, pp. 13-14.

الخاص من الجدار الغربي. ويتم الوصول الى المطهرة عبر زقاق باب المطهرة وطوله حـــوالي ثلاثون متراً، نزولاً الى مستوى حوالي خمسة امتار تحت مستوى ساحة المسجد الأقصـــى[1]. ثـــمَّ أعاد تعميرها الأمير تنكز عام 730هـــ/ 1329م وطوَّر في عمارتها وذلك لخدمة القادمين الـــى المسجد وتوفير سُبل الراحة لهم. وفي وقفية الأمير تنكز قد تم ذكر حـــاكورة عُرفـــت بحـــاكورة السقاية، ولربما قد امتدت من منطقة رباط النساء جنوباً، حيث ذُكِرَ أنَّ لها باباً من القبو السليماني السابق ذِكْره اسفل المدرسة التنكزية، الى منطقة المطهرة (السقاية) شمالاً والتي عُرفت الحاكورة باسمها تبعاً لها[2]. مما يدل على أنَّ هذه المنطقة كانت مساحة خضراء وذات منسوب منخفض عن مستوى ساحة المسجد.



مخطط رقم 6

المسقط الافقي للمدرسة البلدية

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 444

وبالتالي فقد بقيت المنطقة الواقعة بين رباط النساء جنوباً والمطهرة شمالاً منطقة مفتوحة، حيـــث أن المدرسة البلدية الواقعة شمالي رباط النساء قد تـــمَّ انشاؤها فيما بعد فـــي عـــام 782هـــــ/ 1380م، ويظهر من المسقط الأفقي للمدرسة (مخطط رقـــم 6) بأنه قد تم العناية بتخطيطها على اساس أربعة ايوانات وساحة وسطية كبيرة ومكشوفة ومجموعة من الغرف، علـــى غـــرار تخطـــيط المـــدارس المملوكية في القاهرة والتي يتم الدخول اليها عبر مدخلها الرئيسي الى ممر ثم الى الساحة الوسطية وذلك لاتساع المساحة المقترحة للبناء، وبذلك فإنَّ المساحة المتوفرة للبناء كانت سانحة لمثـــل هـــذا التخطيط المتعامد ولمساحات شاسعة كما في المدرسة البلدية. كما أنَّ المخطط العام للمدرسة يُظهر بأنها تقع ضمن حدود مربع مكتمل وبأنه لم يكن هناك معوقات معمارية في المنطقة بالرغم مـــن ترجيح بعض نتائج الحفريات في المكان بوجود آثار على شكل صليب ربما قد شـــكلت مقتـــرح لأساسات كنيسة صليبية أو بناء آخر لم يُستكمل بناؤه، ولكنه غير مؤكد، فلربما أنَّ هذه الاساسات قد أُنشأت للمدرسة البلدية لرفع منسوبها الى مستوى منسوب ساحة المسجد[3]. وحتى إنْ كانت على آثار هذه الكنيسة فإنَّ المخطط المقترح بشكله المتعامد أتاح المجال لأساسات المدرســـة البلديـــة وبناؤها على النظام المعماري المتعامد المعروف بـــِ Cruciform Structure (مخطط رقم 7).

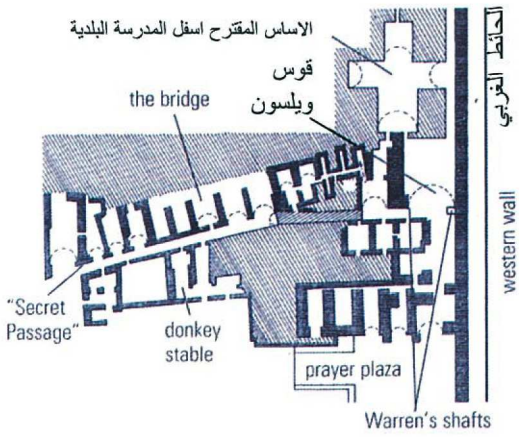
---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص383 Hawari, Ayybid Jerusalem, pp.52-53

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص110.

[3] . Hawari, Ibid, p.75 ؛Bahat, B.A.R.21.6, Jerusalem Down Under, pp. 38-39.

وكما الحال بالنسبة للمدرسة العثمانية الواقعة بين المدرسة البلدية في الناحية الجنوبية وبين زقاق باب المطهرة في الناحية الشمالية، فقد تمَّ بناؤها عام 840هـ/ 1436–1437م. ويتبين مما قد ذُكر في نص الوقفية بوقوع حاكورة شرقي حمامي الشفا والعين عُرفت بحاكورة الطهارة، والمرجح أنَّ موقع هذه الحاكورة يقع مكان المدرسة العثمانية وهو امتداد لحاكورة السقاية[1]. أما الدخول الى المدرسة فيتم عبر زقاق باب المطهرة نزولاً بعدة درجات، بمعنى أنَّ منسوب المدرسة أيضاً يقع منخفضاً عن منسوب الحرم، وقد أوضح ذلك Burgoyne في سياق حديثه عن تطور العمارة في الرواق الشمالي والغربي للحرم، موضحاً أنَّ موقع المدرسة العثمانية كان غير محبذاً للبناء وذلك بأنه يُشرف على مطهرة الرجال من الناحية الغربية وبأنَّ منسوب الموقع ينخفض حوالي أكثر من مترين عن مستوى ساحة المسجد الأقصى، مما يتطلب اعمال سابقة للبناء لتهيأة الموقع حتى يتم رفع منسوب البناء الى مستوى ساحة المسجد[2].



مخطط رقم 7
المخطط المقترح للآثار المتبقية اسفل المدرسة البلدية والمنطقة الواقعة جنوبها
من Bahat, B.A.R. 21.6, Jerusalem Down Under,33

وعند وصف منطقة الرواق الغربي من قِبَل ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار[3] والمؤرخ بتاريخ 745هـ/ 1345م، فإنه لم يتم ذكر أي بناء واقع مكان المدرسة العثمانية، فقط تم ذِكر باب المطهرة وَوَصْفْ المطهرة وخلوتين احداهما للقيِّم. وبذلك فلو وُجدت أي عمارة أو بناء في المنطقة لتمَّ ذكره من قِبَل العمري. وعليه فإنَّ هذه المساحة والتي هي مكان المدرسة العثمانية كانت خالية معظمها من أية منشأة.

وبالنسبة للمدرسة الأشرفية أو السلطانية والواقعة شرقي المدرسة البلدية، فقد تمَّ بناؤها أيضاً بعد فترة الأمير تنكز، حيث بُنيت في المرحلة الأولى حوالي عام 873هـ/ 1468–1469م، ثم تمَّ الأمر بهدمها واعادة تعميرها مع الاضافة وتوسعة البناء من قِبَل السلطان الأشرف قايتباي فكان بناؤها بين عامي 885– 887هـ/ 1480–1482م[4]. وقد تم استغلال جزء من الرواق الغربي للحرم كجزء لا يتجزأ من مخطط المدرسة الحالي.

---

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص112.

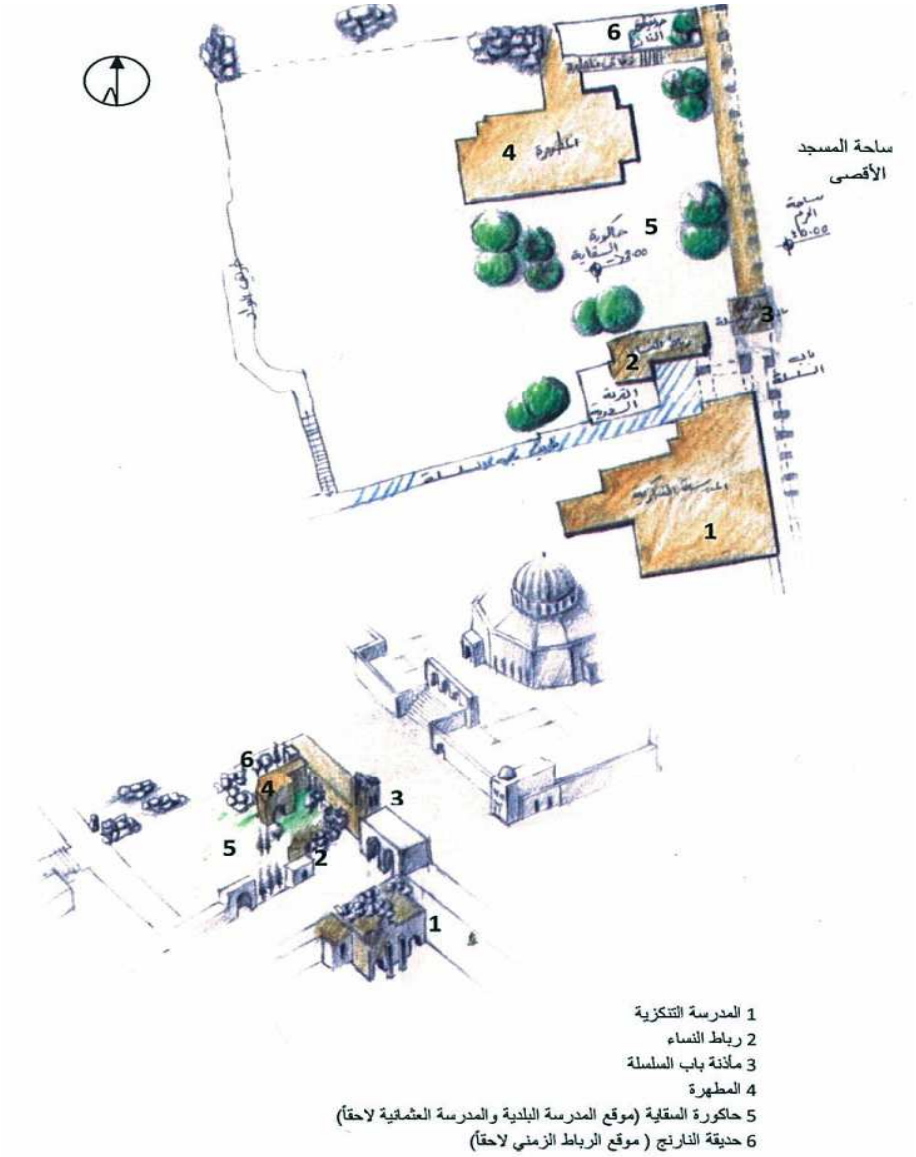
[2] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 83.

[3]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162–163.

[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387–388؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 591

وفي الناحية الشمالية من زقاق باب المطهرة يقع الرباط الزمني مقابلاً للمدرسة العثمانية، والذي تمَّ بناؤه عام 881هـ/ 1476–1477م، وما كان في هذا الموقع قبل انشاء هذا الرباط هو فقط مكان عبارة عن خلوة للقيِّم والبواب وقاعة كان لها باب، ولكنه يُستخدم الآن كنافذة واقعة تحت مستوى الرواق الغربي[1].

وكذلك كان هناك حديقة فيها أشجار حمضيات وورود عُرفت بحديقة النارنج، قد تم ذكرها في الوقفية بوصفها شرقي حمام الشفا[2]، فيُرجح بأن الرباط الزمني يقع مكانها، كما يُوضَح في مخطط رقم (8).



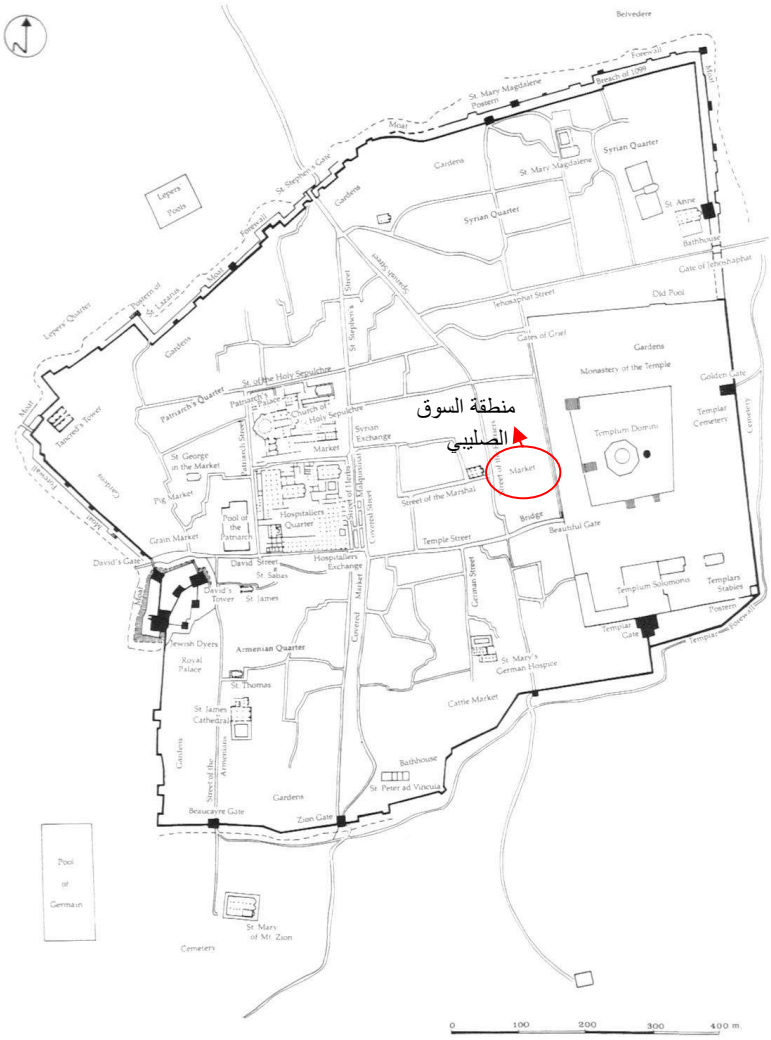
مخطط رقم 8

مخطط المرحلة الأولى للمجمع المعماري، مسقط افقي وثلاثي الأبعاد (رسم توضيحي للباحثة)

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 572 p. 576

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111.

وبذلك فبعد الانتهاء من اعادة تعمير المطهرة او المتوضأ، عَمَدَ الأمير تنكز على استثمار منطقة سوق القطانين، فعمل على التوصية لدى السلطان الناصر محمد بهذا الخصوص والذي بدوره أمر بإنشاء مجمع تجاري يقع بين الحرم والمدينة. فتمَّ اختيار هذا المكان لسوق القطانين حيث يُعتبر هذا الموقع ذا طابع تجاري، لأنَّ منطقة طريق الواد هي منطقة تجارية عامرة منذ القِدم، حيث أنه خلال فترة الاحتلال الصليبي للبلاد اهتم الصليبيون باختيار مواقع لمبانيهم تكون حول الطرق التجارية الرئيسية مثل طريق واد الطواحين (طريق الواد)، وبالتالي بنوا سوقاً كبيراً في تلك المنطقة امتدَّ من طريق الواد باتجاه الحائط الغربي للحرم بتراجع اربعون متراً عن حدّ الحائط (مخطط رقم 9). لكن دُمر السوق لاحقاً في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي[1]، ولم يتم تطوير هذه المنطقة لاحقاً في الفترة الأيوبية وذلك لأنَّ فترة الحكم الأيوبي للبلاد عامة قد اصطبغت بأمر اهمية الدفاع عن البلاد، خاصة وأنَّ العدوان الصليبي لم يهدأ بتهديد المنطقة بين الحين والآخر لاعادة احتلالها، فكان الاهتمام منصباً نحو الأمور العسكرية والعمارة الدفاعية ومحاولة تطهير مدينة القدس من الآثار الصليبية، بتحويل الأماكن التي احتلها الصليبيون الى اماكن اسلامية وذلك لاسترجاع القوة الاسلامية للمدينة والطابع الاسلامي لها. وبالتالي كان هناك محدودية في التطور العمراني في المنطقة المحيطة بالحرم القدسي الشريف[2]. وحسب الدراسة المعمارية والاثرية للفترة الأيوبية، فإنه لم يكن هناك بناء في



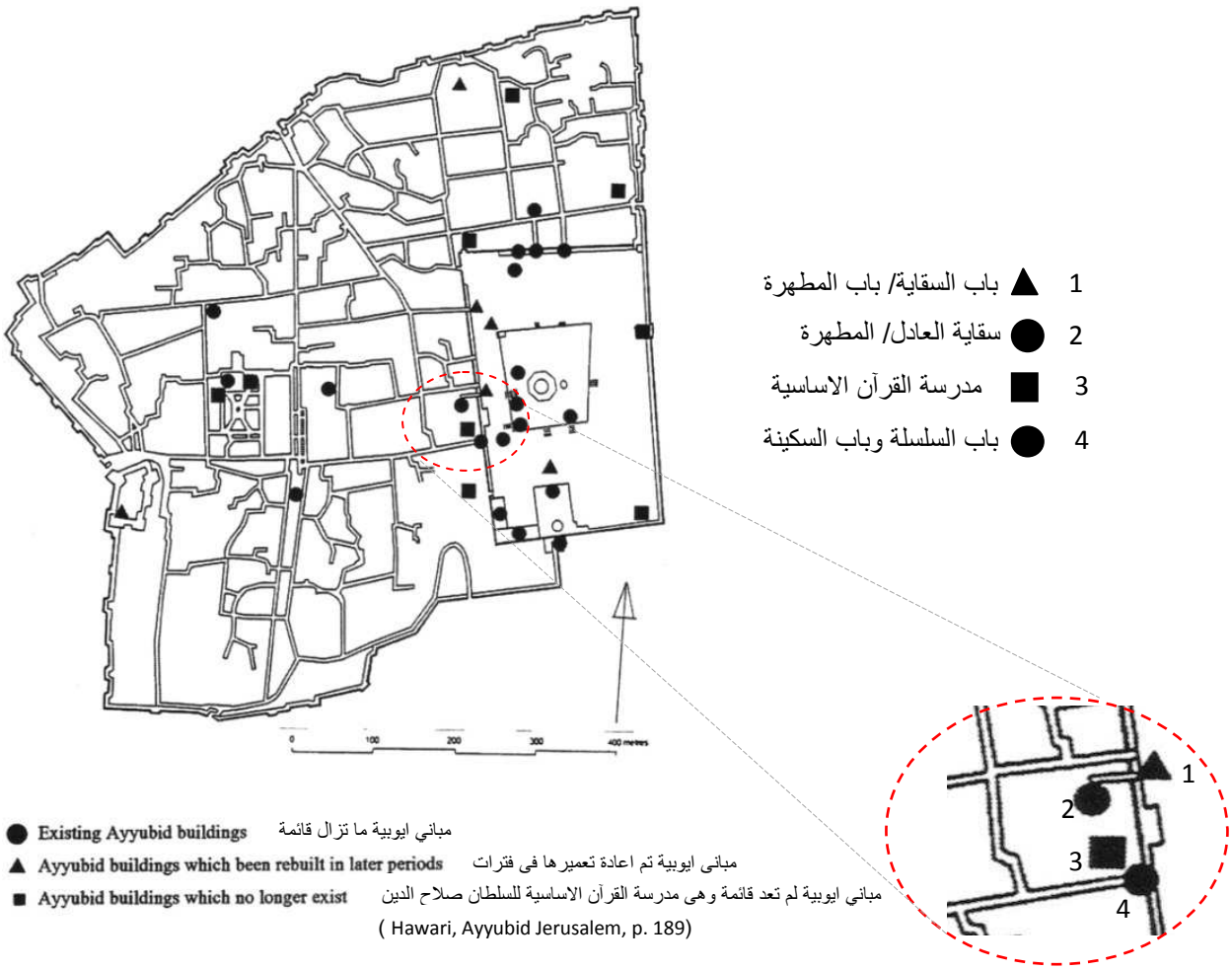
مخطط رقم 9 : مخطط مدينة القدس في الفترة الصليبية من Boas, Jerusalem in the Time of the Crusades,

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 80.

[2]. Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 200 ؛Burgoyne, Ibid, pp. 48-49

هذه المنطقة والذي يوضحه المخطط رقم (10) لموقع المباني الأيوبية في مدينة القدس[1]. حيث تمَّ توضيح موقع المباني الأيوبية التي ما تزال قائمة، كما والمباني التي تمَّ ترميمها واعادة تعميرهـــا في فترات لاحقة، ايضاً المباني الأيوبية التي لم تعد قائمة.



مخطط رقم 10 : موقع المباني الأيوبية في مدينة القدس القديمة

من Hawari, Ayyubid Jerusalem, 20, fig. 2

وعليه فإنَّ الآثار المعمارية المتبقية للسوق الصليبي شكلت اساساً سهَّلَ عملية اعادة البناء في منطقة السوق خاصة في القسم الغربي منه، حيث أُعيد تعمير هذا القسم والمدخل الغربي. واستكملت المرحلة الاخرى من بناء السوق في القسم الشرقي حتى تم ربطه مع ساحة المسجد الاقصى بواسطة البوابة العظيمة لباب القطانين، وكان ذلك في عام 737هـ/ 1336–1337م[2]. فشكل بذلك رابطاً اساسياً تجارياً بين منطقة طريق الواد ومنطقة الحرم الشريف. ويظهر الاختلاف في القسم الشرقي والذي يبدأ من مدخل حمام الشفا من داخل السوق باتجاه الشرق، عن القسم الغربي للسوق من خلال نمط واجهات الدكاكين في القسمين، حيث تختلف طرز الأقواس

[1] Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 20
[2] Rosovsky, City of the Great King, p. 403

والاحجار المستخدمة في البناء. فإنَّ طراز الأقواس في الجزء الشرقي يأتي بشكل مدبب ومحمول على اوتار وهذه الاوتار جميعها مبنية من الاحجار المعشقة، والتي تكسبها تماسكاً وتضفي نمطاً زخرفياً للواجهة. أما الأقواس في الجزء الغربي فإنَّ بعضها يأتي بشكل مدبب وبعضها بشكل قوس وبعضها محمول على وتر وبعضها الآخر يتوزع ثقله على الجانبين مباشرة مما يُظهر بأنه قد تمَّ تعمير هذه الحواصل تبعاً لما قد بقي منها. كما وقد اوضح Burgoyne بأنَّ نمط بناء مداميك الحجر (والتي بقي بعض منها في الجزء الغربي من السوق على ارتفاع معين) قد تعود الى الفترة الصليبية، ثم تمَّ اعادة استخدامها او التعمير عليها عند انشاء السوق المملوكي[1].

صور توضح الفرق في واجهات القسمين الشرقي والغربي لسوق القطانين





صور 1 ، 2 (للباحثة): دكاكين من الجزء الشرقي من السوق

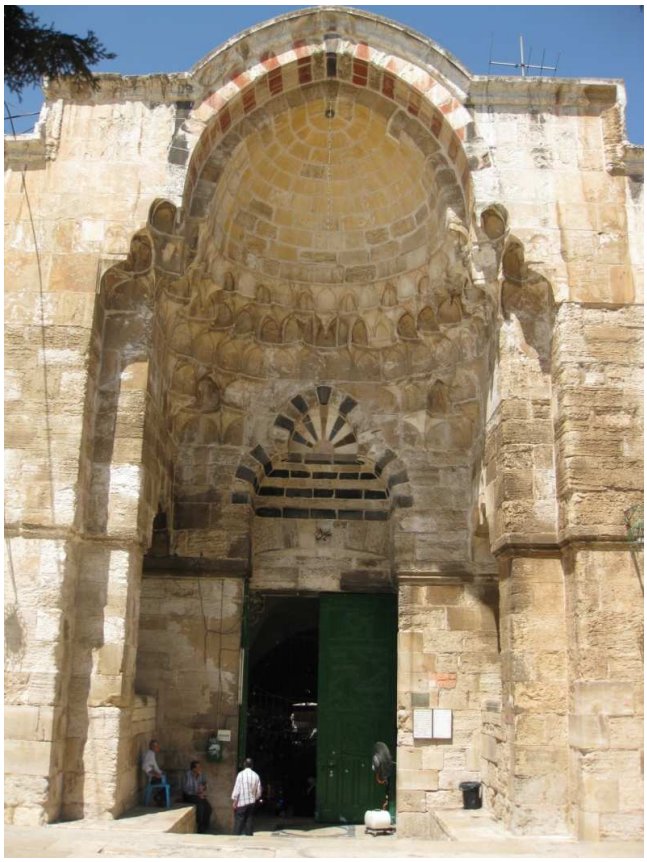




صور 3 ، 4 (للباحثة): دكاكين من الجزء الغربى من السوق

[1] . Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.273

وللتأكيد على أهمية انجاز بناء سوق القطانين فقد أظهر ذلك الأمير تنكز من خلال الاعتناء بتصميم باب القطانين الشرقي بالرغم من انخفاض مستوى السوق عن مستوى ساحة المسجد الأقصى. وعالج هذا الأمر من خلال الأدراج المستخدمة وهي حوالي العشرون درجة، مقسمة الى مرحلتين قبل البوابة وبعدها. وبالتالي فقد استطاع بطريقة مدروسة أنْ يستخدم ما يتم حفره لعمل الأدراج قبل البوابة من ناحية المسجد، وردمه لعمل ادراج بعد البوابة من ناحية السوق. وجاءت واجهة المدخل ذات ضخامة وزخارف رائعة، وعُني بذلك الأمير تنكز حرصاً على جعل الواجهات المطلة على منطقة المسجد الأقصى الشريف ذات طابع معماري وزخرفي متميز، وذلك رغبة منه لإظهار والتأكيد على مدى التطور في فن العمارة الاسلامية المصاحبة للثورة العمرانية في مدينة القدس والتي تُبرز الطابع المعماري والزخرفي المملوكي. ومما يؤكد على جمالية هذه المنطقة هو وصف ويلسون بأنَّ الواجهة الداخلية لساحة المسجد محاطة بأتقن وأجمل واجهات في العالم[1]. كما وكان اهتمامه بالواجهة الشرقية للسوق والواقعة على الجدار الغربي، ربما ليعطي مفهوم للسكان والحجاج بأهمية السوق، ولتظهر هذه البوابة بضخامتها وزخارفها من قريب أو بعيد وتبشر القادمين بأنهم على مشارف السوق.

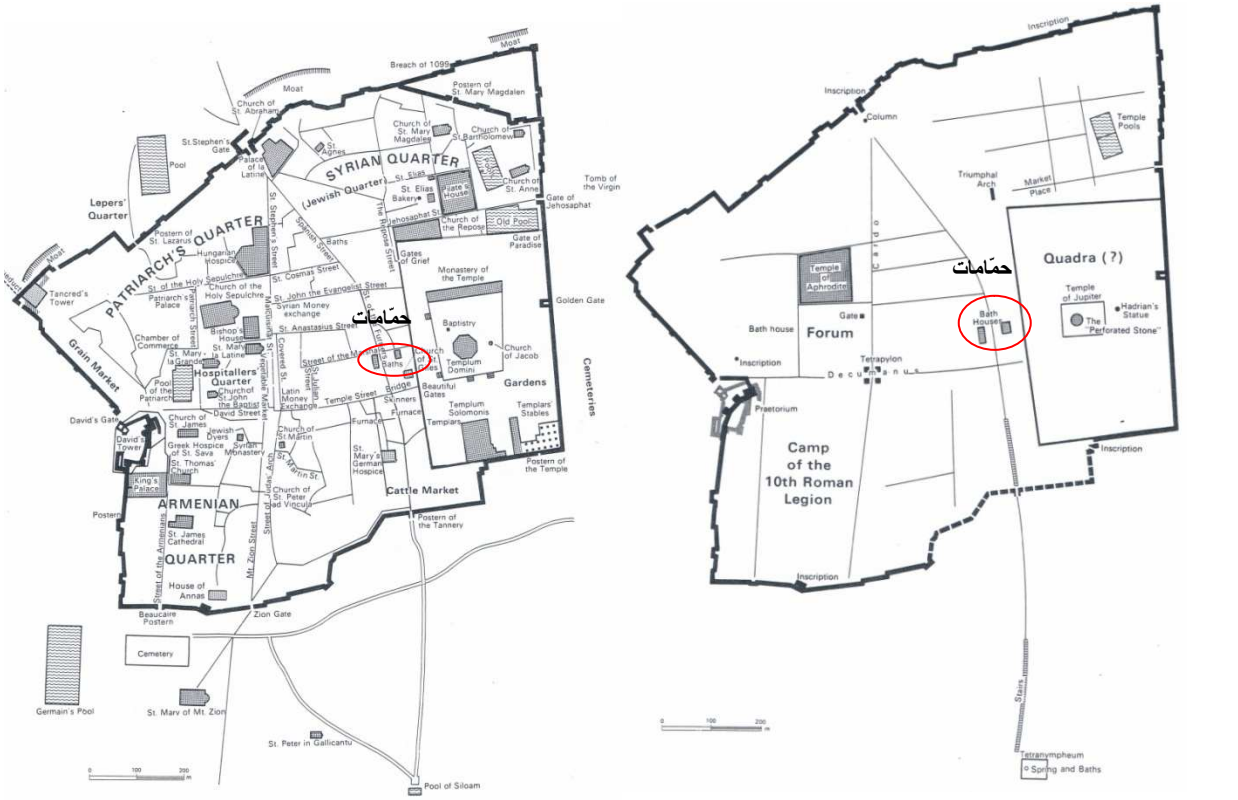


صورة 5: باب القطانين الشرقي

تصوير الباحثة

[1].Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 7

ولاستكمال المرحلة الثانية من مخطط الأمير تنكز لإعادة تخطيط المنطقة، وليستثمر ريع الحمامين والخان كما ذُكر في وقفيته مناصفة لأعمال الترميم في المدرسة التنكزية ومنطقة المسجد الأقصى[1]، ليضمن بذلك استمرارية المدرسة في أداء وظيفتها وليستمر اسم الأمير تنكز مذكوراً على مدى طويل من الزمن ومقروناً بالمدينة المقدسة، باشر بإعادة تعمير المساحة غربي المطهرة والتي أوحت له بتعمير حمام والمعروف بحمام الشفا. حيث أنَّ معطيات هذه المساحة أشارت الى وجود آثار سابقة لحمام من خلال الآثار المعمارية المتبقية وتَوَفُرْ المياه اللازمة للاستخدام داخل الحمام. حيث أنه عند اختيار موقع للحمام يُراعى عدة أمور منها الكثافة السكانية والقرب من المسجد والاحياء المزدحمة وتوفر الماء في المنطقة. وبذلك فقد عمل الأمير تنكز على انشاء حمّام على آثار اساسات سابقة لحمام من الفترة الصليبية ولربما قد وُجد حمام منذ الفترة الرومانية في هذه المنطقة[2]كما يظهر في (مخطط رقم 11 أ،ب).



مخطط رقم 11 أ (مدينة القدس القديمة في الفترة الرومانية) مخطط رقم 11 ب (مدينة القدس القديمة في الفترة الصليبية)
يظهر في المخططين وقوع حمامين في المنطقة غربي الحرم الشريف في مكان وقوع حمامي الشفا والعين
من Bahat, Carta's historical atlas, 21,33

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 80

[2]. يُعتقد أنَّ حمام الشفا يحتل مكاناً واحداً من الحمامين الذين أنشأهما الامبراطور هادريان في تلك المنطقة. (العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص184)؛

Dow, The Islamic Baths of Palestine, p. 87 ؛Bahat, Carta's historical atlas of Jerusalem, p.20

ويظهر من خلال اتجاه المخطط العام للحمام والواقع بشكل مائل على اتجاه السوق بأنه قد تمَّ استغلال ما تبقى من آثار الحمام السابق انشاؤه، وتعمير الحمام القائم حالياً على تلك الآثار[1]. ومما حفزه ايضاً لاختيار هذا الموقع لتعمير الحمام هو وقوع بئر عميق اسفل الحمام وعلى بُعد حوالي اربعة وعشرون متراً تحت سطح الأرض الحالي. وقد عُرف هذا البئر والبركة ببركة حمام الشفا، وكان يستقي منها الناس لفترة من الزمن[2]، وبذلك فإنَّ توفر المياه بشكل اساسي في هذا الموقع شجع الأمير تنكز على تعمير حمام الشفا بالرغم من مساحة المكان المحددة وعدم استطاعته الإضافة على مساحة الحمام، فقط الجزء الجنوبي الشرقي تم اضافته. حيث يحد الحمام من الشمال سوق القطانين ومن الجنوب المطهرة ومن الشرق حديقة النارنج ومن الغرب الخان الذي انشأه تنكز. ومن دوافعه أيضاً هو عدم وجود حمامات استشفائية في المدينة، وبذلك فقد حرص على انشاء حمام آخر هو حمام العين لخدمة كافة فئات المجتمع[3]؛ حيث أنَّ حمام الشفا كان مخصصاً للرجال أما الحمام الجديد أو حمام العين فقد استقبل النساء والرجال في اوقات مختلفة[4].

أما حمام العين فقد استطاع الأمير تنكز هندسة المخطط العام للحمام بشكل عمودي على سوق القطانين، فجاء المخطط منتظماً وموازياً لطريق الواد، واستطاع من خلاله استغلال المساحة التي مكنته من تصميم مساحات أوسع لغرف الحمام كما وعدد اكبر لغرف الحمام عن حمام الشفا. وقد يكون حمام العين يقع على آثار حمام سابق البناء منذ الفترة الرومانية[5]، كما يوضحه المخطط رقم 11أ، والذي يظهر فيه الحمام الغربي بشكله الطولي ولربما أنَّ آثار هذا الحمام كانت عاملاً مساعداً في تخطيط حمام العين بشكله الحالي، بالرغم من أنَّ Burgoyne لا يُرجح وقوع حمام العين على آثار حمام من فترات سابقة. وقد شكل منسوب الأرض المنخفض نسبياً عاملاً مساعداً لإقامة الحمام حيث تقع مستوى ارضية الحمام منخفضة بحوالي 1.6 م عن مستوى طريق الواد[6]، وإنَّ هذا الانخفاض إنْ كان طبيعياً أو بفعل عملية الحفر فإنه قد شكل عنصراً ايجابياً في كلتا الحالتين، حيث أنَّ انخفاض مستوى الحمام عن مستوى محيطه يُسَهل عملية تمديد وتوصيل المياه الى داخل الحمام كما وتوفر الأرض عازلاً طبيعياً اساسياً يمكن الاضافة عليه وتحسينه خاصة في منشآت صحية كالحمامات. وإنْ كان بفعل عملية الحفر فإنَّ ما تم حفره قد تم ردمه لتسوية مساحة اقامة الخان، مما يُظهر بأن العمل في المنطقة جاء بشكل متناسق ومكتمل ومتناغم وذا خطة مدروسة وهدف مسبق.

---

[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 88 p.273 p. 282.

[2]. Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 15 ؛Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 263
العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص 128 ص179.

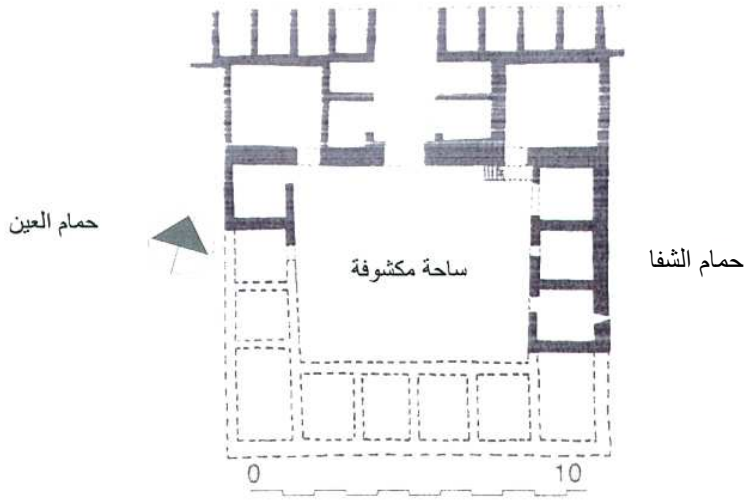
[3]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص245.

[4]. العسلي، من آثارنا، ص171؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص144.

[5] Bahat, Carta's historical atlas of Jerusalem, p. 20

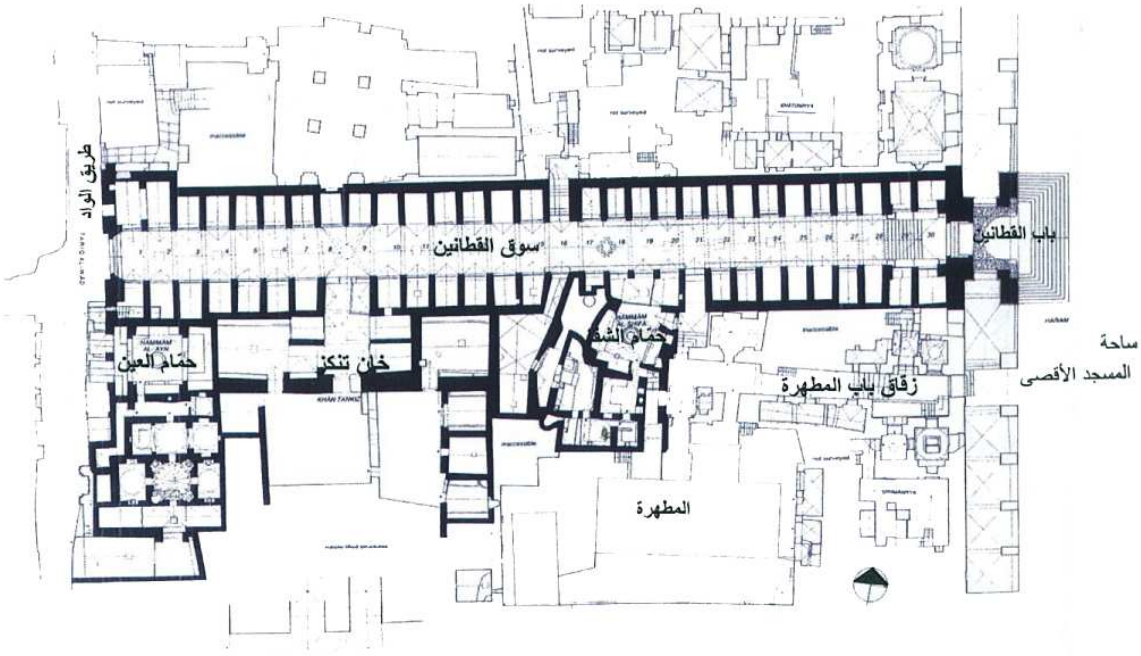
[6] Burgoyne, Ibid, p. 287

وقد وقع اختيار موقع الخان بين حمام الشفا وحمام العين، ويظهر من مخطط المسقط الأفقي للخان والمتماثل على الجانبين والخطوط المتعامدة على السوق بأنَّ المفهوم العام لتصميم الخانات والمكون من ساحة وسطية وغرف محيطة به على مستوى طابقين والمتعارف عليه في الدولة المملوكية قد تم تحقيقه في هذا الحيز من المساحة (مخطط رقم 12) مما يشير بعدم وجود عوائق للبناء، وبأنَّ هذه المساحة قد تم تهيأتها خصيصاً لاقامة خان تنكز عليها. هذا وقد تم الانتهاء من المرحلة الثانية لمجمع تنكز المعماري، التي اشتملت على سوق القطانين وباب القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين في عام 737هـ/ 1336–1337م (مخطط رقم 13) بمعنى أنَّ هذه المرحلة لتعمير هذا القسم من المخطط كان عملاً متكاملاً، شكل جزءاً من اعادة التخطيط الحضري الكامل لهذه المنطقة (مخطط رقم 14).



مخطط رقم 12 : مخطط اعادة ترسيم المسقط الافقي لخان تنكز

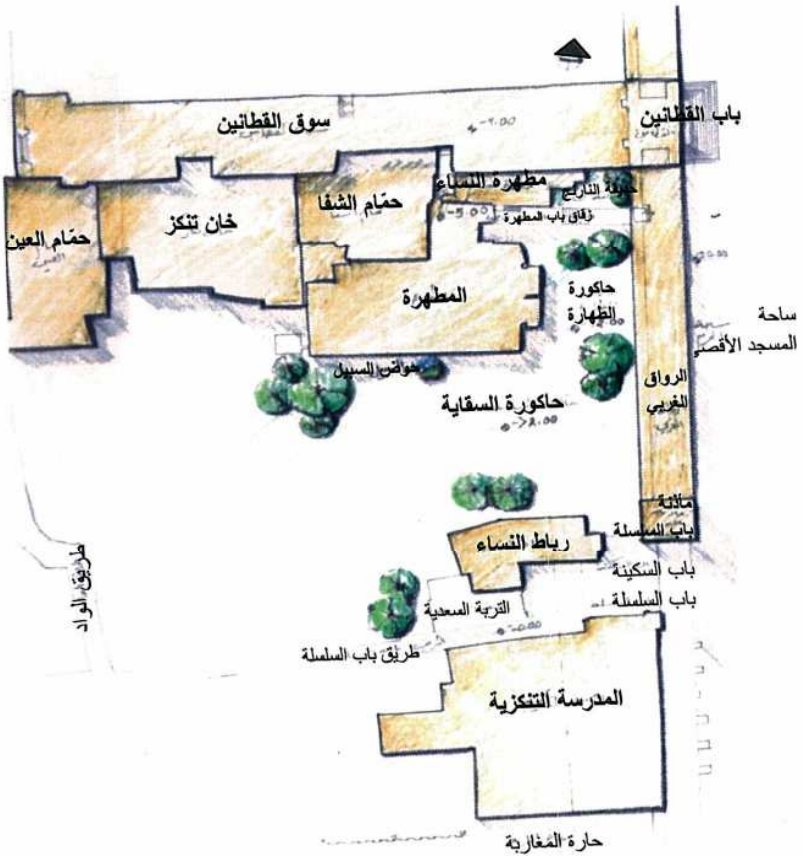
من Burgoyne ص284



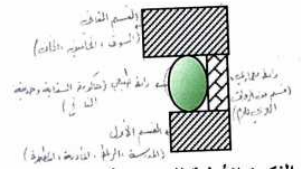
مخطط رقم 13

المسقط الأفقي لسوق القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين

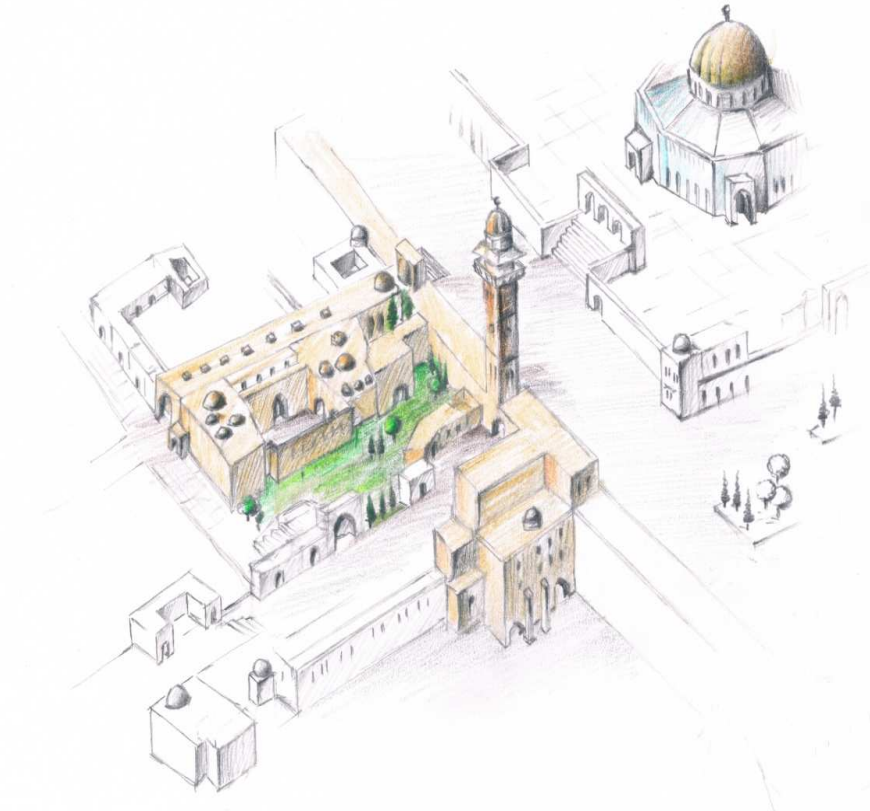
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 274, fig. 24.2



مخطط رقم 14: **المخطط الكامل لمجمع التنكزية**
(الموقع العام وثلاثي الابعاد)
اعادة تخطيط كامل الموقع والمقترح في فترة الامير تنكز (رسم توضيحي للباحثة)



الفكرة الأولية للمجمع بأشكال هندسية





مخطط رقم 15 : مخطط موقع المباني المملوكية في حدود منطقة الدراسة (للباحثة)

3.2.1 الوصف المعماري لعمائر الأمير تنكز:

بعد التحليل لهيكلية التخطيط الحضري للمنطقة التي اختارها الأمير تنكز لإنشاء مجمعه الخيري في مدينة القدس، والذي قد اضاف جزءاً بارزاً وهاماً للنسيج المعماري للمدينة المقدسة من خلال ابنية شُيدت على أُسس معمارية ثابتة فامتازت بقمة الاتقان وبطابعٍ زخرفيٍ راقٍ ومتميزٍ، نستطيع أن نصف بايجاز هذه المنشآت وتخطيطها المعماري حتى يتم استكمال موضوع الدراسة والتحليل. فمن هذه العمائر تندرج:

3.2.2 المدرسة التنكزية:

تقع بالجهة الغربية من الحرم القدسي وجزئياً فوق الرواق الغربي، عند باب الحرم المعروف بباب السلسلة، على جنوبي طريق باب السلسلة.

الواجهة الشمالية للمدرسة تطل على ساحة صغيرة بباب السلسلة، والواجهة الجنوبية كانت تحدها حارة المغاربة، أما الواجهة الشرقية فتُشكل جزء من الجهة الغربية للحرم، والواجهة الغربية تُشرف على المباني المجاورة في البلدة القديمة، ومنها دار الحاج ايوب المصري.

أمر ببناء المدرسة الأمير سيف الدين تنكز في سنة 728هـ/ 1327م عندما زار القدس بعد عودته من زيارة القاهرة، وتم الانتهاء من تشييد المدرسة سنة 729هـ/ 1328-1329م[1].

بناء المدرسة عبارة عن مجمع معماري مكون من ثلاثة طوابق، الأرضي وطابق الميزانين (المتوسط) والطابق العلوي، ويُقسم الطابق الأرضي الى احد عشر غرفة للفقهاء الحنفية والطابق العلوي الى احد عشر غرفة للصوفية. وكان للمدرسة دورها في الحركة الفكرية حيث اشتمل هذا المجمع على مدرسة ومسجد وخانقاة للصوفية ودار حديث ودار للأيتام وهي دار للقرآن[2]. كما وضمَّ المجمع رباطاً للمسنات من النساء، يقع منفصلاً عن بناء المدرسة في الناحية الشمالية الغربية المقابلة للمدرسة.

تغلب الاستطالة على مخطط المدرسة (مخطط رقم 16)، حيث يبلغ طوله من الشمال الى الجنوب 28م، وعرضه من الشرق الى الغرب 25م. وللمدرسة مدخلان؛ يقع احدهما على الحائط الشرقي للمدرسة مطل على ساحة المسجد، في نهاية الرواق الغربي، وهو باب صغير يُصعد منه بدرج صغير في حدود سماكة جدار الحائط باتجاه الشمال الى أعلى المدرسة والى سكن الصوفية[3].
أما المدخل الرئيسي فيقع على الواجهة الشمالية للمدرسة، وهو مدخل ذا بوابة عالية مبنية بالأحجار المتعاقبة الألوان الأبيض والأسود والأصفر (الأبلق)، تقوم على كل جانب من جانبيها مكسلة حجرية. ويعلو البوابة صنج حجرية معشقة وفوقها لوحة من الرخام عليها شريط كتابي يبين اسم الباني وسنة البناء منقوش بالخط النسخي المملوكي للكلمات التالية: " بسم الله الرحمن الرحيم. أنشأ هذا المكان المبارك راجياً ثواب الله وعفوه المقر الكريم السيفي تنكز الملكي الناصري عفا الله عنه وأثابه. وذلك في شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة". يتخلل الشريط الكتابي شعار الأمير تنكز(الكأس) في ثلاث مواضع، أولها فوق المدخل وثانيها على كلا جانبي

---

[1]. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج1، ص163؛ العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص119؛ العلمي، المدارس المملوكية في القدس، ص29- 30؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص110؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 223.

[2]. دار الأيتام والمقصود بها دار القرآن، ومن شروط دور القرآن أن يكون بها ثلاثون صبياً يتيماً او أقل يتلقون القرآن ويدرسون القراءات (عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، ج2، ط1، ص179).

[3]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، منارات مقدسية، ص81؛العسلي، وثائق مقدسية، ص110؛ Burgoyne, Ibid, p. 223 p. 229؛ Rosovsky, City of the Great King, p. 399.

الشريط في تجويف المدخل. ثم يعلو نقش التأسيس صنج حجرية معشقة أخرى، ثم يعلوها ثلاث صفوف من المقرنصات وتنتهي الى أعلاها نصف قبة مدببة بشكل محارة حجرية مزخرفة باشعاعات منبثقة من ثلاثة مراكز تمثل أشعة الشمس عند شروقها[1]. مرفق بالطابق الأرضي سلسلة من الدكاكين على الواجهة الرئيسية الشمالية للمدرسة مطلة على طريق باب السلسلة، وهي غير نافذة من داخل المدرسة.

يؤدي المدخل الى دركاه أو موزع وعلى شرقي الدركاه يوجد فراغ طولي مضاء بنافذة على حائط المدرسة الشرقي، ويفتح من الدركاه باب يقود الى داخل المدرسة المصلبة الشكل حيث تُعتبر المدرسة من أفضل الأمثلة في مدينة القدس للمدارس ذات التخطيط المتعامد (Cruciform)، حيث تتعامد أربعة ايوانات بشكل محوري على صحن مكشوف، يتوسطه حوض مثمن الشكل ونافورة من المرمر، ويأتي الضلع الشمالي للحوض بشكل مُقعَّر تأكيداً على المحراب المواجه في الجهة الجنوبية للمدرسة. تختلف أبعاد هذه الايوانات نتيجة للمساحة المنحصرة للموقع والمحددة من الناحية الشمالية بطريق باب السلسلة والمصطبة الأيوبية لباب السلسلة ومن الناحية الجنوبية بحد حارة المغاربة، ومن الشرق بحد جدار الحرم الغربي ومن الغرب بحد آثار أبنية قائمة سابقة تم استخدام جزء منها كغرف في المدرسة لاحقاً. وبالتالي فإنّ الايوان الجنوبي كان أكبر هذه الايوانات بُعداً، حيث بلغ عمقه 7.28م، ويُعتبر هذا الايوان هو مسجد المدرسة حيث يتمركز محراب على حائطه الجنوبي، كما تفيد الكتابة المنقوشة على لوحة الرخام على حائطها القبلي بعبارات منها الكلمات التالية: ".... البيت الحرام أول مسجد وضع على وجه الأرض واختار لعبادته مواطن لاقامة السنن والفرض. وجعل هذا المسجد جار المسجد الأقصى ونعم الجار الطاهر واجرى لبانيه جزيل الثناء والثواب الوافر لقوله تعالى ﴿**إِنَّمَا يُعَمِّرُ مَساجد الله مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر**﴾ اختار لعمارة بيوته من رضي فعله وقوله وأطال بالسعد والبذل طوله ....".

يفتح الايوان الجنوبي (القبلي) على غرفتين، الغرفة الشرقية واستخدمت كغرفة كاتب المحكمة عندما استخدمت المدرسة كمقر لمحكمة القدس الشرعية في الفترة العثمانية. والغرفة الغربية كانت مكتبة للمدرسة ثم قاعة للمحكمة لاحقاً. كما يُحيط من الشرق الايوان الشرقي، وهو أقل بُعداً عن الايوان الجنوبي حيث يبلغ عمقه 6.92م، كان يجري فيه أمر تدريس طلبة الحديث[2]. له شبَّاكان

---

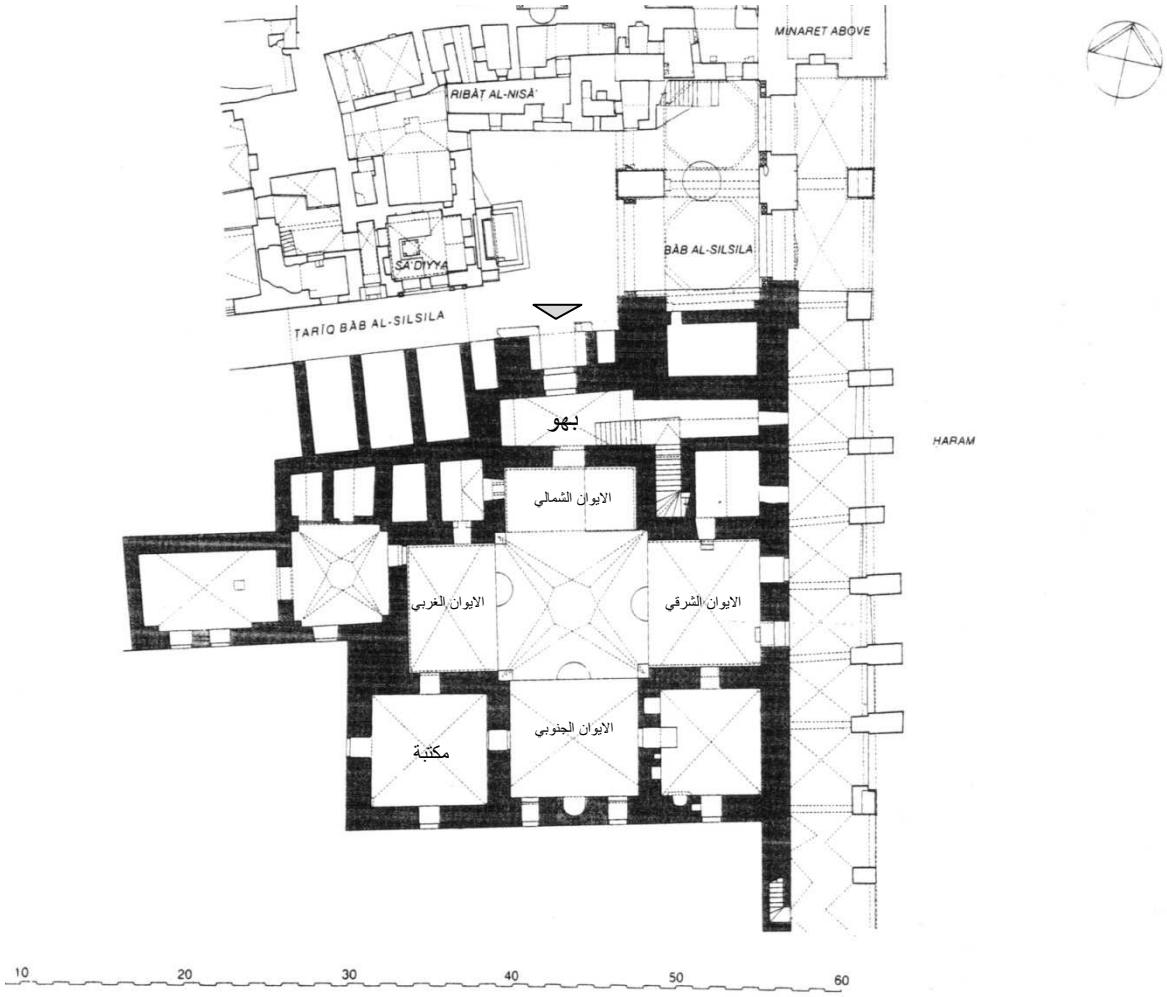
[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 230، العسلي، معاهد العلم، ص124؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص165؛ نجم، كنوز القدس، ص186؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، منارات مقدسية، ص81؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص244؛ ابوخلف، من معالم الحضارة الاسلامية، ص85.

[2] Burgoyne, Ibid , p. 223 pp. 231-232؛ العسلي، معاهد العلم ، ص122–124؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص166؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، المصدر السابق ، ص81؛ العلمي، المدارس المملوكية، ص29 ص32؛ Rosovsky, City of the Great King, p. 399 p. 401.

على رواق الحرم الغربي، ذكرهما العمري بأنَّ ابوابهما من الآبنوس والعاج[1]. وفي الجهة المقابلة يقع الايوان الغربي الذي يقل عمقه بسبب تحديد لمساحته بالبناء الغربي القائم والذي تم استخدام الغرفتين المتتاليتين للايوان كجزء من غرف المدرسة، وتفتح احداهما على غرفتين من الناحية الشمالية. أما الايوان الشمالي فهو أصغرها مساحةً، حيث أنَّ بُعده قد حُدد بمدخل المدرسة والبهو(الدركاه) ويفتح الى غرفة من الناحية الغربية. يتم الصعود بواسطة درج حجري شرقي الدركاه الى طابق الميزانين، الذي يتألف من ممر وأربع غرف فوق الزاوية الشمالية الشرقية للمدرسة، ويتم اضاءتها وتهويتها عن طريق فناء وسطي مستطيل الشكل مفتوح الى أعلى. يستمر الصعود من نفس الدرج الى الطابق العلوي الذي شغل الخانقاة للصوفية. وقد امتد جزء من هذا الطابق فوق الرواق الغربي والجزء الآخر فوق طرف المدرسة الشمالي. حيث شغلت الغرف الكبيرة الشرقية غرف الصوفيين للتعبد، لإطلالتها على الحرم وساحته مباشرة، أما الغرف الأصغر في الناحية الشمالية الغربية فاستخدمت كغرف لسكن ومعيشة الصوفيين. اشتملت المدرسة كذلك على مطبخ ومطهرة وحمَّام وبئر لجمع مياه الأمطار[2].

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163.

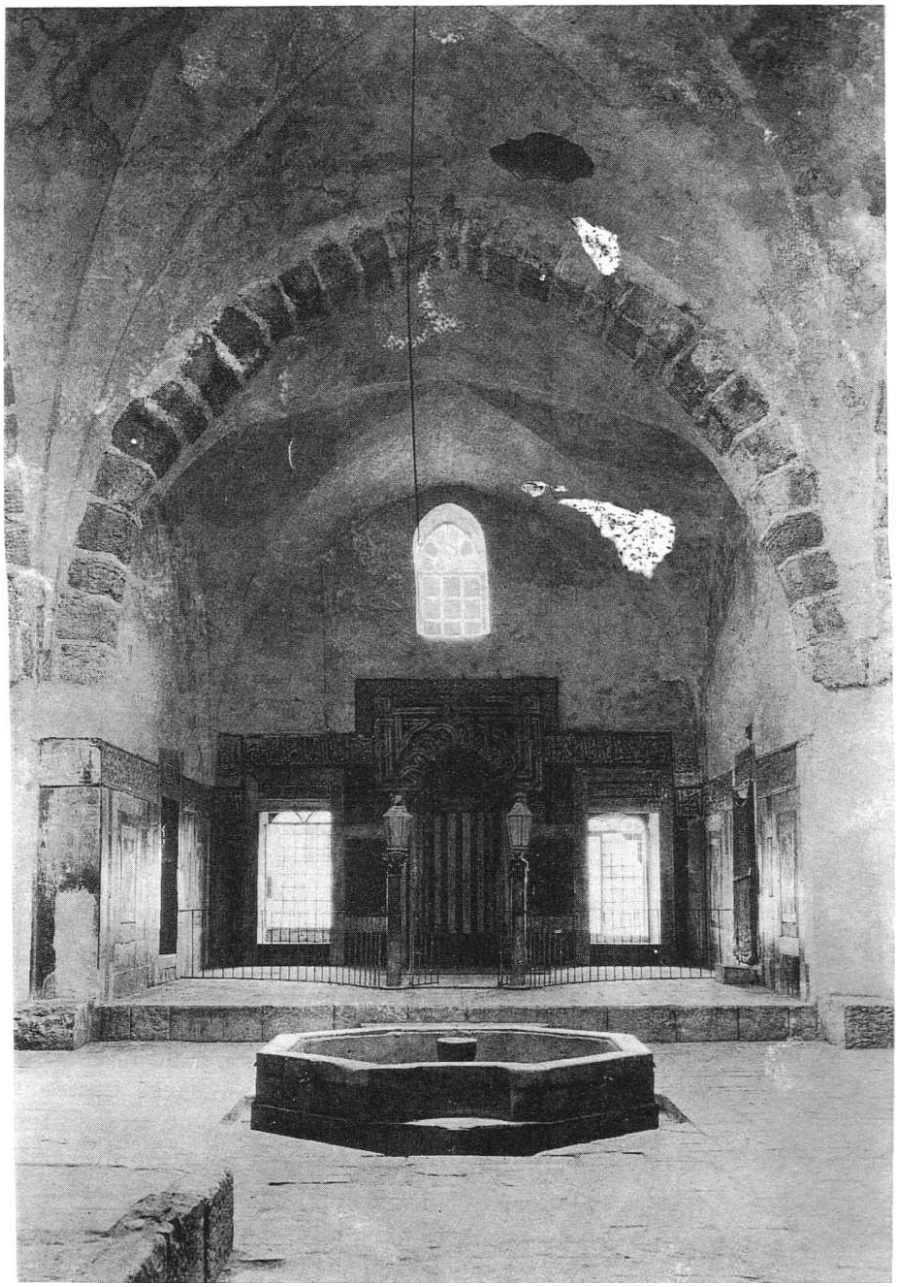
[2]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 223 pp. 231-234 p. 237؛ العسلي، معاهد العلـم ، ص122–123؛ وزارة الأوقـاف، منارات مقدسية، ص 81.



مخطط رقم 16

المسقط الافقي للطابق الأرضي للمدرسة التنكزية

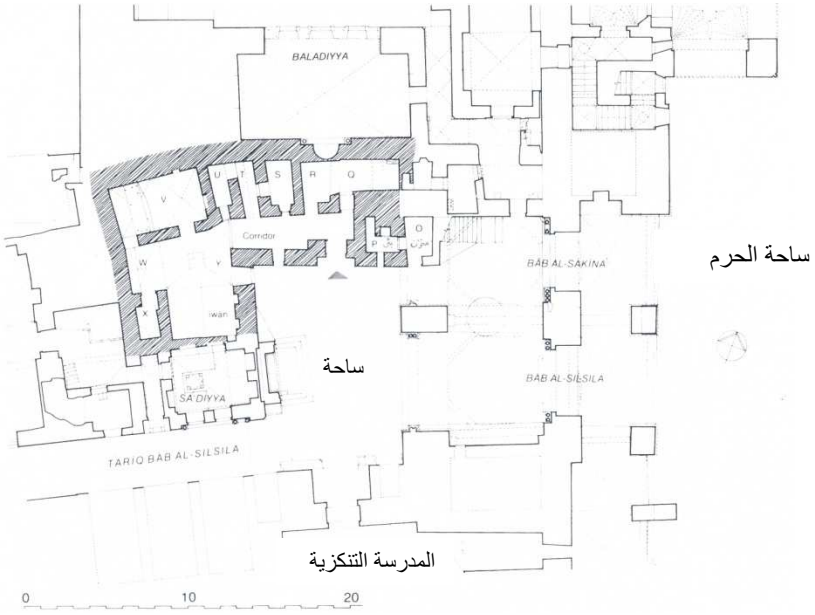
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 224, fig. 18.2



صورة 6: المدرسة التنكزية. منظر داخلي باتجاه الايوان الجنوبي حيث يظهر الصحن والمحراب
من Rosovsky, City of the Great King, 400, fig. 50

3.2.3 رباط النساء:

كما كان ملحقاً بالمدرسة رباطاً مجاوراً لها في الجهة الشمالية الغربية وهو **رباط النساء**، ويقع شمالي طريق باب السلسلة. مُكون من ايوانين وعدة غرف (مخطط رقم 17)، خُصص لرعاية اثنتي عشرة امرأة من المسلمات المسنات الفقيرات، احداهن تكون شيخة لهن، واخرى قيمة وبوابة، ولكل منهن حقٌ وواجبات عليهن القيام بها، وكن يتجمعن للصلاة وتلاوة القرآن والدرس.



مخطط رقم 17

المسقط الافقي للطابق الأرضي لرباط النساء

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 242, fig. 19.3

وبالتالي فإنَّ المدرسة التنكزية قد شملت العديد من الأقسام ولذلك عُرفت بمجمع التنكزية، حيث كانت مدرسة فيها المدرِّس والفقهاء، كما فيها داراً للحديث يرأسها شيخ المحدثين، والمحدثون هم الطلبة. وفيها الخانقاة للصوفية ويرأسهم شيخ الصوفية، وفيها تمَّ رعاية الأطفال الايتام وتعليمهم. كما وفيها رباط النساء وترأسهن شيخة الرباط. وقد كانت اعداد الطلبة الفقهاء أو المحدثون أو الصوفيون محددة وحسب شروط معينة، تم ذكر جميع هذه المعلومات في نص وقفية الأمير تنكز[1].

وقد استمرت المدرسة في أداء دورها في الحركة الفكرية في القدس حتى أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في عهد السلطان قايتباي، حيث اتخذت مركزاً للقضاة والنواب وديواناً للقضاة ودار سكن لهم، وكان قد سكن فيها السلطان فرج اثناء اقامته في مدينة القدس. ثم عادت لتقوم بدورها الفكري في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. أما في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي في فترة الدولة العثمانية فقد استخدمت مقراً لمحكمة القدس الشرعية لمدة حوالي 200 سنة حتى أوائل الانتداب البريطاني. ثم اتخذت داراً لسكن رئيس المجلس الاسلامي الأعلى الحاج أمين الحسيني في عشرينيات القرن العشرين،

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص113–116.

ثم حُولت الى مدرسة شرعية حتى سنة 1969م حين اتخذتها السلطات الاسرائيلية مقراً لحرس الحدود، ولا تزال كذلك حتى الآن[1].

وبهذا فإنَّ لدور المدرسة التنكزية العظيم في الحياة الفكرية، ولبناءها المتميز بالفن المعماري الرائع، أنْ وصفها مجيرالدين الحنبلي بأنها" مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بناءها..."[2].

3.2.4 مأذنة (منارة) باب السلسلة:

تقع مأذنة باب السلسلة في الجهة الغربية من الحرم الشريف بين باب السلسلة وباب السكينة وبين المدرسة الأشرفية. وقد أعاد تعميرها الأمير تنكزعام 730هـ/ 1329–1330م، وذلك حسب النقش التذكاري الموجود على الجهة الشرقية لقاعدة المأذنة والذي ينص على:" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه المنارة المباركة في ايام مولانا السلطان الملك الناصر .... في سنة ثلاثين وسبعمائة".

يأتي بناء المأذنة على نظام بناء المآذن المملوكية في بلاد الشام حيث تتكون من قاعدة حجرية مربعة الشكل طول 4م وعرض 4م (مخطط رقم 18)، يقوم فوقها برج المأذنة المقسم الى طوابق وتظهر من خلال شريط مزخرف من الحجر البارز يفصل كل طابق عن الآخر، فالطابق الذي يلي القاعدة مربع الشكل أيضاً توجد به فتحات طولية على ثلاث جهات لادخال الضوء والهواء، ثم يأتي طابق آخر فوقه مربع الشكل تقع على جوانبه الأربع تجويفات فيها فتحات طولية تعلوها مقرنصات للزخرفة، وفوق هذا الطابق شرفة حجرية للمؤذن مربعة الشكل مرتكزة على كوابل حجرية ويحيط بها درابزين خشبي وثمانية أعمدة من الرخام، وفي وسطها المأذنة وتعلوها القبة. يأتي طول المأذنة ما بين 20 و30م وهذه النسبة بين ارتفاع المأذنة وعرضها يجعلها ترتفع بشكل جميل ومتناسق[3]. وتأتي أهمية هذه المأذنة كما يصفها مجيرالدين الحنبلي بأنها" المختصة بالأماثل من المؤذنين وعليها عمل المسجد واعتماد بقية المنائر"[4]، حيث يؤذن فيها أولاً للصلاة فتُعطى

---

[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem , pp. 71-72 p. 228 p. 240؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس ، ص127–130؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص81–82؛ نجم، كنوز القدس، ص185–186؛ العلمي، المدارس المملوكية، ص32–35؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي، ص514؛ الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص305.

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387؛ عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، ج2، ط1، ص43.

[3]. Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 48 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 244؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم1، ص399؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص59.

[4]. الحنبلي، الانس الجليل، ج2، ص379.

الاشارة للمؤذنين الآخرين للآذان. وقد عُرفت المأذنة لاحقاً بمنارة المحكمة وذلك عند اتخاذ المدرسة التنكزية مقراً لمحكمة القدس في العصر العثماني[1].



مخطط رقم 18 المسقط الأفقي لمأذنة باب السلسلة

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 246, fig. 20.3





صورة 7 ، 8 : مأذنة باب السلسلة

من الزاوية الشمالية الشرقية ومن الزاوية الغربية (تصوير الباحثة)

[1]. نجم، كنوز القدس، ط1، ص187.

3.2.5 السقاية (سقاية العادل):

تقع في الجهة الغربية من الحرم جنوبي سوق القطانين وشرقي حمّام الشفا. أنشأها الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن ايوب عام 589هـ/ 1193م، حسب النقش بالخط النسخي الأيوبي فوق بوابة تؤدي الى المطهرة. وقد عُرفت بالسقاية في العصر الأيوبي وبالمتوضأ في العصر المملوكي ثم بالمطهرة في العصر العثماني.

يتم الدخول الى السقاية من خلال باب يُعرف بباب السقاية أو باب المطهرة، والواقع على الحائط الغربي بين باب القطانين وباب السكينة. وتقع عند آخر زقاق المطهرة السقاية وكان فيها بئر وبركة وسقاية (سبيل) لسقاية الناس وليستعملها المصلون للوضوء. وتُقسم الى قسمين: مطهرة للرجال مكونة من عدة غرف ومطهرة للنساء في الطابق العلوي وفيها مكان للسكن.

وقد تم تعمير السقاية بفضل أحد رجال السلطان المنصور قلاوون فعُرفت لذلك أيضاً بالسقاية المنصورية. وقد قام بتعميرها أيضاً علاء الدين البصير في فترة حكم الظاهر بيبرس في سنة 665هـ/ 1266–1267م. وحسب ما ذُكر في وقفية الأمير تنكز عام 730هـ/1329م فإنَّ الأمير تنكز قد قام بتعمير المطهرة وعُرفت بالمطهرة التنكزية، وأنها قد اشتملت على سبعة غرف منها مستحم وبها حوض حجر، ولكل غرفة حوض ماء يجري اليه الماء من قناة العروب[1]. كما ويقع جنوبي السقاية حوض السبيل الذي أنشأه تنكز ويُعرف بسبيل تنكز وقد تم ذكره في الوقفية[2].

3.2.6 سوق القطانين:

يقع سوق القطانين في الجهة الغربية من الحرم القدسي عند باب القطانين، ويمتد هذا السوق من الشرق الى الغرب حيث أنَّ له مدخلان؛ الأول من طريق الواد بالجهة الغربية، والثاني من ساحة المسجد الأقصى الشريف من الجهة الشرقية.

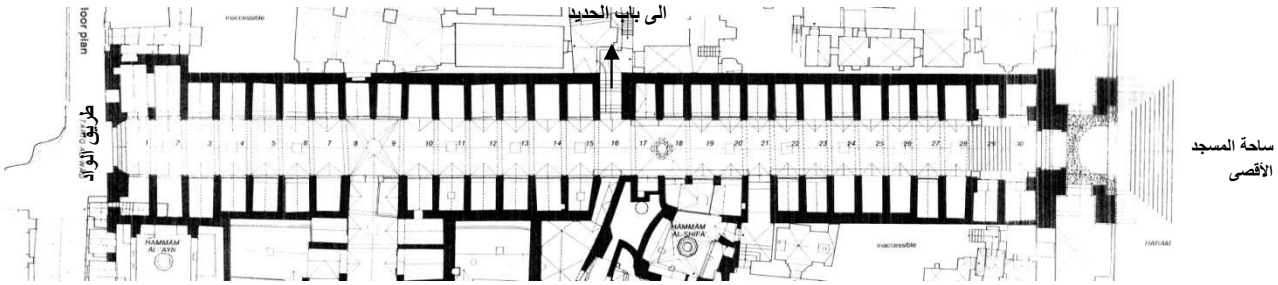
أنشأه الأمير سيف الدين تنكز سنة 737هـ/ 1336–1337م عندما أعاد بناء هذه المنطقة حيث أتمَّ بناء الرواق الغربي لساحة المسجد، من منارة باب السلسلة الى باب الناظر عام 737هـ/ 1336م، حيث أنَّ الجزء الشمالي من الرواق الغربي من باب الناظر الى باب الغوانمة كان قد بُني في عهد الملك الناصر محمد في 707هـ/ 1307م، والجزء الجنوبي قد بُني في عام 713هـ/ 1313م.

---

[1]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p. 188 ؛Hawari, Ayyubid Jerusalem, pp. 52-53؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص224–229.

[2]. العسلي، المصدرالسابق، ص241–242؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص112.

طول هذا السوق يصل الى حوالي المائة متر، وعرضه عشرة أمتار (مخطط رقم 19). يشتمل على عدد كبير من الدكاكين المتشابهة البناء والحجم على كلا الجانبين، يصل عددها حوالي 50 دكاناً وحاصلاً، خُصصت لبيع الأقمشة القطنية والحريرية التي كانت تحملها القوافل التجارية من الهند عن طريق بغداد والبصرة والموصل. ويقع فوق صفيّ الدكاكين طابق علوي يشتمل على غرف للسكن تُعرف بالربع، وهي منفصلة تماماً عن الدكاكين حيث يتم الوصول اليها عبر أدراج عدة متفرقة سواء في الجهة الشمالية أو الجنوبية للسوق تؤدي الى اسطح يتم النفاذ منها الى داخل الربع. وتتم إضاءة هذه الربع وتهويتها من خلال فتحات مطلة على داخل السوق. يقع بين صفيّ الدكاكين ممر طولي مسقوف على شكل قبو نصف برميلي محمول على عقود مدببة الشكل، ويتخلله فتحات صُممت لأجل السماح للضوء والهواء ليتخللان السوق، باستثناء الجزء الشرقي من السوق والملاصق لباب القطانين فإنه مسقوف بطريقة الأقبية المتقاطعة. كما تمّ تزيين السقف بالمقرنصات التي تتدلى من بعض الفتحات المجوفة[1]. وينفذ من داخل السوق في الجهة الشمالية في منتصف السوق عدة درجات تؤدي الى طريق باب الحديد. وفي الجهة الجنوبية منفذ الى المطهرة ومداخل الى حمّام الشفا وخان تنكز[2].



مخطط رقم 19

المسقط الافقي لسوق القطانين

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 274, fig. 24.2

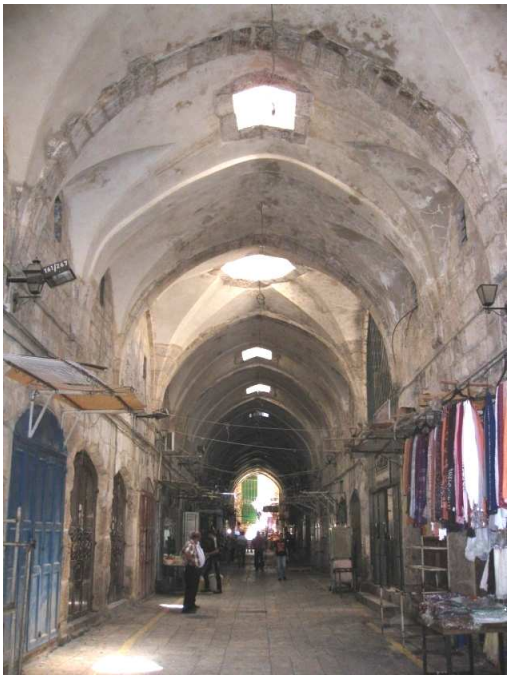
استمرت أهمية هذا السوق في العصر المملوكي كمحطة تجارية اساسية، إلا أنَّ هذه الأهمية تضاءلت عام 903هـ/ 1497م بعد تحول طريق التجارة إثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى أوروبا، فقلَّ على أثرها الاستخدام الوظيفي للسوق. وقد تمَّ ترميمه عدة مرّات في الفترات اللاحقة[3].

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 88 p. 280؛ Le Strange, p, p.188 p.191؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم 1، ص289؛ العسلي، من آثارنا، ص57؛ نجم، كنوز القدس، ص195؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص71؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص22؛ ابوخلف، من معالم الحضارة الاسلامية، ص110؛ Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 50.

[2]. Burgoyne, Ibid, p.279

[3]. العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص58؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص204.



صورة 9: منظر عام لسوق القطانين باتجاه الشرق
تصوير الباحثة



صورة 10: احدى فتحات التهوية والاضاءة في السوق
تصوير الباحثة

يُعتبر هذا السوق من أهم اسواق مدينة القدس حيث وصفه الحنبلي بأنه "سوق في غاية الارتفاع والاتقان، لم يوجد مثله في كثير من البلاد". كما وشأن **باب القطانين** الذي أتمَّ عمارته الأمير تنكز سنة 737هـ/ 1336م وذلك حسب النقش التذكاري فوق الباب والذي ورد نصه كالآتي: " بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا الباب المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون بالمباشرة العالية السيفية تنكز الناصري أعز الله انصاره في شهور سنة سبع وثلاثين وسبع مائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله". وقد وصفه مجيرالدين بأنه" باب عظيم بناؤه في غاية الاتقان"[1].

وقد سُمي باب القطانين بهذا الاسم نسبة الى السوق الذي ينتهي إليه كما عُرف ببوابة تجار القطن، يُنزل إليه بعشر درجات من داخل ساحة الحرم، وله مصاطب على جانبيه، وهو متقن العمارة والزخرفة حيث أنه باب مرتفع يتكون من مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس المذهب المخرم، وفوقه الشريط الكتابي ويأتي فوقه عقد ثلاثي التجويفات ملون بأحجار سوداء وبيضاء، ويقع فوقه مجموعة من المقرنصات فوقها نصف قبة تنتهي الى عقد حجري مدبب الشكل من الأحجار الحمراء والبيضاء اللون[2]. أما بوابة سوق القطانين الغربية فقد أُعيد بناؤها على آثار بوابة أُنشأت سابقاً، ويظهر ذلك من خلال طبيعة الأحجار المستخدمة سابقاً والتي استخدمت عند

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص401 ص 383؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص100.

[2]. Briggs, Muhammadan Architecture, p. 106؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص161–162؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، ص290؛ الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص404.

إعادة التعمير. والبوابة تتشكل من قوس مدبب الشكل بتجويف الى الداخل وتحته أحجار مبنية بشكل دائري تستند على قوس مبسّط الشكل، على دعامة من مجموعة احجار ينفذ تحتها المدخل الذي يرتفع مقدار أربع درجات عن طريق الواد، ولا يوجد له أبواب حيث أنه يؤدي الى السوق، فقط ابواب الدكاكين تغلق كما باب القطانين الشرقي كان يُغلق ليلاً وتحت الحراسة.





صورة 11: المقرنصات على السقف أمام حمام الشفا
ويظهر اسم المهندس عليها بالنص: محمد بن أحمد بن غليش رحمه الله
(تصوير الباحثة)

تمَّ تنفيذ بناء باب وسوق القطانين من قِبَل المهندس السوري محمد بن أحمد بن غُليش الشامي من دمشق، حيث يظهر اسمه على زخارف المقرنصات الموجودة على السقف في داخل السوق، عند مدخل حمام الشفا. وله عدة أعمال في القاهرة مشابهة لطراز عمارة سوق القطانين[1].

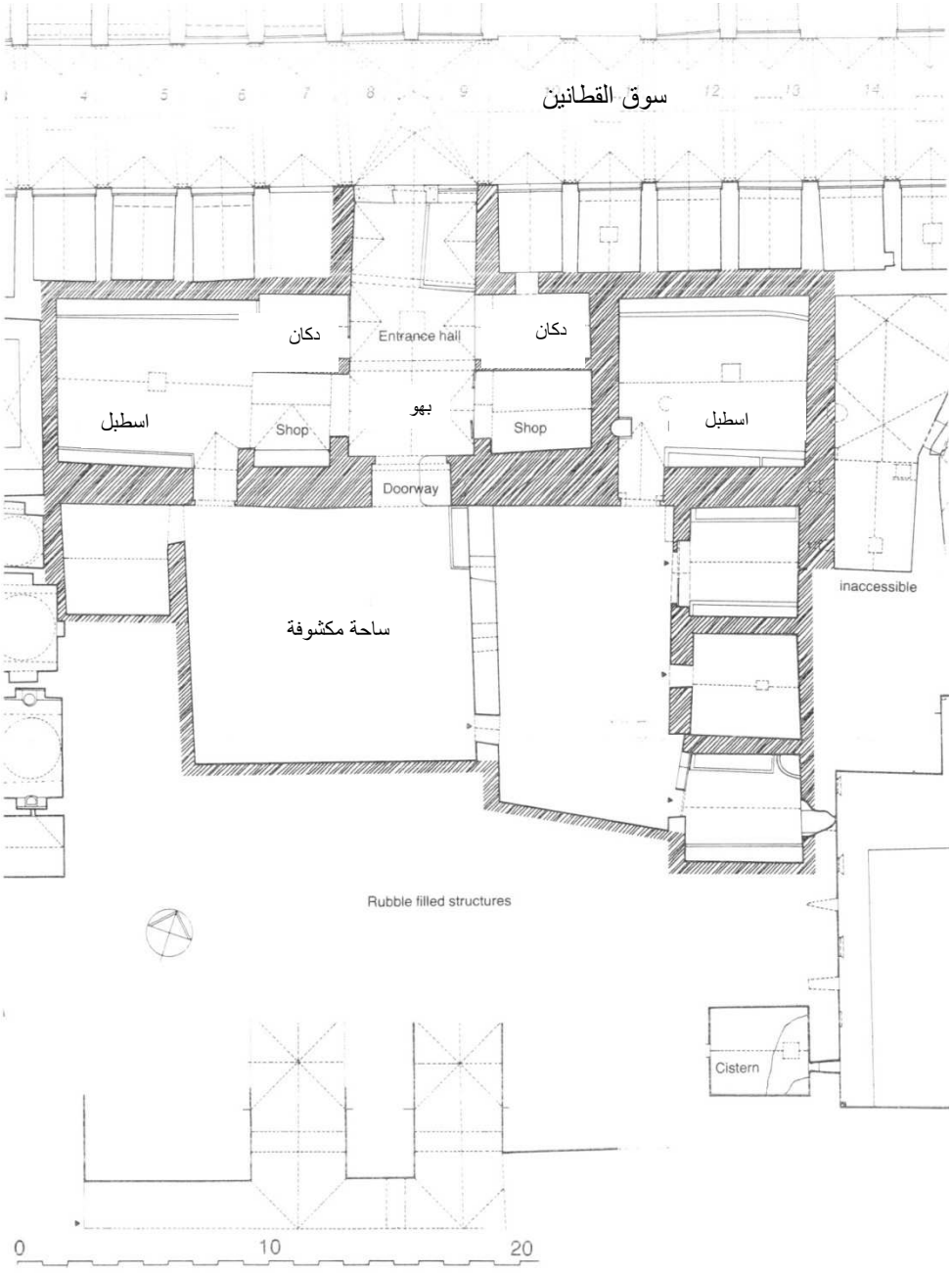
3.2.7 خان تنكز:

لم يكن سوق القطانين مجرد قيسارية، إنما اشتمل على خان المعروف بخان تنكز وحمَّامي الشفا والعين. أما **خان تنكز** فيُعرف أيضاً بخان اوتوز بير[2]، ويقع في الجهة الجنوبية من السوق على بُعد سبعة حواصل من مدخل السوق الغربي. أمر ببناءه الأمير تنكز سنة 737هـ/ 1336م، وتبلغ مساحته 32x22م^2 . تخطيط الخان تبع التصميم العام للخانات من حيث صف الغرف على طابقين حول صحن مكشوف (مخطط رقم 20). ويتم الدخول اليه من خلال بوابة من داخل سوق القطانين تؤدي الى بهو مستطيل الشكل يقع على كلا جانبيه دكاكين واسطبلات يغطيها سقف برميلي الشكل. وفي نهاية البهو من الناحية الجنوبية مدخل عرضه 2.76م يؤدي الى الصحن المكشوف وهي ساحة مكشوفة تتجمع حولها عدد من الغرف على الطابق الأرضي والعلوي، ونُقش فوق هذا المدخل نص كتابي يبين اسم الباني وسنة البناء وشعار(رنك) الأمير تنكز؛ الكأس داخل اطار دائري الشكل، في ثلاث مواضع حيث يظهر على جانبي الدعامة فوق المدخل وفي وسطها، وتقع

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 98 p. 279.

[2].اوتو زبير Utuz Bir : كلمة تركية تعني الرقم 31(Bahat, The Illustrated Atlas of Jerusalem, p. 115)

فوق المدخل نافذة تسمح بمرور الضوء الى البهو. أما الطابق العلوي فيتألف من مجموعة من الغرف فوق البهو وعلى امتداد السوق وحول الساحة المكشوفة، وقد استخدمت لسكن ومبيت نزلاء الخان[1].



مخطط رقم 20

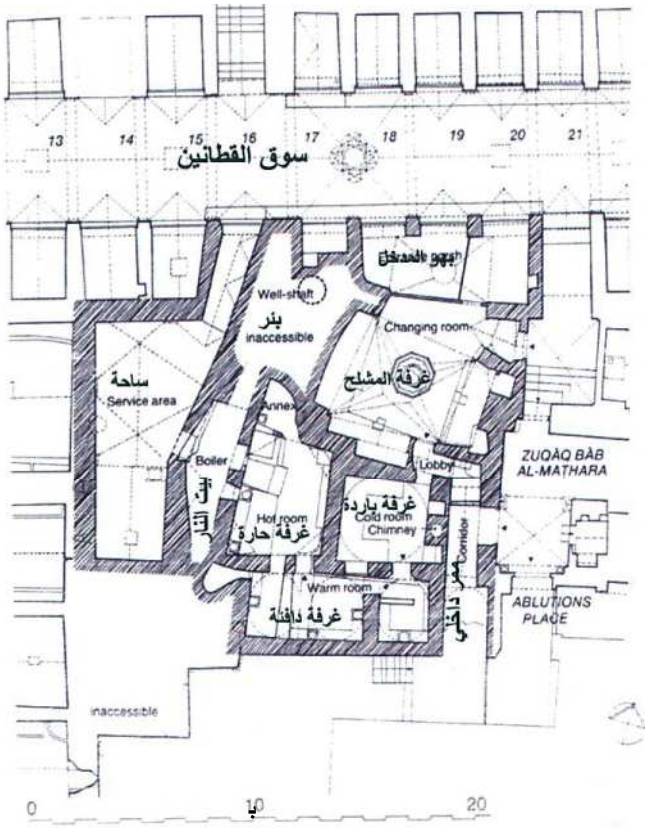
المسقط الأفقي للطابق الأرضي لخان تنكز

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem,283, fig. 24.6

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 277 p.280؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص63 ص65 ص69 ص72؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص148.

3.2.8 حمّام الشفا:

يتوسط الخان الحمامين الذين أنشأهما الأمير تنكز، حيث يقع حمّام الشفا شرقي الخان وحمّام العين غربه. تمّ انشاء **حمّام الشفا** في سنة 737هـ/ 1336م، وقد عُرف بهذا الاسم للاعتقاد بأنَّ من يستحم فيه يشفى من مرضه، نظراً لما به من مياه معدنية تشفي الأمراض الجلدية، وهذا الاعتقاد مرتبط باسم سيدنا ايوب حيث يُقال بأنه قد استحم في هذا الحمّام وشُفي. كما عُرف بحمّام عاشورا، وهو العاشر من محرم حيث استحب الاستحمام بهذا الحمّام للاعتقاد بأنَّ مياهه تختلط مع مياه زمزم في هذا اليوم، فتصبح المياه لها قدرة هائلة على شفاء الأمراض[1].



مخطط رقم 21
المسقط الأفقي لحمام الشفا
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 282, fig. 24.5

كانت تُستمد مياه الحمّام من برك سليمان خلال قناة العروب من ينابيع وادي العروب. ويُعتقد بأنه عند انسداد هذه القناة فإنَّ ماءه كانت تُستمد من آبار تحت قبة الصخرة، حيث أنَّ هناك اعتقاد بأنَّ هذه الآبار تحت الصخرة، تخرج منها المياه في أربع اتجاهات، أحدهما باتجاه الجنوب الى حمّام الشفا، وربما كذلك أنَّ مياهه كان يتم توفيرها من ماء عين سلوان[2].

يتبع نظام تخطيط الحمّام (مخطط رقم21) نظام الحمامات الرومانية من حيث التدرج في التنقل بين غرف الحمّام، حيث يتم الدخول الى الحمّام من مدخله الرئيسي الواسع الواقع في ممر سوق القطانين وهناك مدخل آخر جانبي من السوق أيضاً، من الناحية الشرقية ينفذ كذلك الى المشلح (غرفة او قاعة تغيير الملابس) التي يتوسطها حوض ماء بارد رخامي ثُماني الشكل فيه مجموعة من الفتحات تشكل مخارج مياه النافورة، ويمتد على جوانبه الثلاثة مصاطب حجرية يستخدمها المستحمون للجلوس[3]. ثم يتم الانتقال عبر ممر الى الغرفة الباردة ثم الى غرفة شبه منفصلة

---

[1]. العسلي، من آثارنا، ص185 88. Dow, The Islamic Baths of Palestine, p.

[2]. العسلي، المصدر السابق، ص179؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص245؛ Dow, Ibid, p. 29.

[3]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111–112 ؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص142؛
Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p.282 pp. 284-285.

بجدار على ارتفاع منخفض عُرفت ببيت الدواء حيث تتم فيها المداواة، ثم الى الغرفة الدافئة ثم الحارة والتي تُعرف بالحمّام السخن أو ببيت النار، ومن الغرفة الحارة هناك غرفتين، شمالية فيها بركة ماء ساخنة عُرفت بخلوة أيوب؛ حيث استخدم الحمّام وشُفي فعُرفت هذه الغرفة باسمه، أما الغرفة الجنوبية فعُرفت بخلوة النبي داوود. ويغطي هذه الغرف اسقف مقببة يتخللها فتحات فخارية مغطاة بالزجاج بعضه ملوَّن، حيث يتخلل الضوء عبر الغرف من خلالها ولا تسمح بإخراج الحرارة. وتشتمل الغرف على كوات وخزائن ومصاطب واجران لاستخدامات المستحمين، وجميع أرضيات الغرف مغطاة بالرخام الملون[1].

ولتوفير المياه الساخنة في الحمّام وتسخين الأرضيات في غرف الحمّام تقع غرفة التسخين (الأقميم أو الاقمين)[2] بجانب الغرفة الساخنة وتحتها الموقد أو الفرن، ويتم تخديمها من خلال مدخل آخر منفصل من ممر السوق يقع غربي الحمّام وتُوضع فيه الوقود في جانبه الجنوبي. وللتخلص من المياه التي تم استخدامها في الحمام يتم تجميعها عبر قنوات على جوانب الغرف، ومنها الى مجمع رئيسي في الناحية الجنوبية الشرقية للغرفة الدافئة، والذي يُشكل أيضاً مكان تصريف المياه للمطهرة المجاورة[3].







صور 12 ، 13 ، 14
صور توضيحية لسقف غرف حمام الشفا
والفتحات الفخارية التي تتخلل القباب
تصوير الباحثة

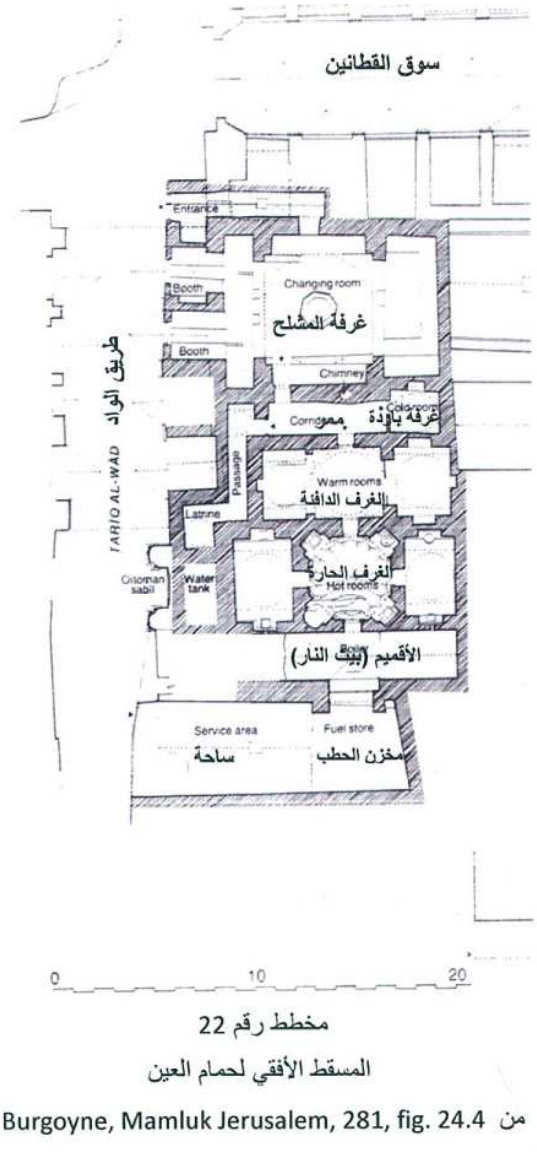
[1]. العسلي، من آثارنا، ص183–184؛ Dow, The Islamic Baths of Palestine, pp.88-90؛ Kroyanker, Jerusalem Architecture, p.50.

[2]. الأقميم أو الاقمين أو القميم: بمعنى فرن الحمّام (العسلي، وثائق مقدسية، ص123).

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 286-287.

3.2.9 حمّام العين:

أما **حمّام العين** فيقع عند إلتقاء طريق الواد مع باب سوق القطانين الغربي. أنشأه تنكز عام 737هـ/ 1336م وقد عُرف بحمّام العين نسبة الى عين العروب التي كان يستمد ماءه منها بواسطة قناة السبيل، التي كانت تزود الماء من العين الى مدينة القدس.



مخطط رقم 22

المسقط الأفقي لحمام العين

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 281, fig. 24.4

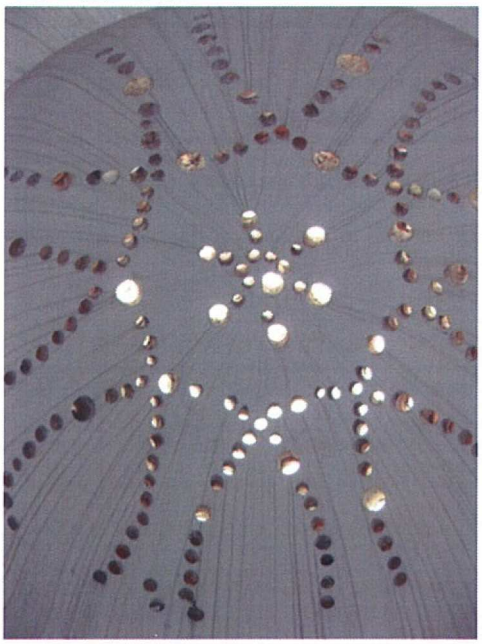
اتجاه المخطط العام للحمّام جاء بشكل عمودي على ممر سوق القطانين، أما تخطيط الحمّام (مخطط رقم 22) فهو أيضاً اشتمل على الغرف الثلاث الرئيسية التي يتم الدخول اليها من خلال باب الحمّام من طريق الواد ثمَّ يتم النزول بدرجات الى باب صالة الاستقبال الرئيسية، حيث أنَّ أرضية الحمّام منخفضة عن مستوى أرضية طريق الواد بحوالي 1.6م. وهذه الصالة التي تُعرف بالمشلح يقع في وسطها بركة فيها نافورة ماء، وتشتمل على مصاطب لاستعمال المستحمين. ثمَّ يتم الانتقال من غرفة المشلح خلال باب في جداره الجنوبي الى غرف الحمّام الاخرى حيث يشتمل على غرفتين دافئتين وغرفتين ساخنتين وبيت النار أو الأقميم أي الغرفة التي يوجد بها جهاز التدفئة. وتشتمل الغرف على مصاطب واجران مياه لاستعمال المستحمين. وكانت أرضية الحمام مغطاة بالرخام الملون[1].



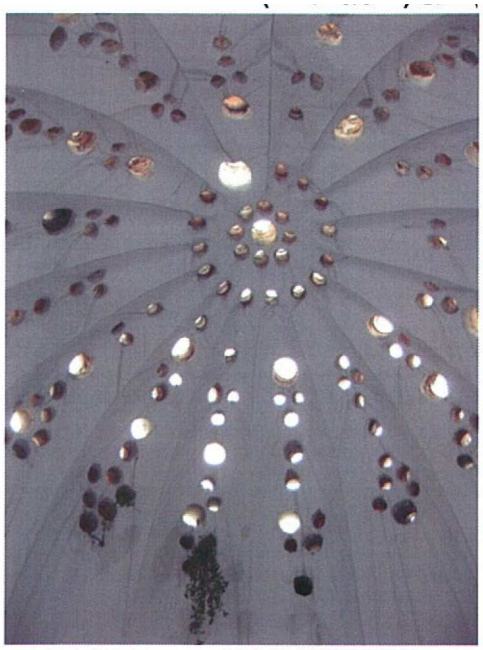
صورة 15: نافورة تتوسط غرفة المشلح في حمام العين (تصوير الباحثة)

[1]. Dow, The Islamic Baths of Palestine, pp. 90-91 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 287-288 p. 291 ؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص190 ص195.

صور توضيحية من داخل وسطح حمام العين (تصوير الباحثة)



صورة 16: قبة الغرفة الدافئة الرئيسية في حمّام العين



صورة 17: قبة الغرفة الحارة الرئيسية في حمّام العين



صورة 18: سطح حمّام العين من الناحية الجنوبية الغربية





صور 19 ، 20: أجران المياه من داخل غرف حمّام العين

كانت هذه الانجازات المعمارية للأمير تنكز التي تقع ضمن حدود المربع المخصص للدراسة والبحث والتي تراوح اتمام تشييدها ما بين عامي 729هـ/ 1328–1329م و 737هـ/ 1336–1337م، هذا بالإضافة الى أعمال معمارية اخرى قام بها الأمير تنكز في محيط الحرم القدسي وداخله منها:

3.2.10 مأذنة (منارة) الغوانمة:

تقع في الركن الشمالي الغربي من ساحة المسجد الأقصى عند باب الغوانمة، وتُعرف أيضاً بمنارة قلاوون ومنارة السرايا. بُنيت في عام 677هـ/ 1278م في عهد السلطان الملك منصورالدين لاجين، ثم جددها الأمير تنكز في عام 730هـ/ 1329–1330م[1]، وذلك وفق النقش بخط النسخ المملوكي ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه المنارة المباركة في أيام مولانا السلطان الملك الناصر... في سنة ثلاثين وسبعماية"[2].



صورة 21: مأذنة الغوانمة من الجهة الجنوبية
تصوير الباحثة

المأذنة عبارة عن بناء مربع الشكل على نظام بناء المآذن في بلاد الشام ويقع على قاعدة مربعة حجرية مرتفعة، طول 5م وعرض 5م تنتهي بمجموعة من المقرنصات، يظهر من القاعدة الجانبين الشرقي والجنوبي فقط، أما الجانبين الشمالي والغربي فيشكلان جزء من صخر الحرم في تلك الزاوية. ويقوم فوقها عدة طوابق يفصل فيما بينها افريز حجري مزخرف، ويتخللها عدة تجاويف وفتحات للتهوية والاضاءة. وتنتهي بمجموعة اخرى من المقرنصات يعلوها شرفة حجرية بدرابزين وأعمدة رخامية صليبية ومظلة خشبية يتوسطها بناء المأذنة المربع والأصغر حجماً من مربع المأذنة في الطوابق الأسفل، ويعلوه مثمن ثم القاعدة التي تقوم فوقها قبة المأذنة. يتم الصعود الى المأذنة من خلال درج خارجي يصل الى الطابق الثاني ثم يتم الدخول الى المأذنة والصعود من خلال درج حلزوني الشكل الى شرفة المأذنة. وتُعتبر هذه المأذنة من أعظم ابنية المآذن واتقنها عمارة. ويُعتقد بأنها تقع على آثار منارة سابقة البناء في عهد الأمويين[3].

---

[1]. بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص59.

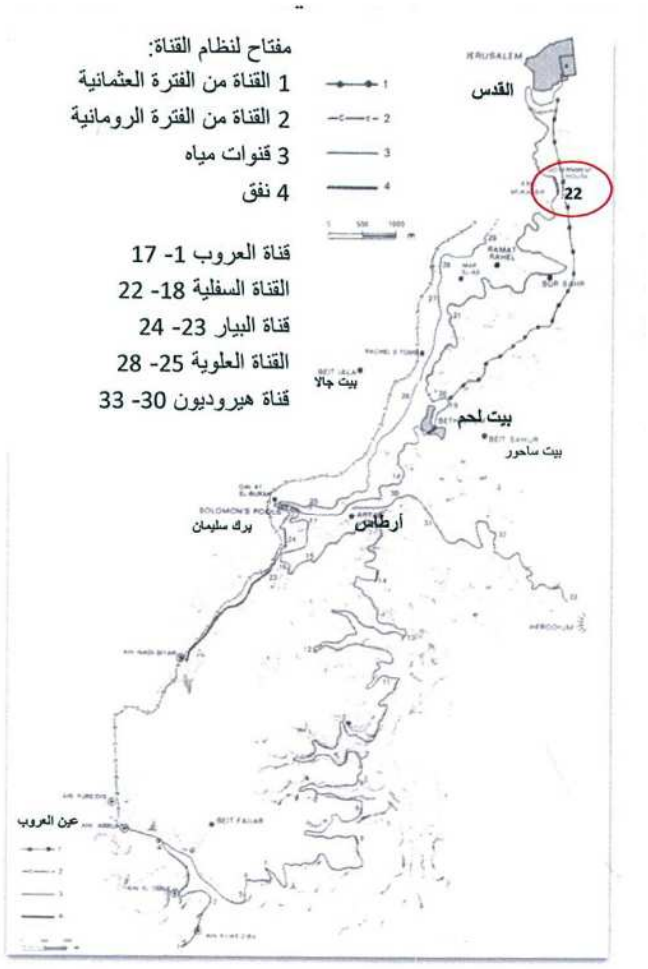
[2]. النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم1، ص400.

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 178 p. 180؛ النابلسي، المصدر السابق، قسم1، ص400؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص159؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص379–380.

3.2.11 قناة العروب:

تصل هذه القناة المياه من عين العروب الواقعة على بعد حوالي 19كم جنوبي مدينة القدس، حيث تتجمع مياه هذه العين في برك سليمان الواقعة بين مدينتي بيت لحم والخليل، ويتم توصيلها الى مدينة القدس عبر هذه القناة التي تعود الى فترة حوالي القرن السادس ق.م.

كان يتم توفير المياه عبر قناتين: قناة علوية وقناة سفلية، أما القناة السفلية فهي الأقدم والأكثر شهرة وتم تعميرها عدة مرات خاصة في عهد هيروديون، وقد عرفها المسلمون باسم قناة السبيل، وكانت هذه القناة بطول 21كم ومتعرجة وذلك لضمان انحدار المياه بقوة وبسرعة. وكانت تبدأ من عين العروب حيث الينابيع ترتفع حوالي 810م فوق سطح البحر، وتمتد حتى تصل الى برك سليمان وعيون أرطاس حيث هناك ينابيع اعلى البرك ترتفع حوالي 800م فوق سطح البحر، وينابيع اخرى اسفل البرك ترتفع حوالي 765م فوق سطح البحر، وتسير المياه الى بيت لحم ثم باتجاه بركة السلطان عبر صور باهر والثوري، ثم تسير بمحاذاة البركة من الناحيتين الغربية والشمالية حتى تدخل مدينة القدس بين باب المغاربة وباب النبي داوود (باب صهيون)، ثم تسير القناة الى طريق باب السلسلة (قرب درج العين) ومن هناك تدخل الى الحرم على ارتفاع 735م فوق سطح البحر، وتمتد منها قنوات الى الأسبلة والبرك والحمامات وغيره... (مخطط رقم 23). وقد عمل الأمير تنكز على اعادة تعمير هذه القناة واستنفذ جهوداً ضخمة لتنفيذ مثل هذا المشروع المعقد، حيث أنَّ طول القناة تمتد لعدة كيلومترات في منطقة ذات طوبوغرافية صعبة، مما تطلَّب خطة هندسية ومعمارية مدروسة وايادي عاملة كثيرة. وقد ابتدأ في اعمار القناة عام 727هـ/ 1327م وانتهى منها بعد عام في 728هـ/ 1327–1328م، إذ تدفقت المياه في حوض "الكأس" الذي أعاد تعميره الأمير



مخطط رقم 23 قنوات المياه (من Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,83)

تتكز أيضاً. ويُعتبر مشروع قناة العروب من المشاريع البارزة لسد الحاجة المتزايدة للماء في مدينة القدس، وقد ظلت هذه القناة تزود المدينة بالمياه حتى قُرب نهاية الحكم العثماني حيث تم تعمير أجزاء من القناة السفلية في 1902م[1].



صورة 22: القناة السفلية، نفق عند موقع رقم 22
من Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,81

3.2.12 الكأس:

يقع الكأس في الجهة الجنوبية من صحن قبة الصخرة بين المسجد الأقصى ودرج صحن الصخرة المواجه له. وهو عبارة عن حوض رخامي دائري الشكل، وفي وسطه نافورة ماء تشبه الكأس وعلى جوانبه فتحات لتدفق المياه الى الحوض. وعلى جوانب الحوض تخرج المياه ليستعملها المصلون للوضوء كما استعملت مياهه للشرب، ثم تسيل المياه في مجرى حول الحوض للتخلص منها.

وقد تم انشاء الكأس في عهد السلطان الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب عام 589هـ/ 1193م. ثم أعيد تعميره لاحقاً مرات عدة، ومنها عندما قام الأمير تنكز بتعمير قناة السبيل في 727–728هـ/ 1327–1328م عمَّر الكأس وأجرى اليه المياه من القناة[2].

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.41؛ Dow, The Islamic Baths, pp. 28-29 p. 84 ؛Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,pp. 80-81؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص145–146؛ الحنبلي، الانس الجليل، ج2، ص387؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص204؛ الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط، ص183؛ عثامنة، فلسطين في العهدين الايوبي والمملوكي، ص423–424؛ Wilson, The Recovery of Jerusalem, p. 19 .

[2]. Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 183 ؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص243؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص229؛ العارف، المفصل، ص204؛ بيضون، دليل المجد الأقصى المبارك، ص90.

هذا بالاضافة الى أعماله الاخرى داخل المسجد الأقصى كتجديد الشباكين والرخام غربي المنبر وشرقي المحراب[1]، كما وترميم قبة الصخرة وسقفها وتعمير القلعة[2] .



صورة 23: الكأس

تصوير الباحثة

3.3 أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية:

تُعد وقفية الأمير تنكز والمؤرخة بتاريخ الثاني عشر من شهر جمادي الاول لسنة 730هـ من الوثائق الهامة التي تضع اساساً في بيان وتوضيح معلومات هامة عن كيفية عقد الوقفية، والمعاملات التي كانت تتم في ذلك الوقت، ووصف لأمور تفصيلية دقيقة من التعاملات، والأجور، والعمال وما كان يتم وقفه من أوقاف غنية متعددة. كما وقد اوضحت الوقفية من خلال التفاصيل التي ذُكرت في نصها العديد من الأمور الدينية والخيرية والاجتماعية التي اتسم بها المجتمع الاسلامي في تلك الحقبة من الزمن.

ولهذه الاهمية فقد عمل المؤرخ كامل العسلي على نقل النص كاملاً وضبطه في بعض مواقع الكلمات التي كانت مطموسة أو لم تكن واضحة تماماً، وذلك ضمن الفصل الأول في كتابه **وثائق**

[1]. العارف، المفصل، ص203؛ Ayalon, The Islamic Architecture of Jerusalem, p. 96

[2]. Bahat, The Illustrated Atlas of Jerusalem, p. 115

مقدسية تاريخية– المجلد الأول لعام 1983. والذي تمَّ فيه بيان مصدر هذه الوقفية وهو سجلات المحكمة الشرعية في القدس، السجل رقم 92 المؤرَخ سنة 1020هـ، وتشغل كلمات هذه الوقفية البالغة حوالي 4700 كلمة خمس صفحات من السجل (من الصفحة 426 الى الصفحة 430). وقد ذكر المؤرخ العسلي نبذة مختصرة عن الأمير سيف الدين تنكز ثم اوضح اهمية هذه الوقفية لمختلف فئات المجتمع، لِما تحويه من معلومات تُفيد علماء اللغة واختصاصيي التربية والتعليم من خلال انها تعكس سمات للغة العربية في العصر الوسيط واشتمال نصها على تراكيب لغوية مختلفة. كما وتهم علماء الاجتماع والاقتصاد، واختصاصيي العمارة الاسلامية والوثائقيين، كما والقضاة والمشتغلين بالشريعة الاسلامية عامة ومنحى الوقف خاصة، حيث أنَّ هذه الوثيقة تقدم نموذجاً خاصاً لشكل الوقفية واجزاءها وطريقة عقدها وابرامها. كما وتقدم وصفاً لبعض العمائر الاسلامية في مدينة القدس، بالاضافة الى معلومات توضيحية عن اساليب التعليم ومرتبات المعلمين وموضوعات تخص الطلبة. ثم تطرق الى ذكر العقارات التي وقفها تنكز مع بيان بعض تفاصيل مضمون هذه الوثيقة. ثم نَقْلْ النص الكامل للوقفية مع الانتهاء ببيان بعض الهوامش الخاصة بالنص.

وعليه فإنَّ هذه الوقفية والتي سيتم نقلها كاملة كما في كتاب كامل العسلي في الصفحات التالية تُعد شاملة، فقد جاء مضمونها على الشكل التالي:

البدء بالأدعية يليه ذكر فضائل عمل الخير وبخاصة الصدقات، ثم دعاء للأمير تنكز مع ذكر القابه مفصلة. بعدها تعدد الوقفية العقارات التي وقفها تنكز، وتصفها وصفاً دقيقاً من الداخل والخارج ومواد البناء المستخدمة فيها مع ذكر موقعها وحدودها، كما وتم التطرق الى البناء اسفل هذه المنشآت.

وهذه الموقوفات بالترتيب هي:

1) المدرسة التنكزية
2) المسجد (في الايوان القبلي للمدرسة)
3) رباط النساء
4) الحمامين القبلي والغربي وهما حمّامي الشفا والعين
5) الطهارة أو المتوضأ
6) حوض السبيل (يقع حد المتوضأ من ناحية القبلة)
7) ضيعة عين قينة وهي عين قينيا قضاء رام الله، بما تشتمل من اراضي ومزارع وطواحين وينابيع واشجار وغيره.....

وبعد شرح هذه الموقوفات تفصيلاً تطرق في النص الى الشروط الواجب توفرها في الفقهاء في المدرسة وواجباتهم وحقوقهم وادعيتهم، كما الأمر بالنسبة للمحدثين والصوفية فقد ذكر الشروط الواجب توفرها فيهم وعددهم ووظائفهم، وماهية قراءاتهم وتحديد مكان تواجدهم في داخل المدرسة لإقامة صلواتهم واجتماعاتهم. ثم تناولت الوثيقة الأمور الخاصة برباط النساء، فذكرت عددهن والشروط الواجب توفرها فيهن وواجباتهن تخصيصاً، كما والأدعية والقراءات الواجب عليهن اقامتها. بعد ذلك تم ذكر المطهرة والانتفاع بها كما والاعمال الخاصة للعناية بها.

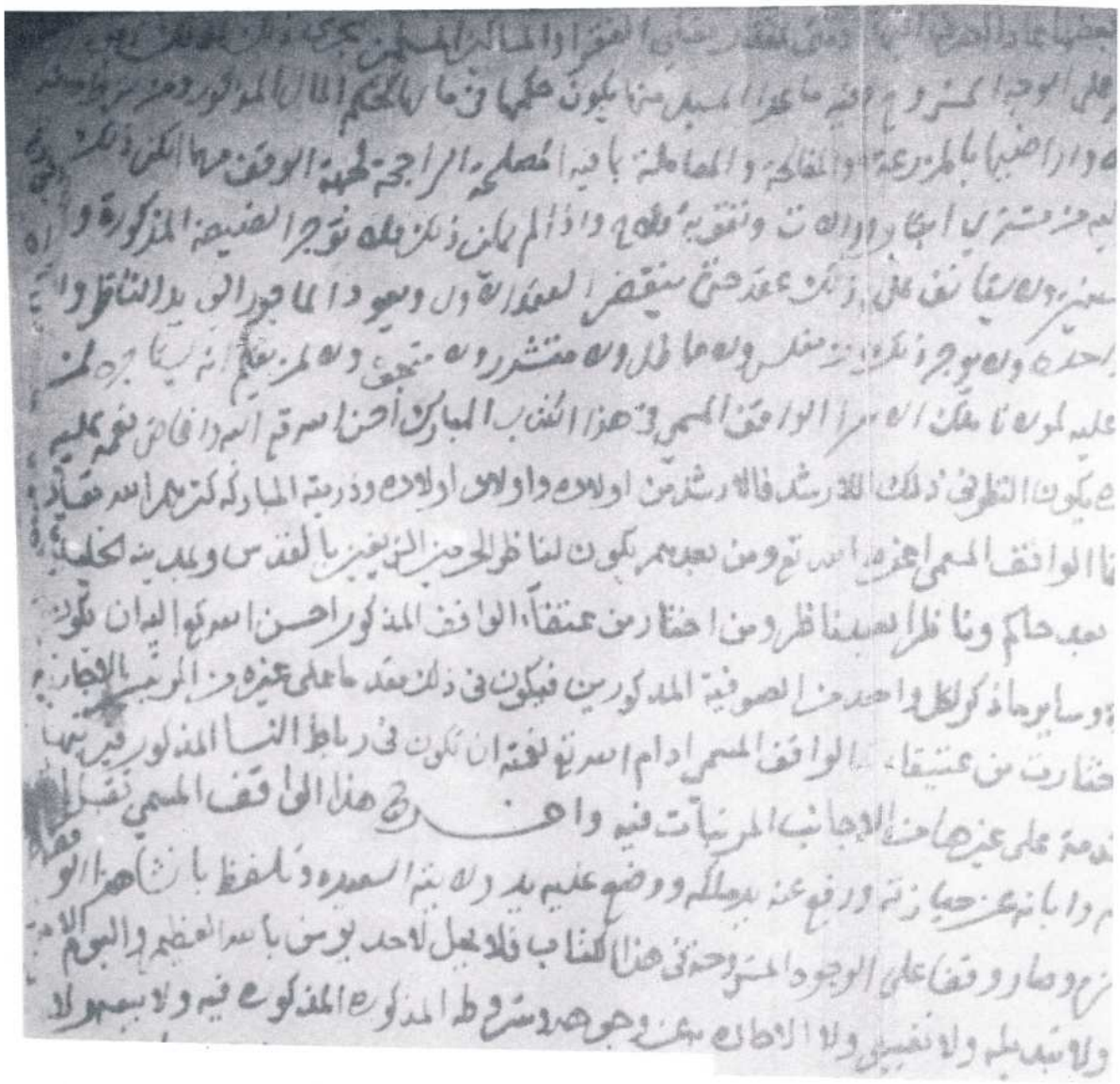
أما الحمامات وضيعة عين قينيا فقد اوقفها الواقف على أنْ يُنْتَفَع من ريعها لعمارة واصلاح وتجديد كامل الموقوفات السابق ذكرها. كما وحدد المصروفات قيمةً ونوعاً التي وجب صرفها للمدرس في المدرسة والفقهاء والمحدثين والصوفية المقيمين والواردين وتحديد مخصصاتهم حسب مراتبهم، كما والعاملات في رباط النساء والقيِّم على المطهرة، كل ذلك بحق واجب معلوم.

وهذه الأمور الكاملة المتعلقة بالوقف تقع على عاتق ناظر الوقف، فبالاضافة الى امور الصرف فهو المسؤول أيضاً عن الأمور الخاصة بتأجير الضيعة والحمامين، كمدة العقد والشروط الواجب توفرها بالمستأجر. وبعد الانتهاء من تفصيل جميع هذه الامور المتعلقة بالوقف، تمَّ ذكر أمر ولاية الوقف لمن تنتقل من بعد الأمير تنكز من أولاده وأحفاده وذريته حسب رشدهم، ومِنْ بعدهم مِنْ بقية الناس البارزين كالنظّار أو الحكام أو الصوفية ...

وفي النهاية تمَّ ذكر شروط استمرار الوقف، مع الاشارة الى اقرار الأمير تنكز بكامل مضمون الوثيقة وتأريخها لعام 730هـ، والاشهاد على ذلك.

3.3.1 النص الكامل لوقفية الأمير تنكز:

أما النص الكامل للوقفية مع تضمينه صورة عن قسم منها كما جاءت في السجلات، فهو:



صورة 24: قسم من وقفية الأمير تنكز
السجل 92 ص 430

قيد بأذن المولى العالم العامل المدقق الكامل سيد قضاة الاسلام سند الموالي العظام حسنة الليالي والايام عبد الحليم مصطفى (١) دام علاه في اوايل شهر جمادى الاولى سنة ١٠٢٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم صلي (٢) على سيدنا محمد وعلى جميع الانبيا الكرام وسلم هذا نسخة كتاب وقف شرعي ثابت محكوم به منفذ لدى حكام الشريعة المطهرة مسطر بمستندات مضمونة الحمد لله ميسر انواع الخيرات ومسهل اسبابها ومولي مواهب المبرات المخلصة لوجه وهابها وجاعل الطاعات في مرضاته اقرب سبلها وابوابها وقابل القربات ممن اخلصها طلبا لاجرها ورغبة في ثوابها نحمده حمدا .... * من سحابها ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة ننتفع بها حين لا ينفع شيء ونشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى اله واصحابه الذين تأدبوا بمحاسن شريعته واجتنبوا محارم نواهيه فسعدوا باجتنابها .

اما بعد فان اولى ما ادخر الانسان ليوم معاده ... * خالقه عند قيام اشهاده واقرض الله القرض الحسن فاخصب وادى مراده الصدقة التي يدخر المتصدق بها الثواب ويدرأ بها عن نفسه وبيل العذاب وتكون له على الصراط جوازا وعلى ثواب العمل الصالح طرازا فان من فضايلها ان النار تتقا بها حتى بشق ثمرة ويرقا الى الله تعالى ولو مثقالا من ذرة وتلقى .. * اشد الكفاح ويأمن المتصدق بها البلا ويتحقق له بحصولها الفلاح لا سيما صدقات الاوقاف التي هي من اعلا الصدقات واسناها وارفعها قدرا عند الله تع واعلاها فانها الصدقات الجارية والدخاير الباقية يجلوها .... * والعيان ويتلوها الاثر واللسان ولا ينقطع نفعهما وان طال الزمان ، وقد بدأ نبينا صلى الله عليه وسلم بذكرها حيث قال « اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد صالح يدعوا له » (٣) ولما اتصل ذلك بعلم مولانا المقر (٤) الاشرف العالي المولوي الاميري السيدي الكبيري العالمي المجاهدي الشاغري (٥) المرابطي المؤيدي المظفري المنصوري الهمامي القوامي النظامي المشيدي المهدي الزعيمي السيفي ركن الاسلام ذخر الانام ملك الامرا كهف الفقرا مقدم العساكر ذي المفاخر والمآثر غياث المجاهدين حصن المسلمين ظهير الملوك والسلاطين سيف امير المؤمنين ابي سعيد تنكز عبد الله الملكي الناصري نايب السلطنة المعظمة بالبلاد الشامية

* تراغ في الامل .

المحروسة ادام الله تع ايامه واعلا اعلامه بادر الى تحصيل هذه الصدقات الاتي ذكرها التي تقرب بها الى الله الكريم رجاء رحمته وفضله العميم واشهد بها على نفسه الكريمة حرسها الله تع من يضع خطه آخره من العدول في حال صحته وسلامته ادامها الله تع واختياره وطواعيته وجواز امره وتصرفاته انه وقف وحبس وسبل وابد حرم وتصدق بجميع ما يأتي ذكره مما هو جار في ملكه المبارك وتحت يده الكريمة مما هو معلوم عنده فمن ذلك جميع المدرسة المباركة التي انشأها الواقف المسمى مولانا ملك الامرا المشار اليه تقبله الله منه وهي بمدينة القدس الشريف جوار الحرم الشريف على الباب المعروف بباب السلسلة ويغلق على هذه المدرسة المذكورة باب خاص مكبر بمصراعين من خشب الجوز بصفايح نحاس اصفر ببوابة معقودة بالحجر النحيت الابيض والاسود والاصفر وبها طراز مذهب مكتوب فيه اسم الواقف المسمى شرفه الله تع وكرمه وتشمل هذه المدرسة المذكورة على اربعة اواوين معقودة بالكلس والحجر في كل واحد منها شباك حديد مطل الى حارة المغاربة ولكل واحد من الشبابيك المذكورة والمجلسين المشار اليهما باب بمصراعين منجور معظم بالعاج والابنوس . وهذا الايوان القبلي وقفه الواقف المسمى تقبل الله تع منه مسجدا لله تع له حرمة المساجد وكرامتها وسبله وفي الايوان الشرقي من هذه المدرسة المذكورة شباكان حديد يطلان الى الحرم الشريف لكل واحد منهما باب بمصراعين منجور معظم بالعاج والابنوس وجميع هذه المدرسة المذكورة مؤزرة بالرخام الملون وارضها مفروشة بالرخام الملون ولها عراقية و ... خشب ورفرف مدهون وفي وسط هذه المدرسة المذكورة بركة مثمنة يجري لها الماء من قناة العروب بحق واجب معلوم من معلم مشترك ينقسم ماؤه بين جهات الحرم الشريف وبين هذه المدرسة المذكورة من الفرع المساق من قناة العروب بحق واجب معلوم ولهذه المدرّسة مطبخ برسم المرتبين بهذه المدرسة المذكورة الاتي ذكرهم . ولهذه المدرسة طهارة تشمل على خمسة بيوت مبنية بالحجارة النحيت والكلس احدها مستحم وفي كل بيت منها جرن حجر يجري اليه الماء من قناة العروب المذكورة بمقسم خاص بها بحق واجب معلوم . وجميع اواوين هذه المدرسة المذكورة مبلطة بالبلاط الابيض وحايط هذه المدرسة القبلي مبني على اقبا رومية تعرف قديما باصطبلات الداوية (٧) وهي من حقوق هذه المدرسة المذكورة ويتطرق الى هذه الاقبا من حارة المغاربة بباب خاص . وتحت الجانب الشرقي من هذه المدرسة

المذكورة قبو سليماني (٨) قديم جدده الواقف المسمى تقبل الله منه وبها بير لجمع ماء الاشتية الذي ينزل اليه من طرق اعدت له في اسطحة المدرسة المذكورة طوله خمسة واربعون ذراعا بالذراع القاسمي وعرضه تسعة عشرة ذراعا بالذراع المذكور ويستقى الماء من هذا القبو من طاقة في بيت استجده الواقف المسمى ادام الله تع نعمته ملاصق لرباط النسا الاتي ذكره على ظهر القبو المذكور وفي هذا البيت جرن حجر طوله ثلاثة اذرع بالذراع القاسمي وعرضه ذراعان بالذراع المذكور والى جانب هذا القبو الى الحرم الشريف من باب السلسلة . حد هذا القبو من القبلة الحايط الذي انشأه الواقف المسمى اعز الله تع انصاره من جهة حارة المغاربة ومن الشرق سور الحرم الشريف ومن الشام الحاكورة المعروفة بحاكورة السقاية وفيها بابه ومن الغرب اقبا خراب . وهذا القبو السليماني المذكور من حقوق المدرسة المذكورة وعند الحاجة بالماء المجتمع فيه يقدم اهل المدرسة ، ثم ما يحتاج الحمامان الاتي ذكرهما في دواراتهما عند قلة مايهما الجاري اليهما وانقطاعه عنهما ثم ساير خلق الله . وفي هذه المدرسة المذكورة اثنان وعشرون بيتا فيها في السفل من هذه المدرسة المذكورة احد عشر بيتا برسم الفقها الحنفية الاتي ذكرهم منها بيت برسم بواب المدرسة المذكورة والباقي في علو المدرسة المذكورة وهو احد عشر بيتا برسم الصوفية الاتي ذكرهم وجميع هذه البيوت معقودة بالكلس والحجارة ولكل بيت منها باب خاص مكبر وعلى ظهر بوابة المدرسة المذكورة طبقة ذات منافع ومرافق ومراقد شرقي وغربي وسقفها خشبي ولها طاقات مطلة الى جهة الشمال وشبابيك حديد ولها مرتفق خاص وعلى ظهر بيتين من بيوت العلو المقدم ذكرها طبقة بسقف خشب لها طاقات مطلة الى جهة القبلة ومنافع ومرافق ومرتفق خاص ويصعد الى ذلك والى المسجد الاتي ذكره من السلم الحجر .... المدرسة المذكورة وهاتان الطبقتان المذكورتان برسم سكن من يختار الناظر في هذا الوقف اسكانه فيهما وظهر ذلك جميعه واهويته .... وفايض مياهه واوساخ مرتفقاته تنصرف الى قناة الوسخ التي استجدها الواقف المسمى بحق واجب . حد هذه المدرسة المذكورة من القبلة حارة المغاربة ومن الشرق الحرم الشريف ومن الشمال الطريق واليه يفتح باب هذه المدرسة ومن الغرب دار تعرف بدار الحاج ايوب المصري ومنه جميع .... بناء المسجد وما لاصقه من الابنية من شام وهو الذي انشاه الواقف المسمى

اعز الله انصاره على الصفات الاتي ذكره بالطريق الصحيح المعتبر الشرعي (٩) في مجلس الحكم العزيز بدمشق المحروسة المولوي القضايي الغزي المقدسي الحنبلي اجله الله تع ، على ظهر القبو الذي داخل الحرم الشريف المعروف بعمارة ابن حسن . ويصعد الى ذلك من السلم الحجر المتقدم ذكره وسقف هذا المسجد المشار اليه خشب منجور مجرى بالذهب واللازورد (١٠) وجدره مرخمة بالرخام الملون وفي قبلته خشب محراب مرخم بالرخام الملون ولها عامودا رخام وشباكا حديد مطلان الى الحرم الشريف لكل واحد منهما باب بمصراعين مدهون افرنجي وفي شرقيه ثلاثة شبابيك حديد مطلة الى الحرم الشريف ايضا ولكل واحد منهما باب بمصراعين مدهون افرنجي ويفتح بابه شاما وهو بمصراعين مدهون افرنجي (١١) والشباك الغربي منه مبني على سور الحرم الشريف وفيه ثلاثة شبابيك حديد بابواب مدهونة افرنجي وشباك الى ظهر المدرسة المذكورة ويلي هذا المسجد المعمور بذكر الله تع من شامه ايوان سقفه منجر مجرى بالذهب واللازورد ونصف ارضه من جهة الشرق مما يلي الحرم الشريف مرخم بالرخام الملون وله قنطرتان معقودتان بالحجر النحيت الاصفر والاسود على ثلاثة عواميد رخاما ابيض وله درابزين (١٢) ابيض ويتطرق منه الى مجلس له باب خاص بمصراعين مدهون افرنجي بسقف خشب منجور مجرى بالذهب واللازورد وفيه من شرقه شبكان حديد مطلان الى الحرم الشريف ولكل منهما باب بمصراعين مدهون ومن غربيه الحايط المبني على سور الحرم الشريف المتقدم ذكره وفيه بابان يتطرق من احدهما الى الطبقة المار ذكرها والثاني يتطرق منه الى سطح المدرسة المذكورة في هذا الكتاب ومنه جميع (الرباط) بالقرب من المدرسة المذكورة المعد لاقامة النسا الاتي ذكرهن فيه وهو مبني بالحجارة والكلس ويغلق عليه باب خاص ومنه جميع بيوت الحمامين القبلي والغربي المتجاورين اللذين انشأهما الواقف المسمى اعز الله تع انصاره وهما بمدينة القدس الشريف بوادي الطواحين فالقبلي منهما وهو ... يغلق عليه باب خاص يدخل منه الى مشلح (١٣) فيه مساطب مستديرة به مبنية بالحجر والكلس وفيه بركة الماء البارد مرخمة هي وما حولها وارض المشلح المذكور بالرخام الملون وفي غرب هذا المشلح روشن (١٤) يصعد اليه بسلم حجر وفي شرقيه ثلاثة شبابيك حديد بابواب مطلة الى الجنينة التي فيها اشجار نارنج (١٥) وورود هذه الجنينة مضافة الى هذا الحمام من حقوقه ويدخل من

هذا المشلح الى داخل هذا الحمام ويشتمل على قبة معقودة بجامات زجاج تحتها اربعة اجرنة رخاما وعلى اربع مقاصير معقودة قبابا بجامات (١٦) منهن ثلاث موزرات بالرخام الملون تشتمل كل واحدة منهن على جرنين رخاما والرابعة تشتمل على جرن واحد رخاما وفي بيت الزجاج من هذا الحمام جرن رخام وطشتية مرخمة برسم الماء البارد وارض جميع هذا الحمام المذكور ومقاصره مرخم ذلك جميعه بالرخام الملون ويتصل بهذا الحمام اتميمه (١٧) المبارك وفيه آلته المتخذ لمايه وفي هذا الاتمين مصنع (١٨) يجري الماء وينقسم الماء بينه وبين الحمام الاتي ذكره الذي هو الغربي من الحمامين المذكورين وهو الصغير منهما ، وجميع داخل هذا الحمام وارضه مرخم ذلك جميعه بالرخام الملون وفي الاتمين المقدم ذكره آلة هذا الحمام ايضا المعدة لمايه الجار وقدراه وحق هذين الحمامين من الماء من قناة تعرف بالعروب وهو حق واجب معلوم حد هذين الحمامين المذكورين من القبلة الطهارة (١٩) الاتي ذكرها التي انشاها الواقف المسمى احسن الله تع اليه ومن الشرق حاكورة الطهارة ومن الشمال الطريق السالك الى الحرم الشريف من باب يعرف بباب السقاية وفيه ينفتح باب الحمام الغربي ايضا المذكور ومن الغرب الطريق السالك من وادي الطواحين (٢٠) الى البركة الواصل اليها الماء من قناة العروب وفيه ينفتح باب الحمام الكبير ومنه جميع الطهارة (١٩) التي انشاها الواقف المسمى اعز الله تع انصاره وهي بالقرب من ذلك ويغلق عليها باب خاص وتشتمل على سبعة بيوت احدها مستحم وبها حوض حجر ولكل بيت منها جرن حجر ويجري الماء الى ذلك بحق واجب معلوم من قناة العروب وفايض مياه هذه الطهارة واخبائها تنصرف الى قناة الوسخ المذكورة بحق واجب فظهورها خواص (٢١) لها حدها من القبلة حوض السبيل الذي انشاها الواقف المسمى تقبل الله تع منه وجعله مسبلا لجميع خلق الله تع وبير ؟ الواصل اليه من فايض بركة قناة العروب وتمام الحد الطريق وفيه بابها ومن الشرق المصنع المختص بالحمامين المتقدم ذكرهما ومن الشمال الحمام القبلي ومن الغرب الطريق ومن ذلك جميع الضيعة ومزارعها المعروفة بعين قنية من عمل القدس الشريف وتشتمل هذه الضيعة ومزارعها على اراضي عاطلة وعامرة وسهل ووعر واقاصي وادائي ومصايف ومشاتي ومروج وصير (٢٢) وبيادر وطواحين تدور بماء الاشتية واشجار زيتون ونارنج وكروم عنب مختلف الاجناس وبساتين وجنايين وتين وخروب وغير

ذلك ودمنة برسم سكن فلاحيها وبها اعين ماء نبع سادحة (٢٤) حد هذه الضيعة ومزارعها بكمالها من القبلة اراضي قرية نوبا وتمام الحد اراضي قرية كفرتيا ومن الشرق اراضي قرية رام الله وتمام الحد اراضي لدنا ومن الشمال اراضي قرية دير بن شعبان وتمام الحد اراضي قرية الرأس ومن الغرب اراضي قرية دجانية وتمام الحد اراضي قرية دير بزيع بجميع حقوق ما ذكر وسمي ووصف وحدد وطرق ذلك ومرافقه وسفله وعلوه وابنيته واحجاره ورخامه وبلاطه واخشابه ورفوفه وابوابه وحديده وبقية الاته وما يختص به من القنى والمجاري وبكل حق هو لذلك داخل فيه وخارج عنه معروف به منسوب اليه فابدا المدرسة المبدا بذكرها وما بها من الابنية سفلا وعلوا فقد وقف الواقف المسمى ذلك تقبل الله منه وقفا صحيحا شرعيا على الفقها الحنفية والمحدثين والصوفية وشرطه ان يكون حافظا لكتاب الله تع عالما بمذهب الامام سراج الدين ابي حنيفة النعمان ابن ثابت رضي الله تع عنه ملازما لذكر الدرس بهذه المدرسة المذكورة على جاري العادة في ذكر الدروس وان يكون اماما في الصلوات الخمس بالمسجد الذي هو الايوان القبلي من المدرسة المذكورة وصلاة التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم من كل سنة بمن يحضر الى المسجد المشار اليه من كافة المسلمين وان يستعرض المتوسطين والمبتديين من الفقها والمتفقهة بالعلم الشريف ويحث من يحضر منهم عنده في درس المدرس ويفعل مثل ذلك بعد صلاة العصر كل ذلك في ايام ذكر الدروس وخمسة عشر فقيها ومتفقها يرتبون ثلاث طبقات منتهيون ومتوسطون ومبتديون ويكن منهم خمسة اشخاص مزوجين وعلى كل واحد منهم حضور هذه المدرسة ... الدرس وملازمة الاشتغال بها والمبيت فيها على جاري العادة ومن مضت منهم عليه اربع سنين من حين ترتيبه بالمدرسة المذكورة ولم يكمل حفظ كتاب في مذهب الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ويظهر عليه الفقه فيستبدل الناظر على هذا الوقف غيره ويقدم الفقيه الغريب على الفقيه من اهل القدس ويقدم العزب على المزوج منهم وعلى هؤلاء المذكورين اجمعين من المدرس والمعيد والفقها والمتفقهين الاجتماع لذكر الدروس في الايوان القبلي المشار اليه وان يقرا كل واحد منهم جزا من ثلاثين جزا من كتاب الله تع العزيز في الربعة الشريفة ويختمون (قراتهم) بقراة سورة الاخلاص والمعوذتين (٢٥) وفاتحة الكتاب العزيز

واوايل السورة التي تذكر فيها البقرة ثم يدعو المدرس عقب ذلك لمولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين ابي الفتح محمد خلد الله تع سلطانه وللواقف المسمى تقبل الله تع منه ولذريته المباركة كثرهم الله تع ويستغفر الله تع لهم ويسأله ان يجعل ثواب ذلك في صحايف الواقف المسمى احسن الله تع اليه ثم يذكر المدرس على جاري العادة . ومن شرط كل واحد من الجماعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح وتضبط غيبة الفقها ممن يعينه الناظر في هذا الوقف لذلك ومن غاب منهم لعذر شرعي سومح في مدة الغيبة في جامكيته (٢٦) وجرايته الاتي ذكرهما ومن غاب منهم بغير عذر شرعي نقص من جامكيته وجرايته بقدر مدة غيبته واما المحدثون بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الشيخ ومن شرطه ان يكون عالي الرواية مقصودا بالسماع عليه والاخذ عنه حسن الضبط والقاري للحديث النبوي على قايله افضل الصلوة واتم السلام وشرطه ان يكون جيد الضبط حسن القراة (٢٧) وان يقرا في الميعاد بهذه المدرسة من صحيح البخاري رضي الله عنه ما تيسر فاذا اكمل قراة جميع الصحيح المذكور في المواعيد قرا من صحيح الامام مسلم رضي الله عنه حتى يكمل قراة جميعه كذلك وكلما فرغ من قراة هذين الصحيحين في المواعيد اعاد قراتهما كذلك وعشرون محدثا وعلى كل واحد منهم ان يحفظ في كل يوم من ايام الميعاد حديثا واحدا من الاحاديث الثابتة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعرضه على الشيخ بعد فراغ الميعاد وعلى جميع هولا الجماعة المذكورين من الشيخ والقاري والمشتغلين في الحديث ان يجتمعوا كل يوم بعد صلوة الظهر في الايوان الشرقي من المدرسة المذكورة ويقرا كل احد منهم ما تيسر من كتاب الله تع في الربعة الشريفة ويختمون القرآن بقراة ما ذكر من ختم قراة الفقها من القرآن العظيم ثم يدعو الشيخ كدعاء المدرس المقدم ذكره ثم يقرا القاري من احد الصحيحين المذكورين كما ذكر على جاري العادة في ذلك ويضبط القاري اسماء الحاضرين من المرتبين وغيرهم على جاري عادة المحدثين ومن شرط كل واحد من هولا الجماعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح وحكمهم في الغيبة كما ذكر في حق الفقها واما الصوفية المنتسبون الى الاقتدا بسادة مشايخ الصوفية رضي الله عنهم وهم الشيخ المرتب للمشيخة عليهم وخمسة عشر صوفيا يكون واحد منهم خادما واخر ملباخا لهم وعليهم اجمعين ان يجتمعوا صبيحة كل يوم قبل طلوع الشمس في

المسجد العلوي المبني على ظهر القبو المذكور في هذا الكتاب ويقرا كل واحد منهم ما تيسر من كتاب الله تع في الربعة الشريفة ويجتمعون للقراة بقراة ما تقدم ذكره ثم يذكرون الله تع ويختمون الذكر بالصلوة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات فيقولون اللهم صلي على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الامي وعلى آل محمد وازواجه وذريته كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد وسلم ، ورضي الله عن اصحاب رسول الله اجمعين ثم يدعو الشيخ كدعاء المدرس المتقدم ذكره ثم يقرا واحد منهم ما تيسر من رسالة الامام القشيري (٢٨) رضي الله عنه ويفعلون مثل ذلك بعد صلوة العصر وعليهم المبيت بالمدرسة المذكورة على جاري العادة ومن شرط هولا الجماعة المذكورين ان يكون كل واحد منهم من اهل الخير والدين والصلاح ومن شرط هذا الوقف ان يرتب الناظر في الوقف في المدرسة المذكورة مقريا وقيمين وبوابا وعلى المقري قراة ربع جزء من ثلاثين جزا من كتاب الله تع العظيم في المصحف الكريم بالايوان الشرقي من تلك المدرسة المذكورة عند الشباك المطل الى الحرم الشريف بعد صلاة الصبح في كل يوم من الايام ثم يقرا بعد ذلك شيا من تفسير القرآن العظيم ثم يدعو كدعاء المدرس المقدم ذكره وعلى كل واحد من القيمين فرش هذه المدرسة المذكورة وفرش المسجد العلوي ... من شامه (٢٩) بالحصر والبسط وتنظيف ذلك جميعه وكنسه وايقاد مصابيحه وطفيها وغسل بركة المدرسة وغسل طهارتها وكنسها على جاري العادة في ذلك جميعه وان يؤذنا بالنوبة على باب المدرسة المذكورة في الاوقات الخمس وصاحب النوبة يقيم الصلوة ويبلغ خلف الامام ويتولى احضار الربعة الشريفة الى الايوانين المشار اليهما من المدرسة المذكورة عند اجتماع الجماعة فيها من الفقها والمحدثين ومفرق الاجزا الكريمة (٣٠) على الجماعة المشار اليهم وجمعها بعد فراغهم من القراة في الصندوق المعد لها ثم يرفع الربعة الشريفة الى المكان المختص بها في المدرسة المذكورة ثم يفعل كذلك عند اجتماع الجماعة الصوفية في المسجد العلوي المشار اليه وعلى البواب بهذه المدرسة ملازمتها وحفظها في الليل والنهار وفتح باب المدرسة وغلقه في الاوقات التي جرت العادة بها ومن شرط كل واحد من هولا الاربعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح ومن شرط هذا الوقف أن يرتب ناظر الوقف للموقوف المذكور في هذا الكتاب معمارا (٣١) وجابيا وكاتبا على جاري العادة ويكون كل واحد منهم

من اهل الخير والدين والصلاح وأما الرباط المجاور للمدرسة المشار اليه بأعاليه فقد وقفه الواقف المسمى تقبلها الله منه على اثنتي عشرة امراة مسلمات ديانات خيرات صالحات عجايز خاليات عن الازواج فقيرات مقيمات في الرباط المذكور تكون احداهن شيخة لهن واخرى قيمة للرباط المذكور وبوابة وعلى الفقيرات الواردات الى هذا الرباط وعلى الشيخة المشار اليها ان تأم (٢٢) بهن في الطوات الخمس وفي صلوات التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم من كل سنة وعلى القيمة البوابة فرش الرباط المذكور بالحصر والبسط وتنظيفه وكنسه وغسل طهارته وحفظ الرباط المذكور كما تقدم في حق بواب المدرسة المذكورة وايقاد مصابيحه وطفيها وعليهن اجمعين ان يجتمعن في احدى ايواني الرباط المشار اليه بعد صلاة الصبح في كل يوم ويقران سورة الاخلاص والمعوذتين وفاتحة الكتاب العزيز ثم يذكرن الله تع ويصلين على محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم ثم تدعو شيختهن كدعاء المدرس المقدم وحكمهن في الغيبة كما تقدم في غيبة غيرهن واما الطهارة المجاورة للحماميين المقدم ذكرهما فقد وقفها الواقف المسمى تقبل الله تع منه على كافة المسلمين ينتفعون على جاري العادة في مثل ذلك ويرتب الناظر في الوقف لها قيما برسم غسلها وكنسها وايقاد مصباحها وطفيه وفتح بابها وغلقه على جاري العادة واما الحمامان والضيعة المعروفة بعين قينة ومزارعها المشار الى ذلك جميعه في هذا الكتاب المبارك وما هو من حقوق ذلك فقد وقفه الواقف المسمى تقبل الله ذلك منه وقفا صحيحا شرعيا على جميع الجهات المتقدم ذكرها وعلى مصالح الاماكن الموقوفة المشار اليها بأعاليه وعلى ما يأتي ذكره فيه على ان يبدا ناظر الوقف المذكور مما يتحصل تحت يده من اجور ذلك وريعه ومغله بعمارة جميع الموقوف المذكور في هذا الكتاب واصلاحه وتجديد ما يهي من ابنيته وبفرش المدرسة والمسجد العلوي الذي على القبو المشار اليه في هذا الكتاب وبما لاصقه ... وبفرش رباط النسا المذكور بالحصر والبسط وتنوير ذلك جميعه على العادة في مثل ذلك كله ويبتاع في كل سنة بخمسين درهما فضة من المتعامل بها شمعا برسم صلاة التراويح وبخورا من الطيب يبخر به بالمسجد الذي هو الايوان القبلي من المدرسة المذكورة عند صلوة التراويح بالمسجد المذكور ويبتاع ايضا في عيد الاضحى في كل سنة راسين من البقر وكبشين مليحين من الغنم الضان مما يجري في الاضحية ويضحي بذلك في ايام التضحية ويفرق اللحم على اهل

الوقف المذكور وعلى غيرهم من صعاليك المسلمين على ما يراه الناظر في الوقف ويبتاع ايضا شمعا يشعل عند قراة القرآن العظيم في المصحف الكريم بعد صلوة الصبح في كل يوم من الايام في الايوان الشرقي من المدرسة المذكورة بقدر ما يحتاج اليه في ذلك ويبتاع الناظر في الوقف عند ختم قراة كل واحد من صحيحي البخاري ومسلم رضي الله عنهما بماية درهم من الدراهم المتعامل بها حلوا (٢٣) ويفرقها على الحاضرين من المحدثين وغيرهم على ما يراه وما فضل بعد ذلك يصرف منه الناظر في هذا الوقف الى الجهات المذكورة المعينة المشار اليها في هذا الكتاب والى من ذكر معها فيه على ما يفصل فيه من الجامكيات والجرايات والطعام وغير ذلك على الوجه الذي يشرح فيه فيصرف للمدرس بالمدرسة المذكورة في كل شهر من الشهور ستين درهما فضة وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى المعيد بالمدرسة المشار اليها في كل شهر من الشهور ثلاثين درهما فضة وفي كل يوم من الايام ثلثي رطل من الخبز والى كل واحد من الفقها المنتهين في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل والي (٢٤) من الفقها المتوسطين في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الفقها المبتدين في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل واحد من الخبز والى شيخ المحدثين في كل شهر من الشهور اربعين درهما فضة وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى قاري الحديث النبوي على قايله افضل الصلوة واتم السلام في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الجماعة المحدثين في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الجماعة المحدثين في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى شيخ الصوفية في كل شهر من الشهور ستين درهما فضة وثلث رطل من زيت الزيتون وثلث رطل صابون وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى كل واحد من الصوفية في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وسدس رطل من زيت الزيتون وسدس رطل صابون ويزاد الخادم والطباخ للطعام الآتي ذكرها على معلوم كل واحد منهما المتقدم ذكره في كل شهر من الشهور خمسة دراهم فضة ويصرف الى كل واحد

من الصوفية الخمسة عشر المشار اليهم فيه في كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الصوفية الواردين على الصوفية المقدم ذكرهم في مدة عشرة ايام من حين وروده عليهم في كل يوم منها نصف درهم ونصف رطل من الخبز ويزود عند سفره بخمسة دراهم ويقتصر في كل شهر على عشرة من الواردين ولا يزاد عليهم ويقدم الغربا من الصوفية والواردين عليهم بعد عتقاء الواقف المسمى اعز الله انصاره على اهل القدس الشريف ويصرف الناظر من ريع الوقف المذكور ما يكفي في عمارته ويطبخ في كل يوم من الايام بلحم الضأن برسم الصوفية المشار اليهم من المقيمين والواردين ويكون ذلك على جاري عادتهم واصلاحهم ؟ في صنع طعامهم ويفرق عليهم بالنصيب ويكون نصيب كل شخص منهم قدر اوقية من اللحم قبل الطبخ ويضاف الى ذلك حلوا تعمل للمذكورين في ليالي الجمع على عادة الصوفية ويفرق عليهم بالنصيب لكل شخص منهم اوقية ويعمل ايضا للمذكورين في المواسم والاعياد من الطعام والحلوا ما يراه الناظر في الوقف ويفرق عليهم بالنصيب ايضا ويكون لشيخ الصوفية المشار اليه من ذلك جميعه نصيبان ويصرف ناظر الوقف الى شيخة رباط النسا في كل شهر من الشهور عشرين دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى القيمة البوابة بالرباط المذكور في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحدة من الفقيرات العجايز العشرة في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام ثلث رطل من الخبز والى كل واحدة من الفقيرات الواردات الى الرباط المذكور مدة عشرة ايام من حين ورودها في كل يوم منها ربع درهم فضة وثلث رطل من الخبز ويقتصر في ذلك على عشر من الواردات الى الرباط المذكور من غير زيادة عددهن ويقدم الواردات الفقيرات الغريبات على الفقيرات من اهل القدس وكذلك في النساء المرتبات في الرباط المذكور ويصرف الناظر في هذا الوقف الى قاري القرآن العظيم في المصحف الكريم بعد صلاة الصبح في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من قيمي المدرسة وبوابها في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى قيم الطهارة المذكورة فيه في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز وجميع ما ذكر في هذا الكتاب المبارك

من الدراهم فهو من الدراهم (٢٥) المتعامل بها يوميذ ومن الخبز فهو من خبز الحنطة الطيب ومن الرطل والاوقية فهو الرطل القدسي والاوقية القدسية (٢٦) يجري ذلك كذلك على الوجه المشروح في هذا الكتاب على قوم بعد قوم وانفار بعد انفار ابدا ما امكن الصرف في المصارف المذكورة ومتى تعذر الصرف في مصرف من المصارف المشار اليها او اكثر صرف الناظر في الوقف ما كان مصروفا اليه في بقية المصارف على ما يراه ناظر الوقف ومتى تعذر الصرف في جميع المصارف المذكورة صرف الناظر ما كان مصروفا الى عتقاء الواقف المسمى تقبل الله تع منه عتى ما يراه الناظر في الوقف المذكور ومتى تعذر الصرف على العتقا صرف ذلك صدقة على الفقراء والمساكين المسلمين من امة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على ما يراه الناظر من وجوه البر والقربات التي يتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى ومتى امكن الصرف في المصارف المذكورة او في بعضها عاد الصرف اليها ومتى تعذر فعلى الفقرا والمساكين المسلمين يجري ذلك كذلك وجودا وعدما واذا تعذر الانتفاع بالاماكن الموقوفة على الوجه المشروح فيه ما عدا المسبل منها يكون حكمها في مالها كحكم المال المذكور ومن شرط ... الوقف ان الناظر فيه يستغل الضيعة المذكورة واراضيها بالمزارعة والمفالحة والمعاملة بما فيه المصلحة الراجحة لجهة الوقف مهما امكن ذلك ويصرف من ريع الموقوف المذكور ما يحتاج ذلك اليه من مشتري ابقار والات وتقوية فلاح واذا لم يمكن ذلك فلا تؤجر الضيعة المذكورة واراضيها ولا شيء منها في عقد واحد اكثر من سنتين ولا يستانف على ذلك عقد حتى ينقضي العقد الاول ويعود الى يد الناظر ولا يؤجر الحمامان المذكوران في عقد اكثر من سنة واحدة ولا يؤجر ذلك من مفلس ولا عاطل ولا متشرد ولا متجول ولا لمن يعلم انه يستأجره لمن هذه صفته والنظر في هذا الوقف والولاية عليه لمولانا ملك الامرا الواقف المسمى في هذا الكتاب المبارك احسن الله تع اليه وافاض نعمه عليه مدة حياته المباركة فيها اطالها الله تع ومن بعده يكون النظر في ذلك للأرشد فالارشد من اولاده واولاد اولاده وذريته المباركة كثرهم الله تعالى ومن بعدهم يكون النظر للأرشد الاسن من عتقا الواقف المسمى اعزه الله تع ومن بعدهم يكون لناظر الحرمين الشريفين بالقدس وبمدينة الخليل بمشاركة الحاكم بالقدس الشريف له في ذلك حاكما بعد حاكم وناظرا بعد ناظر ومن اختار من عتقا الواقف المذكور احسن الله تع اليه ان يكون من جملة الصوفية المقدم ذكرهم

بالمعلوم والجراية وساير ما ذكر لكل واحد من الصوفية المذكورين فيكون في ذلك مقدما على غيره من المرتبين بالاجازة ولا يشترط عليه ان يكون من اهل التصوف ومن اختارت من عتيقات الواقف المسمى ادام الله تع نعمته ان تكون في رباط النسا المذكور فمرتبها الناظر من جملتهن بالمعلوم والجراية وتكون متقدمة على غيرها من الاجانب المرتبات فيه واخرج هذا الواقف المسمى تقبل الله منه جميع ما وقفه في هذا الكتاب عن ملكه وابانه عن حيازته ورفع عنه يد ملكه ووضع عليه يد ولايته السعيدة وتلفظ بانشا هذا الوقف على الوجه المشروح فيه وقد صح هذا الوقف ولزم وصار وقفا على الوجوه المشروحة في هذا الكتاب فلا يحل لاحد يؤمن بالله العظيم واليوم الاخر ويعلم انه الى ربه الكريم صاير نقض هذا الوقف ولا تبديله ولا تغييره ولا الاحادة به عن وجوهه وشروطه المذكورة فيه ولا بيعه ولا اتلافه ولا المناقلة به ولا بشيء منه ولا يخرج الى ملك احد من ساير الناس اجمعين بل كلما مر بهذا الوقف زمن اكده وكلما اتى عليه عصر او اوان اخلده وسدده فهو محرم بحرمات الله مدفوع عنه بقوة الله متبع فيه مرضات الله لا يوهنه تقادم دهر ولا يبطله انقراض عصر وهذا الواقف المسمى خلد الله سعادته ونعمته يستعدي الى الله عز وجل على من يتصد وقفه هذا بفساد او يرومه بنقض وعناد ويحاكمه اليه ويخاصمه لديه يوم القيامة يوم الحسره والندامة يوم التناد يوم عرض الاشهاد يوم عطش الاكباد يوم يكون الله تع هو الحاكم بين العباد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار « فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم » (٢٧) وقد وقع اجر هذا الواقف المسمى احسن الله اليه على الله العظيم الذي يجزي المتصدقين ولا يضيع اجر المحسنين واشهد مولانا ملك الامراء الواقف المسمى اعلاه ادام الله تع ايامه واعلا اعلامه على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه في هذا الكتاب المبارك بعد قراته لديه واحاطة علمه الكريم بجميع ما تضمنه على الوجه المشروح فيه في اليوم المبارك الثاني عشر من شهر جمادى الاولى سنة ثلاثين وسبعمائة من الهجرة النبوية المحمدية على صاحبها مني الف الف تحية .

مثال

اشهدني مولاي المقر الكريم العالي المولوي الهمامي السيفي ملك الامرا المسمى اعلاه ادام الله ايامه واعلا اعلامه على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه من الوقف المسطور في هذا الكتاب فشهدت عليه بذلك وتلفظ بالوقف اعز الله انصاره بالوقف على الوجه المشروح فيه وكتبه محمد بن عبد الله الشافعي في ثاني عشر جمادى الاولى من شهور ثلاث وسبعين وسبعمائة (٢٨) .

مثال

اشهدني مولاي المقر الاشرف العالي المولوي الناصري الكريمي العادلي الفقيري السيفي ملك الامراء اعز الله انصاره على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه اعلاه فشهدت عليه بذلك وبلفظه بالوقف بحضوري في ثاني عشر جمادي الاولى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (٢٨) .

والله اعلم .

هوامش

(١) يستفاد من السجل رقم (٩٢) من سجلات المحكمة الشرعية في القدس الذي يبدأ في ٩ ربيع ثان ١٠٢٠ وينتهي في ٤ ذي القعدة سنة ١٠٢٠ ان عبد الحليم مصطفى كان قاضي القدس خلال هذه الفترة .

(٢) كذا في الاصل .

(٣) مسلم ، وصية ١٤ ، الترمذي ، احكام ٢٦ .

(٤) المقر : من الالقاب الاصول في زمن المماليك وكان يلي في المرتبة لقب المقام ، وهو لقب السلطان . وفي اواخر القرن السابع اخذ مركزه في الانخفاض فصار يختص بكبار الامراء واعيان الوزراء والعسكريين .

(٥) الكلمة الصحيحة هي المثاغري . وهي تتكرر في الالقاب . وهي بمعنى المرابطي . والكلمة مشتقة من الثغر ، وهي الفرجة التي يدخل منها العدو ، او الحدود بين المتعادين .

وفي صبح الاعشى ج ٦ ص ٧ — ٣٥ شرح لجميع هذه الالقاب الواردة في هذين السطرين على الوجه التالي باختصار :

الاشرف : من القاب المقام والمقر ، وهو افعل التفضيل من الشرف .

العالي : من الالقاب التي يشترك فيها ارباب السيوف والاقلام ، ويوصف به المقام والمقر والجناب والمجلس .

المولوي : نسبة الى المولى (السيد) . للمبالغة وهو من القاب اكابر ارباب السيوف والاقلام .

السيدي : نسبة الى السيد للمبالغة . والسيد من الالقاب السلطانية . والسيدي من الالقاب الخاصة بالجناب الشريف وما فوقه .

الكبيري : نسبة الى الكبير للمبالغة . وهو من الالقاب المشتركة بين ارباب السيوف والاقلام .

العالمي : نسبة الى العالم للمبالغة . والعالم من القاب السلطان . والعالمي من الالقاب المشتركة بين ارباب السيوف والاقلام وان كان المختص في نحتته العلماء .

المرابطي : المرابط من الالقاب السلطانية . وهو الذي يلازم ثغر العدو . والمرابطي نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

المؤيدي : المؤيد (بفتح الياء) من الالقاب السلطانية (وبكسرها) من القاب الامراء . والمراد انه يؤيد الملك والمؤيدي بالكسر من القاب اكابر ارباب السيوف نسبة الى المؤيد للمبالغة

المجاهدي : نسبة الى المجاهد للمبالغة . والمجاهد من الالقاب السلطانية . والمجاهدي من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

الامري : من القاب ارباب السيوف .

المظفري : المظفر من الالقاب السلطانية . والمظفري نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف .

المنصوري : المنصور من الالقاب السلطانية . والمنصوري نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

الهمامي : الهمام من القاب ارباب السيوف . والهمامي نسبة اليه للمبالغة .

التوامي : بفتح التاء من القاب ارباب السيوف وهو نسبة الى التوام ، وهو العدل .

النظامي : من القاب الوزراء ، وهو نسبة الى النظام . والمراد انه يكون به انتظام الامور .

المشيدي : من القاب اكابر ارباب السيوف . من التشييد وهو رفع قواعد البناء .

المهدي : من القاب اكابر ارباب السيوف . نسبته الى المهد وهو الذي يمهد الممالك ويدوخها .

الزعيمي : من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة وهو نسبة الى الزعيم بمعنى السيد والكافل .

(٦) هي القناة التي تعرف بقناة السبيل . وهي ترجع الى القرن الاول الميلادي . وكانت تجلب الماء من ينابيع العروب وبرك سليمان الى القدس . وقد عمرها الحكام المسلمون مرارا ، ومنهم الواقف الامير تنكز الناصري .

(٧) الداوية ، هم فرسان الهيكل الصليبيون (Templars)
وكلمة « الداوية » كلمة محرفة عن كلمة سريانية تعني « الفقراء » اذ ان الاسم اللاتيني الاصلي لهؤلاء هو : Pauperes Commilitions Christi اي فرسان المسيح الفقراء

(٨) كثيرا ما كان المسلمون ينسبون الاشياء القديمة التي لا يعرفون اصلها الى سليمان وداود عليهما السلام خطأ ... ومن ذلك برك سليمان وبرج داود (قلعة باب الخليل) . ومن ذلك ايضا هذا القبو « السليماني » المزعوم .

(٩) كذا في الاصل ، والصحيح « فسي » .

(١٠) اللازورد : معدن مشهور يستخرج من جبال ارمينيا وفارس واجوده الصافي الشفاف الازرق الضارب الى حمرة وخضرة يتخذ للحلي (كلمة فارسية) .

(١١) هذه الكلمات الاربع مكررة .

(١٢) درايزين ودوروبزين وللدرابزون ... كلمة يونانية الاصل .

(١٣) الغرفة او القاعة التي تخلع فيها الملابس في الحمام .

(١٤) الروشن (الجمع رواشن) كلمة فارسية تعني الكوة (في الجدار او ما شاكل ذلك) .

(١٥) النارنج ضرب من الليمون .

(١٦) الجامات جمع جام وهو الكأس (فارسية) .

(١٧) الاشيم والاشمين والتميم : قرن الحمام .

(١٨) حوض الماء .

(١٩) وهي التي تعرف اليوم بالمطهرة ، وكانت تعرف قبلا بالمتوضأ . وقبل ذلك بالسقاية . انشاها الملك العادل الايوبي ، وعمرها علاء الدين ايدغدي وسيف الدين تكز وغيرهما .

(٢٠) السواد — اليوم .

(٢١) اي تابعة لها .

(٢٢) عين قينيا ، قرية في الشمال الغربي من رام الله ما تزال موجودة . مساحة القرية ١٩ دونما . وكان عدد سكانها سنة ١٩٦١ (٢٣٥) شخصا .

(٢٣) جمع « صيرة » : وهي حظيرة البقر او الغنم .

(٢٤) المقصود غنية بالماء .

(٢٥) المعوذتان : قل اعوذ برب الفلق (سورة الفلق) وقل اعوذ برب الناس (سورة الناس) .

وسورة « الاخلاص » و « الفلق » و « الناس » هي السور الثلاث الاخيرة في القران الكريم . روي عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا اوى الى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما « قل هو الله احد » و « قل اعوذ برب الفلق » و « قل اعوذ برب الناس » . (صحيح البخاري ج ٢ ص ١٤٣ ، طبعة بولاق).

(٢٦) الجابكية هي الجراية او المرتب .

(٢٧) يلاحظ اسقاط الهمزة من « القراءة » و « يقرأ » والقارىء وهؤلاء السخ . على جاري العادة زمن المماليك .

(٢٨) الرسالة القشيرية في التصوف كانت مشهورة في القدس .

(٢٩) شماله = شمالة .

(٣٠) مارق الاجزاء كان خازن الكتب في المدرسة .

(٣١) مهندس ، بلغة اليوم .

(٣٢) كذا في الاصل بدلا من « تؤم » .

(٣٣) طوا = حلوى .

(٣٤) وربما خطأ من الناسخ . والمقصود « واحد » .

(٣٥) كان الدينار يزن عادة ٤ر٢٣ غم من الذهب ، والدرهم ٢ر٩٧ غم من الفضة . اما الفلوس فكانت من النحاس . وكان الدرهم يساوي ٢٤ فلسا . اما نسبة الدينار الى الدرهم فكانت ١٠ : ٧ .

(المكاييل والاوزان الاسلامية ، لفالتر هنتس ، توجبة كامل العسلي ص ٩ و ١٠) .

(٣٦) في القدس كان الرطل في العصور الوسطى يساوي ٨٠٠ درهم = ٥ر٢ كغم . وكانت الاوقية ١٢/١ من الرطل .

(المكاييل والاوزان الاسلامية ، ص ٣٢) .

(٣٧) من بدله بعد ما سمعه السخ .. الاية رقم ١٨١ من سورة البقرة .

(٣٨) لم استطع تفسير تاريخ هذين الاشهادين وهو سنة ٧٧٣ ؟ مع ان تاريخ الوثيقة الثابت هو ٧٣٠ . (الامير تنكز توفى سنة ٧٤١)

الفصل الرابع

العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز



العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز

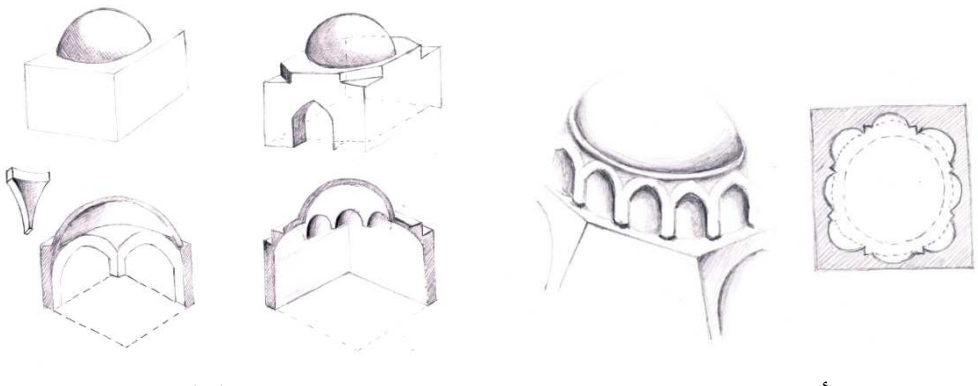
لقد تميزت العمارة المملوكية بشكل عام بمميزات خاصة تمَّ التطرق لذكرها في القسم الثاني من الفصل الأول. ويظهر من خلال تحليل العمارة المملوكية بأنها أقيمت على فلسفة معينة ارتبطت بشكل أساسي مع غاية المُنْشِأ، وهدفه من اقامة البناء، وما اراد ايصاله للمتلقي. فكان لابد من وجود رمز للبناء وقيمة تهدف لأبعد من مجرد الشكل والوظيفة؛ فهذا الرمز يرتبط مع عمق الايمان، أما العناية بالشكل أو لغرض وظيفي فقط، فإنما يؤدي الى الاعتقاد بأنَّ الايمان ارتبط بهدف مادي، مما يؤكد على الأنانية وحبِّ العظمة الشخصية.

ولتحقيق بناء العمارة المملوكية المتميزة فقد تمَّ استغلال عناصر معمارية انشائية وزخرفية مختلفة من قباب، وأعمدة، وعقود، ومقرنصات، ومداخل، وغيرها... . شكلت هذه العناصر جزءاً هاماً من عمارة الأمير تنكز، سيتم بيانها بالآتي:-

4.1 العناصر الإنشائية:

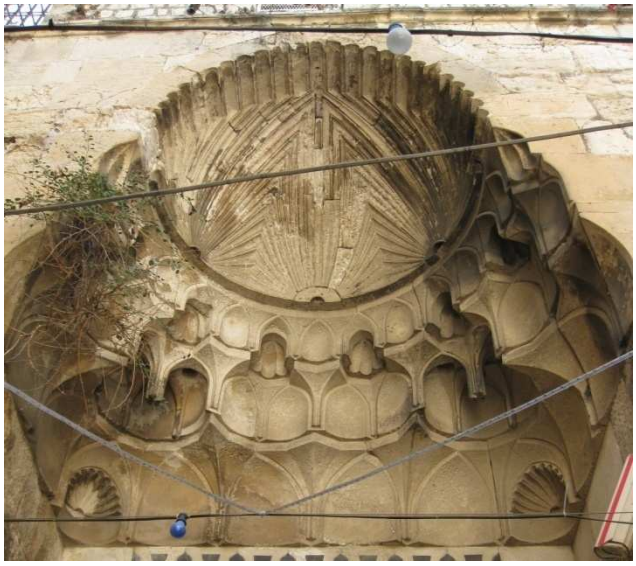
4.1.1 القباب: استعملت القباب في تغطية المسطحات سواء كانت ذات مساحة متسعة أم صغيرة. وقد ظهرت انواع كثيرة من القباب منها النصف كروية؛ التي قد تأتي بشكل قوس دائري أو مدبب قليلاً، أو المضلعة أو البيضاوية، ومنها قباب كبيرة ذات مناور. وتنقسم القباب من حيث طريقة الانتقال والتحول من الشكل المربع الى الدائرة لنوعين: الأول منها هي القباب المحمولة على حنية في كل زاوية من زوايا المربع (Squinches). وقد استعملت في هذه الطريقة المقرنصات كعنصر انشائي في تحويل المسقط المربع الى دائري، عن طريق مجموعة من صفوف القوصرات المتتالية. أما النوع الثاني فهي القباب المحمولة على مثلثات كروية (Pendentives)[1]. وقد تأتي هذه القباب إما محمولة بإحدى الطريقتين السابقتين مباشرة فوق الشكل المربع، أو يفصل بينها وبين الشكل المربع شكل اسطواني (الرقبة) عادة ما تتخلله مجموعة من الفتحات.

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص101؛ حسن، فنون الاسلام، ص154.



(أ) (ب)

رسم توضيحي دون مقياس رسم (للباحثة): (أ) تحويل المربع الى دائرة بطريقة الحنيات Squinches
(ب) تحويل المربع الى دائرة بطريقة المثلثات الكروية Pendentives



صورة 25: القبة أعلى مدخل المدرسة التنكزية
تصوير الباحثة

وتأتي القبة المركزية في المدرسة التنكزية والتي تقع فوق صحن المدرسة، محمولة بطريقة المثلثات الكروية مع استخدام التضليع في القبة والذي يُعرف بـــ ' Folded cross vault' للانتقال الى الشكل الثماني في أعلى القبة والذي يشكل المنور. وقد استخدمت هذه الطريقة أيضاً في غرفة اخرى تقع على مستوى الطابق الثاني في المدرسة. وقد استخدمت القباب في تغطية مساحات غرف اخرى في المدرسة بالطريقة نفسها، لكن دون مناور إنما بأشكال زخرفية في أعلى القبة. أما قبة مدخل المدرسة التنكزية فقد استخدمت نصف قبة كروية الشكل مع مقطع لعقد مدبب الشكل محمولة على مجموعة صفوف من القوصرات التي شكلت المقرنصات.



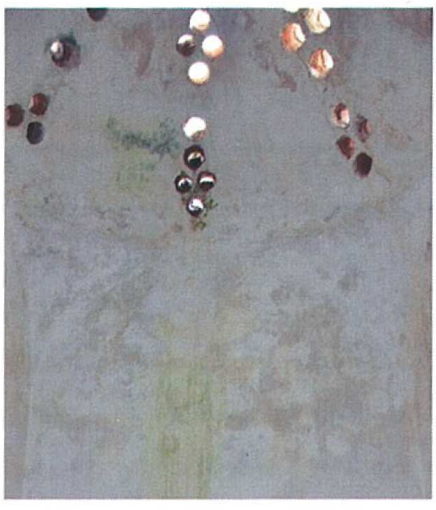
صورة 26: تُظهر التضليع في قبة القاعة الرئيسية في حمام الشفا. (تصوير الباحثة)

وفي باب القطانين الشرقي أيضاً فقد استخدمت نصف قبة كروية ذات مقطع عقد بشكل مدبب قليلاً، محمولة على مجموعة صفوف من المقرنصات والتي استخدمت لهدف انشائي وزخرفي.

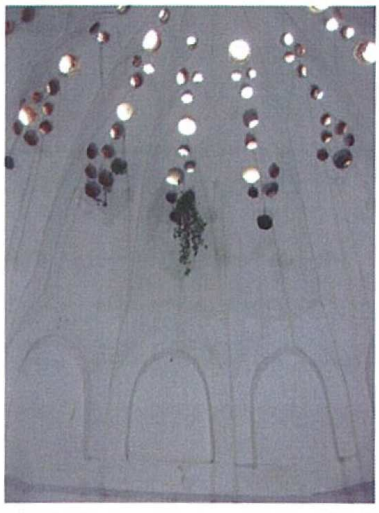
وقد استخدمت ايضاً القبة في القاعة الرئيسية (المشلح) في حمّام الشفا ومحمولة بطريقة المثلثات الكروية مع استخدام

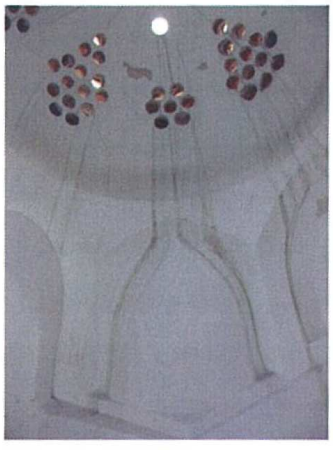
التضليع في القبة (Folded cross vault)، حيث تنتهي في اعلاها بمنور ثماني الشكل. واستخدم ايضاً في الغرفة الباردة قبة محمولة على مثلثات كروية، يتخللها مجموعة من الفتحات الفخارية الاسطوانية الشكل لإدخال الضوء الى داخل الغرفة. أما الغرف الدافئة المتتالية فقد جاء سقفها بشكل قباب بيضاوية الشكل محمولة على مثلثات كروية، وفي الغرفة الساخنة استخدمت الحنيات في زوايا المربع لرفع القبة البيضاوية الشكل.

وفي حمّام العين استخدمت قبة محمولة على مثلثات كروية ذات اتجاهين في القاعة الرئيسية (المشلح)، وتنتهي القبة في منتصفها بفتحة دائرية الشكل (المنور). أما الغرف الاخرى المتعددة في الحمام، فجزء منها مسقوف بقباب دائرية متغيرة الاحجام ومحمولة على مثلثات كروية، والجزء الآخر كالغرفة الدافئة الرئيسية واخرى الملحقة فتقع القبة الدائرية الشكل محمولة على حنيات في الزوايا الأربع، وحنيات اخرى تتوسطها. والغرفة الدافئة الاخرى الملحقة تأتي القبة بشكلها البيضاوي ومحمولة على الحنيات. أما الغرفة الساخنة الرئيسية فتقع قبتها بشكلها المميز على قاعدة مثمنة الشكل، مما دعى الى تقسيم كل مجموعة من الحنيات الثلاث على كل ضلع من اضلاع المثمن، وبالتالي فقد جاءت القبة محمولة على ستة عشر حنية تنتهي بأقواس مدببة الشكل ومكونة من ستة عشر قوصرة. وتتخللها مجموعة من الفتحات الفخارية بشكل زخارف هندسية. وقد تميزت احدى الغرف الساخنة الملحقة بشكل الحنيات حيث تشكلت من قوسين متداخلين على الزوايا وحنيات اخرى بينها، حملت القبة الكروية الشكل التي تتخللها الفتحات الفخارية.



صورة 27: صورة توضيحية من احدى غرف حمام الشفا لطريقة حمل القبة على المثلثات الكروية.





صور 28، 29: صور من داخل حمام العين توضح طريقة حمل القبة على الحنيات، وقبة الغرفة الساخنة الرئيسية المحمولة على ستة عشر حنية. تصوير الباحثة

لقد جاءت هذه القباب سواء في المدرسة التنكزية وباب القطانين وحمامي الشفا والعين من النوع المحمول مباشرة على المسقط المربع أو المثمن الشكل بواسطة المثلثات الكروية أو الحنيات. أما النوع الذي يفصل فيه الشكل الاسطواني (الرقبة) Drum بين المسقط المربع أو المثمن وبين القبة، فقد استخدم في مأذنتي باب السلسلة والغوانمة (صورة 21). فقد تمَّ رفع الشكل المثمن في مأذنة باب السلسلة على المربع، وتخللته بعض الفتحات الصغيرة الطولية الشكل للإضاءة والتهوية، وتم تحويل الشكل المثمن الى دائري عن طريق الرقبة الاسطوانية الشكل، لحمل قبة بصلية الشكل. وفي مأذنة الغوانمة كذلك، فقد تمَّ رفع الشكل المثمن للطابق العلوي على الشكل المربع للمأذنة، وتحويل الشكل المثمن من الداخل الى الشكل الاسطواني عن طريق مجموعة من الاقواس الداخلية، والتي تنعكس من الخارج فتظهر على شكل القوصرات عددها ثمانية، تنتهي كل واحدة بعقد مدبب الشكل.

4.1.2 الأعمدة: استعملت الأعمدة كعناصر حاملة في العمارة عامة، ولكن في الأعمال المعمارية للأمير تنكز والتي تقع قيد الدراسة، لم يكن للأعمدة المستخدمة والظاهرة وظيفة انشائية. ففي الطابق الثاني للمدرسة التنكزية تمَّ استخدام ثلاثة أعمدة[1] دون وظيفة انشائية في اكتاف ووسط النوافذ الواقعة على الواجهة الشرقية لايوان الخانقاة والمطلة على الحرم. كما وقد تمَّ اعادة استخدام أعمدة من عمارة سابقة البناء، كالأعمدة الصليبية الواقعة على جانبي المحراب في الايوان الجنوبي في الطابق الأرضي للمدرسة التنكزية[2]. وفي مأذنة باب السلسلة فقد أُعيد استخدام أعمدة من عمارة سابقة كنوع من الزخرفة على جانبي القوصرات التي تعلوها المقرنصات على الجوانب الأربعة للمأذنة. كما وفي مأذنة الغوانمة فقد تمَّ اعادة استخدام أعمدة على جوانب ووسط اقواس مسمطة على جانبي القاعدة، واستخدام أعمدة على اركان المأذنة الأربع وعند شرفة المؤذن لحمل مظلة السقف.



صورة 30: الأعمدة على جوانب مأذنة باب السلسلة (تصوير الباحثة)

[1] العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص111

[2]. لقد ذكر ذلك Burgoyne بالاعتماد على شكل قواعد وتيجان الأعمدة (Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 237)

4.1.3 الأوتار (Lintels): تمتد الأوتار بين الأعمدة أو في الفراغ بين جدارين، وتستعمل كعنصر انشائي لمقاومة القوى الأفقية الناتجة عن دفع العقود، ولها وظيفة غير انشائية حيث تستعمل لحمل مصابيح الانارة. وقد يعلو فوق هذه الأوتار اقواس، ويظهر ذلك في المدخل الغربي لسوق القطانين، حيث يتكون الوتر من مجموعة من الأحجار المتراصة في منتصفها keystone ويعلوه قوس دائري الشكل، وفي مدخل سوق القطانين الشرقي استخدم وتر مكون من صفّ من ثلاثة احجار يعلوها قوس دائري الشكل. كما ونجد ذلك في بعض واجهات الحواصل في سوق القطانين حيث استخدمت في انشاء هذه الأوتار مجموعة من الأحجار المتداخلة فوق فراغ المدخل، ويُطلق عليه حينها بالقوس المسطح، ويعلوه قوس مدبب الشكل مكون من مجموعة من الأحجار. وفي خان تنكز تمَّ استخدام الوتر على مدخل الصحن الداخلي المكشوف، ويعلوه قوس مكون من ثلاثة احجار ضخمة الحجم.


صورة 31: المدخل الغربي لسوق القطانين (تصوير الباحثة)

4.1.4 العقود أو الأقواس (Arches): استعملت العقود لربط المسافة بين جدارين أو عمودين بشكل أقواس. وقد تنوعت هذه العقود فمنها العقد الدائري، والعقد المدبب، وعقد حدوة الفرس، والعقد ثلاثي الاقواس، وغيرها من اشكال العقود... .

وقد شاع استخدام العقد المدبب في عمائر الأمير تنكز، حيث استعمل في تغطية فتحات الايوانات وفي عقود الشبابيك والأبواب. ففي المدرسة التنكزية استعمل العقد المدبب في اعلى المدخل وعلى فتحة الايوانات الأربعة المطلة على الصحن الداخلي. كما واستعمل هذا العقد في المحراب، وفي الواجهة الخارجية المطلة على الحرم فاستخدم العقد المدبب في اعلى النافذتين في منتصف الطابق العلوي. أما الواجهة المطلة على حارة المغاربة، فقد استخدمت العقود المدببة على الفتحات الثلاثة في اسفل الجدار، كما وفي الطابق العلوي فقد استخدمت هذه العقود على الشبابيك الجنوبية. أما في رباط النساء فقد استخدم نوع آخر من العقود، وهو العقد ذو الثلاثة اقواس Trefoil arch حيث شكَّل أعلى المدخل الرئيسي للرباط، وقد وُجِدَ مثل هذا العقد على الجزء الداخلي للمدخل الشرقي لسوق القطانين. وفي سوق القطانين فقد استخدم العقد المدبب في المدخل الغربي للسوق، كما وفي العقد الخارجي للمدخل الشرقي للسوق، وفي مدخل خان تنكز وفي حمامي الشفا والعين، استخدم هذا العقد في قاعة الاستقبال (المشلح) لحمام العين وفي اعلى القوصرات (الحنيات) الحاملة للقباب في غرف الحمام المختلفة.

وقد استخدم نوع آخر من العقود في حمام العين وهو العقد القوسي او الموتور Segmental arch وهو قوس بشكل جزء من دائرة، حيث ظهر في قاعة الاستقبال على الواجهة الغربية للقوصرة الغربية والمطلة على طريق الواد. كما واستخدم هذا العقد في بعض واجهات مداخل الحواصل في سوق القطانين.




صورة 32، 33: Trefoil Arch في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي ورباط النساء (تصوير الباحثة)

4.1.5 القبوات (Vaults): وهي مجموعة من الأقواس او العقود المتعاقبة او المتداخلة، وتستعمل في تغطية المسطحات. استعملت القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل Barrel vaults، والقبوات المدببة والمتقاطعة Cross vaults ، والقبوات المتداخلة Folded cross vaults في تغطية الايوانات والقاعات والغرف والدهاليز في عمائر الأمير تنكز، سواء أكانت هذه المساحات مستطيلة الشكل او مربعة الشكل. ففي المدرسة التنكزية استخدمت القبوات النصف دائرية في عدة غرف في طوابق المدرسة الثلاثة (الأرضي والميزانين والعلوي)، كما وقد استخدمت القبوات المدببة والمتقاطعة في بهو المدخل الرئيسي للمدرسة وفي تغطية الايوانات الثلاثة في الطابق الأرضي، وفي غرف اخرى في الطابق الأرضي كما وفي طابق الميزانين والطابق العلوي. أما القبوات المتداخلة فقد استخدمت بشكل رئيسي في تغطية صحن المدرسة كما وفي غرفة اخرى على مستوى الطابق الأرضي وفي عدة غرف على مستوى الطابق العلوي. وهذا الشكل من القبوات يوفر امكانية عمل فتحات في السقف للإضاءة والتهوية. وفي رباط النساء استخدمت القبوات النصف دائرية البرميلية والقبوات المدببة والمتقاطعة في تسقيف قاعات وغرف الرباط.



صورة 34: منظر داخلي من رباط النساء، يظهر فيه القبو النصف برميلي الشكل Barrel Vault (تصوير الباحثة)

وفي سوق القطانين فقد استخدم التسقيف بنظام القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل على طول السوق، كما واستخدمت القبوات المدببة والمتقاطعة فوق مساحة الادراج الداخلية عند مدخل السوق الشرقي، وعند مدخل حمام الشفا. وقد استخدم نظام القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز، حيث تنتهي الى منور ثماني الشكل.



صورة 35: نظام تسقيف سوق القطانين بالقبوات النصف برميلية

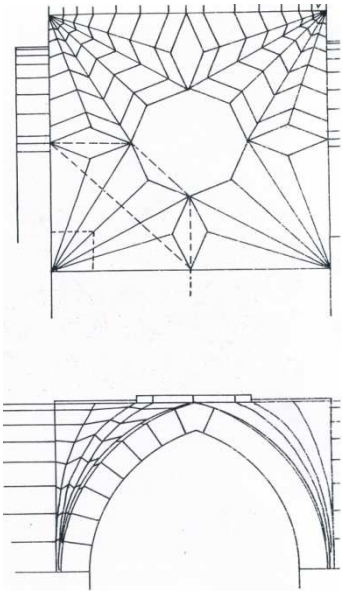
وفي خان تنكز استخدم نظام القبوات النصف برميلية بشكل اساسي، حيث استعملت في تسقيف قاعة المدخل مع استخدام الأقواس المتداخلة، وأيضاً في بقية غرف وقاعات الخان.



صورة 36: القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز (تصوير الباحثة)



صورة 37: القبوات النصف برميلية في قاعة مدخل خان تنكز (تصوير الباحثة)

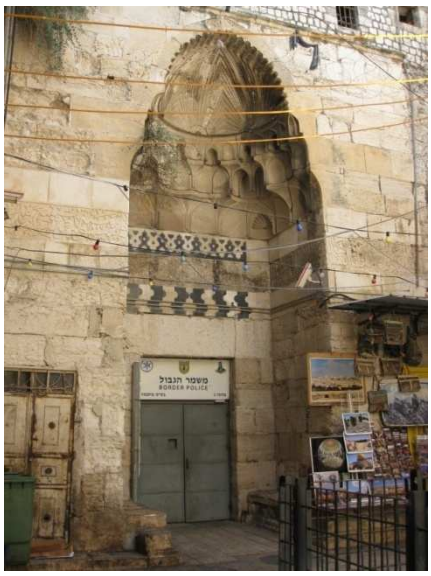


رسم توضيحي للقبوات المتداخلة من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 209

أما حمّام الشفا فقد استخدم في قاعة الاستقبال قبوات متداخلة تنتهي الى منور ثماني الشكل، واستخدمت القبوات النصف برميلية فوق الممر على الجانب الشرقي من الحمام وفي غرفة على جانب الحمام الغربي. وفي حمّام العين استخدم نظام التسقيف بالقبوات النصف دائرية البرميلية فوق درج مدخل الحمام من طريق الواد، ولتسقيف بعض الغرف.

كما واستخدمت القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل في مأذنة الغوانمة لتسقيف الممر المؤدي من باب المأذنة (الواقع على مستوى الطابق الثاني في المأذنة) الى مدخل المأذنة والواقع على الجهة الشمالية. والتسقيف بالقبوات النصف برميلية أيضاً فوق الدرج الحلزوني الشكل داخل المأذنة والمؤدي الى شرفة المؤذن.

4.1.6 المداخل: اتُبع نظام المداخل الشاهقة والمجوفة في بعض عمائر الأمير تنكز، حيث امتد مدخل المدرسة التنكزية تقريباً الى ارتفاع البناء كله، وظهر المدخل بشكل عميق ومجوف، مسقوف بنصف قبة كروية الشكل محمولة على ثلاثة صفوف من المقرنصات. ويقع على جانبي بوابة المدخل مكسلتين، وتفتح البوابة على بهو المدخل (الدركاه) ومنه باب آخر يفتح على صحن المدرسة. وهذا النظام المتبع غالباً في العمائر الاسلامية وذلك لحجب الرؤية المباشرة عن داخل المبنى من الساحة او الطريق العام. وفي رباط النساء صُمم المدخل المرتفع والمجوف ويعلوه عقد ذو الثلاثة اقواس، ويمتد هذا العقد الى الداخل ليشكل عقد مدبب الشكل يقع فوق بوابة المدخل.



صورة 38: مدخل المدرسة التنكزية
تصوير الباحثة

أما مدخل سوق القطانين الشرقي فقد تميز بارتفاعه وعمق تجويفه، ويقع المدخل بشكل بناء منفصل يعلوه قوس مدبب الشكل وقبة نصف كروية محمولة على مجموعة صفوف من المقرنصات. وتقع فتحة تعلوها المقرنصات على كلا جانبي المدخل وتطل على الرواق الغربي. أما الجانب الداخلي من المدخل يقع عقد ذو الثلاثة اقواس مزخرف بالحجارة السوداء والبيضاء اللون (الابلق)، ويرتفع هذا العقد فوق باب القطانين المصنوع من الخشب، والمثبت من الناحية الظاهرة عند فتحه بعدد من الكسوات بشكل أشرطة من النحاس والمزخرفة بكتابات ومثبتة بمجموعة من المسامير النحاسية. وتقع بين الشريطين الأوسطين مقرعة الباب والمصنوعة من البرونز المشغول.

4.1.7 النوافذ: لقد شكَّل عامل الخصوصية والأمان الاساس في تصميم النوافذ وموقعها على واجهات العمائر الاسلامية، ولذلك فقد اتبع نظام للتهوية وللإضاءة من خلال فتحات تطل على الصحن الداخلي، وإنْ دعى الأمر لوجود فتحات خارجية فإنها تكون صغيرة الحجم وتقع فى أعلى الواجهات لحجب الرؤية عن داخل المبنى. كما وقد روعي أمر ايصال القراءات القرآنية والصلوات الى الأفراد عن طريق موقع الفتحات في المباني التعليمية والدينية. وهذا ما يظهر في المدرسة التنكزية، حيث اعتمد أمر الاضاءة والتهوية بشكل اساسي على الصحن الداخلي الذي يعلوه القبة والمنور. وفي الواجهة الشرقية للطابق الأرضي صُممت نوافذ مستطيلة الشكل في الايوان الشرقي للمدرسة حيث يجتمع الشيخ والمحدثين وتُقام الدراسات والقراءات القرآنية والأدعية، وهذه الفتحات نافذة على الرواق الغربي للحرم. كما وقد صممت فتحات مستطيلة



صورة 39: بعض فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية (تصوير الباحثة)

الشكل على الواجهة الجنوبية في الطابق الأرضي واخرى تنتهي بأقواس مدببة الشكل كما في النافذة فوق المحراب، وفتحات اخرى داخلية كالفتحات النافذة بين الايوانات، وهي عبارة عن نوافذ مغلقة بشبكة من المعدن.

وفي الطابق العلوي صُممت فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للخانقاة والمطلة على الحرم، حيث يقع مجمع قاعات اقامة الصلوات للصوفيين، حيث يؤدون دراساتهم وشعائرهم الدينية، وهذه النوافذ مستطيلة الشكل ويعلو النافذتين في القاعة الشمالية الشرقية قوس دائري الشكل، أما النافذتين في القاعة الوسطى فيعلوهما قوسان مدببا الشكل. وبقية النوافذ إما مطلة على سطح المدرسة أو على الساحة الوسطية امام المدرسة أو على المساحة المكشوفة في هذا الطابق، أو تكون فتحات داخلية بين الغرف، وجميعها صُممت لتوفير الاضاءة والتهوية. وفي رباط النساء أيضاً استخدمت فتحات عددها قليل مستطيلة الشكل تعلو الواجهة المطلة على الساحة امام الرباط، أما الغرف الداخلية فقد صممت لها نوافذ داخلية مطلة على الممر او الايوان لتوفير الضوء والتهوية.

وفي الطابق العلوي لسوق القطانين صممت نوافذ مستطيلة الشكل لتوفير الاضاءة والتهوية للرُبَع (المساكن) من داخل ممر السوق. وفي حمّام العين استخدمت نوافذ تطل على طريق الواد، وواقعة في التجويفين الغربيين المطلين على قاعة الاستقبال. أما حمّام الشفا فتقع في شرقي قاعة الاستقبال ثلاثة شبابيك، كانت تطل سابقاً على حديقة النارنج ولكنها الآن غير نافذة وأحدها استخدم كباب للحمام[1]. أما فتحات الاضاءة في غرف الحمام المختلفة سواء حمام الشفا أو العين، فقد استخدمت فتحات المناور التي تعلو القباب في القاعتين الرئيسيتين (الاستقبال) لكلا الحمامين. وفي الغرف الاخرى استخدمت فتحات دائرية الشكل مكونة من مجموعة من الاسطوانات الفخارية وتعلوها طبقة من الزجاج، البعض منه ملون.

[1].العسلي، وثائق مقدسية، مج 1، ص111.

أما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة فقد صممت الفتحات بشكل طولي يتناسب مع شكل المأذنة الممتد الى أعلى، وهذه النوافذ توفر الاضاءة والتهوية على مختلف طوابق المأذنة، تنتهي بعض هذه النوافذ بأقواس دائرية الشكل. كما استخدم الشكل المربع للنوافذ الواقعة على الطبقة الاسطوانية الشكل اسفل القباب. وفي مأذنة الغوانمة استخدم الشكل الثماني في بعض فتحات النوافذ الواقعة على مستوى الطابق الرابع في المأذنة.

لقد كانت النوافذ في المباني تُغلق من الخارج بشبكة من الحديد تُعرف بالمصبعات الحديدية، تتكون من قضبان اسطوانية الشكل، تتقاطع مع بعضها افقياً ورأسياً. ويتم تثبيت القضبان الأفقية أولاً في فجوات مخصصة لذلك على حافتي النافذة، تتخلل هذه القضبان كرات مجوفة يتم انزال القضبان العمودية لاحقاً في هذه الكرات بشكل عمودي قبل أنْ يُثبت وتر النافذة. وتُغلق النافذة من الداخل بواسطة باب بمصراعين إما مدهون أو مُطعَّمْ بالعاج والأبنوس[1].



صورة 40: مأذنة الغوانمة من الناحية الجنوبية تظهر فيها فتحات النوافذ (تصوير الباحثة)

4.1.8 السلالم: تُعمل السلالم للانتقال من مستوى طابق الى مستوى طابق آخر. وتتكون السلالم من الشاحط Flight المكون من عدد من الدرجات، والمسطبة Landing. وقد صُممت السلالم في المدرسة التنكزية للانتقال من مستوى الطابق الأرضي الى طابق الميزانين ثمَّ الى الطابق العلوي. ويستند السلم على الحائط الجنوبي لبهو المدخل، حيث ترتفع عدة درجات الى المسطبة الأولى التي يقع فوقها جزء من طابق الميزانين، ثمَّ ترتفع درجات اخرى في شاحط بين جدارين الى مسطبة اخرى مكونة من عدة درجات، ثم الدخول مباشرة الى طابق الميزانين دون وجود مسطبة، واستمرار الادراج حتى يتم الوصول الى مستوى الطابق العلوي.



صورة 41: الدرج الحجري المؤدي الى مدخل مأذنة الغوانمة الواقع على مستوى الطابق الثاني (تصوير الباحثة)

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص109-111.

ويقع هذا الجزء الاخير من السلالم بشكل منفصل جزئياً عن المبنى حيث أنَّ له بناء صغير لتغطية السلالم. وهناك سلالم اخرى ثانوية يقع مدخلها من الجدار الشرقي للمدرسة تحت الرواق الغربي للحرم، وترتفع عبر هذا الجدار وتصل الى الطابق العلوي لسكن الصوفية ثم الى سطح المدرسة[1].

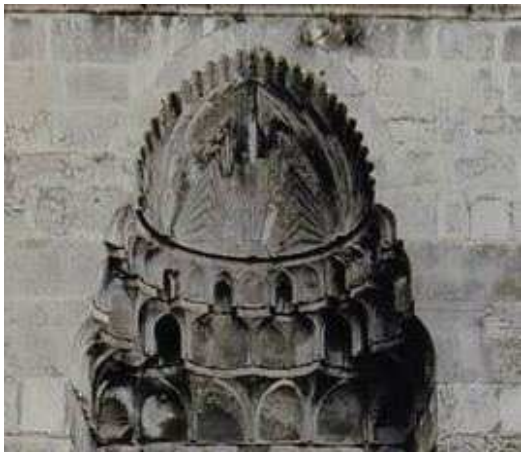
وفي سوق القطانين صممت عدة سلالم للوصول الى الرُبَع على الطابق العلوي للسوق. بعض من هذه السلالم نافذة من داخل السوق وبعضها مجاور للسوق. كما واستخدمت سلالم في داخل حمام العين من مدخله على طريق الواد، حيث يتكون من شاحط يشتمل على ثماني درجات ومسطبتين واحدة عند المدخل واخرى عند باب صالة الحمام، وتقع هذه السلالم بين جدارين جزء منها يقع اسفل الحاصل الأول في سوق القطانين. أما خان تنكز فقد استندت سلالم خارجية على الجزء الشمالي الشرقي من الجدار الشمالي للساحة المكشوفة، حيث يتم الوصول من خلالها الى الطابق العلوي في الخان. أما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة فقد استخدمت السلالم الحلزونية الشكل في داخل المأذنتين للوصول الى شرفة المؤذن، وتستند هذه الدرجات مكان اتساعها على جدار المأذنة. ويظهر سقف سلالم مأذنة باب السلسلة بشكل متدرج حيث يتشكل من الجانب الآخر من السلالم العلوية، أما في مأذنة الغوانمة فقد استخدم القبو البرميلي الشكل في سقف السلالم الداخلية[2]، واستخدمت سلالم خارجية للوصول الى المدخل الواقع على مستوى الطابق الثاني من قاعدة المأذنة. وتتكون هذه السلالم من عدة شواحط ومساطب ترتفع باتجاه الشمال ثم باتجاه الغرب، وتستند على جدار بناء يقع على ساحة الحرم، وفي الجانب الآخر من السلالم يقع درابزين حجري.

4.1.9 المقرنصات: استعملت المقرنصات كعنصرانشائي أو كعنصر زخرفي في العمارة الاسلامية، وقد تستخدم هذه المقرنصات كعنصر انشائي وفي ذات الوقت تخدم كعنصر زخرفي. وحيث استخدمت المقرنصات كعنصر انشائي فذلك لتحويل المسقط المربع الى دائرة عن طريق عمل محاريب Squinches في الزوايا لتقوم فوقها رقبة القبة الدائرية الشكل أو المثمنة. وتتكون المقرنصات من مجموعة من الصفوف كما يظهر في مدخل المدرسة التنكزية ومدخل سوق القطانين الشرقي، حيث تمَّ تحويل التجويف القائم الزاويا الى نصف قبة كروية الشكل.

[1]. العمري، مسالك الابصار، ج1، ص163.

[2]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.182 p. 248

كما ويظهر ذلك ايضاً في مجموعة من الغرف في حمامي الشفا والعين، حيث تمَّ تحويل المسقط المربع للغرف الى قباب عن طريق المحاريب في الأركان وعلى اضلاع المربع، لتقوم فوقها القباب الدائرية أو البيضاوية الشكل.







صورة 42، 43: المقرنصات في اعلى مدخل المدرسة التنكزية.
من موقع http://Archnet.org
Image ID: ICR2038, ICR2039
Courtesy of the Creswell Archive



صورة 44، 45: المقرنصات في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي.
(تصوير الباحثة)

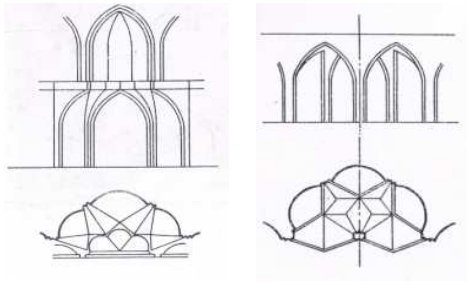
4.2 العناصر الزخرفية :

لقد شكلت العناصر الزخرفية وحدات هامة ومكملة لعمائر الأمير تنكز. وقد ارتكزت هذه العناصر على قيم فنية تشكيلية اساسها طبيعة معالجة المساحة من خلال اللون، والخط، وتوظيف التباين بين الظل النور، وملمس السطح، والايقاع؛ حيث أنَّ تكرار وحدات زخرفية على ايقاع معين إنما يؤدي الى تكوين وحدة متكاملة من العنصر الزخرفي، والذي يحقق تبعاً لذلك الصفة الجمالية. وقد ارتكز نمط الزخارف على اشكال زخرفية سواء نباتية أو هندسية أو باستعمال الخط، وتوجد في بعض الاحيان زخارف هندسية مع زخارف نباتية في مسطح واحد، أو زخارف نباتية مع كتابات

في مسطح واحد. وقد تشكلت الزخارف النباتية بتعبير تجريدي من اشكال اوراق الاشجار وفروع النباتات بشكل منحني ومتشابك ومتتابع (والذي عُرف بزخارف الأرابيسك)[1]. أما الزخارف الهندسية فتعتمد على تشكيل خطوط ممتدة ومتداخلة وتكرارها بايقاع منتظم، والزخارف الكتابية اعتمدت على نص الآيات القرآنية ونصوص تاريخية.

أما أبرز العناصر الزخرفية التي شكلت عنصراً جمالياً في عمائر الأمير تنكز فهي:

4.2.1 المقرنصات: بالإضافة الى استخدام المقرنص كعنصر انشائي في عمائر تنكز كما تمَّ ذكره سابقاً في نص الحديث عن العناصر الانشائية، فإنه قد استخدم كذلك كعنصر زخرفي. حيث تمَّ التشكيل بالمقرنصات في مدخل المدرسة التنكزية والمدخل الشرقي لسوق القطانين (باب القطانين)، مضيفاً صفة جمالية لهذه المداخل عن طريق التنسيق بين الظل والنور الناتج من تباين السطوح البارزة وغيرها المغمورة في المقرنصات. وقد ظهرت المقرنصات كمجموعة من صفوف القوصرات (التجاويف) عددها ثلاثة صفوف في المدرسة التنكزية وتحمل فوقها نصف القبة الكروية الشكل بعقد مدبب. وفي مدخل سوق القطانين استخدمت خمسة صفوف من المقرنصات تحمل فوقها نصف القبة الكروية الشكل. ويسمى هذا النوع من المقرنصات تبعاً لشكله بالمقرنص بدلاية (Stalactite). وعلى جانبي المدخل تقع فتحتان تطلان على الرواق الغربي، والتي تعطي مضمون الاستمرارية للرواق حتى لا يُشكل بناء مدخل السوق عائقاً يحجب هذه الاستمرارية. ويعلو هذه الفتحات صفين من المقرنصات بدلاية. وفي داخل سوق القطانين عند الحاصل رقم 17و18 يقع مقرنص بثلاث صفوف في أعلى القبو، وقد نُقش عليه اسم المهندس محمد بن أحمد بن غليش، وهو المهندس القائم بالعمل[2]. وهذا النوع من المقرنصات يُعرف بالمقرنص البلدي.



(ب) (أ)

(أ) شكل مقرنص بدلاية
(ب) شكل مقرنص بلدي
من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 100

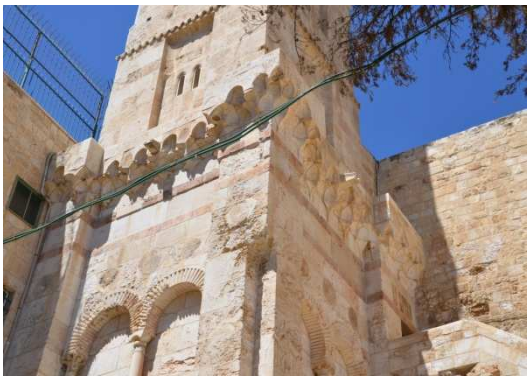


صورة 46: احدى الفتحتين الواقعتين على جانبي مدخل سوق القطانين، وتظهر المقرنصات بدلاية في اعلاها.
(تصوير الباحثة)

[1]. حسن، فنون الاسلام، ص250.

[2] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.98 p.278.

وفي مأذنة باب السلسلة تقع ثلاث صفوف من المقرنصات في اعلى القوصرات الواقعة في الطابق اسفل شرفة المؤذن. كما أنَّ هناك صفّ من المقرنصات الغير مكتمل يقع على الشريط الفاصل بين الطابق الثالث وشرفة المؤذن. وفي مأذنة الغوانمة استخدمت ثلاث صفوف من المقرنصات في أعلى الطابق الثاني للقاعدة. كما ويفصل صفّ من المقرنصات بشكل شريط الطابق الرابع عن الطابق الخامس للمأذنة. ويقع صفين من المقرنصات اسفل شرفة المؤذن، تشكل منظراً جمالياً للشرفة.



صورة 47: صفوف المقرنصات في اعلى الطابق الثاني لقاعدة مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

4.2.2 القوصرات: هي عبارة عن تجاويف مسمطة تعلوها عقود مدببة أو مقرنصات، وقد تُنَظم داخل هذه القوصرات فتحات. استخدمت لإعطاء تنويع للمسطحات تفادياً للملل، كما وقد استخدمت بشكل ايقاعي في تحويل المسقط المربع الى دائرة لحمل القبة. وقد استخدمت القوصرات بشكل ظاهر في مأذنة الغوانمة حيث تقع في الجزء الأسفل الشرقي والجنوبي من القاعدة قوصرات بشكل مستطيل يعلوها شريط من المقرنصات، وفي الجزء العلوي من القاعدة تقع قوصرات يعلوها قوس على هيئة حدوة الفرس، ثمَّ يقع على مختلف طوابق المأذنة قوصرات بتجاويف بسيطة يعلو البعض منها أقواس مدببة الشكل وتنظم في داخلها فتحات النوافذ.



صورة 48: القوصرات في مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

وفي الجزء العلوي المثمن الشكل فوق شرفة المؤذن تقع قوصرات على جميع الجوانب وتعلوها اقواس مدببة الشكل وتتخللها فتحات صغيرة. وفي مأذنة باب السلسلة تقع تجاويف بشكل دائري على واجهة الطابق الثاني من المأذنة، ويعلوها في الطابق الثالث قوصرات تتخللها نوافذ طولية، ويقع على جوانب كل منها أعمدة وتعلوها في الواجهة الشمالية والجنوبية ثلاث صفوف من المقرنصات بخمس وحدات، أما في الواجهة الشرقية والغربية فتقع الثلاث صفوف من المقرنصات بثلاث وحدات.

أما في داخل البناء فقد استخدمت القوصرات في الحمامات، حيث تظهر عدة قوصرات أسفل القباب بشكل محاريب صغيرة، كما في حمام العين. أيضاً صممت عدة قوصرات على جدران الحمامات الداخلية وفي الطابق العلوي من سوق القطانين في داخل الرُبع، وذلك لاستخدام الوافدين

الى الحمام أو الرُبع، والبعض منها ثُبتت بداخلها احواض المياه الرخامية، وغالبية هذه القوصرات تعلوها عقود مدببة الشكل.

4.2.3 المداميك الملونة (الأبلق): استعملت المداميك الملونة باستخدام الأحجار الجيرية البيضاء اللون مع الرخام الملون سواء الأحمر أو الأسود أو الأصفر. وقد تمَّ تطبيق هذا الاتجاه في تبادل الوان الاحجار كعنصر زخرفي لاحياء الواجهات وتنوع التعبير الزخرفي عليها وابراز عناصرها. ففي مدخل باب القطانين الشرقي يظهر الأبلق باللونين الأحمر والكريمي(البيج) على العقد المدبب الشكل في اعلى المدخل. كما واستخدم الأبلق باللونين الأسود والبيج في العقد ذو الثلاثة أقواس الذي يعلو باب المدخل، ويظهر الأبلق في القسم الأوسط من العقد بشكل شعاعي.



صورة 49: الصنج الحجرية في اعلى باب المدرسة التنكزية (تصوير الباحثة)

وفي الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية استخدم الأبلق باللونين الأصفر والأسود[1] في العقد المدبب فوق النافذتين في القاعة الوسطى للطابق العلوي المخصص للصوفيين، ولكنها تظهر حالياً باللونين الأصفر والأبيض.

4.2.4 الصنج الحجرية المعشقة (اللحامات المتداخلة): تُعتبر الصنج المعشقة كنوع من الأبلق ولكن بتشكيل متداخل وبأشكال هندسية أو نباتية. وتستعمل في النواحي التشكيلية الزخرفية فوق فتحات الأبواب والنوافذ، كما ولها هدف انشائي في حال وقوعها فوق فتحة الباب مباشرة، حيث أنَّ قوة الرابط فيما بينها تشكل تماسكاً لعقد الباب. ففي مدخل المدرسة التنكزية، استخدم صفين من الصنج الحجرية المعشقة باللونين الاسود والابيض كعنصر زخرفي، الأول يقع بين عقد الباب والشريط الكتابي، والثاني يقع فوق الشريط الكتابي، وقد اتخذ الصفين الاشكال الهندسية المتداخلة، البسيطة في الصف الأول والمعقدة في الصف



صورة 50: رسم باب القطانين من داخل السوق، للفنان Bauernfeind, Gustav 1886

[1].العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص111.

الثاني. كما وتظهر الصنج المعشقة فوق الفتحتين على جانبي باب القطانين من الداخل باللونين الأسود والأبيض كعناصر زخرفية. أما بعض دكاكين سوق القطانين والمتواجدة في الجزء الشرقي من السوق، فقد استخدمت الصنج المعشقة لوظيفة انشائية حيث شكلت الأوتار فوق فتحات الدكاكين، وتحمل فوقها العقود.

4.2.5 الشريط الكتابي: استخدم الشريط الكتابي كعنصر زخرفي على واجهات المباني أو في داخل البناء. وقد استخدم نص الآيات القرآنية بشكل يتلائم وطبيعة استخدام المكان، مثل أنْ تُستخدم النصوص التي لها علاقة بالقبلة فوق المحراب، أو الآيات القرآنية التي لها علاقة بتعمير المساجد توجد على ابواب المساجد واماكن العبادة، وهكذا... . كما وتضمنت الكتابات على معلومات تعريفية تخص الباني وسنة البناء وشعار القائم بالبناء (الرنك). وقد استخدمت الالوان في الكتابة، من بينها الطراز المُذَّهَب[1] كما في المدرسة التنكزية، حيث امتد شريط كتابي مُذَهَب على جوانب المدخل وفوق باب المدخل بين صفي الصنج الحجرية المعشقة. ويتضمن الشريط رنك الأمير تنكز وهو الكأس داخل دائرة في ثلاث مواضع، على الجوانب القائمة مع جدار المدخل وفوق الباب مباشرة. ونَصْ النقش الكتابي يشتمل على البسملة ثم هدف انشاء البناء (لنيل رضوان الله وغفرانه) واسم القائم بالبناء وسنة البناء[2].

وقد استخدم الشريط الكتابي كعنصر زخرفي في داخل البناء لربط المستويات مع بعضها (الأفقية والعمودية)، أو لوصل رقبة القبة أو العقد مع السطح العمودي، كما يظهر في داخل المدرسة التنكزية؛ حيث يقع شريط كتابي على جدران المدرسة الداخلية يمتد على جدران الايوانات، ويختلف عرضه في بعض الجوانب حيث يقل فوق محيط المحراب وفوق فتحات الابواب والنوافذ.

وفي مدخل سوق القطانين الشرقي (باب القطانين)، اشتملت البوابة على نص كتابي بموضعين؛ الأول: النص المكتوب على الشريط النحاسي الواقع على مصراعي الباب الخشبي لباب القطانين، والذي ينص بأنَّ هذا الباب المبارك قد جُدِدَ في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، مع

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109.

[2] . Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 223

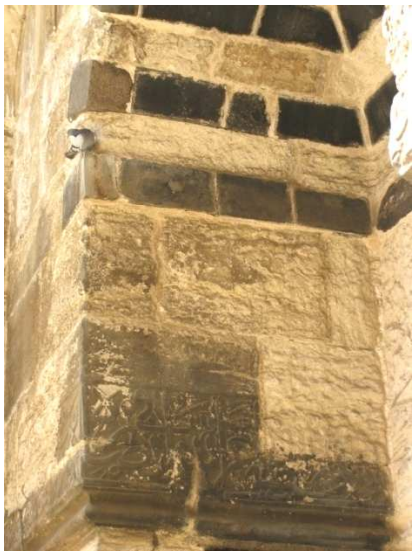


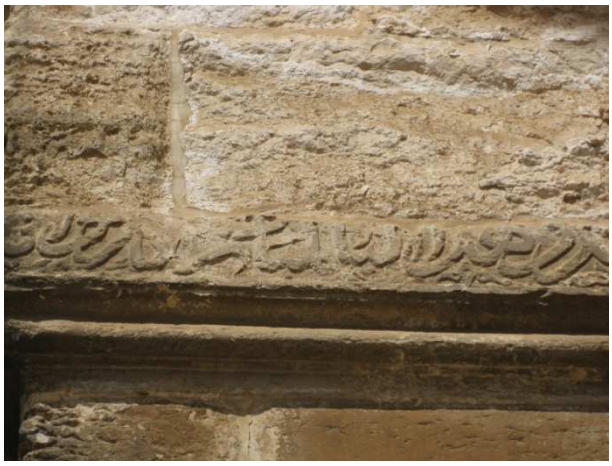


صورة 51، 52: باب القطانين الخشبي والشريط النحاسي الواقع عليه. (تصوير الباحثة)

ذكر القابه والدعاء له، بإشارة من الأمير تنكز حامي الممالك الشامية، وذكر أدعية له ثم تاريخ البناء. والثاني: شريط كتابي نُقِشَ بالطراز المذهب[1] ويقع اعلى وتر (عتب) الباب، ينص ما بقي منه ظاهراً على البسملة وعلى نقشْ خاص بتجديد فتح الباب في عهد السلطان الناصر محمد بإشارة من الأمير تنكز والدعاء له وتاريخ البناء.

وفي خان تنكز يقع الشريط الكتابي في بهو المدخل منقوشاً على وتر مدخل الساحة المكشوفة للخان، ويظهر رنك الأمير تنكز(الكأس داخل دائرة) في ثلاث مواضع؛ في منتصف النص الكتابي على الوتر، وعلى الجدارين الجانبيين الداعمين للوتر، ويشتمل نص الكتابة على البسملة ثم نص بناء هذا المكان (السوق والرُبَع اعلاه) بأمر من الأمير تنكز والدعاء له وتاريخ البناء.

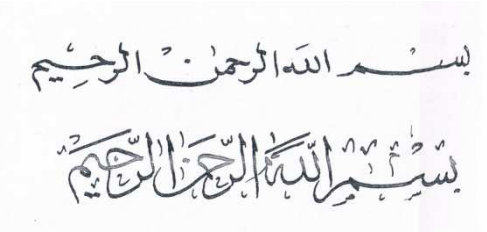




صورة 53، 54: الشريط الكتابي المنقوش الواقع اعلى باب القطانين الشرقي. (تصوير الباحثة)

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162.

أما طراز الخط الذي استعمل في الأشرطة الكتابية، فقد تنوع بين الخط النسخ والخط الثلث، والغالب هو الخط الثلث. وهناك تشابه بين الخطين، مع فارق أنَّ خط النسخ تتميز حروفه بالزوايا الحادة أما حروف الثلث فهي ذات زوايا مرنة. وامتازت بتداخل كلماتها في بعضها البعض وبكثرة تشكيل الحروف[1].



الفرق بين خط النسخ والثلث الظاهر بالبسملة. من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 134ب

4.2.6 الرنك: استعملت الرنوك كختم لتمييز الأمير، وهي تدل على المرتبة والمكانة المتميزة التي وصل اليها[2]، فالكأس يشير الى الجاشنكير(ذواق السلطان) أي المُؤَمَنْ على حياة السلطان، وقد نُقِشت في عدة مواضع تتخلل النص الكتابي في الأشرطة الكتابية، وقد تمَّ توضيح موقعها سلفاً في خلال ذكر الشريط الكتابي. كما وقد ظهرت على المشكاة الخاصة بالأمير تنكز.



صورة 55: رنك الأمير تنكز (الكأس داخل حلقة) الواقع اعلى مدخل ساحة خان تنكز. (تصوير الباحثة)

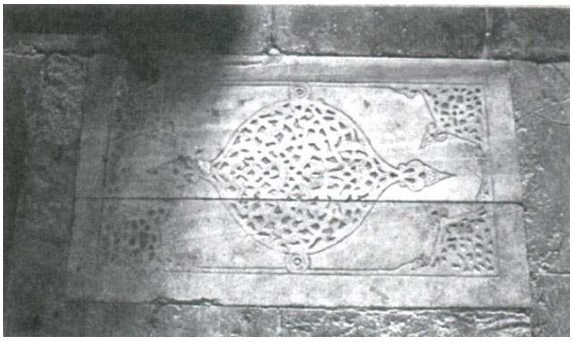
4.2.7 التكسيات الرخامية: يتم تكسية الحوائط الداخلية بالرخام خاصة في المباني الدينية كنوع من الاظهار الجمالي لداخل البناء، حيث يتم استخدام الرخام الملون بإيقاع معين. ويتخلل التكسية احياناً تكوينات بأشكال هندسية، كما ويتم حفر الرخام بأشكال هندسية أو نباتية. ويظهر ذلك في داخل المدرسة التنكزية حيث تمتد التكسيات الرخامية الملونة على جميع جدران المدرسة الداخلية[3] بارتفاع حوالي ثلاثة امتار، حيث تمتد الى بداية عقد المحراب في حائط القبلة وتتخللها الواح رخامية منقوشة بأشكال زخرفية، ويعلوها الشريط الكتابي. وتظهر ايضاً التكسيات الرخامية في

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص65.

[2]. يُمكن النظر الى شرح عن الرنوك في: مقالات أثرية بالمناسبة العشرية، مقالة "رنوك مملوكية من تل تعنك" لنائل جلال، في الصفحات من 132-134.

[3]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109.

الايوان الجنوبي حيث تمتد الواح رخامية بشكل طولي على جانبي المحراب، ويعلوها الواح رخامية ملونة باللون الأحمر الداكن، محاطة بأشرطة مزخرفة باشكال نباتية، ويعلوها شريط آخر مزخرف باشكال اقواس مسمطة ومزخرف داخلها بموزاييك الرخام بأشكال هندسية. أما المحراب فيمتد من الاسفل على شكل اقواس مسمطة ملونة ومزخرفة يعلوها الواح طولية من الرخام متعاقبة الالوان، الابيض والاحمر او الاخضر، ويعلوها شريط كتابي نصه" ... اتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا". ويعلوه نصف القبة الكروية المزخرفة باشكال نباتية والوان متعددة منها الأخضر والذهبي.. محاطة من الداخل بأشكال هندسية على شكل مثلثات متتابعة. ويحيط بقبة المحراب من الخارج تكسية رخامية باشكال هندسية متداخلة يعلوها الشريط الكتابي. وفي مسجد الخانقاة في الطابق العلوي للمدرسة، تمتد التكسيات بالرخام الملون على جدار المسجد والمحراب[1].





صورة 56، 57: بعض التكسيات الرخامية داخل المدرسة التنكزية.
من موقع: http://Archnet.org
Image ID: ICR2043, IMG27015
Courtesy of the Creswell Archive, Ashmolean Museum. And Michael Hamilton Burgoyne.

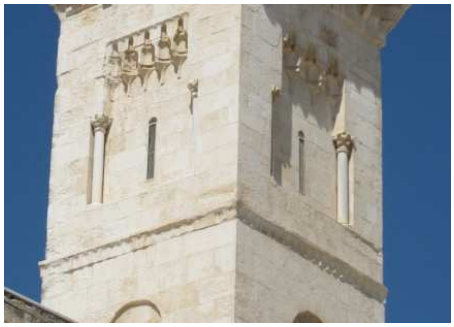




صورة 58، 59: محراب مسجد المدرسة التنكزية في الايوان الجنوبي.
من موقع: www.aqsaonline.org

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111؛ Kenney, Power and Patronage in Medieval Syria, p. 104

4.2.8 الكورنيش: وهي عبارة عن اشرطة بارزة تمتد وتحدد مساحة معينة أو ارتفاع معين. وقد تظهر بشكل خط ممتد أو يتخللها اشكال زخرفية. استعملت في باب القطانين بشكل بروز يفصل واجهة المدخل بشكل افقي، ويرتفع الى مستوى بداية عقود الفتحات. كما واستعملت في مأذنة باب السلسلة ومأذنة الغوانمة بشكل بروز يحيط بالمأذنة من جوانبها الأربعة ويحدد طوابق المأذنة من الخارج، ويظهر بشكل سلسلة من المقرنصات وأيضاً بشكل محاريب صغيرة مفرغة.



صورة 60: الكورنيش بشكل محاريب في مأذنة باب السلسلة



صورة 61: الكورنيش بشكل مقرنصات ومحاريب مفرغة في مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

لقد شكلت هذه العناصر الزخرفية بمختلف وحداتها وتشكيلاتها النباتية أو الهندسية أو الخطية مع العناصر الانشائية سواء الداخلية أو الخارجية طرازاً معمارياً مميزاً لعمائر الأمير تنكز، توحدت فيه اشكال عمارته واتخذت بُعداً معمارياً وزخرفياً، فأصبحت معالم مميزة في ظل فن العمارة الاسلامية.

4.3 المواد المستخدمة في البناء :

4.3.1 الحجر: استعمل الحجر كمادة انشائية اساسية في عمائر تنكز، وذلك لتوفره في محيط المنطقة نسبياً الى توفر مواد انشائية اخرى كالطوب أو الخشب الذي يندر توفره. كما أنَّ الحجر كمادة انشائية تعطي صفة الصلابة والتوازن والديمومة، ولذلك فقد طغت المنشآت من الحجر على أي مادة اخرى. وحيث أنَّ مدينة القدس تقع على منطقة جبلية تحيطها الوديان، فقد توفرت مناطق كمحاجر لاقتلاع الاحجار على مختلف انواعها وصلابتها، اساسها الحجر الجيري، وقد يتوفر مع مادة اخرى أو تتباين نسبة صلابته[1]، وقد يتباين لونه. كما وقد استخدم الحجر الاسود خاصة في اضفاء التباين في الوان الحجر (الابلق)، والذي عُرف بحجر موسى، حيث تمَّ جلبه من المنطقة المحيطة بمقام النبي موسى شرق مدينة القدس على طريق البحر الميت[2].

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 41.
[2]. Burgoyne, The Noble Sanctuary, p. 207.

وقد تمَّ استخدام مادة الحجر في جميع عمائر الأمير تنكز كمادة انشائية اساسية، وفي داخل البناء كذلك حيث استخدم الحجر في عقود اواوين المدرسة وفي ارضياتها المبلطة باللون الابيض وفي بركة الماء داخل صحن المدرسة، كما وقد استخدم في الادراج الداخلية في المدرسة، وفي الحمامين في المساطب والادراج وبعض الاحواض وبركة غرفة الاستقبال في حمام العين، وقد استخدمت مادة الكلس مع الحجر[1].

4.3.2 الرخام: استخدم الرخام الملون في عدة مواضع في عمائر الأمير تنكز، وقد كان يتم جلب الرخام الملون باللون الوردي من محاجر بالقرب من مدينة بيت لحم، والرخام باللون الاصفر من منطقة دير ياسين على بعد حوالي 5 كم غرب مدينة القدس[2]. وقد استخدم الرخام في تشكيل الابلق وفي الصنج الحجرية المعشقة في الواجهات، كما في باب القطانين ومدخل المدرسة التنكزية، وفي اعلى الحواصل داخل سوق القطانين. وقد استخدم الرخام الملون في ارضية المدرسة على مختلف الطوابق، كما وفي تكسية الجدران بالرخام الملون وفي المحراب سواء في الايوان الجنوبي للمدرسة أو مسجد المدرسة في الطابق العلوي، حيث استخدم الرخام بتشكيلات هندسية (موزاييك الرخام). وفي حمامي الشفا والعين استخدمت الأرضيات الرخامية الملونة، وايضاً التشكيلات الرخامية خاصة الاشكال النجمية وهو ما يُعرف بالاطباق النجمية، والتي بقي منها ظاهراً في الغرفة الدافئة الملحقة الغربية في حمام العين[3]. كما واستخدم الرخام في احواض المياه وفي البركة الواقعة في غرفة الاستقبال في حمام الشفا.

4.3.3 الفخار: استخدمت مادة الفخار بشكل اسطوانات في الفتحات التي تتخلل القباب في غرف حمامي الشفا والعين للسماح بدخول الضوء الى داخل الحمام. ويتم تثبيتها بحيث تظهر بتشكيلات زخرفية على القباب، وتكون مغطاة بالزجاج بعضه ملون.

---

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109–112.

[2].Burgoyne, The Noble Sanctuary, p. 207

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 291

4.3.4 الخشب: لم تكن مادة الخشب هي المادة الاساسية في الانشاء وذلك لصعوبة الحصول عليه وقلة توفره في المنطقة. ومع ذلك فقد وُجدت بعض الاسقف الخشبية، حيث تبين الوقفية بأنَّ بعض الغرف في طابق الميزانين والطابق العلوي للمدرسة مسقوفة بالخشب، كما أنَّ المسجد العلوي والايوان شماله والمجلس سقوفها من الخشب المنجور المزخرف والملون بألوان اللازوردي والذهبي. وقد شاع استخدام الخشب في الابواب والنوافذ، حيث تنص الوقفية على استخدام خشب الجوز لمصراعي باب المدرسة التنكزية بصفائح نحاس اصفر اللون، وفي مصراعي ابواب الغرف في داخل المدرسة والتي في العادة تُدهن. وفي النوافذ فقد استخدم الخشب لمصراعي بعض النوافذ في المدرسة التنكزية والمُطَعَّم بالعاج والابنوس[1].



صورة 62: الاشكال الهندسية التي تُشكل الطبقة الخارجية من باب القطانين. من موقع www.alaqsa-online.net

واستخدم الخشب في باب مدخل سوق القطانين الشرقي ومكون من عدة الواح خشبية بشكل طولي، فيه حشوة الباب مزدوجة بحيث يظهر القسم أو الطبقة الداخلية باتجاه السوق بشكل مغاير عن الطبقة الخارجية. فالطبقة الداخلية مكسوة بأشرطة نحاسية مزخرفة بالكتابات تعمل على تثبيت الالواح الخشبية ببعضها البعض، ومثبتة بواسطة فصلات نحاسية بشكل نصف كروي، وفي اعلاه عدة فصلات بارزة. أما الطبقة الخارجية والتي في العادة تكون غير ظاهرة حيث يتم فتح مصراعي الباب، إلا أنها تتشكل من مجموعة من الالواح الخشبية والتي تأخذ اشكال هندسية.

4.3.5 المعدن: استخدم معدن الحديد في المصبعات الحديدية لتوفير الحماية على فتحات النوافذ، وهذه المصبعات مكونة من قضبان اسطوانية منظمة بشكل رأسي وأفقي. وقد استعملت هذه المصبعات في جميع فتحات النوافذ والتي تكون في الغالب بشكل مستطيل على واجهات المدرسة التنكزية ورباط النساء وسوق القطانين في الرُبَع وحمامي الشفا والعين، ايضاً في داخل البناء على الفتحات بين الغرف وبين الايوانات والغرف في المدرسة.

أما النحاس فقد استخدم بشكل كسوة من صفائح المعدن مثبتة على الباب الرئيسي لمدخل المدرسة التنكزية، وعلى باب القطانين حيث استخدمت اشرطة من النحاس لتثبيت الالواح الخشبية، وثبتت بواسطة مسامير نحاسية، ونُقش عليها بالخط الثلث.

[1] العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109-111.

أما معدن البرونز فقد استخدم في مدقات الابواب، حيث تظهر مدقة باب سوق القطانين مصنوعة من البرونز المشغول، بشكل دائرة تتوسطها نصف كرة بارزة، واربع انصاف كرات اخرى بارزة ايضاً، ومثبتة على قرص مثبت بالباب الخشبي.



صورة 63: مدقة باب القطانين من البرونز المشغول (تصوير الباحثة)

كما واستخدم البرونز في الـــهلال، وهو عبارة عن زخرفة معدنية تأخذ اتجاه القبلة وتعلو قباب المساجد والمآذن كما في مأذنتي باب السلسلة والغوانمة، وذلك لتمييز المساجد الاسلامية.



الزخرفة المعدنية بشكل الهلال
اعلى مأذنة الغوانمة (رسم الباحثة)

4.3.6 الزجاج: استخدم الزجاج في تغطية الفتحات الدائرية في اعلى قباب حمامي الشفا والعين، وبعض من الزجاج ملون، بحيث يسمح بمرور اشعة الشمس بالوان متنوعة الى داخل غرف الحمام، والتي بدورها تضفي منظراً جميلاً وشعوراً بالارتياح لمرتادي الحمامات. كما واستخدم الزجاج في صناعة القناديل، كالقنديل أو المشكاة الزجاجية الخاصة بالمدرسة التنكزية، وهي مشكاة مطلية بالمينا ومذهبة. وتتكون المشكاة من الرقبة وهي بشكل مخروطي، والجسم الذي يقع منتفخاً من الوسط ومسحوباً من أعلى ومن اسفل حيث يلتحم مع الرقبة من اعلى ومع القاعدة من الأسفل والتي تقع بشكل مخروطي على شكل قمع مقلوب. وللمشكاة مجموعة من المقابض عددها ستة واقعة بشكل بارز على الجسم، يتم من خلالها تعليق المشكاة بواسطة سلاسل نحاسية مثبتة بقطعة نحاسية في الأعلى.



صورة 64: مشكاة مسجد المدرسة التنكزية الخاص بالأمير تنكز. محفوظة حالياً بالمتحف الاسلامي في الحرم القدسي الشريف.
(تصوير الباحثة)

تقع زخارف متعددة على القنديل بأشكال نباتية وتوريقات متشابكة كما واستخدمت الكتابات بخط الثلث على رقبة وجسم القنديل، فالنص على رقبة القنديل هو الآية القرآنية" إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام"، حيث كان هناك اهتمام بالآيات القرآنية الخاصة بالنور أو الخاصة بالمساجد التي صنعت هذه المشكاوات لإنارتها، لتبقى دائماً مضاءة وعامرة بالمصلين. والنص على جسم القنديل "برسم مدرسة المقر العالي المولوي الأميري السيفي تنكز كافل الممالك الشريفة بالشام المحروسة"، حيث تشير الى المكان الذي ستُعلق فيه المشكاة والتعريف بصاحب المشكاة (وهو الأمير تنكز) والقابه ووظيفته. ويتخلل الكتابات رنك الأمير تنكز في عدة مواضع. كما واستخدمت عدة الوان في القنديل كالذهبي والأزرق والأحمر والأسود، واستخدمت الاطر في تحديد المساحات والكتابات على سطح القنديل[1].

[1]. يُمكن النظر الى الوصف الدقيق للمشكاة من: Abu Khalaf, Islamic Art, pp. 78-79؛ سلامة، المخطوطات القرآنية، ص14.

الفصل الخامس

التحليل المعماري لعمائر الأمير تنكز والنتائج



الفصل الخامس

أعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام

5.1 اعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من حيث التخطيط والواجهات والنسب المعمارية:

إنَّ الفترة الزمنية الطويلة التي قضاها الأمير تنكز في منصب نائب دمشق، كان لها أثرها في إثراء الحركة العمرانية في بلاد الشام ومصر؛ حيث قام بإنشاء مختلف الطرز من العمائر في كل من نابلس كالجامع المعروف بجامع المساكين، والذي حوله تنكز من مشفى صليبي الى جامع في عام 1342م، وخان وبيمارستان عمره تنكز عام 741هـ/ 1340م في صفد، وخان المنة للسبيل في جلجولية، وخان في الطيرة في منطقة طولكرم، وجامع في عجلون، وجامعه ومدرسته في دمشق، وداره في حي الكافوري في القاهرة، وغيرها من العمائر.... والتي تميزت بالطابع الاسلامي المملوكي، كما وبرزت عمائره من خلال انظمة تخطيطها واسلوب العناية بواجهاتها فشكلت سلسلة من عمائر الأمير تنكز. وغدت جنباً الى جنب مع عمائر مملوكية اخرى اساساً لتوثيق نظام التخطيط والقيم الجمالية، وابراز الطراز المعماري المملوكي بين الطرز المعمارية السابقة واللاحقة.

ففي بلاد الشام تشهد عمائره وأملاكه لسعة نفوذه ورغبته في ترسيخ أثر له في المنطقة من خلال تعدد أعماله وممتلكاته، والتي قام بإدراجها جميعها الكاتب محمد دهمان في كتابه ولاة دمشق[1]. وقد تميزت من بين اعماله المعمارية عدة مباني في مدينة دمشق منها دار الذهب (والتي عُرفت سابقاً بدار الفلوس، لاحقاً انتقل اليها الأمير تنكز، ثم قام مكانها خان السبيعي وقسم من قصر العظم[2])، وجامع تنكز، ودار القرآن والحديث التنكزية (والتي عُرفت لاحقاً بالمدرسة الكاملية،

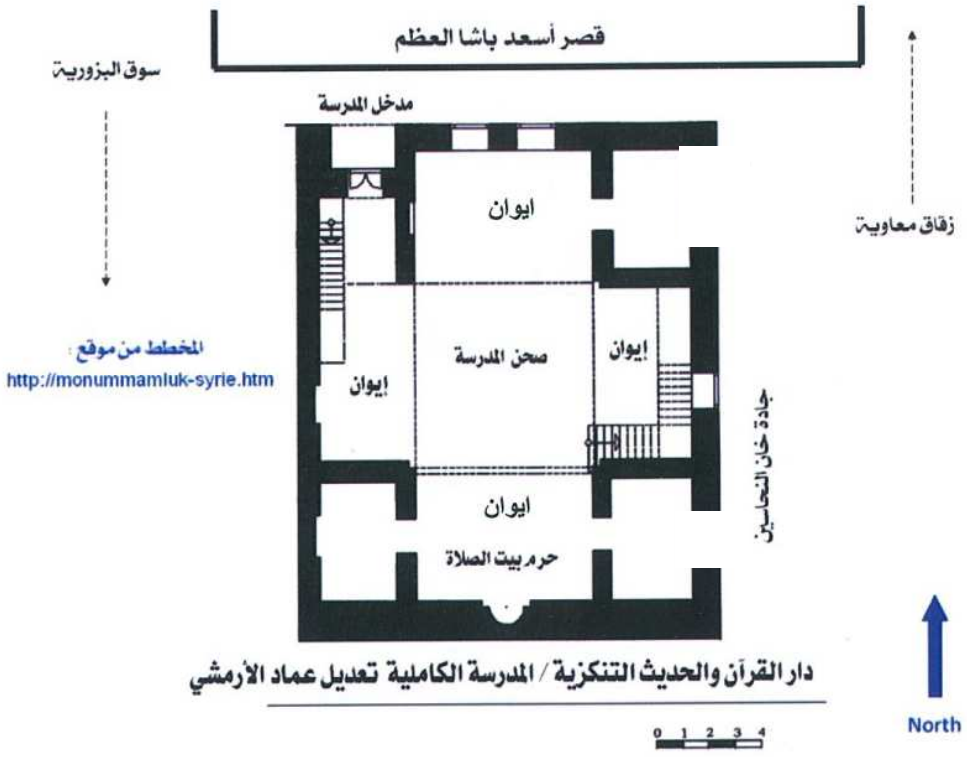
---

[1]. يمكن النظر الى قائمة اعمال وممتلكات الأمير تنكز، وكيفية تقييمها مادياً في الصفحات من 167- 168 والصفحات من 176- 179 من كتاب "ولاة دمشق" للكاتب محمد دهمان.

[2]. دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص167.

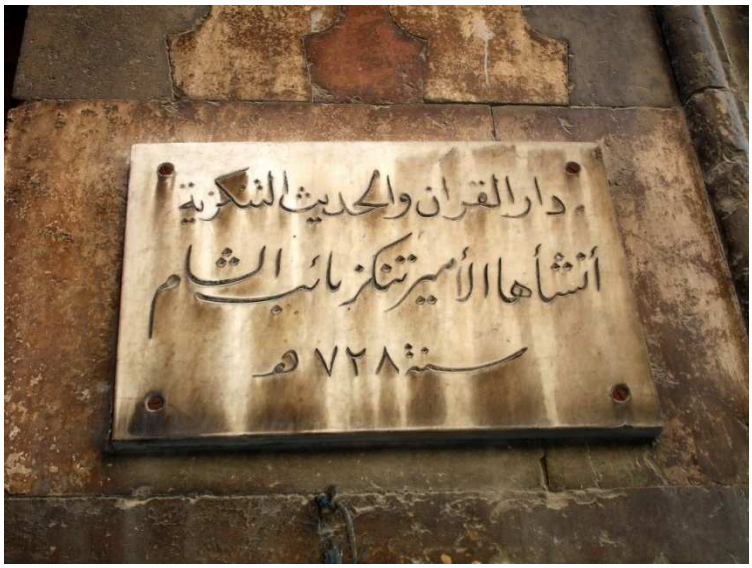
نسبة الى صاحبها الشيخ محمد كامل القصاب الذي اشتراها وجددها وقام بإحياءها)، وتربة زوجته ستيته، وغيرها من الأعمال. والتي من الملاحظ أنَّ الأمير تنكز قد أمر ببناء العديد من عمائره في تاريخ يتوافق مع أمره بالبناء في مدينة القدس، مما يؤكد لنا بأنَّ الأمير قد سعى الى النهوض بالحركة العمرانية في بلاد الشام عامة ولم يكن اختياره عشوائياً، ومدى اهتمامه بمدينة القدس ومكانتها عنده، حيث حظيت بما لمدينة دمشق من عناية واهتمام.

كما قد توحدت عناصر انشائية معمارية واخرى زخرفية بين عمائره في مدينة القدس واخرى في المدن الاخرى. بالإضافة الى تشابه الاستعمال الوظيفي لعمائره؛ فدار القرآن والحديث التنكزية في دمشق هي مدرسة لتعليم اصول الدين والحديث النبوي، فيها الطلبة والمشايخ، كما وأنَّ المدرسة التنكزية في القدس لها نفس الوظيفة وفيها دار حديث فيه الطلبة والمحدثين كما وفيها الصوفيين.
والتخطيط للمدرسة ذات الايوانات الأربع قد استخدم في المدرسة التنكزية في مدينة القدس كما واستخدم في دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق، والتي انشأت في عام 728هـ/ 1327م في نفس تاريخ بناء المدرسة التنكزية في القدس. ويقع المدخل على جانب الواجهة بشكل يحجب الرؤية عن الداخل، ثمَّ يتوزع مخطط الدار الواقع على طابقين الى صحن المدرسة المكشوف واربع ايوانات، يقع في الايوان القبلي الجنوبي محراب المسجد، ويعلو فتحات الايوانات عقود مدببة الشكل.



دار القرآن والحديث التنكزية / المدرسة الكاملية تعديل عماد الأرمشي

مخطط رقم 24: المسقط الأفقي لدار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق
من الموقع الالكتروني مدارس دمشق الشام القديمة Facebook/ Madrasas in Damascus



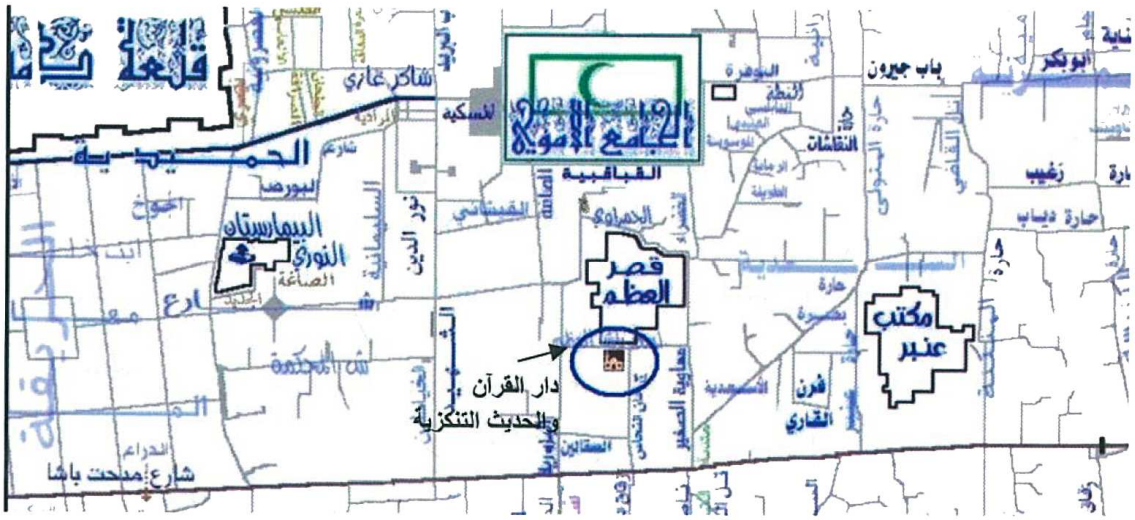
صورة 65: دار القرآن والحديث التنكزية/ دمشق من الموقع الالكتروني http://www.yasmin-alsham.com/vb/showthread.php?6048

ولدار القرآن والحديث التنكزية مدخل يتشابه مع مدخل المدرسة التنكزية، حيث يقع بشكل مجوف عميق وعلى ارتفاع شاهق، مسقوف بنصف قبة كروية الشكل مزخرفة على شكل صدفة على واجهتها عقد مدبب الشكل، مزخرف بمثلثات متعاقبة بارزة. وتقع القبة محمولة على ثلاث صفوف من المقرنصات بدلاية. كما يقع بناء المدخل من المداميك المتعاقبة الالوان (الأبلق) باستخدام الأحجار باللونين الأحمر والأبيض. ويشتمل المدخل على صفّ من الصنج الحجرية المعشقة بالألوان المتعاقبة الاحمر والابيض والاسود. ويقع اسفل منها شريط كتابي، ومحفور في بلاطة فوق الباب نص يذكر اسم المنشِأ وهو الأمير تنكز والقابه ولِمَنْ تمَّ وقْفْ المدرسة كما وتاريخ البناء. ويحدد المدخل اطار بارز كما في مدخل سوق القطانين في القدس.



صورة 66: مدخل دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق من موقع www.yasmin-alsham.com

أما بالنسبة لموقع دار القرآن والحديث التنكزية فهي واقعة ضمن حدود منطقة ذات اهمية حضارية؛ بداخل اسوار مدينة دمشق القديمة في منطقة قريبة من دار الذهب المنسوبة للأمير تنكز، والواقع جزء منها في بناء قصر اسعد باشا العظم حالياً، بين منطقة سوق القمح والذي تُعرف بدايته الشمالية بسوق العطارين أو البزورية وبين طريق خان النحاسين، وبقربها حمام[1]. وهذا الاهتمام في انتقاء الموقع المميز للمباني انما انعكس كذلك في اختيار موقع المدرسة التنكزية، والتي وقع اختيار موقعها ضمن مجموعة من المعطيات للمكان والأهداف، والتي تمَّ ذكرها في الفصل الثالث في قسمه الثاني.



خارطة توضح موقع دار القرآن والحديث التنكزية. من موقع Facebook/ Madrasas in Damascus



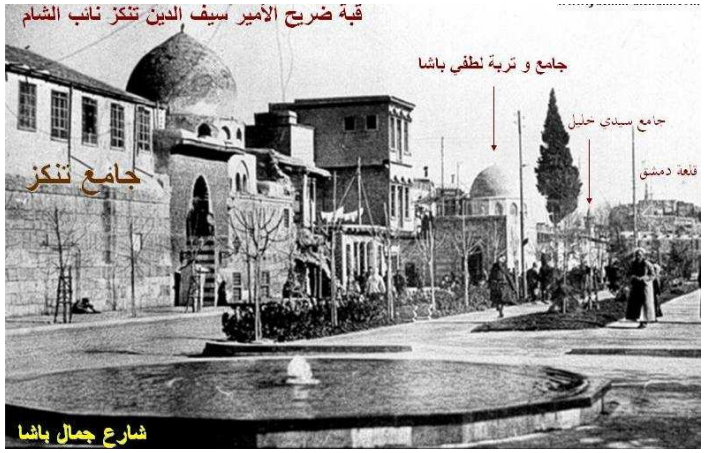
صورة 67: صورة جوية لموقع جامع تنكز في مدينة دمشق

أما جامع تنكز ويُعرف كذلك بالجامع السيفي التنكزي، فقد شرع في بناءه في 717هـ/ 1317م واكتمل في 718هـ/ 1318م. ويُعدُّ أحد الجوامع الثمانية العظيمة في دمشق وكانت تبلغ مساحته 6177 م^2 . وقد اختار له الأمير تنكز موقعاً مميزاً حيث يقع على هضبة حكر السماق، وكانت هذه الهضبة تطل على الجزيرة الخضراء (ساحة المرجة حالياً)، ويُشرف على نهر بانياس (فرع من فروع نهر بردى) حيث يتوسط صحنه النهر وكان يتوضأ

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، قسم1، ص123 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص172.

منه الناس[1]. ويُشرف على أعظم شارع في مدينة دمشق وهو شارع جمال باشا ويُعرف حالياً بشارع النصر.





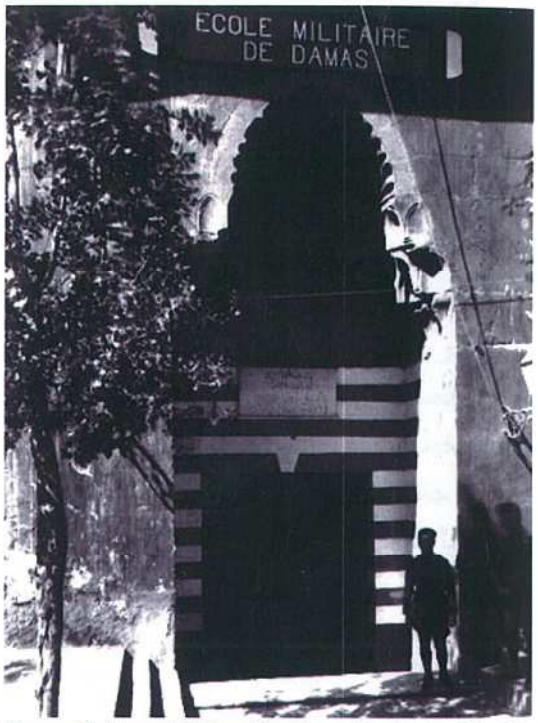
صورة 68: جامع تنكز. الصور67، 68 من موقعي www.naseemalsham.com و www.yasmin-alsham.com

والظاهر بأنَّ الأمير تنكز كان يُعنى دائماً بايجاد مناطق خدمات متكاملة، ليس مجرد مباني مستقلة، فإنه قد قام ببناء حماماً عُرف بحمام تنكز أمام جامعه وسوقاً صغيرةً وداراً وتربته بجانب الجامع، مثلما عُني ببناء مجمع التنكزية في مدينة القدس وهي منطقة خدمات متكاملة كما سبق ذكره، تشتمل على المدرسة والمسجد والرباط والحمام والخان والسوق.

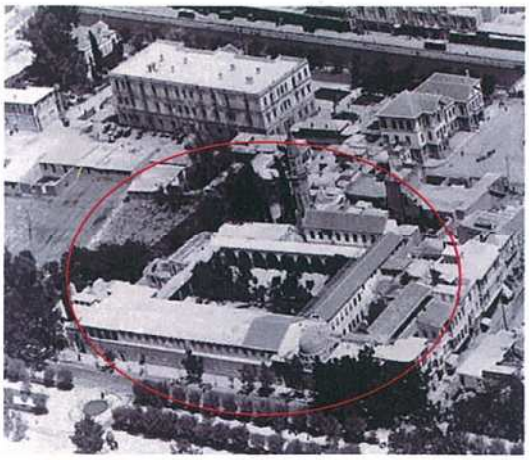
يشتمل الجامع على عناصر معمارية واخرى زخرفية تؤكد على وحدة الطراز المعماري المملوكي كما ووحدة وتميز عمائر تنكز، فتقع الواجهة الحجرية الاساسية للجامع بارتفاع يزيد عن ثلاثة امتار ويعلوها طبقة من الطين فيها نوافذ طولية الشكل، ثم سقف الجامع على شكل جملون مشابه للجامع الأموي في دمشق. وتُشرف الواجهة على شارع جمال باشا ويتخللها أربعة مداخل، اثنان يؤديان الى الواجهة الشمالية، واثنان يؤديان الى صحن المسجد. والى يمين الداخل من المدخل الأول تقع قبة الضريح، وهذا المدخل منخفض عن مستوى الشارع ويقع بتجويف على ارتفاع شاهق، في اعلاه قبة نصف كروية مزخرفة بأشكال شعاعية تشابهت معها تماماً نصف القبة الكروية اعلى مدخل المدرسة التنكزية في القدس، ومحمولة على ثلاث صفوف من المقرنصات بدلاية. ويقع بناء المدخل من المداميك الملونة (الأبلق) باللونين الأسود والأصفر. أما المدخل الآخر للجامع فيتكون من باب يُنزل اليه بدرجات لانخفاضه ايضاً عن مستوى الشارع، يقع في تجويف بسيط فيظهر محاطاً باطار وتعلوه بلاطة حجرية منقوشة.

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص425–426 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص168–169؛ موقع الكتروني www.yasmin-alsham.com/vb/showthread.php?4707





صور 69، 70:مدخلي جامع تنكز من الواجهة الجنوبية الأول يؤدي الى الضريح، والأخر يؤدي الى صحن المسجد. من موقع www.1sy.info/total/mosque/17mosque.htm



صورة 72: منظر عام لجامع تنكز عام 1926م للباحث عماد الأرمشي



صورة 71:مدخل جامع تنكز. من موقع www.naseemalsham.com

ومحراب الجامع يتشابه مع محراب المدرسة التنكزية من خلال عناصره الزخرفية، حيث يتكون تجويف المحراب من الواح طولية من الرخام متعاقبة الالوان، يعلوها شريط مزخرف باشكال مسمطة ذات الثلاثة أقواس مشابهة لتلك في اسفل الالواح الطولية الرخامية في محراب التنكزية. ومزخرف داخلها بموزاييك الرخام باشكال هندسية. ويعلوها نصف القبة الكروية الشكل بعقد مدبب، ومزخرفة باشكال نباتية وتوريقات ملونة، في منتصفها شكل مزهرية على هيئة الكأس مشابه لرنك تنكز تخرج منه الزخارف النباتية، وتظهر مثل هذه المزهرية ايضاً ولكن بشكل

مختلف قليلاً في قبة محراب المدرسة التنكزية. يحيط بالقبة من الخارج قوس عريض مزخرف بزخارف هندسية ونباتية وعلى جانبيه رخام مزخرف باشكال الاطباق النجمية. يحيط به اطار من الصنج الحجرية المعشقة، يعلوها بلاطة منقوشة بالخط الثلث.

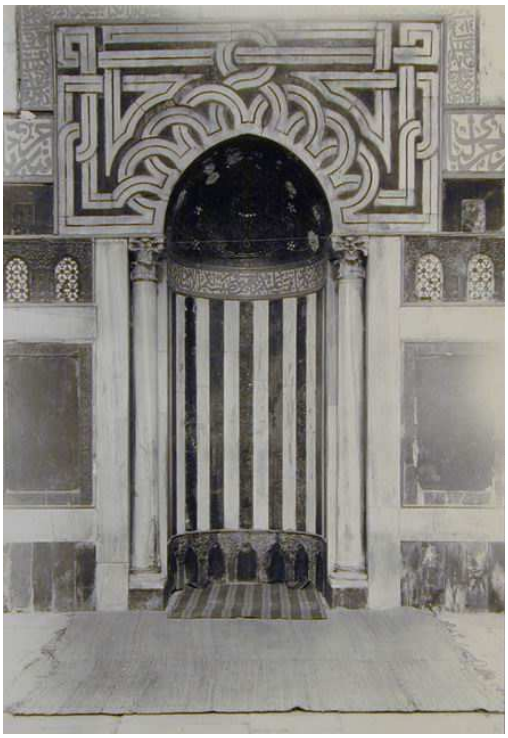
ويقع على جانبي المحراب تجويفان تقع فيهما النوافذ، ويعلوهما قباب نصف كروية مزخرفة من الداخل ويحيط بهما من الخارج عقود مدببة الشكل مزخرفة بالأبلق الذي يمتد الى الداخل. وعلى الجانبين تقع زخارف على شكل الاطباق النجمية يحيط بها اطار من الصنج الحجرية المعشقة.



صورة 73: محراب جامع تنكز في دمشق
من دهمان، ولاة دمشق، 170



صورة 74: محراب جامع تنكز في دمشق. من دهمان، ولاة دمشق، 170



صورة 75: محراب المدرسة التنكزية في القدس.من موقع
http://Archnet.org .imageID:ICR2041
Courtesy of the Creswell Archive, Ashmolean Museum.

أما مأذنة المسجد فتقع في شمالي المسجد، وهي أقدم منارة مملوكية في دمشق. ولها في داخلها درجان احدهما للصاعد والآخر للنازل، ويعلو فوق بابها نقش باسم المنشِأ[1]. تتألف من قاعدة طولية مربعة الشكل كما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة، ويعلوها طابق بشكل ثماني في اعلاه شريط كتابي منقوش، تعلوه مقرنصات تحمل شرفة المؤذن ذات الدرابزين الحجري المفرغ والمزخرف مشابه لذلك في مأذنة الغوانمة. ويتخلل هذا الطابق قوصرات ذات عقود مزخرفة على جانبيها اعمدة، وبعضها مسمط والبعض الآخر فيه فتحات طولية الشكل في اسفلها شرفة حجرية صغيرة. ويعلو هذا الطابق طابق ثالث مثمن الشكل تتخلله فتحات بعقود على هيئة حدوة الفرس، وتنتهي في اعلاها بشكل مخروطي يرتفع في اعلاه الهلال المعدني.



صورة 76: مأذنة جامع تنكز في دمشق. من موقع WWW.1sy.info

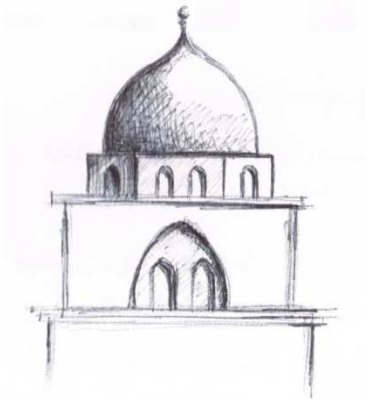
أما تربة أو مدفن تنكز والمعروف بالتربة التنكزية فتقع بجانب جامع تنكز في دمشق من الناحية الشرقية. وقد دُفن بها بعد نقل تابوته من الاسكندرية عام 744هـ/ 1343م[2]. وقد جاء المدفن ملحق بالمسجد ولكن كبناء مستقل، واحتل جزءاً من الواجهة الرئيسية المطلة على الشارع الرئيسي. ومصمم بشكل بناء مربع تتخلله قوصرات ذات عقود مدببة، فيها تجاويف غير نافذة تنعكس أيضاً بهذا الشكل من الداخل. ويعلوه بناء ثماني الشكل تتعاقب على اضلاعه قوصرات تظهر من الخارج البعض منها مسمط والبعض الآخر نافذ. وقد استخدم هذا الشكل والقوصرات لحمل القبة الكروية الشكل والتي ترتفع من منتصفها باتجاه الأعلى الى السماء (مشابهة لقباب اضرحة السلاطين المماليك في مصر). وتقع القبة محمولة على الحنيات Squinches في الزوايا الأربع وحنيات اخرى تتوسطها، وقد تشابهت معها بعض قباب حمامي الشفا والعين، خاصة الغرفة الدافئة الرئيسية والملحقة في حمام العين.

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص171.

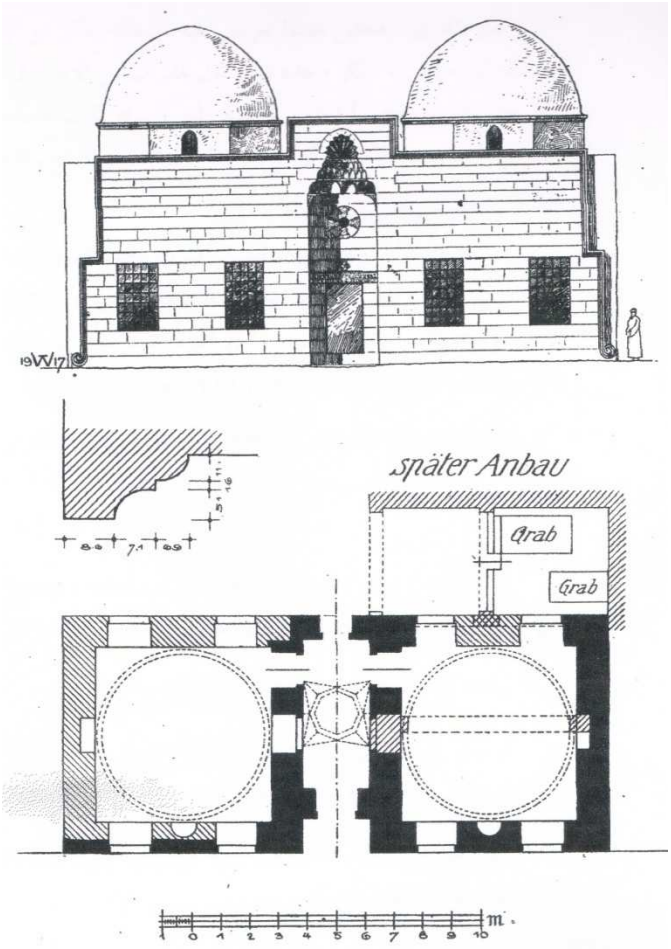
[2]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص238-239 .



صورة 77: قبة تربة تتكز من الداخل. من موقع http://naim-almadani.com



Sketch التربة التتكزية (رسم الباحثة)



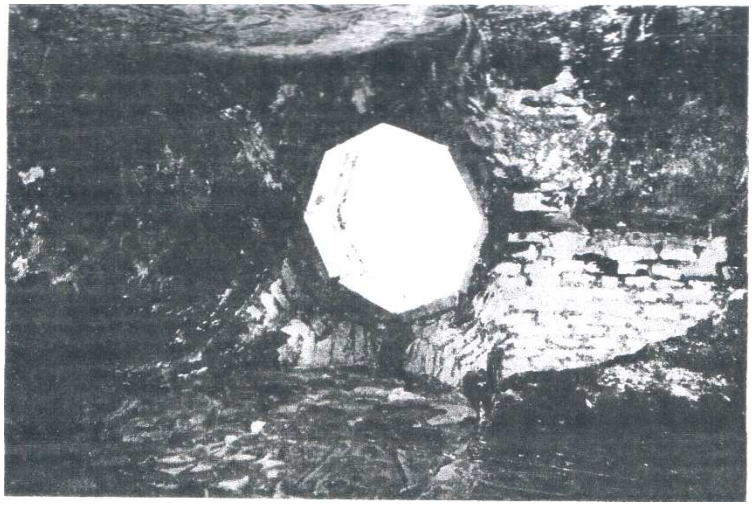
مخطط رقم 25: الواجهة الرئيسية والمسقط الافقي للتربة الكوكبائية من دهمان، ولاة دمشق، 175

كما وقد أمر الأمير تنكز بتشييد قبة (مدفن) لزوجته ستيته بنت الأمير سيف الدين عمر كوكبائي المنصوري، والتي عُرفت بالتربة الكوكبائية والواقعة داخل اسوار مدينة دمشق القديمة في مركز الحي الاسلامي عند زقاق المحكمة. وكانت قد أوصت زوجته بإنشاء ضريح لها تعلوه قبة ومسجد للصلاة ورباط للنساء، وتمَّ ذلك عام 730هـ/ 1329م حسب النقش الواقع اعلى المدخل. وتضمن الضريح على اربعة اقسام، هي: قبة الدفن ومسجد، والى جانبها الغربي مكتب للأيتام ورباط للنساء[1].

وقد جاء تصميم البناء على شكل مربعين بينهما المدخل الرئيسي، وترتفع فوق كلا المربعين قبة كروية الشكل، والتي تشابهت مع القبة الرئيسية للمدرسة التنكزية في القدس، حيث تمَّ تحويل الشكل المربع الى مثمن لحمل القبة بطريقة المثلثات الكروية Pendentives، وجاءت القبة من الحجر ومضلعة الشكل باستخدام ما يُعرف بـــ Folded cross vault من الداخل لتنتهي في اعلاها بالمنور الثماني الشكل. أما واجهة الضريح فقد اشتملت على نوافذ مستطيلة الشكل بارتفاع بسيط عن مستوى

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص274–275 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص172.

الأرض، وذلك للسماح للقراءات القرآنية والصلوات بالوصول الى مسمع المارة من خلال هذه النوافذ، والتي قد اغلقت بواسطة المصبعات الحديدية لتوفير الحماية لداخل البناء. أما المدخل الرئيسي فيقع مشابهاً لمدخل دار القرآن والحديث التنكزية في دمشق كما ومدخل المدرسة التنكزية في القدس، حيث يقع بشكل مجوف عميق وعلى ارتفاع البناء وتنتهي في اعلاه نصف قبة كروية الشكل مزخرفة على شكل صدفة، قد يتباين مركز الصدفة في كل قبة، حيث يقع بعضها من الاعلى والآخرمن الاسفل. ومحمولة على ثلاثة صفوف من المقرنصات. ويقع شريط كتابي فوق باب المدخل منقوش عليه النص التالي:" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه التربة المباركة المقر الشريف العالي المولوي الأمير الكبيري الغازي المجاهدي الملكي المخدومي السيفي سيف الدنيا والدين تنكز نائب السلطنة المعظمة بالشام المحروس عزَّ نصره وكان الفراغ في شهر ذي الحجة سنة ثلاثين وسبعمائة". كما ويحيط بالواجهة كورنيش حجري مزخرف كما في بوابة سوق القطانين في مدينة القدس[1].



صورة 78: قبة التربة الكوكبائية من الداخل

من دهمان، ولاة دمشق، 174

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص174.







صور 79، 80، 81: المدخل الرئيسي للتربة
الكوكبائية والشريط الكتابي اعلى الباب وباب المدخل
من موقع http://Archnet.org
Images ID: IMG07648
IMG07649
IMG07650

من خلال دراسة بعض الأمثلة لعمائر الأمير تنكز في مدينة دمشق، ومقارنتها من حيث التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية خاصة، مع عمائره في مدينة القدس، نستطيع أنْ نستخلص من ذلك بأنَّ الأمير تنكز قد سعى دوماً لايجاد منطقة مميزة لإنشاء واقامة عمائره عليها. وهذا يتضح من خلال موقع جامعه ودار القرآن والحديث التنكزية والتربة الكوكبائية ودار الذهب في دمشق، كما في المدرسة التنكزية وسوق القطانين وبقية عمائره في القدس. حيث تقع في مناطق هامة حضارياً؛ قريبة من معالم دينية رئيسية وواقعة في مراكز نشاط ديني وتجاري، وعلى شوارع رئيسية، وقريبة من مصادر المياه. فعلى سبيل المثال نلاحظ قرب منطقة دار الذهب والتي قد نقل الأمير تنكز اليها مركز الحكم عند انشاءها بعد أنْ كان في قلعة دمشق، فزادت اهميتها حيث احتضنت هذه المنطقة مركز حكم نائب دمشق ومركز ديني تعليمي وثقافي، بالإضافة الى قربها من الجامع الأموي والمناطق التجارية.

كما قد عُنِيَ باسلوب تخطيط عمائره، فلم يكن تخطيطها عشوائياً إنما متأثراً بأنظمة التخطيط المعمارية السابقة. فمثلاً تخطيط جامعه جامع تنكز جاء متأثراً بنظام تخطيط المساجد ذات الصحن

المكشوف والأروقة المحيطة بالمسجد مشابهاً بذلك الجامع الأموي في دمشق. كما وتشابه معه من خلال اسلوب تسقيف المسجد حيث اعتمد على الشكل الجملوني في التسقيف. وقد اعتمد الشكل المربع في تخطيط مدارسه، حيث تتكون مساقطها الأفقية من صحن المدرسة والايوانات الأربعة المحيطة به، ويظهر ذلك في دار القرآن والحديث التنكزية في دمشق كما وفي المدرسة التنكزية في القدس.

أما تأثره بالعمارة المملوكية في مصر فقد ظهر من خلال التخطيط لضريحه ضريح تنكز في دمشق، حيث وقع ضمن مساحة بناء الجامع ولكن بشكل كتلة منفصلة عن بقية عمارة الجامع، مثلما جاء تصميم الجوامع والمدارس في القاهرة كمدرسة الناصر محمد بن قلاوون ومدرسة السلطان حسن، بحيث يشغل المدفن مكاناً رئيسياً من البناء، فيطل على الشارع الرئيسي. كما وتأثرت قبة ضريح تنكز بشكل قباب أضرحة المماليك في مصر.

أما على صعيد العناصر المعمارية والزخرفية في عمائر تنكز فنلاحظ تشابه هذه العناصر كالقباب والمداخل والعقود والمقرنصات وطراز الكتابة وغيرها، بحيث شكلت وحدة في طرازٍ معماريٍ متميز لبلاد الشام خاصة لم تؤثر فيها عامل البعد الجغرافي لهذه المناطق بعضها عن بعض.

الخاتمة:

مما سبق نستنتج أنَّ عصر المماليك الممتد لفترة 267 عاماً قد شكل حقبة تاريخية هامة من تاريخ الامم. والتي قد تباينت مراحله بين العظمة والازدهار وبين الضعف والانحلال. متأثراً بذلك بعدة عوامل داخلية وخارجية سياسية واجتماعية واقتصادية، تعاقبت في خلالها ادوار سلاطين وحكام المماليك، الذين تباينت سلطتهم بين حكام اقوياء اشداء وذوي نشأة دينية سليمة وتدريبات عسكرية قوية، وبين حكام ضعفاء ذوي نشأة دينية غير متينة وفاقدي لثبات القوة العسكرية، والذي قد ادى بدوره الى كثرة الفتن والقلاقل بالاضافة الى تدخل قوى خارجية طمعاً في السيطرة والنفوذ. ومع أنَّ فترة حكم المماليك كانت تعج بهذه التناقضات إلا أنها قد لمعت بنهضة ثقافية وعمرانية تميزت بها عن سائر الحقب السابقة وطغت بها على جميع شوائب ذلك العصر.

وأنَّ مظاهر ازدهار جوانب الحياة المختلفة في العصر المملوكي، من نشاط فكري وعلمي وثقافي تتجلى في ما وصلنا من طرز الشواهد المعمارية المختلفة واسلوب تخطيطها وزخارفها. فالبرغم من أنَّ الشكل العام للعمارة والذي يتكون من بناء ثلاثي الابعاد، قد ارتكزعلى اشكال رئيسية بسيطة وهي الدائرة والمربع، إلا أنه قد شُكل بتأثيرات تاريخية وجغرافية ودينية وثقافية، أنتجت طرزاً معمارية لها سمات مُمَيزة لهذا العصر.

وأنَّ الفترة التي تولى بها الأمير تنكز نيابة دمشق والممتدة لفترة 28 عاماً، خلال فترة الحكم الثالثة للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، كان لها أثرها الايجابي على مختلف مدن بلاد الشام. فبالإضافة الى الصفات الحميدة التي تميزت بها الشخصية القوية للأمير تنكز ، فإنه قد امتلك رؤية وحُسن تخطيط وثبات في تنفيذ مخططاته، كما وكانت لديه رغبة وتوجه بأن يكون له دور فعّال في الحفاظ على وتطوير الأماكن الدينية الواقعة ضمن حدود سلطته خلال فترة توليه منصب النيابة، من خلال اضافة وتجديد خدمات للمدينة ولمركزها الديني. وظهر ذلك من خلال دوره البارز في تطوير النسيج الحضري للمدن، خاصة مدينتي دمشق والقدس، وذلك لأن مركز نيابته كانت في مدينة دمشق، أما مدينة القدس فذلك يعود لمركزها الديني واهميتها الحضارية بين الدول المجاورة. فتوجه لإنشاء مجمعات معمارية يهدف من خلال الاستعمال الوظيفي لأبنيتها التقرب الى الله، وتوفير خدمات وسبل الراحة للناس فيحظى على حبهم وولائهم ودعائهم له، كما ويكتسب تخليداً لذكراه من خلال استمرارية أداء هذه المجمعات لوظائفها.

بالتالي نستطيع أنْ نبين الأسباب والدوافع وراء تبني الأمير تنكز لفكرة انشاء مجمع معماري في مدينة القدس، وهي:

- **ترسيخ نفوذه واسمه:** فقوة نفوذ الأمير تنكز السياسي كنائب دمشق، شكَّل له دافعاً لايجاد منطقة ترتبط بذكر اسمه في مدينة مقدسة، ويكتسب من خلالها مزيداً من الثقة لدى السلطان وعامة الناس، خاصة وأنَّ مدينة القدس في حينها لم تزل ولاية تابعة لنيابة دمشق. فساهم ذلك في تعزيز مكانة الأمير واقترنت هذه المنطقة باسمه، فاستمر ذكره ومباركة اعماله حتى يومنا هذا.
- **وازعه الديني:** من خلال ترسيخه لهدف المماليك بجعل مدينة القدس مركزاً حضارياً دينياً اسلامياً.
- **تحقيق حلول حضرية:** من خلال ايجاد منطقة خدمات متكاملة في مدينة القدس، والتي كان لها مكانة خاصة في قلوب المسلمين، يوفر من خلالها حلولاً حضريةً وعمليةً لكافة فئات المجتمع، خاصة وأنَّ المدينة يؤمها العديد من الحجاج والتجار وطالبي العلم.

فعمل على ايجاد واختيار موقعاً في المدينة يقع ضمن حدود منطقة هامة حضارياً ودينياً، فكانت من أهم اسباب اختيار الأمير تنكز لهذا الموقع هو قربه من منطقة الحرم القدسي الشريف، لنيل فضائل عمل الخير ولمضاعفة الأجر عند الله تعالى. كما ووقوعه في منطقة هامة حضارياً وتجارياً عند التقاء محورين رئيسيين من طرق المدينة، وكثرة أعداد الوافدين الى المسجد الأقصى من هذه المنطقة، سواء من العلماء والمتصوفين وطالبي العلم أو التجار أو الزائرين بالاضافة الى أهل المدينة. فتوفير منطقة خدمات من اماكن عبادة وسكن وأماكن لممارسة النشاط التجاري، وأماكن صحية واجتماعية، فكانت فكرة إقامة مجمعه المعماري حلاً مثالياً عملياً يُلبي احتياجات العامة. وأنَّ اتساع مساحة هذه المنطقة بحيث شكلت فراغاً كافياً لتنفيذ كامل مخطط مجمعه، خاصة وأنَّ هذه المنطقة كانت خالية نسبياً من أية منشأة معمارية، فقط ما بقي من أنقاض آثار معمارية هُدِمَت من فترات سابقة. ومع جدية الأمير تنكز في تحمل مسؤولية تطوير الأماكن الدينية وتجديد الخدمات، فإنه يحور العثرات ويحلل كل معطيات المكان ويحولها لخدمة مشاريعه.

فعمل على تنفيذ مخطط تفصيلي، ضمن خطة مدروسة وتسلسل زمني ومكاني محدد. فاتبع منهجية معينة في تنفيذ مخططه، حيث قام بتعمير المرحلة الاولى من مجمعه المعماري الذي اشتمل على المدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة والمطهرة، واوجد مساحة خضراء وهي حاكورة السقاية وحديقة النارنج حيث شكلت رابط طبيعي مرن لهذه الكتل المعمارية الصلبة. واتسمت هذه المرحلة بإنشاء مباني ذات طابع ديني. ثم استكمل العمل في المرحلة الثانية، والتي اشتملت على حمامي الشفا والعين وخان تنكز وسوق القطانين، واتسمت بطابع تجاري،

فارتبطت بالمرحلة الاولى من خلال أنَّ العائد المادي لهذه المباني يُنتفع بها في تجديد والاعتناء بمباني المرحلة الاولى والحفاظ عليها لاستمرارية اداءها لوظائفها. فاستطاع بذلك ربط الأبنية في مجمعه مع بعضها البعض فراغياً ومادياً ووظيفياً ضمن حيز واحد وأيضاً ربطها ككتلة واحدة مع رمز المكان الديني المتمثل بالمسجد الأقصى من خلال تلاصقها معه. بالتالي أوجد منطقة خدمات متكاملة، شكلت مركز نشاط ديني وتجاري واستطاع من خلالها الأمير تنكز ادخال مفهوم جديد لأنظمة التخطيط في مدينة القدس، والمتمثل **بمنظومة المجمعات المعمارية** ودمجها مع نسيج المخطط الحضري المتماسك للمدينة.

وكما أنَّ هذا المخطط ككتلة واحدة مرتبط مع مركز المدينة الديني والحضاري والتجاري، فإنَّ الكتل المعمارية المُشَكِلة لهذا المجمع إنما ارتبطت ايضاً مع بعضها بوحدة العناصر المعمارية والزخرفية، كالقباب والمداخل والعقود والمقرنصات والصنج الحجرية المعشقة والاشرطة الكتابية، وارتبطت ايضاً بطراز عمائر تنكز في مدينة دمشق، حيث كانت بداية انجازاته المعمارية فيها في المرحلة الاولى لتوليه منصب النيابة، ثم تطورت هذه الانجازات وتوسعت حدود اماكنها ولكنها بقيت ضمن مساعي الأمير تنكز في توحيد اختياره لمميزات اماكن اقامته لعمائره، كما عناصرها المعمارية والزخرفية. وتُبين هذه الوحدة والتنوع والدقة في العناصر المعمارية والزخرفية التي تتشكل منها عمائر تنكز سواء في فراغاتها الداخلية أو واجهاتها الخارجية، استقطاب الأمير للبنائين والحرفيين المهرة من دمشق ومناطق اخرى للعمل بمشروعه في القدس، فادخلوا عناصر جديدة للعمارة في المدينة كالقبوات المتداخلة والذي لم يتم استخدامها سابقاً كما والتخطيط المحوري. فتشابهت عمائره في المدن المختلفة وطُبعت بصبغة موحدة بحيث اعتُبِرت أعمال الأمير تنكز شواهد معمارية تُظهر الجوانب المختلفة للفكر المملوكي والعصر المملوكي البارز.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

- **المصادر العربية:**

1) ابن كثير،اسماعيل بن عمرالحافظ الدمشقي. **البداية والنهاية**، ج13 وج14، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1966م.
2) بن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن الأتابكي. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج9 وج11، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة، 1963م.
3) بن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن الأتابكي. **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، ج1 (تحقيق احمد يوسف نجاتي)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1956م.
4) الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحيّ بن العماد. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج7 وج8، دار المسيرة، بيروت، 1979م.
5) الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين. **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج1 وج2، 1283هـ.
6) الدواداري، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك. **كنز الدُّرر وجامع الغُرر**، ج8 الدُّرة الزكية في اخبار الدولة التركية (تحقيق أ. هارمان)، القاهرة، 1971م.
- الدواداري، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك. **كنز الدُّرر وجامع الغُرر**، ج9 الدُّرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر (تحقيق هـ. ر. رويمر)، القاهرة، 1960م.
7) الاصطخري، أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي. **مسالك الممالك**، ليدن، 1937.
8) الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج4، ط2 (اعتناء س. ديررينغ)، فيسبادن، 1974م.
ـ الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج10 (اعتناء سوبله وعمارة)، فيسبادن، 1980م.
ـ الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج24 (اعتناء البخيت والحياري)، شتوتكارت، 1993م.
9) الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **تُحفة ذوي الألباب** فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب (تحقيق احسان خلوصي وزهير الصمصام)، وزارة الثقافة، دمشق، 1992م.
10) الصفدي، **أعيان العصر وأعوان النصر**، ب ت.
11) العسقلاني، احمد بن نورالدين علي بن حجر. **إنباء الغُمر بأنباء العُمر**، ج2، ب ت .

12) العمري، ابن فضل الله. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج1(تحقيق احمد باشا)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924م.
13) العيني، بدر الدين. **عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان**، ب ت.
14) القلقشندي، أبي العباس احمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج4 وج5، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة، 1963م.
15) الكتبي، محمد بن شاكر. **فوات الوفيات والذيل عليها**، مج1 (تحقيق احسان عباس)، دار صادر، بيروت، 1973م.
16) المقدسي، ابوعبدالله بن ابي بكر البشاري. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مطبعة بريل، ليدن، 1877م.
17) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج1 وج2 (تصحيح محمد مصطفى زيادة)، ط2، القاهرة، 1956، 1972.
ـــ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج4 (تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور)، دار الكتب، القاهرة، 1973.
18) المقريزي، تقي الدين ابي العباس احمد بن علي. **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ج1 وج2، ط2، المركز الاسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1987م.
19) النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل. مخطوط **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية** (تحقيق حمد احمد عبدالله يوسف)، 1994م.
20) النعيمي، عبد القادر بن محمد. **الدارس في تاريخ المدارس**، (تحقيق جعفر الحني)، مطبعة الترقى، دمشق، 1948م.
21) اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى. **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر** (تحقيق احمد حطيط)، ط1، دار عالم الكتب، بيروت، 1986م.

- المراجع:

22) الألفي، ابو صالح. **الفن الاسلامي**، ط2، دار المعارف، لبنان ودار المعارف، مصر، 1974م.
23) الامام، رشاد. **مدينة القدس في العصر الوسيط**، الدار التونسية، تونس، 1976م.
24) آصلان آبا، اوقطاي. **فنون الترك وعمائرهم** (ترجمة احمد محمد عيسى)، ط1، استانبول، 1987م.
25) ابوخلف، مروان. **من معالم الحضارة الاسلامية في فلسطين**، المغرب، 2001م.

26) ابوخلف، مروان والهودلية، صلاح. **مقالات أثرية بالمناسبة العشرية**، المطبعة العربية الحديثة، القدس، 2004م.
27) بكّار، يوسف. **بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته**، (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام) مج1، ط1، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمَّان، 1983م.
28) بيضون، عيسى محمود. **دليل المسجد الأقصى المبارك**، ط1، 1993م.
29) الحجي، حياة ناصر. **السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1983م.
30) الحجي، حياة ناصر. **صور من الحضارة العربية الاسلامية في سلطنة المماليك**، ط1، دار القلم، الكويت، 1992م.
31) حسن، زكي محمد. **فنون الاسلام**، دار الفكرالعربي، ب ت.
32) حميد، نزار فوزي. **فلسطين التاريخية الأرض الانسان الحضارة**، ط1، دار الكرامة، دمشق، 2003.
33) خسرو، ابو معين ناصر القبادياني المروزي. **سفرنامة**، ب ت.
34) الدجاني، برهان و شكيل، هادية. **الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين**، ط1، بيروت، 1994م.
35) دهمان، محمد احمد. **ولاة دمشق في عهد المماليك**، ط2، دار الفكر، دمشق، 1981م.
36) دهمان، محمد احمد. **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، ط1، دار الفكر، دمشق، 1990م.
37) الزيدي، مفيد. موسوعة التاريخ الاسلامي **العصر المملوكي**، دار أسامة، عمَّان ، 2003م.
38) سلامة، خضر. **المخطوطات القرآنية في المتحف الاسلامي في الحرم الشريف**، ط1، لبنان، 2003م.
39) السيد، حكيم أمين عبد. **قيام دولة المماليك الثانية** (تقديم محمد مصطفى زيادة)، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م.
40) العارف، عارف. **المفصل في تاريخ القدس**، ط2، مطبعة المعارف، القدس، 1986م.
41) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **العصر المماليكي في مصر والشام**، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.
42) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك**، (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام)، مج1، ط1، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمَّان، 1983م.

43) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996م.
44) العبادي، احمد مختار. **في التاريخ الأيوبي والمملوكي**، الاسكندرية، 2000م.
45) عبد المهدي، عبد الجليل حسن. **المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ج2، ط1، عمَّان، 1981م.
46) عثامنة، خليل. **فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي**، ط1، بيروت، 2006م.
47) العريني، السّيد الباز. **المماليك**، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م.
48) العسلي، كامل جميل. **معاهد العلم في بيت المقدس**، عمَّان، 1981م.
49) العسلي، كامل جميل. **وثائق مقدسية تاريخية**، ط1،مج1، مطبعة التوفيق، عمَّان، 1983.
50) العسلي، كامل جميل. **من آثارنا في بيت المقدس**، عمَّان، 1982م.
51) عكاشة، ثروت. **القيم الجمالية في العمارة الاسلامية**، دار المعارف، القاهرة، 1981م.
52) العلمي، احمد. **المدارس المملوكية في القدس**، القدس، 1999م.
53) علي، علي السيد. **القدس في العصر المملوكي**، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1986م.
54) الغامدي، علي محمد علي عودة. **بلاد الشام قبيل الغزو المغولي**، ط1، مكة المكرمة، 1988م.
55) غوانمة، يوسف حسن درويش. **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**، دار الحياة، عمَّان، 1982م.
56) غوانمة، يوسف حسن درويش. **دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الاسلامي**، دار الفكر، عمَّان، 1983م.
57) قاسم، عبده قاسم. **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، 2007م.
58) القحطاني، هاني محمد. **مبادئ العمارة الاسلامية وتحولاتها المعاصرة**، بيروت، 2009م.
59) الكيلاني، شمس الدين و باروت، محمد جمال. **الطريق الى القدس**، أبوظبي، 2000م.
60) مصطفى، صالح لمعي. **التراث المعماري الاسلامي في مصر**، بيروت، 1975م.
61) **الموسوعة الفلسطينية**، مج4، ط1، دمشق، 1984م.
62) نجم، رائف. **كنوز القدس**، ط1، مطابع Sagdos, Brugherio، ميلانو، 1983.
63) وزارة الاوقاف، مؤسسة احياء التراث. **منارات مقدسية**، القدس، 2010م.

Bibliography:

1) Abu Khalaf, Marwan F. .**Islamic Art through the Ages**, Jerusalem, 1998.
2) Atil, Esin. Renaissance of Islam **Art of the Mamluks**, Washington D.C. 1981.
3) Auld, Sylvia J. . **The Mamluks and the Venetians** (Palestine Exploration Quarterly), London, 1991.
4) Ayalon, M. Rosen. **The Islamic Architecture of Jerusalem** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
5) Bahat, Dan. **Carta's Historical Atlas of Jerusalem**, Jerusalem, 1973.
6) Bahat, Dan. **The Illustrated Atlas of Jerusalem**, 1990.
7) Bahat, Dan. **Jerusalem Down Under** (B.A.R. 21.6), 1995.
8) Boas, Adrian J. . **Jerusalem in The Time of the Crusades**, London, 2001.
9) Briggs, Martin S. . **Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine**, London, 1924.
10) Burgoyne, M. Hamilton. **The Noble Sanctuary**(al-Haram al-Sharif) **under Mamluk Rule** (Where Heaven and Earth Meet), Jerusalem, 2009.
11) Burgoyne, M. Hamilton. **Mamluk Jerusalem An Architectural Study**, London, 1987.
12) Da Poggibonsi, Nicolo. **A Voyage Beyond the Seas**.
13) Dow, Martin. **The Islamic Baths of Palestine**, London, 1996.
14) Frescobaldi, Gucci and Sigoli. **Visit to the Holy Places**, Jerusalem, 1948.
15) Hawari, Mahmoud. **Ayyubid Jerusalem**, An Architectural and Archaeological Study, London, 2007.
16) Hillenbrand, Robert. **Islamic Architecture**, New York, 1994.
17) Hoag, John D. . **Islamic Architecture**, London, 1979.
18) Kenney, Ellen. **Power and Patronage in Medieval Syria**, Chicago, 2009.
19) Kroyanker, David. **Jerusalem Architecture**, Italy, 1994.
20) Landay, Jerry M. . **Dome of the Rock**, Italy, 1972.
21) Le Strange, Guy. **Palestine Under the Moslems**, 1890.

22) Mazar, A. . **The Aqueducts of Jerusalem** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
23) Muir, William. **The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt**, London, 1896.
24) Prawer, J. . **Jerusalem in Crusader Days** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
25) Rosovsky, Nitza. **City of the Great King**, U.S.A. 1996.
26) Sharon, Arieh. **Planning Jerusalem**, Jerusalem.
27) Sims, Eleanor and others. **Architecture of the Islamic World**, London, 1978.
28) Warren, Charles and Conder, Claude. **The Survey of Western Palestine**, London, 1884.
29) Wilson, R.E. and Warren, R.E. . **The Recovery of Jerusalem**, New York, 1871.
30) Zahlan, A.B. .**The Reconstruction of Palestine**, London, 1997.

مراجع المواقع الالكترونية:

http://Archnet.org
www.aqsaonline.org
www.alaqsa-online.net
Facebook/Madrasas in Damascus
http://www.yasmin-alsham.com
www.naseemalsham.com
www.1sy.info
http://naim-almadani.com

فهرس المخططات

مخطط رقم 1 أ. الخطوط الكنتورية لمدينة القدس القديمة ومحيطها	75
مخطط رقم 1 ب. مقاطع A-A و B-B	76
مخطط رقم 2 الخطوط الكنتورية للقدس القديمة	76
مخطط رقم 3 مدينة القدس القديمة	77
مخطط رقم 4 أ: منطقة الحرم القدسي	79
مخطط رقم 4 ب: المخطط المقترح للآثار المعمارية أسفل التنكزية ورباط النساء والمنطقة المحيطة	79
مخطط رقم 4 ج: مقطع قوس ويلسون ومستوى بركة البراق	80
مخطط رقم 4د: منظور لقوس ويلسون الواقع أسفل المدرسة التنكزية	80
مخطط رقم 5 : مخطط اعادة رسم وتجميع المساقط الافقية من كتاب Mamluk Jerusalem للمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة مع اضافة التحديد للمباني والمحور الممتد من المدرسة والرباط	82
مخطط رقم 6: المسقط الافقي للمدرسة البلدية	83
مخطط 7: المخطط المقترح للآثار المتبقية أسفل المدرسة البلدية والمنطقة الواقعة جنوبها	84
مخطط رقم 8: مخطط المرحلة الأولى للمجمع المعماري، مسقط افقي وثلاثي الأبعاد	85
مخطط رقم 9 : مخطط مدينة القدس في الفترة الصليبية	86
مخطط رقم 10 : موقع المباني الأيوبية في مدينة القدس القديمة	87
مخطط رقم 11 أ (مدينة القدس القديمة في الفترة الرومانية)	90
مخطط رقم 11 ب (مدينة القدس القديمة في الفترة الصليبية)	90
مخطط رقم 12: مخطط إعادة ترسيم المسقط الأفقي لخان تنكز	92
مخطط رقم 13: المسقط الأفقي لسوق القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين	92
مخطط رقم 14: المخطط الكامل لمجمع التنكزية	93
مخطط رقم 15: مخطط موقع المباني المملوكية في حدود منطقة الدراسة	94

مخطط رقم 16: المسقط الافقي للطابق الأرضي للمدرسة التنكزية	98
مخطط رقم 17: المسقط الافقي للطابق الأرضي لرباط النساء	100
مخطط رقم 18 المسقط الأفقي لمأذنة باب السلسلة	102
مخطط رقم 19: المسقط الافقي لسوق القطانين	104
مخطط رقم 20: المسقط الأفقي للطابق الأرضي لخان تنكز	107
مخطط رقم 21: المسقط الأفقي لحمام الشفا	108
مخطط رقم 22: المسقط الأفقي لحمام العين	110
مخطط رقم 23: قنوات المياه	113
مخطط رقم 24: المسقط الأفقي لدار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق	155
مخطط رقم 25: الواجهة الرئيسية والمسقط الافقي للتربة الكوكبائية	162

فهرس الصور

صورة 1، 2: دكاكين من الجزء الشرقي من سوق القطانين	88
صور 3 ، 4 (للباحثة): دكاكين من الجزء الغربي من السوق	88
صورة 5: باب القطانين الشرقي	89
صورة 6: المدرسة التنكزية. منظر داخلي باتجاه الايوان الجنوبي حيث يظهر الصحن والمحراب	99
صورة 7 ، 8 : مأذنة باب السلسلة من الزاوية الشمالية الشرقية ومن الزاوية الغربية	102
صورة 9: منظر عام لسوق القطانين باتجاه الشرق	105
صورة 10: احدى فتحات التهوية والاضاءة في السوق	105
صورة 11: المقرنصات على السقف أمام حمام الشفا ويظهر اسم المهندس عليها بالنص: محمد بن أحمد بن غليش رحمه الله	106
صور 12، 13، 14: صور توضيحية لسقف غرف حمام الشفا والفتحات الفخارية التي تتخلل القباب	109
صورة 15: نافورة تتوسط غرفة المشلح في حمام العين	110
صور توضيحية (16–20) من داخل وسطح حمام العين	111
صورة 21: مأذنة الغوانمة من الجهة الجنوبية	112
صورة 22: القناة السفلية، نفق عند موقع رقم 22	114
صورة 23: الكأس	115
صورة 24: قسم من وقفية الأمير تنكز السجل 92 ص 430	118
صورة 25: القبة أعلى مدخل المدرسة التنكزية	130
صورة 26: تُظهر التضليع في قبة القاعة الرئيسية في حمام الشفا.	130
صور (27–29) صور من داخل حمام العين	131
صورة 30: الأعمدة على جوانب مأذنة باب السلسلة	132
صورة 31: المدخل الغربي لسوق القطانين	133
صورة 32–33 Trefoil Arch في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي ورباط النساء	134

صورة 34: منظر داخلي من رباط النساء، يظهر فيه القبو النصف برميلي الشكل Barrel Vault	134
صورة 35: نظام تسقيف سوق القطانين بالقبوات النصف برميلية	135
صورة 36: القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز	135
صورة 37: القبوات النصف برميلية في قاعة مدخل خان تنكز	135
صورة 38: مدخل المدرسة التنكزية	136
صورة 39: بعض فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية	137
صورة 40: مأذنة الغوانمة من الناحية الجنوبية تظهر فيها فتحات النوافذ	138
صورة 41: الدرج الحجري المؤدي الى مدخل مأذنة الغوانمة الواقع على مستوى الطابق الثاني	138
صورة 42، 43: المقرنصات في اعلى مدخل المدرسة التنكزية.	140
صورة 44، 45: المقرنصات في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي.	140
صورة 46: احدى الفتحتين الواقعتين على جانبي مدخل سوق القطانين، وتظهر المقرنصات بدلاية في اعلاها.	141
صورة 47: صفوف المقرنصات في اعلى الطابق الثاني لقاعدة مأذنة الغوانمة	142
صورة 48: القوصرات في مأذنة الغوانمة	142
صورة 49: الصنج الحجرية في اعلى باب المدرسة التنكزية	143
صورة 50: رسم باب القطانين من داخل السوق، للفنان Bauernfeind, Gustav 1886	143
صورة 51، 52: باب القطانين الخشبي والشريط النحاسي الواقع عليه.	145
صورة 53، 54: الشريط الكتابي المنقوش الواقع اعلى باب القطانين الشرقي.	145
صورة 55: رنك الأمير تنكز (الكأس داخل حلقة) الواقع اعلى مدخل ساحة خان تنكز.	146
صورة 56، 57: بعض التكسيات الرخامية داخل المدرسة التنكزية.	147
صورة 58، 59: محراب مسجد المدرسة التنكزية في الايوان الجنوبي.	147
صورة 60: الكورنيش بشكل محاريب في مأذنة باب السلسلة	148

صورة 61: الكورنيش بشكل مقرنصات ومحاريب مفرغة في مأذنة الغوانمة	148
صورة 62: الاشكال الهندسية التي تُشكل الطبقة الخارجية من باب القطانين.	150
صورة 63: مدقة باب القطانين من البرونز المشغول	151
صورة 64: مشكاة مسجد المدرسة التنكزية الخاص بالأمير تنكز. محفوظة حالياً بالمتحف الاسلامي في الحرم القدسي الشريف.	151
صورة 65: دار القرآن والحديث التنكزية/ دمشق	156
صورة 66: مدخل دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق	156
صورة 67: صورة جوية لموقع جامع تنكز في مدينة دمشق	157
صورة 68: جامع تنكز. الصور67، 68	158
صور (69-70): جامع تنكز	159
صورة 71: مدخل جامع تنكز	159
صورة 72: منظر عام لجامع تنكز	159
صورة 73: محراب جامع تنكز في دمشق	160
صورة 74: محراب جامع تنكز في دمشق.	160
صورة 75: محراب المدرسة التنكزية في القدس.	160
صورة 76: مأذنة جامع تنكز في دمشق.	161
صورة 77: قبة تربة تنكز من الداخل.	162
صورة 78: قبة التربة الكوكبائية من الداخل	163
صور 79، 80، 81: المدخل الرئيسي للتربة الكوكبائية والشريط الكتابي اعلى الباب وباب المدخل	164

الفهرس

إقرار: ..... أ

الشكر والتقدير ..... ب

ملخص الرسالة: ..... ج

Abstract: ..... ه

المقدمة: ..... ز

الفصل الأول: نشأة المماليك وتطورهم العمراني 1

1.1 نشأة المماليك: 2

1.1.1 أصلهم: 2

1.1.2 المماليك الأتراك أو البحرية:- 5

1.1.3 عوامل ضعف دولة المماليك البحرية :- 17

1.1.4 المماليك الجراكسة أو البرجية :- 19

1.1.5 عوامل ضعف دولة المماليك البرجية:- 28

1.2 العمران في العصر المملوكي: 31

1.2.1 أبرز الانجازات المعمارية: 36

1.2.2 مميزات العمارة المملوكية: 41

الفصل الثاني: الإدارة المملوكية لبلاد الشام 44

2.1 الأوضاع الداخلية في بلاد الشام: 45

2.2 الوضع الإداري لمدينة القدس: 48

2.3 الحياة الثقافية في مدينة القدس: 54

الفصل الثالث: أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس 65

3.1 لمحة عن حياة الأمير سيف الدين تنكز: 66

3.1.1 نشأته: 66
3.1.2 صفاته وألقابه: 67
3.1.3 أهم أعماله وأملاكه: 69
3.1.4 وفاته وما قيل فيه: 71
3.2 انجازات الأمير تنكز المعمارية: 75
3.2.1 الوصف المعماري لعمائر الأمير تنكز: 95
3.2.2 المدرسة التنكزية: 95
3.2.3 رباط النساء: 100
3.2.4 مأذنة (منارة) باب السلسلة: 102
3.2.5 السقاية (سقاية العادل): 104
3.2.6 سوق القطانين: 104
3.2.7 خان تنكز: 107
3.2.8 حمّام الشفا: 109
3.2.9 حمّام العين: 111
3.2.10 مأذنة (منارة) الغوانمة: 114
3.2.11 قناة العروب: 115
3.2.12 الكأس: 116
3.3 أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية: 117
3.3.1 النص الكامل لوقفية الأمير تنكز: 120
الفصل الرابع: العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز 130
4.1 العناصر الإنشائية: 131
4.1.1 القباب: 131

4.1.2 الأعمدة: 134
4.1.3 الأوتار (Lintels): 135
4.1.4 العقود أو الأقواس (Arches):... 135
4.1.5 القبوات (Vaults): 136
4.1.6 المداخل:..... 138
4.1.7 النوافذ:. 138
4.1.8 السلالم:..... 140
4.1.9 المقرنصات:. 141
4.2 العناصر الزخرفية :..... 142
4.2.1 المقرنصات: 143
4.2.2 القوصرات: 144
4.2.3 المداميك الملونة (الأبلق):..... 145
4.2.4 الصنج الحجرية المعشقة (اللحامات المتداخلة): 145
4.2.5 الشريط الكتابي: 146
4.2.6 الرنك:..... 148
4.2.7 التكسيات الرخامية:..... 148
4.2.8 الكورنيش:..... 150
4.3 المواد المستخدمة في البناء : 150
4.3.1 الحجر:..... 150
4.3.2 الرخام: 151
4.3.3 الفخار:..... 151
4.3.4 الخشب:. 152

4.3.5 المعدن: 152

4.3.6 الزجاج:.....153

الفصل الخامس: التحليل المعماري لعمائر الأمير تنكز والنتائج 155

5.1 اعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من حيث التخطيط والواجهات والنسب المعمارية: ...156

الخاتمة: 168

المصادر والمراجع العربية والأجنبية 171

فهرس المخططات 177

فهرس الصور 179

الفهرس.....182

عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس

دراسة تاريخية، معمارية وفنية

نادين مهيب عفيف طوقان

رسالة ماجستير

القدس- فلسطين

1435هـ/ 2014م

الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري
في مدينة القدس
دراسة تاريخية، معمارية وفنية

اعداد الطالبة

نادين مهيب عفيف طوقان

بكالوريوس هندسة معمارية- جامعة البتراء- الأردن

المشرف

أ.د. مروان أبوخلف

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الآثار من المعهد العالي للآثار في جامعة القدس

القدس - فلسطين

1435هـ/ 2014م

جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

برنامج المعهد العالي للآثار

إجازة الرسالة

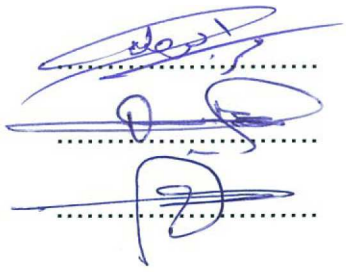
الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس
دراسة تاريخية، معمارية وفنية

اسم الطالبة: نادين مهيب عفيف طوقان

الرقم الجامعي: 20810094

المشرف: د. مروان ابوخلف

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 1/ 3/ 2014 من لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتوقيعاتهم:



رئيس لجنة المناقشة: أ. د. مروان ابوخلف

الممتحن الداخلي: د. ابراهيم ابو أعمر

الممتحن الخارجي: د. جمال عمرو

القدس– فلسطين

1435هـ/ 2014م

إهداء

الى ذكرى مَنْ وطئت أقدامهم هذه الأرض المباركة

مِنْ علماء وأبطال وشخصيات تاريخية بارزة

ممن جُبِلَتْ أُصولهم ودمائهم وعَرقهم مع تراب الأرض

فأهدتها حضاراتٍ عظيمةٍ متتاليةٍ قامت عليها

وأنعشتها بنسائِم تفوحُ بهجةً وتنشرُ السِحر في العقول

وجعلتها موطناً للعِلم والثقافة والعمران

فإلى ذكرى الأمير تنكز الناصري الذي أثمرت جهوده

بصروحٍ شامخةٍ تتباهى بها مدينتنا، القدس

إقرار:

أقِرُ أنا معدة الرسالة بأنها قُدمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير، وأنها نتيجة أبحاثي الخاصة، باستثناء ما تمَّ الاشارة له حيثما ورد، وأنَّ هذه الرسالة، أو أي جزء منها، لم يقدم لنيل درجة عليا لأي جامعة أو معهد آخر.

التوقيع: .....

نادين مهيب عفيف طوقان

التاريخ: .....

الشكر والتقدير

أبدأ بحمد الله وشكره على ما قدَّرني وأعانني على اتمام هذا البحث، فالحمد لله ربِّ العالمين.

وأتقدم الى الأستاذ الدكتور مروان أبوخلف بجزيل الشكر والعرفان على متابعته ودعمه ومساندته لي في جميع مراحل كتابة واعداد البحث. واشكر كل مَنْ قدَّم لي يدّ المساعدة في مراحل التحضير للرسالة، وأخص بالذكر السيد حسين غيث وجميع العاملين في مكتبة الآثار البريطانية، لحُسن تعاملهم وتقديمهم المساعدة لي أثناء زياراتي الى المكتبة، وامدادي بالعديد من المراجع الهامة التي استعنت بها في فصول البحث. والى اساتذتي في جامعة القدس لِما قدموه من معلومات وخبرات اثناء مرحلة الدراسة.

ويرجع الفضل الأكبر في وصولي الى هذه المرحلة من الدراسة الى أهلي، أبي وأمّي واختي، فأُكِن لهم كلَّ الشكر والامتنان لدعمهم وتحفيزهم المتواصل لي. والى زوجي لصبره ومشاركته لي في أثناء قيامي بالبحث والدراسة، فأرجو أنْ اكون مدعاة لفخرهم ولأولادي كامل وعمر.

ملخص الرسالة:

تناول موضوع الرسالة الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس، في الفترة الواقعة ما بين عامي 1312م و 1340م، ودراستها كوحدة معمارية متكاملة تمَّ تحليلها معمارياً وزخرفياً، لبيان علاقة هذه المنشآت بعضها ببعض وماهية التركيب الفراغي فيما بينها، وربْطِها مع محيطها وعلاقتها كمخطط تفصيلي مع المخطط العام للمدينة، لما لها من أهمية في الإضافة على المخطط الهيكلي لمدينة القدس القديمة، وتطوير مفهوم المخطط الحضري لها، بالإضافة الى الأهمية التاريخية والأثرية والطراز المعماري المتميز لهذه المنشآت. والتي ساهمت في إظهار طابع معماري إسلامي في العصر المملوكي الذي وُصف بالعصر الذهبي في فن العمارة والبناء.

وتكمُن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على جانب من جوانب العمارة المملوكية التي كان لها أثرها في اضافة نموذج تخطيط جديد لمدينة القدس وتطوير المخطط العام للمدينة من خلال الأعمال المعمارية للأمير سيف الدين تنكز الناصري، حيث كان له دوراً بارزاً في تطوير النسيج الحضري للمدن من خلال الحفاظ على إرثها المعماري وتطوير الأماكن الدينية الواقعة ضمن حدود سلطته خلال فترة توليه منصب النيابة، خاصة مدينة القدس لمركزها الديني وأهميتها الحضارية. فعمل على تطوير الفكر المعماري في تخطيط المدينة، من خلال طرحه لنظام المجمعات المعمارية كأسلوب في التخطيط ودمجه مع نسيج المخطط الحضري المتماسك للمدينة.

وقد هدفت الدراسة الى بيان أهمية الجانب العمراني لمدينة القدس في تلك الفترة، وابراز جميع مناحي اسلوب الأمير تنكز في التخطيط والتطوير الحضري، خاصة وأنَّ جميع الدراسات والأبحاث التي تطرقت الى ذكر الأمير تنكز سواء من الناحية الاجتماعية أو انجازاته المعمارية، لم يتم فيها التطرق الى جانب أعماله المعمارية بشكل مُفَصَّلْ، بالرغم من مدى التأثيرالإيجابي الذي خلَّفه نمط مخطط مجمعه المعماري على محيط منطقة المسجد الأقصى المبارك، بالإضافة الى المخطط العام للمدينة. فإنَّ الأمير تنكز استطاع تنفيذ مخططه ضمن خطةٍ مدروسةٍ وتسلسلٍ زمني ومكاني محدد من خلال اتباعه منهجية معينة كان اساسها تقسيم تنفيذ المشروع الى مرحلتين: الاولى اتسمت بإنشاء مباني ذات طابع ديني، كالمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة والمطهرة.
والمرحلة الثانية اتسمت بطابعها التجاري، واشتملت على حمّاميّ الشفا والعين وخان تنكز وسوق القطانين. وارتبطت هذه المرحلة بالمرحلة الاولى من خلال أنَّ العائد المادي لهذه المباني يُنْتَفَع بها في التجديد والاعتناء بمباني المرحلة الاولى والحفاظ عليها لاستمرارية أداءها لوظائفها.

وللوصول الى دراسة متكاملة فقد تمَّ الاستناد في منهج وخطوات الرسالة على مناهج البحث العلمي كالمنهج الوصفي من خلال متابعة الوصف التاريخي والمعماري للمواضيع المتعلقة بالأمير تنكز

واعماله، والتي قد تضمنتها المصادر والمراجع التاريخية المختلفة والمخطوطات بالاضافة الى الكتب الخاصة بالعمارة والفنون والوثائق والسجلات الرسمية، كالوقفية التي وضعها الأمير ووضحت معلومات هامة عن منشآت دينية وخيرية واجتماعية وتعاملات مختلفة تمت في تلك الفترة. كما اعتُمِدَ المنهج التحليلي في الرسالة من خلال دراسة المخططات المعمارية لعمائر تنكز والبحث في الدوافع وراء انشاءها، وعلاقتها مع بعضها ومع الحيز الذي أُنشأت فيه. حيث أنها وإنْ شكلت مجمعاً معمارياً إلا أنَّ دراسة التخطيط الحضري والعلاقة التي تربط هذه المباني مع بعضها البعض لم يتم دراسته سابقاً، فهل كان فضاءً فراغياً أم ابنية تمَّ ازالتها أو البناء فوقها، وما الرؤية التي امتلكها الأمير تنكز واراد تحقيقها من خلال عمائره وعلاقتها مع المكان واسلوب تخطيطها. ثمَّ اجراء الدراسة التحليلية لعمائر تنكز خارج نطاق مدينة القدس، واجراء المقارنات مع عمائره في المدينة، لاستنباط النتائج والوصول الى اتمام دراسة شاملة لأعمال الأمير تنكز في مدينة القدس.

وبالتالي فإنَّ الدراسة قد خلُصَتْ الى بيان أهمية ربط أعمال الأمير تنكز ضمن مجمع التنكزية وطرح الأسباب والدوافع المقترحة وراء تبني الأمير لفكرة انشاء مجمع معماري في القدس، والمنهجية الشاملة التي اتبعها في تنفيذه، وتطبيقه لذلك من خلال اقامته لمنطقة خدمات متكاملة ضمن مجمعه يوفر من خلالها حلولاً حضريةً وعمليةً لكافة فئات المجتمع، خاصة وأنَّ المدينة كانت مركز استقطاب للعديد من الحجاج والتجار وطالبي العلم والزائرين، بالإضافة الى سكان المدينة. فاستطاع بذلك ربط الأبنية مع بعضها فراغياً ومادياً ووظيفياً، ورَبْطِهَا جميعها ككتلة واحدة مع رمز المكان الديني بقربها من المسجد الأقصى المبارك. بالاضافة الى توحيد العناصر المعمارية والزخرفية التي شُكلت منها عمائره مع انجازاته المعمارية المختلفة في مدن وبلدان اخرى، بحيث طُبعت جميعها بصبغة موحدة جعلت من أعمال الأمير تنكز المعمارية شواهد لبراعة منهجية تخطيطه ورؤيته الثاقبة في الإضافة على المخططات الحضرية للمدن الى جانب ابرازه للجوانب المختلفة للفِكر الهندسي المملوكي.

The Architectural Works of Al-Amir Tankiz Al-Nasiri in Jerusalem city
Historical and Architectural study

Prepared by: Nadine Muhib Afif Toukan
Supervised by: Dr. Marwan Abu Khalaf

Abstract:

The Thesis addresses the architectural works of Al-Amir Tankiz Al-Nasiri in Jerusalem, in the period between 1312 A.D. and 1340 A.D., where these works are studied as an integrated architectural unit, analyzed architecturally and decoratively to show the connection between the structures and the composition of the surrounding space between them, highlighting its importance to the overall structural plan of the city and its urban planning development concept in relation to the historical, archeological and architectural style importance of these outstanding structures. These works illustrated the Islamic architecture that was formed with the influence of functional intent, as well as the social factor in terms of certain traditions and beliefs namely the Islamic faith. The Mamluk dynasty, highlighted a new stage in the history of architecture of cities, preserving the Islamic characteristics, which made the Mamluk era worthy of what was considered to be the golden age in the art of architecture.

The significance of this study that it emphasizes the main aspect of the Mamluk architecture which had an impact on introducing a new planning form to the layout of Jerusalem city and to the improvement of its general plan through the architectural works of Al-Amir Saif Eddin Tankiz Al-Nasiri. Therefore, he had a significant and active role in the Mamluk era, through his urban planning, preservation of its' architectural heritage and the development of religious places located within the limits of his authority especially the city of Jerusalem for its religious and cultural significance. Tankiz was able to introduce a new planning concept with his systematic architectural complex and combine it with the cohesive urban plan of the city.

The study aimed to establish the importance of Al-Amir Tankiz's technique towards the city planning development of Jerusalem, particularly when all the other studies and researches which addressed Al-Amir Tankiz both in terms of social or architectural achievements did not introduce his design work in details. Eventhough, his architectural complex pattern had its positive impact on the surrounding area of Al-Aqsa mosque as well as to the general plan of the city.

Following certain methodology, Tankiz was able to implement his plan effectively and efficiently dividing his project into two phases: the first, was characterized by establishing buildings of religious theme (Al-Tankaziyya, Ribat Al-Nisa', the Bab al-Silsila Minaret and the Mathara). The second phase consisted of commercial buildings (Al-Shifa and Al-Ain bathhouses, Khan Tankiz and Suq Al-Qattanin). Tankiz idea was to employ the

financial return of the second phase buildings to the renovation of the first phase structures to ensure the continuity of their functioning.

The study undertook a scientific research methodology which was based on a descriptive methodology; research made on all historical and architectural writings (manuscripts, historical references, Architectural books, official documents (Alwaqfieh) related to Al-Amir Tankiz works. An analytical methodology; studying the architectural plans of Tankiz's structure, his vision and purpose of his project, the site archeology, its space planning and the relation between the buildings which form a COMPLEX. As well, making comparison in his designs throughout his architectural projects in the region.

In conclusion, the study emphasizes on the new concept developed by Tankiz having an integrated services area within a compound; linking structures to become one functional complex, of which provides practical urban solutions for all segments of society, especially since the city was a center of attraction and frequently visited by many pilgrims, traders, learners and visitors, as well as the city's residents.
He was able to link the buildings within one space, physically and functionally to become a singular bloc in contiguity with Al-Aqsa Mosque. He also linked these building structures by unifying the architectural and decorative elements which also formed his various architectural achievements in different cities in other countries, and this standardized his scheme. Which conclude that Al-Amir Tankiz's architectural work is considered evidence of his exceptional systematic planning and his vision in the adding up to the urban planning of cities as well as highlighting the different aspects of the Mamluk architectural concepts.

المقدمة:

القدس، أرض الحضارات المختلفة، والمعرض الإبداعي الحي الذي كشف عن طبيعة تفكير الشعوب التي مرّت بها، والتي ساهمت في التطور الحضاري والمعماري الذي وصلت إليه. فلقد واكبت مدينة القدس مختلف جوانب الحياة الدينية والسياسية والإجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية لأمم متعددة، حيث شكلت أرضها قاعدةً رئيسة لأمم عديدة منذ ما قبل الاسلام لبناء حضاراتها عليها. حيث كان للموقع الجغرافي لمدن بلاد الشام عامةً ومدينة القدس خاصةً بوقوعها بين بلدان الشرق والغرب، الأثر الأكبر في أطماع امبراطوريات للسيطرة عليها. فقدّمت الإمبراطوريات اليونانية والرومانية والبيزنطية ثقافاتها المعمارية من خلال صروح ضخمة، هدفت من خلالها الى إرساء مفهوم القوة لتدعيم سيطرتها على هذه المناطق.

ومع ظهور الاسلام شكلت الحضارة العربية الإسلامية على مدى العصور منذ العصر الأموي حتى العصر العثماني الطابع المعماري المتميز في مدينة القدس، حيث جعلت هذه الحضارة من المدينة مقصداً للعلم والعلماء ومنارةً ثقافيةً تُرَسِخُ أساساً لبناء الحضارة والسلام، على عكس الحضارات الأخرى السابقة التي اتخذت من المدينة مسرحاً للنزاعات والعدوان بغية السيطرة. وقد تم إنشاء عمارة متميزة بنسبها المعمارية المتقنة وزخارفها الرائعة، وكان لعاملين طبيعيين اساسيين الأثر في ذلك، أولاً العامل الجغرافي من حيث طبيعة مناخ منطقة البحر الأبيض المتوسط عامةً والقدس خاصةً، وثانياً العامل الطوبوغرافي حيث تتميز المنطقة بطوبوغرافية جبلية. فقد اعتُمِدَ الشكل المكعب البسيط في العمارة والذي اصبح الشكل المهيمن للعمارة الاسلامية، حيث يُوفر واجهات بفتحات قليلة وصغيرة من الخارج تضمن الخصوصية الإجتماعية، وصحن داخلي مفتوح يوفر الإنارة والتوزيع الحراري المناسب، وتم التكيف مع هذا الشكل للتأقلم مع العوامل الطبيعية الأساسية المؤثرة فيه، من خلال التوزيع الوظيفي المتناغم للمساحات والحدّ من امكانية سيطرة الملل والجمود على الواجهات من خلال التنوع في الزخارف المستخدمة، كما وساعدت طوبوغرافية المنطقة من هذا الحدّ حيث أوجدت انسيابية في توزيع الكتل المعمارية بشكل متوازن مع المنحدرات.

ومن العمارة التي تميزت على مدى العصور الاسلامية بناء قبة الصخرة المشرفة في العصر الأموي والتي لا يمكن تجاهل وصفها في أي من كتب التاريخ والعمارة والآثار والفن، كما وبناء المدرسة الصلاحية والمدرسة التنكزية والمدرسة الأشرفية وسوق القطانين وتكية خاصكي سلطان....الخ، في العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية.

ولقد غدا عصر سلاطين المماليك بفترة العصور الاسلامية المتأخرة في 1250م في تمثيل مرحلة جديدة في تاريخ مدينة القدس، حيث استطاع المماليك السيطرة على الحكم ونزع السلطة من ايدي

الأيوبيين من خلال احترافهم العسكري واحترامهم النظام وتمسكهم بالإسلام كعقيدة، بالرغم من أصولهم غير الإسلامية، إلا أنه قد تمَّ تعليمهم الدين الاسلامي في منشآت اسلامية، فأظهروا انتمائهم الكامل للدين الاسلامي على مدى فترة حكمهم الممتدة لنحو 267 عاماً، الأمر الذي أثّر في قيام دولتهم على اساس الدفاع عن الكيان الإسلامي وجَعَلَ مبدأ سياستهم من شقين حربي وديني، هذا الأمر الذي جعل المدينة تنعم بالأمن والاستقرار من خلال قوتهم العسكرية، وتشهد الثراء والازدهار.

وبالتالي فإن السياسة الدينية لدى السلاطين والأمراء المماليك قد انعكست على إبراز اهتمامهم بين كافة المسلمين بمدينة القدس ومؤسساتها الدينية والاجتماعية والخيرية، لوعيهم بمكانتها الدينية وخصوصيتها المقدسة عند عموم المسلمين، فعملوا على إنشاء وتعمير العديد من المنشآت المختلفة من أماكن الإقامة (الخانات) والخانقاوات للمتصوفين وأماكن الدراسة والعبادة. فأنشأوا المدارس من أجل ترسيخ المكانة الدينية للمدينة، والأسواق التي تضمنت على العديد من المحال التجارية بالإضافة الى أماكن للسكن، والحمّامات للراحة والمآذن والأسبلة والأضرحة....الخ. ولم يتوانوا في اقتطاع جزء من ثرواتهم الضخمة في سبيل رعاية مقدسات المسلمين والعناية بالمؤسسات العلمية والخيرية، من أجل ظهورهم دائماً في صورة رعاة الدين القائمين على خدمته، وتوفير الحياة الجيدة بشتى مجالاتها في المدينة. ولم يقتصر اهتمامهم على المؤسسات الدينية الاسلامية فحسب، بل إن الطوائف المسيحية تمتعت بالحرية الدينية في المدينة، وقاموا بترميم واصلاح مؤسساتهم الدينية.

ومن منطلق حرص سلاطين المماليك في انشاء عمائر ترسخ غايتهم في اظهار مكانة مدينة القدس، فقد أبدعوا في تصاميم العمارة، سواء من الداخل أو الواجهات الخارجية، والتي شكلت طرازاً معمارياً يُحتذى به. وأصبح للعصر المملوكي الدور البارز في تشكيل الطابع المعماري لمدينة القدس، بما طبعه من طرازٍ متميزٍ وتحفٍ معماريةٍ شامخةٍ الى يومنا، تشهد بأصالة هذا العصر، وبعمق الفكر المعماري المنقطع النظير، الذي هدف الى إنشاء عمائر وتركيب فراغاتها الداخلية وعلاقتها مع بعضها البعض بشكل يخدم هدفها الوظيفي، وتزخر بالزخارف الراقية المتنوعة، مما جعلها تحاكي الوظيفتين الإنشائية والجمالية في آنٍ واحد. فاستخدام الإيوانات في التخطيط المحوري للمدارس، واستخدام القباب، كما التصميم المتوازن للمآذن وتحديد مستوياتها بواسطة الزخارف الخارجية، حقق الهدف الوظيفي والجمالي بشكل متناغم. وبالرغم من اختلاف الوظيفة الداخلية للمباني، إلا أنه بالإمكان تمييز عناصر موحدة تميز واجهات العمارة المملوكية. فقد جاءت معظم المباني المملوكية ملاصقة لبعضها البعض، على طول المحاور المطلة عليها وبالقرب من منطقة الحرم القدسي، بالتالي شكلت أهمية في بعدها الثنائي، حيث أن الواجهة الأمامية للمبنى هي فقط الظاهرة، وعكست هذه الواجهات الغنية بالعناصر المتميزة من اطار الواجهة والمقرنصات

والأدراج والمكسلتين والمصبّعات الحديدية وغيرها، اسلوباً راقياً وفرضت ارتفاعات هذه الواجهات عظمة ومهابة للمباني، وأرست اساساً راسخاً في الفن المعماري.

ويُمكننا متابعة وملاحظة ذلك في المباني التي أُنشِئَت خلال فترة حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطان المملوكي في مصر ونائبه على بلاد الشام الأمير سيف الدين تنكز الناصري في الفترة الواقعة ما بين عامي 1312م و 1340م، حيث تُعتبر المرحلة الزمنية التي تمت فيها نيابة الأمير تنكز على بلاد الشام عامة ومدينة القدس خاصة، من المراحل المتميزة في العصر المملوكي، حيث عُنِيَ الأمير بتطوير المدينة وذلك لأهميتها الدينية، فسعى الى اقامة منطقة خدمات متكاملة يُعزز من خلالها المكانة الدينية للمدينة كما ويحقق مكانة اقتصادية وخيرية واجتماعية وثقافية لها. فعمل على تعمير واعادة استخدام العديد من المنشآت المعمارية كالأسواق والخانات والمدارس والمآذن والحمّامات، وتُعتبر هذه المنشآت كاملة على اختلاف وظائفها معالماً معماريةً وأثريةً في مدينة القدس، وتحفاً معماريةً يُشار إليها بالعظمة والدقة على المستويين المعماري والفني حتى يومنا هذا.

ومن خلال تعقُب المنشآت المعمارية في القدس، يتبين أنه قد تم إنشاء العديد من العمائر المملوكية على فترات متعاقبة لحكم السلاطين المماليك والأمراء في مختلف مناطق المدينة، من مدارس وخانات وحمّامات،...الخ. ولكن تُعد أعمال الأمير تنكز اعمالاً متميزة ومتفردة، حيث أنها ارتبطت جميعها ضمن نطاق مساحة واحدة والتي من خلالها كان للأمير دوراً بارزاً في التأثير على تخطيط مدينة القدس ومخططها العام، من خلال طرحه لنظام المجمعات المعمارية كاسلوب في التخطيط ودمجه مع نسيج المخطط الحضري للمدينة. وستتناول هذه الرسالة موضوع دراسة هذا المجمع المعماري كوحدة معمارية متكاملة من خلال التخطيط الحضري للمنطقة الواقع فيها، وابراز المنشآت الواقعة ضمن المجمع وتحليلها معمارياً وزخرفياً، ووضع هذه المعلومات عن عمائر تنكز في مجموعة خاصة لما لها من اهمية تاريخية أثرية وطرازٍ معماري متميزٍ.

وقد تمَّ تقسيم الدراسة الى الفصول التالية:

الفصل الأول: تطرق في هذا الفصل للحديث عن نشأة المماليك تاريخياً (أصولهم، تقسيم عهدهم، البعض من أبرز سلاطينهم وعوامل ضعف دولتهم) ثمَّ تطورهم العمراني.

الفصل الثاني: تناول هذا الفصل الجوانب الادارية المملوكية لبلاد الشام، من خلال الحديث عن التقسيمات الادارية (النيابات) فيها، والوضع الاداري لمدينة القدس كما الجوانب المختلفة للحياة الثقافية فيها.

الفصل الثالث: تطرق هذا الفصل للمحة عن حياة الأمير تنكز من جوانبها المختلفة (كنشأته، صفاته، القابه وأهم اعماله...)، ثمَّ الحديث عن انجازات الأمير المعمارية ضمن مجمعه المعماري ذات الأثر البارز في التطور المعماري للنسيج الحضري لمدينة القدس.

الفصل الرابع: تناول هذا الفصل العناصر المعمارية والزخرفية لعمائر تنكز، كما والمواد المستخدمة في البناء. وتمَّ اعتماد معظم هذا الفصل على المشاهدة والوصف.

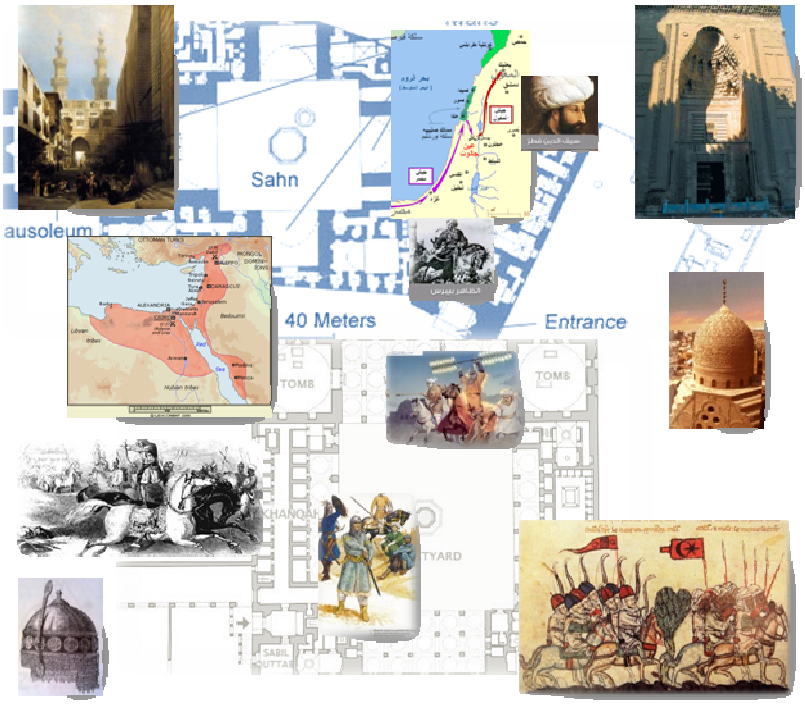
الفصل الخامس: تمَّ الحديث عن الأعمال المعمارية للأمير في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من خلال تحليلها معمارياً وزخرفياً.

فأرجو الوصول الى اتمام دراسة شاملة لأعمال الأمير تنكز في مدينة القدس، والتي آمل من خلالها أنْ اكون بتوفيق من الله قد ساهمت مع الجهود العلمية التي بُذِلَت في سبيل توثيق واظهار المعلومات القيمة لهذه العمائر، مع اضافة مجهود متواضع في عرضها بمضمون جديد وكدراسة متكاملة عن أعمال الأمير تنكز التي جمعت ما بين الآثار والتخطيط والعمارة والفنون، وجَعْلِها منفعة للجميع.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

نشأة المماليك وتطورهم العمراني



الفصل الأول

نشأة المماليك وتطورهم العمراني

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول الحديث عن نشأة المماليك تاريخياً من خلال التطرق الى أصولهم وسلاطينهم ثم عوامل ضعفهم وانهيارهم. أما القسم الثاني فيتناول موضوع العمران في العهد المملوكي بشكل عام، موضحاً قِوام هذه النهضة العمرانية وما انبثق عنها من انشاء مختلف الطرز المعمارية، بالإضافة الى الوصف البسيط لبعض أبرز الانجازات المعمارية في تاريخ هذه الدولة، وما امتازت به من مميزات.

1.1 نشأة المماليك:

1.1.1 أصلهم: هم أقواماً من الأتراك والشراكس أو الجراكس الذين كانوا يؤخذون أسرى في الحروب أو يُفتدون من التتار أو يتم شراؤهم للخدمة في الجيش ويُجلبون الى البلاد الإسلامية[1]، أو يُقدموا كهدية للسلطان. وأصل الكلمة في اللغة العربية يعود الى الفعل مَلَكَ، ومملوك اسم مفعوله ويُقصد به الرقيق الأبيض، حيث كان يتم شرائهم واستملاكهم، فأُطلقت عليهم هذه الصفة والمُسمى[2] . ولكن لا يمكن الخلط بين هذه التسمية وكلمة " عبد "، الذي يتم شراؤه للقيام بمهام متدنية الأهمية، وغالباً يكون أسمر اللون، أما التعريف بالمملوك فهو الفرد الذي يتم المتاجرة به قبل أن يصل سن النضج ويكون من خارج حدود الدولة الإسلامية، ليتم تربيته ولينشأ نشأة اسلامية، وتكون خدمته في الجيش أو في بلاط السلطان، ويُشكل هو والمماليك الآخرين قوة اساسية للسلطان أو الحاكم[3]. ولكن مع مرور الزمن أصبح هذا الوصف لا يتناسب بتعريف المماليك لعظمة قوتهم وحنكتهم وانجازاتهم العسكرية والثروة العمرانية التي خلّفوها من بعدهم[4].

---

[1]. Atil, Renaissance of Islam, p.12 ؛ الموسوعة الفلسطينية، مج4 طب1، 1984، ص290

[2]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص1.

[3] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem p.53.

[4]. حميد، فلسطين التاريخية، الأرض الانسان الحضارة ص341 .

في بادئ الأمر كان يتم شراء المماليك من قبائل تركية فقط من آسيا الوسطى ولاحقاً من آسيا الغربية. وكانوا جميعاً من اصل غير مسلم وذلك تماشياً مع عقيدة الاسلام بمنع اقتناء خدم من المسلمين. ومن بداية نشأتهم يتم تدريبهم فن القتال والفروسية الى جانب التعليم الأساسي، ثم يتم اختيار الصفوة منهم ليكونوا المرافقين والخدم الشخصي للسلطان، فشكلوا الحرس المملوكي على مدى العصور وتباعاً الدولة المملوكية. وبسبب بعدهم عن موطنهم الأصلي وعن عائلاتهم كانوا موالين تماماً للسلطان، الذي كان بدوره يعطيهم حريتهم ويكسبهم القوة، خاصة البارزين منهم[1].

وكان أول من استخدمهم هم الخلفاء العباسيون الذين اكثروا من شراء المماليك لدعم قوتهم وسلطتهم خشية من نفوذ الفرس، كما أنه عند بدء تفكك الدولة العباسية ورغبة الحكام في الاستقلال بولاياتهم، دفعهم الى شراء المماليك ليشكلوا جيشاً يحقق لكل منهم رغباته ومطامعه. وكانت مصر من بين هذه الولايات التي شهدت ازدياد في أعداد المماليك من الأتراك والديلم[2]، خاصة من قِبَل خلفاء الدولة الفاطمية الأواخر في وقت لاحق.

حتى قيام الدولة الأيوبية التي اشتهرت بعظمتها وقوتها وسطوتها وازدياد جموع المماليك فيها، حيث اتخذ السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب والذي قضى على الدولة الفاطمية، عسكره من الأكراد والأتراك خاصة، وأزال الأجناس الأخرى. إلا أنَّ الإنقسام الداخلي الذي شهدته الدولة الأيوبية في بدايات القرن الثاني عشر الميلادي عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي عام 1193م[3]، والأخطار الخارجية التي تعرضت لها من قِبل القوى الصليبية والخوارزمية والمغولية، وتحالفها مع السلاطين الأيوبيين في بعض الأحيان من أجل تحقيق مكاسب سياسية، جعل من أمر النزاعات على الحكم بين الأمراء الأيوبيين من أولوياتهم، وأدى ذلك الى إضعاف وحدة الدولة الأيوبية وانتشار الفوضى في مصر وبلاد الشام، خاصة بعد وفاة السلطان الكامل ملك مصر في 635هـ/ 1238م، حيث كان بوفاته بداية لتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها. الأمر الذي دفع بالأمراء الأيوبيين الى الإكثار من شراء المماليك وتدريبهم ليشكلوا منهم فرقاً عسكرية خاصة وقوة وسنداً لهم في صراعاتهم القائمة. وكان من بينهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (ابن الكامل) الذي أسس هذه المجموعة من المماليك بعد توليه الحكم على دمشق في 636هـ/ 1239م ليشكلوا نظاماً عسكرياً، حيث دخل في صراعات داخلية ضدَّ أخيه السلطان العادل وأمراء آخرين للهيمنة على الحكم، فكان في حاجة الى جيش قوي يسانده ويساعده في دحر المؤامرات على السلطنة،

---

[1] . Auld, S, J. Palestine Exploration Quarterly, pp. 85-87; Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.3-5; Atil, Renaissance of Islam, p.12.

[2]. الديلم: هي المنطقة الجبلية من بلاد جيلان، والواقعة في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وقد نُسِبَ إليها سكانها فعُرفوا بالديلم أو الديالمة. (المقريزي، السلوك ج1 قسم1 ، ص23، حاشية 1)

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج1، ص94؛ عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص1-3 .

واستطاع بعد ذلك من دخول القاهرة سلطاناًعليها لمدة عشر سنوات من 637هـ – 647هـ/ 1240م– 1249م[1]. إلا أنه بوفاته ازداد نفوذ المماليك بقوتهم وعددهم واصبحوا يدبروا المؤامرات ضدَّ الأمراء، فكان لهم الرأي في عزل أو تعيين الأمراء تبعاً لمصالحهم الشخصية. وقد امتاز المماليك بالقوة والشجاعة والمنظر الحسن والبشرة البيضاء اللون، وبسبب تربيتهم العسكرية كان مفهومهم لأحقية اعتلاء الحكم تقوم على اساس الشجاعة والذكاء وليس على اساس الوراثة، فاستطاعوا الوصول الى حكم مصر في 1250م بعد الخلاف بينهم وبين الملك المعظم غيّاث الدين توران شاه (ابن الملك نجم الدين ايوب)، الذي أُعلن عنه سلطاناً في دمشق وهو في طريقه الى مصر، بعد النصر الكبير الذي حققه المماليك ضدّ الحملة العسكرية للصليبيين بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع في فارسكور قرب دمياط في مصر. وقد شكلّ هذا الانتصار للمماليك احساساً بتفوقهم وازدياداً لقوتهم، فتنبه الملك الى محاولتهم الاستيلاء على السلطة والغدر به مما أدى الى توتر علاقته معهم، وازداد استياء المماليك منه خاصة بعد انشغاله باللهو وسوء ادارته للمُلك، فلم يستغل النصر الذي تحقق لتأكيد بسط نفوذه على مصر إنما كان يفتقر الى الحنكة السياسية وغير مكترث بأمور الدولة الأيوبية في مصر.

فاتفقوا على قتله وبتأييد من زوجة أبيه شجرة الدّر تمّ ذلك[2]، حيث مات في فارسكور وسقط في مياه النيل بعد أن دامت مدة ملكه واحد وسبعون يوماً. بالتالي انتهى حكم الدولة الأيوبية على مصر بعد حكم دام واحداً وثمانين عاماً من 567هـ – 648هـ/ 1169م–1250م، واصبحت السيطرة لقوة المماليك البحرية[3]. إلا أنّ هذا الأمر كان له ردة فعل لدى الأيوبيين في بلاد الشام، فتوجهوا الى مصر للقضاء على القوة المملوكية الناشئة، وحدثت صدامات كثيرة أسفرت في نهايتها الى عقد معاهدة سنة 651هـ/ 1253م، بموجبها تم الاتفاق على الإعتراف بالدولة المملوكية الناشئة وأن تكون فلسطين بما فيها القدس حتى نهر الأردن للمماليك، أما الأجزاء الشمالية لبلاد الشام فتبقى في أيدي الأيوبيين تحت حكم الملك الناصريوسف بن أيوب حاكم دمشق والملك المغيث عمر حاكم الكرك.

إلا أنّ بلاد الشام استمرت في معاناة الفوضى والقلق في عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي، واستمر الصراع بين أيوبية الشام ومماليك مصر حتى عام 1259م حين اشتد الخطر التتاري على الدول الأيوبية، فما كان من الملك الناصر يوسف إلا طلب العون من المماليك لمجابهة القوة التترية. فخرج سلطان المماليك قطز لمواجهة قوات التتار والتقى الطرفان في عام 1260م والذي شهد

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص10–11.

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص20–22 ؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص188–189.

[3]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، قسم2، ص360–361.

موقعة عين جالوت ونقطة تحول حاسمة في الصراع ضدّ الصليبيين والتتار حين نالت القوات المملوكية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري النصر في المعركة[1]. وهكذا استطاعت حينها القوة الناشئة لدولة المماليك في مصر تحقيق الامن والاستقرار من خلال السيطرة على بلاد الشام وطرد بقايا الصليبيين منها. فامتد حكم المماليك لمصر وبلاد الشام مدة قرن ونصف من الزمن بين عامي 648هـ –922هـ/ 1250م– 1517م[2]، وفي أثناء سلطتهم الحاكمة استمروا في خلالها بجلب المزيد من المماليك الى مصر من أصول مختلفة سواء من الصقالبة أو اليونانيين أو الاسبان أو الألمان وتربيتهم وتدريبهم، وقام المماليك بدورهم في خدمة اسيادهم والدفاع عنهم، حتى ضعف دولتهم وازالة نفوذها على يد العثمانيين[3].

وقد قُسِّم عهدهم الى قسمين:-

1. عهد المماليك الأتراك أو المماليك البحرية 648هـ – 784هـ/ 1250م– 1382م
2. عهد المماليك الجراكسة أو المماليك البرجية 784هـ – 922هـ/ 1382م– 1517م

1.1.2 المماليك الأتراك أو البحرية:-

يُعد المماليك الأتراك من جند الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب، معظمهم من بلاد القَبْجَاق[4] وبلاد القوقاز قرب بحر قزوين. كان عددهم حوالي سبعمائة وخمسون الى ثمانمائة مملوك، وكانوا موالين تماماً للملك، فعظمت مكانتهم عنده وجعل منهم أمراء لدولته، وسمَّاهم المماليك البحرية لأنه قد بنى لهم واسكنهم معه قلعة الروضة على جزيرة الروضة وسط النيل في مصر[5]. وقد يكون هناك سبب آخر لهذه التسمية ولكنه غير مرجح، هو أنَّ هؤلاء المماليك كان يتم جلبهم عن طريق البحر بصحبة التجار ولذلك سُمّوا بالبحرية[6]، فعُرفت هذه الفرقة بالبحرية الصالحية، وكان أمراؤهم هم الذين اسسوا الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام[7].وقد انقسموا لاحقاً الى المماليك الظاهرية اتباع الظاهر بيبرس والمماليك الأشرفية اتباع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

---

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ص394–396.

[2]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص305.

[3]. الزيدي، العصر المملوكي، ص21.

[4]. القَبْجَاق: يُعَد القَبْجَاق فرع من الترك الذين تعود اصولهم الى حوض نهر إرتش، وتنقلوا الى أن استقروا بحوض نهر إتل(الفلجا) في جنوب روسيا، فعُرفت تلك المنطقة بالقَبْجَاق، كما عُرفت به دولة المغول المعروفة باسم القبيلة الذهبية.(المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 قسم3 ص663).

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2 ص236؛ عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص176–177.

[6]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص5.

[7] .Atil, Renaissance of Islam, p.12.

كان من أبرز سلاطينهم:-

أ. **الملكة عصمة الدين الصالحية الملقبة بشجرة الدُّر وأم خليل،** كما عُرفت باسم المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل[1]. كانت في الأصل جارية تركية ويُقال أرمنية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب وحظيت بمكانة عالية عنده فتزوجها، وانجبت منه ابنهما خليل الذي مات وهو صغير. ويُنسب تلقيبها بالمستعصمية الى أنها كانت جارية للخليفة العباسي في بغداد المستعصم قبل أن يشتريها الملك الصالح أيوب[2]. إلا أنها بعد وفاة الملك وبتآمرها مع المماليك البحرية لقتل ابنه توران شاه استطاعت الوصول الى حكم مصر واصبحت سيدة البلاد في عام 648هـ - 1250م، وتم اقامة الأمير عزالدين أيبك التركماني الصالحي على رأس جيشها[3]. إلا أنَّ تنصيب شجرة الدُّر على مصر لم يرضِ الخليفة العباسي المستعصم لإستنكاره بحكم امرأة للبلاد[4]، كما لم يُرضِ أيوبي بلاد الشام وواجهه الأمراء في الشام برفض تقديم الولاء لها، وبأنهم اصحاب الحق الشرعي في حكم مصر، فاتفقوا على مواجهة المماليك في الشام وفي مصر. فأدرك المماليك في مصر الخطر الذي يهدد سلطتهم بعدم اعتراف أمراء الشام بحكمهم، فاقترحوا زواج شجرة الدُّر من الأمير أتابك[5] العساكر عزالدين أيبك، وتم ذلك في عام 648هـ - 1250م، وتخلت له شجرة الدُّر عن السلطة بعد أن حكمت ما يُقارب الثمانين يوماً، فأصبح زوجها ملكاً وراح يُدعى الملك المعز عزالدين أيبك الجاشنكير التركماني[6].

ب. **السلطان الملك المعز عزالدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي،** تركي الأصل، اسمه أيبك وهو اسم تركي مُرَّكب من لفظين وهما "أي" بمعنى القمر و"بك" بمعنى أمير. لُقب بالصالحي النجمي حيث كان من حرس الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي أحضره من أولاد التركماني فعُرف بذلك بالتركماني، وأصل أولاد التركماني يعود الى بلاد التركمان مع أنهم عرب غسانية، فنُسبوا الى غسان كما نُسبوا الى التركمان، وقد أتوا الى بغداد كما سكنوا اليمن[7]. لقد ارتفع شأنه عند الملك الصالح فنصّبه من أمراءه برتبة جاشنكيره فعُرف بالجاشنكير أي ذوّاق طعام السلطان،

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص21-22.

[2]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 قسم 2، ص361-362.

[3]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص197 ؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص189.

[4] .Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.8

[5]. اتابك: لقب من زمن السلاجقة مكون من لفظين، أتا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، أي الأمير الوالد، درج بهذا المعنى للشخص المسؤول عن تربية اولاد الملوك وتعليمهم، ثم أصبح يدل في العصرين الأيوبي والمملوكي على قائد العسكر. (بن تغرى بردى، المنهل الصافي، ج1،ص7،حاشية6؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص35).

[6]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص237 ؛ الزيدي، المصدر السابق، ص22-23.

[7]. المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 قسم2، ص368؛ بن تغرى بردى، المنهل الصافي،ج1،ص5-6.

حيث يقوم بتذوق الطعام قبل السلطان تحسُباً من أن يكون قد دُسَّ فيه السم، وله رنكة أي شعار تتناسب وهذا المنصب وهي صورة مائدة[1].

بعد وفاة الملك الصالح أيوب ومقتل ابنه الملك توران شاه، تنصّب الأمير أيبك أتابك العساكر أي مقدم العسكر في السلطنة مع شجرة الدُّر وقد عُرف حينها بين أمراءه بالدين والكرم والرأي السديد، تزوج من شجرة الدُّر لاحقاً وأقيم ملكاً على مصر. إلا أنَّ أمراء بلاد الشام اتفقوا على تنصيب واحد من بني أيوب ليشارك في السلطنة وذلك لتخوفهم من الملك المعز أيبك، فأجمعوا على إقامة الأشرف مظفر الدين موسى بن أيوب ملكاً، إلا أنه لم يكن له سوى اللقب في شراكة الملك وذلك لصغر سنه حيث لم يتعدى العشرسنوات من العمر وأن يظهر اسمه مع الملك على التواقيع والمراسيم وينقش على السكة ويتم الخطبة لهما في المنابر، وكانت أمور الدولة جميعها تُدار من قِبَل الملك المعز أيبك[2]. حتى عام 650هـ – 1252م حين وصول خبر بحركة التتار على بغداد فألغى المعز اسم الأشرف من الخطبة وانفرد بالسلطنة وقام بالقبض على الأشرف وسجنه، فكان بالتالي آخر ملوك الأيوبيين في مصر[3].

امتدت مدة حكمه سبع سنوات استمرت في خلالها النزاعات بين الأيوبيين في بلاد الشام تحت حكم الملك الناصر يوسف بن أيوب والمماليك في مصر، إلى أن تم الاتفاق على الصلح عام 651هـ – 1253م بأمر من الخليفة العباسي المستعصم بالله، وذلك لتوحيد الجهود لمواجهة الخطر المغولي للعالم الاسلامي[4].

فقضى أيبك معظم ايامه في ساحات القتال في مصر وسوريا وفلسطين، وكان شجاعاً صارماً ظالماً سفاكاً للدماء حيث قتل العديد دون ذنب ليوقع مهابته بين الناس[5].

وفي خلال فترة حكمه واجهت زوجته شجرة الدُّر صعوبة في تركه يحكم بنفسه وشعرت بندم لتخليها عن السلطة، ففرضت قوتها عليه وهي التي عُرفت بشخصيتها القوية وسطوتها فاستبدت بالأمور السياسية وحاولت التخلص من زوجها فبادرت بالاتصال بالملك الناصر يوسف لإعلامه بنيتها التخلص من زوجها والزواج به فيصبح سلطاناً على مصر، ولكنه شعر بأن هذا قد يكون خديعة فامتنع عن الجواب. إلا أنه لم يمنع شجرة الدُّر من تنفيذ ما تريد خاصة بعد علمها بنية

---

[1]. الجَاشْنكِير: لقب مركب من لفظين فارسيين، الأول: جاشنا ومعناه الذَّوقْ، والثاني: كير بمعنى المتعاطي لذلك أو الذي يقوم بالتذوق.(القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، ص460)؛ بن تغرى بردى، المنهل الصافي،ج1، ص5، حاشية (3) و(4)؛ Palestine Exploration Quarterly, The Mamluks and the Venetians, p.87.

[2]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ص369–370؛ بن تغرى بردى، المصدر السابق، ج1، ص6–7.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2،ص237.

[4]. الزيدي، العصر المملوكي، ص23.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص238 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 قسم2، ص404.

زوجها من الزواج بأُخرى، فحرّضت الخدم على قتل المعز أيبك وساعدت في ذلك، مما أدى الى غضب مماليكه فتوجهوا الى شجرة الدُّر وقتلوها انتقاماً لسيدهم وكان ذلك في عام 655هـ – 1257م.

تولى من بعده المُلك ابنه السلطان الملك نورالدين علي بن أيبك وتلّقبَ بالمنصور. كان عمره خمسة عشر عاماً، ولصغر سنه عُيِّن الأمير سيف الدين قطز نائباً له ومدبراً لأمور الدولة، والذي قام بدوره بعزل الملك المنصور بعد أن دام حكمه سنتين وثمانية أشهر. ففي عام 656هـ – 1258م استولى المغول على عاصمة الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ودمروا وحرقوا، فشكلوا خطرا هدد بلاد الشام ومصر، رأى الأمير سيف الدين قطز الفرصة سانحة للسيطرة على الحكم، فخلع الملك المنصور عام 657هـ – 1259م واعتقله وأنهى حكمه، بحجة خوفه من الغزو المغولي وأن البلاد بحاجة الى سلطان قوي يقاتل العدو، ليس الى صبيٍّ يشغله اللعب ومستهتر بأمور الدولة، فانتقل له الحكم وأصبح الأمير سيف الدين قطز سلطاناً[1].

ج. **السلطان سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي، اسمه الأصلي محمود بن ممدود[2]**، عُرف بالمعزي لأنه من مماليك الملك المعز أيبك، هو من الخوارزميين فهو ابن أخت الملك خوارزم شاه، تم أسره في حروب التتار ثم احضاره الى مصر واشتراه الملك المعز أيبك، لُقب بالملك المظفر واتصف بالشدة والحزم[3].

شهد عام 658هـ –1260م معركة عين جالوت، حيث هدد الزحف المغولي بقيادة هولاكو بلاد الشام ومصربعد سيطرتهم على بغداد وزحفهم نحو حلب، مما دفع بالملك الناصر يوسف حاكم دمشق الى طلب العون من الملك قطز من مصر والمغيث عمر حاكم الكرك، إلا أنّ الملك الناصر قام بالفرار لشدة خوفه واضطرابه متجهاً نحو غزة، كما أنّ معظم الناس رحلوا وتركوا دمشق خالية[4]. واتجه المغول نحو دمشق بعد أخذ حلب، فقرر من بقي فيها من الناس تسليم المدينة الى هولاكو الذي قُرأت فرماناته بأمان أهل دمشق[5]. واستمر المغول بالزحف نحو بعلبك وغزة وبانياس، حينها أرسل هولاكو خطاباً الى الملك قطز في مصر يهدده ويطلب منه التسليم، مما دفع بالملك الى قطع رؤوس الرُسل وتعليقهم، ونادى بالخروج الى الجهاد في سبيل الله، وأمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بأن يسير وجيشه نحو غزة لاستطلاع أخبار التتار، فنزل بها ودفع

---

[1]. بن تغرى بردى، المنهل الصافي، ج1، ص11–14؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص24–25 ؛
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.9.

[2]. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج24، ص252 ؛ المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص435.

[3]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص198 ؛ Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 9

[4]. المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص419.

[5]. المقريزي، المصدر السابق، ص 423–424.

التتار الى الرحيل عنها فتملكها[1]. فأمره السلطان قطز بأن يتحرك باتجاه بيسان حيث وافاه عند عين الجالوت وهي بلدة صغيرة بين بيسان ونابلس في فلسطين، وبها دارت المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة الملك المظفر قطز والأمير بيبرس البندقداري وبين المغول بقيادة كتبغا نائباً عن هولاكو بحلب وبيدرا نائباً عنه بدمشق، حيث أن هولاكو قد اضطُر الى العودة الى آسيا الصغرى لوجود فتنة داخلية في بلاده بوفاة اخيه الخان الأعظم على جميع التتار، ووجود الطامعين في المُلك من أبناء بيت جنكزخان.

تقدم الملك المظفر قطز في طليعة العسكر لقتال المغول وأبلى بلاءً حسناً في المعركة التي انتهت بانكسار التتار وقَتْلْ كتبغا ومنَّ الله على المسلمين بالنصر. بعد انقضاء المعركة وورود الخبر الى دمشق بانهزام التتار فرّوا منها بعد أن استولوا عليها مدة سبعة اشهر وعشرة أيام، وانحصرت سيطرتهم عند حدود العراق. بعدها وصل الملك المظفر الى دمشق واسترد سائر بلاد الشام من الفرات الى حدّ مصر بمعاونة الأمير ركن الدين بيبرس[2]. وأصلح من حال البلاد وعيّن النواب والولاة ودانوا له بالولاء وجعل من دمشق نيابة مستقلة يرأسها أمير ذو رتبة عالية، وبهذا فإنَّ السلطان قطز هو الذي أدخل النظام الإداري المملوكي بتقسيم البلاد الى نيابات وأنهى النظام الإداري الأيوبي[3]، الذي اعتمد على تقسيم المملكة بين أمراء البيت الحاكم، حيث كانكل أمير يُعهد إليه بإقليم من أقاليم الدولة[4]. وقد وعد بيبرس بتوليته نيابة حلب، وخرج من دمشق قاصداً مصر وفي خلال طريق عودته انحرف عن المسار بغية الصيد ومعه الأمراء، إلا أنَّ الأمير بيبرس قد انتهز الفرصة للغدر لعدم وفاء الملك له بتوليته حلب وولاها لآخر، فقبض على الملك المظفر هو والأمراء المتآمرين معه وقتلوه قرب الصالحية بمصر، وكانت مدة ملكه لا تتعدى السنة[5]. دفِنَ ببلدة القُصَيّر وبقيّ قبره فيها يُترحم عليه ويُشتم من قتله إلى أن تم نقله الى مكان غير معروف بأمر السلطان الذي حكم بعده وهو ركن الدين بيبرس البندقداري[6].

د. **الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي النجمي**، هو تركي الأصل من بلاد القَبْجاق، اشتراه الأمير علاءالدين أيدكين البندقدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أخذه منه، ثم ترقّى في مناصب الدولة حتى أصبح ملكاً لمصر وبلاد الشام. كان شجاعاً حكيماً

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص26.

[2]. المقريزي، السلوك، ج1، قسم 2، ص430–433.

[3]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ص397.

[4]. الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص36.

[5]. المقريزي، المصدر السابق، ص435.

[6]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج24، ص253.

مقداماً قيادياً ذو مهابة وله صوت جهوري، طويل القامة، أسمر اللون وعينيين زرقاوين وفي احداهما غشاوة. كان خفيف الحركة ومولع بالتنقل[1].

تَلَقَبَ بيبرس ومعنى اسمه الأمير الفهد[2] بالملك القاهر، ثمَّ أشار عليه أحد وزراءه بأن يغير هذا اللقب الى الملك الظاهر، حيث لم يُلقب به أحد قبله، فأصبح يُعرف بالملك الظاهر بيبرس[3]. كما عُرف بيبيرس البندقداريّ[4] نسبة الى الأمير علاء الدين البندقدار، وهي كلمة فارسية بمعنى حامل البندقية[5].

يُعد أول المماليك العُظماء حيث استمرت مدة حكمه سبعة عشرسنة، قضاها في العديد من الحملات الموفقة ضدَّ الصليبيين والتتار، حيث قاد العسكر في معركة عين جالوت مع الملك المظفر قطز وحققوا النصر ضدّ التتار، وكان له الفضل في فتح العديد من البلاد ودحر الصليبيين عنها مثل قيسارية، صفد، طبريا وبانياس وغيرها، فتملك سائر اقليم مصر والشام وآخر ما فتح كانت قيصرية عاصمة سلاجقة الروم.

الى جانب انتصاراته الحربية قام بتدبير أمور الدولة، فعُنيَّ بالجيش حتى وصل عدد عسكره اثنى عشر ألفاً وهم خاصته، منهم أربعة آلاف يخرجوا معه في غزواته عُرفوا بجيش الزحف، والثلث الآخر بدمشق والثلث الأخير بحلب، يتم استدعاءهم اذا اقتضى الأمر[6]. كما قام بشراء جنود من اجناس مختلفة من بلاد القبْجاق وتركستان ومصر وشكّل منهم جيش ضخم وصل عدده الأربعون ألف فارس[7].

كما اهتم بتعمير البلاد فحسَّن الأقنية والموانئ والتحصينات حين أمر بإعادة تعمير القلاع المهدمة وأبراج المراقبة، واهتم بالأماكن المقدسة فبنى الجوامع وعمَّر مؤسسات دينية وخيرية. وأنشأ نظاماً للبريد بين القاهرة ومختلف أنحاء دولته، مما جعل من أعماله تلك وادارته الحكيمة للبلاد

---

[1]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 2، ص637؛ Muir, TheMameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 30-31

[2]. المقريزي، المصدر السابق، ص368.

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ص437.

[4]. البندقدار : هو حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير. والبندق هي كرات من الطين أو الحجارة أو الرصاص، تُستخدم في تطيير الحمام. وقد استخدمها الرُماة بعدة طرق سواء رمي بالأقواس أو بالأنابيب التي يتم ضغط الهواء بها واطلاق البندق. (المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص350، حاشية 2؛ عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص420)؛ والبندقدار لفظ مكون من كلمتين فارسيتين، أحدهما بُنْدُق، والبندق الذي يُرمى به، وقد يكون البندق الذي يؤكل وهو الجِلَّوْز بالعربية، وثانيهما دار بمعنى ممسك فيكون المعنى ممسك البُنْدُق. (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص458–459).

[5] .Muir, The Mameluke or Slave Dynasty, p. 13

[6]. المقريزي، المصدر السابق، ص638.

[7]. الزيدي، العصر المملوكي، ص35.

عاملاً شجع الناس على حبه، فكانت له شعبيته وأيضاً قوته التي عُرف بها في انحاء بلاده وخارجها.

وقد قام بإحياء الخلافة العباسية في مصر بعد سنة من توليه المُلك، بعد أن تم القضاء عليها في بغداد من قِبَلْ هولاكو[1]. حيث أراد بذلك تأكيد شرعية حكمه وأن تكون له سنداً في حكم المماليك، فأصبح يُدير أمور السلطنة كلها بشرعية من أمير المؤمنين الذي احتفظ بهذا اللقب للخليفة العباسي[2]. استمرت حياة الظاهر بيبرس في سلسلة من الصراعات الداخلية والخارجية والحروب، كما التعمير والتحسين والتي من خلالها اشتهر بالشجاعة والعزيمة والسيرة الحسنة، واستطاع تحويل الدولة المملوكية من دولة ناشئة الى دولة قوية، حتى عام 676هـ –1277م حين دخل الى دمشق وتوفي فيها مسموماً وتم دفنه هناك[3].

هـ. **السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي النجمي العلائي الصالحي،** هو من أسرة قلاوون والتي تعني "البطة"، حيث أنَّ العديد من أسماء السلاطين والأمراء المماليك كانت لها دلالات لأشياء أو حيوانات أو صفات في اللغة التركية أو الفارسية أو التترية[4]. وهو قبجاقي الجنس، من قبيلة مرج أُغْلِي، تم احضاره الى مصر وهو صغير واشتراه الأمير علاءالدين آق سنقر الساقي العادلي بألف دينار ولذلك عُرِفَ بالألفي، كما نُعِتَ بالعلائي بأنه من مماليك الأمير علاءالدين. عند وفاة الأمير انتقل سيف الدين الى الملك الصالح نجم الدين ايوب وأصبح من مماليكه[5]. تبدَّل حاله حتى أصبح في عهد الملك الظاهر بيبرس الأقوى في بلاط السلطان والرجل المُعتمد في الصراعات الحربية، حتى أنَّ الملك الظاهر قد صاهَرَهُ لرغبته في بقاء الحكم لأولاده من بعده ولاعتقاده بعدم وجود أطماع لقلاوون في الحكم، إلا أنَّ الأمير سيف الدين الذي تنصَّب أتابك العساكر في عهد سلطنة الملك العادل سلامش بن الظاهر بيبرس في 678هـ – 1279م، ظهرت لديه طموحات بالسيطرة على العرش[6]، خاصة أن الملك كان قد بلغ عمره سبع سنوات عند توليه الحكم، فقام الأمير بتدبير أمور الدولة وكان يُذكر اسمه مع اسم الملك على المنابروكان يتصرف كالملوك لمدة ثلاثة أشهر[7]، وبفضل شخصيته القوية وبُعد نظره استطاع ترسيخ سلطته ونفوذه وعمل على تمهيد الطريق لنفسه لتولي الحكم، فقام بحبس عدة أمراء من اتباع الظاهر

---

[1]. الموسوعة الفلسطينية، مج 4، ص 291 ؛ Muir, The Mameluke or Slave Dynasty, p. 14؛
Atil, Renaissance of Islam, p.13.

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص28.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم2، ص635 .

[4]. المقريزي، المصدر السابق، ص368.

[5]. المقريزي، السلوك، ج 1 قسم3 ص663؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2 ص238.

[6]. الزيدي، المصدر السابق، ص39.

[7]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3 ص663.

بيبرس وأبعد الكثيرين، واستبدلهم بأعوان مخلصين له. وتناقل أمْرْ صِغَرْ سِن الملك العادل وعجزه على إدارة شؤون الدولة كما يجب، فتم الاتفاق على خلع الملك العادل سلامش ونفيه الى الكرك وإقامة قلاوون سلطاناً وتلقَّبَ حينها بالملك المنصور وحكم مصر ما بين عامي 678هـ – 689هـ / 1279م –1290م[1].

كان لأمر تولي السلطان سيف الدين قلاوون الحكم وقعاً محبباً لدى الناس حيث استبشروا بحلول العدل والإصلاح وتعميم الخير والأمن وزوال الظلم، ودخلوا في طاعته بقبولٍ دون صَدّ[2]، فقد عُرِفَ بالشجاعة والهيبة والحُلم وقربه من نفوس الناس، وكان جميل المنظر، عريض المنكبين، ذا رقبة قصيرة، طليقاً بلغة الترك والقَبْجاق وقليل المعرفة باللسان العربي[3]. كانت له مآثر كثيرة منها تعمير منشآت عدة كالمدارس والأربطة والبيمارستانات والمساجد، وتجديد القلاع والحصون[4]. كما استطاع مواجهة التتار والصليبيين في معارك عديدة تكللت بالنصر، وواجه ثورات وفتن داخلية واستطاع التغلب عليها وإبطالها، فقد بدأ بعض أمراء المماليك الظاهرية عصيان حكم قلاوون وأرادوا التحالف مع الصليبيين، فقام أعوانه بالقبض عليهم وسَجْنْ بعضهم وإعدام البعض الآخر، الأمر الذي دفع بالملك المنصور الى إنشاء مجموعة أخرى من المماليك لتكون مخلصة له وقائمة على حمايته وخدمته، واختارهم من المماليك الجراكسة وشكلوا فرقة مقاتلة جديدة[5]، كانت النواة الأولى لقوة المماليك الجراكسة.

أما آخر غزواته فكانت عند خروجه لمواجهة جموع الصليبيين الذين وصلوا عكا من ايطاليا، وقتلوا أعداداً كبيرة من المسلمين فيها، فأراد أن يثأر لهم وجهّزَ للسير الى بلاد الشام عام 689هـ/ 1290م، إلا أنه وهو بطريقه قد ألمَّ به المرض واشتدَّ، الى أن مات بمخيمه تجاه مسجد تِبْر خارج القاهرة في الطريق الى الشام.

وبهذا فقد قضى مدة ملكه ما يُقارب الأحدَ عشرَ سنة[6]. عُرف بها بأنه من أعظم سلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس، وبأنه الوحيد الذي امتدت سلطة الحكم لأبناءه من بعده حتى أربعة أجيال[7]. فتولى الحكم من بعده ابنه الثاني الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، حيث أنَّ ابنه الأكبر علاءالدين علي بن قلاوون كان قد تسلطن في حياة والده وعُرِفَ بالملك الصالح، إلا أنه قد مرض

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص39–40.

[2]. الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، 232–233.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3، ص756.

[4]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص200؛ الزيدي، المصدر السابق، ص40.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص238؛ الزيدي، المصدر السابق، ص41.

[6]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص754–755.

[7]. الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص291.

وتوفي قبل والده. كما أنَّ الناصر محمد بن قلاوون قد مَلَكَ أيضاً، أما الأمير أحمد فقد مات في فترة سلطنة اخيه الأشرف خليل[1].

وتُعد فترة حكم أسرة قلاوون الممتدة لما يزيد عن قرن من الزمن بين عامي 678هـ – 784هـ/ 1279م – 1382م الفترة المزدهرة في حكم المماليك، حيث تميزت بالعلم والفن والأدب، والسعي لتأكيد حكم السلطان من خلال مجابهة وطمس أي تهديدات داخلية أو مؤثرات خارجية، ومحاولة ترسيخ مفهوم وحدة الدولة، مما جعل السلطان يُشَكل رمزاً للأمن والاستقرار والوحدة[2].

و. **السلطان الملك الناصر ناصرالدين أبو الفتح محمد بن قلاوون،** هو ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي، وُلد في مصر عام 684هـ، اتصف بِقِصَر القامة وبلون بشرته البيضاء وفي عينيه حَوَلْ وبأحد رجليه عَرَجْ. درس القانون وعِلْمْ اللاهوت في دمشق. استقر في السلطنة ثلاث مرات، الأولى كانت بعد مقتل أخيه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عام 693هـ / 1293م، حينها أُقيم سلطاناً وهو في التاسعة من العمر[3]. لكنه واجه صعوبات عديدة وذلك لمبدأ أحقية المُلك عند المماليك، حيث كانت على أساس تولي الحكم من لديه القوة والشجاعة وليست على أساس الوراثة، وكان الملك الناصر حينها لصغر سنه لم تتحول شخصيته الى شخصية القائد الحازم النافذ الشجاع، بالتالي لم يكن له سوى اسم المَلِكْ في السلطة، أما أمور الدولة فقام بتدبيرها نائب السلطنة الأمير زين الدين كتبغا[4]، الذي استغل لاحقاً أمر الفتنة الداخلية التي أثارها المماليك الأشرفية وفسادهم في المدينة، فتوجه الى الأمراء والى الخليفة العباسي لاقناعهم بحاجة البلاد الى سلطان قوي يسيطر على الأوضاع الداخلية والخارجية، فتم له ذلك بخلع الملك الناصر محمد بعد سنة واحدة تقريباً من توليه الحكم، وأقيم مكانه وأصبح الأمير كتبغا سلطاناً. إلا أنَّ أصوله المغولية وسوء ادارته للحكم قد أدارت إليه فعلته وتم خلعه بعد سنتين من توليه الحكم، عاشت خلالهما البلاد حياة الفقر والفساد وانتشار الأوبئة والمجاعة[5]، ليحكم بعده السلطان الملك حسام الدين لاجين المنصوري والذي دامت مدة حكمه اكثر من سنتين بقليل حيث قُتِلَ عام 698هـ / 1299م، تم بعدها تولية الحكم للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية، وعمره أربعة عشر عاماً، واستمر حكمه لمدة عشر سنين وأربعة أشهر[6]، حقق في خلالها

---

[1]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص755؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص42.

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص39.

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص437؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص260؛ Muir, The Mameluke, pp. 82-83.

[4]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص794؛ الزيدي، المصدر السابق ، ص44–45.

[5]. المقريزي، السلوك،ج1قسم3، ص806؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص356؛
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 48-49

[6]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص437؛ العيني، عقد الجمان، ص558.

نصراً بارزاً على التتار في معركة "مرج الصُفَّر" بأرض شَقحب جنوبي دمشق[1]، كما استطاع مواجهة الفتنة الداخلية والقضاء على مفتعليها، وتم إبعاد الصليبيين الذين هددوا سواحل بلاد الشام. إلا أنَّ مشاعر الضيق كانت تتزايد لدى الملك الناصر من تصرفات ونوايا أعوانه الأمير سالار نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير الأستادار[2]، وفكّر في التخلص من سيطرتهما عليه. كما أن وفاة والدته أشلون ابنة الأمير سكناى بن قراجين بن جيغان المعروفة بأم الناصر محمد[3] عام 702هـ / 1302م كانت عاملاً اساسياً في مرارة هذه المشاعر، فقرر الملك الناصر ترك السلطنة وخَلْعْ نفسه ليستريح، فادعى بخروجه لأداء فريضة الحج واتجه الى الكرك، حيث أقام هو ومماليكه في قلعة الكرك. وتسلطن بعده الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، وهو أول سلطان ذا أصول جركسية، إلا أنه لم يدُم طويلاً على العرش حيث أنه لم يحظَ بقبول الأمراء له، بل وجهوا خطابات الى السلطان الناصر محمد يُعربوا عن رغبتهم في عودته الى عرشه، كما أنَ الناس قد ضجروا من سوء حكم الملك بيبرس الذي عَلِمَ برغبة السلطان الناصر استرداد عرشه، فخلع نفسه بعد أحد عشر شهراً وانتهت بذلك فترة حكمه ليعود السلطان الناصر محمد في سلطنته الثالثة[4]، وعمره خمسة وعشرون عاماً، وتُعَد أطول فتراته في الحكم حيث امتدت لمدة اثنتين وثلاثين عاماً من عام 709هـ / 1309م الى 741هـ / 1341م. وقد ثبَّت فيها حكمه حيث اتسعت خبرته وتمرسه في الحياة السياسية وإدارة شؤون الحكم، فأصبح ملكاً راشداً ذو مكانة عالية ومآثر كثيرة، حيث استطاع تحقيق الاستقرار في أرجاء دولته، فقضى على الفتن وقهر التتار وألزم بلاد الأرمن بمستحقات مادية وسيطر على بلاد الحجاز واليمن، فاتسع نطاق دولته وفَرَضَ مهابته في داخلها وخارجها. وكان له رؤية واضحة لمستقبل الدولة، فعمد على تدبير شؤونها سواء السياسة أو الاقتصادية أو الاجتماعية، فطوَّر المؤسسات واستحدث مناصب ونشَّطَ الحياة الزراعية التي أدت الى ازدهار الحركة التجارية وتطور الاقتصاد في الدولة. كما اهتم بالعمران فأنشأ العديد من

---

[1]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص361؛ الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر ج9، ص87-88؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص52. وقعة شقحب: وعُرفت كذلك بغباغب، لأنها اشتملت على أطراف شقحب وغباغب والصنمين وهي قرى في المنطقة ذات أراضي وعرة وأحجار سوداء.(العيني، عقد الجمان، ص680).

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص53-54

الأستادار: هي لفظ فارسي أصله أصطاسرا ويعني أصطا كبير، أي سرا تعني الكبير، ثم تعربت الكلمة وعَنَت أستاذ، فكانت استاذ الدار، ثم تحورت الكلمة وأصبحت أستادار، أي الاستاذ الكبير.(المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص794) وهي وظيفة من وظائف الدولة يقوم صاحبها بتولي شؤون بيوت السلطان جميعها من الحاشية والغلمان والمطابخ والشراب، وله مطلق التصرف في النفقات ذات الخصوص. (عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص411). أما القلقشندي فيذكر أنَّ الإسْتَدَّار هو مركب من لفظين فارسيين أحدهما إسْتذ بمعنى الأخْذ، والثانية الدار بمعنى مُمْسِك، فأصبحت المتولِّى للأخْذ وهو من وظائف أرباب السيوف، ويتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصَرفه، وتُمْتَثَل أوامره فيه. ثمَّ ادمجت الذال مع الدال في الإستذدار وصارت إسْتَدَّار. (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص457).

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ص755؛ المقريزي، السلوك ج2 قسم2، ص523.

[4]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص239؛ الزيدي، المصدر السابق،ص 54-58؛ Muir,The Mameluke,pp.62-63

القصور كالقصر الأبلق في القاهرة، والمدارس كالمدرسة الكريمية بباب حطة في القدس، والمساجد كمسجد القلعة في القاهرة، والميادين كالميدان الناصري لسباق الخيل في القاهرة، واهتم بتعمير الجسور والقناطر وغيرها من العمائر. كما شجع الحركة العلمية التي انتجت فيض وافر في شتى العلوم والتي كان عمادها المؤسسات الثقافية من مدارس وجوامع وخانقاوات وبيمارستانات منذ الدولة الزنكية الى الدولة الأيوبية ثم الى الدولة المملوكية، والتي تُوِجَتْ بانجازات في كافة الميادين الثقافية في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون. والذي امتاز بأنه أطول عهود السلاطين المماليك حيث امتد في ولاياته الثلاثة مدة ثلاثاً وأربعين سنة وسبعة أشهر[1]، كان في خلالها ملكاً عظيماً جمع من المحاسن ما انفرد به عن غيره من الملوك، حيث أنه لم يكن قط إلا من طبقات الملوك فهو ابن ملك وأخو ملكين وأب لملوك وأُحيط بالملوك فكانت بداية ملكه نهاية مَلِكْ آخر[2]. وكان حازماً ذكياً كريماً حيث اشتهر بعطاءه، مسامحاً مُطاعاً في داخل بلاده وخارجها، حيث كان ملوك بلاد الشرق وبلاد الغرب يُهادونه ويُراسلونه ومنهم بوسعيد ملك التتار، حيث استطاع تحقيق الصُلح عام 721هـ/ 1323م مع هذه القوة والعدو الدائم لبلاد المسلمين[3].

وقد اتصف الملك الناصر بالحشمة والتروي وضبط النفس واتزان الكلام، فلم يتفوه بكلام فاحش حتى في مواضع غضبه الشديد، وإذا غضب على أحد لا يأخذه غضبه الى تذنيبه فوراً إنما يتروى مدة طويلة الى أن يختار له العقاب المناسب، وذلك بأنه كان يكره الظلم فيسعى الى ذكره بالجميل، وعَدَمْ إقرانه بالظلم أو الجور. كان كثير العناية بأُمرائه ومماليكه حيث كان يدعوهم بأسمائهم ويذكر ألقابهم، ويُغدق عليهم بالمال الوفير والثياب الفاخرة والخيول، كما كان شديد الفطنة بمعرفة مماليك والده وأولادهم واسمائهم ووظائفهم وكانت له مهابته وحرمته بين الجميع.

كان شغوفاً بجمع المال والجواهر واللؤلؤ، فاقتنى منها النادر والنفيس، وبالرغم من ذلك كان زاهداً في ملابسه، لا يميل الى الفاخر منها إنما الى البسيط الخالي من الجواهر أو الذهب. لكنه كان ينتفع بها في نيل مقاصده فيحمل منها الهدايا الثمينة الى ملوك الشرق والغرب الذين بدورهم خضعوا له ومالوا الى مصادقته، فساعد ذلك في توفير الأمن والاستقرار في البلاد بشكل لم تشهده من قبل، كما أدى الى ازدهار الحركة التجارية الخارجية بين مصر ومختلف الدول.

كان للملك الناصر نزعة في التدين، فيؤدي الفرائض وكان يكره شرب الخمر ويُنزل عقوبة على شاربيه ويُبعد عنه أمرائه الذين يشربونه.

---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص438-439؛ اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص40-41.

[2]. الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر ج8، ص352-353.

[3]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص370-371، Atil, Renaissance of Islam, p.15.

كان يحرص على الإحاطة بأمور وأعباء الدولة، ويتفرد بالأحكام، فقام بإبطال منصب نائب السلطنة لينشغل بأمور مملكته لوحده، وعمل على إبطال عدة مظالم من ضرائب وضمانات أو التخفيف منها، وقام بإعادة إقطاع أرض مصر والشام بما عُرف بالروك الناصري، حيث أعاد مسح الأراضي الزراعية وأعاد تقسيمها على اساسٍ عادلٍ بين الأمراء والجنود والعامة بحيث لم يظلم أحداً[1].

لقد اتصف بالدبلوماسية التي اتقنها واشتهر بها أكثر من بروزه في ساحات القتال كما اتصف بالمكر والدهاء واتباع الحيل لتنفيذ مآربه خاصة عند ظنه بأمراءه نيتهم السوء له، فيقوم بالتدبير والايقاع بهم ومعاقبتهم[2].

كان للناصر هواياته الخاصة حيث كان شغوفاً بالخيل، له معرفة بأصولها وانسابها واثمانها، فيُنفق على شرائها الكثير كما على الاعتناء بها حتى بلغ عدد خيوله بضع آلاف. كما كان يحب الصيد وعمل على جلب الطيور الجوارح التي تُعين على الصيد، وله اهتمام بجمع الأغنام والأوز.

وقد اكثر الملك الناصر من شراء المماليك والجواري خاصة عند قُرب نهاية فترة ملكه حيث بالغ في ذلك، وأنعم عليهم بالخير الوفير والعطايا وتعليم الأدب، لينتقلوا في وظائف الدولة ويصلوا الى مراتب عالية[3].

وبِرغم أنَّ الملك الناصر قد عُرِفَ بكثيرمن الصفات الحميدة وتمتع بمحبة الناس، إلا أنَّ استبعاده عن السلطة عدة مرات وانتزاع حكمه من قِبَلْ من حوله أثَّر في جعله اكثر حذراً وحيطة واكثر قلقاً، وزاد من شعوره بالخطر من مؤامرات وأطماع أمرائه فكانت أحياناً تسيطر عليه مشاعر الحقد والانتقام، مما دفعه للسعي الدائم لإبعاد إمكانية الغدر والدفاع عن حكمه وملكه، حيث كان دائم التغيير والتبديل في مناصب أعوانه وأمرائه وإذا اشتبه في اخلاص أحدهم لعرشه قام باعتقاله ونفيه أو قتله، بالرغم من تقربه منهم واغداقه عليهم بالعطايا المادية والألقاب وأحياناً المصاهرة. وهذا ما قد حصل مع العديد من أمرائه ومنهم الأمير سيف الدين تنكز الناصري الذي تمت فترة ولايته على بلاد الشام من 1312م– 1340م[4]، والذي سيشغل موضوع الدراسة.

وفي عام 741هـ / 1341م توفي السلطان الملك الناصر محمد، بعد معاناته مع المرض وهو في السابعة والخمسون من العمر، ودُفِنَ في القبة المنصورية بين القصرين في مصر. له من الأبناء

---

[1]. المقريزي، السلوك ج2 قسم2، ص532–537.

[2]. اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص100؛ Muir, The Mameluke, p. 73.

[3]. المقريزي، السلوك ج2 قسم 2، ص524–531.

[4]. اليوسفي، المصدر السابق، ص99.

أربعة عشر بعضهم توفي أو قُتِلَ، وسبع بنات. تولى السلطنة من أبناءه ثمانية، أولهم أبا بكر[1]، الذي عهد له بالحكم من بعده قُبيل وفاته بيومين، ولقبه بالملك المنصور وأوصاه بالأمراء وأوصى الأمراء به[2].

1.1.3 عوامل ضعف دولة المماليك البحرية :-

استمر الحكم في اسرة قلاوون من أولاد الناصر محمد وأحفاده لمدة طويلة تعدَّت الأربعين سنة، فتولى عرش مصر والشام ثمانية من أولاده واثنان من أحفاده واثنان من أبناء أحفاده[3]. ويعود هذا الأمر الى تعلق الناس بأسرة قلاوون، فما عانوه من فتن ومجاعات وأوبئة وفقر خلال الفترات التي تخللت عزل الملك الناصر محمد عن العرش، وعلى نقيضه ما ذاقه الناس من طعم حياة الاستقرار والأمن والرخاء أيام الملك الناصر، دفعهم الى التمسك في إبقاء الحكم ضمن إطار أسرة قلاوون لاعتقادهم بأنَّ هذا يحقق ضمان لحياة الاستقرار تلك. إلا أنَّ تعاقب عدد كبير من أبناء وأحفاد الناصر محمد على الحكم ومعظمهم كانوا صغاراً في السن وقليلي الخبرة في أمور الدولة، أدى الى زيادة أطماع الأمراء في الحكم واستبدادهم بالأمور المالية وقدرتهم على السيطرة، فعينوا وعزلوا السلاطين تبعاً لمصالحهم، فلم يدم حكم غالبية السلاطين منهم سوى بضع سنوات أو شهور قليلة ثم يتم نفيه أو سجنه أو قتله.

هذا العامل كان من العوامل الأساسية في اضعاف الدولة المملوكية الأولى وبدء انهيارها، فَفَقَدَ السلاطين هيبتهم وسلطتهم فيما زادت سيطرة الأمراء على شؤون الدولة والتصرف بالأموال والأنفس. كما أنَّ الصراع قد دبَّ بين الأمراء، فأصبحت الدولة تُعاني من تعدد الأحزاب الذين انشغلوا عن مصالح الدولة التي أصبحت تعاني حالة الفوضى الشديدة[4].

كما أنَّ انتشار وباء الطاعون أو الوباء الأسود في أنحاء العالم مشرقه ومغربه، وفي بلاد الشام ومصر عام 749هـ / 1348م خلال فترة حكم السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون بدورته الأولى، كان من العوامل التي ساعدت في ضعف وانحلال الدولة المملوكية، حيث أنَّ هذا الوباء قد فتك بالملايين من البشر وصاحب ذلك آثار خطيرة من مجاعات وتردي حال الأراضي الزراعية لعدم وجود من يفلحها وانتشار الآفات الزراعية التي ترتبت عليها أزمات اقتصادية وسياسية، فزادت أحوال البلاد سوءاً[5]. كما أدى الى خلل في النظام الإقطاعي الذي بنيت

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2، قسم 2، ص523، ص546؛ الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص439.

[2]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص190؛ المقريزي، المصدر السابق، ص523.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص239-240.

[4]. عاشور، العصرالمماليكي في مصر والشام، ص125-126، ص134.

[5]. العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص263؛ Atil, Renaissance of Islam, p.16.

عليه دولة سلاطين المماليك؛ إذ استطاع العديد من عامة الناس الإستيلاء على الإقطاعات التي كانت مخصصة لجنود الجيش المملوكي.

وفي عصر أحفاد الناصر محمد ازداد الانحلال الخلقي، الذي أَثَّرَ بشكل سلبي على مهابة السلاطين وبالتالي قوة الدولة، حيث أنَّ السلاطين قد انغمسوا بالملذات وشرب الخمر واللهو عوضاً عن القيام بمتابعة شؤون دولتهم[1].

ومن العوامل الخارجية التي كان لها أثر في اضعاف دولة المماليك هو ما نهجه الصليبيون من طرق لِشل الاقتصاد المصري، إيماناً منهم بأنَّ الدولة المملوكية تَستَمِدْ ثروتها وقوتها من التجارة الخارجية، فنادوا الى فرض حصار اقتصادي على شواطئ مصر والشام للحيلولة دون وصول السفن التجارية بالتالي كساد التجارة. كما شنَّ الصليبيون بقيادة ملك قبرص عام 767هـ / 1365م هجمة عنيفة على مدينة الاسكندرية، وكانت حينها الدولة تعاني زيادة في الاضطرابات الداخلية والفوضى أيام السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون، الذي أُقيم سلطاناً عام 764هـ/ 1363م وله من العمر عشر سنوات، فاستطاع الصليبيون اقتحام المدينة وتدميرها بالتخريب والحرق والنهب والاعتداء لمدة ثلاثة أيام، دون وجود أي صدّ من قِبَلْ المسلمين. الى أُن غادر الملك وأسطوله محملاً بالبضائع المنهوبة والأسرى قبل وصول أي جيوش انقاذ من القاهرة. فشكلت هذه الغارة كارثة على مدينة الاسكندرية وميناِئها الأشهر في الدولة الاسلامية، إذ ضَعُفَ نشاطها التجاري واهتزت مكانتها الاقتصادية[2].

لقد شكلت هذه العوامل مجتمعة أساساً في ضعف اتزان الدولة المملوكية الأولى وايذاناً بنهاية حكم سلاطين المماليك البحرية، بحيث أنه بعد سبعة عشر عاماً من غارة الصليبيين على الاسكندرية سقطت دولة بني قلاوون، لتقوم دولة مكانها وهي دولة المماليك الثانية والتي عُرفت بدولة المماليك الجراكسة أو البرجية. وهي ليست دولة مختلفة تماماً وانما هي نفس الدولة ولكن غلب على سلاطينها العرق الجركسي، وانتهى بظهورها عهد سيطرة الأمراء المتنافسين والمسيطرين على السلاطين الضعفاء صغار السن وبدأ ظهور السلاطين الأقوياء من جديد ولكن بأسس مختلفة، حيث تمهدت الطريق أمام أمراء آخرين للهيمنة على الحكم، ومنهم الأمير المملوكي برقوق الذي استطاع في ظل هذه الظروف السيئة خَلْع السلطان الصالح زين الدين حاجى عام 784هـ / 1382م وهو آخر سلطان من سلالة الناصر محمد بن قلاوون، وأعلن نفسه سلطانا. فانقضت

[1]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص135.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص 136–139؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص264–265.

دولة المماليك البحرية الأتراك بعد حكم دام مائة وست وثلاثون سنة ونصف، وبدأت هذه المرحلة الجديدة[1].

1.1.4 المماليك الجراكسة أو البرجية :-

يُعد أصل المماليك الجراكسة من جند الملك السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، حين عَمَدَ في عام 681هـ/ 1281م الى تكوين فرقة خاصة له من المماليك، غير الفرق الأخرى السابقة مثل فرقة الظاهرية مماليك الظاهر بيبرس، لتتفرد هذه الفرقة الجديدة بالموالاة الخالصة للسلطان فيكون اعتماده الكامل عليها من دون الأُخر[2]. ولقد بلغ عدد هذه الفرقة ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك، طغى عنصر الجركس على غالبيتهم، وقد تم جلبهم من اقليم كوبان وهي مناطق القسم الشمالي الغربي من القوقاز، من الجزء الجنوبي لشبه جزيرة القِرَم، بقرب اسواق ثغر كفا، والتي اعتُبرت من اكبر اسواق الرقيق الأبيض في العصور الوسطى، كما أنَّ قسماً منهم تم جلبه من مناطق الشاطئ الشرقي للبحر الأسود الى أطراف بلاد الأبخاز جنوباً، وكان من فروعهم السركس والأركس والكسا والآص[3].

ولقد وقع اختيار السلطان المنصور سيف الدين قلاوون على العنصر الجركسي ليكون الأساس في تكوين فرقته الجديدة وذلك تجنباً منه للأجناس السابقة في الدولة المملوكية الأولى من الأتراك والخوارزمية والتركمان والتتار، كما أنَّ وفرة العنصر الجركسي في الأسواق وقلة ثمنه مقارنة بالعناصر التركية السابقة كانت عاملاً مساعداً لهذا الاختيار.

لقد عُنيَّ السلطان قلاوون بإقامة مماليكه الجُدد بالقرب منه، ليشكلوا حصناً له، فاسكنهم في أبراج القلعة وطباقها، حيث كانت ابراج القلعة كبيرة تتسع لجميع الفرق المملوكية الجديدة، خاصة بعد إقامة السلطان لبرج عظيم ذو طبقات وقاعات بالقرب من باب السر الكبير، عُرِفَ بالبرج الكبير، وقد خصَّ به مماليكه الجُدد، اضافة الى أبراج اخرى مثل البرج الأحمر، وبرج الزاوية، وبرج الحداد، وبرج الرملة، وبرج الإمام وغيرها، والتي اقامت بها الفرق المملوكية القديمة. وبذلك فقد عُرفت هذه المجموعة من المماليك الجُدُد بالمماليك البرجية نسبة الى مكان اقامتها[4].

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص240-241؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص265؛ عبده قاسم، في تاريخ الأوبيين والمماليك، ص288-289.

[2]. السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص11-12.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3، ص756؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص241؛ السيد، المصدر السابق، ص12؛ مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص13.

[4]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص204؛ السيد، المصدر السابق، ص12-13.

اشتهر المماليك البرجية بصفات الشجاعة والفروسية، ولقد حظوا بعناية خاصة من قبل السلطان المنصور قلاوون، فنشأوا على التربية الدينية وحُسن التدريب. كما أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون قد اهتم أيضاً بعد أبيه بهذه المجموعة من المماليك، فأكثر منهم وميزهم بالترقية الى وظائف السلاحدارية[1] والجمقدارية[2] والجاشنكيرية والأوشاقية[3]، حتى أُطلق عليهم اسم الأشرفية نسبة الى الأشرف خليل[4].

فأضحى المماليك البرجية على درجة من وفرة العدد والقوة والتماسك، مما مكنهم من شقّ طريقهم نحو اقامة دولة جديدة لهم. فاستطاع المماليك البرجية لاحقاً من التغلغل الى مقاليد الحكم، وعند توليهم السلطة بعد القضاء على الدولة المملوكية التركية كان من أبرز سلاطينهم :-

أ. السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين بَرْقوق بن أنس[5] العثماني اليلبغاوي الجركسي، يُعد أول ملوك الدولة المملوكية الجركسية والمؤسس الحقيقي لها، والثاني من المماليك الجراكسة الذين اعتلوا الحكم، بعد الأمير بيبرس الجاشنكير الذي تسلطن عام 708هـ/ 1307م أيام السلطان الناصرمحمد بن قلاوون، ولكنه لم يدم طويلاً وتم عزله[6]. وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك المماليك. تلقب بالملك الظاهر حيث تمت مبايعته على السلطنة وقت الظهيرة.

أصله من بلاد الجركس من فرع الكسا. أُخِذَ من بلاده وتم بيعه في مدينة القِرَم وهو في العشرين من عمره، فاشتراه الخواجا فخر الدين عثمان بن مُسافر وجلبه الى القاهرة، ولذلك عُرِفَ بالعثماني. ثم اشتراه منه الأمير يلبغا العمري الخاصكي الناصري في حدود عام 764هـ/ 1363م[7]، واسمه حينئذ " الطَنْبُغَا " فسمّاه برقوق لوجود نتوءٍ في عينيه[8]، ثم اعتقه بعد مدة قصيرة لا تزيد عن أربع سنوات وجعله من بين مماليكه المقربين، لِما أظهره من ذكاء وفطنة وحُسْنِ خُلق وتواضع وإحسان ودراية في موضوع الفقه والعلوم الدينية والتفوق في ميدان فنون الحرب والفروسية. وكان حسن المظهر، عريض الكتفين ذو أدب ووقار ورزانة عقل[9].

---

[1]. السلاحدار: لفظ مركب من كلمتين السلاح كلمة عربية ودار كلمة فارسية، فهو لقب حامل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمره، بمعنى ممسك السلاح ويُعهد إليه العناية بالأسلحة.(دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص91؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص462).

[2]. الجمقدار: هو الشخص الذي يمشي على يمين السلطان موجهاً نظره إليه على طول مسافة السير في المواكب السلطانية، حاملاً عصاً لها رأس ضخم مُذهب. (عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص427).

[3]. الأوشاقية أو الأوجاقية: هي فرقة من خدم السلطان تقوم بركوب الخيل للتسيير والرياضة.(القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص454 ؛ عاشور، المصدر السابق، ص419).

[4]. المقريزي، المواعظ الاعتبار، ج2، ص214؛ السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص12-13.

[5]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص440.

[6]. عاشور، المصدر السابق، ص148.

[7]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج11، ص221؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241؛ الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص440.

[8]. العسقلاني، إنباء الغُمر بأنباء العُمر، ج2، ص66؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص6.

[9]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص6؛ السيد، المصدر السابق، ص38، ص108.

لكن عند مقتل يلبغا الناصري تشتتت مماليكه فتنقل الحال ببرقوق من مصر الى الكرك حيث سُجنَ عدة سنوات ثم قام بخدمة الأمراء في بلاد الشام ومصر، فحظي بإمرة طبلخاناة[1] ثم أخذ امرة مائة وتقدمة ألف[2] كما صارأمير آخور[3] ثم صار اتابك العساكر، وكان ذلك حتى عام 782هـ الى أن قام بخلع السلطان حاجى حفيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وتسلطن، فكانت توليته للمُلك عام 784هـ/ 1382م[4].

امتد حكمه لمدة حوالي الواحد وعشرون سنة، حتى توفي عام 801هـ/ 1399م، وتم خلعه في اثناءها لمدة ثمانية اشهر عام 1389م حين قُبِضَ عليه ونُفِي الى الكرك وأُعيد السلطان الصالح حاجى ليكون الملك في تلك الفترة الوجيزة[5].

استطاع الملك الظاهر سيف الدين برقوق بسياسته الحكيمة ودهاءه أن يقضي على دولة المماليك الأتراك واستكثر من جلب الجراكسة، واستطاع الحفاظ على قوة دولته حيث رسخ لها اساساً بالوقوف في وجه المغول والصليبيين، واقام علاقات ودية مع الدول التي تتشارك معه بالمصالح الأدبية والمادية، فغدت دولة المماليك الجراكسة دولة ذات نفوذ امتد حتى شمل جميع المناطق التي كانت تحت سيطرة دولة المماليك الأتراك. كما اعتمدت على نظام حكم عسكري يقوم على رأسه السلطان يعاونه في الحكم مجلس الدولة ونواب السلطان في النيابات المختلفة، ولم يعُد نظام الحكم وراثياً كما كان في دولة المماليك الأتراك.

كما كان لبرقوق عناية بالنواحي الثقافية والعمرانية، حيث بنى المدرسة الجركسية في القدس، وعمَّرَ بركة بالجهة الغربية لمدينة القدس والتي تعرف ببركة السلطان، وعمَّرَ خان السلطان الذي كان يُعرف بالوكالة، على طريق باب السلسلة في القدس. كما اهتم بشؤون دولته وابطل العديد من المظالم والمكوس التي كانت قد فُرِضَتْ من مَنْ سَبَقَهُ[6]. فنعُمَت الدولة بالسيادة والقوة بجهود

---

[1]. أمير طبلخاناه: هي مرتبة من مراتب أرباب السيوف، تقل درجة عن مرتبة أمير مائة مقدم ألف، يكون لصاحبها أحقية في دق الطبول على بابه كما يفعل السلطان ولكن بصورة مصغرة. ويُطلق عليه أيضاً أمير أربعين لأنه يكون في خدمته أربعين مملوك وقد يزدادوا الى سبعين أو ثمانين.
وأصل الكلمة طبلخاناه مكون من لفظين، هما طبل باللغة العربية، وخاناه وهي كلمة فارسية بمعنى مكان الفرقة الموسيقية السلطانية، أو الفرقة نفسها، حيث تقوم بدق الطبول بالقلعة كل يوم بعد صلاة المغرب، كما تكون بصحبة السلطان في اسفاره وحروبه.(المقريزي، السلوك،ج1قسم1، ص46 حاشية(2)؛ عاشور، العصر المماليكي، ص414).

[2]. أمير مائة مقدم ألف: هي أعلى مراتب الأمراء وهي مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف، حيث يكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ويتقدم ألف جندي في أوقات الحروب. وقد شغل هؤلاء الأمراء الوظائف العليا في الدولة مثل نائب السلطنة، نائب دمشق، الاستادار، نائب حلب، وغيرها من المناصب الكبرى.(المقريزي، السلوك، ج1قسم1، ص239، حاشية(1)).

[3]. أمير آخور: لفظ مكون من كلمتين، الأولى عربية بمعنى أمير، والثانية فارسية بمعنى المعلف، فتصبح أمير المعلف أي المسؤول عن أمر الدواب. وكانت هذه الوظيفة يقوم متوليها بالاشراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من الخيل والإبل. (المقريزي، السلوك،ج1قسم 2، ص438، حاشية(3)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص461).

[4]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج11، ص223؛ المقريزي ، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241.

[6]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص440-441؛ الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص292

برقوق لتثبيت حكمه بالرغم من المطامع والثورات التي حُبِكَت ضده، وبعد سنوات من النزاعات والضعف التي هيمنت على دولة المماليك الأتراك في نهاياتها.

ب. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، هو أحد مماليك الظاهر برقوق والحاكم السابع لدولة المماليك الجراكسة بعد الملك الظاهر برقوق. أُخِذَ من بلاد الجركس وتم بيعه بالقِرم، ثم أوتي به الى مدينة ملطية حيث اشتراه نائبها الأمير دقماق المحمدي، فعُرف بالدقماقي، ثم أرسله الى الملك الظاهر برقوق الذي أعتقه لاحقاً. تنقل في مناصب الدولة الى أن قام بانتزاع السلطنة لنفسه، بعد أن كان وصياً على السلطان الملك الصالح محمد بن ططر لصغر سنه، فتولى السلطنة مكانه عام 825هـ/ 1422م ولقب نفسه " الملك الأشرف".

دام حكمه لمدة تزيد عن ستة عشر عاماً[1]، امتازت بشكل عام بسوء الأحوال الاقتصادية بسبب سياسة الاحتكار وكثرة الضرائب، وبالرغم مما اتصف به الملك الأشرف برسباي من حسن الخلق والشجاعة والتواضع والمهابة وحُسن المظهر، إلا أن قسوة حكمه وحبه لجمع المال قد قلل من محبة الناس له. وقد عاشت البلاد مرحلة من الاستقرار والهدوء الظاهري[2]، حيث أن الطائفية قد سادت اثناء حكم الملك الاشرف، فكانت المماليك مقسمة الى سبع طوائف منها الظاهرية والناصرية والمؤيدية وغيرها... وكانت هذه الطوائف متخالفة في باطنها، الأمر الذي ساعد في بدء ضعف قوة المماليك وانكسارهم فيما بعد[3].

إلا أن طول مدة حكم الملك الأشرف برسباي قد أتاح له المجال لتحقيق نصر سياسي خارجي بغزو جزيرة قبرص عدّة مرات وإدخالها تحت حكم المماليك في مصر. حيث أن هذه الجزيرة كانت تشكل مركزاً للعمليات العسكرية ضدّ موانئ المسلمين وتهديداً لتجارتهم. فاستطاع في عام 1426م، بعد غزوتين سابقـــتيـــن موفقتين، تحقيق النصر على جزيرة قبرص بأكملها واخضاعها تحت حكمه. فكانت هذه الحملة تسجل نصراً سياسياً خارجياً للملك الأشرف تعوضه عن فشله السياسي الداخلي في حكم البلاد[4].

لقد كان للملك الأشرف برسباي اعتناء بالمنشآت المعمارية، كسائر السلاطين المماليك. فمن الآثار الظاهرة من عهده في مدينة القدس هي المدرسة الباسطية والمدرسة القادرية والمدرسة العثمانية،

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص244؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص441؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص238.

[2]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص239؛ عاشور، العصر المماليكي، ص177.

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص95.

[4]. قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص302-303؛ عاشور، المصدر السابق، ص169-177.

كما يعود له الفضل في تجديد سبيل شعلان، وقد انشأ المدرسة الأشرفية بين القصرين في القاهرة، وغيرها من المآثر العمرانية[1].

توفي الملك الأشرف برسباي بعد مرضه عام 841هـ/ 1438م، وكان قد عهد الى ابنه ابو المحاسن يوسف بالسلطنة من بعده، وأقام الأمير جقمق وصياً عليه، الذي بدوره ما لبث أن خلع الملك يوسف الملقب بالملك العزيز بعد أربعة أشهر من توليه السلطة، وسجنه وتولى العرش مكانه وتلقب بالملك الظاهر جقمق[2].

ج. السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق بن عبدالله العلائي الجركسي الظاهري، تم سبيه وهو صغير من بلاد الجركس واحضاره الى القاهرة حيث اشتراه الأمير اينال اليوسفي وقام بتربيته، ثم طلبه الملك الظاهر برقوق فأصبح من مماليكه ونُسب إليه. تنقل في وظائف الخدم والمناصب الحكومية الى أن أصبح أميراً وصياً على الملك العزيز ابو المحاسن يوسف ابن السلطان برسباي[3]، حيث انتهز فرصة صغر سن السلطان يوسف وأثبت عدم أهليته لتولي الحكم لسوء تصرفه، فخلعه وتولى السلطنة وكان ذلك في عام 842هـ/ 1438م، ودام حكمه مدة خمسة عشر عاماً. عُرف خلالها بالاعتدال في حكمه مقارنة بالملك الأشرف برسباي، فدّبر أمر توزيع المناصب الادارية والعسكرية على اعوانه الطموحين، وصرف لهم العطايا والهبات وصرف مالاً كثيراً في جهات الخير. كما كان متديناً حرَّم المعاصي وشرب الخمر، ورعاً حيث لم يدخر الأموال في خزائنه الخاصة، شجاعاً، له دراية بأنواع الفروسية، عفيفاً وكان محباً للعلماء والفقهاء مهتماً بمرافقتهم. وكان له اهتماماً بالتعمير فأُنشأت في أيامه عمائر كثيرة من جوامع، قناطر، جسور وغيرها[4].

واجه العديد من الثورات الداخلية ضده عند توليه الحكم، واستطاع القضاء عليها بقسوة، الأمر الذي دفعه الى التفكير في صرف انظار المماليك عن أمور النزاعات والثورات الداخلية بتوجيه اهتماماتهم وطاقاتهم نحو الجهاد. كما أن رغبته في تحقيق نصراً بارزاً لنفسه كما فعل الاشرف برسباي، يجعل به الناس لا يتفكرون لأمر اغتصابه للمُلك، دفعه الى التجهيز لغزو جزيرة رودس في شرق البحر المتوسط، والتي كانت تشكل مركزاً هاماً للصليبيين يشنون منها غاراتهم على الشواطئ المصرية.

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص240؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص208

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص114.

[3]. المقريزي، السلوك،ج4 قسم3، ص1086.

[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2،ص442؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص291؛ الزيدي المصدر السابق، ص114.

فقام السلطان جقمق بإرسال ثلاث حملات عسكرية، كانت آخرها شبه موفقه تم بموجبها الصلح بين الطرفين والتعهد بعدم التعرض للسفن التجارية الاسلامية[1].

تمتعت البلاد خلال فترة حكمه بالأمن والسلم الداخليين، بالرغم من وقوع مظالم من الأمراء المماليك على أفراد المجتمع، وعدم معاقبة السلطان لهم لتخوفه منهم. كما سادت العلاقات الودية بين بلاده والبلاد الاسلامية المجاورة.

توفي السلطان جقمق بعد مرضه عام 857هـ/ 1453م، وأمر بولاية العهد لابنه عثمان، الذي لم يستطع البقاء في الحكم وتم خلعه[2].

د. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر اينال العلائي الناصري، هو جركسي الأصل جلبه الخواجا علاء الدين الى مصر فعُرف بالعلائي، ثم اشتراه الظاهر برقوق، ونُسب الى الناصر فرج بن برقوق الذي أعتقه. كان طويلاً خفيف اللحية فاشتهر باينال الاجرود. تنقل في مناصب الدولة الى أن تسلطن[3]، وتُعد المدة التي تولى فيها الملك الأشرف اينال الحكم، والممتدة لفترة ثماني سنوات ما بين عامي 857هـ/ 1453م الى 865هـ/1461م، من السنوات الهامة في تاريخ دولة المماليك الجراكسة ولكن ذات التأثير السلبي، حيث كثرت ثورات المماليك الأجلاب، الذين تم جلبهم من قبل السلاطين على مدى سنوات حكمهم، فقد ثاروا سبع مرّات في عهد السلطان اينال، وازداد اعتدائهم وظلمهم للناس، فنشروا الفساد ونهبوا وخربوا البلاد واصبحوا أقوياء باستطاعتهم العزل والتعيين في المناصب، ولم يستطع السلطان ايقافهم لضعف شخصيته وحسن خلقه فلم يستطع مواجهتهم، بالرغم من أنه كان قائداً بحرياً وحربياً، فأصبحت البلاد في عهده تعاني فشلاً في سياسة الحكم وانتشار الفتن والاضطرابات والسرقة وقلة الأمن وضعف الأحوال التجارية. الأمر الذي دفعه عند شعوره بقرب أجله الى خلع نفسه من السلطنة، وعهد بها الى ابنه أحمد بن اينال.

فشكلت فترة حكمه حلقةً ضعيفةً في تاريخ المماليك الجراكسة وعاملاً مساعداً في انحلال قوة هذه الدولة[4].

هـ. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر قايتباي بن عبدالله الظاهري، هو من أصل جركسي، كان من مماليك الأشرف برسباي، ثم أعتقه الملك الظاهر جقمق في عهده فنُسِبَ إليه، تنقل في مناصب الدولة الى أن تمت مبايعته للسلطنة عام 872هـ/ 1468م، حيث لُقِب بالملك

---

[1]. عاشور، العصر المماليكي، ص178-179؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص303-304.

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص116.

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص444 ؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص305.

[4]. عاشور، المصدر السابق، ص181؛ الزيدي، المصدر السابق، ص117-118.

الأشرف، كما لُقب بخادم الحرمين الشريفين المسجد الأقصى ومسجد الخليل وذلك لحبه لمدينة القدس التي قضى بها ما يُقارب الخمسة أعوام قبل أن يتولى السلطنة[1].

تميز عهده بين السلاطين الجراكسة بطول مدته التي بلغت نحو تسعة وعشرين سنة، حتى عام 901هـ/ 1496م، ويُعد عهده من أفضل عهود دولة المماليك الجراكسة، حيث امتاز السلطان قايتباي بالشجاعة والفروسية والذكاء وحسن ادارة الحكم والخبرة والحكمة[2] والتواضع وكثرة الخيرات فعُرف عنه الكثير من الصفات الحميدة والأعمال الجليلة ما جعله ملكاً وسلطاناً نبيلاً وعظيماً. وقد استطاع الإبقاء على زمام الأمور في دولته لهذه المدة الطويلة وذلك لاختياره مماليك مخلصين له من حوله ومرتبطين به بمصالحهم الخاصة، كما وتعامله مع خصومه بقسوة وحزم، ونزاهته في التعامل بأموال الدولة، فبالرغم من إكثاره من فرض الضرائب وجمع الأموال إلا أنه كان ينفقها في الإنشاء والتعمير وفي الحروب وفي الترميم والإصلاح، ويوزع الخيرات على من له حاجة بها[3].

وتُعد آثار السلطان الأشرف قايتباي ظاهرة من خلال المنشآت العديدة التي شيدها في أنحاء دولته، حيث عُرف عنه شغفه بالسفر والتنقل، الأمر الذي مكنه من تخليد اسمه اينما ذهب من خلال إنشاء القلاع والمدارس والمساجد والأسبلة وغيرها، كما الإصلاح والترميم لمنشآت أقامها أسلافه.

وتشهد لذلك مآثره الكثيرة في مدينة القدس ومنها المدرسة الأشرفية بقرب باب السلسلة وسبيل قايتباي بين باب السلسلة وباب السكينة، كما مسجد قايتباي في القاهرة والذي يُعرف بأنه من أجمل المباني المشيدة في ذلك العصر، وقلعة قايتباي في الاسكندرية ورمم الجامع الأموي بدمشق، وأقام منبراً عظيماً للمسجد الحرام وأنشأ بجانب المسجد مدرسة ورباطاً، وأنشأ مدرسة بالمدينة المنورة، وأصلح عين عرفة وبئر زمزم وغيره الكثير...[4]

وقد تخلل حكم السلطان الأشرف قايتباي العديد من التهديدات والمصاعب،حيث أنه واجه قوى التركمان على الحدود الشمالية للدولة التي عانت عدم استقرار في تلك الفترة، كما أن نفوذ العثمانيين أخذ يزداد وأصبحت قوتهم تشكل خطراً على دولة المماليك.

وقد ازدادت الأوضاع سوءاً خاصة في اواخر عهد السلطان قايتباي حيث كثر جمع الأموال للحروب مما شكل أزمة مالية على الدولة، كما أن انتشار الوباء عام 1492م وما ترتب عليه من

---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 616-617 ؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص210، حاشية(1).

[2]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص8-9؛ عاشور، العصر المماليكي، ص182.

[3]. الزيدي، العصر المملوكي، ص127؛ Atil, Renaissance of Islam, p.17.

[4]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص7-8؛ عاشور، المصدر السابق، ص182-183؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص213؛ الزيدي، المصدر السابق، ص126.

موت آلاف الأشخاص وقحط وغلاء الأسعار بسبب ندرة الموارد، أدى الى تخلخل الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في الدولة، مضافاً الى ذلك استمرار النزاعات والصراعات بين أمراء المماليك.

وبهذا فإن أيام السلطان قايتباي الأخيرة كانت بائسة وكانت صحته تزداد سوءاً، وما لبث أن تنازل عن السلطنة لابنه محمد قايتباي، حتى توفي في اليوم التالي وكان ذلك عام 901هـ/1496م، ودُفن في قبة بناها بتربة بصحراء مصر شرقي القاهرة[1].

و. السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبدالله الجركسي المعروف بالغوري نسبة الى طبقة الغور أحد الطبقات المعدة لتعليم المؤدبين بمصر.

كان من خدم السلطان الأشرف قايتباي ثم ترقى في مناصب الدولة فكان أمير عشرة[2] ثم أخذ نيابة طرسوس وحلب وملطية ثم ترقى الى أمير ألف، وهكذا الى أن أُختير سلطاناً عام 906هـ/ 1501م وكان قد تجاوز الستين من عمره.

اتصف بالفطنة والدهاء والرأي السديد والتعسف فاستطاع قمع الأمراء وفرْض هيبته في انحاء الدولة التي عمل جاهداً لإعادة النظام والاستقرار إليها. إلا أنه كان شديد الطمع في جمع الأموال كثير الظلم، حيث أنه اتبع سياسة تعسفية لحل مشكلة الوضع المالي المتأزم للدولة، ففرض الضرائب وضاعف الرسوم وأبطل الميراث بحيث اذا مات أحد، أخذ جميع ماله، فاستطاع بذلك جمع المال الكثير وامتلأت خزائن الدولة، إلا أنه كان ذلك على حساب الشعب الذي ازدادت أحواله سوءاً بسبب كثرة الضرائب الباهظة. على نقيض مماليكه الذين أكثر من شراءهم وأنفق عليهم الكثير فاظهروا الفساد في الدولة وظلموا الناس. كما أنفق على نفسه، فاهتم بالخيول والجواهر وعُني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره. كما أنفق من ذلك المال في التشييد والإعمار، فمن مآثره المعمارية مسجداً ومدرسة ومدفناً في حي الغورية المسمى باسمه، كما أنشأ جوامع ومدارس وقصور ومنتزهات في مصر، كما أولى عناية لطريق الحج وقام بها عدة خانات وآبار وغير ذلك من الأعمال المعمارية[3].

واجه السلطان الغوري بعض الثورات الداخلية من قبل المماليك والأجلاب والعربان، إلا أن الخطر الحقيقي كان خارجياً وكانت تشكله قوة البرتغاليين الذين هددوا مركز مصر الاقتصادي كوساطة تجارية بين الشرق والغرب، فحقق البرتغاليون النصر لأنفسهم عام 1513م بعد سنوات

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص9؛ عاشور، العصر المملوكي، ص183.

[2]. أمير عشرة: وهي مرتبة حربية، تقل درجة عن أمير طبلخاناه، حيث يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك، ويكون من هذه الطبقة صغار الولاة. (المقريزي، السلوك، ج1 قسم1، ص239، حاشية (1)؛ عاشور، المصدر السابق، ص 415) .

[3]. الحنبلي، المصدر السابق، ج8، ص113–114؛ عاشور، المصدر السابق، ص185–186؛ Atil, Renaissance of Islam, p.18.

من الصراع واستطاعوا نقل زمام التجارة من ايدي المماليك الى أيدي البرتغاليين، فضاعت مكانة مصرالتجارية وساعد ذلك في عوامل ضعف الدولة[1].

كما أن خطراً خارجياً آخر قد شكل تهديداً لدولة المماليك تمثل في قوة الدولة العثمانية التي اتسعت سيطرتها لتشمل آسيا الصغرى والبلقان الى أواسط اوروبا، وارادت التوسع لضم الدولة الاسلامية، فتنبه السلطان الغوري لهذا الخطر الذي بات يهدد حدود دولة المماليك وجهز الاستعدادات للمواجهة، فالتقى الطرفان بموقع مرج دابق إحدى قرى بلدة عزاز شمالي حلب عام 1516م. فأبلى المماليك بلاءً حسناً حتى اقتربوا من تحقيق النصر، إلا أن الخيانة من قبل خاير بك نائب حلب الذي أخذ يشيع الأكاذيب بين صفوف جيش المماليك، قد أدارت اتجاه المعركة وجعلت الجيش المملوكي يتراجع، مما سبب في سقوط السلطان الغوري من فوق فرسه ميتاً، بحيث لم يستطع تحمل قسوة الموقف. وبهذا كان النصر حليفاً للعثمانيين وكانت موقعة مرج دابق فاصلاً حدد مستقبل مصر والشام في القرون التي تلت[2].

وهكذا انتهى حكم السلطان قانصوه الغوري بعد سلطة دامت ما يُقارب الستة عشر سنة، تولى من بعده السلطة في مصرالأمير طومان باي، حيث أن بلاد الشام كانت قد وقعت تحت سيطرة الدولة العثمانية وسلطانهم سليم العثماني.

ز. الملك الأشرف طومان باي الجركسي، هو آخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة، وهو ابن أخ السلطان الغوري الذي ولاه نيابة السلطنة في أثناء غيابه لمواجهة العثمانيين، ثم تمّ اختياره لتولي الحكم في مصر عام 1516م، بعد الهزيمة التي مُنيّ بها المماليك ضدّ العثمانيين. فتمنع في بداية الأمر لعلمه بالأحوال السيئة التي تدور حول السلطنة والسلطان، إلا أنه لاحقاً قَبِلَ ولاية الحكم بعد أن أخذ عهداً من الأمراء بأن يرضوا بقوله ولا يخونوه أو يغدروا به.

ومنذ بداية توليه الحكم واجه خطرالعثمانيين على مصر، فخرج للدفاع عن دولته، وأظهر شجاعة وبسالة في كل موقعة سواء في الريدانية شمالي القاهرة عام 1517م ولاحقاً في الصليبة أو في وردان، ولكن جميعها كانت تنتهي بانتصار العثمانيين، وذلك لوقوع الخيانة أيضاً من قبل خاير بك وشركاءه، مما سبب في تفرق رجال طومان باي من حوله، وعدم استقرارهم في المواجهة وانما الفرار. وهكذا استمر الحال إلى أن وجد السلطان طومان باي نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة، فقرر اللجوء الى أحد مشايخ العربان الذي خانه أيضاً وقام بتسليمه الى السلطان سليم العثماني، الذي أمر بدوره إعدام طومان باي بالرغم من اعجابه بشجاعته وعزة نفسه، فتم اعدامه عام

---

[1]. عاشور، العصر المملوكي، ص186.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص187–193؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص114؛ العريني، المماليك، ص263–264.

922هـ/ 1517م وسقط ميتاً على عتبة باب زويلة في القاهرة، وأمرالسلطان سليم بدفنه قرب مدفن الغوري. بذلك تكون نهاية سلطنة المماليك الجراكسة وحكمهم على مصر وبلاد الشام، والتي تولى فيها الحكم اثنان وعشرون سلطاناً، ثمَّ كانت بداية لحكم دولة العثمانيين[1].

1.1.5 عوامل ضعف دولة المماليك البرجية:-

لقد كان لعدة عوامل مجتمعة الأثر في ضعف دولة المماليك الجراكسة وتخلخلها ثم انهيارها، منها عوامل سياسية وعسكرية حيث أحاطت قوى خارجية بالدولة، وكثرت هجمات الأعداء لأطماعهم بالسيطرة والقوة، كما تعددت الفتن والثورات الداخلية ضدّ السلاطين المماليك خاصة في المرحلة الأخيرة من تاريخ دولتهم. ويعود ذلك الى انّ سلاطين المماليك في فترة القرن الخامس عشر كانوا يشترون مماليكهم كبار السن أو تخطوا سن البلوغ، والذين عُرفوا بالجلبان أو الأجلاب. فكان من الصعب تنشأتهم على الولاء لاستاذهم أو غرس المحبة في نفوسهم، فنشأوا ورابطة الاخلاص والمحبة ضعيفة بينهم وبين استاذهم، كما وبينهم انفسهم في الطائفة الواحدة. مما جعل اولئك الجلبان يشكلون خطراً على السلطان، وأصبح بامكانهم عزل أو اقامة السلاطين تبعاً لأهواءهم حيث زادت قوتهم وكثرت ثوراتهم. على عكس سلاطين المماليك في فترة منتصف القرن الثالث عشر، حيث كانوا يشترون مماليكهم صغار السن ويقومون بتربيتهم وتنشأتهم على أسس الولاء والمحبة، فيشبوا ونفوسهم تمُنّ بالولاء للسلطان الذي له الفضل في تربيتهم.

هذا الأمر الذي جعل سياسة الحكم ضعيفة وأدى الى وهن سلطة أواخر السلاطين المماليك الجراكسة وعجزهم عن السيطرة الفعّالة على الحكم[2].

كما وأن مستوى التربية التي حظي بها المماليك في الدولة الأولى كان على درجة عالية من التدريبات العسكرية وتدريبات الفروسية والتنشأة الخلقية السليمة، والتي لم ينعم بتلك التنشأة المماليك في دولة المماليك الجراكسة، حيث ضعُف نظام الفروسية وتمَّ إهمال التدريبات الحربية التي أدت الى ضعف الجيش المملوكي، كما أن التربية الاخلاقية لم تكن على درجة كافية، بحيث تشكل رادعاً لهم عن الفساد واللهو والفحش والجهل والعبث وسوء التصرف بشكل عام[3].

وقد أدى ذلك الى تعدد السلاطين المماليك قُبيل نهاية حكمهم، وأصبحوا يحكمون لفتراتٍ قصيرة ومحددة، مما يؤكد على مدى حالة عدم الاستقرار والفوضى وعدم ثبات الحكم الذي ساد في البلاد.

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص115-116؛ عاشور، العصرالمماليكي، ص194-199.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص181 ص184؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص298؛ الموسوعة الفلسطينية ،مج4، ص293.

[3]. السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص115-116.

كما أن ضعف قوة سيطرة السلاطين المماليك الجراكسة خاصة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وكثرة الفتن والقلاقل، أدى الى ظهور قوى خارجية جديدة ذات نفوذ. حاولت استغلال الوضع السيئ للبلاد، فظهرت قوة البرتغاليين الذين هددوا السيادة المملوكية على طريق البحر الأحمر والحقوا الهزيمة بالقوات الاسلامية، وانتزعوا طرق الخط التجاري عبر مصر كحلقة وصل تجارية بين الشرق والغرب واوروبا، لتفقد بذلك مصر هيبتها كقوة تجارية في البحر الأحمر[1].

كما أن الدولة العثمانية قد شكلت خطراً على استمرارية حكم دولة المماليك، فسرعان ما اتسعت رقعة حدود الدولة العثمانية، واقتربت من الحدود الشمالية للدولة المملوكية. والتي استطاعت لاحقاً بسبب تفكك الطوائف المملوكية المتعددة الاستيلاء على السلطة الكاملة للشام ومصر[2].

كما كان هناك قوة اخرى تتنامى هي قوة الدولة الصفوية" الشيعية" في الشرق، والتي كانت تشكل مصدر خطر وتنافُس على زعامة العالم الاسلامي، مما دفع بالمماليك الى التواطؤ مع القوة الصفوية ضدّ العثمانيين الذين كانوا بدورهم قد تحالفوا سابقاً مع المماليك في دائرة صراع ضدّ قوى عالمية اخرى تريد السيطرة لزعامة البلاد الاسلامية، الأمر الذي أدى الى اصرار الدولة العثمانية لضم البلاد الاسلامية الى امبراطوريتهم واستطاعوا تحقيق ذلك وسدّ الفجوة التي شكلتها الدولة المملوكية بكونها الحلقة الأضعف في سلسلة صراعات القوى العالمية[3].

ومن العوامل الاخرى التي أثرت في ضعف قوة السيادة المملوكية هو العامل الاقتصادي، حيث ساءت الأحوال الاقتصادية في البلاد نتيجة لتكرار مراحل الجفاف والقحط وانتشار الأوبئة التي كان نتاجها الفتك بالآلاف من الأرواح، وندرة القوت وغلاء الاسعار والمجاعات. وبالرغم من هذا التدهور المتكرر للوضع الاقتصادي خلال فترة حكم أواخر السلاطين المماليك، إلا أن النزاعات والخلافات التي بالأساس شكلت نواة لضعف الدولة، باتت مستمرة بين طوائف المماليك، الذين ازدادت اعدادهم ومراتبهم ومخصصاتهم بحيث شكلت عبئاً على خزينة الدولة، وازداد أمر الرشوة والفساد لتحصيل هذه الأموال التي لم تعد الدولة قادرة على سدادها[4].

فكان لهذه العوامل السياسية والاقتصادية السيئة ناتج أثَّرَ على العامل الاجتماعي، حيث تغيرت به مميزات المجتمع الذي عُرف بالايمان والتقوى والتصوف وانتشار الزهد في العقود الأولى للسيادة

---

[1]. عاشور، العصر المملوكي، ص186–187؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص304.

[2]. قاسم، المصدر السابق، ص305؛ Landay, Dome of The Rock, p.110.

[3]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص325–328.

[4]. قاسم، المصدر السابق، ص299؛ عاشور، العصر المماليكي، ص183؛ الموسوعة الفلسطينية، مج 4، ص293؛ Atil, Renaissance of Islam, p.17 ؛ Landay, Dome of the Rock, p.106 .

المملوكية، وتحول الى مجتمع تسيطر عليه الصفات السيئة، من تفشي ظاهرة الفساد والجشع والرشوة والاحتيال وسرقة أموال الناس والدولة والتنازع الدائم على المناصب، مما أدى الى غياب العدالة وانتشار الظلم والفقر والتسول والأمراض، في حين عاش الحكام حياة البذخ مع ممارسة الانحلال والفسق والفجور وشرب الخمر وغيره، مما أفقدهم هيبتهم وسيطرتهم واحترامهم بين عامة الشعب[1].

وبهذا يُمكن اعتبار عهد المماليك الممتد لفترة 267 عاماً والتي تولى خلالها السلطة 47 سلطاناً، عهداً يعج بالتناقضات حيث أنَّ طول هذه المدة وتعدد السلاطين سواء العظماء أو صغار السن، طبع ميزات لهذه الحقبة ففيها العزّ والذل، وفيها العظمة والانهيار، وفيها القوة والضعف وفيها الوفاء والفتن، وفيها الارتفاع والمجد كما السقوط والوهن[2].

إلا أن العوامل التي أثرت في ضعف دولة المماليك الجراكسة كانت لها نتائج قاسية من خزينة دولة خاوية وموارد مستهلكة وجيش ضعيف ومتقهقر وأوضاع داخلية متردية أدى الى عجز المماليك الكامل عن حماية البلاد الاسلامية ودَفَعَ بالدولة المملوكية الجركسية أن تنهار أمام قوة الدولة العثمانية.

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص300-301.

[2]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص217.

1.2 العمران في العصر المملوكي:

تُعتبر العمارة الاسلامية بشكل عام الشاهد المادي الأبرز الذي يجسد الحضارة الاسلامية، وقد بُنيت ضمن نطاق عوامل دينية واجتماعية وثقافية وسياسية وعسكرية واقتصادية وجغرافية باستخدام اساليب معينة لتخدم اغراض انسانية محددة. فأنتجت هذه العوامل مجتمعة أنماط مختلفة من العمارة، فظهرت العمارة الدينية كالمساجد والجوامع والمدارس والمقابر، والعمارة السكنية كالقصور والبيوت، والعمارة المدنية كالمراكزالحكومية والمحاكم والبلديات، والعمارة التجارية كالأسواق والخانات، والعمارة الدفاعية كالقلاع والأبراج والموانئ والبوابات والأسوار، والعمارة الصحية كالمشافي (البيمارستانات) والحمامات، والعمارة الصناعية كالمشاغل والمعاصر[1].

ومن بين العصور الاسلامية المتعاقبة وآثار عمارتها الشاهدة عليها، يُعتبر العصر المملوكي هو العصر الذهبي في فن العمارة والبناء[2]، فقد حذا سلاطين المماليك حذو اسلافهم من سلاطين الأيوبيين والفاطميين والعباسيين وغيرهم في الاهتمام بالحركة العمرانية. وبالرغم من أن اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك كان مركزا باتجاه تحريرالبلاد الاسلامية من براثن قبضة الصليبيين والمغول وكانت جهودهم منصبة على أمر الجهاد وصدّ العدو، إلا أنهم لم ينسوا أمر ترسيخ الهوية العربية الاسلامية في البلاد التي كانت تحت سيطرتهم فأكثروا من إنشاء المؤسسات العلمية والثقافية والتعليمية الاسلامية في مصر وبلاد الشام وفلسطين.

وقد تدرج الأمر من حركة عمرانية مصاحب لها تحويل مؤسسات ذات طابع ديني ووظيفي مختلف لمؤسسات اسلامية في العصر الأيوبي، الى نهضة عمرانية كاملة في العصرالمملوكي تشهد لها آثارها المعمارية الباقية والبارزة والتي تُظهر أسس فن عمارتها وفن زخارفها المتميز.

ولم يقتصر أمر الاهتمام بالحركة الثقافية والعمرانية على السلاطين المماليك وحدهم كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وأبناءه الأشرف خليل والناصر محمد بن قلاوون ثم السلطان حسن بن الناصر محمد، ومن بعدهم الظاهر برقوق وابنه فرج بن برقوق والأشرف قايتباي، انما تعداه الى نواب السلاطين الذين اسهبوا في اهتمامهم بالمنشآت المعمارية أمثال نائب الشام الأمير تنكز الحسامي ونائب غزة الأمير علم الدين سنجرالجاولي، وغيرهم من الذين تعدت انجزاتهم المعمارية ما قد انجزه السلاطين انفسهم. كما كان للأمراء المماليك وبعض الأعيان من المحسنين دور كذلك في الحركة العمرانية بما أنشأوه من مؤسسات خيرية كالمدارس والزوايا والاسبلة وغيرها....[3]

---

[1] .Zahlan, The Recontruction of Palestine, pp.395-396.

[2]. حسن، فنون الاسلام، ص71.

[3]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص401-402.

وتعود اسباب هذه النهضة العمرانية في العصر المملوكي بالأساس الى انتشار الأمن والاستقرار في الدولة خاصة في بداية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري، الأمر الذي تبلور عنه وجود نهضة تعليمية، دعت الحاجة الى ترسيخها انشاء مؤسسات مختلفة تُعنى بأمور التعليم والتثقيف جنباً الى جنب مع توفير الراحة لطالبي العلم.

وقد كان لنظرة العامة من الناس على المماليك بأنهم طائفة من الأتراك الأجانب أثره الايجابي في دفع الحكام المماليك على تأكيد انتمائهم للدين الاسلامي وتطبيقهم لشعائر الدين، فجاءت اعمالهم مركزة على أمر تأسيس العديد من المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية، فغدت حضارتهم ذات طابع ديني الى جانب الصبغة العسكرية.

وكان لأمر احياء الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ/1261م، على يد الظاهر بيبرس عاملاً اكسب مدينة القاهرة نفوذاً سياسياً ودينياً، وجعل السلاطين المماليك يظهرون كحماة للدين الاسلامي، فكان الإقدام على تشييد العمائر المختلفة أمراً يدعم هذه الخطوة ويؤكد على أحقية المماليك في السيطرة على العالم الاسلامي[1].

كما أن توفر الثروة والمال الوفير في هذه الحقبة نتيجة للعلاقات التجارية مع دول الشرق والغرب وازدهار اقتصاد الدولة، مكّن السلاطين والأمراء وغيرهم من أصحاب الخير من استغلال هذه الثروة في انشاء ودعم مؤسسات دينية وتعليمية وخيرية، تشهد لمقدار هذا الانفاق من المال والجهد عظمة العمائر المملوكية الفائقة الروعة والرقي.

وقد كان لرغبة سلاطين وحكام المماليك في التقرب الى عامة الشعب أثره في ازدهار التعليم. فقد كان أمر الحياة اليومية هو الاساس الذي تمحورت حوله اهتمامات السلاطين والأمراء حيث تعددت مظاهر هذه الرغبة من خلال الاهتمام بتوفير الخدمات لكافة فئات الناس، وسدّ احتياجاتهم في مختلف جوانب حياتهم سواء الدينية أو الثقافية والتعليمية أو الاجتماعية أو الصحية أو التجارية. وأُنشئت لذلك العمائر المتعددة والتي اختلفت وظيفياً تبعاً للغاية من انشاءها. فأقيمت الجوامع والمساجد خدمة لأهل الدين لتسهيل اقامة الشعائر الدينية. ولم يقتصر الهدف من انشاء هذه المؤسسات الدينية على كونها مراكز للتعبد وقراءة القرآن الكريم فحسب، انما شكلت صرحاً تعليمياً كذلك من خلال كونها مؤسسات عُنيت بالعلم والتدريس وتقديم التوجيه والنصح، فكانت تضم اعداداً من الطلبة ورجال العلم والفقهاء.

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص245–246؛ الحجي، صور من الحضارة العربية الاسلامية، ص12، ص135.

وقد اختص سلاطين المماليك الفقهاء والعلماء بالعناية الخاصة، فأوجدوا مجالس تشاور معهم، وحرصوا على توثيق علاقاتهم بهم وعلى مرافقتهم، حيث شكل العلماء في مفهومهم القوة الروحية، وانفسهم القوة العسكرية، فكان لا بدّ من وجود روابط قوية بينهم تُشكل دعماً اساسيا هدفه خدمة المجتمع والنهوض به[1].

وكان أمر تدريس العلوم الدينية من علم دراسات القرآن كعلم التفسير وعلم القراءة هو من أولويات السلاطين. كما الاهتمام بعلم التاريخ وعلم اللغة العربية كأداة اساسية لتعلم واتقان العلوم الاخرى، فأقيمت مؤسسات هدفها الاساسي العلم ونشر التعليم. فأسست المدارس للصغار والتي عُرفت بالكتاتيب، كما أُنشئت المدارس لرواد العلم والتعليم والتي ارتبطت بالفكر المذهبي. وقد بلغ عدد المدارس التي اقيمت في عهد المماليك في دمشق ما يقارب 125 مدرسة، وفي القاهرة 82 مدرسة وفي القدس ما يُقارب 50 مدرسة. وكان الهدف الرئيسي من الاكثار في انشاء المدارس هو خدمة الدين الاسلامي وما يتعلق به من أمورعقائدية وتشريعية. كما اقيمت دور الحديث التي كان لها دوراً في تعليم أصول الحديث النبوي والفقه والشريعة والسيرة النبوية وغيرها[2].

وقد أُولي عنايةً انشاء مكاتب سبيل لتعليم أيتام المسلمين القرآن والقراءة والكتابة وتوفير المسكن والملبس لهم كسباً للأجر والثواب. وتم الحاقها بالمدارس أو الجوامع من أجل تيسير الاشراف عليها والعناية بها بالشكل الجيد.

كما كان للمؤسسات ذات الطابع الديني الخيري جزءاً يسيراً من هذا الاهتمام، حيث أُنشئت الخانقاوات للمتصوفين، والتي شكلت تعبيراً عن التوجه الاسلامي للثقافة الصوفية الاسلامية، يمارس فيها المتصوفون طقوسهم للتقرب الى الله، كما يقيمون بها ويقدمون خدماتهم لطالبي الانتفاع ببركتهم. وقد تميزت الخانقاوات بالعصر المملوكي بحسن التنظيم وبأعلى درجات اساليب التعليم وبنخبة من العلماء والمشايخ[3].

كما أن الأربطة والزوايا شكلت ملجأً للزهاد المنقطعين للعبادة والعلم ومكاناً للفقراء والمحتاجين، تُوَفَر لهم فيها منافع تعليمية واجتماعية. كما عُنيت هذه المؤسسات بالنساء، فاقتصرت بعض الأربطة على خدمة النساء اللواتي تقطعت بهن السُبل، فكان يتم ايوائهن وتعليمهن[4].

---

[1]. الزيدي، العصرالمملوكي، ص296؛ الحجي، صور من الحضارة العربية، ص135، ص146، ص195؛ عاشور، العصر المماليكي، ص384؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص512.

[2]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص204، ص404؛ الزيدي، المصدر السابق، ص257.

[3]. الحجي، المصدر السابق، ص161، ص187.

[4]. الحجي، المصدر السابق، ص163-165.

وقد عُني سلاطين وأمراء المماليك بإنشاء مبانٍ مخصصة لدفنهم، وتُعرف بالمدافن (التُرب) والمشاهد والمزارات. وكانت التربة أو الضريح عبارة عن مبنى يتخذ عادة الشكل المربع وتقع في مركزه قبة، فأصبحت " القبة" اسماً مرادفاً للتربة.

وكان انشاء الترب تقليداً عرف قبل العصر المملوكي، ولكنه لم يقتصر حينها على السلاطين والأمراء، انما كان يتم انشاء هذه المباني أيضاً للعلماء والفقهاء والمتصوفين. أما سلاطين وأمراء المماليك فقد اختصوا هذه الاماكن لهم واحياناً لأسرهم.

وكانت تأتي هذه المباني إما مستقلة أو أن تُلحق بمسجد أو مدرسة أو خانقاة، وحينها تفرض عظمتها من خلال الموقع الرئيسي الذي تشغله في المجمع أو من خلال واجهتها الرئيسية المسيطرة على واجهة المجمع. وكان بعض هذه التُرب ذو حجم ضخم بحيث يشتمل على العديد من المرافق للعاملين في خدمة التربة، أو اجنحة للزائرين القادمين لزيارة القبور في المناسبات والأعياد حيث خصصت لهم مساكن للإقامة والاستراحة، وهناك أجنحة فخمة عادة في الدور العلوي مخصصة لإقامة السلطان وعائلته وحاشيته.

والى جانب كون هذه الترب مزارات فإنه كانت يُرتب بها دوماً تلاوة القرآن وتجري بها عملية تدريس منتظمة لأمور العلوم الدينية، كموضوع تفسير القرآن والحديث النبوي[1].

كما كان للمماليك اهتماماً بالخدمات الصحية، فانشئت البيمارستانات والتي كانت تقدم مستوى عالي من الخدمات الطبية، اضافة الى ذلك فقد تم تشجيع الأطباء، حيث اقتضت كثرة الحملات العسكرية مرافقة الأطباء للعساكر، للعناية بصحة الأمراء والقادة. مما دفع الأطباء الى زيادة وتطوير مستواهم العملي والعلمي من خلال الاهتمام بالعلوم الاخرى والتي لها علاقة بعلم الطب كعلم الأحياء والنبات والكيمياء وغيرها، الى جانب الإحاطة بحقول المعرفة الاخرى كالفلسفة واللغة والأدب وغير ذلك من العلوم النظرية[2].

ولقد شكلت الحمّامات مكاناً لتوفير خدمات صحية واجتماعية في آنٍ معاً، فكان يتم استغلال هذه الأماكن للاغتسال وللمعالجة الطبية للذين يُعانون من امراض جلدية أومشاكل الأعصاب والمفاصل. كما كان الحمّام يُشكل مكاناً تُمارس فيه الأنشطة الاجتماعية، من تبادل الأحاديث ولغايات التزيُن قبيل المناسبات الاحتفالية. وقد كانت هذه الحمّامات تعمل ضمن نطاق حدود

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص31–32؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص412–413؛ القحطاني، مبادئ العمارة الاسلامية، ص198.

[2]. عثامنه، المصدر السابق، ص418.

صحية واجتماعية وأخلاقية، فكان يتم الاعتناء بنظافة مرافق الحمّام كاملة الى جانب الالتزام بقواعد الآداب الدينية والأخلاقية.

وقد عُنِيَّ سلاطين المماليك عناية خاصة ببناء الحمّامات، وكانت جزءاً من اهتمامهم بتوفير خدمات كاملة لعامة الناس، وضمن اطار اعمالهم الخيرية لكسب الأجر ومحبة الشعب.

لقد أولى المماليك عناية بتوفير المياه للمدن، ليس لأن الماء مصدر للحياة الحضارية فقط، وانما لارتباط المياه بالعقيدة الاسلامية لإقامة الشعائر الدينية. فحرص السلاطين والأمراء على بناء القنوات في الأماكن التي تنقصها المياه، لتكون من ضمن أعمالهم الخيرية لمنفعة الناس. فكان يتم انشاء الأسبلة والبرك لتيسير المياه للمارة والمنتفعين[1]. وقد كان لفظ سبيل وفعلها الثلاثي أسبل بمعنى صبَّ المياه، قد ظهر في الفترة المملوكية بمعنى عين المياه، وذلك تأكيداً على استمرار الصدقة وفعل الخير في "سبيل" الله[2].

كما لم يُهمل السلاطين المماليك بناء الجسور والقناطر في أنحاء الدولة المملوكية، لتساعد السكان والمسافرين على الوصول الى غاياتهم بأمان ودون مشّقة. ولم يقتصر اهتمام سلاطين المماليك والأمراء على أمر التنقلات الداخلية فحسب، إنما تعداه الى توفير الأمن للقوافل على الطرق الخارجية وضمان الراحة للمسافرين والتجار من خلال تشييد الخانات على طول الطرق التجارية الرئيسية[3]، والتي أقيمت كمحطة للراحة، ومكان آمن لمبيت المسافرين حيث أُحيطت هذه الأماكن بالأسوار العالية التي تتخللها أبراج الحراسة، واستُخدمت أيضاً كمخازن للبضائع المنقولة. وهناك نوع آخر من الخانات التي أقيمت في داخل المدن، وتُعرف أيضاً بالفنادق أو الوكالات أو القيساريات (القياسر)، تشترك جميعها بنفس الوظيفة وقد تتباين قليلاً بمساقطها الأفقية. وتقع في مركز المنطقة التجارية حيث تقوم على توفير نُزُل للتجار ومكان لتخزين وتصريف بضائعهم. وكان لهذه العناية باستمرار النشاط التجاري وتطويره أن يقوم بعض كبار التجار أنفسهم بإنشاء الخانات، فلا تكون المبادرة فقط من السلاطين أو نوابهم[4]. وكان لهذه الخانات دوراً بارزاً في ازدهار الحركة التجارية وتمتع مصر وبلاد الشام بالثراء[5].

لقد كانت هذه المنشآت من أهم الطرز المعمارية التي لها علاقة مباشرة بحياة عامة الناس، ولكن بالرغم من التطور والازدهار والرقي الذي وصلت إليه العمارة المملوكية وتنوع طرزها،

---

[1]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص 423، ص431-432.

[2]. بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص89.

[3]. عثامنه، المصدر السابق، ص438؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص233؛ Sims, Architecture of the Islamic World, p.97.

[4]. عثامنه، المصدر السابق، ص433-434؛ مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص72-75.

[5]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص86.

واستخدام عناصر معمارية وزخارف متميزة أضفت لها طابعاً مميزاً، إلا أنه بسقوط الدولة المملوكية الجركسية تحت الحكم العثماني، أدى الى تراجع عمارة ذلك العصر ويعود ذلك الى تأثيرات العمارة العثمانية وترحيل خيرة المهندسين والعمال الى اسطنبول[1].

1.2.1 أبرز الانجازات المعمارية:

أما أبرز الانجازات المعمارية في دولة المماليك فكانت كثيرة ومتعددة، وقد تأثرت العمارة المملوكية بتأثيرات معمارية من العصور السابقة، فيظهر تأثير العمارة الفارسية والعمارة الساسانية في تخطيط المساجد والمدارس، حيث أصبح المسقط العام للمسجد أو المدرسة أو المجمع هو الصحن المحاط بأربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك في مصر مدرسة السلطان الظاهر بيبرس (660هـ -662هـ/ 1262م-1263م)، ومسجد ومدرسة ومدفن وبيمارستان السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين (683هـ -684هـ/ 1283م - 1285م)، ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون (695هـ -703هـ/ 1295م -1304م)، وخانقاه ومدفن بيبرس الجاشنكير(706هـ -709هـ/ 1306م ـ1310)، ومدرسة ومسجد ومدفن السلطان حسن (757هـ -764هـ/ 1356م ـ1362م) والذي يُعتبر المَعْلَم الأبرز للعمارة الاسلامية في مصر، ومدرسة ومدفن وخانقاه برقوق بالنحاسين (786هـ -788هـ/1384م-1386م)[2]. وفي القدس تعتبر المدرسة التنكزية (729هـ/ 1328-1329م) الواقعة في الجزء الجنوبي من طريق باب السلسلة، من أبرز الأمثلة على مخطط المدرسة ذي الايوانات الأربعة، كما والمدرسة الأشرفية والتي قام السلطان الأشرف قايتباي بإعادة بناءها عام (887هـ/ 1483م)[3].

وهناك امثلة لاستخدام الأروقة حول الصحن في المساقط الأفقية للمساجد بتأثيرات من العصور السابقة، منذ الفتح الاسلامي 20هـ/ 640م وحتى نهاية العصر الفاطمي 567هـ/ 1171م، إلا أنها تختلف في العصر المملوكي بصغر مسطح الصحن المكشوف بالنسبة للأجزاء الاخرى المغطاة من الأروقة بعكس العصور السابقة، ومثال على ذلك في مصر المسجد الكبير للظاهر بيبرس (1267م-1269م)، ومسجد الناصر محمد بالقلعة (735هـ/ 1335م)، ومسجد فرج بن برقوق (811هـ/ 1408م) ومسجد الأشرف برسباي (841هـ/ 1437م)[4].

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص14.

[2]. مصطفى، المصدر السابق، ص19-20؛ حسن، فنون الاسلام، ص73؛ آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ص59-60؛
Hoag, Islamic Architecture, pp.80 -82

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص388؛
Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 47 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.223

[4]. مصطفى، المصدر السابق، ص20-21؛ Hoag, Islamic Architecture, pp.78-79.

وقد يقوم بعض سلاطين المماليك كالظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون بإنشاء مسجدين بحيث يكون احدهما على نظام المدرسة ذات مسقط الصحن وأربعة ايوانات، ويكون داخل حدود المدينة بحيث يكون قريباً من الطلاب، أما الآخر فيكون على نظام الأروقة ويُبنى خارج المدينة ويكون للصلاة والعبادة[1].

وهناك نوع آخر يجمع بين المسقطين، أي الإيوانات والأروقة في مسقط واحد، ومثال على ذلك في مصر خانقاه فرج بن برقوق بمدافن المماليك (801هـ –813هـ/ 1399م ـ1411م)، وقد كانت مساقط الخانقاوت لا تختلف عن مساقط المدارس إلا في بعض الأحيان. ويُعتبر مسجد وخانقاه فرج بن برقوق من أعظم المنشآت الدينية الخيرية، حيث ضمَّ الى جانب المسجد والخانقاه ضريحين لأسرة برقوق وسبيلين وكتّابين ورَبْعاً سكنياً. كما وترتفع بالمبنى منارتان متماثلتان وتتميز قبتان متماثلتان كبيرتان في طرفي المبنى بزخارفها المحفورة بالحجر على شكل رقمي" ٧ و٨"، وقبة اخرى صغيرة فوق المحراب[2].

لاحقاً تطورت هذه المساقط خاصة في نهاية العصر المملوكي الجركسي، بحيث صغرت مساحة الصحن والايوانات الجانبية، كما وتداخلت الفراغات مع بعضها، وتمت تغطية الصحن بفانوس خشبي به فتحات زجاجية ملونة، أضفت على العمارة الاسلامية رونقاً ورُقِياً، مثلما توضح مدرسة ومسجد ومدفن قايـتبـاي بالصحراء الشرقية في القاهرة (877هـ – 879هـ/ 1472م–1474م)، وكذلك مدرسة ومدفن الغوري (909هـ –910هـ/ 1504م–1505م)[3].

لقد برزت هذه النماذج للعمارة المملوكية في مصر باعتبارها مركزاً لحكم سلاطين دولة المماليك، أما بلاد الشام فإنَّ الاهتمام ببناء المدارس خاصة أو المساجد كان قد تراجع بعد عام 1250م، أي بعد سقوط دولة الأيوبيين والتي كان مركز قوتها يتمحور في بلاد الشام، خاصة بعد الظاهر بيبرس الذي كان له اهتمام بالتعمير في سوريا. أما مَنْ تبعه من السلاطين فإنه كان نادراً اهتمام أي سلطان بإنشاء مجمع في سوريا كما تم انشاؤه في مصر. ويُستثنى من بلاد الشام فلسطين باعتبار اهميتها الدينية حيث استمر الاهتمام بإعمارها حتى عهد قايتباي. وبذلك فإنَّ الاهتمام بإنشاء المدارس في القاهرة قد حظي بالاهمية المميزة دوناً عن أمر تعميرها في بلاد الشام، وأصبح اهتمام المماليك منصباً أكثر حول بناء الأضرحة والمساجد التي تشتمل على المدافن.

---

[1]. حسن، فنون الإسلام، ص24.

[2]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص21؛ عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الاسلامية، ص200–201.

[3]. مصطفى، المصدر السابق، ص21؛ عكاشة، المصدر السابق، ص200–201.

وكان هناك اختلاف في تخطيط المدارس في بلاد الشام عنها في مصر، حيث امتازت بالمرونة في استخدام وتحويل الايوانات في المدرسة، وتغيير حجمها. فقد يتم تحويل ايوان الى مدخل وأحياناً يتم تركه مكشوفاً وتحويره لخدمة زيادة مساحة الصحن الداخلي المكشوف. كما وهناك امكانية تحويل ايوانين الى تربة ومسجد، وبهذا فإن مرونة تحويل الايوانات بحيث يمكن أن يتم تصغيرها لتصبح تجويفاً في الحائط أو تكبيرها لتصبح مسجداً، قد أثَّر في مخطط المسقط الأفقي للمدارس، الذي أصبح بشكله الأساسي ذا ايوانين. وأصبح الاهتمام مركزاً على الواجهة المطلة على الطريق باحتواءها المدخل الرئيسي وبعض النوافذ، أما بقية المبنى فيكون امتداده بشكل عمودي على الطريق.

ومن الأمثلة على ذلك في دمشق المدرسة الظاهرية (676هـ/ 1277–1278م) وفيها ضريح الظاهر بيبرس، ومدرسة الشيخ حسن راعي الهِمة (863هـ/1459م)، ومدرسة السيّدة، والمدرسة الرشيدية (750هـ/ 1349م) والمدرسة الجقمقية (822هـ/1419م) ومسجد الطُرُزية (825هـ/ 1422م).

أما التأكيد على استخدام المدرسة كمسجد فيكون بإضافة مأذنة الى المبنى، كالمدرسة الصفهية والتي قام ببناءها القاضي ابن الصفه في (868هـ/ 1464م) والمدرسة الأنصارية وكلتاهما في مدينة حلب.

أما مدينة القدس والتي حظيت بالاهتمام، فقد تعددت المدارس التي تم انشاؤها مثل المدرسة الدوادارية (697هـ/ 1298م) والمدرسة الخاتونية (784هـ/ 1382م) والمدرسة السلامية (700هـ/ 1300م) والمدرسة الطشتمرية (785هـ/ 1383م) والمدرسة المُزهرية (885هـ/ 1480م) والمدرسة الجواهرية (844هـ/ 1440م) والمدرسة الأسعردية (760هـ/ 1359م) والمدرسة التنكزية (729هـ/ 1328–1329م) والمدرسة الأشرفية (887هـ/ 1483م) والتي قام بإعادة بناءها الأشرف قايتباي وتُعتبر أبرز الأمثلة للمدارس المملوكية خارج مدينة القاهرة. وقد تمَّ في جميع المدارس التركيز في تخطيطها على المداخل، حيث تمت العناية بزخرفتها لإعتبار ضيق الطرق في المدينة، الأمر الذي دعى الى حاجة اظهار المباني[1].

أما الأسبلة فقد تُبنى كوحدة معمارية منفردة، كما في سبيل الناصر محمد بن قلاوون (726هـ/ 1326م) في القاهرة[2]، وفي القدس كسبيل قايتباي (887هـ/ 1483م) وسبيل علاء الدين البصيري المعروف أيضاً بسبيل باب الحبس (666هـ/ 1267م)[3]. أو أن يُلحق بالسبيل كُتّاب

[1] .Hillenbrand, Islamic Architecture, pp.202-203

[2]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص33.

[3]. العسلي، من آثارنا، ص223، ص238.

على الطابق العلوي، وقد عُرف حينها بمكتب السبيل. وقد يأتي السبيل والكُتّاب كأحد العناصرالمعمارية المكونة لمبنى المدرسة أو الخانقاه او المسجد ويشغل ركناً هاماً من أركان المبنى، وحينها يتم تمييز واظهار السبيل والكُتّاب عن طريق معالجة الحوائط بطريقة مخالفة لحوائط المبنى الاخرى، حيث يتم استخدام الرخام الملون مثل الأبيض والأسود، وتغيير الفتحات به كما وابراز شرفات الكُتّاب الخشبية المزخرفة، ويظهر ذلك بوضوح في مدينة القاهرة في سبيل مسجد فرج بن برقوق (811هـ/ 1408م)، وكُتّاب مدرسة الأشرف برسباي (829هـ/ 1425م)، كما وفي مسجد ومدرسة ومدفن قايتباي بالصحراء الشرقية (877هـ -879هـ/ 1472م- 1474م)، وأيضاً في قبة وسبيل الغوري (909هـ -910هـ/ 1504م- 1505م)[1].

أما المدافن فإن مدفن شجرة الدّر(648هـ/ 1250م) يُعتبر من أبرز الأمثلة على المدفن الواقع كمبنى مستقل. أما المدافن الملحقة بالمباني فهي متعددة في القاهرة، ويُعتبر مدفن مدرسة برقوق بالنحاسين (786- 788هـ/ 1384-1386م) ومدفن خانقاه بيبرس الجاشنكير ومدفن مدرسة السلطان حسن (757-764هـ/ 1356-1362م) من أروع الأمثلة في اظهار أهمية المدفن بإبراز موقعه في المجمع المعماري، كما ومدفن قايتباي ومدفن برسباي[2].

وفي القدس يُعتبر مدفن "بركة خان" ذو الزخارف الحجرية الرائعة، على طريق باب السلسلة من ضمن مجموعة ترب انشأت في المدينة لدفن أمراء كانت منيتهم في المدينة أو في خارجها، وذلك للإيمان في الدين الاسلامي بأن البعث يوم القيامة سيكون من مدينة القدس، فتم اقامة العديد من التُرب خاصة في المنطقة المحيطة بالحرم القدسي الشريف[3].

ومن أبرز الأمثلة على عمارة البيمارستانات، يظهر بيمارستان قلاوون بالقاهرة (683-684هـ/ 1284-1285م) والمعروف بالبيمارستان المنصوري نسبة الى المنصور قلاوون الألفي والملحق بمدرسته ومدفنه، كشاهد على مدى الاهتمام بمختلف العلوم الطبية من خلال الأقسام المتعددة فيه[4].

وقد ظهرت الحمّامات كطراز معماري استوجبته تعاليم الدين الاسلامي ومناخ منطقة الشرق الأوسط الحار نسبياً، وجاءت طريقة التشغيل مشابهة للطريقة التي استعملها الرومان من خلال التدرج في التنقل بين الغرف تبعاً لدرجة الحرارة، بحيث يضمن للمستحم الراحة والسلامة في الانتقال بين درجات الحرارة المختلفة، ويظهر ذلك في الحمّام المؤيدي (823هـ/ 1420م) في القاهرة. ومن الحمّامات الشهيرة أيضاً ولكن المدّمرة، حمّام بشتاك بالقاهرة (740هـ/ 1339م)،

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص33-36.

[2]. مصطفى، المصدر السابق، ص31-32؛ حسن، فنون الاسلام، ص77.

[3] .Kroyanker, Jerusalem Architecture, p.47

[4]. مصطفى، المصدر السابق، ص71؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص420.

والذي لم يبقَ من آثاره سوى مدخله[1]. كذلك في مدينة القدس يشتهر حمامي الشفا والعين في سوق القطانين[2].

وكان من أبرز الجسور التي أقيمت، جسر دامية على نهر الأردن في منطقة الأغوار بأمر السلطان الظاهر بيبرس عام 665هـ/ 1266م. كما وقناطر أرسوف في منطقة الساحل الفلسطيني في فترة النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وقناطر برقوق في القدس[3].

وكما تم ذكره فإن العلاقات التجارية في الدول المملوكية كانت تشغل اهتماماً كبيراً من قبل السلاطين والأمراء، ولذلك عُنيوا بإنشاء الخانات التي هدفت بالأساس الى توفير الأمان للتجار ولبضائعهم على الطرق التجارية، كما وتوفير الراحة والمسكن لهم ومخزن لبضائعهم. وقد تم إنشاء العديد من الخانات كان من ابرزها خان الظاهر بيبرس (662هـ/ 1263–1264م) في ماميلا خارج اسوار القدس، وخان يونس في غزة المُقام على الطريق التجاري بين مصر والشام، من قِبَل الأمير يونس بن عبدالله النوروزي، وخان العقبة (914هـ/ 1508–1509م) الذي بقيت آثاره مدمَرة منذ عهد الأيوبيين الى أن قام السلطان قانصوه الغورى بترميمه وتجهيزه على طريق الحج بين مصر والشام[4].

أما الخانات التي كانت تُقام داخل المدن الكبرى ووسط الأسواق، والتي عُرِفت كذلك بالوكالات أو القياسر فكان من أبرزها وكالة قايتباي بالقرب من باب النصر بالقاهرة (885هـ/ 1480–1481م)، ووكالة الغورى في القاهرة (909–910هـ/ 1504–1505م)، والتي تتكون من عدة طوابق عددها خمسة، تُطِل على صحن داخلي مشترك ومفتوح، ويُشكل فيها الطابقين السفليين مكان لتخزين البضائع، أما الطوابق العليا فهي تتشكل من وحدات سكنية منظمة بشكل عمودي يتخللها أدراج منفصلة كل على حِدة. أما الوكالات في بلاد الشام فتختلف عن مثيلاتها في مصر، حيث أنها لا تتعدى الطابقين، طابق أرضي وطابق علوي مكون من غرف تفتح على دهليز ثم يُطل الدهليز على الصحن، أما في الأمثلة المصرية فإن الغرف عبارة عن مساكن مطلة مباشرة على الصحن. ومن بين الوكالات والخانات التي أُنشأت في فلسطين، خان تنكز الذي أقامه نائب دمشق الأمير تنكز الحسامي بسوق القطانين في القدس. كما وخان أو وكالة السلطان الذي جُدِدَ

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص76؛ حسن، فنون الإسلام، ص81.

[2]. العسلي، من آثارنا، ص175، ص190.

[3]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص438– 439.

[4]. عثامنه، المصدر السابق، ص435– 438.

أيام السلطان برقوق، وخان الزيت؛ حيث أنَّ بعض الخانات قد عُرِفَتْ تبعاً لنوع البضاعة التي اختصت بها.[1]

1.2.2 مميزات العمارة المملوكية:

لقد تم ذكر بعض أبرز الإنجازات المعمارية للسلاطين أو الأمراء المماليك، حيث أنَّ أعمالهم متعددة لا يُمكن حصرها. وكان لجُل هذا الاهتمام بالحركة العمرانية أنْ أصبح للعمارة مميزات خاصة تمتاز وتتميز بها، يمكن قراءة بعض منها من خلال أنَّ العمارة المملوكية امتازت بالآتي:-

- أنَّ العمارة الاسلامية عامة والمملوكية خاصة اتسمت بطابع تعدُد الوظيفية، فالبناء نفسه يتم استخدامه لوظائف متعددة مثل المسجد أو الخانقاة أو الضريح؛ فالمسلمون لم يقوموا بالعبادة فقط في المسجد، ولم يتلقوا التعليم الديني فقط في المدرسة، ولم يتم دفنهم فقط في الأضرحة، إنما تم توظيف المباني لعدة غايات واستخدامات، ولذلك نشأت ظاهرة المجمعات المعمارية، حيث أنَّ المجمع يتكون من أكثر من بناء كالمسجد والمدرسة والخانقاة والمدفن والكُتّاب والسبيل. وقد اتخذت هذه المجمعات بُعداً عمودياً في تكوينها نظراً لضيق المساحة المتاحة والنسيج الحضاري المتماسك[2].
- تأثرت العمارة المملوكية بحضارات مختلفة، فظهرت تأثيرات ساسانية وفارسية وايرانية ورومانية وبيزنطية واناضولية، فارتقت العمارة المملوكية بصبغات مختلفة أكدت على طابعها المتميز[3].
- تُعتبر العمارة المملوكية هي عمارة احتواء، حيث أنه بالرغم من الاعتناء بالواجهات الخارجية والمداخل إلا أنَّ المبنى يفتقر الى ما يوضح شكله أو حجمه أو وظيفته، فمن الصعب الادراك من خلال السطح الخارجي للمبنى ما يحويه داخله من ملامح رئيسية، وبذلك فإن البناء من الخارج يظهر وكأنه قلعة من الحجر، أما من الداخل فتذوب الكتلة وتظهر كنحت لاحتواء الفراغ.
- امتازت العمارة المملوكية باستهدافها للجماعة، بإنشاء العمائر المختلفة التي أقيمت لخدمة عامة الناس، في حين أنَّ القائمين عليها كانوا يقصدون بها كفارة أو تقرباً الى الله.
- للعمارة المملوكية صلة وثيقة بالعقيدة الاسلامية ومظاهرها المختلفة سواء الدينية أو السياسية أو الاجتماعية[4].

---

[1]. Sims, Architecture of the Islamic World, p.90;
مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص73-74؛ عثامنه، المصدر السابق، ص434- 435؛ عكاشة، القيم الجمالية، ص212-214

[2]. القحطاني، مبادئ العمارة الاسلامية، ص196-197؛ Hillenbrand, Islamic Architecture,p.6.

[3]. مصطفى، المصدر السابق، ص13؛ Hoag, Islamic Architecture, p. 7.

[4]. القحطاني، المصدر السابق، ص284-285؛ عكاشة، المصدر السابق، ص146 ص150.

- امتازت العمارة المملوكية بالاهتمام بالنسب، حيث روعي علاقة ارتفاع البناء مع عرض الطريق وذلك لتوفير الاضاءة والتهوية المناسبة لداخل المبنى. كما وروعي تنظيم الفراغات بين المباني بحيث تشكل رابط فيما بينها[1].
- امتازت العمارة المملوكية بتخطيط الصحون المحاطة بأربعة ايوانات لخدمة المذاهب الأربعة. وهذا تصميم تجريدي يمتاز بمرونته ويحقق سهولة في اختيار الاستخدام الوظيفي للمبنى، حيث أن العمارة الاسلامية بشكل عام تُؤْثِرْ أهمية الاستعمال على الشكل وتُخْضِعْ الشكل للاستعمال[2].
- لقد أولى المماليك عناية خاصة بواجهات عمائرهم؛ فجاءت الواجهات كبيرة ومرتفعة، وظهر التنوع والاتقان في العناصر المعمارية من المداخل، المآذن، القباب، العقود، الأعمدة وغيرها...، وكان الحِرص بألا يكون المدخل في وسط الواجهة، بل في ركن منها وأن يكون مرتفعاً ويتم الصعود إليه بدرجات، ويكون المدخل شاهقاً قد يمتد الى ارتفاع البناء وفيه عمق. كما أسرفوا في الزخارف والنقش على الحجر بزخارف توريقية وأشكال هندسية ونباتية. وعمدوا الى تغطية المساحات وعدم ترك أي مساحة دون زخرفتها، فلجأوا الى تكرار الموضوعات الزخرفية. وكانت تعكس هذه الزخارف وكثرتها أهمية القائم على البناء، فكلما زادت الزخارف وتنوعت كلما كانت مرتبته أعلى. كما لجأوا الى تغطية الجدران بالفسيفساء والأرضيات بالرخام المُلون، وأبدعوا في زخرفة المآذن والقباب سواء من الداخل أو من الخارج[3].
- استخدام المقرنصات كعنصر انشائي وزخرفي، واستخدام الحنيات العمودية الطويلة التي قد تُفْتَحْ فيها نوافذ وتنتهي في أعلاها بالمقرنصات. واستخدام الأشرطة الكتابية التي ظهرت فيه ضُروب مختلفة من الكتابة، واستخدام الأبلق (الحجارة الملونة) باللونين الأحمر والأصفر أو الأسود والأبيض، واستخدام التعشيق، والمصبغات الحديدية، والرنوك، والمكسلتين (المسطبتين)[4].
- تميز تصميم المآذن المملوكية بالانتقال من المسقط المربع الى المسقط الدائري. والتدرج في نِسب مستويات المأذنة، بحيث تتناقص كلما ارتفعنا الى أعلى بغية جذب النظر الى أعلى. كما تم التأكيد على موقع المأذنة بوضعها بجوار المدخل، في حين أنها وُضعت فوق المدخل في العصرين الفاطمي والأيوبي.

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الإسلامي، ص91-92.

[2]. عكاشة، القيم الجمالية، ص148.

[3]. حسن، فنون الاسلام، ص71 ص80؛ Hillenbrand, Islamic Architecture, p.195 .

[4]. حسن، المصدر السابق،ص79 ص677؛ عكاشة، المصدر السابق، ص74؛Kroyanker, Jerusalem Architecture, pp. 50-51.

- تميزت العمارة المملوكية بكثرة استخدام الحجر، وصناعة الزجاج بالمينا، وتطعيم الخشب بالنحاس والتكفيت بالفضة[1]، وتقدمت صناعة الأسقف الخشبية ذات المقرنصات[2].

وأخيراً فقد كان لهذه السِّمات الرئيسية للعمارة المملوكية أنْ صبغتها بطابعٍ مميزٍ وراقٍ وبريقٍ لمعت به عن سائر العمائر الاخرى على مدى الزمان، وأبرزت عصرها الذي تستحق ما وُصِفَ به بأنه العصر الذهبي في الفن المعماري.

[1]. التكفيت بالفضة: حفر في النحاس يملأ بأسلاك الفضة.(مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص118).

[2]. عكاشة، القيم الجمالية، ص200؛ مصطفى، المصدر السابق ، ص13 ص114.

الفصل الثاني

الإدارة المملوكية لبلاد الشام



الفصل الثاني:

الإدارة المملوكية لبلاد الشام

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول الإدارة المملوكية الداخلية لبلاد الشام والتقسيمات الادارية (النيابات) فيها، ومهام وصلاحيات النواب مع ذكر لمكانة نيابة الأمير تنكز على دمشق. أما القسم الثاني فيتناول الحديث عن الوضع الاداري لمدينة القدس خاصة، وادراجها لأهميتها الدينية والجغرافية نيابة مثل سائر النيابات الاخرى. ويأتي القسم الثالث لبيان اهمية مدينة القدس من خلال التطرق الى مختلف جوانب الحياة الثقافية فيها، من حركة النشاط الفكري والعلمي والحضاري والمعماري.

2.1 الأوضاع الداخلية في بلاد الشام:

لقد تمكن سلاطين المماليك من السيطرة الكاملة على بلاد الشام وذلك عقب معركة عين جالوت في 658هـ/ 1260م، وقاموا بتقسيمها ادارياً الى ستة أقسام كبرى. كل من هذه الأقسام يرأسها نائب[1] لسلطان المماليك في القاهرة، ينوب عنه ويقوم بأعماله فيها، لذلك أُطلق عليها اسم نيابات، وكان هذا النائب أمير كبير من أمراء المماليك يتم تعيينه فقط من قِبَلْ السلطان المملوكي في مصر، والذي ينفرد أيضاً بأحقية تعيين أو عزل كبار الموظفين في النيابات الشامية.

وقد ظهرت هذه النيابات تدريجياً تِبعاً للظروف التي أوجبت اقامتها وحسب تغيرات الصراع مع الصليبيين، فكان يتم إبراز أهميتها وتسليحها بالعوامل الإدارية والعسكرية والاقتصادية لكي تستطيع مجابهة أطماع الغزو الصليبي المستمر على المنطقة. فكان أولها نيابة دمشق ونيابة حلب عام 1260م، عقب معركة عين جالوت، ثم نيابة الكرك عام 1263م في عهد الظاهر بيبرس، ونيابة صفد عام 1266م، ثم نيابة طرابلس التي أُنشأت في عهد قلاوون الذي استولى على المدينة من الصليبيين عام 1289م. أما حماة والتي اختار المماليك بأنْ تبقى تحت حكم الأيوبيين فقد

[1]. النائب: هو لقب مَن يقوم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص453).

أصبحت نيابة عام 1314م بعد وفاة الملك المؤيد علي آخر ملوك بني أيوب عليها. ثم أُضيفَ في القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) نيابة غزة والتي أقامها الناصر محمد بن قلاوون ونيابة حمص ثم نيابة القدس وملطية.

لقد تميزت هذه النيابات باتساع حدود مساحتها، وكان يتبع لها ادارياً عدد من المدن والموانئ والقلاع المهمة. وقد انقسمت كل من هذه النيابات الى أقسام ادارية صغيرة عُرفت بالولايات أو النيابات الصغيرة. وكان كل نائب من نواب الشام يدين بالولاء الكامل للسلطان المملوكي في مصر، ولكنه كان سلطاناً في نيابته، فكان له حاشيته ومماليكه واتباعه وأمراءه ووزراءه[1]، وتمتع في بيوته بالخدمة ووظائف الأمراء كما في بيوت السلطان، وقد كان هذا النائب برتبة "مقدم ألف". كما وُجدت في كل نيابة من نيابات الشام وظائف إدارية قُسِّمَت الى ثلاثة أقسام، الأول: الوظائف العسكرية وهم أرباب السيوف ومنهم نائب القلعة أو مقدم العسكر ووالي المدينة والحاجب. الثاني: الوظائف الديوانية وهم أرباب القلم ومنهم صاحب الرسائل وناظر المال، أما الثالث: الوظائف الدينية كالقاضي والمفتي والمحتسب ووكيل بيت المال[2].

وقد تفاوتت أهمية نيابات الشام من ناحية الرتبة، فلم تكن جميعها في مرتبة واحدة، فكانت نيابة دمشق وحلب من أرفع هذه النيابات مقاماً، أما أوسطها مرتبة فكان نيابة حماة وطرابلس وصفد، وأدناها نيابة غزة وحمص والكرك. وقد أكدت على تلك المراتب الرسائل والكتب التي تضمنت الألقاب والصفات الصادرة عن السلطان الى نواب هذه النيابات. وبالرغم من تصدر نيابة دمشق وحلب للمرتبة الأعلى بين النيابات، إلا أنَّ نيابة دمشق تميزت بأهمية نيابتها عن سائر النيابات الاخرى، فكان في دمشق كل ما في مصر من الوظائف وفاق نائبها أهمية النواب الآخرين، فأُطلق على نيابة الأمير فيها بنيابة الشام أو مملكة الشام والنائب بملك الأمراء[3]. وقد أكد على أهمية نيابة دمشق سعة المناطق التابعة لها، إذ اتسعت الصلاحيات الادارية لنائبها لتشمل أجزاء واسعة من الأراضي اللبنانية والفلسطينية والأردنية.

كما أكد سلاطين المماليك في القاهرة على أهمية نيابة دمشق وتميُز نائبها من خلال زيادة صلاحياته وموافقتهم على تدخله في شؤون النيابات الاخرى، فكانوا يحولون تقاريره بخصوص ما

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص13؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص33؛ اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص62؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص193-194.

[2]. الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص291؛ دجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص404؛ الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص299.

[3]. ملك الأمراء: وهو من ألقاب كُفَّال الممالك من نُواب السلطنة، كأكابر النُّواب بالممالك الشامية، فهو يقوم مقام الملك في التصرف والتنفيذ، والأمراء في خدمته كخدمة السلطان. وتستخدم كثيراً في مخاطبة النواب في المكاتبات (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص455).

يجري في النيابات وبشأن النواب الى قرارت سلطانية يتم تنفيذها دون البحث في مصداقيتها، الأمر الذي أدى الى وجود العديد من الخلافات بين نواب الشام ونائب دمشق لوجود المنافسة فيما بينهم ومخالفة النواب لتعليمات وأوامر نائب دمشق لشعورهم بوجوب تساويهم معه وبأنهم جميعاً نواب للسلطان، الذي كان بدوره يُقَوّي سلطة ملك الأمراء ويؤكد على علو كلمته.

وقد اعتاد نائب دمشق على زيارة السلطان في مصر مرَّة في السنة، عن طريق غزة حيث يُقيم فيها لحين موافقة السلطان بهذه الزيارة، وعندها يُطْلِع السلطان على أحوال بلاد الشام والأمور الخاصة بأمن الدولة وأمور الموظفين والخطط المستقبلية.

وقد تعدد نواب بلاد الشام، ولكن كانت لنيابة الأمير سيف الدين تنكز" ملك الأمراء" على دمشق أهمية خاصة، حيث استمر في النيابة ما يُقارب الثمانٍ وعشرين سنة، من سنة 1312م الى أواخر سنة 1340م وقد احتل خلالها مكانة عالية، حيث أنه وفي عام 720هـ/ 1320–1321م أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً بتجريد نيابات الشام من الاستقلالية ومنعهم من الاتصال مع السلطان مباشرة، إنما افتُرِضَ من النواب الآخرين إذا أرادوا الاتصال مع السلطان أنْ يبعثوا أولاً الى نائب دمشق ويراجعونه بالأمور المتعلقة بشؤون نياباتهم، ويقوم هو بدوره بالاطلاع على كتبهم ثم ختمها وبعثها الى السلطان[1].

وفي أواخر حكم السلاطين المماليك وبالأخص في فترة حكم السلطان قانصوه الغوري (1501–1516م) تم استحداث أمر إداري لم يكن سابقاً، حيث تم إسناد أكثر من نيابة في آن واحد لأمير واحد. ويتم ارجاع سبب هذه الظاهرة الى سيطرة الاضطراب والقلاقل بكثرة في تلك الفترة، الأمر الذي أدى الى محاولة جعل القيام بالمسؤوليات لرجل واحد يكون الأكثر قدرة على تحملها بين النواب الآخرين، من أجل ضمان الهدوء الداخلي والحدّ من التمردات والعصيان. وقد شكلت هذه الخطوة ركيزة في أمر توكيل النيابات اعتمد عليها العثمانيون بعد احتلالهم لبلاد الشام[2] .

[1]. اليوسفي، نزهة الناظر، ص63–65؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص303–305 ص321.

[2]. عثامنه، المصدر السابق، ص302–303.

2.2 الوضع الإداري لمدينة القدس:

لقد اتخذ أمر إدارة مدينة بيت المقدس أهمية تدريجية في العصور السابقة للعصر المملوكي، وذلك لمكانتها الدينية والسياسية والجغرافية، حيث كانت إدارتها في الفترة الأيوبية بيد أمير من أمراء السلطان والذي عُرِفَ بلقب" وال"، واستمرت القدس كولاية من ولايات الشام حتى أوائل عصر سلاطين المماليك حيث كانت ولاية صغيرة تتبع نيابة دمشق إدارياً، وفي قلعتها نائب صغير يعينه نائب دمشق. وكان يُطلَق احياناً على الوال لقب النائب. أما نائب دمشق فكان يملك صلاحية تعيين ولاة المدينة وجميع أصحاب المناصب الادارية فيها. ولكنه أيضاً يخضع لقوة السلطة المركزية لسلاطين المماليك في القاهرة والذين تتجاوز صلاحياتهم الادارية صلاحيات جميع النواب[1].

واستمرت القدس ولاية تابعة لنيابة دمشق الى أنْ أقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون نيابة غزة، وعين نائباً لها الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولي عام 745هـ، فأصبحت القدس ولاية تابعة لنيابة غزة الى جانب ولايات الخليل ونابلس وقاقون واللد والرملة[2].

لاحقاً تم تحويل ولاية بيت المقدس الى نيابة، فصارت ثالث نيابات فلسطين المملوكية بعد صفد وغزة، حيث شكلت صفد المركز السياسي والعسكري، وغزة المركز التجاري والاقتصادي، والقدس المركز الديني والثقافي[3].

وتأتي النية في تحويل بيت المقدس لنيابة عام 767هـ/ 1365–1366م، عندما تمَّ تحديد رتبة أمير طبلخاناة في منصب نائب، وبهذا تكون رتبة الأمير لهذا المنصب الإداري العامل الذي يُوضح أهمية تحويل بيت المقدس الى نيابة. كما وأنه في عام 777هـ/ 1375–1376م، خلال سلطنة الأشرف شعبان بن حسين، تمت نيابة الأمير تمراز المؤيدي على القدس وكان أول من وُليَ نيابتها. ثم توالى على هذا المنصب العديد من الأمراء الذين كان يتم تعيينهم من قِبَلْ السلطان المملوكي في القاهرة[4].

وقد كان الهدف من أمر استحداث نيابة القدس ذا بُعدٍ سياسي وإداري، لإعطاءها الاستقلالية الادارية وإلغاء تبعيتها، فدولة المماليك ارتكزت على شطري قوة؛ القوة العسكرية وتتمثل بقوة السلطان ومماليكه من حوله، فكان دائم السعي للتقرب الى كبار الأمراء وخَلْقْ مناصب عليا كبيرة

---

[1]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص323–324؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص33.

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص13.

[3]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص298.

[4]. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص199؛ عثامنه، المصدر السابق، ص325.

لهم، وقوة الدافع الديني، بأن المماليك هم حماة الدين الاسلامي وتَمَثَّلَ ذلك بعنايتهم ورعايتهم للمقدسات الاسلامية مما دفعهم الى هذا التطور الاداري[1].

كما أنَّ مدينة القدس بقيت مطمعاً يراود الفرنج والتتار. فبعد سقوط عكا بيد المسلمين عام 690هـ/ 1291م وكانت آخر معاقل الصليبيين في فلسطين، بقيت فكرة السيطرة على بيت المقدس أملاً يراود الفرنج، فقاموا بحصار اقتصادي ضدَّ المماليك، وأقاموا حلف مع التتار والغرب الأوروبي لإبقاء حدود دولة المماليك الشرقية في خطر دائم ومن أجل محاولة استعادة الأراضي التي فقدوها في بلاد الشام وأهمها بيت المقدس. وقد أدى عدم يأسهم واستمرار محاولاتهم وهجماتهم لعدة سنوات من أجل إعادة السيطرة على بلاد الشام، الى ادراك السلطان الأشرف شعبان بن حسين لهذا الخطر، فعمد الى رفع رتبة نائب القدس الى أمير طبلخاناة، وزوده بالقوات والمعدات لأجل تمكينه من صدِّ هذا الخطر. كما أنَّ حالة الاستقرار التي شهدتها البلاد بوجه عام وبيت المقدس بشكل خاص، وحُسن إدارة السلطان الأشرف شعبان وقمعه لعدد من الأمراء الطامعين والمتمردين، كان له الأثر في قرار هذا التحويل، وبقيت النيابة حينها مرتبطة بنائب دمشق. الى أنْ عمد السلطان الظاهر برقوق الى جَعْل القدس نيابة مستقلة يتم تعيين نائبها فقط من قِبَلْ السلطان المملوكي في القاهرة بإصدار كتاب تعيين، ولا يحق لنائب دمشق أو أي جهة اخرى بعزله إلا بأمر من السلطان. وذلك لكي تستطيع مواجهة خطر التتار الذي هدد بلاد الشام بقوة فعمل على تحصينها اقتصادياً وعسكرياً، وعيَّنَ الأمير قردم الحسيني في منصب نيابة بيت المقدس عام 796هـ/ 1393م[2].

إنَّ هذا المشهد التاريخي والصراع الدائم للسيطرة على بيت المقدس إنما يؤكد أهمية هذه المدينة وتمتعها بمكانة دينية وروحية وتاريخية واقتصادية لدى المسلمين، الأمر الذي دفع المماليك الى جعلها نيابة مستقلة كسائر النيابات الكبرى وعينوا فيها الأمراء الكبار وجعلوا لها مناصب عليا وأصبحت مركز حُكم كغيرها من مدن بلاد الشام الهامة الاخرى[3].

وبالنسبة لحدود نيابات فلسطين المملوكية (خارطة (1)) فقد اشتملت نيابة صفد على أجزاء من جنوب لبنان والجولان وأغوار الأردن. وتكونت من إحدى عشر ولاية، يرأس كل ولاية والٍ برتبة جندي يتم تعيينه من قِبَلْ نائب صفد.

أما نيابة غزة، وكانت تُعرف بالشام الأعلى فامتدت حدودها الى مناطق كثيرة شملت مناطق ساحلية وأخرى جبلية. فحدّها من الشمال قاقون ومن الشرق الخليل ومن الغرب البحر الأبيض

---

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص34-35.

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص16-19؛ علي، المصدر السابق، ص35-36.

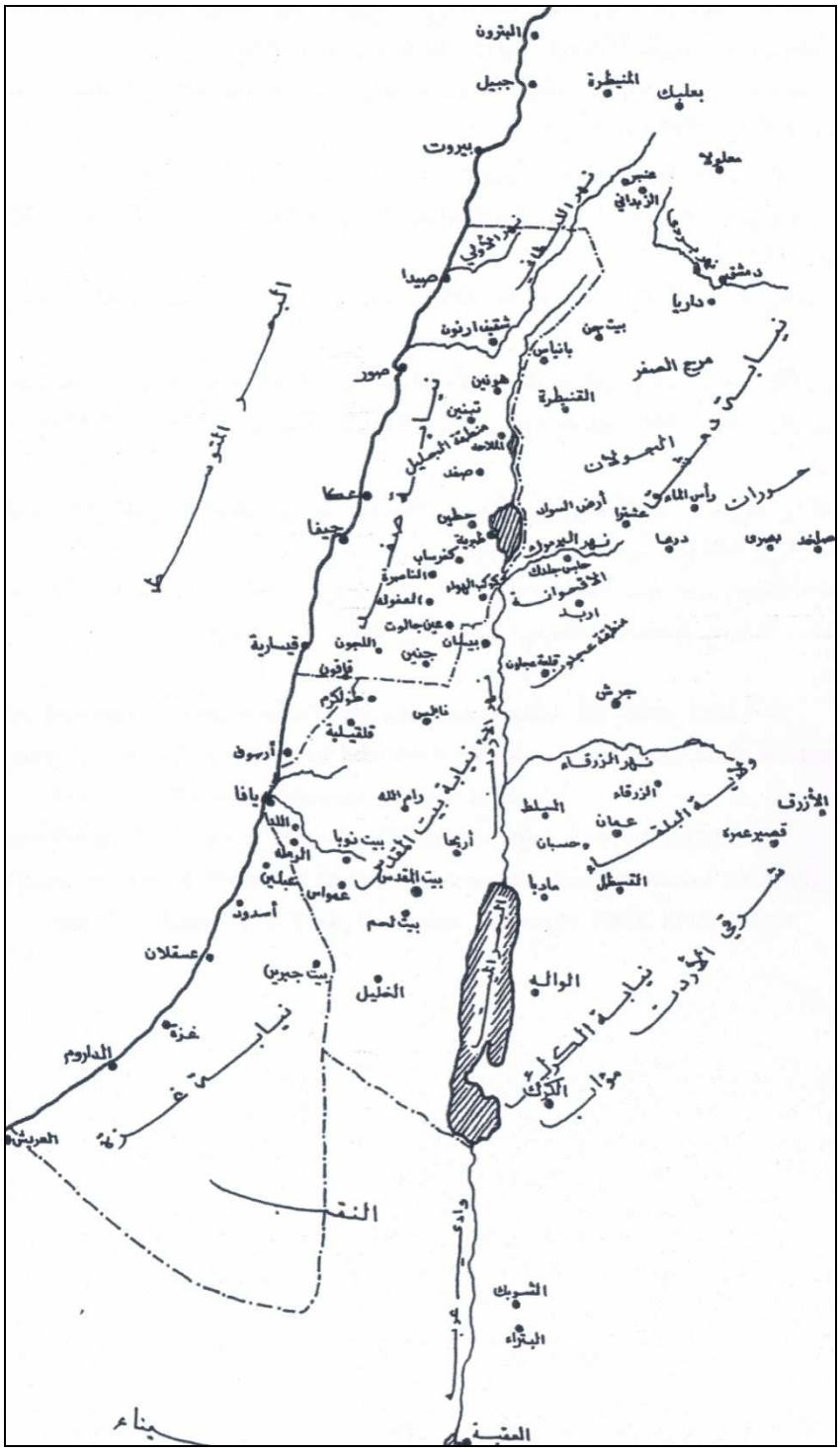
[3]. غوانمة، المصدر السابق، ص21.

المتوسط ومن الجنوب سيناء والنقب حتى حدود العريش أول الأراضي المصرية. وقد ضمَّتْ عند استحداثها سبع ولايات، تم لاحقاً ضم بعضاً من هذه الولايات الى نيابة بيت المقدس واخراجها من نيابة غزة.

أما نيابة بيت المقدس فكان أغلبها جبالاً وأوديةً، حيث اشتملت على المنطقة المحيطة بالقدس الى نهر الأردن المُسمى بالشريعة، ثم الى الرملة طولاً. وامتدت عرضاً من البحر المتوسط الى البحر الميت. وكان لنيابة بيت المقدس ثلاث ولايات وهي: ولاية الخليل، ولاية نابلس وولاية الرملة[1].

ولأهمية نيابة بيت المقدس فقد وُجِدَت فيها معظم الوظائف الإدارية التي وُجِدَت في النيابات الاخرى، كالوظائف العسكرية والوظائف الدينية والوظائف الديوانية. فالوظائف العسكرية وهي وظائف أرباب السيوف وعلى رأسهم نائب السلطنة، الذي يرأسه أمير برتبة كبيرة كرتبة مقدم ألف، تتم توليته النيابة بمرسوم سلطاني يُقرأ على القضاة والمماليك وأعيان المدينة والمجتمعين حول النائب عند دخوله المسجد الأقصى، وقد تنافس على هذا المنصب العديد من الأمراء والقادة. وكان النائب يُقيم في قصر خاص سُمِيَ بدار النيابة، الواقعة قرب مأذنة الغوانمة في الزاوية الشمالية الغربية من سور المسجد الأقصى، بجانب الرواق الغربي. وكان الوالي سابقاً يُقيم في قلعة بيت المقدس الواقعة عند باب الخليل في الجهة الغربية من المدينة، وبعد استقلال نيابة بيت المقدس كان نوابها يُقيمون في زاوية الدركاة قرب البيمارستان الصلاحي. وكان النائب يجلس في الايوان الخاص المعروف بايوان الحكم أو دار العدل، لينظر في شؤون نيابته ويحكم بين الناس ليحقق العدل ضمن حكم الشرع ويعلمهم أمور دينهم. وكان للنائب استقلاليته في معظم الأمور الداخلية لنيابته، كالأمور الادارية والمالية والعسكرية، وله مطلق التصرف فيها. وكانت تُدَقُ الطبلخاناة على باب بيته كل ليلة بعد صلاة المغرب، كما يحدث للسلطان المملوكي في القاهرة.

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص401-403.



خارطة (1): نيابات فلسطين في العصر المملوكي

من الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي،432

وفي بعض الأحيان كان يُجمع الى منصب نائب السلطنة وظيفة جليلة عُرفت بإدارة المقدس وهي وظيفة ناظر الحرمين الشريفين؛ القدس والخليل، فيُطلق عليه" ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل". وهي وظيفة أضافت الى نائب السلطنة القوة والتشريف اللذان لم يحظَ بهما أيٌ من نواب بلاد الشام. وقد اهتم المماليك بتطوير هذه الوظيفة عن اسلافهم الأيوبيين خاصة في العناية بالمرافق الدينية والانفاق عليها لأمر الترميم والإصلاح، كما والتأكيد على إسناد هذه الوظيفة الى أمراء أتقياء صالحين أو علماء أجلاء.

إلا أنه وفي أواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي تبدل الأمر حين انتشرت ظاهرة الفساد الإداري في أواخر عهد سلاطين المماليك الجراكسة، فتولى هذا المنصب نواب عُرفوا بالظلم والقسوة، ومنهم من استخدم وسيلة الرشوة لشراء منصب النيابة من اصحاب القرار وحتى من السلطان نفسه. فباتت الوظائف رفيعة المستوى سهلة المنال لمن يُغَلِّي الثمن من الفاسدين والجُهال، وبذا فقد أساؤوا الى النيابة والى رِفعة هذا المنصب والى سكان بيت المقدس[1].

ومن الوظائف العسكرية الاخرى في النيابة وظيفة نائب القلعة ووالي المدينة والحاجب والدوادار. فنائب القلعة يكون من أمراء مقدم ألف أو أمراء طبلخاناة ويتم توليته بمرسوم سلطاني. ونيابة القلعة منفصلة عن نيابة السلطنة، ويقوم فيها نائبها بإبلاغ السلطان في القاهرة أمور نائب السلطنة والموظفين الاداريين، كما وتُسنَدْ إليه مهام الحفاظ على القلعة وتجديدها وصيانتها والاهتمام بما فيها من ذخائر ومؤن، والاشراف على فتح واغلاق ابواب القلعة كما والاشراف على حراس القلعة لحماية أسوارها.

أما والي المدينة فيكون من الجند وتتم توليته من قِبَل نائب بيت المقدس، ويقوم بالمحافظة على الأمن ومراقبة أمور الناس فيعاقب من تثبُتْ عليه الإساءة والفساد، ويحافظ على أموال الناس وأرواحهم.

ومهمة الحاجب الذي يتولاها أحد أمراء المماليك فهي الاهتمام بالجند وتفقد أحوالهم ونقل أخبارهم الى النائب، ويحكم بين الناس ويفض المنازعات، كما ويقوم بمهام النيابة في مقام النائب اذا غاب عنها لفترة ولحين عودته[2].

---

[1]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص299؛ غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص228–230؛ غوانمة، تاريخ بيت المقدس، ص30–31.

[2]. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص199؛ دجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص405–407؛ غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص230.

أما آخر هذه الوظائف فهي وظيفة الدوادار[1]، ومهمته تقديم البريد الى النائب كما وتبليغ رسالاته واشراكه في القصص ومشاورته فيمن يحضر لمقابلته، وأحياناً يُكَلَفُ بمهام حربية.

أما الوظائف الدينية فمنها ناظر الحرمين الشريفين ومشيخة الصلاحية والقضاة والخطابة والتداريس والمحتسب وناظر البيمارستان. والوظائف الديوانية وهم أرباب الأقلام فمنهم كاتب الدست وناظر بيت المال وناظر الجيش[2].

ومثلما حظيت نيابة بيت المقدس بالوظائف الهامة فقد تمتعت بالقوة العسكرية والقوة الاقتصادية، وتمثلت قوتها العسكرية بجيشها وقواتها الخاصة، والتي بلغت أعداداً كبيرة اشتملت على الأمـــراء والأجناد والمماليك وأحياناً رجال القبائل. كانت مهامها الحفاظ على الأمن والاستقرار في داخـــل حدود النيابة وخارجها، كالقضاء على المتمردين وقمع الفتن وخوض المعارك ضدَّ العثمانيين.

أما ازدهارها الإقتصادي فكانت ركيزته الاساسية هي التبادل التجاري الداخلي والخارجي مع دول اسلامية ودول أوروبية، فاشتهرت المدينة بأسواقها المتعددة والمتخصصـــة للســـلع وببضـــائعها المتنوعة. كما كان للنشاط السياحي الداخلي لزيارة الأماكن الدينية المقدسة وحركة الحجـــاج فـــي مواسمها نصيبه في دعم هذا الازدهار.

وبذلك فقد كان لأهمية بيت المقدس الادارية والعسكرية والاقتصادية أثره في ظهور نهضة علمية رائدة، فأصبحت قِبْلَةً للعلماء والفقهاء وطالبي العلم، وتمخض عنها إنشاء العديد مـــن المـــدارس والزوايا والخانقاوات وغيرها من الصروح العلمية والدينية[3].

---

[1]. الدَّوَادَار: هو لفظ مركب من كلمتين، عربي وهو الدواة وفارسي وهو دار بمعنى ممسك الدواة. وهو لقب الشخص الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير، ويهتم بكافة الأمور المتعلقة به. والدوادارية: هي وظيفة نقل الرسائل والأمور عن السلطان وعرض القصص والبريد. (دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص77؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم 2، ص237 حاشية (3)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص462).

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص29 ص34-35.

[3]. غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص246-249.

2.3 الحياة الثقافية في مدينة القدس:

لقد كان للفكر الديني أثره في تطور الحياة الثقافية في بلاد الشام، حيث خرجت أول بعثة علمية من بلاد الحجاز الى بلاد الشام بعد الفتوحات الاسلامية مباشرة بغية نشر الدين الاسلامي وتعليم اهلها وتثقيفهم بأمور دينهم. وقد ساعد أمر استقرار الوضع العام في بلاد الشام بتشكيل أرضاً خصبةً لقيام حركة علمية ارتبطت بالاسلام فكرياً، حيث تركزت موضوعاتها بالدراسات الاسلامية المتمثلة بعلوم قراءة القرآن والتفسير والحديث والفقه وما ارتبط به من دراسات اللغة العربية كعلوم النحو والبلاغة والشعر، كما والاهتمام بالدراسات الانسانية كالسيرة والتاريخ.
وبما أنَّ فلسطين كانت احدى أهم أقطاب بلاد الشام، فقد امتدت اليها النهضة العلمية، وبرز من رجالها العديد من العلماء في شتى العلوم والفنون منذ القرن الأول الهجري، أمثال رجاء بن أبي سلمة، والفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي ، وروح بن زنباع الجذامي وغيرهم[1].

وتوالت حركة الازدهار الثقافية والعلمية في بلاد الشام وبلاد الرافدين حتى القرن الثالث الهجري، حيث اعْتُبِرَ عصر العلوم والإبداع الفكري في العراق، حين وصلت بغداد أوج عظمتها العلمية. في حين أنَّ بلاد الشام لم تصل الى هذه الدرجة من الثقافة كالعراق عامة وبغداد خاصة ولكنها مع ذلك ازدهرت فكرياً ونبغ من مدنها العديد من العلماء، خاصة في الثقافة الأدبية؛ حيث اعْتُبِرَ القرن الرابع الهجري هو عصر الابداع الأدبي والشعري في بلاد الشام بشكل عام، حين ظهر العديد من الشعراء أمثال أبي فراس الحمداني، وأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري وغيرهم كثير. أما مدينة القدس خاصة فاتخذت جانب آخر من الحركة العلمية حيث اصطبغت بالثقافة الدينية وسيطر عليها الطابع الديني المحافظ، الى أنْ تصدرت في القرن الخامس الهجري حركة الازدهار الثقافي، فانتعشت فيها الحركة العلمية والثقافية، خاصة العلوم الدينية كالحديث والفقه والتفسير، وأصبحت فلسطين عامة ومدينة القدس خاصة قبلة للعلماء والفقهاء، كما استقطبت أعداداً من علماء الشرق والغرب، خاصة في أواخر القرن الخامس الهجري، حيث ترافق مع هذه الحركة نشوء العديد من المدارس وانتشار حلقات الدرس[2] والمناظرة.

واستمرت هذه الحيوية العلمية على هذا الشكل الى أنْ كان الغزو الصليبي لبلاد الشام واحتلال بيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري في 492هـ/ 1099م. والذي قُتِلَ على أثره العديد من العلماء والأدباء، مما أدى الى إخماد شعلة هذا النشاط الثقافي طيلة فترة الاحتلال الصليبي للبلاد، حتى عام 583هـ/ 1187م عندما تمَّ تحرير بيت المقدس من العدوان الصليبي على يد

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص141.

[2]. حلقات الدرس: مفردها حلقة وسُمي الدرس بالحلقة وأحياناً الزاوية لأنَّ الطلاب يتحلقون أي يشكلون حلقة أو دائرة حول الشيخ. (غوانمة، المصدر السابق، ص184).

صلاح الدين الأيوبي، فعادت للبلاد الحركة الثقافية والفكرية من جديد، وإنْ كانت بعد فترة من الزمن؛ حيث أنَّ الصليبيين كانوا قد محوا معالم الحياة الاسلامية من المدينة المقدسة وذلك بتحويلهم الأماكن المقدسة الى أماكن مسيحية، فعمل صلاح الدين على اصطحاب العديد من العلماء الأجلاء معه وتم إنشاء العديد من العمائر المختلفة في بلاد الشام ومصر من أجل دعم وتنشيط الدراسات الدينية واللغوية، خاصة أنَّ الأيوبيين أرادوا نشر المذهب السني، فعملوا على بناء المدارس في العصر الأيوبي ثم لاحقاً في أوائل العصر المملوكي، فبلغ عددها في مدينة حلب وضواحيها ست وأربعين مدرسة، وفي دمشق تسعين مدرسة للمذاهب الأربعة. وقام صلاح الدين بترتيب أمور المدينة المقدسة وأنشأ فيها العديد من المؤسسات العلمية والاجتماعية كالمدارس والخانقاوات والبيمارستانات وغيرها. كما نشطت العلوم الاخرى الى جانب العلوم الدينية كعلوم اللغة العربية والعلوم الطبيعية في الهندسة والنجوم والفلك والعلوم الإنسانية، والتي كان عِمادها خيرة العلماء والفقهاء.

وفي العصر المملوكي فقد ازدهرت الحياة الفكرية في بيت المقدس واصبحت مركز استقطاب للعلماء والفقهاء من الشرق والغرب، أمثال الشيخ الرباني علاء الدين علي العشقي البسطامي والشريف موسى بن أحمد بن منصور شرف الدين العدوي المغربي المالكي وغيرهم الكثير[1].

وقد ازدادت هذه الحركة خاصة بعد أنْ أخذت دولة المسلمين بالتراجع سياسياً وحضارياً في الأندلس بعد أنْ تعمقت المسيحية في سيطرتها عليها. كذلك بعد سقوط بغداد في 656هـ/ 1258م بيد التتار وانهاء الخلافة العباسية فيها، لا سيما وأنَّ المسلمين كانوا قد ارتبطوا بهذه الزعامة الروحية التي كانت تُذَكِرهم بأمجاد وعظمة الماضي، ولم يعتادوا الحياة منذ أيام الرسول –صلى الله عليه وسلم– دون وجود نفوذ للخلافة في حياتهم. فكان النشاط الديني والعلمي يتكاثف حول الخلافة، وأينما يحلُّ الخليفة يتواجد حوله العلماء ورجال الدين تبركاً به ورغبة بصحبته. وبالتالي فإنَّ انتهاء دور الخلافة في بغداد أدى الى زعزعة وجود العلماء والفقهاء، ورغبتهم في الهروب واللجوء الى من يُعيد لهم الاستقرار في نفوسهم. فعندها قام السلطان الظاهر بيبرس بإحضار أحد أبناء العباسيين الى القاهرة حيث تمت مبايعته خليفة على المسلمين، وقام هو بدوره بتفويض السلطان المملوكي في حكم البلاد. وبذا فبإحياء الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ/ 1261م، أصبحت المقر الجديد الذي استقطب علماء المسلمين ووفر لهم الدعم الأدبي والمادي[2].

فكان لهذا الاضطراب وعدم استقرار المسلمين سواء في بلاد الشرق أو الغرب أُنْ أدى الى هجرة علماءها الى مصر والشام والديار المقدسة خاصة الى مدن القاهرة وحلب ودمشق والقدس ومكة

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص142–145 ص147–152.

[2]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص80 ص88–89؛ غوانمة، المصدر السابق، ص145.

والمدينة، إلا أنَّ مدينة القدس كانت الأوفر حظاً فقد آثرها العديد من العلماء ورجال الدين الذين لم يستطيعوا الاستمرار بالبقاء في مدن مكة المكرمة أو المدينة المنورة بالرغم من مكانتهما الدينية، وذلك لافتقارهما لظروف الحياة الطبيعية المريحة فيهما وبُعدهما عن مركز النشاط الحضاري للعالم الاسلامي. على نقيض مدينة القدس التي وفرت لهم الجو المناسب لحياة مريحة، وتمتعت بوقوعها في دائرة النشاط الحضاري[1]. الأمر الذي أدى الى تطور نشاط علمي في كافة المجالات العلمية والأدبية والدينية، خاصة أنَّ هذا النشاط قد جُبِلَ بخبرات علماء من أقطار مختلفة بلغ عددها زهاء اثنين وعشرين قطراً بين القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) والتاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وتراوح عدد المدن التي خرج منها هؤلاء العلماء ما بين ستين وسبعين مدينة من شتى البلدان مثل العراق وايران والهند وتركستان وبلخ وشيراز واذربيجان وهراة وقرمان والمغرب والأندلس واليمن وغيرها...، وأصبحت مدينة القدس من مراكز الاشعاع العلمي والفكري والحضاري[2].

وقد اتسعت دائرة النشاط العلمي لتشمل دراسات العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وتصوف وغيرها. وكانت هذه الدراسات هي المحور الاساسي في دائرة هذا النشاط، والتي خصتها مناهج التدريس في ذلك العصر بالاهتمام الأشمل. ثم تأتي علوم الدراسات الأدبية من اللغة والأدب والنثر والنحو والبلاغة والتاريخ وغيرها، فأدت المدارس من خلالها خدمة جليلة للعلم من خلال حفظ هذه العلوم الدينية واللغوية. كما وأكدت على هذا النشاط العلمي وجود العديد من المؤلفات والتراجم التي تزخر بأعداد كبيرة من سيَر أبناء مدينة القدس أو من الوافدين إليها. كما كان هناك اهتمام بدراسات العلوم العقلية والتجريبية ولكن على نطاق أضيق كدراسات الحساب والجبر والمنطق وغيرها. وقد كان للطب أيضاً دراساته الخاصة التي كانت تُدَرَسْ في البيمارستانات المنتشرة في المدن المختلفة[3].

وقد ترتب على هذا النشاط امتداداً متطوراً عن العصر الأيوبي الذي يُعتبر فيه فترة التأسيس الفعلي لمعاهد العلم، فتم انشاء العديد من المؤسسات التعليمية، سواء للتعليم في المراحل الأولى من الطفولة حتى سن العشرين أحياناً، أو المرحلة الثانية للتعليم العالي. وازداد عدد العلماء والفقهاء وأصحاب الفكر وطلاب العلم الذين قصدوا مدينة القدس للاقامة والتحصيل العلمي، نذكر بعضاً من أسماء العلماء ورجال الدين والفقهاء الذين كان لهم دوراً في حركة النشاط العلمي والثقافي وارتبطت أسماؤهم بمدينة القدس، سواء من المقيمين بها أو من الوافدين إليها أو من

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص89-90.

[2]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص512؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص178 هامش(5).

[3]. الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص521.

الذين ترددوا عليها لتحصيلهم العلمي ومزاولة نشاطهم في البحث والدراسة. وإن كان من الصعب ذكر وضبط جميع اسماء هؤلاء العلماء الذين تزخر بسيرهم كتب التراجم والتاريخ. فمن العلماء الذين كان لهم نشاط في العلوم الدينية نذكر منهم القاضي شيخ الاسلام بدر الدين أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن سعدالله ابن جماعة الكناني، الذي تولى قضاء القدس، توفي سنة 733هـ/ 1332م وله كتابات كثيرة منها 'التبيان لمهمات القرآن'، و'الفوائد اللائحة في سورة الفاتحة' وغيرها[1].... ونذكر أيضاً الشيخ كمال الدين أبو المعالي محمد بن الأمير ناصرالدين بن أبي شريف المقدسي، توفي سنة 906هـ وقد تولى التدريس في المدرسة الأشرفية كما والمدرسة الصلاحية، وتتلمذ عنده المؤرخ مجيرالدين الحنبلي فكتب فيه سيرة مفصلة. سمع عن كثيرين من علماء الاسلام وحفظ ودرس الكثير من العلوم الدينية واللغوية، حتى قيل عنه بأنه صار نادرة وقته وأعجوبة زمانه. وصار قدوة بيت المقدس ومفتيه وعين أعيان المعيدين بالمدرسة الصلاحية، وتميز عن غيره من العلماء حتى أصبحت طلباته أوامرمنفذة من قِبَل السلطان أو ممن دونه. له العديد من المصنفات والتي انتشرت في سائر الأقطار، ومنها 'الاسعاد بشرح الإرشاد في الفقه'، و' الفرائد في حلّ شرح العقائد'، وغيرها[2]...

ومن العلماء الذين برزوا في ميدان علوم اللغة العربية نذكر شهاب الدين بن جبارة المقدسي النحوي الحنبلي، توفي سنة 728هـ واشتغل بعلوم العربية وشرح الشاطبية؛ وهي من الكتب التي ركز عليها علماء القراءات، فكان اهمها 'حرز الأماني ووجه التهاني– الشاطبية' للشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي، وشرح الرائية في الرسم. كذلك نورالدين البدرشي المالكي المصري، توفي سنة 878هـ وقد اشتغل بالنحو وألّفَ فيه، وعبدالله بن محمد الواسطي وله كتاب 'الكنز في القراءات العشر'[3].

وفي علم التاريخ حيث يشهد له مؤرخان ارتبطا بمدينة القدس، أولهما الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن نورالدين علي بن حجر، ولد في مصر ونشأ بها، وهو عسقلاني الأصل، فعُرِفَ بابن حجر العسقلاني. وهو من مؤرخي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، توفي سنة 852هـ/1448م وقد تردد على مدينة القدس ودرس بها وله من المؤلفات كتابه في التاريخ 'إنباء الغمر بأنباء العمر'، وله الفضل في طرح فكرة الكتاب الشامل لوفيات قرن بأكمله وتسمية هذه الكتب بعناوين القرون، كما وله الفضل في ذكر تراجم كتاب ضخم اشتمل على تراجم العديد من العسكريين والقادة والعلماء والفقهاء والأدباء في القرن الثامن للفاضلات المحدثات من النساء،

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص90–91؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص156.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص91؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص516–517. انظر ترجمة الشيخ كمال الدين المقدسي من: الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص706–710.

[3]. عاشور، المصدر السابق، ص91؛ الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص521.

كما في كتابه في التراجم 'الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة'، وهو الهجري حسب الترتيب الأبجدي. ومن أشهر مؤلفاته الضخمة المتعددة في الحديث والفقه والتراجم كتابه 'فتح الباري في شرح البخاري' ويقع في ثلاثة عشر مجلداً، وغيرها الكثير. أما العلّامة الثاني فهو مجيرالدين أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن العمري المقدسي العليمي الحنبلي، ولد بالقدس وتوفي بها سنة 927هـ وكان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباي، وكان قاضياً للقدس. ومن مؤلفاته كتابه 'الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل'، حيث كان شاملاً لعدة موضوعات منها الفتوحات وتراجم الأعيان والفضائل والبناء والحوادث السياسية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية.[1]

أما العلوم العقلية والتجريبية فقد برز منهم شيخ الاسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين بن علي المصري المقدسي والمعروف بابن الهائم، وفد الى القدس واشتغل بها حتى صار من شيوخ المقادسة. توفي عام 815هـ/1412م وقد نبغ بالعلوم الرياضية حيث كان له مهارة بالحساب والفرائض وله فيها مؤلفات كثيرة منها 'التحفة القدسية' وهو منظومة في الفرائض، و'ترغيب الرائض في علم الفرائض'. كما له مخطوطة هامة في دراسة الحساب بعنوان 'مرشدة الطالب الى أسنى المطالب' والتي تدل على سعة اطلاع وعلم ابن الهائم في ميدان علوم الرياضيات. ومن علماء الرياضيات أيضاً موسى بن محمد الخليلي شرف الدين وله من المؤلفات الكثير منها مخطوط 'رسالة في الاسطرلاب ومعرفة الأوقات'[2].

أما العلوم الطبية فقد ظهر العديد من الأطباء الذين درسوا ومارسوا الطب، والذي يُعتبر امتداداً لنشاط مدرسة الطب من العصر الأيوبي، ومنهم أحمد بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عوض المقدسي الأصل وعُرف بابن المحتسب، كان عطاراً وتوفي عام 772هـ. وهناك أيضاً محمد بن حسن بن أحمد بن محمد الشمس أبوعبدالله الكردية المقدسي وعُرف بابن الكردية، كان من علماء القدس الذين اشتغلوا بالطب وتوفي عام 843هـ. كما قد وُجِدَ التخصص في فروع العلوم الطبية، حيث يُستدل على ذلك من أحد مؤلفات جمال الدين يوسف بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي، المتوفي سنة 880هـ، ويقع تحت عنوان 'الاتقان في أدوية اللثة والاسنان'. كما كان لعلماء بيت المقدس مساهمة أيضاً في علوم الفلك والكواكب والنجوم[3].

ولم يقتصر هذا المجهود العلمي على العلماء فقط وإنما كان للمرأة دورا كذلك في الحركة العلمية والدينية، فاشتهرت منهن زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية وعُرفت بـ "بنت الكمال" ولها

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص92؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص144-147. انظر: بن تغري بردي، المنهل الصافي، ص130-132 عن سيرة ابن حجر العسقلاني.

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص455-456؛ عاشور، المصدر السابق، ص92؛ علي، المصدر السابق، ص148.

[3]. علي، المصدر السابق، ص151.

نشاط في العلوم الدينية. كما واشتهرت زينب بنت أحمد بن عمر المقدسية، توفيت سنة722هـ. وهناك أيضاً ست العرب بنت سيف الدين علي المقدسية، وتوفيت سنة 734هـ، وهناك الكثير غيرهن يضيق البحث لذكرهن جميعاً[1].

ولم تقتصر أهمية دور العلماء والفقهاء في الدراسة والبحث العلمي فحسب وإنما لعبوا دوراً بارزاً كذلك في الحياة العامة في مدينة القدس؛ حيث كان لهم نفوذ مباشر على المسلمين باعتبارهم المثل الديني الأعلى وحماة العقيدة الاسلامية، كما كان لهم تأثير على الحكام حيث حرص هؤلاء على التقرب من العلماء من خلال مصاهرتهم ليكتسبوا مركزاً بين أفراد المجتمع خاصة وأنهم الغرباء فيه.

وقد عزز من تأثير العلماء على طبقات المجتمع المختلفة وطبقة الحكام كثرة ثرواتهم حيث أشرفوا على كثير من الأوقاف، كذلك توليهم مناصب هامة وعليا من مناصب الدولة، كما أنَّ دورهم الديني والقضائي والسياسي والتجاري والمالي والاجتماعي والذي مكنهم من التعامل المستمر مع أبناء المدينة، ساعدهم لكي يصبحوا المتحدثين الرسميين عنهم في كثير من الشؤون القانونية والدينية والاجتماعية والتجارية. وأصبحت كلمتهم لها هيبتها سواء بين الحكام الذين كانوا يخشون غضب العلماء ورجال الدين، أو بين العامة من سكان المدينة[2].

لقد عُني السلاطين والأمراء بمدينة القدس خاصة وأقاموا فيها العديد من المنشآت العلمية والدينية والاجتماعية والخيرية، من أجل توفير المناخ الملائم للعامة والراحة لسكان القدس ورواد العلم على حدٍّ سواء، خاصة بعد أنْ عانت البلاد من الاحتلال الصليبي لفترة من الزمن.

ولم يقتصر هذا الاهتمام بتعزيز مدينة القدس ثقافياً ودينياً على السلاطين والأمراء فقط، وانما شاركت النساء الثريات بالعمل على إقامة المدارس، حيث بلغ عددها ثلاث مدارس في مدينة القدس وحدها، وبلغ عدد المدارس التي بُنيت زمن المماليك في المدينة قرابة خمسين مدرسة، نذكر بعضاً منها: كالمدرسة الدوادارية، وهي مدرسة وخانقاة، أسسها الأمير علم الدين سنجر الدوادار سنة 695هـ/ 1295م، والمدرسة التنكزية التي أسسها الأمير تنكز سنة 729هـ/ 1328م، والمدرسة الأرغونية التي أسسها نائب الشام أرغون الكاملي سنة 759هـ/ 1357م، والمدرسة الطشتمرية وأسسها الأمير طشتمر العلائي سنة 784هـ/ 1382م، والمدرسة العثمانية التي أسستها احدى السيدات اللواتي كانت لهن مشاركة في اقامة المدارس وهي السيدة أصفهان خاتون وقامت بتأسيسها سنة 840هـ/ 1436م، والمدرسة الجوهرية ومؤسسها الأمير جوهر

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص90-91.

[2]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص173-174.

القنقباي الخازندار سنة 844هـ/ 1440م، والمدرسة الأشرفية وكانت أفخم مدارس القدس بناءً كما تفوقت بين مدارس القدس بمستواها الأكاديمي في فترة مؤسسها السلطان الملك الأشرف قايتباي سنة 887هـ/1482م. هذا بالإضافة الى المدارس الاخرى التي تم انشاؤها في عصر الأيوبيين، وبقيت قائمة طوال عصر المماليك وبعدهم.

كما واشترك أهل الخير وأعيان من بلاد اسلامية مجاورة في إنشاء معاهد علم وذلك تبركاً بالمدينة المقدسة، فبلغ عدد هذه الخانقاوات والأربطة والزوايا ما يقارب المئة مُنشأة[1].

ولقد كان لعدة عوامل أثرها في تطور الحركة العلمية في مدينة القدس فكان النمو الاقتصادي عاملاً مساعداً، حيث نعمت البلاد بحالة من انتعاش الأحوال الاقتصادية، الأمر الذي دفع السلاطين والحكام والتجار الى المشاركة والتسابق في إقامة معاهد العلم ومكنهم من الإنفاق عليها بسخاء. فظهرت الكثير من المدارس الفخمة كما وأوقفوا عليها الأوقاف الطائلة للإنفاق عليها. وقد تباينت دوافعهم، فبالنسبة للسلاطين والأمراء كان هدفهم الأساسي هو تحقيق غاية سياسية وتثبيت أقدامهم في مجتمع هم غرباء عنه ومحاولة التقرب الى الشعب واسترضاءهم للقبول بهم حكاماً عليهم، واعتمدوا بذلك على النزعة الدينية للدفاع عن البلاد الاسلامية ضدَّ العدوان الخارجي من خلال مفهوم بأنهم حُماة للدين الاسلامي وحُماة للمسلمين. وإنْ كان هذا لا يمنع وجود بعض السلاطين الذين اتصفوا بالتقوى والصلاح فعلاً، فكانت غايتهم التقرب الى الله وهذا ما أظهروه من خلال كتاباتهم المنقوشة على مداخل المؤسسات التي أمروا بإنشائها. أما الحكام والأمراء فتركز هدف أغلبهم في انقاذ أموالهم من المصادرات، بحيث يضعون ثرواتهم في بناء هذه المؤسسات التي يصعب على السلطان مصادرتها كما ويقوموا بوقف أموالهم وأملاكهم فتُصبح مصونة لا تُصادر، ويضمنوا لأنفسهم وذريتهم نصيباً من ريعها. والبعض الآخر منهم كان وازعه الديني هو الأساس وراء وقف العديد من المنشآت ذات الايرادات الوفيرة، فضمنوا لمنشآتهم وأملاكهم البقاء والاستمرار. أما البعض وعددهم قليل فكان تعصبه لمذهبه الفقهي هو وازعه أمام إنشاء مؤسسة لضمان إتّباع ذلك المذهب. ولكن مهما اختلفت دوافعهم فإنَّ ترجمتهم لهذه العناية من خلال إنشاء المرافق المختلفة، أدت الى انجازات كانت حصيلتها بلا شك مكسباً للعلم والعمارة[2].

وكما تمتعت مدينة القدس بحالة من الاستقرار الاقتصادي الذي دَعَمَ حركة النشاط العمراني، فقد انتعشت كذلك الحالة التجارية والاحوال الزراعية فيها وارتبط بأثرها سيادة الأمن والاستقرار في

---

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص511 ص513؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص152.

[2]. الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص512؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص32 ص153.

البلاد. فإنَّ تدفق أعداداً من المماليك الى مدينة القدس ممن نُفوا إليها أو ممن آثروا الإقامة فيها، كان له أكبر الأثر في رواج التجارة فيها، حيث شكلوا حلقة المستهلك والممول للسلع والمنتجات، مما أدى الى ازدهار التجارة ونشوء الاسواق المتعددة والمتخصصة حسب طبيعة السلع التي كانت تُباع بها، ولكنها جميعاً تشابهت من حيث تخطيطها الهندسي، فكانت عبارة عن شوارع طويلة مسقوفة إما بالعقود الحجرية أو أسقف من ألواح خشبية لحماية المارة من عوامل الجو المختلفة سواء الحارة أو الماطرة، ويتخللها نوافذ أو فتحات لينفذ من خلالها الضوء. وعلى جانبي الشارع توجد الدكاكين والمحلات التجارية، فضلاً عن وجود بعض الحوائط المنخفضة الممتدة داخل السوق يستخدمها المارة للجلوس، أو يتم استخدامها من قِبَل التجار لعرض بضائعهم، وتُقفل الاسواق بأبواب كبيرة.

كما لم يغفل المماليك عن حماية التجار الوافدين الى مدينة القدس أو الحجاج القادمين إليها وتوفير الراحة والأمان لهم، فأُنشأت الخانات أو القيساريات والتي انتعشت انتعاشاً كبيراً منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وكانت قبلاً في القرنين الخامس والسادس الهجريين تُعرف بكلمة دار أو دار الوكالة ثم حلّت تدريجياً كلمة "خان" مكان دار الوكالة أو القيسارية أو الفندق. وقد شملت وظيفتها لتكون مؤسسة تقوم بمهمة التجارة الى جانب وجود المخازن لحماية وحفظ أموال التجار، وكذلك اشتمالها على الفنادق لتوفير المسكن لهؤلاء الناس[1]. وبذلك فإنَّ الحركة التجارية في البلاد قد ساهمت في تطور الحركة العمرانية من خلال انشاء هذه العمائر المتمثلة في الأسواق والخانات أو القيساريات.

وكما كان للحركة التجارية أثرها في تدعيم الحركة العمرانية، فإنَّ الحالة الاجتماعية كان لها نصيب أيضاً في هذه الحركة العمرانية، من خلال الاهتمام بالمنشآت الاجتماعية والصحية كإنشاء الأسبلة والحمامات والبيمارستانات. والتي عُنِيَ بها سلاطين وأمراء المماليك، من خلال تجديد المباني القائمة أو إقامة مبانٍ جديدة. فكان هدفهم الأساسي من إقامة الاسبلة هو التأكيد على سياستهم الدينية، حيث أنَّ الماء ضروري لممارسة الشعائر الدينية، وبذلك فقد روعي في موقع الأسبلة بأن كانت معظمها على الطريق الرئيسي المؤدي الى الحرم القدسي ليتسنى للمصلين أو الزوار شرب الماء قبل الدخول للصلاة. كما حرصوا على توفير مياه الشرب للناس وتوصيلها الى المدينة خاصة انَّ مدينة القدس كانت تعاني قلة المياه بسبب ندرة الأمطار وعدم وجود أنهار بها، فاهتموا بتعمير القنوات لتوصيل المياه وإنشاء الآبار لتخزينها. ولم يقتصر اهتمام السلاطين بتوصيل المياه للمدينة لتوفيرها كمياه للشرب أو لأداء الفرائض الدينية، إنما لاستخدامها كذلك في

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص200–203؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص39.

الحمامات العامة[1]. حيث عرفت مدينة القدس الحمامات كمرافق عامة منذ حوالي المائة العاشرة قبل الميلاد، حيث ذكرت اسطورة شعبية بأنه قد تمَّ بناء حمّام لبلقيس ملكة سبأ بباب الأسباط، وأنه أول حمّام وُجد على وجه الأرض[2]. ثمَّ كان يقصد هذه الحمامات الناس من مختلف الأجناس رجالاً أو نساءً ومن مختلف الطبقات، وذلك لأغراض اجتماعية كتبادل الأخبار أثناء الاستحمام أو لأغراض صحية لعلاج بعض الأمراض. وكان لزاماً انشاء هذه الحمامات العامة ذلك بأن الناس في ذلك العصر وطوال العصور الوسطى لم يعهدوا وجود حمامات في منازلهم بشكل عام، وقد يرجع ذلك الى مشاكل الصرف الصحي في المدن في ذلك الوقت. وبذلك فقد عُني سلاطين المماليك وأمراءهم بإنشاء الحمامات والعناية بها وتوفير سُبل الراحة والخصوصية والاعتناء بالصحة العامة فيها[3].

ومن المنشآت الاخرى كانت البيمارستانات والتي عُني بها سلاطين المماليك وأصحاب الجاه والمال، سواء بتجديد ما كان قائماً أو بإقامة أبنية حديثة. ويرجع وجود البيمارستان في مدينة القدس الى العصر الفاطمي حيث وصفه الرحالة الفارسي ناصر خسرو عندما زار المدينة عام 438هـ/ 1047م. ولم تكن مهمة انشاء البيمارستان فقط لعلاج المرضى إنما خدمت كمدرسة لتعليم العلوم الطبية. وقد قُسمت البيمارستانات لأقسام حسب الأمراض المختلفة، كما وُجد بها العديد من الموظفين القائمين بالمهام المختلفة. وكان يُلحق بالبيمارستان صيدلية كانت تسمى شرابخاناه وفيها أنواع من الأشربة والأدوية والعطريات وغيرها. وبالتالي فإن هذه المؤسسات الاجتماعية من اسبلة وحمامات وبيمارستانات كانت ذات أهمية كبيرة في حياة عامة الناس ولذلك فقد حظيت برعاية الكثير من سلاطين وأمراء ونواب وحكام المماليك[4].

وبهذا التطور والازدهار الثقافي والعمراني، فقد طُبعت المدينة بالطابع الاسلامي وكانت في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي مدينة عامرة ومزدهرة، تفوقت في ذلك على المدن الأوروبية[5]. وكانت من جملة المدن الاسلامية التي يجوبُها الرحالة، والذين تعددت غاياتهم، فمنهم من يسعى للترحال للاطلاع ووصف أرجاء الدولة الاسلامية الواسعة لتسهيل مهمة الحكام في تدبير أمور دولتهم، ومنهم من يسعى طلباً للعلم كذلك التوسع بالتجارة، ومنهم من يتم ارساله لغاية معينة كرسول من قِبَلْ الحكام، أما أكثرهم فكان يقوم بالترحال لأداء فريضة الحج[6]، وكانت مدينة

---

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص241-243 .

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج1، ص125؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص169.

[3]. علي، المصدر السابق، ص245.

[4]. علي، المصدر السابق، ص247 ص250.

[5]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص439.

[6]. بكّار، بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته، ص325.

القدس مقصداً دينياً يسعى الجميع للوصول إليها، فأصبحت منبراً يُقبل إليها العديد من الرحالة لزيارة أماكنها المقدسة ووصفها، بالإضافة الى المؤرخين الذين شغلتهم مدينة القدس واحتلت مكاناً في نفوسهم فوصفوها بدقة، أمثال مجيرالدين الحنبلي والمقدسي. ومن الرحالة فهناك ثلاثة ايطاليين زاروا المدينة عام 1384م وذكروا عن مدينة القدس بأن فيها بيوت قديمة وجميلة وشوارعها نظيفة ومعظمها مسقوف أو مقبب وفيها اسواق متخصصة للسلع كما أنَّ دكاكينها نظيفة جداً، وهي مدينة تعج بالناس والبيوت. وبالنسبة لموقعها فإنّ جزء منها يقع على سهل وجزء آخر على منحدر ومحاطة جزئياً بأسوار بعضها سميكة وأحجارها ضخمة. كما وصفوا المدينة بوقوعها في بلاد جميلة وخصبة ومعتدلة الحرارة والبرودة، وفيها من الخيرات الكثير[1]. كما وصفها رحالة آخر وأكد على وصف الآخرين بأن بناء بيت المقدس كان أتقن عمارة وأحسن رؤية من أي مكان آخر[2]، كما شاركهم الرأي مؤرخين كُثر من بينهم المقدسي والاصطخري حيث وصفا المدينة وشوارعها وأهلها ومناخها وخيراتها[3].

كما وكان للرحالة أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي دليلاً على طابع مدينة القدس حيث وصفها في رحلته التي استغرقت حوال السبع سنوات، بلغ فيها مدينة بيت المقدس سنة 438هـ/ 1047م وكان برفقته أخوه الأصغر وغلام هندي، فوصفها بأنها مدينة مشيدة على قمة جبل، ومحصنة بسور من الحجر والجص، ولها بوابات حديدية وليس بقربها اشجار بسبب وقوعها على رأس القمة، وأرض المدينة مبلطة بالحجارة وبها أبنية عالية وأسواق جميلة فيها صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة. وأراضي بيت المقدس جبلية كلها، فيها أشجار زيتون وتين تنبت كلها بغير ماء فقط مياه الأمطار، ويُصدر اهلها زيت الزيتون الى أطراف العالم، وفيها اشجار حور وفيها الكثير من الخيرات. أما المياه التي تُجمع في أحواضها فقد عدَّه الرحالة بأنه أعذب وأنقى من أي ماء آخر. كما وصف المناطق المحيطة بالمدينة وصفاً دقيقا مع ذكر المعتقدات والأقاويل التي عُرفت حول هذه الأمكنة كسهل الساهرة ووادي جهنم وعين سلوان. وقد اهتم بالعمارة فقد وصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة والساحات والحوائط والبوابات وصفاً دقيقاً دعَّمَه بالمقاييس والأرقام الدقيقة، حتى غدت رحلته مرجعاً فيه توثيقاً شاملاً للعديد من البلدان والمدن والمناطق[4].

أما العلاّمة المؤرخ مجيرالدين الحنبلي فإنه يصف مدينته معتزاً ومفاخراً بها حيث يصفها بأنها "مدينة عظيمة محكمة البناء بين جبال وأودية وبعض بناء المدينة مرتفع على علو وبعضه

---

[1] .Frescobaldi, Gucci, Sigoli, A Visit to the Holy Places,p.127 p.180

[2] .Da Poggibonsi, A Voyage Beyond the Seas, p.10

[3]. المقدسي، احسن التقاسيم، ص165-166 ؛ الاصطخري، مسالك الممالك، ص56-57.

[4]. خسرو، سفرنامه، ص14-15 ص19.

منخفض في واد"، وهناك أبنية في المناطق المرتفعة واخرى في المنخفضة، وشوارع المدينة بعضها وعر وبعضها سهل، والمدينة مكتظة بالبناء ويصف اسواقها وحاراتها وشوارعها وكنائسها وأديرتها وغيرها من المؤسسات الدينية والثقافية، وقد ذكر بأنَّ البناء" غاية في الاحكام والاتقان جميعه بالأحجار البيض النحت وسقفه معقود وليس في بنائه لبن لا في سقفه خشب". أما المياه في المدينة فتُجمع من مياه الأمطار في الآبار المعدة لخزن المياه، كما وذكر واصفاً عيون الماء كعين سلوان وبئر أيوب والبرك والقنوات. أما وَصْفْ محيط المدينة فإنه يذكر بأن بيت المقدس تقع على جبال كثيرة الوعر والأحجار، والسير فيها وإليها فيه مشقة، وفيها أشجار من أنواع الفاكهة المختلفة من عنب وتين وتفاح وغيرها...

بالتالي فإنَّ أهمية مدينة القدس جعلتها مقصداً دينياً وعلمياً وإن كان هناك مشقة في الوصول إليها، كما يؤكده قول الشاعر الحافظ ابن حجر عند زيارته بيت المقدس في الأبيات التالية:-

الى البيت المقدَّس جئت أرجو جنان الخـــلد نزلا من كريـــــم

قطعـــنا في محـــبته عقـــابا ومـــا بعد العقاب ســـوى النعيم[1]

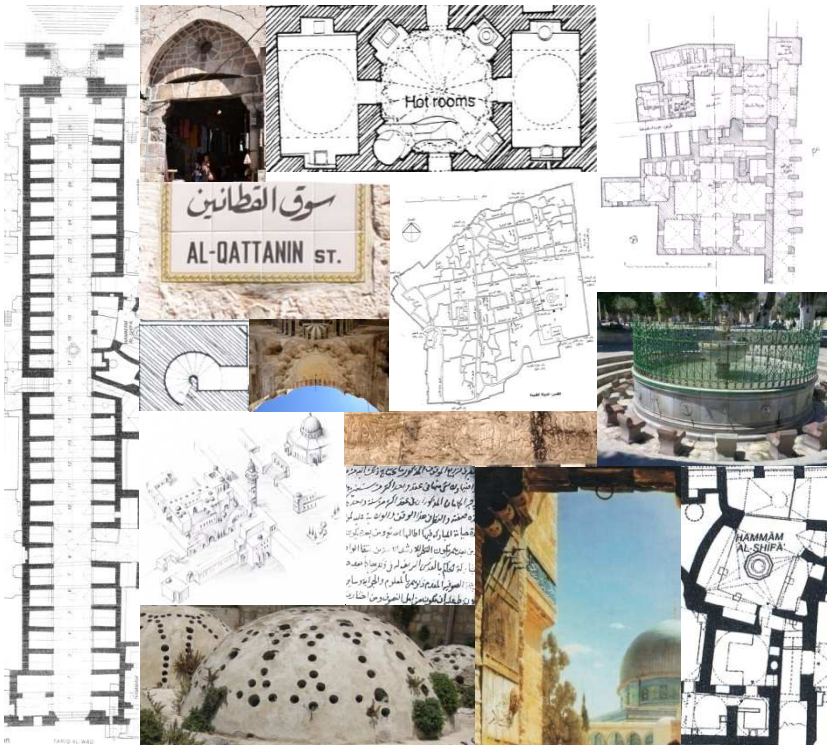
بعد هذا العرض المختصر لأهمية ومكانة مدينة القدس بين المدن الاخرى، حيث أنَّ الحديث حتماً يطول في ذكر المدينة وذلك لأهميتها من جميع الجوانب تاريخياً ومعمارياً وأثرياً وعلمياً ودينياً وسياسياً وغيره... وكثرة المؤلفات التي كُتبت في شأن المدينة، يمكن الاستدلال الى مظاهر نشاط الحياة الفكرية والعلمية في فترة عصر المماليك حيث تتجلى من خلال توافد العديد من العلماء وهجرتهم للمدينة المقدسة طلباً للعلم والمعرفة، الأمر الذي أثْرته حالة الاستقرار العامة في البلاد وسيادة الأمن والازدهار والثراء في المدينة. فاستقطبت المدينة أعداداً كبيرة من العلماء بالاضافة الى العلماء المحليين، الأمر الذي أدى الى كثرة عدد الفقهاء والعلماء بالنسبة لصغر حجم مساحة المدينة نسبياً، فغدت مدينة القدس من احدى المراكز الحضارية الهامة. حيث نشأت فيها العلوم المختلفة وتطورت في شتى المجالات الدينية والتاريخية والعلمية واللغوية وغيرها. ولعب فيها دوراً تَفَوق العلماء في هذه المجالات وانتشار عدد كبير من المؤلفات والتراجم والرسائل.

فكان لتكاتف هذه العوامل المختلفة من أمور مدينة آمنة ومستقرة تنعم بالثراء والازدهار الثقافي والعلمي أثره في كثرة المؤسسات التعليمية والخيرية والاجتماعية، وإنَّ مدى ضخامة عدد هذه المنشآت بالنسبة لمدينة صغيرة كمدينة القدس هو خير برهان على مدى هذا النشاط العلمي.

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص400-401 ص406 ص409.

الفصل الثالث

أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس



الفصل الثالث

أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول حياة الأمير تنكز من جوانبها المختلفة. والقسم الثاني يخص انجازات الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس وتحليلها. أما القسم الثالث فيتناول أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية.

3.1 لمحة عن حياة الأمير سيف الدين تنكز:

3.1.1 نشأته:

هو سيف الدين أبو سعيد خليل تنكز بن عبدالله الأشرفي الحسامي الناصري. ولد في دمشق ثم جلبه التاجر الخواجا علاء الدين السيواسي وهو صغير الى مصر، فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون وكان من مماليكه. ثم اشتراه الأمير حسام الدين لاجين، الذي اشترك في مؤامرة قتل الأشرف خليل بن قلاوون وتنقل بين منصب نيابة السلطنة عام 694هـ/ 1294م وبين اعلان نفسه سلطاناً باسم المنصور لاجين عام 696هـ/ 1296م، ولكن قد تمَّ الغدر به وقتله عام 698هـ/ 1299م. حينها انتقل تنكز الى الملك الناصر محمد بن قلاوون وأصبح من خاصكيته[1] وخدم السلطان الناصر وشهد معه وقعة وادي الخازندار ثم وقعة شقحب. تدرج في مناصب الدولة حيث أمره السلطان إمرة عشرة قبل توجهه الى الكرك، الذي رافقه اليها، ولاحقاً جعله أمير طبلخاناة. وبسبب استمرار وجود النزاعات الداخلية بين النواب والأمراء المماليك، عمل الناصر محمد في فترة توليته الثالثة للحكم، ما بين عامي 709هـ/ 1309م الى عام 741هـ/ 1341م على التخلص من العديد من الأمراء الذين سلبوه سلطته في فترات توليته السابقة، فقام باسناد

[1]. الخاصكية: هو لفظ مملوكي، مفرده الخاصكي. وهم المماليك الذين يختارهم السلطان من الأجلاب، ويكونوا صغار السن ويجعلهم في حرسه الخاص. وأُطلقَ عليهم هذا الاسم الخاص لأنهم يتميزون عن غيرهم حتى عن أكابر الأمراء بحضورهم على السلطان في أوقات خلواته وفراغه، ويكونوا في طرفي كل نهار في خدمة القصر والاسطبل، ويركبون مركوب السلطان ليلاً ونهاراً، ويتوجهون في المهمات الشريفة حاملين سيوفهم ومرتدين لباسهم المطرز المزركش، فيتأنقون ويتميزون في مركوبهم وملابسهم.(دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص66).

المهام الى اشخاص يناصرونه، وسعى الى تدريب الأمير سيف الدين تنكز وتعليمه أمور النيابة والأحكام ثم ولاّه نيابة دمشق عام 712هـ/ 1312م، فحلَّ مكان جمال الدين أقوش الأفرم ونزل بدار السعادة[1]، وكان أول أمير يقفز قفزة واحدة الى النيابة. وقد تمكن الأمير تنكز من أمور نيابته حيث استطاع عام 715هـ/1315م من السير بالعساكر الى ملطية وافتتحها، وعظم شأنه وعدَل واشتدت قسوة عقوبته حتى هابه الأمراء ونواب الشام ولم يتجرأوا على ظلم أحد خوفاً من قمعه وشدته.

وكان السلطان الناصر محمد على علاقة جيدة مع الأمير تنكز فولّاه جميع بلاد الشام وكتب الى كل من نواب حماة وحمص وطرابلس وصفد للرجوع إليه. وكان يستشيره في أمور دولته ويأخذ برأيه ولا يُرَدُ له مطلب بل يُوَقِعُ بالتواقيع السلطانية على قراراته بأمور النيابة أو الاقطاعات أو غير ذلك. حتى ازداد نفوذ تنكز خاصة أنه ارتبط مع السلطان الناصر محمد بعلاقة النسب والمصاهرة حيث تزوج السلطان من ابنة تنكز خوندة قطلوبنك وكانت من المقربات للسلطان. وتزوج ولديّ تنكز من بنات السلطان عام 739هـ/ 1339م. وكان يُكرمه كرماً زائداً عند زياراته وفي المناسبات، ويزيد في إكرامه وإنعامه كل مرَّة، فعظمت ثروته وازدادت أملاكه[2].

3.1.2 صفاته وألقابه:

اتصف الأمير تنكز ببياض البشرة المائلة الى السمرة قليلاً. وكان رشيق القامة، حسن الشكل مليح الشعر، خفيف اللحية وقليل الشيب.

كان مُغرماً بالصيد فيتوجه له مع العسكر عدة مرّات في السنة. كان متواضعاً لا عنده خديعة ولا مكر، ولم يتصف بحدة الذكاء فلم ينظر الى عواقب الأمور، وكان لا يحتمل على الأذى ولا يداري عن خطأ حتى ولو للأمراء فكان صارماً وشديداً، إلا أنَّ ذلك كان مُرحباً به من قِبَلْ الكثيرين، فلم يتمكن أحد في ولايته من ظلم أحد. كان الناس في أيامه قد أمِنوا كل سوء فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأزال المظالم وقمع الفساد وولّى الوظائف لمن هو أهلٌ لها، وأنعم الرتب لمن يستحقها، فكان يعطي الطبلخانات والتقادم[3] والإقطاعات والنيابات والوظائف الدينية من القضاة

---

[1]. دار السعادة: دار بمعنى ممسك وهي لفظ فارسي. كانت تقع غربي التكية الأحمدية (جامع الأحمدية) في سوق الحميدية بدمشق، وكانت داراً للملك الأمجد الأيوبي صاحب بعلبك، ثم امتلكها الملك الأشرف. وفي العهد المملوكي أصبحت مقراً لنواب دمشق، فانتقل هذا الاسم من دمشق الى بقية الممالك المملوكية، بحيث بات في كل من القاهرة وحمص وحماة وحلب دار السعادة. وقد انتقل هذا الاسم في العهد العثماني الى بلاد الأتراك بحيث سُميت بعض قصور السلاطين بدار السعادة. (دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص72).

[2]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص251؛ بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج9، ص327؛ اليوسفي، نزهة الناظر، ص113؛ الحجي، صور من الحضارة العربية الاسلامية، ص25 حاشية (3).

[3]. التقادم: جمع تقدمة وهي الرتبة العسكرية التي ينالها المقدم، ومنها مقدم الألوف الذي يتولى قيادة ألف عسكري، ومقدم الجيش الذي يتولى أمرة الجيش. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص232 حاشية4).

والخطابة ونظر الجامع[1] والحسبة[2] وأنظار المباشرات الدينية[3]، دون أنْ يأخذ مقابلها مالاً أو رشوة. وكان مقصده الحق والعمل به ونصرة الشرع وايصال الحق الى مستحقه، فعدل بين رعاياه وأكرمهم حتى أنَّ أموالهم كانت موفرة عليهم فشهدوا في أيامه الأمن والعفة والحياة الكريمة والعدل ووفرة المال والبضائع والحاجات. وكان له اهتمام بالعلم والتعمير فكان يوقر الفضلاء لعلمهم، ويرعى أمور دينه من الصلاة والزكاة والدعاء، حتى صار أعظم رجل في الدولة بعد السلطان وأعدل أمير من أمراء عصره[4].

أما ألقابه فقد عُرِفَ بالأشرفي نسبة الى الملك الأشرف خليل بن قلاوون، كما عُرِفَ بالحسامي نسبة الى السلطان حسام الدين لاجين، كما وعُرِفَ بالناصري نسبة الى الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وقد تَلَقَبَ بالأمير الكبير المُهيب العادل الفريد، والعالم وذلك لأنه سمع صحيح البخاري من ابن شحنة الدمشقي، كما سمع كتاب الآثار للطحاوي وصحيح مسلم وسمع من عيسى المطعم وأبي بكر ابن عبد الدايم، وقرأ عليه أحد المحدثين ثلاثيات البخاري بالمدينة المنورة.

كما وحظي بألقاب كالأتابكي والزاهدي والعابدي، التي كان يُنْعِم عليه السلطان الناصر محمد بها. أما النعوت فقد قيل عنه" معز الاسلام والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين"، وهذا نعت لم يحظَ به أي من النواب أو غيرهم على اختلاف مراتبهم ومناصبهم من قِبَلْ السلطان.

ولعلو منزلته وصفاته الحسنة وأملاكه المتزايدة فقد كُتِبَ له: " أعزَّ الله أنصار المقرّ الكريم العالي الأميري"، وأيضاً "المقرّ الشريف العالي المولوي الأمير الكبيري الغازي المجاهدي الملكي المخدومي السيفي سيف الدنيا والدين عزَّ نصره"[5].

---

[1] . نظر الجامع: ومتوليها الناظر الذي يكون مسؤولاً عن الأموال ويتصرف بها ويكون محاسباً عليها. وناظر الجامع الأموي يكون مسؤولاً عن أوقاف الجامع ووجوه الصرف وأرزاق المستخدمين فيه.(الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية1).

[2]. الحسبة: يقوم بها المحتسب وعمله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحدث بأمر المكاييل والموازين والعيار، فيكون مسؤولاً عن أمور الأسواق. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية2).

[3]. أنظار المباشرات الدينية: أي نظر ديوان الصدقات والأوصياء والأيتام والحرمين والمدارس. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية3).

[4]. الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص251 ص253؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص420؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص510–511؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج1، ص448–449 ص451–452؛ دهمان، ولاة دمشق في عهد المماليك، ص166–167؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2،ص232–233.

[5]. دهمان، المصدر السابق، ص156ص174؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص420–421؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص252.

3.1.3 أهم أعماله وأملاكه:

لقد كانت المدة التي أقام بها الأمير سيف الدين تنكز نائباً على دمشق والممتدة لفترة 28 سنة مدة طويلة، جعلت البلاد تنعم بحالة من الاستقرار خاصة أنه لم يحصل في زمنه غارات من قِبَلْ التتار أو فتن داخلية، وذلك بأنَّه قد عُنِيَ بأمور نيابته واهتم بإنصاف رعاياه وإزالة الظلم والفحش، وكان يتفقد أحوال الرعية متخفياً ليلاً، ثمَّ يُشير بما يجب عمله واصلاحه. وقد اهتم بالأمور الداخلية فمنع شُرب الخمر حتى للأمراء أو أولادهم، وأنزل عقوبة بالغة لمن يُخالف هذا الأمر، فتعذر وجود الخمر في أيامه. كما لم يُقْدِم على أخذ الهدايا إنما أغدق على الناس بالمال وصرفه للفقراء والمحتاجين وأرباب البيوت. ومنع الأمراء من استغلال الفلاحين والمزارعين في أعمالهم كما اهتم بإصلاحات المدينة، فجدَّدَ قنوات المياه وتم تنظيفها وإعادة استخدامها مما قلل من انتشار الأوبئة والأمراض. وأمر بهدم الأملاك التي استجدها الناس فضيَّقوا بها الشوارع والطرق العامة، فوسَّعَ الطرق ورصفها وسهلها لراحة الناس. كما عُنِيَ بالأوقاف الاسلامية فعمَّرها وأمر بعدم صرف ريعها لمستحقيها حتى تكتمل عمارتها، واهتم بالأسرى وأكثرمن تحرير رقابهم حتى أنه أنعم على التجار بالأرباح الوفيرة لمن يفك أَسْرَهُمْ ويدفع المال الى آسريهم. وازدهر العمران في دمشق في هذه الفترة ازدهاراً بارزاً وطغى على العديد من أعمال غيره من النواب الذين كانت مدة حكمهم قصيرة نسبياً، فأُنشأت العديد من الأبنية في أنحاء المدينة وتوسعت أرجاؤها وأُنشأت عدة أحياء وحارات خارج سور دمشق. وقد جَهِدَ تنكز في كل عملٍ ينفعُ دمشق ويوفر الراحة لأهلها فأحبوه وأكثروا من الدعاء له.

وقد أنشأ العديد من الأبنية الفخمة من مدارس وجوامع وحمّامات وقياسر وخوانق وربط وزوايا، ومنها الجامع المعروف باسمه" جامع تنكز" بحكر السماق[1] بدمشق ويُعد أحد الجوامع الثمانية العظيمة في دمشق، تمَّ بناءه عام 717هـ –718هـ، وله منارة مملوكية وفيه روائع فنية، والى جانبه أنشأ تربة وحمّاماً، كما عمَّرَ تربة لزوجته الست ستيتة بنت الأمير سيف الدين عمر الكوكبائي وتشتمل على أربعة أقسام وهي قبة للدفن ومسجد للصلاة ومكتب للأيتام ورباط للنساء، وعمَّرَ داراً للقرآن بجانب داره دار الذهب عُرِفَت بدار القرآن والحديث التنكزية وهي الآن معروفة بالمدرسة الكاملية. وقد عمَّرَ قلعة جعبر[2] التي تقع على حدود بلاد الشام وبلاد التتار بعد

---

[1]. حكر السماق: وهو مكان بدمشق عُرِفَ بشارع جمال باشا، يمتد من أول سوق الحميدية الغربي وباب القلعة الغربي الى محطة الحجاز غرباً، ويُعرف حالياً بشارع النصر.(الصفدي، تحفة ذوي الألباب،قسم 2، ص239 حاشية1).

[2]. جعبر: هي بلدة صغيرة في سوريا وقلعة بين الرقة وبالس، قرب صفين. عُرِفَتْ قديماً باسم دوسر، ثم عُرِفَتْ باسم جعبر نسبة الى أعرابي أعمى من بني قشير اسمه جعبر بن مالك ، وكان يقطع الطريق ويلتجأ إليها وقد استولى عليها. ثمَ صارت الى عدد من السلاطين أولهم السلطان ملك شاه السلجوقي الذي أخذها من جعبر بن مالك وتبعاً سلاطين آخرين، حتى تملكها الملك العادل الأيوبي (أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي)، لاحقاً دمرها هولاكو بعد فتحه بغداد وبقيت بذلك خراباً الى أيام الأمير تنكز، الذي قام بتعميرها.(دهمان، ولاة دمشق، ص158–160).

أنْ دمرها هولاكو وبقيت خراباً فشحنها بالرجال والسلاح والذخائر، وتُعَدُ عمارتها من أعظم الأعمال الكبيرة التي قام بها الأمير تنكز.

كما أنه قد قام بالعديد من الأعمال الخيرية في فسطين، ففي القدس أنشأ مدرسة وداراً للحديث وخانقاة ورباطاً وحمامين وخاناً وسوقاً أوقفه على المسجد الأقصى وساق الماء الى ساحة المسجد الأقصى. وأنشأ جامعاً بنابلس وبيمارستاناً بصفد، كما أنشأ جامعاً بعجلون وله في سائر بلاد الشام عمائر وآثار عديدة[1]. وزادت أمواله وعظُمَتْ أملاكه المنتشرة في عدة مناطق، فله في دمشق قصور وأبنية فخمة من أهمها دار الذهب القديمة والجديدة وهي الدار التي أقام بها، وله قصر خارج دمشق بالقطائع، وله دار فخمة وحمام بجانب جامعه الكبير جامع تنكز بدمشق، وله دور أخرى مثل دار الزمرد ودار الزردكاش كما له عدة حمّامات بدمشق أمثال حمّام القابون وحمّام العمري وله بساتين وحدائق وجنان عديدة كبستان العادل وبستان الرزاز وجنينة وبستان غيث وله العديد من العقارات الاخرى كالخانات والاسطبلات والحوانيت والأفران. كما وله أملاك اخرى عديدة في حمص وبيروت والبقاع، كالدور والحمّامات والاسطبلات والحوانيت والبساتين والقصور والطواحين والقرى. كما كان له أملاك خارج دمشق كصفد وعجلون والقدس ونابلس والرملة وجلجولية ومصر، فله في القاهرة بحي الكافوري داره العظيمة المعروفة به واسطبل وحمّام وحوانيت. هذا الى جانب ممتلكاته من المماليك والجواري والخيول والدواب والجواهر والذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة والقماش والثياب الفاخرة والأثاث. فَتُعَدُ ثروته ثروة عظيمة، إلا أنَّ قيمة ما تركه الأمير تنكز من أموال وأملاك لم يختص بها وحده إنما تنعَّم العشرات غيره من الأمراء بمثل قيمة هذا المال. ولكن الذي اختص به عن غيره وكان صفة حسنة هو أنه كان له كاتب خاص، مهمته الأساسية والوحيدة هو تسجيل ما عند الأمير من أموال على مدار العام، وعندما يمر العام يُخْرِج زكاتها لذوي الحاجة، أما الأمراء الآخرين فلم يتصفوا بهذه الخصلة الحميدة[2].

ولهذا فقد نَعُمَ الأمير تنكز بالحياة الرغيدة التي عصبها المال الوفير والأملاك الطائلة كما وأنه بمقدرته وحرصه على العدل في ذات الوقت استطاع توفير الراحة للناس وعاشوا في فترة نيابته حياة مستقرة.

---

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص157 ص165–166 ص172؛ المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص510–512؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1،ص252؛ الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص451؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ط1، ص133 ص144.

[2]. دهمان، المصدر السابق، ص167 ص176–179؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص429–432؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص458.

3.1.4 وفاته وما قيل فيه:

بما أنَّ الأمير تنكز لم يوصف بحدة الذكاء فإنه لم ينظر الى عواقب الأمور وأغفل عنها، ولم يعتبر بعقوبة مَنْ تَقَدَمَ غيره من النواب والأمراء وما آل إليه حالهم من قتلٍ و نفيٍ ومصادرة أموالهم وأملاكهم، بسبب غضب أي من السلاطين عليهم. فاطمأن للسلطة اللامحدودة التي منحها إليه السلطان الناصر محمد، ومارس قوته وسعة نفوذه مرتكزاً على علو شأنه وماله وجاهه ومكانته العظيمة والمتميزة عند السلطان، فأصبح غير مبالٍ بما يصدر عنه من قول أو فعل، وغافلاً عن المتربصين له الذين يوشون به وينقلون عنه الأخبار للسلطان ، ويحيكون حوله المؤامرات.

ولقد كان السلطان الناصر محمد بدوره كثير الشك وتباينت سياسته إزاء كبار رجال دولته، حتى أعوانه المقربين الذين ما يلبث أنْ يرفع من شأنهم حتى يسعى الى التخلص منهم، وذلك خشية منه على سلطانه من قوتهم وهيبتهم وخوفاً من تكرار ما حلَّ به في سلطته الأولى والثانية. فكان لذلك إنْ أراد التخلص من أحدهم حقد عليه ولكنه يُظْهِر له الحُبَّ والاحترام ويصبر عليه حتى ولو لفترة طويلة، إلى أنْ تأتي الفرصة المناسبة له لتنفيذ مبتغاه[1].

وهذا ما قد حصل مع الأمير تنكز، فبعد تقربه منه واعتماده عليه ومصاهرته، تغير حاله وأصبح يكن له البغض ويتربص له وصمّمَ على الامساك به، وكان لسبب هذا التحول عدة أحداث منها:
أنَّ الأمير تنكز لم يأبه في بعض الأحيان لمطالب السلطان الناصر محمد، وإنما تمسك برأيه، وهذا ما قد حصل في حادثة عندما غضب تنكز على جماعة من مماليكه وسجنهم، فكتب له السلطان يتشفع لأحد من المماليك ولكنه لم يُجِبه لمطلبه، فغضب عليه السلطان خاصة وأنه قد بعث إليه عدة مرّات لشفاعة المملوك ولكنه ردَّ له أمره.

وفي حادثة اخرى حين بعث نائب بلاد الروم رسولاً يحمل رسالة الى الملك الناصر محمد ولم يبعث بواحدة الى الأمير تنكز، فعدَّ ذلك تنكز إهانة له وردَّ الرسول من دمشق. وحين علِمَ السلطان بذلك لم يعجبه، وعدَّه تدخلاً بأموره من قِبَلِ تنكز وتعدياً على شؤونه وحجزاً لحريته، حيث اعتبره أنه يريد الاطلاع على كل شأن من شؤون المَلِكْ.

ومن الأمور الاخرى التي أثرت في السلطان وجعلته عازماً على الامساك بالأمير تنكز، أنَّ الأخير استأذن من السلطان للسفرالى ناحية جعبر، فردَّ عليه بالمنع تكراراً، فغضب تنكز وتفوه بكلام تم نقله الى السلطان الذي تأثَّر بهذا الكلام وأخذ يبني عليه التخيلات.

---

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص161.

كما أنَّ الأمير تنكز قد عزم على التوجه الى بلاد التتار وعلم أهل دمشق بذلك، فنقل أحدهم بعض الكلام الى السلطان الناصر وقد حرَّف به، فتغير السلطان تغيراً عظيماً[1]. بعدها شَعَرَ تنكز بتغير حال السلطان تجاهه، فعزم لاحقاً على أنْ يخرج محملاً أمواله الى قلعة جعبر بحجة الصيد. ولكن أمر الفساد والتربص به وبأعماله وبأقواله منعته من ذلك، حين علم السلطان بنيته اللجوء الى قلعة جعبر. فأمر بإرسال حملة عسكرية من الأمراء والنواب والمماليك للقبض على الأمير تنكز وذلك لخروجه عن طاعة السلطان. وتم تجهيز الاستعدادات للإحاطة بالأمير الذي علم بالأمر فدخل الى دار السعادة وحاول تجهيز نفسه ومماليكه للدفاع، لكن بوصول الأمير سيف الدين طشتمر نائب صفد الى دمشق ومعه عدداً وفيراً من الجنود والأمراء، تم تبليغ الأمير تنكز مرسوم السلطان بالقبض عليه. ولعلمه بأنَّ الفوضى قد عمَّتْ في دمشق وبأنَّ الناس ينهبون، آثَرَ إخماد الفتنة وعدم إشهار السلاح، فخرج إليهم مستسلماً وأُخذ سيفه وقُيد خلف مسجد القدم، وكان ذلك في عام 740هـ/1340م. ففرح السلطان لخبرالقبض عليه بسهولة ظناً منه بأنَ هذا الشأن سيكون صعباً وقد شَكَلَ له قبلاً قلقاً شديداً[2].

بقي تنكز مسجوناً الى أنْ تم نقله الى القاهرة عام 741هـ/ 1340م وهو مريض وأُنزل بمكان ضيق بقلعة الجبل، ثمَّ بعث له السلطان بتهديد ليعترف بأمواله، ولكنه نفى بأن يكون لديه أموال وأنَّ ما لديه سوى وديعة للأيتام وأنكر أنه قد خرج عن الطاعة فأمر السلطان بإرساله الى الاسكندرية واعتقل فيها نحو الشهر، ثمَّ تمَّ قتله خنقاً أو سمَّاً على يد المُقدم ابراهيم بن صابر، كما قيل بأنه لمّا عَلِمَ باستخراج ودائعه وأخذِ أمواله، حصل له غيظ عظيم فأصابته حُمى شديدة وتوفي من أثر ذلك، وكان ذلك في منتصف محرم عام 741هـ/ 1341م، وتم دفنه في الاسكندرية وقد جاوز الستين من العمر. الى أنْ مات السلطان الناصر محمد بن قلاوون فنُقِلَ تنكز في تابوت الى دمشق عام 744هـ/ 1344م، ودُفن في تربته التي عمّرها بجانب جامعه، وقد تبعثرت أمواله بعد وفاته لكن دون أنْ يؤثر ذلك على أوقافه[3].

لقد أسِفَ أهل الاسكندرية ودمشق لموت تنكز، وحزنوا حزناً شديداً لأنه كان رجلاً كريماً عادلاً يُقيم حدود الله والصلاة والزكاة، إلا أنَّه في آخر عهده قد تغير حاله وتقلَّبَ سلوكه فبطش بين الناس واتخذ الأملاك وأخذ عدة أوقاف من أبناء الملوك، واستخدم الفلاحين لخدمته وقطع الزكاة، وظلم حيث بالغ في العقوبة وأخرج أناس من دمشق وساء خلقه كثيراً. وقد يعود ذلك الأمر لصفته

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص509؛ دهمان، ولاة دمشق، ص161 ص163.

[2]. الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص254-255؛ الصفدي، أعيان العصر، ص452-453؛ دهمان، المصدر السابق، ص163-165.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص187-188؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، قسم1، ص126؛ الصفدي، المصدر السابق، ص454-455؛ دهمان، المصدر السابق، ص165.

الملازمة له بأنه كان يتخيل خيالاً ويشتد غضبه كثيراً بحيث لا يقدر أحد على مجابهته أو الحديث معه[1].

وبالرغم من ذلك فإنَّ ما وفره الأمير تنكز لأهل دمشق خاصة وبلاد الشام عامة من حالة استقرار وازدهار وحياة كريمة، جعل الكثيرين يكتبون عنه ويُطروه ويترجموا له تراجم طويلة. فمن الأشعارالتي قيلت فيه حين قال صلاح الدين الصفدي في أبيات شعره، يصف حال أيام نيابة الأمير تنكز وصفاً شاملاً، فيقول:

ثم أتى مَنْ كان نِعْمَ النائبْ تَنْكِزُ جادَتْ قَبْرَه السَّحائبْ
فَنَشَر العَدْلَ بها والحُرمَهْ فانْتَعَشَتْ به وكانَتْ رُمّه
واتصلتْ أيامه وامتدّتْ وأَدْبَرتْ نُحُوسُها وارْتَدَّتْ
وأمّنَ البلادَ والعِبادا كأنّما أيامُه أعيادا
وسارَتِ القُفُولُ في الأقطارِ آمنةٌ من سائر الأخطارِ
بِهَيْبَةٍ تُراعُ منها الأُسْدُ وعِفّةٍ ما مثلُها تُحّدُ
وعَمّر الجامعَ والمدارسَ وكلَّ وقفٍ كان قبلُ دارسا
وجدَّد القُنِيَّ حتى نَظُفَتْ ورَسَتِ الأَقذارُ بعد ما طَفَتْ
ووسَّع الطريقَ في الأسواق فأصبحت نهاية الأشواق
وطارَ عنه الصِّيْتُ ما بينَ التترْ حتى استلانَ عَزْمُهُم ثم فَتَر
وقطع الفراتَ ثم اصطادا هناكَ أياماً وكم أعادا[2]

كما قال عند وفاة الأمير تنكز:

فكأنه برقٌ تألَّقَ بالحمى ثمَّ انطوى فَكأنه لمْ يلمعِ

كما قال فيه عند نقل تابوته من الاسكندرية الى دمشق:

إلى دِمَشْق نقلوا تنكزاً فَيَا لَهَا مِنْ آيةٍ ظاهرة
في جَنَّةِ الدُّنْيَا لَهُ جُثَّةٌ ونَفْسُهُ في جَنَّةِ الآخِرَة

كما قال أيضاً لنفس الحدث:

في نَقْلِ تَنْكِزَ سِرٌّ أَرَادَهُ الله رَبُّهْ
أتى بِهِ نَحْو أرض يُحِبُّهَا وَتُحِبُّهْ

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2قسم2 ص512.

[2]. الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص229-230.

وقد قال فيه عندما قُبِضَ عليه أبيات منها الآتية:

تَنَكَّـــرَ يَـــومَ تَـــنْكِزَ كُـــلُّ عُـــرْفٍ وسَـــامَ الـــذُلُّ فينَـــا كُـــلَّ سَـــامِ
وَمَـــالَ إلـــى المَنِيَّـــةِ كُـــلُّ مَـــوْلَى وَحَـــام عَلَـــى الرَّزِيَّـــةِ كُـــلُّ حَـــامِ
وَأَذْهَـــلَ يَـــوْمُه الألبـــابَ حَتَّـــى كأنَّـــا فِيـــهِ صَـــرْعَى بِالـمُـــدَامِ
بَكَيْـــتُ دِمَشْـــقَ لَـــمَّا غَـــابَ عَنهَـــا وأوحـــشَ أفـــقها بـــدرُ التَّمَـــامِ
فَيَـــا تَمْزِيـــق شَـــمْل العـــدلِ فِينَـــا ويَـــا تَفْرِيـــق ذاك الإنْتِـظَـــامِ
ويَـــا لِمُصِـــيبَةٍ بدِمَشْـــقَ حَلّـــتْ شَـــدَائِدُهَا بِأَحْـــدَاثٍ عِظَـــامِ
فَكَـــمْ مِـــنْ مُقْلَـــةٍ لِلحُـــزْنِ تَجْـــرِي مَـــدَامِعُهَا بِأَرْبَعَـــةٍ سِـــجَامِ
رَعَـــاهُ اللهُ مِـــنْ رَاعٍ أَمِـــينٍ أَنَـــامَ بِعَدْلِـــهِ عَـــيْنَ الأَنَـــامِ
وكَـــفَّ حَـــوَادِثَ الأَيَّـــامِ عَـــنْهُمْ فَلَـــمْ تَطْـــرق حِماهـــم بِانْتِقَـــامِ

وأيضاً في نفس القصيدة الأبيات التالية وتُبين حكم الأمير تنكز العادل:

ولِيـــتَ فَلَـــمْ تَخُـــنْ للهِ عَـــهدَاً ولَـــمْ تَجْـــذُبْكَ فِيـــهِ عُـــرَى المَـــلامِ
حَاشَـــا أن يـــراك الله يومـــاً تَعَـــدَّيْتَ الحَـــلالَ إلَـــى الحَـــرَام
وَنِلْـــتَ مِـــنَ السَّـــعَادَة وَالمَعَـــالي منَـــالاً حَـــازَ غَايَـــاتِ المَـــرَامِ
وَكُنْـــتَ تُحِـــبُّ نُـــورَ الـــدِّينِ طَبْعـــاً لأَنَّكُمَـــا سَـــوَاء فـــي الْتِـــزامِ
رَعَيْـــتَ كمَـــا رَعَـــى وَحَمَيْـــتَ مَـــا قَـــدْ حَمَـــى نَفْـــدِيكَ مِـــنْ رَاعٍ وَحَـــامِ
وَكُنْـــتَ إذَا دَجَـــا لَيْـــلُ القَضَـــايَا وَكَانَـــتْ مِـــنْ مُهِمَّـــاتٍ جِسَـــامِ
تُفَرِّجُهَـــا بِقَـــوْلٍ مِـــنْكَ فَصْـــلٍ لأَنَّ القَـــوْلَ مـــا قَالَـــتْ حَـــذَامِ[1]

وعندما ولى الأمير الطنبغا الصالحي نيابة الشام بعد الأمير تنكز، قال الشيخ صلاح الدين الصفدي عام 745هـ/ 1344م أبياتاً منها:

ألا هَـلْ لُيَـيْلاتٌ تقضَّـتْ عَلـى الحِـمى تَعُـودُ بِوَصْـلٍ للسُّـرورِ مُـنَجِّـزِ
لَيَـالٍ إذا رَامَ المُبَـالِغُ وَصْفَـها يُشَـبِّهُها حُسْنَـاً بأيـام تَـنْكِـزِ[2]

وبهذه الأبيات الشعرية التي وُصِفَ بها الأمير تنكز يتبين لنا ما تحلى به من صفات حميدة وأعمال صالحة وانجازات مميزة، استحق على اساسها التقدير والموالاة. وما قد تميزت به أيضاً فترة نيابته الطويلة من تحقيق أمجاد عسكرية وحياة اجتماعية مستقرة للعامة ومنارات علمية تشهد لها عمائره المتميزة والمنتشرة في مختلف المدن، مما جعله أيقونة لامعة بين نواب عصره.

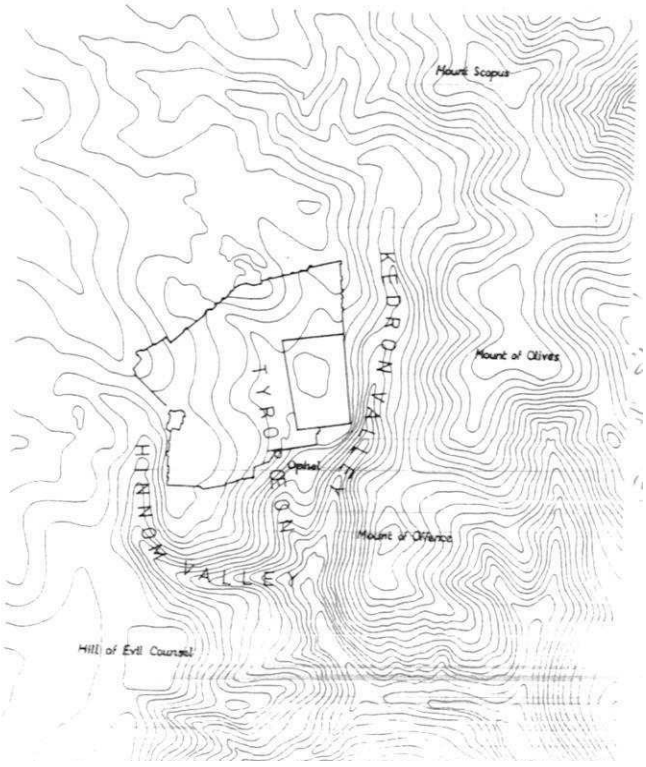
---

[1]. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص432-435.

[2]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج9، ص327؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص244.

3.2 انجازات الأمير تنكز المعمارية:

من خلال الحديث عن حياة الأمير تنكز وبعد التطرق الى جوانب مختلفة سياسية وثقافية في مدينة القدس، نستطيع أنْ نؤكد على أهمية الفترة الواقعة ما بين 712–740هـ/ 1312–1340م؛ وهي الفترة التي تولى بها الأمير تنكز نيابة بلاد الشام، وما كان له من دورٍ بارزٍ في تطور النسيج الحضري لمدينة القدس من خلال انجازاته المعمارية. وقد شكلت هذه المنشآت المميَّزة جزءاً اساسياً في عمارة مدينة القدس، مما يدفعنا لدراسة التخطيط الحضري للمنطقة وتبيان اهمية المجمع المعماري للأمير تنكز في المدينة؛ فكيف حقق بناء هذا الصرح المعماري في الجهة الغربية من الحرم القدسي، والمتمركز ما بين منطقة سوق القطانين شمالاً ومنطقة حارة المغاربة جنوباً. وما كانت عليه معطيات المكان قبل بناءه وما الدوافع وراء اختيار هذا المكان، وكيف استطاع هندسة وربط هذه العمائر والتي تمثلت بالمدرسة التنكزية، ورباط النساء، ومأذنة باب السلسلة، والسقاية أو المطهرة، وسوق القطانين، وخان تنكز، وحمَّاميّ الشفا والعين لتُشكل مجمعاً معمارياً ضخماً.



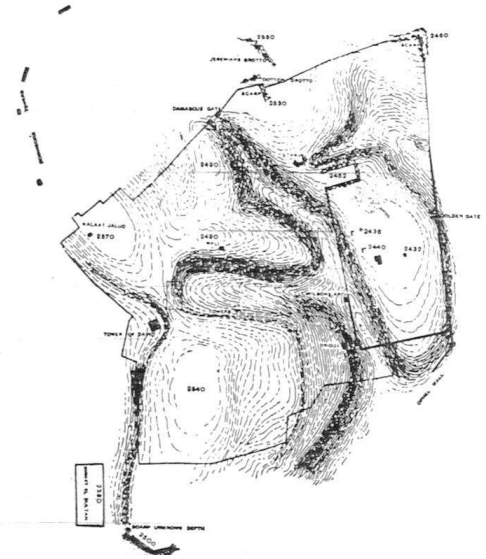
مخطط رقم 1 أ. الخطوط الكنتورية لمدينة القدس القديمة ومحيطها من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 40, fig. 3

فبشكل عام كان امتداد تطور البناء في مدينة القدس باتجاه الناحيتين الشمالية والغربية للمدينة، وذلك لوقوعها على اعلى تلة وطوبوغرافية المنطقة المحددة بتلال ووديان خاصة من الناحيتين الشرقية والجنوبية (مخطط رقم1 أ، ب). ويمتد أُخدود باتجاه الشمال الغربي، ومنفصل من الشمال الى الجنوب بوادٍ غير عميق عُرِفَ بوادي الطواحين (في الفترة المملوكية) أو طريق الواد[1]، كما عرَّفَه مجيرالدين الحنبلي بالشارع الأعظم[2] (مخطط رقم2). ويُعتبر هذا الطريق أحد الطرق الرئيسية في مخطط المدينة؛ حيث أنه الطريق الأقرب الى منطقة الحرم من الناحية الغربية والواصل من الجهة الشمالية للمدينة من باب العمود او باب دمشق، حيث كان الخط الرئيسي للحجاج القادمين من منطقة

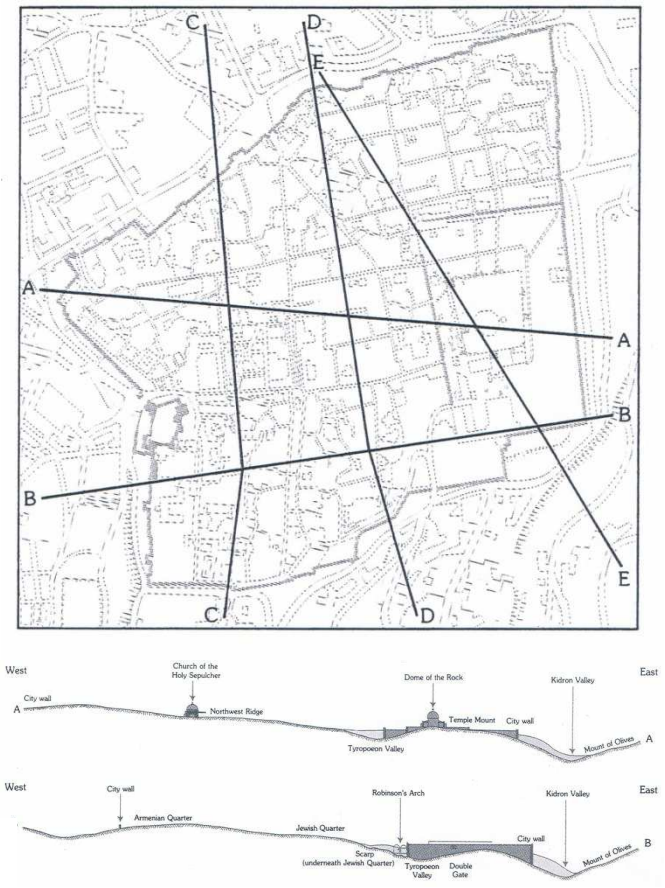
[1] Wilson and Warren,The Recovery of Jerusalem, pp. 5-6; Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 40

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص404.

الساحل الفلسطيني من الرملة، واللطرون، والقبيبة وغيرها الى القدس[1]. وقد شكل مصباً للطريق الوحيد المتجه من باب الأسباط باتجاه المدينة، كما ويتعامد هذا الطريق مع المحور الرئيسي الذي يصل بين قلعة داوود في الجهة الغربية عند باب الخليل



مخطط رقم 2 الخطوط الكنتورية للقدس القديمة
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 78, fig. 4



مخطط رقم 1 ب. مقاطع A-A و B-B
من Bahat, Illustrated Atlas, 15

أو باب يافا وبين منطقة الحرم عند باب السلسلة[2] والمعروف بطريق باب السلسلة[3]. والذي قد شكَّل أحد الخطين الرئيسيين في مخطط شبكة الطرق في الفترة الرومانية، واستمر هذا المحور كشريان رئيسي في المدينة عبر العصور المختلفة. كما ووصفه الحنبلي بأنَّه الشارع الأعظم أيضاً لأهميته، حيث يتم الخروج اليه من أهم أبواب المسجد (وهما باب السلسلة وباب السكينة) الى معظم أسواق

[1] .Prawer, Jerusalem in Crusader Days, p. 104

[2]. باب السلسلة: له عدة اسماء حيث عُرف قديماً بباب داوود(الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 383) وعُرف بالفترة المملوكية بباب السَحَرة (العمري، مسالك الأبصار،ج1،ص 163) وكما عُرف بالفترة الصليبية بِـ'Porta Speciosa 'The beautiful gate (Hawari, Ayyubid Jerusalem, p.74 ؛Prawer, Jerusalem in Crusader Days, p.103).

[3]. لقد عرَّفَ مجيرالدين الحنبلي طريق باب السلسلة بخط داوود وذلك كما ذكر بأنَّ سيدنا داوود كان له سرداب تحت الأرض معقود بالأقبية المحكمة البناء يمشي فيه من منزله بالقلعة التي عُرِفت قديماً بمحراب داوود الى باب السلسلة الذي عُرف قديماً بباب داوود (الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص403)؛ Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 203

البلدة وشوارعها[1]. وقد اعتُبر باب السلسلة الباب الأهم تجارياً وحضارياً في تلك الفترة بين المواقع الاخرى (مخطط رقم3).



مخطط رقم 3 مدينة القدس القديمة

من الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، 474.

وبالتالي فإنَّ نقطة التقاء طريق الواد مع طريق باب السلسلة والتي شكَّلت مصبَّاً رئيسياً للوافدين الى منطقة الحرم، من الحجاج أو التجار أو اهل المدينة أو الزائرين، من جميع اتجاهات المدينة، قد شكَّلت منطقة جَذْبْ للأمير تنكز لتنفيذ مخططه الشامل. كما أنَّ وجود الأبنية القائمة في الناحية الشمالية والشمالية الغربية لمنطقة الحرم القدسي والتي قد تمَّ استغلال معظم هذه المنطقة للتطور العمراني من فترات سابقة، لتلائم منسوبها نسبياً مع منسوب ساحة الحرم[2]، قد دفع الأمير الى اختيار هذا الموقع في الناحية الغربية لقربه من منطقة الحرم ولاتساع مساحته، خاصة وأنَّ هذه المنطقة كانت فارغة من أية منشأة معمارية، فقط ما بقي من انقاض آثار معمارية هُدمت من

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 383ص403 .

[2] .Rosovsky, City of The Great King, p. 399 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 78-80

فترات سابقة، مما شكَّل مساحة كافية لتنفيذ كامل المخطط في حدود منطقة واحدة. وبعد الدراسة والتحليل للمنطقة المحيطة بالحرم القدسي، وبالاطلاع على المخططات الخاصة بمنشآت الأمير تنكز وغيرها من المنشآت المجاورة، تُبين اهمية اختياره للموقع لاقامة منطقة خدمات متكاملة يحقق من خلالها مكانة اقتصادية وخيرية واجتماعية لمدينة القدس. فإنه من خلال متابعة التسلسُل الزمني للأعمال المعمارية للأمير تنكز، يتبين بأنَّ المدة التي قام الأمير بتشييد عمائره الواقعة في حدود منطقة الدراسة والواقعة ما بين 728–737هـ/ 1327–1337م تُعتبر مدة قصيرة نسبياً (وهي حوالي التسع سنوات) بالنسبة لعدد وحجم انجازاته، مما يُظهر إصراره وعزمه على إحياء المنطقة وربط المباني ببعضها البعض وتخصيص حيز في نطاق مساحة منطقة الحرم الشريف تقترن به اعمال تنكز، من اجل نيل فضائل عمل الخير في مدينة القدس لما لهذا الأمر من اهمية لدى حكام المماليك لمضاعفة الأجرعند الله تعالى.

وإنَّ اختيار الأمير تنكز لهذا الموقع في الجهة الغربية من الحرم لم يأتِ بمحض الصدفة، إنما كان هناك اعتبارات ومعايير لابدَّ وقد تمَّ أخذها بعين الاعتبار لإعادة تخطيط هذه المنطقة والتي كانت بداية تطورها بالمدرسة التنكزية، والتي قد شرع بتعميرها في عام 728هـ/ 1327م. فمع وجود آثار ابنية سابقة من فترات زمنية ماضية في موقع المدرسة ومحيطها قد سهَّلَ استغلال هذه المساحة واعادة تعميرها. فإنَّ المدرسة التنكزية تقع على بركة عُرفت ببركة البراق ويقع فوق البركة قبو سليماني قد استغله الأمير تنكز وجدده عند تعميره المدرسة. ويُعرف هذا القوس حالياً بقوس ويلسون، ويقع تحت الجانب الشرقي للمدرسة[1]. ولتوفير المياه للاستخدام داخل المدرسة فقد استُغِلت مياه البركة التي فُضِّلَ اهل المدرسة أولاً لاستخدامها ثم ما يحتاج اليه في حمامي الشفا والعين ثم بقية عامة الناس[2]. كما ويقع تحت حائط المدرسة القبلي مجموعة أقباء رومانية عُرفت قديماً باسطبلات الداوية[3] (مخطط رقم 4 أ، ب، ج، د)، وقد تمَّ استغلال هذه المنطقة عبر العصور المختلفة، ولكن مع حدوث الزلزال المدمِّر عام 702هـ/ 1303م في فترة الحكم المملوكي للبلاد، اثَّر على المنطقة وأدى الى دمار في الأبنية[4]، فأصبحت المنطقة ذات انقاض معمارية. مما حفَّزَ الأمير تنكز على اعادة هيكلية المنطقة بايجاد مزيج من أرض ممهدة للبناء بأساسات موجودة وبقايا آثار معمارية يُمكن استغلالها ودمجها مع اتجاه الأمير في هندسة مجمعه

---

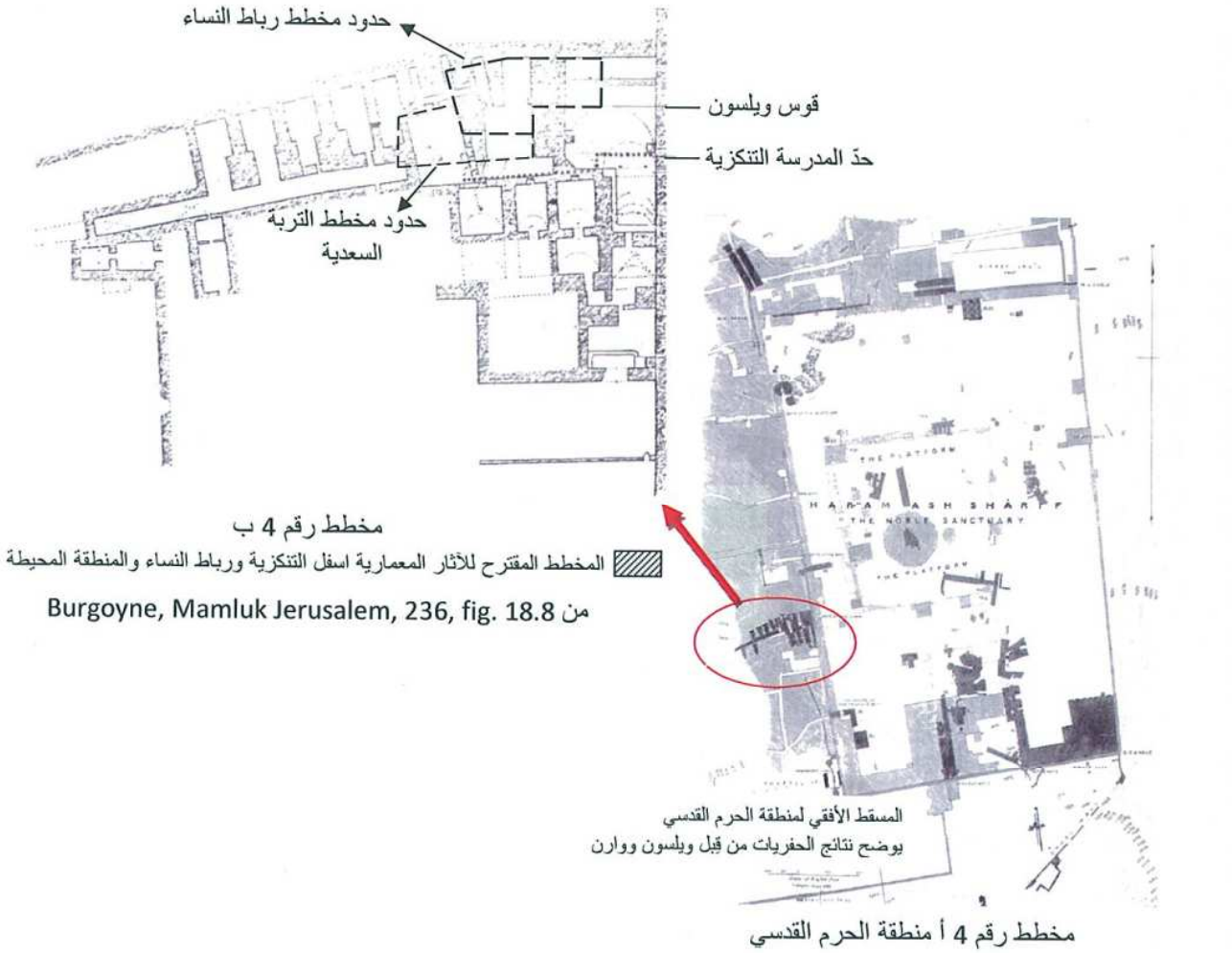
[1] Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 13؛ العسلي، من آثارنا، ص 127؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص 110
Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 193

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص 110.

[3]. كان يتم الدخول الى هذه الأقباء عبر باب خاص من حارة المغاربة في فترة تعمير المدرسة وقد اصبحت من حقوق المدرسة (العسلي، وثائق مقدسية، ص 109؛ العلمي، المدارس المملوكية في القدس، ص31؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.225) وهي قد شكلت فيما قبل سلسلة من الأقواس كان يعبر فوقها طريق يمتد من منطقة الحرم الى قصر هيرود بباب الخليل.
(Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 13).

[4]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.41 p.80.

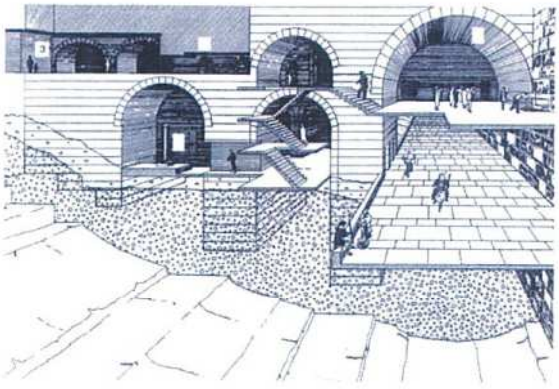
المعماري. آخذاً بعين الاعتبار طوبوغرافية المنطقة، وانخفاض منسوب بعض المناطق المحيطة بساحات المسجد الأقصى المبارك، وصعوبة البناء فيها والذي يحتاج الى تسويتها وانشاء اساسات ضخمة لتدعيم المباني فوقها لرفعها الى مستوى ساحة المسجد[1]، مما يتطلب مجهود وايدي عاملة كثيرة وزمن اضافي لاتمام البناء. ولكن مع وجود هذه البقايا المعمارية شكلت له اساسات لانشاء المدرسة على مستوى منسوب الطريق، لتشكل بذلك جزءاً من المرحلة الأولى لمشروع مجمعه المعماري الضخم والذي لابد وأنْ كان له رؤيته الخاصة في تحقيق تنفيذه، خاصة وأنه قد تمَّ ذكر المطهرة (المتوضأ) والحمامين القبلي والغربي من جملة الموقوفات للأمير تنكز في وقفيته المؤرخة بتاريخ سنة 730هـ/ 1330م، أي بعدة سنوات قبل اتمام تعمير هذه المنشآت.



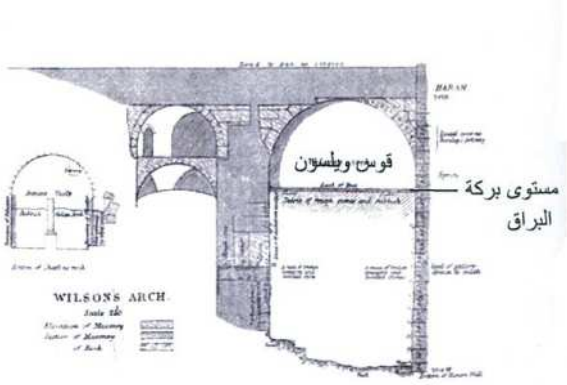
مخطط رقم 4 ب
المخطط المقترح للآثار المعمارية اسفل التنكزية ورباط النساء والمنطقة المحيطة
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 236, fig. 18.8

مخطط رقم 4 أ منطقة الحرم القدسي
من Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, 8

[1] . Bahat, Jerusalem Down Under, B.A.R.21.6, p.39.



مخطط رقم 4 د
منظور لقوس ويلسون الواقع اسفل المدرسة التنكزية
من Bahat, B.A.R.21.6 Jerusalem Down Under, 37



مخطط رقم 4 ج
مقطع قوس ويلسون ومستوى بركة البراق
من Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, 62

كما أنَّ اتجاه الأمير تنكز في البناء قد ارتكز على هدف المماليك بشكل عام، ألا وهو التأكيد على أهمية مدينة القدس وجعلها مركزاً دينياً وحضارياً، فعمل على انشاء مجمع التنكزية من أجل تحسين مكانة المدينة الدينية والثقافية، وكان هذا الموقع بجوار الحرم مفضلاً وذلك للحصول على بَرَكَة المكان بالبناء في أقرب منطقة للحرم، وهذا ما أكدته الكتابة في مسجد التنكزية بأنه بجوار المسجد الأقصى، وما أفضل من هذا الجوار[1]. كما أنَّ وازع الأمير تنكز الديني قد دفعه لتعديل المنطقة وتطوير المشهد الثقافي والحضاري لها بعدم ترك الآثار المتبقية من عمارة سابقة البناء على مدخل رئيسي للحرم القدسي من هذه الناحية، ولترسيخ اهمية اهتمام المماليك عامة وهو منهم بتعمير بيت المقدس وإنَّ عهدهم هو العهد الذهبي في تاريخ فن العمارة والبناء. وقد اهتم الأمير تنكز باختيار موقع مميز لمدرسته يتناسب مع مرتبته ومكانته في الدولة[2]، فبشكل عام كلما كانت العمارة مميزة ومتقنة وذات موقع مميز كلما دلَّتْ على مكانة القائم بالعمل وعلى علو شأنه في الدولة، وبذلك فإنَّ قوة الأمير تنكز السياسية وعلو مكانته وشأنه عند السلطان وعند سائر النواب والحكام وعامة الناس، قد تطلب منه الاختيار الأفضل كهذا الموقع ذا الأهمية الدينية والحضارية والواقع في مركز الحياة اليومية للمدينة.

ولتدعيم هذا الاختيار للأمير تنكز بالرغم من صِغَر المساحة المتوفرة للبناء نسبياً والمحددة من جميع الجهات، ولاصراره على اقامة كتلة معمارية شاملة من النواحي الدينية والثقافية، فقد عمل على الاتجاه ببناء المدرسة بشكل عمودي. وكان هذا اتجاه جديد في تطور العمارة في الفترة المملوكية، حقق من خلاله تعدد الاستخدام الوظيفي للمجمع. فمن خلال اتجاهه العمودي في البناء، أتاح له المجال في استغلال مرحلة التطور في انجاز القسم الثاني الجنوبي من الرواق الغربي

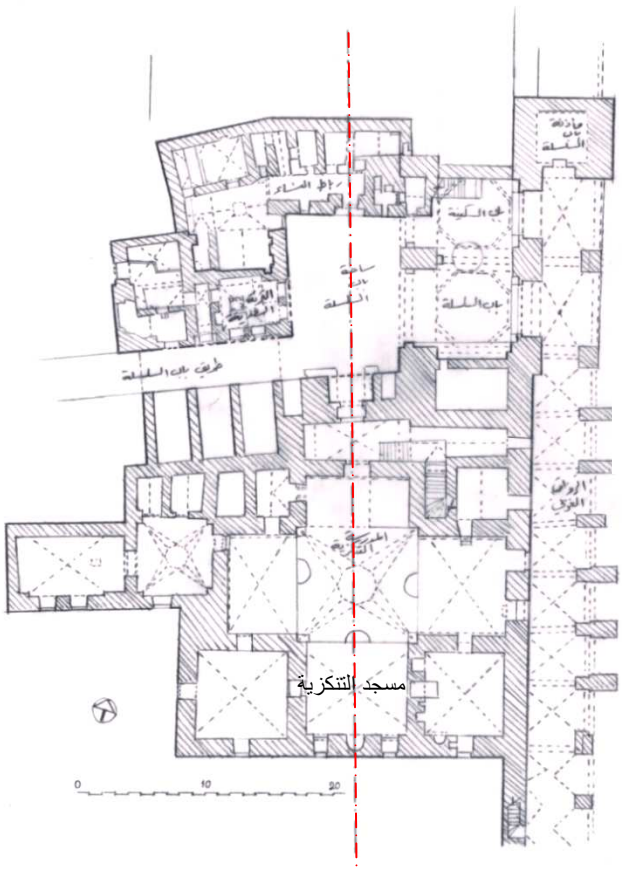
[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 65.
[2]. Burgoyne, Ibid, p. 80.

للحرم[1]، والذي تم عام 713هـ/1314–1315م [2]فشكل اساساً متيناً لتحمل ثقل جزء من المدرسة في طابقها العلوي والذي تشغله الخانقاة، مما أتاح المجال لابراز واجهة المدرسة الشرقية على الحرم مباشرة، بحيث يتجه نحوه الصوفية بنظرهم ووجدانهم اثناء تعبدهم ودراساتهم وليتبركوا بالمكان. وليس هذا فحسب وإنما عُني كذلك باسلوب المعالجة الخارجية للمجمع من خلال الاهتمام بطبيعة ادراك الفرد للمكان، فعمل على التدرج في استيعاب المكان خاصة للقادمين من باب الخليل نزولاً باتجاه الحرم عبر الساحة الوسطية أمام المدرسة، فحقق مدخلاً ضخماً وبذات الوقت شعوراً برابط مع المكان من خلال تناسُب حجم باب المدرسة وتراجعه الى الخلف مع طبيعة ادراك الانسان للحيز. وإنَّ هذا التجويف الى الداخل قد أكسَبَ مدخل المبنى اهميته وفخامته، كما واثرته مجموعة الزخارف التي صُممت عليه. كما وقد شكَّل اتجاه مدخل المبنى العمودي على الطريق والساحة المستطيلة الشكل أمام المدرسة محوراً رئيسياً يمتد في نهايته الى نقطة محورية وهي محراب مسجد التنكزية، وفي الجهة المقابلة للساحة على امتداد المحور مدخل رباط النساء، والذي راعى الأمير تنكز في اختيار موقعه منفصلاً عن المدرسة الشريعة الاسلامية من ناحية الفصل بين الرجال والنساء في أمور اجتماعية ودينية وحياتية[3]. ويظهر من مخطط الرباط الغير منتظم بأنه لربما قد تم بناء اجزاء منه على آثار سابقة ثم اضافة جزء آخر له، متماشياً بذلك مع حدود مخطط التربة السعدية 711هـ/ 1311م والواقعة على الزاوية بين طريق باب السلسلة والساحة امام الرباط، والذي يوضحه مخطط رقم4 ب.

وهكذا فقد عمل الأمير تنكز على استغلال الامكانيات المتاحة في المكان والاستفادة من افضلية ومميزات هذا الحيز ليستطيع من خلاله البدء في المرحلة الاولى لمشروعه والذي امتد على هذه الرقعة من الأرض المقدسة. والذي ساعده على اختيار هذا المكان للمدرسة والتي تشتمل على المسجد، هو قُرب وجود اساس قاعدة مأذنة سابقة البناء منذ العصر الأموي[4]. فبعد الانتهاء من تعمير المدرسة التنكزية ورباط النساء في 729هـ/ 1328–1329م، عمل الأمير تنكز على اعادة تعمير مأذنة باب السلسلة في 730هـ/ 1329–1330م، فقد وقع اختياره على هذه المأذنة خاصة لقربها من مجمع التنكزية ولوجود اساسات قائمة يمكن التعمير عليها، وببناءه لهذه المأذنة جعل هناك تكاملاً معمارياً في منطقة باب السلسلة (مخطط رقم 5).

---

[1]. Rosovsky, City of the Great King, p.401.
[2]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p.191.
[3]. Rosovsky, Ibid, p. 399.
[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص379؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.244.

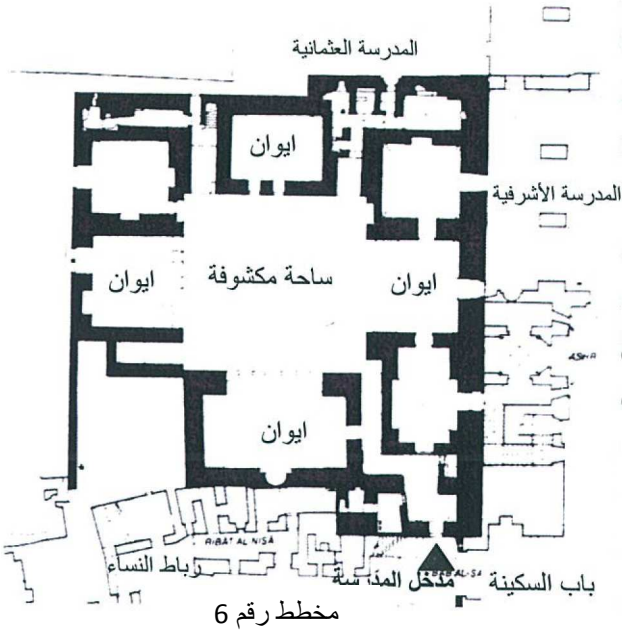


مخطط رقم 5 : مخطط اعادة رسم وتجميع المساقط الافقية من كتاب Mamluk Jerusalem للمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة مع اضافة التحديد للمباني والمحور الممتد من المدرسة والرباط

وللمضي قدماً لانعاش المنطقة القريبة من المسجد واستكمال تخطيطها، فقد اتجه الأمير تنكز لتنفيذ مخططه باتجاه شمالي المدرسة التنكزية ورباط النساء حيث المنطقة المواجهة لقبة الصخرة من الجهة الغربية. ولكن كان هناك محددات طبيعية اعاقت البناء، حيث انخفض منسوب هذه المنطقة عن مستوى ساحة المسجد بعدة امتار، مما لابد وقد تطلب جهداً كبيراً لردم المنطقة قبل الشروع في أي بناء. حيث أنَّ هذه المساحة لم يتم تعميرها سابقاً، الى منطقة السقاية أو المطهرة والتي قام بإنشاءها الملك العادل الأيوبي في 589هـ/ 1193م[1] والتي تقع على آثار معمارية لفترات سابقة حيث أن باب المطهرة (باب المتوضأ) مفتوح منذ الفترة الصليبية[2]، وأنَّ أسفل باب المطهرة كان هناك أقباء رومانية عمودية على الجدار الغربي للحرم[3]. لكن دُمرت المطهرة ولم يبقى من آثارها الا القليل، فأعيد تعميرها في الفترة المملوكية في عام 665هـ/ 1266–1267م، ولها مدخلها

[1] . Hawari, Ayyubid Jerusalem, p.52.
[2]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p.188.
[3]. Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, pp. 13-14.

الخاص من الجدار الغربي. ويتم الوصول الى المطهرة عبر زقاق باب المطهرة وطوله حـــوالي ثلاثون متراً، نزولاً الى مستوى حوالي خمسة امتار تحت مستوى ساحة المسجد الأقصـــى[1]. ثـــمَّ أعاد تعميرها الأمير تنكز عام 730هـــ/ 1329م وطوَّر في عمارتها وذلك لخدمة القادمين الـــى المسجد وتوفير سُبل الراحة لهم. وفي وقفية الأمير تنكز قد تم ذكر حـــاكورة عُرفـــت بحـــاكورة السقاية، ولربما قد امتدت من منطقة رباط النساء جنوباً، حيث ذُكِرَ أنَّ لها باباً من القبو السليماني السابق ذِكْره اسفل المدرسة التنكزية، الى منطقة المطهرة (السقاية) شمالاً والتي عُرفت الحاكورة باسمها تبعاً لها[2]. مما يدل على أنَّ هذه المنطقة كانت مساحة خضراء وذات منسوب منخفض عن مستوى ساحة المسجد.



مخطط رقم 6

المسقط الافقي للمدرسة البلدية

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 444

وبالتالي فقد بقيت المنطقة الواقعة بين رباط النساء جنوباً والمطهرة شمالاً منطقة مفتوحة، حيـــث أن المدرسة البلدية الواقعة شمالي رباط النساء قد تـــمَّ انشاؤها فيما بعد فـــي عـــام 782هـــــ/ 1380م، ويظهر من المسقط الأفقي للمدرسة (مخطط رقـــم 6) بأنه قد تم العناية بتخطيطها على اساس أربعة ايوانات وساحة وسطية كبيرة ومكشوفة ومجموعة من الغرف، علـــى غـــرار تخطـــيط المـــدارس المملوكية في القاهرة والتي يتم الدخول اليها عبر مدخلها الرئيسي الى ممر ثم الى الساحة الوسطية وذلك لاتساع المساحة المقترحة للبناء، وبذلك فإنَّ المساحة المتوفرة للبناء كانت سانحة لمثـــل هـــذا التخطيط المتعامد ولمساحات شاسعة كما في المدرسة البلدية. كما أنَّ المخطط العام للمدرسة يُظهر بأنها تقع ضمن حدود مربع مكتمل وبأنه لم يكن هناك معوقات معمارية في المنطقة بالرغم مـــن ترجيح بعض نتائج الحفريات في المكان بوجود آثار على شكل صليب ربما قد شـــكلت مقتـــرح لأساسات كنيسة صليبية أو بناء آخر لم يُستكمل بناؤه، ولكنه غير مؤكد، فلربما أنَّ هذه الاساسات قد أُنشأت للمدرسة البلدية لرفع منسوبها الى مستوى منسوب ساحة المسجد[3]. وحتى إنْ كانت على آثار هذه الكنيسة فإنَّ المخطط المقترح بشكله المتعامد أتاح المجال لأساسات المدرســـة البلديـــة وبناؤها على النظام المعماري المتعامد المعروف بـــِ Cruciform Structure (مخطط رقم 7).

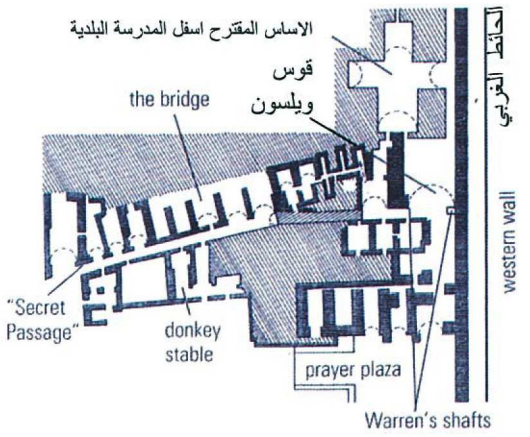
---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص383 Hawari, Ayybid Jerusalem, pp.52-53

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص110.

[3] . Hawari, Ibid, p.75 ؛Bahat, B.A.R.21.6, Jerusalem Down Under, pp. 38-39.

وكما الحال بالنسبة للمدرسة العثمانية الواقعة بين المدرسة البلدية في الناحية الجنوبية وبين زقاق باب المطهرة في الناحية الشمالية، فقد تمَّ بناؤها عام 840هـ/ 1436–1437م. ويتبين مما قد ذُكر في نص الوقفية بوقوع حاكورة شرقي حمامي الشفا والعين عُرفت بحاكورة الطهارة، والمرجح أنَّ موقع هذه الحاكورة يقع مكان المدرسة العثمانية وهو امتداد لحاكورة السقاية[1]. أما الدخول الى المدرسة فيتم عبر زقاق باب المطهرة نزولاً بعدة درجات، بمعنى أنَّ منسوب المدرسة أيضاً يقع منخفضاً عن منسوب الحرم، وقد أوضح ذلك Burgoyne في سياق حديثه عن تطور العمارة في الرواق الشمالي والغربي للحرم، موضحاً أنَّ موقع المدرسة العثمانية كان غير محبذاً للبناء وذلك بأنه يُشرف على مطهرة الرجال من الناحية الغربية وبأنَّ منسوب الموقع ينخفض حوالي أكثر من مترين عن مستوى ساحة المسجد الأقصى، مما يتطلب اعمال سابقة للبناء لتهيأة الموقع حتى يتم رفع منسوب البناء الى مستوى ساحة المسجد[2].



مخطط رقم 7
المخطط المقترح للآثار المتبقية اسفل المدرسة البلدية والمنطقة الواقعة جنوبها
من Bahat, B.A.R. 21.6, Jerusalem Down Under,33

وعند وصف منطقة الرواق الغربي من قِبَل ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار[3] والمؤرخ بتاريخ 745هـ/ 1345م، فإنه لم يتم ذكر أي بناء واقع مكان المدرسة العثمانية، فقط تم ذِكر باب المطهرة وَوَصْفْ المطهرة وخلوتين احداهما للقيِّم. وبذلك فلو وُجدت أي عمارة أو بناء في المنطقة لتمَّ ذكره من قِبَل العمري. وعليه فإنَّ هذه المساحة والتي هي مكان المدرسة العثمانية كانت خالية معظمها من أية منشأة.

وبالنسبة للمدرسة الأشرفية أو السلطانية والواقعة شرقي المدرسة البلدية، فقد تمَّ بناؤها أيضاً بعد فترة الأمير تنكز، حيث بُنيت في المرحلة الأولى حوالي عام 873هـ/ 1468–1469م، ثم تمَّ الأمر بهدمها واعادة تعميرها مع الاضافة وتوسعة البناء من قِبَل السلطان الأشرف قايتباي فكان بناؤها بين عامي 885– 887هـ/ 1480–1482م[4]. وقد تم استغلال جزء من الرواق الغربي للحرم كجزء لا يتجزأ من مخطط المدرسة الحالي.

---

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص112.

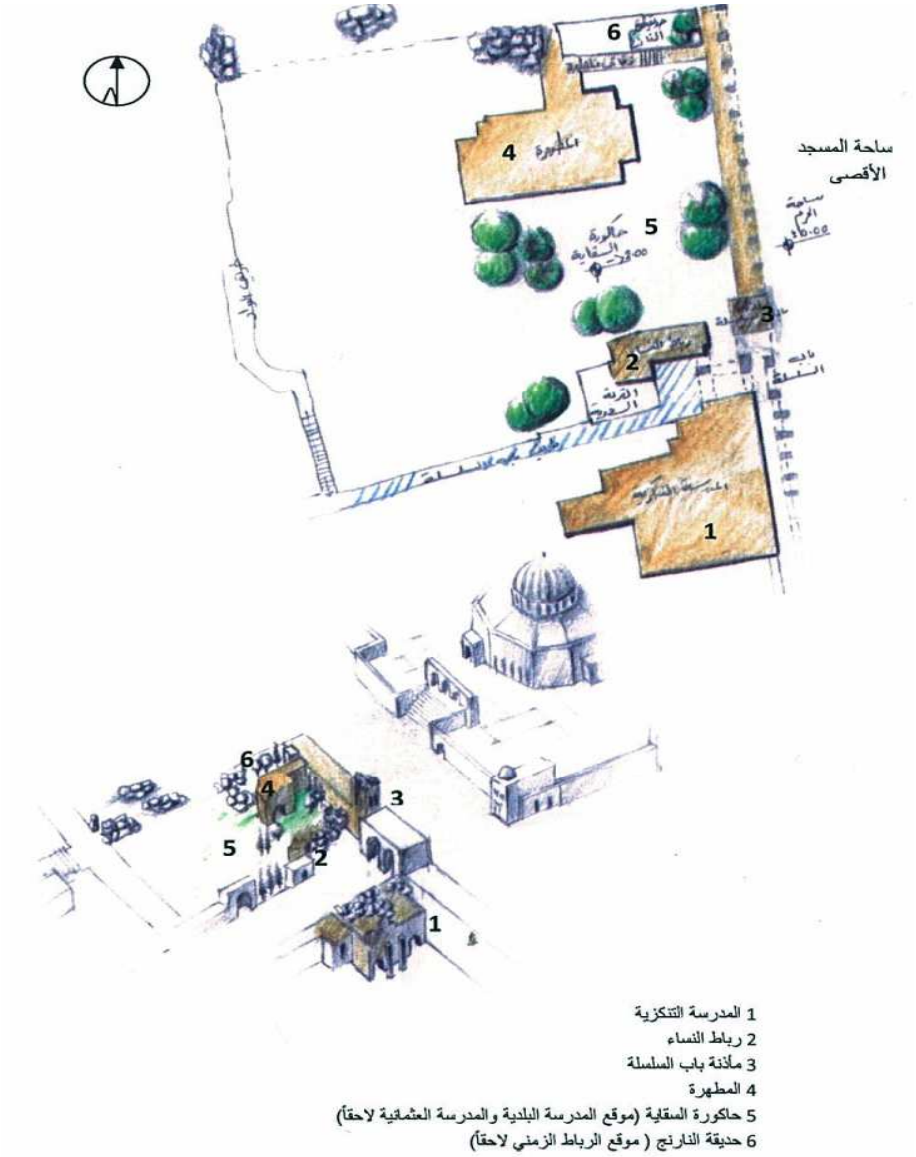
[2] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 83.

[3]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162–163.

[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387–388؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 591

وفي الناحية الشمالية من زقاق باب المطهرة يقع الرباط الزمني مقابلاً للمدرسة العثمانية، والذي تمَّ بناؤه عام 881هـ/ 1476–1477م، وما كان في هذا الموقع قبل انشاء هذا الرباط هو فقط مكان عبارة عن خلوة للقيِّم والبواب وقاعة كان لها باب، ولكنه يُستخدم الآن كنافذة واقعة تحت مستوى الرواق الغربي[1].

وكذلك كان هناك حديقة فيها أشجار حمضيات وورود عُرفت بحديقة النارنج، قد تم ذكرها في الوقفية بوصفها شرقي حمام الشفا[2]، فيُرجح بأن الرباط الزمني يقع مكانها، كما يُوضَح في مخطط رقم (8).



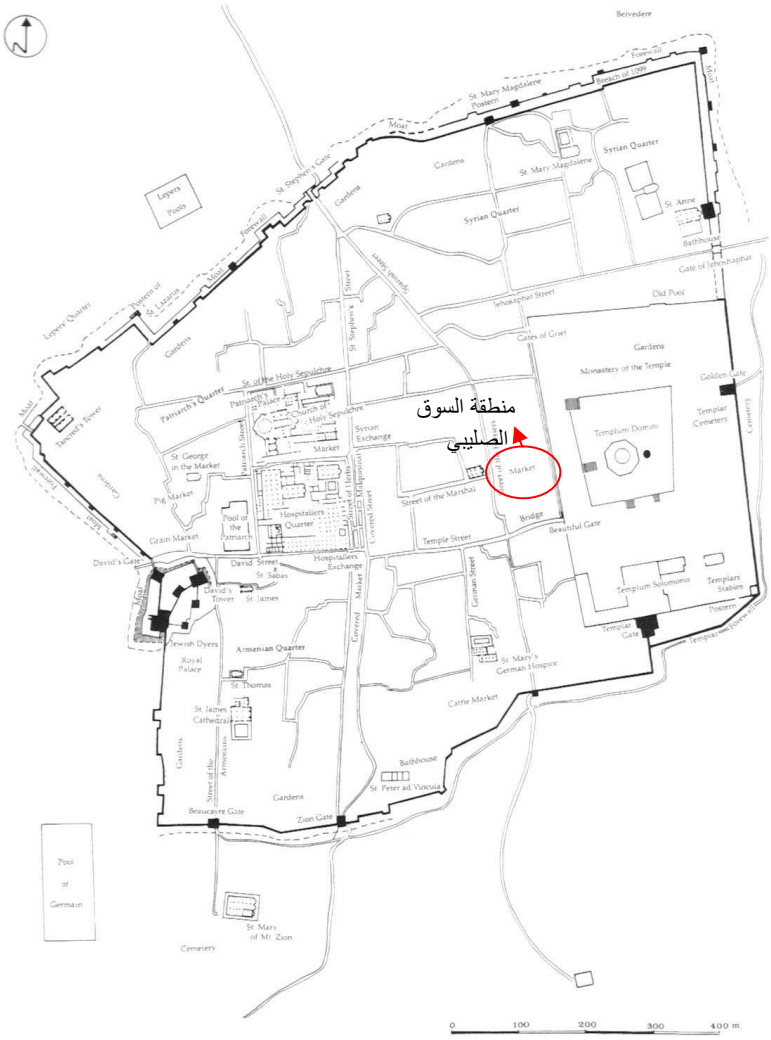
مخطط رقم 8

مخطط المرحلة الأولى للمجمع المعماري، مسقط افقي وثلاثي الأبعاد (رسم توضيحي للباحثة)

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 572 p. 576

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111.

وبذلك فبعد الانتهاء من اعادة تعمير المطهرة او المتوضأ، عَمَدَ الأمير تنكز على استثمار منطقة سوق القطانين، فعمل على التوصية لدى السلطان الناصر محمد بهذا الخصوص والذي بدوره أمر بإنشاء مجمع تجاري يقع بين الحرم والمدينة. فتمَّ اختيار هذا المكان لسوق القطانين حيث يُعتبر هذا الموقع ذا طابع تجاري، لأنَّ منطقة طريق الواد هي منطقة تجارية عامرة منذ القِدم، حيث أنه خلال فترة الاحتلال الصليبي للبلاد اهتم الصليبيون باختيار مواقع لمبانيهم تكون حول الطرق التجارية الرئيسية مثل طريق واد الطواحين (طريق الواد)، وبالتالي بنوا سوقاً كبيراً في تلك المنطقة امتدَّ من طريق الواد باتجاه الحائط الغربي للحرم بتراجع اربعون متراً عن حدّ الحائط (مخطط رقم 9). لكن دُمر السوق لاحقاً في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي[1]، ولم يتم تطوير هذه المنطقة لاحقاً في الفترة الأيوبية وذلك لأنَّ فترة الحكم الأيوبي للبلاد عامة قد اصطبغت بأمر اهمية الدفاع عن البلاد، خاصة وأنَّ العدوان الصليبي لم يهدأ بتهديد المنطقة بين الحين والآخر لاعادة احتلالها، فكان الاهتمام منصباً نحو الأمور العسكرية والعمارة الدفاعية ومحاولة تطهير مدينة القدس من الآثار الصليبية، بتحويل الأماكن التي احتلها الصليبيون الى اماكن اسلامية وذلك لاسترجاع القوة الاسلامية للمدينة والطابع الاسلامي لها. وبالتالي كان هناك محدودية في التطور العمراني في المنطقة المحيطة بالحرم القدسي الشريف[2]. وحسب الدراسة المعمارية والاثرية للفترة الأيوبية، فإنه لم يكن هناك بناء في



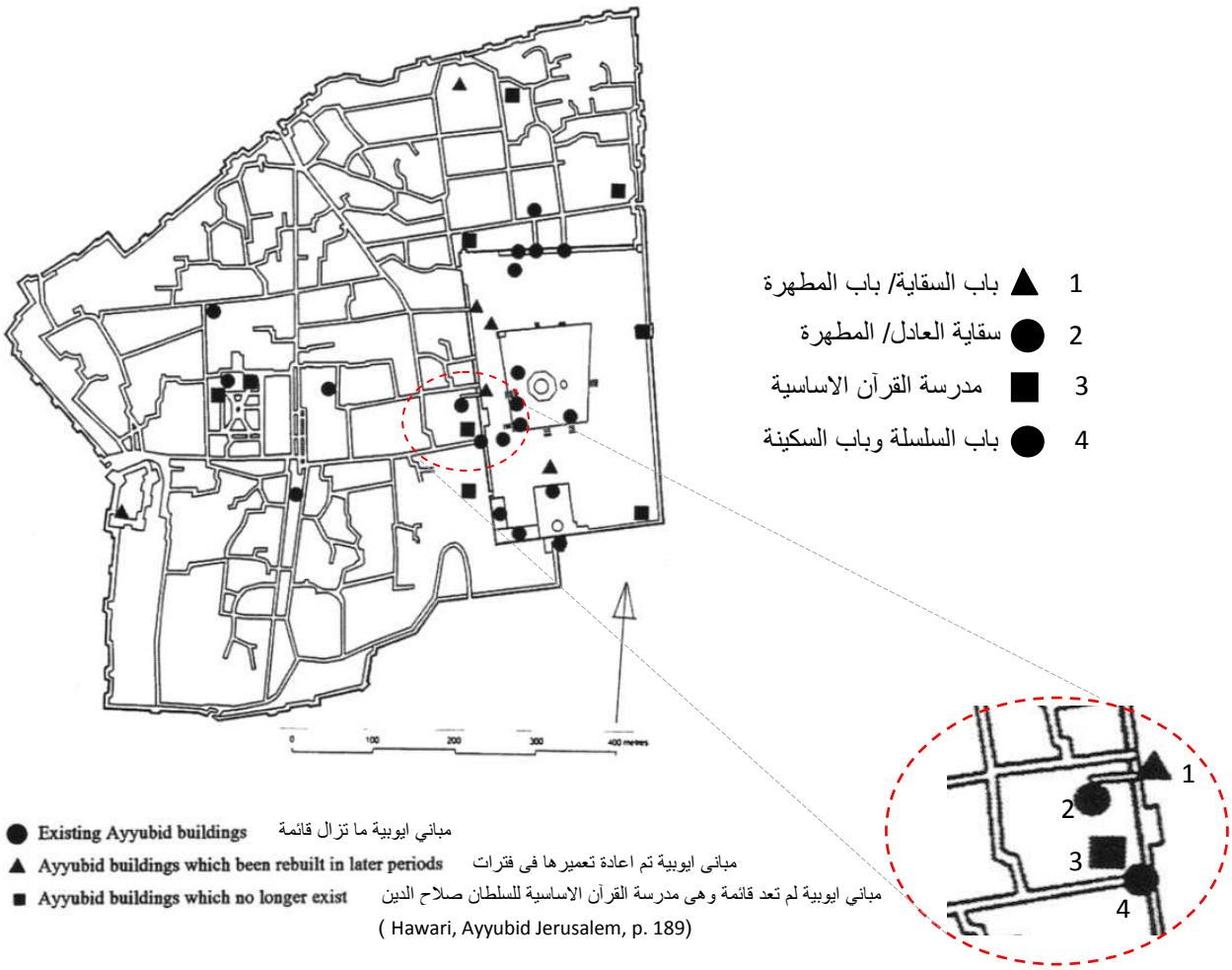
مخطط رقم 9 : مخطط مدينة القدس في الفترة الصليبية من Boas, Jerusalem in the Time of the Crusades,

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 80.

[2]. Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 200 ؛Burgoyne, Ibid, pp. 48-49

هذه المنطقة والذي يوضحه المخطط رقم (10) لموقع المباني الأيوبية في مدينة القدس[1]. حيث تمَّ توضيح موقع المباني الأيوبية التي ما تزال قائمة، كما والمباني التي تمَّ ترميمها واعادة تعميرهـــا في فترات لاحقة، ايضاً المباني الأيوبية التي لم تعد قائمة.



مخطط رقم 10 : موقع المباني الأيوبية في مدينة القدس القديمة

من Hawari, Ayyubid Jerusalem, 20, fig. 2

وعليه فإنَّ الآثار المعمارية المتبقية للسوق الصليبي شكلت اساساً سهَّلَ عملية اعادة البناء في منطقة السوق خاصة في القسم الغربي منه، حيث أُعيد تعمير هذا القسم والمدخل الغربي. واستكملت المرحلة الاخرى من بناء السوق في القسم الشرقي حتى تم ربطه مع ساحة المسجد الاقصى بواسطة البوابة العظيمة لباب القطانين، وكان ذلك في عام 737هـ/ 1336–1337م[2]. فشكل بذلك رابطاً اساسياً تجارياً بين منطقة طريق الواد ومنطقة الحرم الشريف. ويظهر الاختلاف في القسم الشرقي والذي يبدأ من مدخل حمام الشفا من داخل السوق باتجاه الشرق، عن القسم الغربي للسوق من خلال نمط واجهات الدكاكين في القسمين، حيث تختلف طرز الأقواس

[1] Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 20
[2] Rosovsky, City of the Great King, p. 403

والاحجار المستخدمة في البناء. فإنَّ طراز الأقواس في الجزء الشرقي يأتي بشكل مدبب ومحمول على اوتار وهذه الاوتار جميعها مبنية من الاحجار المعشقة، والتي تكسبها تماسكاً وتضفي نمطاً زخرفياً للواجهة. أما الأقواس في الجزء الغربي فإنَّ بعضها يأتي بشكل مدبب وبعضها بشكل قوس وبعضها محمول على وتر وبعضها الآخر يتوزع ثقله على الجانبين مباشرة مما يُظهر بأنه قد تمَّ تعمير هذه الحواصل تبعاً لما قد بقي منها. كما وقد اوضح Burgoyne بأنَّ نمط بناء مداميك الحجر (والتي بقي بعض منها في الجزء الغربي من السوق على ارتفاع معين) قد تعود الى الفترة الصليبية، ثم تمَّ اعادة استخدامها او التعمير عليها عند انشاء السوق المملوكي[1].

صور توضح الفرق في واجهات القسمين الشرقي والغربي لسوق القطانين





صور 1 ، 2 (للباحثة): دكاكين من الجزء الشرقي من السوق

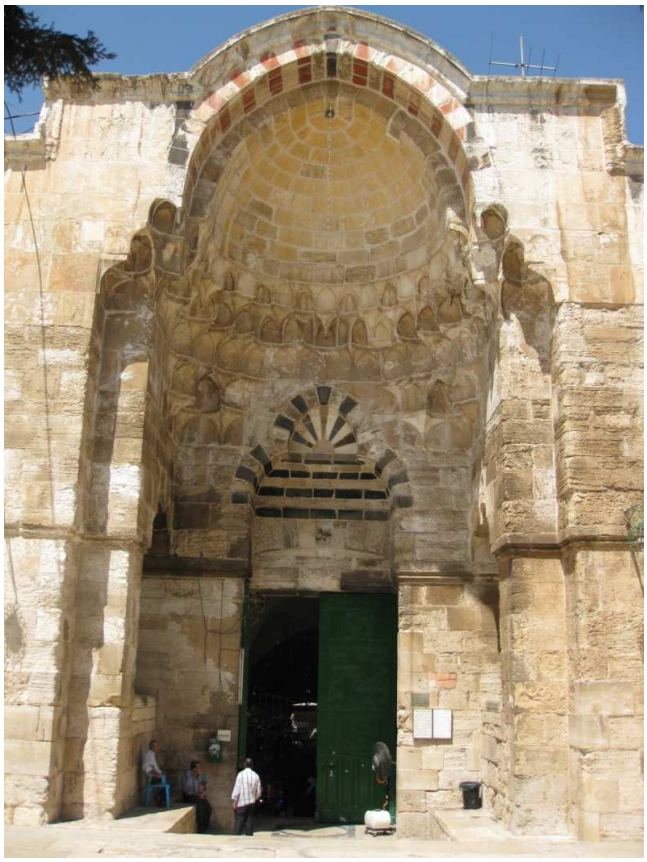




صور 3 ، 4 (للباحثة): دكاكين من الجزء الغربى من السوق

[1] . Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.273

وللتأكيد على أهمية انجاز بناء سوق القطانين فقد أظهر ذلك الأمير تنكز من خلال الاعتناء بتصميم باب القطانين الشرقي بالرغم من انخفاض مستوى السوق عن مستوى ساحة المسجد الأقصى. وعالج هذا الأمر من خلال الأدراج المستخدمة وهي حوالي العشرون درجة، مقسمة الى مرحلتين قبل البوابة وبعدها. وبالتالي فقد استطاع بطريقة مدروسة أنْ يستخدم ما يتم حفره لعمل الأدراج قبل البوابة من ناحية المسجد، وردمه لعمل ادراج بعد البوابة من ناحية السوق. وجاءت واجهة المدخل ذات ضخامة وزخارف رائعة، وعُني بذلك الأمير تنكز حرصاً على جعل الواجهات المطلة على منطقة المسجد الأقصى الشريف ذات طابع معماري وزخرفي متميز، وذلك رغبة منه لإظهار والتأكيد على مدى التطور في فن العمارة الاسلامية المصاحبة للثورة العمرانية في مدينة القدس والتي تُبرز الطابع المعماري والزخرفي المملوكي. ومما يؤكد على جمالية هذه المنطقة هو وصف ويلسون بأنَّ الواجهة الداخلية لساحة المسجد محاطة بأتقن وأجمل واجهات في العالم[1]. كما وكان اهتمامه بالواجهة الشرقية للسوق والواقعة على الجدار الغربي، ربما ليعطي مفهوم للسكان والحجاج بأهمية السوق، ولتظهر هذه البوابة بضخامتها وزخارفها من قريب أو بعيد وتبشر القادمين بأنهم على مشارف السوق.

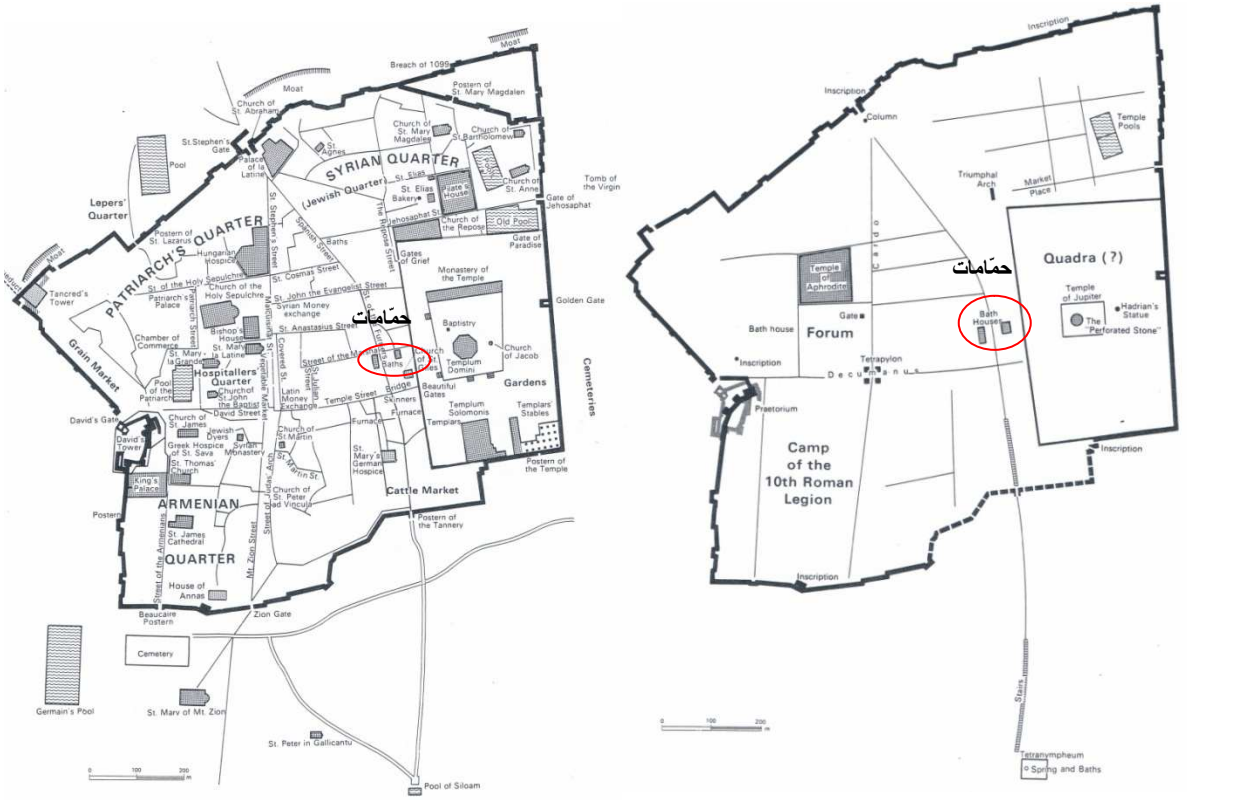


صورة 5: باب القطانين الشرقي

تصوير الباحثة

[1].Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 7

ولاستكمال المرحلة الثانية من مخطط الأمير تنكز لإعادة تخطيط المنطقة، وليستثمر ريع الحمامين والخان كما ذُكر في وقفيته مناصفة لأعمال الترميم في المدرسة التنكزية ومنطقة المسجد الأقصى[1]، ليضمن بذلك استمرارية المدرسة في أداء وظيفتها وليستمر اسم الأمير تنكز مذكوراً على مدى طويل من الزمن ومقروناً بالمدينة المقدسة، باشر بإعادة تعمير المساحة غربي المطهرة والتي أوحت له بتعمير حمام والمعروف بحمام الشفا. حيث أنَّ معطيات هذه المساحة أشارت الى وجود آثار سابقة لحمام من خلال الآثار المعمارية المتبقية وتَوَفُرْ المياه اللازمة للاستخدام داخل الحمام. حيث أنه عند اختيار موقع للحمام يُراعى عدة أمور منها الكثافة السكانية والقرب من المسجد والاحياء المزدحمة وتوفر الماء في المنطقة. وبذلك فقد عمل الأمير تنكز على انشاء حمّام على آثار اساسات سابقة لحمام من الفترة الصليبية ولربما قد وُجد حمام منذ الفترة الرومانية في هذه المنطقة[2]كما يظهر في (مخطط رقم 11 أ،ب).



مخطط رقم 11 أ (مدينة القدس القديمة في الفترة الرومانية) مخطط رقم 11 ب (مدينة القدس القديمة في الفترة الصليبية)
يظهر في المخططين وقوع حمامين في المنطقة غربي الحرم الشريف في مكان وقوع حمامي الشفا والعين
من Bahat, Carta's historical atlas, 21,33

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 80

[2]. يُعتقد أنَّ حمام الشفا يحتل مكاناً واحداً من الحمامين الذين أنشأهما الامبراطور هادريان في تلك المنطقة. (العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص184)؛

Dow, The Islamic Baths of Palestine, p. 87 ؛Bahat, Carta's historical atlas of Jerusalem, p.20

ويظهر من خلال اتجاه المخطط العام للحمام والواقع بشكل مائل على اتجاه السوق بأنه قد تمَّ استغلال ما تبقى من آثار الحمام السابق انشاؤه، وتعمير الحمام القائم حالياً على تلك الآثار[1]. ومما حفزه ايضاً لاختيار هذا الموقع لتعمير الحمام هو وقوع بئر عميق اسفل الحمام وعلى بُعد حوالي اربعة وعشرون متراً تحت سطح الأرض الحالي. وقد عُرف هذا البئر والبركة ببركة حمام الشفا، وكان يستقي منها الناس لفترة من الزمن[2]، وبذلك فإنَّ توفر المياه بشكل اساسي في هذا الموقع شجع الأمير تنكز على تعمير حمام الشفا بالرغم من مساحة المكان المحددة وعدم استطاعته الإضافة على مساحة الحمام، فقط الجزء الجنوبي الشرقي تم اضافته. حيث يحد الحمام من الشمال سوق القطانين ومن الجنوب المطهرة ومن الشرق حديقة النارنج ومن الغرب الخان الذي انشأه تنكز. ومن دوافعه أيضاً هو عدم وجود حمامات استشفائية في المدينة، وبذلك فقد حرص على انشاء حمام آخر هو حمام العين لخدمة كافة فئات المجتمع[3]؛ حيث أنَّ حمام الشفا كان مخصصاً للرجال أما الحمام الجديد أو حمام العين فقد استقبل النساء والرجال في اوقات مختلفة[4].

أما حمام العين فقد استطاع الأمير تنكز هندسة المخطط العام للحمام بشكل عمودي على سوق القطانين، فجاء المخطط منتظماً وموازياً لطريق الواد، واستطاع من خلاله استغلال المساحة التي مكنته من تصميم مساحات أوسع لغرف الحمام كما وعدد اكبر لغرف الحمام عن حمام الشفا. وقد يكون حمام العين يقع على آثار حمام سابق البناء منذ الفترة الرومانية[5]، كما يوضحه المخطط رقم 11أ، والذي يظهر فيه الحمام الغربي بشكله الطولي ولربما أنَّ آثار هذا الحمام كانت عاملاً مساعداً في تخطيط حمام العين بشكله الحالي، بالرغم من أنَّ Burgoyne لا يُرجح وقوع حمام العين على آثار حمام من فترات سابقة. وقد شكل منسوب الأرض المنخفض نسبياً عاملاً مساعداً لإقامة الحمام حيث تقع مستوى ارضية الحمام منخفضة بحوالي 1.6 م عن مستوى طريق الواد[6]، وإنَّ هذا الانخفاض إنْ كان طبيعياً أو بفعل عملية الحفر فإنه قد شكل عنصراً ايجابياً في كلتا الحالتين، حيث أنَّ انخفاض مستوى الحمام عن مستوى محيطه يُسَهل عملية تمديد وتوصيل المياه الى داخل الحمام كما وتوفر الأرض عازلاً طبيعياً اساسياً يمكن الاضافة عليه وتحسينه خاصة في منشآت صحية كالحمامات. وإنْ كان بفعل عملية الحفر فإنَّ ما تم حفره قد تم ردمه لتسوية مساحة اقامة الخان، مما يُظهر بأن العمل في المنطقة جاء بشكل متناسق ومكتمل ومتناغم وذا خطة مدروسة وهدف مسبق.

---

[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 88 p.273 p. 282.

[2]. Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 15 ؛Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 263
العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص 128 ص179.

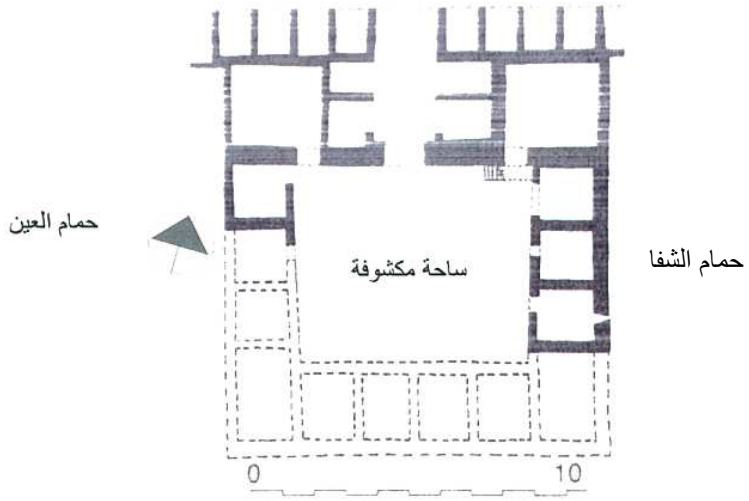
[3]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص245.

[4]. العسلي، من آثارنا، ص171؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص144.

[5] Bahat, Carta's historical atlas of Jerusalem, p. 20

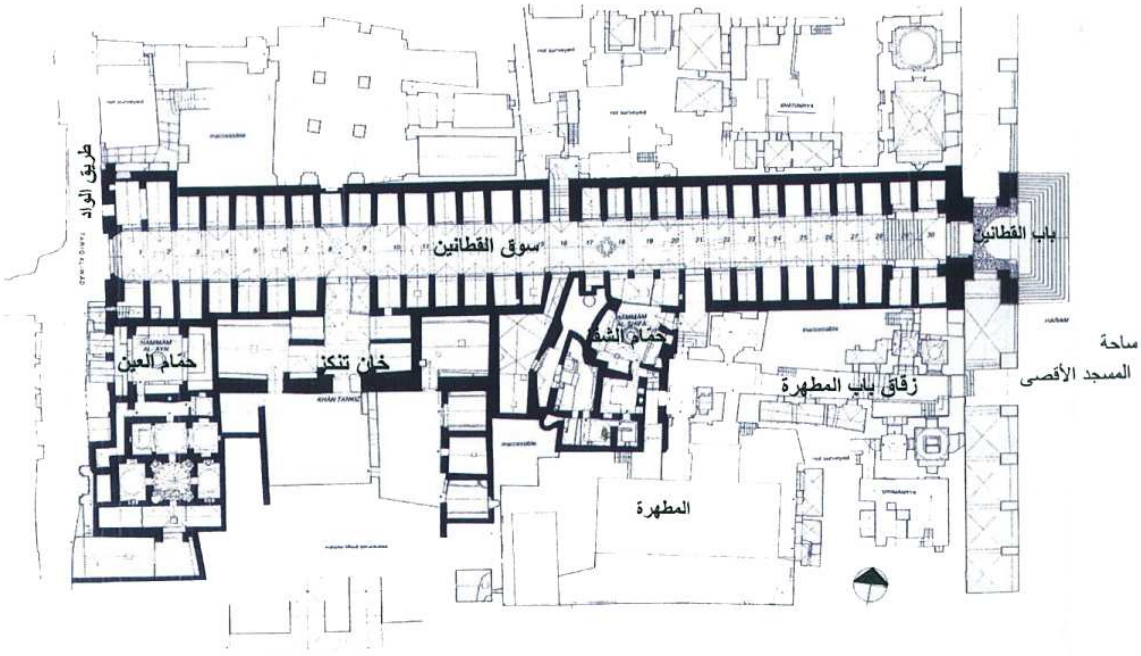
[6] Burgoyne, Ibid, p. 287

وقد وقع اختيار موقع الخان بين حمام الشفا وحمام العين، ويظهر من مخطط المسقط الأفقي للخان والمتماثل على الجانبين والخطوط المتعامدة على السوق بأنَّ المفهوم العام لتصميم الخانات والمكون من ساحة وسطية وغرف محيطة به على مستوى طابقين والمتعارف عليه في الدولة المملوكية قد تم تحقيقه في هذا الحيز من المساحة (مخطط رقم 12) مما يشير بعدم وجود عوائق للبناء، وبأنَّ هذه المساحة قد تم تهيأتها خصيصاً لاقامة خان تنكز عليها. هذا وقد تم الانتهاء من المرحلة الثانية لمجمع تنكز المعماري، التي اشتملت على سوق القطانين وباب القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين في عام 737هـ/ 1336–1337م (مخطط رقم 13) بمعنى أنَّ هذه المرحلة لتعمير هذا القسم من المخطط كان عملاً متكاملاً، شكل جزءاً من اعادة التخطيط الحضري الكامل لهذه المنطقة (مخطط رقم 14).



مخطط رقم 12 : مخطط اعادة ترسيم المسقط الافقي لخان تنكز

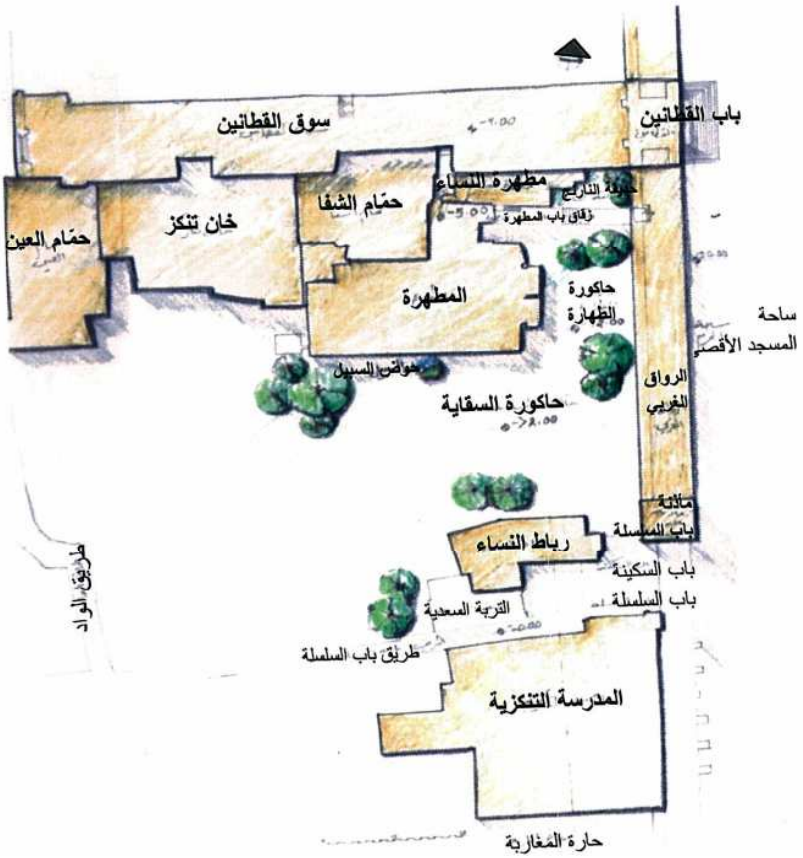
من Burgoyne ص284



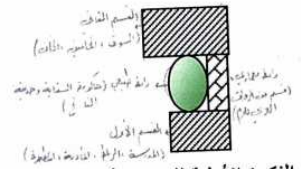
مخطط رقم 13

المسقط الأفقي لسوق القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين

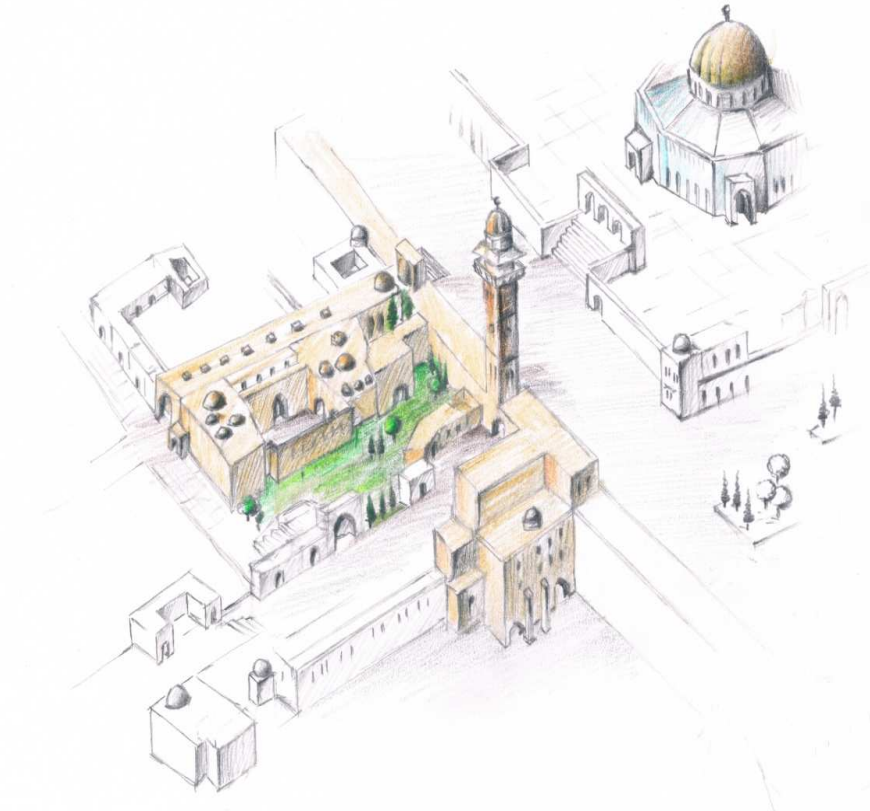
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 274, fig. 24.2



مخطط رقم 14: **المخطط الكامل لمجمع التنكزية**
(الموقع العام وثلاثي الابعاد)
اعادة تخطيط كامل الموقع والمقترح في فترة الامير تنكز (رسم توضيحي للباحثة)



الفكرة الأولية للمجمع بأشكال هندسية





مخطط رقم 15 : مخطط موقع المباني المملوكية في حدود منطقة الدراسة (للباحثة)

3.2.1 الوصف المعماري لعمائر الأمير تنكز:

بعد التحليل لهيكلية التخطيط الحضري للمنطقة التي اختارها الأمير تنكز لإنشاء مجمعه الخيري في مدينة القدس، والذي قد اضاف جزءاً بارزاً وهاماً للنسيج المعماري للمدينة المقدسة من خلال ابنية شُيدت على أُسس معمارية ثابتة فامتازت بقمة الاتقان وبطابعٍ زخرفيٍ راقٍ ومتميزٍ، نستطيع أن نصف بايجاز هذه المنشآت وتخطيطها المعماري حتى يتم استكمال موضوع الدراسة والتحليل. فمن هذه العمائر تندرج:

3.2.2 المدرسة التنكزية:

تقع بالجهة الغربية من الحرم القدسي وجزئياً فوق الرواق الغربي، عند باب الحرم المعروف بباب السلسلة، على جنوبي طريق باب السلسلة.

الواجهة الشمالية للمدرسة تطل على ساحة صغيرة بباب السلسلة، والواجهة الجنوبية كانت تحدها حارة المغاربة، أما الواجهة الشرقية فتُشكل جزء من الجهة الغربية للحرم، والواجهة الغربية تُشرف على المباني المجاورة في البلدة القديمة، ومنها دار الحاج ايوب المصري.

أمر ببناء المدرسة الأمير سيف الدين تنكز في سنة 728هـ/ 1327م عندما زار القدس بعد عودته من زيارة القاهرة، وتم الانتهاء من تشييد المدرسة سنة 729هـ/ 1328-1329م[1].

بناء المدرسة عبارة عن مجمع معماري مكون من ثلاثة طوابق، الأرضي وطابق الميزانين (المتوسط) والطابق العلوي، ويُقسم الطابق الأرضي الى احد عشر غرفة للفقهاء الحنفية والطابق العلوي الى احد عشر غرفة للصوفية. وكان للمدرسة دورها في الحركة الفكرية حيث اشتمل هذا المجمع على مدرسة ومسجد وخانقاة للصوفية ودار حديث ودار للأيتام وهي دار للقرآن[2]. كما وضمَّ المجمع رباطاً للمسنات من النساء، يقع منفصلاً عن بناء المدرسة في الناحية الشمالية الغربية المقابلة للمدرسة.

تغلب الاستطالة على مخطط المدرسة (مخطط رقم 16)، حيث يبلغ طوله من الشمال الى الجنوب 28م، وعرضه من الشرق الى الغرب 25م. وللمدرسة مدخلان؛ يقع احدهما على الحائط الشرقي للمدرسة مطل على ساحة المسجد، في نهاية الرواق الغربي، وهو باب صغير يُصعد منه بدرج صغير في حدود سماكة جدار الحائط باتجاه الشمال الى أعلى المدرسة والى سكن الصوفية[3].
أما المدخل الرئيسي فيقع على الواجهة الشمالية للمدرسة، وهو مدخل ذا بوابة عالية مبنية بالأحجار المتعاقبة الألوان الأبيض والأسود والأصفر (الأبلق)، تقوم على كل جانب من جانبيها مكسلة حجرية. ويعلو البوابة صنج حجرية معشقة وفوقها لوحة من الرخام عليها شريط كتابي يبين اسم الباني وسنة البناء منقوش بالخط النسخي المملوكي للكلمات التالية: " بسم الله الرحمن الرحيم. أنشأ هذا المكان المبارك راجياً ثواب الله وعفوه المقر الكريم السيفي تنكز الملكي الناصري عفا الله عنه وأثابه. وذلك في شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة". يتخلل الشريط الكتابي شعار الأمير تنكز(الكأس) في ثلاث مواضع، أولها فوق المدخل وثانيها على كلا جانبي

---

[1]. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج1، ص163؛ العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص119؛ العلمي، المدارس المملوكية في القدس، ص29- 30؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص110؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 223.

[2]. دار الأيتام والمقصود بها دار القرآن، ومن شروط دور القرآن أن يكون بها ثلاثون صبياً يتيماً او أقل يتلقون القرآن ويدرسون القراءات (عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، ج2، ط1، ص179).

[3]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، منارات مقدسية، ص81؛العسلي، وثائق مقدسية، ص110؛ Burgoyne, Ibid, p. 223 p. 229؛ Rosovsky, City of the Great King, p. 399.

الشريط في تجويف المدخل. ثم يعلو نقش التأسيس صنج حجرية معشقة أخرى، ثم يعلوها ثلاث صفوف من المقرنصات وتنتهي الى أعلاها نصف قبة مدببة بشكل محارة حجرية مزخرفة باشعاعات منبثقة من ثلاثة مراكز تمثل أشعة الشمس عند شروقها[1]. مرفق بالطابق الأرضي سلسلة من الدكاكين على الواجهة الرئيسية الشمالية للمدرسة مطلة على طريق باب السلسلة، وهي غير نافذة من داخل المدرسة.

يؤدي المدخل الى دركاه أو موزع وعلى شرقي الدركاه يوجد فراغ طولي مضاء بنافذة على حائط المدرسة الشرقي، ويفتح من الدركاه باب يقود الى داخل المدرسة المصلبة الشكل حيث تُعتبر المدرسة من أفضل الأمثلة في مدينة القدس للمدارس ذات التخطيط المتعامد (Cruciform)، حيث تتعامد أربعة ايوانات بشكل محوري على صحن مكشوف، يتوسطه حوض مثمن الشكل ونافورة من المرمر، ويأتي الضلع الشمالي للحوض بشكل مُقعَّر تأكيداً على المحراب المواجه في الجهة الجنوبية للمدرسة. تختلف أبعاد هذه الايوانات نتيجة للمساحة المنحصرة للموقع والمحددة من الناحية الشمالية بطريق باب السلسلة والمصطبة الأيوبية لباب السلسلة ومن الناحية الجنوبية بحد حارة المغاربة، ومن الشرق بحد جدار الحرم الغربي ومن الغرب بحد آثار أبنية قائمة سابقة تم استخدام جزء منها كغرف في المدرسة لاحقاً. وبالتالي فإنّ الايوان الجنوبي كان أكبر هذه الايوانات بُعداً، حيث بلغ عمقه 7.28م، ويُعتبر هذا الايوان هو مسجد المدرسة حيث يتمركز محراب على حائطه الجنوبي، كما تفيد الكتابة المنقوشة على لوحة الرخام على حائطها القبلي بعبارات منها الكلمات التالية: ".... البيت الحرام أول مسجد وضع على وجه الأرض واختار لعبادته مواطن لاقامة السنن والفرض. وجعل هذا المسجد جار المسجد الأقصى ونعم الجار الطاهر واجرى لبانيه جزيل الثناء والثواب الوافر لقوله تعالى ﴿**إِنَّمَا يُعَمِّرُ مَساجد الله مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر**﴾ اختار لعمارة بيوته من رضي فعله وقوله وأطال بالسعد والبذل طوله ....".

يفتح الايوان الجنوبي (القبلي) على غرفتين، الغرفة الشرقية واستخدمت كغرفة كاتب المحكمة عندما استخدمت المدرسة كمقر لمحكمة القدس الشرعية في الفترة العثمانية. والغرفة الغربية كانت مكتبة للمدرسة ثم قاعة للمحكمة لاحقاً. كما يُحيط من الشرق الايوان الشرقي، وهو أقل بُعداً عن الايوان الجنوبي حيث يبلغ عمقه 6.92م، كان يجري فيه أمر تدريس طلبة الحديث[2]. له شبَّاكان

---

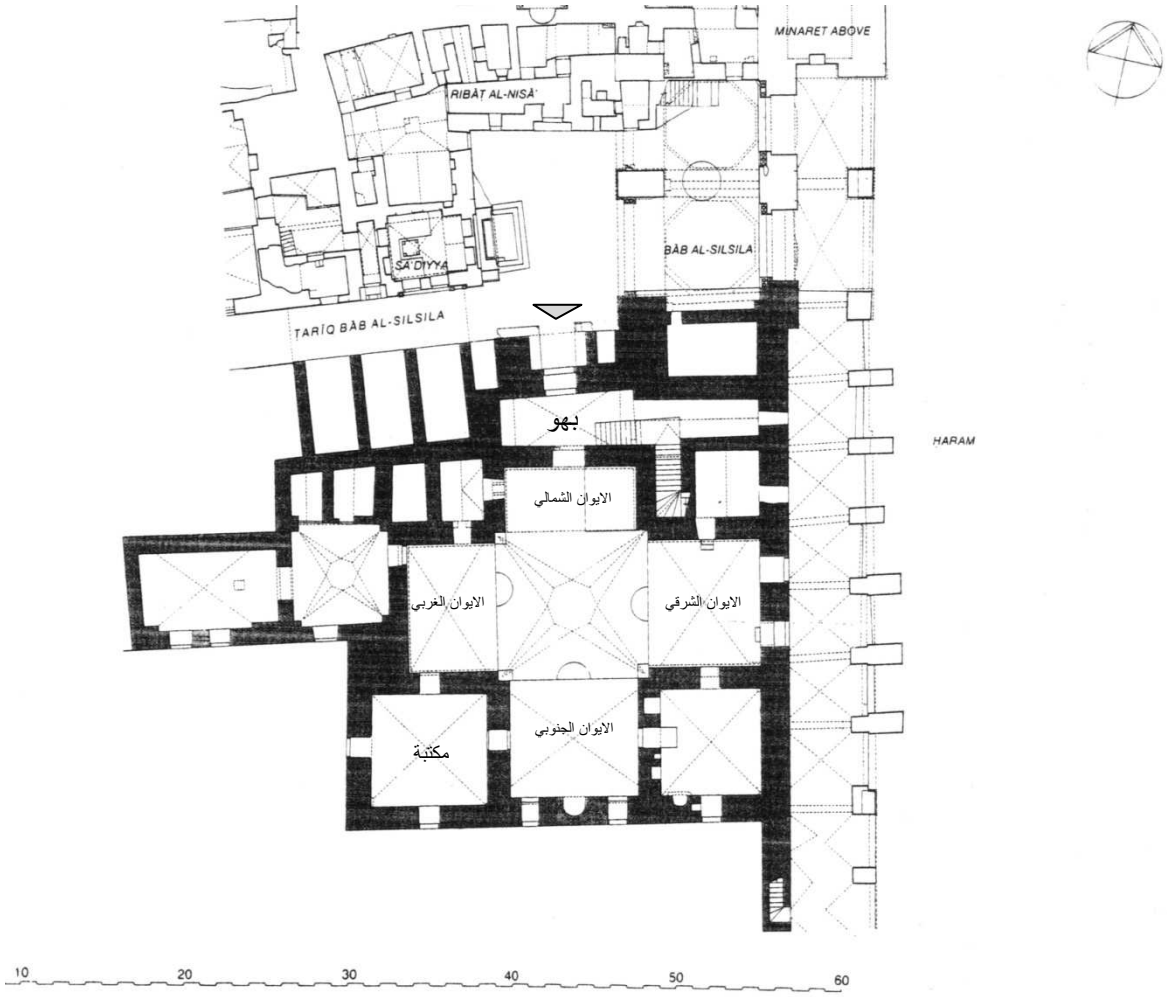
[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 230، العسلي، معاهد العلم، ص124؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص165؛ نجم، كنوز القدس، ص186؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، منارات مقدسية، ص81؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص244؛ ابوخلف، من معالم الحضارة الاسلامية، ص85.

[2] Burgoyne, Ibid , p. 223 pp. 231-232؛ العسلي، معاهد العلم ، ص122–124؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص166؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، المصدر السابق ، ص81؛ العلمي، المدارس المملوكية، ص29 ص32؛ Rosovsky, City of the Great King, p. 399 p. 401.

على رواق الحرم الغربي، ذكرهما العمري بأنَّ ابوابهما من الآبنوس والعاج[1]. وفي الجهة المقابلة يقع الايوان الغربي الذي يقل عمقه بسبب تحديد لمساحته بالبناء الغربي القائم والذي تم استخدام الغرفتين المتتاليتين للايوان كجزء من غرف المدرسة، وتفتح احداهما على غرفتين من الناحية الشمالية. أما الايوان الشمالي فهو أصغرها مساحةً، حيث أنَّ بُعده قد حُدد بمدخل المدرسة والبهو(الدركاه) ويفتح الى غرفة من الناحية الغربية. يتم الصعود بواسطة درج حجري شرقي الدركاه الى طابق الميزانين، الذي يتألف من ممر وأربع غرف فوق الزاوية الشمالية الشرقية للمدرسة، ويتم اضاءتها وتهويتها عن طريق فناء وسطي مستطيل الشكل مفتوح الى أعلى. يستمر الصعود من نفس الدرج الى الطابق العلوي الذي شغل الخانقاة للصوفية. وقد امتد جزء من هذا الطابق فوق الرواق الغربي والجزء الآخر فوق طرف المدرسة الشمالي. حيث شغلت الغرف الكبيرة الشرقية غرف الصوفيين للتعبد، لإطلالتها على الحرم وساحته مباشرة، أما الغرف الأصغر في الناحية الشمالية الغربية فاستخدمت كغرف لسكن ومعيشة الصوفيين. اشتملت المدرسة كذلك على مطبخ ومطهرة وحمَّام وبئر لجمع مياه الأمطار[2].

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163.

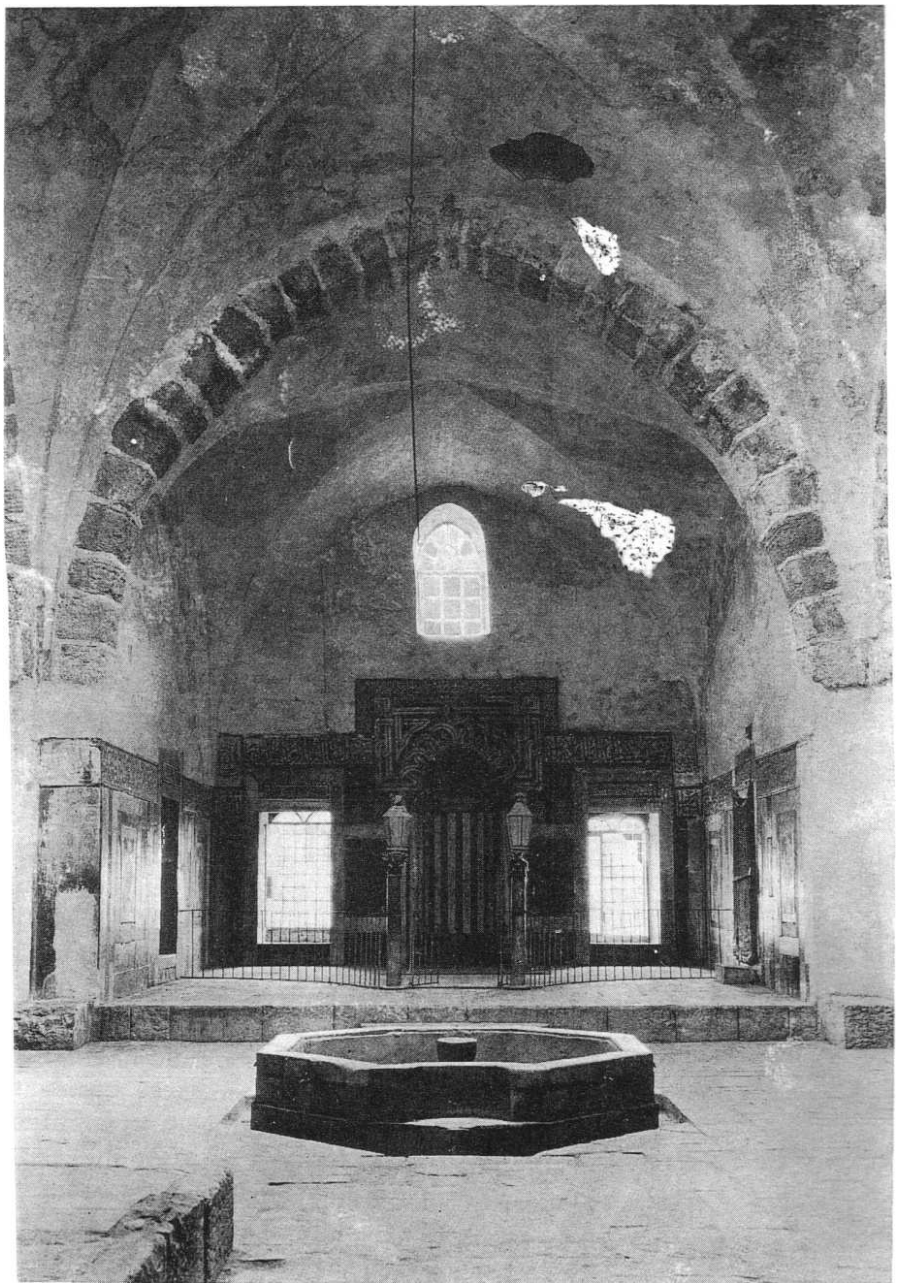
[2]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 223 pp. 231-234 p. 237؛ العسلي، معاهد العلـم ، ص122–123؛ وزارة الأوقـاف، منارات مقدسية، ص 81.



مخطط رقم 16

المسقط الافقي للطابق الأرضي للمدرسة التنكزية

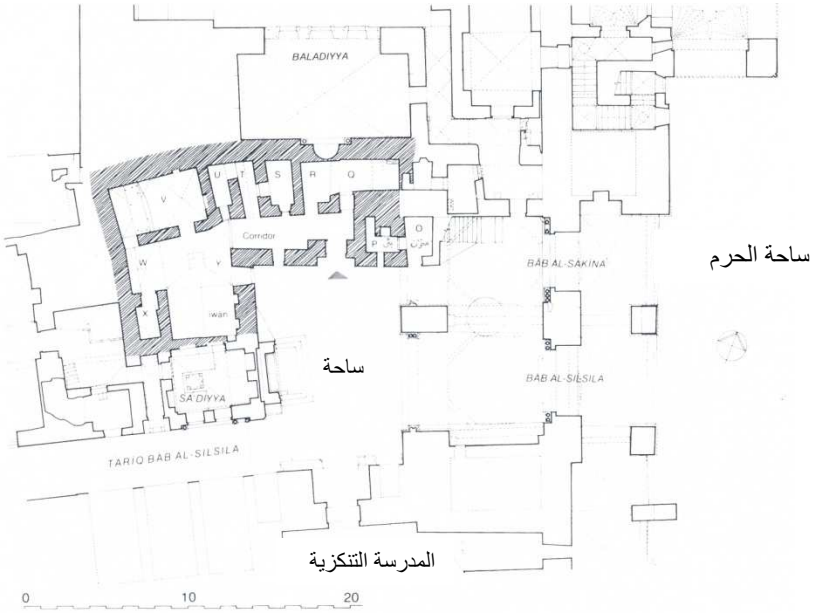
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 224, fig. 18.2



صورة 6: المدرسة التنكزية. منظر داخلي باتجاه الايوان الجنوبي حيث يظهر الصحن والمحراب
من Rosovsky, City of the Great King, 400, fig. 50

3.2.3 رباط النساء:

كما كان ملحقاً بالمدرسة رباطاً مجاوراً لها في الجهة الشمالية الغربية وهو **رباط النساء**، ويقع شمالي طريق باب السلسلة. مُكون من ايوانين وعدة غرف (مخطط رقم 17)، خُصص لرعاية اثنتي عشرة امرأة من المسلمات المسنات الفقيرات، احداهن تكون شيخة لهن، واخرى قيمة وبوابة، ولكل منهن حقٌ وواجبات عليهن القيام بها، وكن يتجمعن للصلاة وتلاوة القرآن والدرس.



مخطط رقم 17

المسقط الافقي للطابق الأرضي لرباط النساء

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 242, fig. 19.3

وبالتالي فإنَّ المدرسة التنكزية قد شملت العديد من الأقسام ولذلك عُرفت بمجمع التنكزية، حيث كانت مدرسة فيها المدرِّس والفقهاء، كما فيها داراً للحديث يرأسها شيخ المحدثين، والمحدثون هم الطلبة. وفيها الخانقاة للصوفية ويرأسهم شيخ الصوفية، وفيها تمَّ رعاية الأطفال الايتام وتعليمهم. كما وفيها رباط النساء وترأسهن شيخة الرباط. وقد كانت اعداد الطلبة الفقهاء أو المحدثون أو الصوفيون محددة وحسب شروط معينة، تم ذكر جميع هذه المعلومات في نص وقفية الأمير تنكز[1].

وقد استمرت المدرسة في أداء دورها في الحركة الفكرية في القدس حتى أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في عهد السلطان قايتباي، حيث اتخذت مركزاً للقضاة والنواب وديواناً للقضاة ودار سكن لهم، وكان قد سكن فيها السلطان فرج اثناء اقامته في مدينة القدس. ثم عادت لتقوم بدورها الفكري في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. أما في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي في فترة الدولة العثمانية فقد استخدمت مقراً لمحكمة القدس الشرعية لمدة حوالي 200 سنة حتى أوائل الانتداب البريطاني. ثم اتخذت داراً لسكن رئيس المجلس الاسلامي الأعلى الحاج أمين الحسيني في عشرينيات القرن العشرين،

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص113–116.

ثم حُولت الى مدرسة شرعية حتى سنة 1969م حين اتخذتها السلطات الاسرائيلية مقراً لحرس الحدود، ولا تزال كذلك حتى الآن[1].

وبهذا فإنَّ لدور المدرسة التنكزية العظيم في الحياة الفكرية، ولبناءها المتميز بالفن المعماري الرائع، أنْ وصفها مجيرالدين الحنبلي بأنها" مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بناءها..."[2].

3.2.4 مأذنة (منارة) باب السلسلة:

تقع مأذنة باب السلسلة في الجهة الغربية من الحرم الشريف بين باب السلسلة وباب السكينة وبين المدرسة الأشرفية. وقد أعاد تعميرها الأمير تنكزعام 730هـ/ 1329–1330م، وذلك حسب النقش التذكاري الموجود على الجهة الشرقية لقاعدة المأذنة والذي ينص على:" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه المنارة المباركة في ايام مولانا السلطان الملك الناصر .... في سنة ثلاثين وسبعمائة".

يأتي بناء المأذنة على نظام بناء المآذن المملوكية في بلاد الشام حيث تتكون من قاعدة حجرية مربعة الشكل طول 4م وعرض 4م (مخطط رقم 18)، يقوم فوقها برج المأذنة المقسم الى طوابق وتظهر من خلال شريط مزخرف من الحجر البارز يفصل كل طابق عن الآخر، فالطابق الذي يلي القاعدة مربع الشكل أيضاً توجد به فتحات طولية على ثلاث جهات لادخال الضوء والهواء، ثم يأتي طابق آخر فوقه مربع الشكل تقع على جوانبه الأربع تجويفات فيها فتحات طولية تعلوها مقرنصات للزخرفة، وفوق هذا الطابق شرفة حجرية للمؤذن مربعة الشكل مرتكزة على كوابل حجرية ويحيط بها درابزين خشبي وثمانية أعمدة من الرخام، وفي وسطها المأذنة وتعلوها القبة. يأتي طول المأذنة ما بين 20 و30م وهذه النسبة بين ارتفاع المأذنة وعرضها يجعلها ترتفع بشكل جميل ومتناسق[3]. وتأتي أهمية هذه المأذنة كما يصفها مجيرالدين الحنبلي بأنها" المختصة بالأماثل من المؤذنين وعليها عمل المسجد واعتماد بقية المنائر"[4]، حيث يؤذن فيها أولاً للصلاة فتُعطى

---

[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem , pp. 71-72 p. 228 p. 240؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس ، ص127–130؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص81–82؛ نجم، كنوز القدس، ص185–186؛ العلمي، المدارس المملوكية، ص32–35؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي، ص514؛ الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص305.

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387؛ عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، ج2، ط1، ص43.

[3]. Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 48 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 244؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم1، ص399؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص59.

[4]. الحنبلي، الانس الجليل، ج2، ص379.

الاشارة للمؤذنين الآخرين للآذان. وقد عُرفت المأذنة لاحقاً بمنارة المحكمة وذلك عند اتخاذ المدرسة التنكزية مقراً لمحكمة القدس في العصر العثماني[1].



مخطط رقم 18 المسقط الأفقي لمأذنة باب السلسلة

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 246, fig. 20.3





صورة 7 ، 8 : مأذنة باب السلسلة

من الزاوية الشمالية الشرقية ومن الزاوية الغربية (تصوير الباحثة)

[1]. نجم، كنوز القدس، ط1، ص187.

3.2.5 السقاية (سقاية العادل):

تقع في الجهة الغربية من الحرم جنوبي سوق القطانين وشرقي حمّام الشفا. أنشأها الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن ايوب عام 589هـ/ 1193م، حسب النقش بالخط النسخي الأيوبي فوق بوابة تؤدي الى المطهرة. وقد عُرفت بالسقاية في العصر الأيوبي وبالمتوضأ في العصر المملوكي ثم بالمطهرة في العصر العثماني.

يتم الدخول الى السقاية من خلال باب يُعرف بباب السقاية أو باب المطهرة، والواقع على الحائط الغربي بين باب القطانين وباب السكينة. وتقع عند آخر زقاق المطهرة السقاية وكان فيها بئر وبركة وسقاية (سبيل) لسقاية الناس وليستعملها المصلون للوضوء. وتُقسم الى قسمين: مطهرة للرجال مكونة من عدة غرف ومطهرة للنساء في الطابق العلوي وفيها مكان للسكن.

وقد تم تعمير السقاية بفضل أحد رجال السلطان المنصور قلاوون فعُرفت لذلك أيضاً بالسقاية المنصورية. وقد قام بتعميرها أيضاً علاء الدين البصير في فترة حكم الظاهر بيبرس في سنة 665هـ/ 1266–1267م. وحسب ما ذُكر في وقفية الأمير تنكز عام 730هـ/1329م فإنَّ الأمير تنكز قد قام بتعمير المطهرة وعُرفت بالمطهرة التنكزية، وأنها قد اشتملت على سبعة غرف منها مستحم وبها حوض حجر، ولكل غرفة حوض ماء يجري اليه الماء من قناة العروب[1]. كما ويقع جنوبي السقاية حوض السبيل الذي أنشأه تنكز ويُعرف بسبيل تنكز وقد تم ذكره في الوقفية[2].

3.2.6 سوق القطانين:

يقع سوق القطانين في الجهة الغربية من الحرم القدسي عند باب القطانين، ويمتد هذا السوق من الشرق الى الغرب حيث أنَّ له مدخلان؛ الأول من طريق الواد بالجهة الغربية، والثاني من ساحة المسجد الأقصى الشريف من الجهة الشرقية.

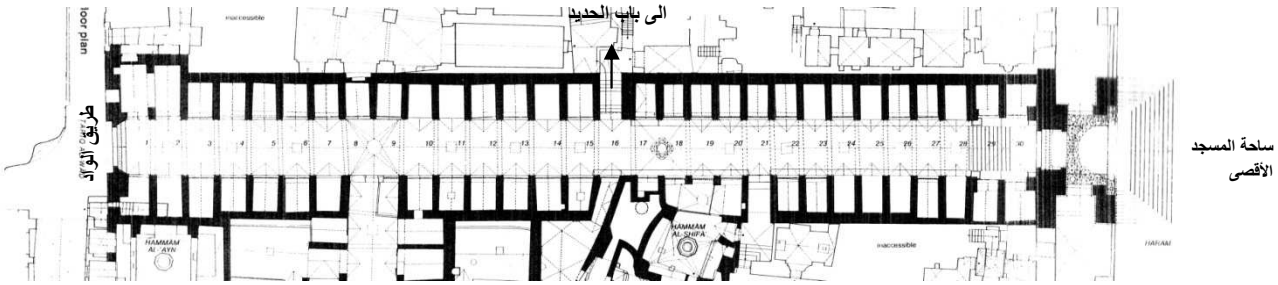
أنشأه الأمير سيف الدين تنكز سنة 737هـ/ 1336–1337م عندما أعاد بناء هذه المنطقة حيث أتمَّ بناء الرواق الغربي لساحة المسجد، من منارة باب السلسلة الى باب الناظر عام 737هـ/ 1336م، حيث أنَّ الجزء الشمالي من الرواق الغربي من باب الناظر الى باب الغوانمة كان قد بُني في عهد الملك الناصر محمد في 707هـ/ 1307م، والجزء الجنوبي قد بُني في عام 713هـ/ 1313م.

---

[1]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p. 188 ؛Hawari, Ayyubid Jerusalem, pp. 52-53؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص224–229.

[2]. العسلي، المصدرالسابق، ص241–242؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص112.

طول هذا السوق يصل الى حوالي المائة متر، وعرضه عشرة أمتار (مخطط رقم 19). يشتمل على عدد كبير من الدكاكين المتشابهة البناء والحجم على كلا الجانبين، يصل عددها حوالي 50 دكاناً وحاصلاً، خُصصت لبيع الأقمشة القطنية والحريرية التي كانت تحملها القوافل التجارية من الهند عن طريق بغداد والبصرة والموصل. ويقع فوق صفيّ الدكاكين طابق علوي يشتمل على غرف للسكن تُعرف بالربع، وهي منفصلة تماماً عن الدكاكين حيث يتم الوصول اليها عبر أدراج عدة متفرقة سواء في الجهة الشمالية أو الجنوبية للسوق تؤدي الى اسطح يتم النفاذ منها الى داخل الربع. وتتم إضاءة هذه الربع وتهويتها من خلال فتحات مطلة على داخل السوق. يقع بين صفيّ الدكاكين ممر طولي مسقوف على شكل قبو نصف برميلي محمول على عقود مدببة الشكل، ويتخلله فتحات صُممت لأجل السماح للضوء والهواء ليتخللان السوق، باستثناء الجزء الشرقي من السوق والملاصق لباب القطانين فإنه مسقوف بطريقة الأقبية المتقاطعة. كما تمّ تزيين السقف بالمقرنصات التي تتدلى من بعض الفتحات المجوفة[1]. وينفذ من داخل السوق في الجهة الشمالية في منتصف السوق عدة درجات تؤدي الى طريق باب الحديد. وفي الجهة الجنوبية منفذ الى المطهرة ومداخل الى حمّام الشفا وخان تنكز[2].



مخطط رقم 19

المسقط الافقي لسوق القطانين

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 274, fig. 24.2

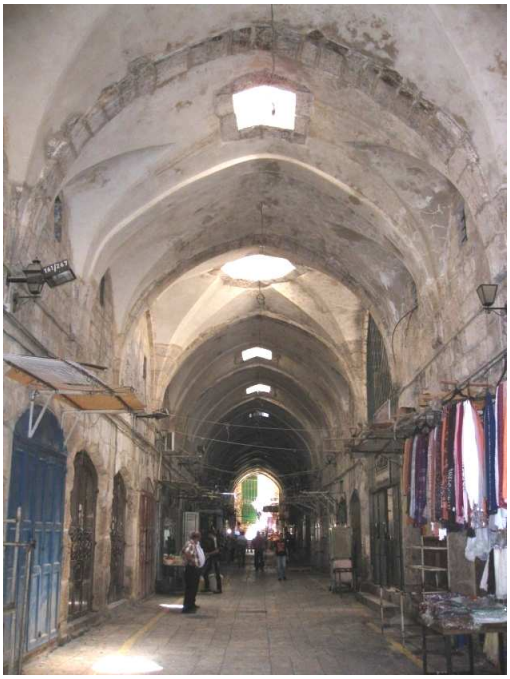
استمرت أهمية هذا السوق في العصر المملوكي كمحطة تجارية اساسية، إلا أنَّ هذه الأهمية تضاءلت عام 903هـ/ 1497م بعد تحول طريق التجارة إثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى أوروبا، فقلَّ على أثرها الاستخدام الوظيفي للسوق. وقد تمَّ ترميمه عدة مرّات في الفترات اللاحقة[3].

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 88 p. 280؛ Le Strange, p, p.188 p.191؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم 1، ص289؛ العسلي، من آثارنا، ص57؛ نجم، كنوز القدس، ص195؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص71؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص22؛ ابوخلف، من معالم الحضارة الاسلامية، ص110؛ Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 50.

[2]. Burgoyne, Ibid, p.279

[3]. العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص58؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص204.



صورة 9: منظر عام لسوق القطانين باتجاه الشرق
تصوير الباحثة



صورة 10: احدى فتحات التهوية والاضاءة في السوق
تصوير الباحثة

يُعتبر هذا السوق من أهم اسواق مدينة القدس حيث وصفه الحنبلي بأنه "سوق في غاية الارتفاع والاتقان، لم يوجد مثله في كثير من البلاد". كما وشأن **باب القطانين** الذي أتمَّ عمارته الأمير تنكز سنة 737هـ/ 1336م وذلك حسب النقش التذكاري فوق الباب والذي ورد نصه كالآتي: " بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا الباب المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون بالمباشرة العالية السيفية تنكز الناصري أعز الله انصاره في شهور سنة سبع وثلاثين وسبع مائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله". وقد وصفه مجيرالدين بأنه" باب عظيم بناؤه في غاية الاتقان"[1].

وقد سُمي باب القطانين بهذا الاسم نسبة الى السوق الذي ينتهي إليه كما عُرف ببوابة تجار القطن، يُنزل إليه بعشر درجات من داخل ساحة الحرم، وله مصاطب على جانبيه، وهو متقن العمارة والزخرفة حيث أنه باب مرتفع يتكون من مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس المذهب المخرم، وفوقه الشريط الكتابي ويأتي فوقه عقد ثلاثي التجويفات ملون بأحجار سوداء وبيضاء، ويقع فوقه مجموعة من المقرنصات فوقها نصف قبة تنتهي الى عقد حجري مدبب الشكل من الأحجار الحمراء والبيضاء اللون[2]. أما بوابة سوق القطانين الغربية فقد أُعيد بناؤها على آثار بوابة أُنشأت سابقاً، ويظهر ذلك من خلال طبيعة الأحجار المستخدمة سابقاً والتي استخدمت عند

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص401 ص 383؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص100.

[2]. Briggs, Muhammadan Architecture, p. 106؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص161–162؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، ص290؛ الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص404.

إعادة التعمير. والبوابة تتشكل من قوس مدبب الشكل بتجويف الى الداخل وتحته أحجار مبنية بشكل دائري تستند على قوس مبسّط الشكل، على دعامة من مجموعة احجار ينفذ تحتها المدخل الذي يرتفع مقدار أربع درجات عن طريق الواد، ولا يوجد له أبواب حيث أنه يؤدي الى السوق، فقط ابواب الدكاكين تغلق كما باب القطانين الشرقي كان يُغلق ليلاً وتحت الحراسة.





صورة 11: المقرنصات على السقف أمام حمام الشفا
ويظهر اسم المهندس عليها بالنص: محمد بن أحمد بن غليش رحمه الله
(تصوير الباحثة)

تمَّ تنفيذ بناء باب وسوق القطانين من قِبَل المهندس السوري محمد بن أحمد بن غُليش الشامي من دمشق، حيث يظهر اسمه على زخارف المقرنصات الموجودة على السقف في داخل السوق، عند مدخل حمام الشفا. وله عدة أعمال في القاهرة مشابهة لطراز عمارة سوق القطانين[1].

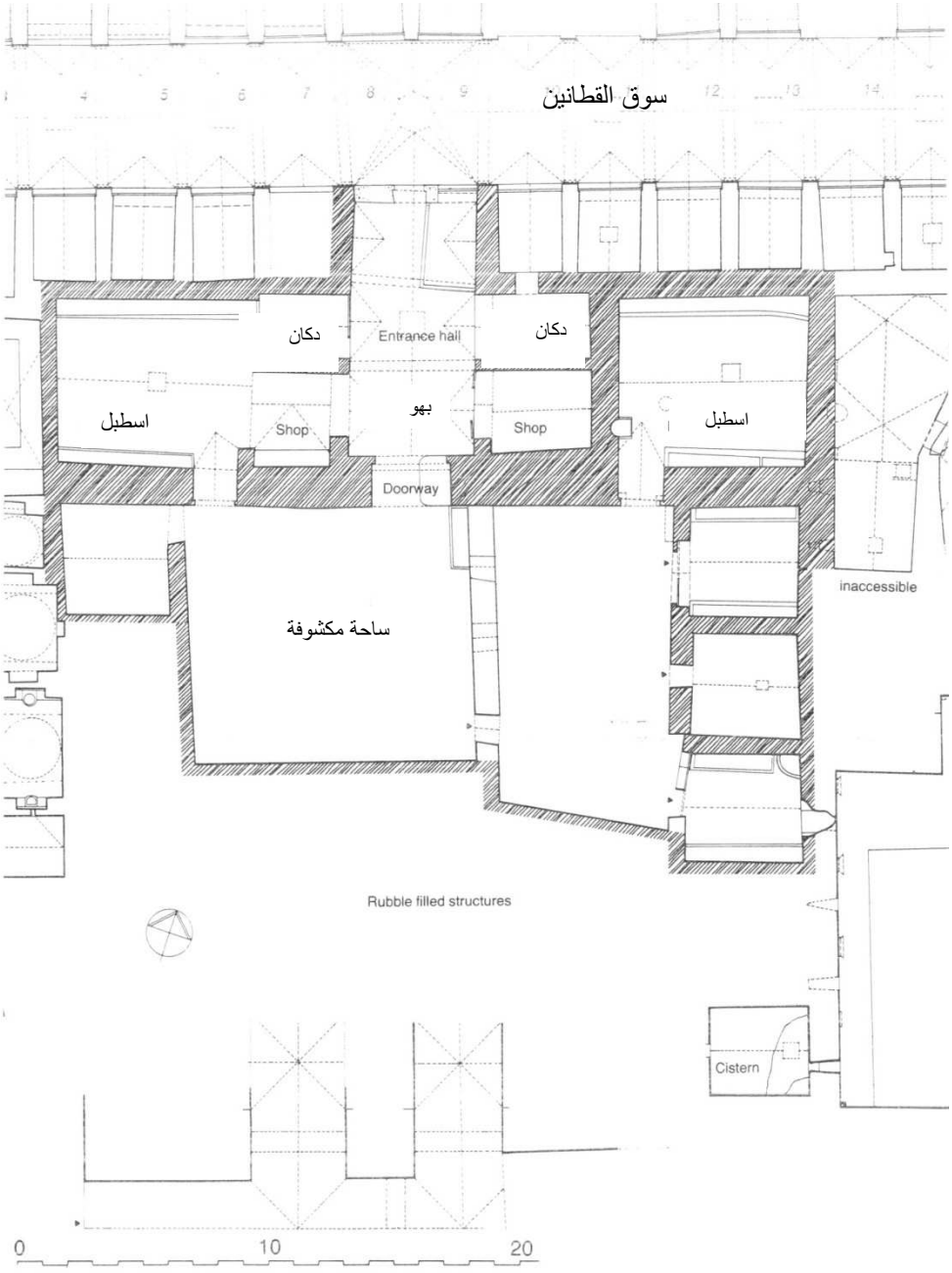
3.2.7 خان تنكز:

لم يكن سوق القطانين مجرد قيسارية، إنما اشتمل على خان المعروف بخان تنكز وحمَّامي الشفا والعين. أما **خان تنكز** فيُعرف أيضاً بخان اوتوز بير[2]، ويقع في الجهة الجنوبية من السوق على بُعد سبعة حواصل من مدخل السوق الغربي. أمر ببناءه الأمير تنكز سنة 737هـ/ 1336م، وتبلغ مساحته 32x22م^2 . تخطيط الخان تبع التصميم العام للخانات من حيث صف الغرف على طابقين حول صحن مكشوف (مخطط رقم 20). ويتم الدخول اليه من خلال بوابة من داخل سوق القطانين تؤدي الى بهو مستطيل الشكل يقع على كلا جانبيه دكاكين واسطبلات يغطيها سقف برميلي الشكل. وفي نهاية البهو من الناحية الجنوبية مدخل عرضه 2.76م يؤدي الى الصحن المكشوف وهي ساحة مكشوفة تتجمع حولها عدد من الغرف على الطابق الأرضي والعلوي، ونُقش فوق هذا المدخل نص كتابي يبين اسم الباني وسنة البناء وشعار(رنك) الأمير تنكز؛ الكأس داخل اطار دائري الشكل، في ثلاث مواضع حيث يظهر على جانبي الدعامة فوق المدخل وفي وسطها، وتقع

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 98 p. 279.

[2].اوتو زبير Utuz Bir : كلمة تركية تعني الرقم 31(Bahat, The Illustrated Atlas of Jerusalem, p. 115)

فوق المدخل نافذة تسمح بمرور الضوء الى البهو. أما الطابق العلوي فيتألف من مجموعة من الغرف فوق البهو وعلى امتداد السوق وحول الساحة المكشوفة، وقد استخدمت لسكن ومبيت نزلاء الخان[1].



مخطط رقم 20

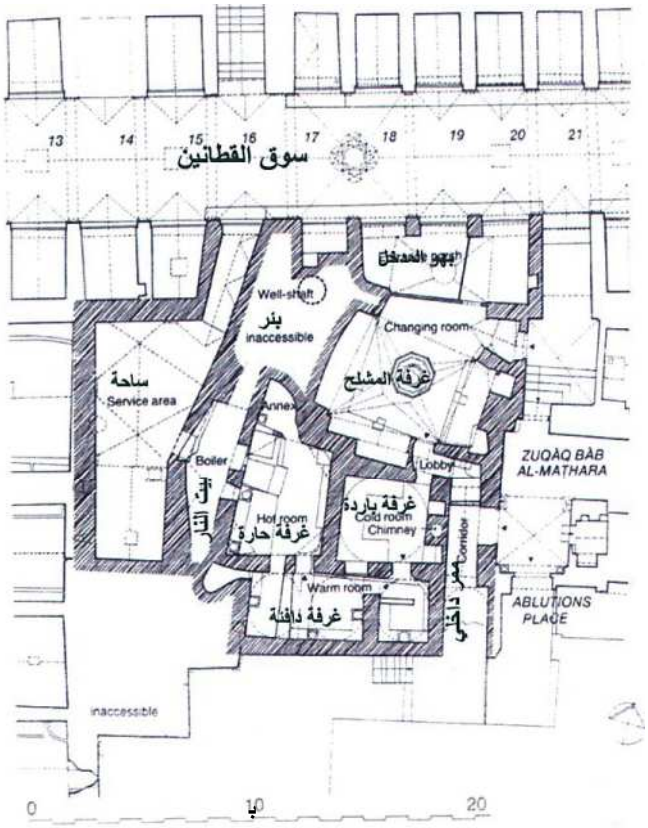
المسقط الأفقي للطابق الأرضي لخان تنكز

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem,283, fig. 24.6

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 277 p.280؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص63 ص65 ص69 ص72؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص148.

3.2.8 حمّام الشفا:

يتوسط الخان الحمامين الذين أنشأهما الأمير تنكز، حيث يقع حمّام الشفا شرقي الخان وحمّام العين غربه. تمّ انشاء **حمّام الشفا** في سنة 737هـ/ 1336م، وقد عُرف بهذا الاسم للاعتقاد بأنَّ من يستحم فيه يشفى من مرضه، نظراً لما به من مياه معدنية تشفي الأمراض الجلدية، وهذا الاعتقاد مرتبط باسم سيدنا ايوب حيث يُقال بأنه قد استحم في هذا الحمّام وشُفي. كما عُرف بحمّام عاشورا، وهو العاشر من محرم حيث استحب الاستحمام بهذا الحمّام للاعتقاد بأنَّ مياهه تختلط مع مياه زمزم في هذا اليوم، فتصبح المياه لها قدرة هائلة على شفاء الأمراض[1].



مخطط رقم 21
المسقط الأفقي لحمام الشفا
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 282, fig. 24.5

كانت تُستمد مياه الحمّام من برك سليمان خلال قناة العروب من ينابيع وادي العروب. ويُعتقد بأنه عند انسداد هذه القناة فإنَّ ماءه كانت تُستمد من آبار تحت قبة الصخرة، حيث أنَّ هناك اعتقاد بأنَّ هذه الآبار تحت الصخرة، تخرج منها المياه في أربع اتجاهات، أحدهما باتجاه الجنوب الى حمّام الشفا، وربما كذلك أنَّ مياهه كان يتم توفيرها من ماء عين سلوان[2].

يتبع نظام تخطيط الحمّام (مخطط رقم21) نظام الحمامات الرومانية من حيث التدرج في التنقل بين غرف الحمّام، حيث يتم الدخول الى الحمّام من مدخله الرئيسي الواسع الواقع في ممر سوق القطانين وهناك مدخل آخر جانبي من السوق أيضاً، من الناحية الشرقية ينفذ كذلك الى المشلح (غرفة او قاعة تغيير الملابس) التي يتوسطها حوض ماء بارد رخامي ثُماني الشكل فيه مجموعة من الفتحات تشكل مخارج مياه النافورة، ويمتد على جوانبه الثلاثة مصاطب حجرية يستخدمها المستحمون للجلوس[3]. ثم يتم الانتقال عبر ممر الى الغرفة الباردة ثم الى غرفة شبه منفصلة

---

[1]. العسلي، من آثارنا، ص185 88. Dow, The Islamic Baths of Palestine, p.

[2]. العسلي، المصدر السابق، ص179؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص245؛ Dow, Ibid, p. 29.

[3]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111–112 ؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص142؛
Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p.282 pp. 284-285.

بجدار على ارتفاع منخفض عُرفت ببيت الدواء حيث تتم فيها المداواة، ثم الى الغرفة الدافئة ثم الحارة والتي تُعرف بالحمّام السخن أو ببيت النار، ومن الغرفة الحارة هناك غرفتين، شمالية فيها بركة ماء ساخنة عُرفت بخلوة أيوب؛ حيث استخدم الحمّام وشُفي فعُرفت هذه الغرفة باسمه، أما الغرفة الجنوبية فعُرفت بخلوة النبي داوود. ويغطي هذه الغرف اسقف مقببة يتخللها فتحات فخارية مغطاة بالزجاج بعضه ملوَّن، حيث يتخلل الضوء عبر الغرف من خلالها ولا تسمح بإخراج الحرارة. وتشتمل الغرف على كوات وخزائن ومصاطب واجران لاستخدامات المستحمين، وجميع أرضيات الغرف مغطاة بالرخام الملون[1].

ولتوفير المياه الساخنة في الحمّام وتسخين الأرضيات في غرف الحمّام تقع غرفة التسخين (الأقميم أو الاقمين)[2] بجانب الغرفة الساخنة وتحتها الموقد أو الفرن، ويتم تخديمها من خلال مدخل آخر منفصل من ممر السوق يقع غربي الحمّام وتُوضع فيه الوقود في جانبه الجنوبي. وللتخلص من المياه التي تم استخدامها في الحمام يتم تجميعها عبر قنوات على جوانب الغرف، ومنها الى مجمع رئيسي في الناحية الجنوبية الشرقية للغرفة الدافئة، والذي يُشكل أيضاً مكان تصريف المياه للمطهرة المجاورة[3].







صور 12 ، 13 ، 14
صور توضيحية لسقف غرف حمام الشفا
والفتحات الفخارية التي تتخلل القباب
تصوير الباحثة

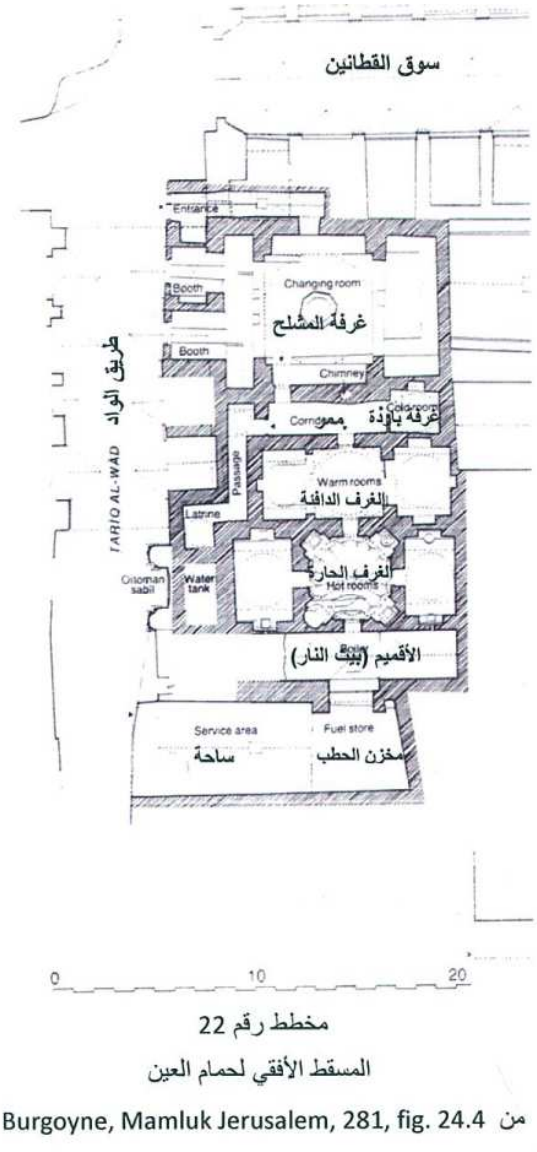
[1]. العسلي، من آثارنا، ص183–184؛ Dow, The Islamic Baths of Palestine, pp.88-90؛ Kroyanker, Jerusalem Architecture, p.50.

[2]. الأقميم أو الاقمين أو القميم: بمعنى فرن الحمّام (العسلي، وثائق مقدسية، ص123).

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 286-287.

3.2.9 حمّام العين:

أما **حمّام العين** فيقع عند إلتقاء طريق الواد مع باب سوق القطانين الغربي. أنشأه تنكز عام 737هـ/ 1336م وقد عُرف بحمّام العين نسبة الى عين العروب التي كان يستمد ماءه منها بواسطة قناة السبيل، التي كانت تزود الماء من العين الى مدينة القدس.



مخطط رقم 22

المسقط الأفقي لحمام العين

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 281, fig. 24.4

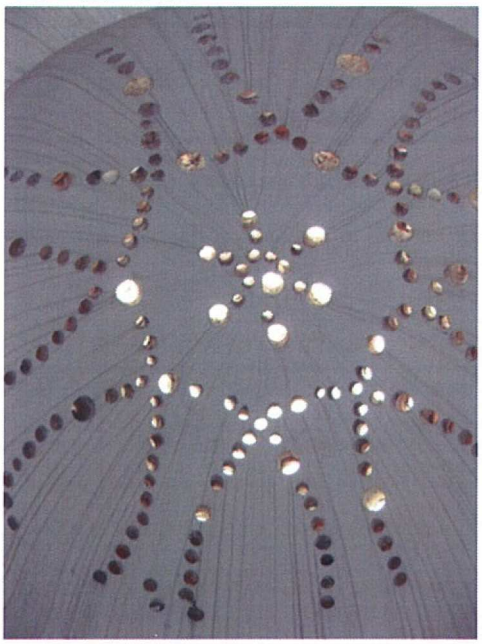
اتجاه المخطط العام للحمّام جاء بشكل عمودي على ممر سوق القطانين، أما تخطيط الحمّام (مخطط رقم 22) فهو أيضاً اشتمل على الغرف الثلاث الرئيسية التي يتم الدخول اليها من خلال باب الحمّام من طريق الواد ثمَّ يتم النزول بدرجات الى باب صالة الاستقبال الرئيسية، حيث أنَّ أرضية الحمّام منخفضة عن مستوى أرضية طريق الواد بحوالي 1.6م. وهذه الصالة التي تُعرف بالمشلح يقع في وسطها بركة فيها نافورة ماء، وتشتمل على مصاطب لاستعمال المستحمين. ثمَّ يتم الانتقال من غرفة المشلح خلال باب في جداره الجنوبي الى غرف الحمّام الاخرى حيث يشتمل على غرفتين دافئتين وغرفتين ساخنتين وبيت النار أو الأقميم أي الغرفة التي يوجد بها جهاز التدفئة. وتشتمل الغرف على مصاطب واجران مياه لاستعمال المستحمين. وكانت أرضية الحمام مغطاة بالرخام الملون[1].



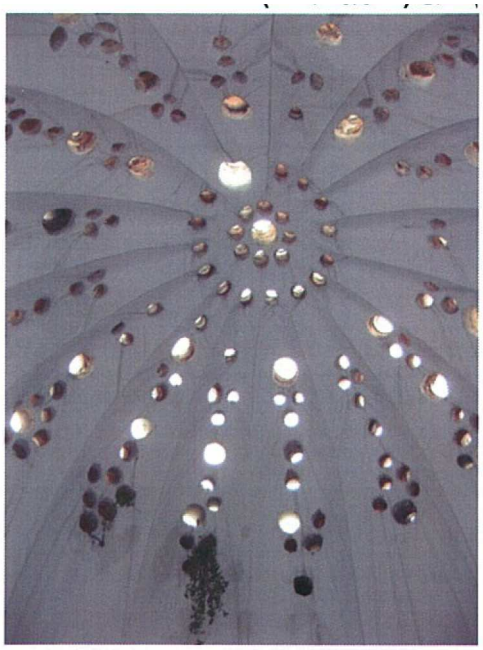
صورة 15: نافورة تتوسط غرفة المشلح في حمام العين (تصوير الباحثة)

[1]. Dow, The Islamic Baths of Palestine, pp. 90-91 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 287-288 p. 291 ؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص190 ص195.

صور توضيحية من داخل وسطح حمام العين (تصوير الباحثة)



صورة 16: قبة الغرفة الدافئة الرئيسية في حمّام العين



صورة 17: قبة الغرفة الحارة الرئيسية في حمّام العين



صورة 18: سطح حمّام العين من الناحية الجنوبية الغربية





صور 19 ، 20: أجران المياه من داخل غرف حمّام العين

كانت هذه الانجازات المعمارية للأمير تنكز التي تقع ضمن حدود المربع المخصص للدراسة والبحث والتي تراوح اتمام تشييدها ما بين عامي 729هـ/ 1328–1329م و 737هـ/ 1336–1337م، هذا بالإضافة الى أعمال معمارية اخرى قام بها الأمير تنكز في محيط الحرم القدسي وداخله منها:

3.2.10 مأذنة (منارة) الغوانمة:

تقع في الركن الشمالي الغربي من ساحة المسجد الأقصى عند باب الغوانمة، وتُعرف أيضاً بمنارة قلاوون ومنارة السرايا. بُنيت في عام 677هـ/ 1278م في عهد السلطان الملك منصورالدين لاجين، ثم جددها الأمير تنكز في عام 730هـ/ 1329–1330م[1]، وذلك وفق النقش بخط النسخ المملوكي ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه المنارة المباركة في أيام مولانا السلطان الملك الناصر... في سنة ثلاثين وسبعماية"[2].



صورة 21: مأذنة الغوانمة من الجهة الجنوبية
تصوير الباحثة

المأذنة عبارة عن بناء مربع الشكل على نظام بناء المآذن في بلاد الشام ويقع على قاعدة مربعة حجرية مرتفعة، طول 5م وعرض 5م تنتهي بمجموعة من المقرنصات، يظهر من القاعدة الجانبين الشرقي والجنوبي فقط، أما الجانبين الشمالي والغربي فيشكلان جزء من صخر الحرم في تلك الزاوية. ويقوم فوقها عدة طوابق يفصل فيما بينها افريز حجري مزخرف، ويتخللها عدة تجاويف وفتحات للتهوية والاضاءة. وتنتهي بمجموعة اخرى من المقرنصات يعلوها شرفة حجرية بدرابزين وأعمدة رخامية صليبية ومظلة خشبية يتوسطها بناء المأذنة المربع والأصغر حجماً من مربع المأذنة في الطوابق الأسفل، ويعلوه مثمن ثم القاعدة التي تقوم فوقها قبة المأذنة. يتم الصعود الى المأذنة من خلال درج خارجي يصل الى الطابق الثاني ثم يتم الدخول الى المأذنة والصعود من خلال درج حلزوني الشكل الى شرفة المأذنة. وتُعتبر هذه المأذنة من أعظم ابنية المآذن واتقنها عمارة. ويُعتقد بأنها تقع على آثار منارة سابقة البناء في عهد الأمويين[3].

---

[1]. بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص59.

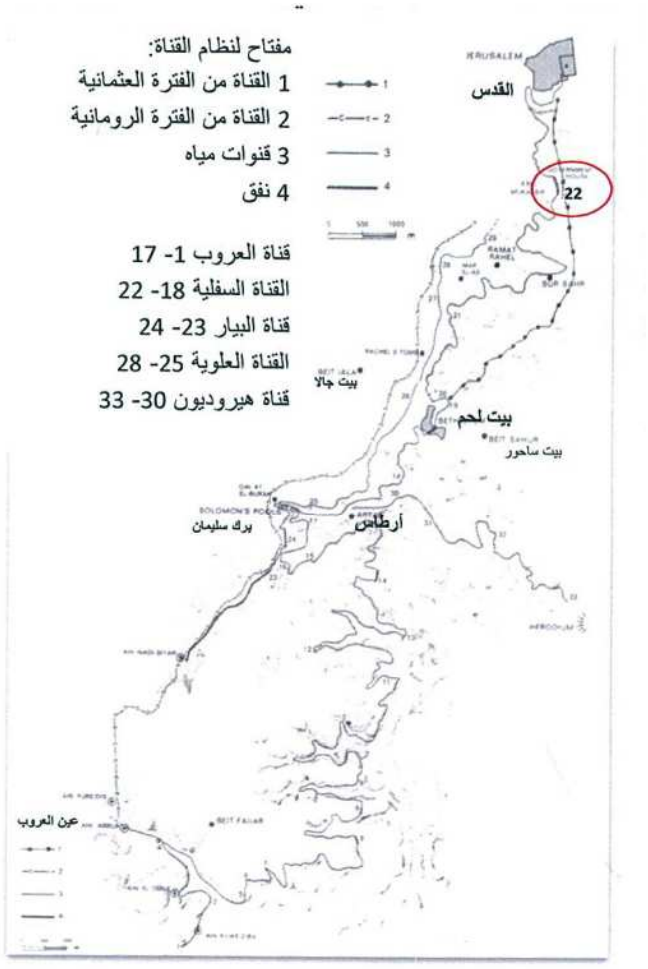
[2]. النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم1، ص400.

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 178 p. 180؛ النابلسي، المصدر السابق، قسم1، ص400؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص159؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص379–380.

3.2.11 قناة العروب:

تصل هذه القناة المياه من عين العروب الواقعة على بعد حوالي 19كم جنوبي مدينة القدس، حيث تتجمع مياه هذه العين في برك سليمان الواقعة بين مدينتي بيت لحم والخليل، ويتم توصيلها الى مدينة القدس عبر هذه القناة التي تعود الى فترة حوالي القرن السادس ق.م.

كان يتم توفير المياه عبر قناتين: قناة علوية وقناة سفلية، أما القناة السفلية فهي الأقدم والأكثر شهرة وتم تعميرها عدة مرات خاصة في عهد هيروديون، وقد عرفها المسلمون باسم قناة السبيل، وكانت هذه القناة بطول 21كم ومتعرجة وذلك لضمان انحدار المياه بقوة وبسرعة. وكانت تبدأ من عين العروب حيث الينابيع ترتفع حوالي 810م فوق سطح البحر، وتمتد حتى تصل الى برك سليمان وعيون أرطاس حيث هناك ينابيع اعلى البرك ترتفع حوالي 800م فوق سطح البحر، وينابيع اخرى اسفل البرك ترتفع حوالي 765م فوق سطح البحر، وتسير المياه الى بيت لحم ثم باتجاه بركة السلطان عبر صور باهر والثوري، ثم تسير بمحاذاة البركة من الناحيتين الغربية والشمالية حتى تدخل مدينة القدس بين باب المغاربة وباب النبي داوود (باب صهيون)، ثم تسير القناة الى طريق باب السلسلة (قرب درج العين) ومن هناك تدخل الى الحرم على ارتفاع 735م فوق سطح البحر، وتمتد منها قنوات الى الأسبلة والبرك والحمامات وغيره... (مخطط رقم 23). وقد عمل الأمير تنكز على اعادة تعمير هذه القناة واستنفذ جهوداً ضخمة لتنفيذ مثل هذا المشروع المعقد، حيث أنَّ طول القناة تمتد لعدة كيلومترات في منطقة ذات طوبوغرافية صعبة، مما تطلَّب خطة هندسية ومعمارية مدروسة وايادي عاملة كثيرة. وقد ابتدأ في اعمار القناة عام 727هـ/ 1327م وانتهى منها بعد عام في 728هـ/ 1327–1328م، إذ تدفقت المياه في حوض "الكأس" الذي أعاد تعميره الأمير



مخطط رقم 23 قنوات المياه (من Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,83)

تتكز أيضاً. ويُعتبر مشروع قناة العروب من المشاريع البارزة لسد الحاجة المتزايدة للماء في مدينة القدس، وقد ظلت هذه القناة تزود المدينة بالمياه حتى قُرب نهاية الحكم العثماني حيث تم تعمير أجزاء من القناة السفلية في 1902م[1].



صورة 22: القناة السفلية، نفق عند موقع رقم 22
من Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,81

3.2.12 الكأس:

يقع الكأس في الجهة الجنوبية من صحن قبة الصخرة بين المسجد الأقصى ودرج صحن الصخرة المواجه له. وهو عبارة عن حوض رخامي دائري الشكل، وفي وسطه نافورة ماء تشبه الكأس وعلى جوانبه فتحات لتدفق المياه الى الحوض. وعلى جوانب الحوض تخرج المياه ليستعملها المصلون للوضوء كما استعملت مياهه للشرب، ثم تسيل المياه في مجرى حول الحوض للتخلص منها.

وقد تم انشاء الكأس في عهد السلطان الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب عام 589هـ/ 1193م. ثم أعيد تعميره لاحقاً مرات عدة، ومنها عندما قام الأمير تنكز بتعمير قناة السبيل في 727–728هـ/ 1327–1328م عمَّر الكأس وأجرى اليه المياه من القناة[2].

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.41؛ Dow, The Islamic Baths, pp. 28-29 p. 84 ؛Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,pp. 80-81؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص145–146؛ الحنبلي، الانس الجليل، ج2، ص387؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص204؛ الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط، ص183؛ عثامنة، فلسطين في العهدين الايوبي والمملوكي، ص423–424؛ Wilson, The Recovery of Jerusalem, p. 19 .

[2]. Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 183 ؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص243؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص229؛ العارف، المفصل، ص204؛ بيضون، دليل المجد الأقصى المبارك، ص90.

هذا بالاضافة الى أعماله الاخرى داخل المسجد الأقصى كتجديد الشباكين والرخام غربي المنبر وشرقي المحراب[1]، كما وترميم قبة الصخرة وسقفها وتعمير القلعة[2] .



صورة 23: الكأس

تصوير الباحثة

3.3 أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية:

تُعد وقفية الأمير تنكز والمؤرخة بتاريخ الثاني عشر من شهر جمادي الاول لسنة 730هـ من الوثائق الهامة التي تضع اساساً في بيان وتوضيح معلومات هامة عن كيفية عقد الوقفية، والمعاملات التي كانت تتم في ذلك الوقت، ووصف لأمور تفصيلية دقيقة من التعاملات، والأجور، والعمال وما كان يتم وقفه من أوقاف غنية متعددة. كما وقد اوضحت الوقفية من خلال التفاصيل التي ذُكرت في نصها العديد من الأمور الدينية والخيرية والاجتماعية التي اتسم بها المجتمع الاسلامي في تلك الحقبة من الزمن.

ولهذه الاهمية فقد عمل المؤرخ كامل العسلي على نقل النص كاملاً وضبطه في بعض مواقع الكلمات التي كانت مطموسة أو لم تكن واضحة تماماً، وذلك ضمن الفصل الأول في كتابه **وثائق**

[1]. العارف، المفصل، ص203؛ Ayalon, The Islamic Architecture of Jerusalem, p. 96

[2]. Bahat, The Illustrated Atlas of Jerusalem, p. 115

مقدسية تاريخية– المجلد الأول لعام 1983. والذي تمَّ فيه بيان مصدر هذه الوقفية وهو سجلات المحكمة الشرعية في القدس، السجل رقم 92 المؤرَخ سنة 1020هـ، وتشغل كلمات هذه الوقفية البالغة حوالي 4700 كلمة خمس صفحات من السجل (من الصفحة 426 الى الصفحة 430). وقد ذكر المؤرخ العسلي نبذة مختصرة عن الأمير سيف الدين تنكز ثم اوضح اهمية هذه الوقفية لمختلف فئات المجتمع، لِما تحويه من معلومات تُفيد علماء اللغة واختصاصيي التربية والتعليم من خلال انها تعكس سمات للغة العربية في العصر الوسيط واشتمال نصها على تراكيب لغوية مختلفة. كما وتهم علماء الاجتماع والاقتصاد، واختصاصيي العمارة الاسلامية والوثائقيين، كما والقضاة والمشتغلين بالشريعة الاسلامية عامة ومنحى الوقف خاصة، حيث أنَّ هذه الوثيقة تقدم نموذجاً خاصاً لشكل الوقفية واجزاءها وطريقة عقدها وابرامها. كما وتقدم وصفاً لبعض العمائر الاسلامية في مدينة القدس، بالاضافة الى معلومات توضيحية عن اساليب التعليم ومرتبات المعلمين وموضوعات تخص الطلبة. ثم تطرق الى ذكر العقارات التي وقفها تنكز مع بيان بعض تفاصيل مضمون هذه الوثيقة. ثم نَقْلْ النص الكامل للوقفية مع الانتهاء ببيان بعض الهوامش الخاصة بالنص.

وعليه فإنَّ هذه الوقفية والتي سيتم نقلها كاملة كما في كتاب كامل العسلي في الصفحات التالية تُعد شاملة، فقد جاء مضمونها على الشكل التالي:

البدء بالأدعية يليه ذكر فضائل عمل الخير وبخاصة الصدقات، ثم دعاء للأمير تنكز مع ذكر القابه مفصلة. بعدها تعدد الوقفية العقارات التي وقفها تنكز، وتصفها وصفاً دقيقاً من الداخل والخارج ومواد البناء المستخدمة فيها مع ذكر موقعها وحدودها، كما وتم التطرق الى البناء اسفل هذه المنشآت.

وهذه الموقوفات بالترتيب هي:

1) المدرسة التنكزية
2) المسجد (في الايوان القبلي للمدرسة)
3) رباط النساء
4) الحمامين القبلي والغربي وهما حمّامي الشفا والعين
5) الطهارة أو المتوضأ
6) حوض السبيل (يقع حد المتوضأ من ناحية القبلة)
7) ضيعة عين قينة وهي عين قينيا قضاء رام الله، بما تشتمل من اراضي ومزارع وطواحين وينابيع واشجار وغيره.....

وبعد شرح هذه الموقوفات تفصيلاً تطرق في النص الى الشروط الواجب توفرها في الفقهاء في المدرسة وواجباتهم وحقوقهم وادعيتهم، كما الأمر بالنسبة للمحدثين والصوفية فقد ذكر الشروط الواجب توفرها فيهم وعددهم ووظائفهم، وماهية قراءاتهم وتحديد مكان تواجدهم في داخل المدرسة لإقامة صلواتهم واجتماعاتهم. ثم تناولت الوثيقة الأمور الخاصة برباط النساء، فذكرت عددهن والشروط الواجب توفرها فيهن وواجباتهن تخصيصاً، كما والأدعية والقراءات الواجب عليهن اقامتها. بعد ذلك تم ذكر المطهرة والانتفاع بها كما والاعمال الخاصة للعناية بها.

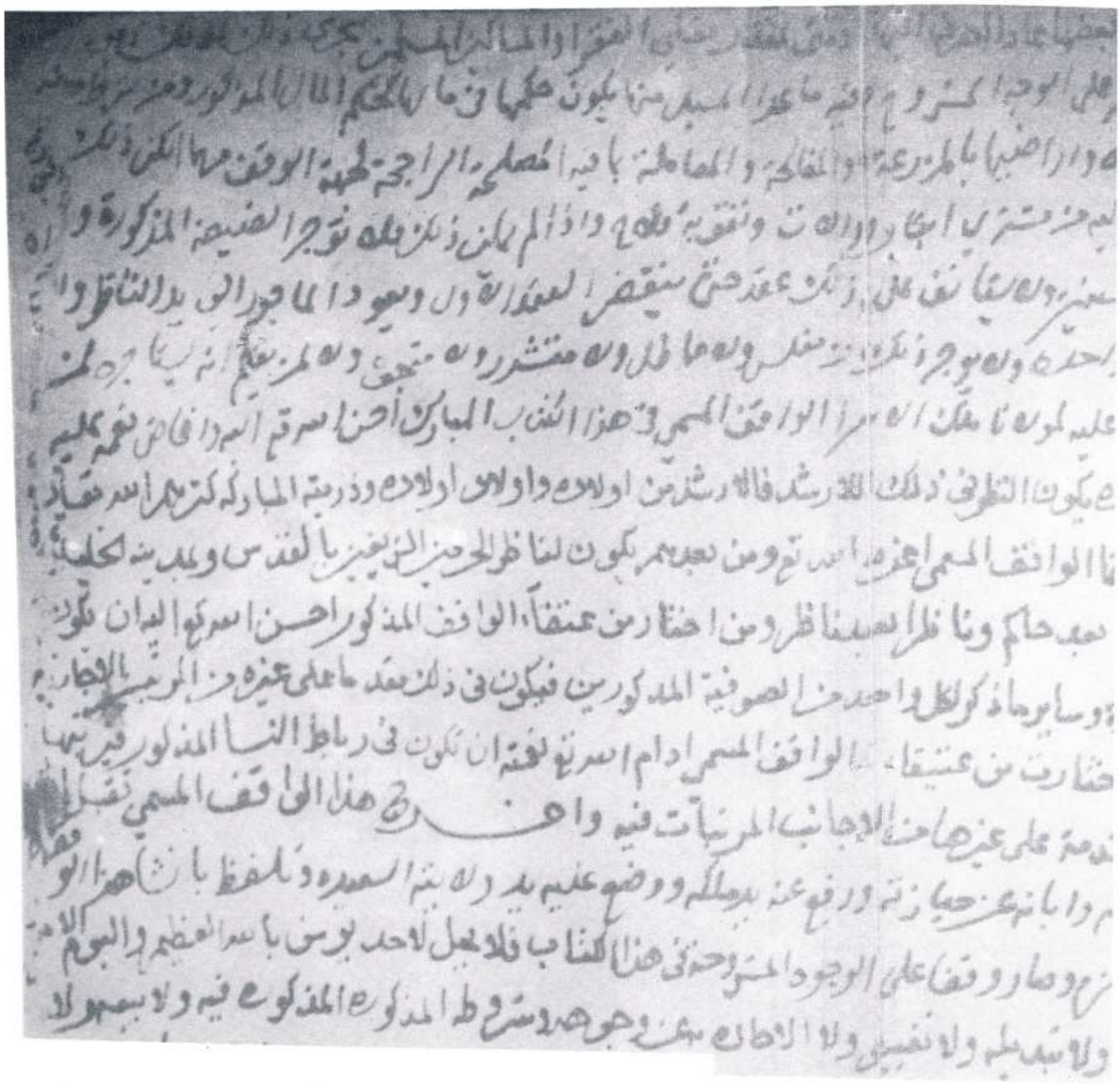
أما الحمامات وضيعة عين قينيا فقد اوقفها الواقف على أنْ يُنْتَفَع من ريعها لعمارة واصلاح وتجديد كامل الموقوفات السابق ذكرها. كما وحدد المصروفات قيمةً ونوعاً التي وجب صرفها للمدرس في المدرسة والفقهاء والمحدثين والصوفية المقيمين والواردين وتحديد مخصصاتهم حسب مراتبهم، كما والعاملات في رباط النساء والقيِّم على المطهرة، كل ذلك بحق واجب معلوم.

وهذه الأمور الكاملة المتعلقة بالوقف تقع على عاتق ناظر الوقف، فبالاضافة الى امور الصرف فهو المسؤول أيضاً عن الأمور الخاصة بتأجير الضيعة والحمامين، كمدة العقد والشروط الواجب توفرها بالمستأجر. وبعد الانتهاء من تفصيل جميع هذه الامور المتعلقة بالوقف، تمَّ ذكر أمر ولاية الوقف لمن تنتقل من بعد الأمير تنكز من أولاده وأحفاده وذريته حسب رشدهم، ومِنْ بعدهم مِنْ بقية الناس البارزين كالنظّار أو الحكام أو الصوفية ...

وفي النهاية تمَّ ذكر شروط استمرار الوقف، مع الاشارة الى اقرار الأمير تنكز بكامل مضمون الوثيقة وتأريخها لعام 730هـ، والاشهاد على ذلك.

3.3.1 النص الكامل لوقفية الأمير تنكز:

أما النص الكامل للوقفية مع تضمينه صورة عن قسم منها كما جاءت في السجلات، فهو:



صورة 24: قسم من وقفية الأمير تنكز
السجل 92 ص 430

قيد بأذن المولى العالم العامل المدقق الكامل سيد قضاة الاسلام سند الموالي العظام حسنة الليالي والايام عبد الحليم مصطفى (١) دام علاه في اوايل شهر جمادى الاولى سنة ١٠٢٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم صلي (٢) على سيدنا محمد وعلى جميع الانبيا الكرام وسلم هذا نسخة كتاب وقف شرعي ثابت محكوم به منفذ لدى حكام الشريعة المطهرة مسطر بمستندات مضمونة الحمد لله ميسر انواع الخيرات ومسهل اسبابها ومولي مواهب المبرات المخلصة لوجه وهابها وجاعل الطاعات في مرضاته اقرب سبلها وابوابها وقابل القربات ممن اخلصها طلبا لاجرها ورغبة في ثوابها نحمده حمدا .... * من سحابها ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة ننتفع بها حين لا ينفع شيء ونشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى اله واصحابه الذين تأدبوا بمحاسن شريعته واجتنبوا محارم نواهيه فسعدوا باجتنابها .

اما بعد فان اولى ما ادخر الانسان ليوم معاده ... * خالقه عند قيام اشهاده واقرض الله القرض الحسن فاخصب وادى مراده الصدقة التي يدخر المتصدق بها الثواب ويدرأ بها عن نفسه وبيل العذاب وتكون له على الصراط جوازا وعلى ثواب العمل الصالح طرازا فان من فضايلها ان النار تتقا بها حتى بشق ثمرة ويرقا الى الله تعالى ولو مثقالا من ذرة وتلقى .. * اشد الكفاح ويأمن المتصدق بها البلا ويتحقق له بحصولها الفلاح لا سيما صدقات الاوقاف التي هي من اعلا الصدقات واسناها وارفعها قدرا عند الله تع واعلاها فانها الصدقات الجارية والدخاير الباقية يجلوها .... * والعيان ويتلوها الاثر واللسان ولا ينقطع نفعهما وان طال الزمان ، وقد بدأ نبينا صلى الله عليه وسلم بذكرها حيث قال « اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد صالح يدعوا له » (٣) ولما اتصل ذلك بعلم مولانا المقر (٤) الاشرف العالي المولوي الاميري السيدي الكبيري العالمي المجاهدي الشاغري (٥) المرابطي المؤيدي المظفري المنصوري الهمامي القوامي النظامي المشيدي المهدي الزعيمي السيفي ركن الاسلام ذخر الانام ملك الامرا كهف الفقرا مقدم العساكر ذي المفاخر والمآثر غياث المجاهدين حصن المسلمين ظهير الملوك والسلاطين سيف امير المؤمنين ابي سعيد تنكز عبد الله الملكي الناصري نايب السلطنة المعظمة بالبلاد الشامية

* تراغ في الامل .

المحروسة ادام الله تع ايامه واعلا اعلامه بادر الى تحصيل هذه الصدقات الاتي ذكرها التي تقرب بها الى الله الكريم رجاء رحمته وفضله العميم واشهد بها على نفسه الكريمة حرسها الله تع من يضع خطه آخره من العدول في حال صحته وسلامته ادامها الله تع واختياره وطواعيته وجواز امره وتصرفاته انه وقف وحبس وسبل وابد حرم وتصدق بجميع ما يأتي ذكره مما هو جار في ملكه المبارك وتحت يده الكريمة مما هو معلوم عنده فمن ذلك جميع المدرسة المباركة التي انشأها الواقف المسمى مولانا ملك الامرا المشار اليه تقبله الله منه وهي بمدينة القدس الشريف جوار الحرم الشريف على الباب المعروف بباب السلسلة ويغلق على هذه المدرسة المذكورة باب خاص مكبر بمصراعين من خشب الجوز بصفايح نحاس اصفر ببوابة معقودة بالحجر النحيت الابيض والاسود والاصفر وبها طراز مذهب مكتوب فيه اسم الواقف المسمى شرفه الله تع وكرمه وتشمل هذه المدرسة المذكورة على اربعة اواوين معقودة بالكلس والحجر في كل واحد منها شباك حديد مطل الى حارة المغاربة ولكل واحد من الشبابيك المذكورة والمجلسين المشار اليهما باب بمصراعين منجور معظم بالعاج والابنوس . وهذا الايوان القبلي وقفه الواقف المسمى تقبل الله تع منه مسجدا لله تع له حرمة المساجد وكرامتها وسبله وفي الايوان الشرقي من هذه المدرسة المذكورة شباكان حديد يطلان الى الحرم الشريف لكل واحد منهما باب بمصراعين منجور معظم بالعاج والابنوس وجميع هذه المدرسة المذكورة مؤزرة بالرخام الملون وارضها مفروشة بالرخام الملون ولها عراقية و ... خشب ورفرف مدهون وفي وسط هذه المدرسة المذكورة بركة مثمنة يجري لها الماء من قناة العروب بحق واجب معلوم من معلم مشترك ينقسم ماؤه بين جهات الحرم الشريف وبين هذه المدرسة المذكورة من الفرع المساق من قناة العروب بحق واجب معلوم ولهذه المدرّسة مطبخ برسم المرتبين بهذه المدرسة المذكورة الاتي ذكرهم . ولهذه المدرسة طهارة تشمل على خمسة بيوت مبنية بالحجارة النحيت والكلس احدها مستحم وفي كل بيت منها جرن حجر يجري اليه الماء من قناة العروب المذكورة بمقسم خاص بها بحق واجب معلوم . وجميع اواوين هذه المدرسة المذكورة مبلطة بالبلاط الابيض وحايط هذه المدرسة القبلي مبني على اقبا رومية تعرف قديما باصطبلات الداوية (٧) وهي من حقوق هذه المدرسة المذكورة ويتطرق الى هذه الاقبا من حارة المغاربة بباب خاص . وتحت الجانب الشرقي من هذه المدرسة

المذكورة قبو سليماني (٨) قديم جدده الواقف المسمى تقبل الله منه وبها بير لجمع ماء الاشتية الذي ينزل اليه من طرق اعدت له في اسطحة المدرسة المذكورة طوله خمسة واربعون ذراعا بالذراع القاسمي وعرضه تسعة عشرة ذراعا بالذراع المذكور ويستقى الماء من هذا القبو من طاقة في بيت استجده الواقف المسمى ادام الله تع نعمته ملاصق لرباط النسا الاتي ذكره على ظهر القبو المذكور وفي هذا البيت جرن حجر طوله ثلاثة اذرع بالذراع القاسمي وعرضه ذراعان بالذراع المذكور والى جانب هذا القبو الى الحرم الشريف من باب السلسلة . حد هذا القبو من القبلة الحايط الذي انشأه الواقف المسمى اعز الله تع انصاره من جهة حارة المغاربة ومن الشرق سور الحرم الشريف ومن الشام الحاكورة المعروفة بحاكورة السقاية وفيها بابه ومن الغرب اقبا خراب . وهذا القبو السليماني المذكور من حقوق المدرسة المذكورة وعند الحاجة بالماء المجتمع فيه يقدم اهل المدرسة ، ثم ما يحتاج الحمامان الاتي ذكرهما في دواراتهما عند قلة مايهما الجاري اليهما وانقطاعه عنهما ثم ساير خلق الله . وفي هذه المدرسة المذكورة اثنان وعشرون بيتا فيها في السفل من هذه المدرسة المذكورة احد عشر بيتا برسم الفقها الحنفية الاتي ذكرهم منها بيت برسم بواب المدرسة المذكورة والباقي في علو المدرسة المذكورة وهو احد عشر بيتا برسم الصوفية الاتي ذكرهم وجميع هذه البيوت معقودة بالكلس والحجارة ولكل بيت منها باب خاص مكبر وعلى ظهر بوابة المدرسة المذكورة طبقة ذات منافع ومرافق ومراقد شرقي وغربي وسقفها خشبي ولها طاقات مطلة الى جهة الشمال وشبابيك حديد ولها مرتفق خاص وعلى ظهر بيتين من بيوت العلو المقدم ذكرها طبقة بسقف خشب لها طاقات مطلة الى جهة القبلة ومنافع ومرافق ومرتفق خاص ويصعد الى ذلك والى المسجد الاتي ذكره من السلم الحجر .... المدرسة المذكورة وهاتان الطبقتان المذكورتان برسم سكن من يختار الناظر في هذا الوقف اسكانه فيهما وظهر ذلك جميعه واهويته .... وفايض مياهه واوساخ مرتفقاته تنصرف الى قناة الوسخ التي استجدها الواقف المسمى بحق واجب . حد هذه المدرسة المذكورة من القبلة حارة المغاربة ومن الشرق الحرم الشريف ومن الشمال الطريق واليه يفتح باب هذه المدرسة ومن الغرب دار تعرف بدار الحاج ايوب المصري ومنه جميع .... بناء المسجد وما لاصقه من الابنية من شام وهو الذي انشاه الواقف المسمى

اعز الله انصاره على الصفات الاتي ذكره بالطريق الصحيح المعتبر الشرعي (٩) في مجلس الحكم العزيز بدمشق المحروسة المولوي القضايي الغزي المقدسي الحنبلي اجله الله تع ، على ظهر القبو الذي داخل الحرم الشريف المعروف بعمارة ابن حسن . ويصعد الى ذلك من السلم الحجر المتقدم ذكره وسقف هذا المسجد المشار اليه خشب منجور مجرى بالذهب واللازورد (١٠) وجدره مرخمة بالرخام الملون وفي قبلته خشب محراب مرخم بالرخام الملون ولها عامودا رخام وشباكا حديد مطلان الى الحرم الشريف لكل واحد منهما باب بمصراعين مدهون افرنجي وفي شرقيه ثلاثة شبابيك حديد مطلة الى الحرم الشريف ايضا ولكل واحد منهما باب بمصراعين مدهون افرنجي ويفتح بابه شاما وهو بمصراعين مدهون افرنجي (١١) والشباك الغربي منه مبني على سور الحرم الشريف وفيه ثلاثة شبابيك حديد بابواب مدهونة افرنجي وشباك الى ظهر المدرسة المذكورة ويلي هذا المسجد المعمور بذكر الله تع من شامه ايوان سقفه منجر مجرى بالذهب واللازورد ونصف ارضه من جهة الشرق مما يلي الحرم الشريف مرخم بالرخام الملون وله قنطرتان معقودتان بالحجر النحيت الاصفر والاسود على ثلاثة عواميد رخاما ابيض وله درابزين (١٢) ابيض ويتطرق منه الى مجلس له باب خاص بمصراعين مدهون افرنجي بسقف خشب منجور مجرى بالذهب واللازورد وفيه من شرقه شبكان حديد مطلان الى الحرم الشريف ولكل منهما باب بمصراعين مدهون ومن غربيه الحايط المبني على سور الحرم الشريف المتقدم ذكره وفيه بابان يتطرق من احدهما الى الطبقة المار ذكرها والثاني يتطرق منه الى سطح المدرسة المذكورة في هذا الكتاب ومنه جميع (الرباط) بالقرب من المدرسة المذكورة المعد لاقامة النسا الاتي ذكرهن فيه وهو مبني بالحجارة والكلس ويغلق عليه باب خاص ومنه جميع بيوت الحمامين القبلي والغربي المتجاورين اللذين انشأهما الواقف المسمى اعز الله تع انصاره وهما بمدينة القدس الشريف بوادي الطواحين فالقبلي منهما وهو ... يغلق عليه باب خاص يدخل منه الى مشلح (١٣) فيه مساطب مستديرة به مبنية بالحجر والكلس وفيه بركة الماء البارد مرخمة هي وما حولها وارض المشلح المذكور بالرخام الملون وفي غرب هذا المشلح روشن (١٤) يصعد اليه بسلم حجر وفي شرقيه ثلاثة شبابيك حديد بابواب مطلة الى الجنينة التي فيها اشجار نارنج (١٥) وورود هذه الجنينة مضافة الى هذا الحمام من حقوقه ويدخل من

هذا المشلح الى داخل هذا الحمام ويشتمل على قبة معقودة بجامات زجاج تحتها اربعة اجرنة رخاما وعلى اربع مقاصير معقودة قبابا بجامات (١٦) منهن ثلاث موزرات بالرخام الملون تشتمل كل واحدة منهن على جرنين رخاما والرابعة تشتمل على جرن واحد رخاما وفي بيت الزجاج من هذا الحمام جرن رخام وطشتية مرخمة برسم الماء البارد وارض جميع هذا الحمام المذكور ومقاصره مرخم ذلك جميعه بالرخام الملون ويتصل بهذا الحمام اتميمه (١٧) المبارك وفيه آلته المتخذ لمايه وفي هذا الاتمين مصنع (١٨) يجري الماء وينقسم الماء بينه وبين الحمام الاتي ذكره الذي هو الغربي من الحمامين المذكورين وهو الصغير منهما ، وجميع داخل هذا الحمام وارضه مرخم ذلك جميعه بالرخام الملون وفي الاتمين المقدم ذكره آلة هذا الحمام ايضا المعدة لمايه الجار وقدراه وحق هذين الحمامين من الماء من قناة تعرف بالعروب وهو حق واجب معلوم حد هذين الحمامين المذكورين من القبلة الطهارة (١٩) الاتي ذكرها التي انشاها الواقف المسمى احسن الله تع اليه ومن الشرق حاكورة الطهارة ومن الشمال الطريق السالك الى الحرم الشريف من باب يعرف بباب السقاية وفيه ينفتح باب الحمام الغربي ايضا المذكور ومن الغرب الطريق السالك من وادي الطواحين (٢٠) الى البركة الواصل اليها الماء من قناة العروب وفيه ينفتح باب الحمام الكبير ومنه جميع الطهارة (١٩) التي انشاها الواقف المسمى اعز الله تع انصاره وهي بالقرب من ذلك ويغلق عليها باب خاص وتشتمل على سبعة بيوت احدها مستحم وبها حوض حجر ولكل بيت منها جرن حجر ويجري الماء الى ذلك بحق واجب معلوم من قناة العروب وفايض مياه هذه الطهارة واخبائها تنصرف الى قناة الوسخ المذكورة بحق واجب فظهورها خواص (٢١) لها حدها من القبلة حوض السبيل الذي انشاها الواقف المسمى تقبل الله تع منه وجعله مسبلا لجميع خلق الله تع وبير ؟ الواصل اليه من فايض بركة قناة العروب وتمام الحد الطريق وفيه بابها ومن الشرق المصنع المختص بالحمامين المتقدم ذكرهما ومن الشمال الحمام القبلي ومن الغرب الطريق ومن ذلك جميع الضيعة ومزارعها المعروفة بعين قنية من عمل القدس الشريف وتشتمل هذه الضيعة ومزارعها على اراضي عاطلة وعامرة وسهل ووعر واقاصي وادائي ومصايف ومشاتي ومروج وصير (٢٢) وبيادر وطواحين تدور بماء الاشتية واشجار زيتون ونارنج وكروم عنب مختلف الاجناس وبساتين وجنايين وتين وخروب وغير

ذلك ودمنة برسم سكن فلاحيها وبها اعين ماء نبع سادحة (٢٤) حد هذه الضيعة ومزارعها بكمالها من القبلة اراضي قرية نوبا وتمام الحد اراضي قرية كفرتيا ومن الشرق اراضي قرية رام الله وتمام الحد اراضي لدنا ومن الشمال اراضي قرية دير بن شعبان وتمام الحد اراضي قرية الرأس ومن الغرب اراضي قرية دجانية وتمام الحد اراضي قرية دير بزيع بجميع حقوق ما ذكر وسمي ووصف وحدد وطرق ذلك ومرافقه وسفله وعلوه وابنيته واحجاره ورخامه وبلاطه واخشابه ورفوفه وابوابه وحديده وبقية الاته وما يختص به من القنى والمجاري وبكل حق هو لذلك داخل فيه وخارج عنه معروف به منسوب اليه فابدا المدرسة المبدا بذكرها وما بها من الابنية سفلا وعلوا فقد وقف الواقف المسمى ذلك تقبل الله منه وقفا صحيحا شرعيا على الفقها الحنفية والمحدثين والصوفية وشرطه ان يكون حافظا لكتاب الله تع عالما بمذهب الامام سراج الدين ابي حنيفة النعمان ابن ثابت رضي الله تع عنه ملازما لذكر الدرس بهذه المدرسة المذكورة على جاري العادة في ذكر الدروس وان يكون اماما في الصلوات الخمس بالمسجد الذي هو الايوان القبلي من المدرسة المذكورة وصلاة التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم من كل سنة بمن يحضر الى المسجد المشار اليه من كافة المسلمين وان يستعرض المتوسطين والمبتديين من الفقها والمتفقهة بالعلم الشريف ويحث من يحضر منهم عنده في درس المدرس ويفعل مثل ذلك بعد صلاة العصر كل ذلك في ايام ذكر الدروس وخمسة عشر فقيها ومتفقها يرتبون ثلاث طبقات منتهيون ومتوسطون ومبتديون ويكن منهم خمسة اشخاص مزوجين وعلى كل واحد منهم حضور هذه المدرسة ... الدرس وملازمة الاشتغال بها والمبيت فيها على جاري العادة ومن مضت منهم عليه اربع سنين من حين ترتيبه بالمدرسة المذكورة ولم يكمل حفظ كتاب في مذهب الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ويظهر عليه الفقه فيستبدل الناظر على هذا الوقف غيره ويقدم الفقيه الغريب على الفقيه من اهل القدس ويقدم العزب على المزوج منهم وعلى هؤلاء المذكورين اجمعين من المدرس والمعيد والفقها والمتفقهين الاجتماع لذكر الدروس في الايوان القبلي المشار اليه وان يقرا كل واحد منهم جزا من ثلاثين جزا من كتاب الله تع العزيز في الربعة الشريفة ويختمون (قراتهم) بقراة سورة الاخلاص والمعوذتين (٢٥) وفاتحة الكتاب العزيز

واوايل السورة التي تذكر فيها البقرة ثم يدعو المدرس عقب ذلك لمولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين ابي الفتح محمد خلد الله تع سلطانه وللواقف المسمى تقبل الله تع منه ولذريته المباركة كثرهم الله تع ويستغفر الله تع لهم ويسأله ان يجعل ثواب ذلك في صحايف الواقف المسمى احسن الله تع اليه ثم يذكر المدرس على جاري العادة . ومن شرط كل واحد من الجماعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح وتضبط غيبة الفقها ممن يعينه الناظر في هذا الوقف لذلك ومن غاب منهم لعذر شرعي سومح في مدة الغيبة في جامكيته (٢٦) وجرايته الاتي ذكرهما ومن غاب منهم بغير عذر شرعي نقص من جامكيته وجرايته بقدر مدة غيبته واما المحدثون بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الشيخ ومن شرطه ان يكون عالي الرواية مقصودا بالسماع عليه والاخذ عنه حسن الضبط والقاري للحديث النبوي على قايله افضل الصلوة واتم السلام وشرطه ان يكون جيد الضبط حسن القراة (٢٧) وان يقرا في الميعاد بهذه المدرسة من صحيح البخاري رضي الله عنه ما تيسر فاذا اكمل قراة جميع الصحيح المذكور في المواعيد قرا من صحيح الامام مسلم رضي الله عنه حتى يكمل قراة جميعه كذلك وكلما فرغ من قراة هذين الصحيحين في المواعيد اعاد قراتهما كذلك وعشرون محدثا وعلى كل واحد منهم ان يحفظ في كل يوم من ايام الميعاد حديثا واحدا من الاحاديث الثابتة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعرضه على الشيخ بعد فراغ الميعاد وعلى جميع هولا الجماعة المذكورين من الشيخ والقاري والمشتغلين في الحديث ان يجتمعوا كل يوم بعد صلوة الظهر في الايوان الشرقي من المدرسة المذكورة ويقرا كل احد منهم ما تيسر من كتاب الله تع في الربعة الشريفة ويختمون القرآن بقراة ما ذكر من ختم قراة الفقها من القرآن العظيم ثم يدعو الشيخ كدعاء المدرس المقدم ذكره ثم يقرا القاري من احد الصحيحين المذكورين كما ذكر على جاري العادة في ذلك ويضبط القاري اسماء الحاضرين من المرتبين وغيرهم على جاري عادة المحدثين ومن شرط كل واحد من هولا الجماعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح وحكمهم في الغيبة كما ذكر في حق الفقها واما الصوفية المنتسبون الى الاقتدا بسادة مشايخ الصوفية رضي الله عنهم وهم الشيخ المرتب للمشيخة عليهم وخمسة عشر صوفيا يكون واحد منهم خادما واخر ملباخا لهم وعليهم اجمعين ان يجتمعوا صبيحة كل يوم قبل طلوع الشمس في

المسجد العلوي المبني على ظهر القبو المذكور في هذا الكتاب ويقرا كل واحد منهم ما تيسر من كتاب الله تع في الربعة الشريفة ويجتمعون للقراة بقراة ما تقدم ذكره ثم يذكرون الله تع ويختمون الذكر بالصلوة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات فيقولون اللهم صلي على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الامي وعلى آل محمد وازواجه وذريته كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد وسلم ، ورضي الله عن اصحاب رسول الله اجمعين ثم يدعو الشيخ كدعاء المدرس المتقدم ذكره ثم يقرا واحد منهم ما تيسر من رسالة الامام القشيري (٢٨) رضي الله عنه ويفعلون مثل ذلك بعد صلوة العصر وعليهم المبيت بالمدرسة المذكورة على جاري العادة ومن شرط هولا الجماعة المذكورين ان يكون كل واحد منهم من اهل الخير والدين والصلاح ومن شرط هذا الوقف ان يرتب الناظر في الوقف في المدرسة المذكورة مقريا وقيمين وبوابا وعلى المقري قراة ربع جزء من ثلاثين جزا من كتاب الله تع العظيم في المصحف الكريم بالايوان الشرقي من تلك المدرسة المذكورة عند الشباك المطل الى الحرم الشريف بعد صلاة الصبح في كل يوم من الايام ثم يقرا بعد ذلك شيا من تفسير القرآن العظيم ثم يدعو كدعاء المدرس المقدم ذكره وعلى كل واحد من القيمين فرش هذه المدرسة المذكورة وفرش المسجد العلوي ... من شامه (٢٩) بالحصر والبسط وتنظيف ذلك جميعه وكنسه وايقاد مصابيحه وطفيها وغسل بركة المدرسة وغسل طهارتها وكنسها على جاري العادة في ذلك جميعه وان يؤذنا بالنوبة على باب المدرسة المذكورة في الاوقات الخمس وصاحب النوبة يقيم الصلوة ويبلغ خلف الامام ويتولى احضار الربعة الشريفة الى الايوانين المشار اليهما من المدرسة المذكورة عند اجتماع الجماعة فيها من الفقها والمحدثين ومفرق الاجزا الكريمة (٣٠) على الجماعة المشار اليهم وجمعها بعد فراغهم من القراة في الصندوق المعد لها ثم يرفع الربعة الشريفة الى المكان المختص بها في المدرسة المذكورة ثم يفعل كذلك عند اجتماع الجماعة الصوفية في المسجد العلوي المشار اليه وعلى البواب بهذه المدرسة ملازمتها وحفظها في الليل والنهار وفتح باب المدرسة وغلقه في الاوقات التي جرت العادة بها ومن شرط كل واحد من هولا الاربعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح ومن شرط هذا الوقف أن يرتب ناظر الوقف للموقوف المذكور في هذا الكتاب معمارا (٣١) وجابيا وكاتبا على جاري العادة ويكون كل واحد منهم

من اهل الخير والدين والصلاح وأما الرباط المجاور للمدرسة المشار اليه بأعاليه فقد وقفه الواقف المسمى تقبلها الله منه على اثنتي عشرة امراة مسلمات ديانات خيرات صالحات عجايز خاليات عن الازواج فقيرات مقيمات في الرباط المذكور تكون احداهن شيخة لهن واخرى قيمة للرباط المذكور وبوابة وعلى الفقيرات الواردات الى هذا الرباط وعلى الشيخة المشار اليها ان تأم (٢٢) بهن في الطوات الخمس وفي صلوات التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم من كل سنة وعلى القيمة البوابة فرش الرباط المذكور بالحصر والبسط وتنظيفه وكنسه وغسل طهارته وحفظ الرباط المذكور كما تقدم في حق بواب المدرسة المذكورة وايقاد مصابيحه وطفيها وعليهن اجمعين ان يجتمعن في احدى ايواني الرباط المشار اليه بعد صلاة الصبح في كل يوم ويقران سورة الاخلاص والمعوذتين وفاتحة الكتاب العزيز ثم يذكرن الله تع ويصلين على محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم ثم تدعو شيختهن كدعاء المدرس المقدم وحكمهن في الغيبة كما تقدم في غيبة غيرهن واما الطهارة المجاورة للحماميين المقدم ذكرهما فقد وقفها الواقف المسمى تقبل الله تع منه على كافة المسلمين ينتفعون على جاري العادة في مثل ذلك ويرتب الناظر في الوقف لها قيما برسم غسلها وكنسها وايقاد مصباحها وطفيه وفتح بابها وغلقه على جاري العادة واما الحمامان والضيعة المعروفة بعين قينة ومزارعها المشار الى ذلك جميعه في هذا الكتاب المبارك وما هو من حقوق ذلك فقد وقفه الواقف المسمى تقبل الله ذلك منه وقفا صحيحا شرعيا على جميع الجهات المتقدم ذكرها وعلى مصالح الاماكن الموقوفة المشار اليها بأعاليه وعلى ما يأتي ذكره فيه على ان يبدا ناظر الوقف المذكور مما يتحصل تحت يده من اجور ذلك وريعه ومغله بعمارة جميع الموقوف المذكور في هذا الكتاب واصلاحه وتجديد ما يهي من ابنيته وبفرش المدرسة والمسجد العلوي الذي على القبو المشار اليه في هذا الكتاب وبما لاصقه ... وبفرش رباط النسا المذكور بالحصر والبسط وتنوير ذلك جميعه على العادة في مثل ذلك كله ويبتاع في كل سنة بخمسين درهما فضة من المتعامل بها شمعا برسم صلاة التراويح وبخورا من الطيب يبخر به بالمسجد الذي هو الايوان القبلي من المدرسة المذكورة عند صلوة التراويح بالمسجد المذكور ويبتاع ايضا في عيد الاضحى في كل سنة راسين من البقر وكبشين مليحين من الغنم الضان مما يجري في الاضحية ويضحي بذلك في ايام التضحية ويفرق اللحم على اهل

الوقف المذكور وعلى غيرهم من صعاليك المسلمين على ما يراه الناظر في الوقف ويبتاع ايضا شمعا يشعل عند قراة القرآن العظيم في المصحف الكريم بعد صلوة الصبح في كل يوم من الايام في الايوان الشرقي من المدرسة المذكورة بقدر ما يحتاج اليه في ذلك ويبتاع الناظر في الوقف عند ختم قراة كل واحد من صحيحي البخاري ومسلم رضي الله عنهما بماية درهم من الدراهم المتعامل بها حلوا (٢٣) ويفرقها على الحاضرين من المحدثين وغيرهم على ما يراه وما فضل بعد ذلك يصرف منه الناظر في هذا الوقف الى الجهات المذكورة المعينة المشار اليها في هذا الكتاب والى من ذكر معها فيه على ما يفصل فيه من الجامكيات والجرايات والطعام وغير ذلك على الوجه الذي يشرح فيه فيصرف للمدرس بالمدرسة المذكورة في كل شهر من الشهور ستين درهما فضة وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى المعيد بالمدرسة المشار اليها في كل شهر من الشهور ثلاثين درهما فضة وفي كل يوم من الايام ثلثي رطل من الخبز والى كل واحد من الفقها المنتهين في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل والي (٢٤) من الفقها المتوسطين في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الفقها المبتدين في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل واحد من الخبز والى شيخ المحدثين في كل شهر من الشهور اربعين درهما فضة وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى قاري الحديث النبوي على قايله افضل الصلوة واتم السلام في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الجماعة المحدثين في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الجماعة المحدثين في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى شيخ الصوفية في كل شهر من الشهور ستين درهما فضة وثلث رطل من زيت الزيتون وثلث رطل صابون وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى كل واحد من الصوفية في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وسدس رطل من زيت الزيتون وسدس رطل صابون ويزاد الخادم والطباخ للطعام الآتي ذكرها على معلوم كل واحد منهما المتقدم ذكره في كل شهر من الشهور خمسة دراهم فضة ويصرف الى كل واحد

من الصوفية الخمسة عشر المشار اليهم فيه في كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الصوفية الواردين على الصوفية المقدم ذكرهم في مدة عشرة ايام من حين وروده عليهم في كل يوم منها نصف درهم ونصف رطل من الخبز ويزود عند سفره بخمسة دراهم ويقتصر في كل شهر على عشرة من الواردين ولا يزاد عليهم ويقدم الغربا من الصوفية والواردين عليهم بعد عتقاء الواقف المسمى اعز الله انصاره على اهل القدس الشريف ويصرف الناظر من ريع الوقف المذكور ما يكفي في عمارته ويطبخ في كل يوم من الايام بلحم الضأن برسم الصوفية المشار اليهم من المقيمين والواردين ويكون ذلك على جاري عادتهم واصلاحهم ؟ في صنع طعامهم ويفرق عليهم بالنصيب ويكون نصيب كل شخص منهم قدر اوقية من اللحم قبل الطبخ ويضاف الى ذلك حلوا تعمل للمذكورين في ليالي الجمع على عادة الصوفية ويفرق عليهم بالنصيب لكل شخص منهم اوقية ويعمل ايضا للمذكورين في المواسم والاعياد من الطعام والحلوا ما يراه الناظر في الوقف ويفرق عليهم بالنصيب ايضا ويكون لشيخ الصوفية المشار اليه من ذلك جميعه نصيبان ويصرف ناظر الوقف الى شيخة رباط النسا في كل شهر من الشهور عشرين دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى القيمة البوابة بالرباط المذكور في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحدة من الفقيرات العجايز العشرة في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام ثلث رطل من الخبز والى كل واحدة من الفقيرات الواردات الى الرباط المذكور مدة عشرة ايام من حين ورودها في كل يوم منها ربع درهم فضة وثلث رطل من الخبز ويقتصر في ذلك على عشر من الواردات الى الرباط المذكور من غير زيادة عددهن ويقدم الواردات الفقيرات الغريبات على الفقيرات من اهل القدس وكذلك في النساء المرتبات في الرباط المذكور ويصرف الناظر في هذا الوقف الى قاري القرآن العظيم في المصحف الكريم بعد صلاة الصبح في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من قيمي المدرسة وبوابها في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى قيم الطهارة المذكورة فيه في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز وجميع ما ذكر في هذا الكتاب المبارك

من الدراهم فهو من الدراهم (٢٥) المتعامل بها يوميذ ومن الخبز فهو من خبز الحنطة الطيب ومن الرطل والاوقية فهو الرطل القدسي والاوقية القدسية (٢٦) يجري ذلك كذلك على الوجه المشروح في هذا الكتاب على قوم بعد قوم وانفار بعد انفار ابدا ما امكن الصرف في المصارف المذكورة ومتى تعذر الصرف في مصرف من المصارف المشار اليها او اكثر صرف الناظر في الوقف ما كان مصروفا اليه في بقية المصارف على ما يراه ناظر الوقف ومتى تعذر الصرف في جميع المصارف المذكورة صرف الناظر ما كان مصروفا الى عتقاء الواقف المسمى تقبل الله تع منه عتى ما يراه الناظر في الوقف المذكور ومتى تعذر الصرف على العتقا صرف ذلك صدقة على الفقراء والمساكين المسلمين من امة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على ما يراه الناظر من وجوه البر والقربات التي يتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى ومتى امكن الصرف في المصارف المذكورة او في بعضها عاد الصرف اليها ومتى تعذر فعلى الفقرا والمساكين المسلمين يجري ذلك كذلك وجودا وعدما واذا تعذر الانتفاع بالاماكن الموقوفة على الوجه المشروح فيه ما عدا المسبل منها يكون حكمها في مالها كحكم المال المذكور ومن شرط ... الوقف ان الناظر فيه يستغل الضيعة المذكورة واراضيها بالمزارعة والمفالحة والمعاملة بما فيه المصلحة الراجحة لجهة الوقف مهما امكن ذلك ويصرف من ريع الموقوف المذكور ما يحتاج ذلك اليه من مشتري ابقار والات وتقوية فلاح واذا لم يمكن ذلك فلا تؤجر الضيعة المذكورة واراضيها ولا شيء منها في عقد واحد اكثر من سنتين ولا يستانف على ذلك عقد حتى ينقضي العقد الاول ويعود الى يد الناظر ولا يؤجر الحمامان المذكوران في عقد اكثر من سنة واحدة ولا يؤجر ذلك من مفلس ولا عاطل ولا متشرد ولا متجول ولا لمن يعلم انه يستأجره لمن هذه صفته والنظر في هذا الوقف والولاية عليه لمولانا ملك الامرا الواقف المسمى في هذا الكتاب المبارك احسن الله تع اليه وافاض نعمه عليه مدة حياته المباركة فيها اطالها الله تع ومن بعده يكون النظر في ذلك للأرشد فالارشد من اولاده واولاد اولاده وذريته المباركة كثرهم الله تعالى ومن بعدهم يكون النظر للأرشد الاسن من عتقا الواقف المسمى اعزه الله تع ومن بعدهم يكون لناظر الحرمين الشريفين بالقدس وبمدينة الخليل بمشاركة الحاكم بالقدس الشريف له في ذلك حاكما بعد حاكم وناظرا بعد ناظر ومن اختار من عتقا الواقف المذكور احسن الله تع اليه ان يكون من جملة الصوفية المقدم ذكرهم

بالمعلوم والجراية وساير ما ذكر لكل واحد من الصوفية المذكورين فيكون في ذلك مقدما على غيره من المرتبين بالاجازة ولا يشترط عليه ان يكون من اهل التصوف ومن اختارت من عتيقات الواقف المسمى ادام الله تع نعمته ان تكون في رباط النسا المذكور فمرتبها الناظر من جملتهن بالمعلوم والجراية وتكون متقدمة على غيرها من الاجانب المرتبات فيه واخرج هذا الواقف المسمى تقبل الله منه جميع ما وقفه في هذا الكتاب عن ملكه وابانه عن حيازته ورفع عنه يد ملكه ووضع عليه يد ولايته السعيدة وتلفظ بانشا هذا الوقف على الوجه المشروح فيه وقد صح هذا الوقف ولزم وصار وقفا على الوجوه المشروحة في هذا الكتاب فلا يحل لاحد يؤمن بالله العظيم واليوم الاخر ويعلم انه الى ربه الكريم صاير نقض هذا الوقف ولا تبديله ولا تغييره ولا الاحادة به عن وجوهه وشروطه المذكورة فيه ولا بيعه ولا اتلافه ولا المناقلة به ولا بشيء منه ولا يخرج الى ملك احد من ساير الناس اجمعين بل كلما مر بهذا الوقف زمن اكده وكلما اتى عليه عصر او اوان اخلده وسدده فهو محرم بحرمات الله مدفوع عنه بقوة الله متبع فيه مرضات الله لا يوهنه تقادم دهر ولا يبطله انقراض عصر وهذا الواقف المسمى خلد الله سعادته ونعمته يستعدي الى الله عز وجل على من يتصد وقفه هذا بفساد او يرومه بنقض وعناد ويحاكمه اليه ويخاصمه لديه يوم القيامة يوم الحسره والندامة يوم التناد يوم عرض الاشهاد يوم عطش الاكباد يوم يكون الله تع هو الحاكم بين العباد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار « فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم » (٢٧) وقد وقع اجر هذا الواقف المسمى احسن الله اليه على الله العظيم الذي يجزي المتصدقين ولا يضيع اجر المحسنين واشهد مولانا ملك الامراء الواقف المسمى اعلاه ادام الله تع ايامه واعلا اعلامه على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه في هذا الكتاب المبارك بعد قراته لديه واحاطة علمه الكريم بجميع ما تضمنه على الوجه المشروح فيه في اليوم المبارك الثاني عشر من شهر جمادى الاولى سنة ثلاثين وسبعمائة من الهجرة النبوية المحمدية على صاحبها مني الف الف تحية .

مثال

اشهدني مولاي المقر الكريم العالي المولوي الهمامي السيفي ملك الامرا المسمى اعلاه ادام الله ايامه واعلا اعلامه على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه من الوقف المسطور في هذا الكتاب فشهدت عليه بذلك وتلفظ بالوقف اعز الله انصاره بالوقف على الوجه المشروح فيه وكتبه محمد بن عبد الله الشافعي في ثاني عشر جمادى الاولى من شهور ثلاث وسبعين وسبعمائة (٢٨) .

مثال

اشهدني مولاي المقر الاشرف العالي المولوي الناصري الكريمي العادلي الفقيري السيفي ملك الامراء اعز الله انصاره على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه اعلاه فشهدت عليه بذلك وبلفظه بالوقف بحضوري في ثاني عشر جمادي الاولى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (٢٨) .

والله اعلم .

هوامش

(١) يستفاد من السجل رقم (٩٢) من سجلات المحكمة الشرعية في القدس الذي يبدأ في ٩ ربيع ثان ١٠٢٠ وينتهي في ٤ ذي القعدة سنة ١٠٢٠ ان عبد الحليم مصطفى كان قاضي القدس خلال هذه الفترة .

(٢) كذا في الاصل .

(٣) مسلم ، وصية ١٤ ، الترمذي ، احكام ٢٦ .

(٤) المقر : من الالقاب الاصول في زمن المماليك وكان يلي في المرتبة لقب المقام ، وهو لقب السلطان . وفي اواخر القرن السابع اخذ مركزه في الانخفاض فصار يختص بكبار الامراء واعيان الوزراء والعسكريين .

(٥) الكلمة الصحيحة هي المثاغري . وهي تتكرر في الالقاب . وهي بمعنى المرابطي . والكلمة مشتقة من الثغر ، وهي الفرجة التي يدخل منها العدو ، او الحدود بين المتعادين .

وفي صبح الاعشى ج ٦ ص ٧ — ٣٥ شرح لجميع هذه الالقاب الواردة في هذين السطرين على الوجه التالي باختصار :

الاشرف : من القاب المقام والمقر ، وهو افعل التفضيل من الشرف .

العالي : من الالقاب التي يشترك فيها ارباب السيوف والاقلام ، ويوصف به المقام والمقر والجناب والمجلس .

المولوي : نسبة الى المولى (السيد) . للمبالغة وهو من القاب اكابر ارباب السيوف والاقلام .

السيدي : نسبة الى السيد للمبالغة . والسيد من الالقاب السلطانية . والسيدي من الالقاب الخاصة بالجناب الشريف وما فوقه .

الكبيري : نسبة الى الكبير للمبالغة . وهو من الالقاب المشتركة بين ارباب السيوف والاقلام .

العالمي : نسبة الى العالم للمبالغة . والعالم من القاب السلطان . والعالمي من الالقاب المشتركة بين ارباب السيوف والاقلام وان كان المختص في نحتته العلماء .

المرابطي : المرابط من الالقاب السلطانية . وهو الذي يلازم ثغر العدو . والمرابطي نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

المؤيدي : المؤيد (بفتح الياء) من الالقاب السلطانية (وبكسرها) من القاب الامراء . والمراد انه يؤيد الملك والمؤيدي بالكسر من القاب اكابر ارباب السيوف نسبة الى المؤيد للمبالغة

المجاهدي : نسبة الى المجاهد للمبالغة . والمجاهد من الالقاب السلطانية . والمجاهدي من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

الامري : من القاب ارباب السيوف .

المظفري : المظفر من الالقاب السلطانية . والمظفري نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف .

المنصوري : المنصور من الالقاب السلطانية . والمنصوري نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

الهمامي : الهمام من القاب ارباب السيوف . والهمامي نسبة اليه للمبالغة .

التوامي : بفتح التاء من القاب ارباب السيوف وهو نسبة الى التوام ، وهو العدل .

النظامي : من القاب الوزراء ، وهو نسبة الى النظام . والمراد انه يكون به انتظام الامور .

المشيدي : من القاب اكابر ارباب السيوف . من التشييد وهو رفع قواعد البناء .

المهدي : من القاب اكابر ارباب السيوف . نسبته الى المهد وهو الذي يمهد الممالك ويدوخها .

الزعيمي : من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة وهو نسبة الى الزعيم بمعنى السيد والكافل .

(٦) هي القناة التي تعرف بقناة السبيل . وهي ترجع الى القرن الاول الميلادي . وكانت تجلب الماء من ينابيع العروب وبرك سليمان الى القدس . وقد عمرها الحكام المسلمون مرارا ، ومنهم الواقف الامير تنكز الناصري .

(٧) الداوية ، هم فرسان الهيكل الصليبيون (Templars)
وكلمة « الداوية » كلمة محرفة عن كلمة سريانية تعني « الفقراء » اذ ان الاسم اللاتيني الاصلي لهؤلاء هو : Pauperes Commilitions Christi اي فرسان المسيح الفقراء

(٨) كثيرا ما كان المسلمون ينسبون الاشياء القديمة التي لا يعرفون اصلها الى سليمان وداود عليهما السلام خطأ ... ومن ذلك برك سليمان وبرج داود (قلعة باب الخليل) . ومن ذلك ايضا هذا القبو « السليماني » المزعوم .

(٩) كذا في الاصل ، والصحيح « فسي » .

(١٠) اللازورد : معدن مشهور يستخرج من جبال ارمينيا وفارس واجوده الصافي الشفاف الازرق الضارب الى حمرة وخضرة يتخذ للحلي (كلمة فارسية) .

(١١) هذه الكلمات الاربع مكررة .

(١٢) درايزين ودوروبزين وللدرابزون ... كلمة يونانية الاصل .

(١٣) الغرفة او القاعة التي تخلع فيها الملابس في الحمام .

(١٤) الروشن (الجمع رواشن) كلمة فارسية تعني الكوة (في الجدار او ما شاكل ذلك) .

(١٥) النارنج ضرب من الليمون .

(١٦) الجامات جمع جام وهو الكأس (فارسية) .

(١٧) الاشيم والاشمين والتميم : قرن الحمام .

(١٨) حوض الماء .

(١٩) وهي التي تعرف اليوم بالمطهرة ، وكانت تعرف قبلا بالمتوضأ . وقبل ذلك بالسقاية . انشاها الملك العادل الايوبي ، وعمرها علاء الدين ايدغدي وسيف الدين تكز وغيرهما .

(٢٠) السواد — اليوم .

(٢١) اي تابعة لها .

(٢٢) عين قينيا ، قرية في الشمال الغربي من رام الله ما تزال موجودة . مساحة القرية ١٩ دونما . وكان عدد سكانها سنة ١٩٦١ (٢٣٥) شخصا .

(٢٣) جمع « صيرة » : وهي حظيرة البقر او الغنم .

(٢٤) المقصود غنية بالماء .

(٢٥) المعوذتان : قل اعوذ برب الفلق (سورة الفلق) وقل اعوذ برب الناس (سورة الناس) .

وسورة « الاخلاص » و « الفلق » و « الناس » هي السور الثلاث الاخيرة في القران الكريم . روي عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا اوى الى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما « قل هو الله احد » و « قل اعوذ برب الفلق » و « قل اعوذ برب الناس » . (صحيح البخاري ج ٢ ص ١٤٣ ، طبعة بولاق).

(٢٦) الجابكية هي الجراية او المرتب .

(٢٧) يلاحظ اسقاط الهمزة من « القراءة » و « يقرأ » والقارىء وهؤلاء السخ . على جاري العادة زمن المماليك .

(٢٨) الرسالة القشيرية في التصوف كانت مشهورة في القدس .

(٢٩) شماله = شمالة .

(٣٠) مارق الاجزاء كان خازن الكتب في المدرسة .

(٣١) مهندس ، بلغة اليوم .

(٣٢) كذا في الاصل بدلا من « تؤم » .

(٣٣) طوا = حلوى .

(٣٤) وربما خطأ من الناسخ . والمقصود « واحد » .

(٣٥) كان الدينار يزن عادة ٤ر٢٣ غم من الذهب ، والدرهم ٢ر٩٧ غم من الفضة . اما الفلوس فكانت من النحاس . وكان الدرهم يساوي ٢٤ فلسا . اما نسبة الدينار الى الدرهم فكانت ١٠ : ٧ .

(المكاييل والاوزان الاسلامية ، لفالتر هنتس ، توجبة كامل العسلي ص ٩ و ١٠) .

(٣٦) في القدس كان الرطل في العصور الوسطى يساوي ٨٠٠ درهم = ٥ر٢ كغم . وكانت الاوقية ١٢/١ من الرطل .

(المكاييل والاوزان الاسلامية ، ص ٣٢) .

(٣٧) من بدله بعد ما سمعه السخ .. الاية رقم ١٨١ من سورة البقرة .

(٣٨) لم استطع تفسير تاريخ هذين الاشهادين وهو سنة ٧٧٣ ؟ مع ان تاريخ الوثيقة الثابت هو ٧٣٠ . (الامير تنكز توفى سنة ٧٤١)

الفصل الرابع

العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز



العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز

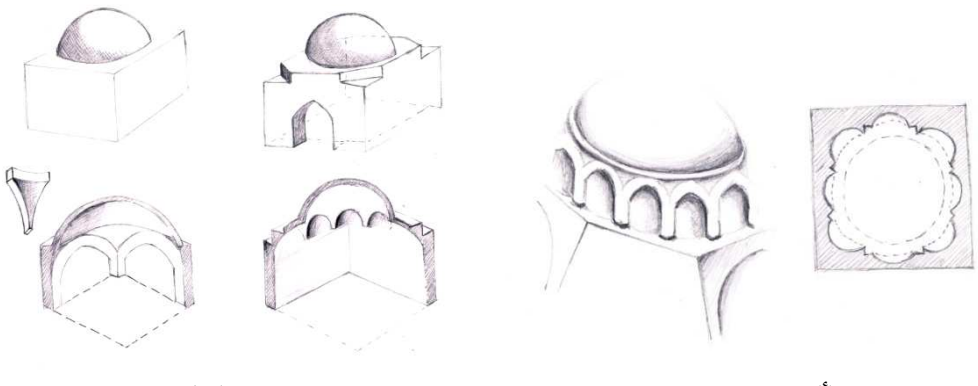
لقد تميزت العمارة المملوكية بشكل عام بمميزات خاصة تمَّ التطرق لذكرها في القسم الثاني من الفصل الأول. ويظهر من خلال تحليل العمارة المملوكية بأنها أقيمت على فلسفة معينة ارتبطت بشكل أساسي مع غاية المُنْشِأ، وهدفه من اقامة البناء، وما اراد ايصاله للمتلقي. فكان لابد من وجود رمز للبناء وقيمة تهدف لأبعد من مجرد الشكل والوظيفة؛ فهذا الرمز يرتبط مع عمق الايمان، أما العناية بالشكل أو لغرض وظيفي فقط، فإنما يؤدي الى الاعتقاد بأنَّ الايمان ارتبط بهدف مادي، مما يؤكد على الأنانية وحبِّ العظمة الشخصية.

ولتحقيق بناء العمارة المملوكية المتميزة فقد تمَّ استغلال عناصر معمارية انشائية وزخرفية مختلفة من قباب، وأعمدة، وعقود، ومقرنصات، ومداخل، وغيرها... . شكلت هذه العناصر جزءاً هاماً من عمارة الأمير تنكز، سيتم بيانها بالآتي:-

4.1 العناصر الإنشائية:

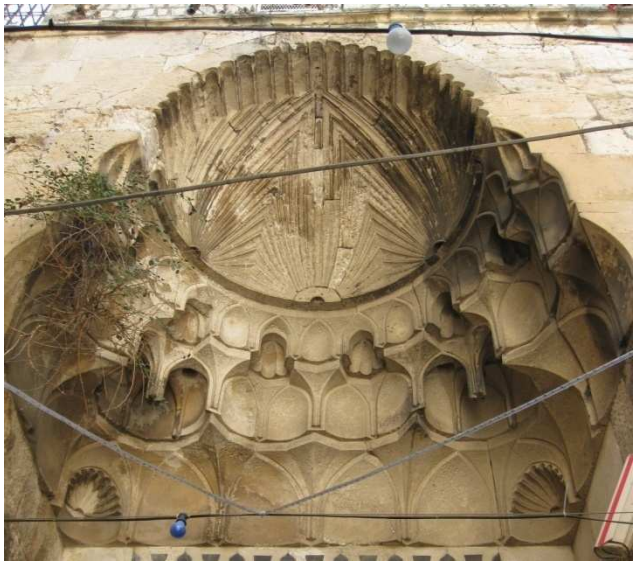
4.1.1 القباب: استعملت القباب في تغطية المسطحات سواء كانت ذات مساحة متسعة أم صغيرة. وقد ظهرت انواع كثيرة من القباب منها النصف كروية؛ التي قد تأتي بشكل قوس دائري أو مدبب قليلاً، أو المضلعة أو البيضاوية، ومنها قباب كبيرة ذات مناور. وتنقسم القباب من حيث طريقة الانتقال والتحول من الشكل المربع الى الدائرة لنوعين: الأول منها هي القباب المحمولة على حنية في كل زاوية من زوايا المربع (Squinches). وقد استعملت في هذه الطريقة المقرنصات كعنصر انشائي في تحويل المسقط المربع الى دائري، عن طريق مجموعة من صفوف القوصرات المتتالية. أما النوع الثاني فهي القباب المحمولة على مثلثات كروية (Pendentives)[1]. وقد تأتي هذه القباب إما محمولة بإحدى الطريقتين السابقتين مباشرة فوق الشكل المربع، أو يفصل بينها وبين الشكل المربع شكل اسطواني (الرقبة) عادة ما تتخلله مجموعة من الفتحات.

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص101؛ حسن، فنون الاسلام، ص154.



(أ) (ب)

رسم توضيحي دون مقياس رسم (للباحثة): (أ) تحويل المربع الى دائرة بطريقة الحنيات Squinches
(ب) تحويل المربع الى دائرة بطريقة المثلثات الكروية Pendentives



صورة 25: القبة أعلى مدخل المدرسة التنكزية
تصوير الباحثة

وتأتي القبة المركزية في المدرسة التنكزية والتي تقع فوق صحن المدرسة، محمولة بطريقة المثلثات الكروية مع استخدام التضليع في القبة والذي يُعرف بـــ ' Folded cross vault' للانتقال الى الشكل الثماني في أعلى القبة والذي يشكل المنور. وقد استخدمت هذه الطريقة أيضاً في غرفة اخرى تقع على مستوى الطابق الثاني في المدرسة. وقد استخدمت القباب في تغطية مساحات غرف اخرى في المدرسة بالطريقة نفسها، لكن دون مناور إنما بأشكال زخرفية في أعلى القبة. أما قبة مدخل المدرسة التنكزية فقد استخدمت نصف قبة كروية الشكل مع مقطع لعقد مدبب الشكل محمولة على مجموعة صفوف من القوصرات التي شكلت المقرنصات.



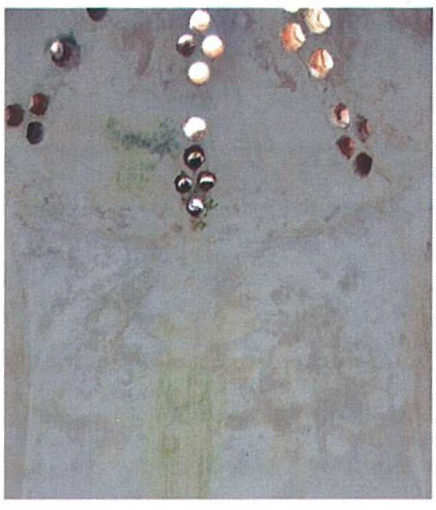
صورة 26: تُظهر التضليع في قبة القاعة الرئيسية في حمام الشفا. (تصوير الباحثة)

وفي باب القطانين الشرقي أيضاً فقد استخدمت نصف قبة كروية ذات مقطع عقد بشكل مدبب قليلاً، محمولة على مجموعة صفوف من المقرنصات والتي استخدمت لهدف انشائي وزخرفي.

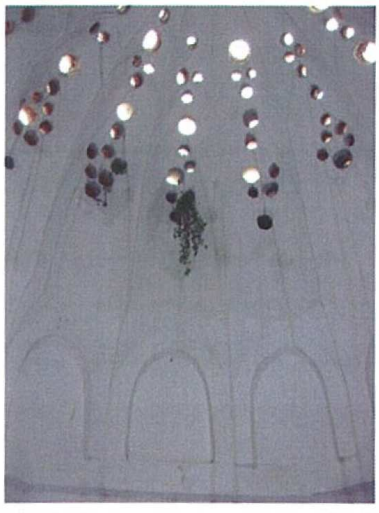
وقد استخدمت ايضاً القبة في القاعة الرئيسية (المشلح) في حمّام الشفا ومحمولة بطريقة المثلثات الكروية مع استخدام

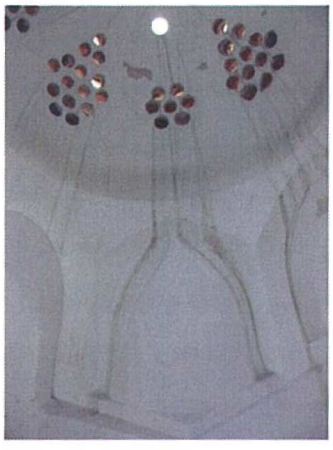
التضليع في القبة (Folded cross vault)، حيث تنتهي في اعلاها بمنور ثماني الشكل. واستخدم ايضاً في الغرفة الباردة قبة محمولة على مثلثات كروية، يتخللها مجموعة من الفتحات الفخارية الاسطوانية الشكل لإدخال الضوء الى داخل الغرفة. أما الغرف الدافئة المتتالية فقد جاء سقفها بشكل قباب بيضاوية الشكل محمولة على مثلثات كروية، وفي الغرفة الساخنة استخدمت الحنيات في زوايا المربع لرفع القبة البيضاوية الشكل.

وفي حمّام العين استخدمت قبة محمولة على مثلثات كروية ذات اتجاهين في القاعة الرئيسية (المشلح)، وتنتهي القبة في منتصفها بفتحة دائرية الشكل (المنور). أما الغرف الاخرى المتعددة في الحمام، فجزء منها مسقوف بقباب دائرية متغيرة الاحجام ومحمولة على مثلثات كروية، والجزء الآخر كالغرفة الدافئة الرئيسية واخرى الملحقة فتقع القبة الدائرية الشكل محمولة على حنيات في الزوايا الأربع، وحنيات اخرى تتوسطها. والغرفة الدافئة الاخرى الملحقة تأتي القبة بشكلها البيضاوي ومحمولة على الحنيات. أما الغرفة الساخنة الرئيسية فتقع قبتها بشكلها المميز على قاعدة مثمنة الشكل، مما دعى الى تقسيم كل مجموعة من الحنيات الثلاث على كل ضلع من اضلاع المثمن، وبالتالي فقد جاءت القبة محمولة على ستة عشر حنية تنتهي بأقواس مدببة الشكل ومكونة من ستة عشر قوصرة. وتتخللها مجموعة من الفتحات الفخارية بشكل زخارف هندسية. وقد تميزت احدى الغرف الساخنة الملحقة بشكل الحنيات حيث تشكلت من قوسين متداخلين على الزوايا وحنيات اخرى بينها، حملت القبة الكروية الشكل التي تتخللها الفتحات الفخارية.



صورة 27: صورة توضيحية من احدى غرف حمام الشفا لطريقة حمل القبة على المثلثات الكروية.





صور 28، 29: صور من داخل حمام العين توضح طريقة حمل القبة على الحنيات، وقبة الغرفة الساخنة الرئيسية المحمولة على ستة عشر حنية. تصوير الباحثة

لقد جاءت هذه القباب سواء في المدرسة التنكزية وباب القطانين وحمامي الشفا والعين من النوع المحمول مباشرة على المسقط المربع أو المثمن الشكل بواسطة المثلثات الكروية أو الحنيات. أما النوع الذي يفصل فيه الشكل الاسطواني (الرقبة) Drum بين المسقط المربع أو المثمن وبين القبة، فقد استخدم في مأذنتي باب السلسلة والغوانمة (صورة 21). فقد تمَّ رفع الشكل المثمن في مأذنة باب السلسلة على المربع، وتخللته بعض الفتحات الصغيرة الطولية الشكل للإضاءة والتهوية، وتم تحويل الشكل المثمن الى دائري عن طريق الرقبة الاسطوانية الشكل، لحمل قبة بصلية الشكل. وفي مأذنة الغوانمة كذلك، فقد تمَّ رفع الشكل المثمن للطابق العلوي على الشكل المربع للمأذنة، وتحويل الشكل المثمن من الداخل الى الشكل الاسطواني عن طريق مجموعة من الاقواس الداخلية، والتي تنعكس من الخارج فتظهر على شكل القوصرات عددها ثمانية، تنتهي كل واحدة بعقد مدبب الشكل.

4.1.2 الأعمدة: استعملت الأعمدة كعناصر حاملة في العمارة عامة، ولكن في الأعمال المعمارية للأمير تنكز والتي تقع قيد الدراسة، لم يكن للأعمدة المستخدمة والظاهرة وظيفة انشائية. ففي الطابق الثاني للمدرسة التنكزية تمَّ استخدام ثلاثة أعمدة[1] دون وظيفة انشائية في اكتاف ووسط النوافذ الواقعة على الواجهة الشرقية لايوان الخانقاة والمطلة على الحرم. كما وقد تمَّ اعادة استخدام أعمدة من عمارة سابقة البناء، كالأعمدة الصليبية الواقعة على جانبي المحراب في الايوان الجنوبي في الطابق الأرضي للمدرسة التنكزية[2]. وفي مأذنة باب السلسلة فقد أُعيد استخدام أعمدة من عمارة سابقة كنوع من الزخرفة على جانبي القوصرات التي تعلوها المقرنصات على الجوانب الأربعة للمأذنة. كما وفي مأذنة الغوانمة فقد تمَّ اعادة استخدام أعمدة على جوانب ووسط اقواس مسمطة على جانبي القاعدة، واستخدام أعمدة على اركان المأذنة الأربع وعند شرفة المؤذن لحمل مظلة السقف.



صورة 30: الأعمدة على جوانب مأذنة باب السلسلة (تصوير الباحثة)

[1] العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص111

[2]. لقد ذكر ذلك Burgoyne بالاعتماد على شكل قواعد وتيجان الأعمدة (Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 237)

4.1.3 الأوتار (Lintels): تمتد الأوتار بين الأعمدة أو في الفراغ بين جدارين، وتستعمل كعنصر انشائي لمقاومة القوى الأفقية الناتجة عن دفع العقود، ولها وظيفة غير انشائية حيث تستعمل لحمل مصابيح الانارة. وقد يعلو فوق هذه الأوتار اقواس، ويظهر ذلك في المدخل الغربي لسوق القطانين، حيث يتكون الوتر من مجموعة من الأحجار المتراصة في منتصفها keystone ويعلوه قوس دائري الشكل، وفي مدخل سوق القطانين الشرقي استخدم وتر مكون من صفّ من ثلاثة احجار يعلوها قوس دائري الشكل. كما ونجد ذلك في بعض واجهات الحواصل في سوق القطانين حيث استخدمت في انشاء هذه الأوتار مجموعة من الأحجار المتداخلة فوق فراغ المدخل، ويُطلق عليه حينها بالقوس المسطح، ويعلوه قوس مدبب الشكل مكون من مجموعة من الأحجار. وفي خان تنكز تمَّ استخدام الوتر على مدخل الصحن الداخلي المكشوف، ويعلوه قوس مكون من ثلاثة احجار ضخمة الحجم.


صورة 31: المدخل الغربي لسوق القطانين (تصوير الباحثة)

4.1.4 العقود أو الأقواس (Arches): استعملت العقود لربط المسافة بين جدارين أو عمودين بشكل أقواس. وقد تنوعت هذه العقود فمنها العقد الدائري، والعقد المدبب، وعقد حدوة الفرس، والعقد ثلاثي الاقواس، وغيرها من اشكال العقود... .

وقد شاع استخدام العقد المدبب في عمائر الأمير تنكز، حيث استعمل في تغطية فتحات الايوانات وفي عقود الشبابيك والأبواب. ففي المدرسة التنكزية استعمل العقد المدبب في اعلى المدخل وعلى فتحة الايوانات الأربعة المطلة على الصحن الداخلي. كما واستعمل هذا العقد في المحراب، وفي الواجهة الخارجية المطلة على الحرم فاستخدم العقد المدبب في اعلى النافذتين في منتصف الطابق العلوي. أما الواجهة المطلة على حارة المغاربة، فقد استخدمت العقود المدببة على الفتحات الثلاثة في اسفل الجدار، كما وفي الطابق العلوي فقد استخدمت هذه العقود على الشبابيك الجنوبية. أما في رباط النساء فقد استخدم نوع آخر من العقود، وهو العقد ذو الثلاثة اقواس Trefoil arch حيث شكَّل أعلى المدخل الرئيسي للرباط، وقد وُجِدَ مثل هذا العقد على الجزء الداخلي للمدخل الشرقي لسوق القطانين. وفي سوق القطانين فقد استخدم العقد المدبب في المدخل الغربي للسوق، كما وفي العقد الخارجي للمدخل الشرقي للسوق، وفي مدخل خان تنكز وفي حمامي الشفا والعين، استخدم هذا العقد في قاعة الاستقبال (المشلح) لحمام العين وفي اعلى القوصرات (الحنيات) الحاملة للقباب في غرف الحمام المختلفة.

وقد استخدم نوع آخر من العقود في حمام العين وهو العقد القوسي او الموتور Segmental arch وهو قوس بشكل جزء من دائرة، حيث ظهر في قاعة الاستقبال على الواجهة الغربية للقوصرة الغربية والمطلة على طريق الواد. كما واستخدم هذا العقد في بعض واجهات مداخل الحواصل في سوق القطانين.




صورة 32، 33: Trefoil Arch في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي ورباط النساء (تصوير الباحثة)

4.1.5 القبوات (Vaults): وهي مجموعة من الأقواس او العقود المتعاقبة او المتداخلة، وتستعمل في تغطية المسطحات. استعملت القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل Barrel vaults، والقبوات المدببة والمتقاطعة Cross vaults ، والقبوات المتداخلة Folded cross vaults في تغطية الايوانات والقاعات والغرف والدهاليز في عمائر الأمير تنكز، سواء أكانت هذه المساحات مستطيلة الشكل او مربعة الشكل. ففي المدرسة التنكزية استخدمت القبوات النصف دائرية في عدة غرف في طوابق المدرسة الثلاثة (الأرضي والميزانين والعلوي)، كما وقد استخدمت القبوات المدببة والمتقاطعة في بهو المدخل الرئيسي للمدرسة وفي تغطية الايوانات الثلاثة في الطابق الأرضي، وفي غرف اخرى في الطابق الأرضي كما وفي طابق الميزانين والطابق العلوي. أما القبوات المتداخلة فقد استخدمت بشكل رئيسي في تغطية صحن المدرسة كما وفي غرفة اخرى على مستوى الطابق الأرضي وفي عدة غرف على مستوى الطابق العلوي. وهذا الشكل من القبوات يوفر امكانية عمل فتحات في السقف للإضاءة والتهوية. وفي رباط النساء استخدمت القبوات النصف دائرية البرميلية والقبوات المدببة والمتقاطعة في تسقيف قاعات وغرف الرباط.



صورة 34: منظر داخلي من رباط النساء، يظهر فيه القبو النصف برميلي الشكل Barrel Vault (تصوير الباحثة)

وفي سوق القطانين فقد استخدم التسقيف بنظام القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل على طول السوق، كما واستخدمت القبوات المدببة والمتقاطعة فوق مساحة الادراج الداخلية عند مدخل السوق الشرقي، وعند مدخل حمام الشفا. وقد استخدم نظام القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز، حيث تنتهي الى منور ثماني الشكل.



صورة 35: نظام تسقيف سوق القطانين بالقبوات النصف برميلية

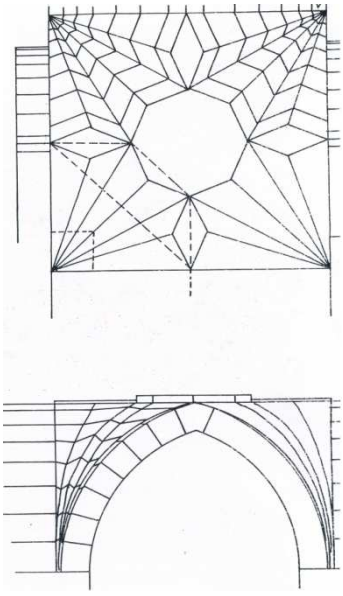
وفي خان تنكز استخدم نظام القبوات النصف برميلية بشكل اساسي، حيث استعملت في تسقيف قاعة المدخل مع استخدام الأقواس المتداخلة، وأيضاً في بقية غرف وقاعات الخان.



صورة 36: القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز (تصوير الباحثة)



صورة 37: القبوات النصف برميلية في قاعة مدخل خان تنكز (تصوير الباحثة)

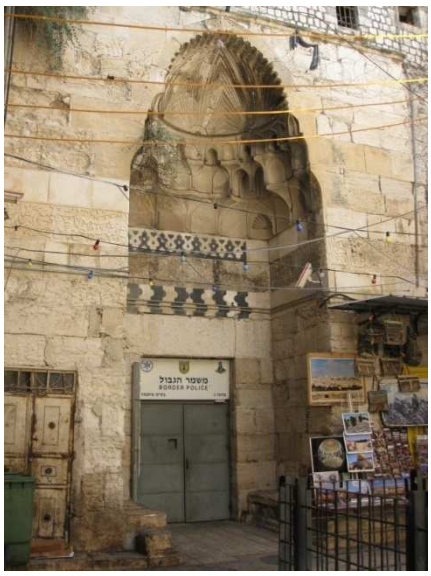


رسم توضيحي للقبوات المتداخلة من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 209

أما حمّام الشفا فقد استخدم في قاعة الاستقبال قبوات متداخلة تنتهي الى منور ثماني الشكل، واستخدمت القبوات النصف برميلية فوق الممر على الجانب الشرقي من الحمام وفي غرفة على جانب الحمام الغربي. وفي حمّام العين استخدم نظام التسقيف بالقبوات النصف دائرية البرميلية فوق درج مدخل الحمام من طريق الواد، ولتسقيف بعض الغرف.

كما واستخدمت القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل في مأذنة الغوانمة لتسقيف الممر المؤدي من باب المأذنة (الواقع على مستوى الطابق الثاني في المأذنة) الى مدخل المأذنة والواقع على الجهة الشمالية. والتسقيف بالقبوات النصف برميلية أيضاً فوق الدرج الحلزوني الشكل داخل المأذنة والمؤدي الى شرفة المؤذن.

4.1.6 المداخل: اتُبع نظام المداخل الشاهقة والمجوفة في بعض عمائر الأمير تنكز، حيث امتد مدخل المدرسة التنكزية تقريباً الى ارتفاع البناء كله، وظهر المدخل بشكل عميق ومجوف، مسقوف بنصف قبة كروية الشكل محمولة على ثلاثة صفوف من المقرنصات. ويقع على جانبي بوابة المدخل مكسلتين، وتفتح البوابة على بهو المدخل (الدركاه) ومنه باب آخر يفتح على صحن المدرسة. وهذا النظام المتبع غالباً في العمائر الاسلامية وذلك لحجب الرؤية المباشرة عن داخل المبنى من الساحة او الطريق العام. وفي رباط النساء صُمم المدخل المرتفع والمجوف ويعلوه عقد ذو الثلاثة اقواس، ويمتد هذا العقد الى الداخل ليشكل عقد مدبب الشكل يقع فوق بوابة المدخل.



صورة 38: مدخل المدرسة التنكزية
تصوير الباحثة

أما مدخل سوق القطانين الشرقي فقد تميز بارتفاعه وعمق تجويفه، ويقع المدخل بشكل بناء منفصل يعلوه قوس مدبب الشكل وقبة نصف كروية محمولة على مجموعة صفوف من المقرنصات. وتقع فتحة تعلوها المقرنصات على كلا جانبي المدخل وتطل على الرواق الغربي. أما الجانب الداخلي من المدخل يقع عقد ذو الثلاثة اقواس مزخرف بالحجارة السوداء والبيضاء اللون (الابلق)، ويرتفع هذا العقد فوق باب القطانين المصنوع من الخشب، والمثبت من الناحية الظاهرة عند فتحه بعدد من الكسوات بشكل أشرطة من النحاس والمزخرفة بكتابات ومثبتة بمجموعة من المسامير النحاسية. وتقع بين الشريطين الأوسطين مقرعة الباب والمصنوعة من البرونز المشغول.

4.1.7 النوافذ: لقد شكَّل عامل الخصوصية والأمان الاساس في تصميم النوافذ وموقعها على واجهات العمائر الاسلامية، ولذلك فقد اتبع نظام للتهوية وللإضاءة من خلال فتحات تطل على الصحن الداخلي، وإنْ دعى الأمر لوجود فتحات خارجية فإنها تكون صغيرة الحجم وتقع فى أعلى الواجهات لحجب الرؤية عن داخل المبنى. كما وقد روعي أمر ايصال القراءات القرآنية والصلوات الى الأفراد عن طريق موقع الفتحات في المباني التعليمية والدينية. وهذا ما يظهر في المدرسة التنكزية، حيث اعتمد أمر الاضاءة والتهوية بشكل اساسي على الصحن الداخلي الذي يعلوه القبة والمنور. وفي الواجهة الشرقية للطابق الأرضي صُممت نوافذ مستطيلة الشكل في الايوان الشرقي للمدرسة حيث يجتمع الشيخ والمحدثين وتُقام الدراسات والقراءات القرآنية والأدعية، وهذه الفتحات نافذة على الرواق الغربي للحرم. كما وقد صممت فتحات مستطيلة



صورة 39: بعض فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية (تصوير الباحثة)

الشكل على الواجهة الجنوبية في الطابق الأرضي واخرى تنتهي بأقواس مدببة الشكل كما في النافذة فوق المحراب، وفتحات اخرى داخلية كالفتحات النافذة بين الايوانات، وهي عبارة عن نوافذ مغلقة بشبكة من المعدن.

وفي الطابق العلوي صُممت فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للخانقاة والمطلة على الحرم، حيث يقع مجمع قاعات اقامة الصلوات للصوفيين، حيث يؤدون دراساتهم وشعائرهم الدينية، وهذه النوافذ مستطيلة الشكل ويعلو النافذتين في القاعة الشمالية الشرقية قوس دائري الشكل، أما النافذتين في القاعة الوسطى فيعلوهما قوسان مدببا الشكل. وبقية النوافذ إما مطلة على سطح المدرسة أو على الساحة الوسطية امام المدرسة أو على المساحة المكشوفة في هذا الطابق، أو تكون فتحات داخلية بين الغرف، وجميعها صُممت لتوفير الاضاءة والتهوية. وفي رباط النساء أيضاً استخدمت فتحات عددها قليل مستطيلة الشكل تعلو الواجهة المطلة على الساحة امام الرباط، أما الغرف الداخلية فقد صممت لها نوافذ داخلية مطلة على الممر او الايوان لتوفير الضوء والتهوية.

وفي الطابق العلوي لسوق القطانين صممت نوافذ مستطيلة الشكل لتوفير الاضاءة والتهوية للرُبَع (المساكن) من داخل ممر السوق. وفي حمّام العين استخدمت نوافذ تطل على طريق الواد، وواقعة في التجويفين الغربيين المطلين على قاعة الاستقبال. أما حمّام الشفا فتقع في شرقي قاعة الاستقبال ثلاثة شبابيك، كانت تطل سابقاً على حديقة النارنج ولكنها الآن غير نافذة وأحدها استخدم كباب للحمام[1]. أما فتحات الاضاءة في غرف الحمام المختلفة سواء حمام الشفا أو العين، فقد استخدمت فتحات المناور التي تعلو القباب في القاعتين الرئيسيتين (الاستقبال) لكلا الحمامين. وفي الغرف الاخرى استخدمت فتحات دائرية الشكل مكونة من مجموعة من الاسطوانات الفخارية وتعلوها طبقة من الزجاج، البعض منه ملون.

[1].العسلي، وثائق مقدسية، مج 1، ص111.

أما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة فقد صممت الفتحات بشكل طولي يتناسب مع شكل المأذنة الممتد الى أعلى، وهذه النوافذ توفر الاضاءة والتهوية على مختلف طوابق المأذنة، تنتهي بعض هذه النوافذ بأقواس دائرية الشكل. كما استخدم الشكل المربع للنوافذ الواقعة على الطبقة الاسطوانية الشكل اسفل القباب. وفي مأذنة الغوانمة استخدم الشكل الثماني في بعض فتحات النوافذ الواقعة على مستوى الطابق الرابع في المأذنة.

لقد كانت النوافذ في المباني تُغلق من الخارج بشبكة من الحديد تُعرف بالمصبعات الحديدية، تتكون من قضبان اسطوانية الشكل، تتقاطع مع بعضها افقياً ورأسياً. ويتم تثبيت القضبان الأفقية أولاً في فجوات مخصصة لذلك على حافتي النافذة، تتخلل هذه القضبان كرات مجوفة يتم انزال القضبان العمودية لاحقاً في هذه الكرات بشكل عمودي قبل أنْ يُثبت وتر النافذة. وتُغلق النافذة من الداخل بواسطة باب بمصراعين إما مدهون أو مُطعَّمْ بالعاج والأبنوس[1].



صورة 40: مأذنة الغوانمة من الناحية الجنوبية تظهر فيها فتحات النوافذ (تصوير الباحثة)

4.1.8 السلالم: تُعمل السلالم للانتقال من مستوى طابق الى مستوى طابق آخر. وتتكون السلالم من الشاحط Flight المكون من عدد من الدرجات، والمسطبة Landing. وقد صُممت السلالم في المدرسة التنكزية للانتقال من مستوى الطابق الأرضي الى طابق الميزانين ثمَّ الى الطابق العلوي. ويستند السلم على الحائط الجنوبي لبهو المدخل، حيث ترتفع عدة درجات الى المسطبة الأولى التي يقع فوقها جزء من طابق الميزانين، ثمَّ ترتفع درجات اخرى في شاحط بين جدارين الى مسطبة اخرى مكونة من عدة درجات، ثم الدخول مباشرة الى طابق الميزانين دون وجود مسطبة، واستمرار الادراج حتى يتم الوصول الى مستوى الطابق العلوي.



صورة 41: الدرج الحجري المؤدي الى مدخل مأذنة الغوانمة الواقع على مستوى الطابق الثاني (تصوير الباحثة)

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص109-111.

ويقع هذا الجزء الاخير من السلالم بشكل منفصل جزئياً عن المبنى حيث أنَّ له بناء صغير لتغطية السلالم. وهناك سلالم اخرى ثانوية يقع مدخلها من الجدار الشرقي للمدرسة تحت الرواق الغربي للحرم، وترتفع عبر هذا الجدار وتصل الى الطابق العلوي لسكن الصوفية ثم الى سطح المدرسة[1].

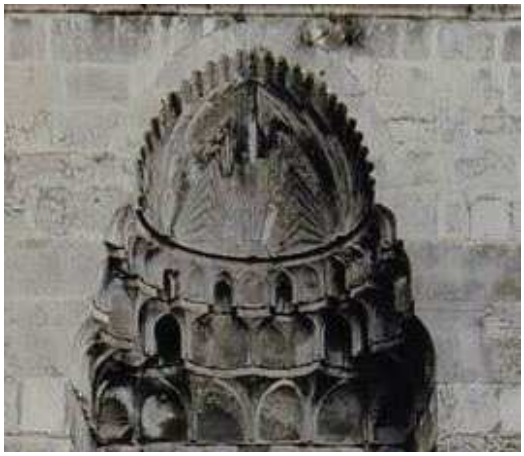
وفي سوق القطانين صممت عدة سلالم للوصول الى الرُبَع على الطابق العلوي للسوق. بعض من هذه السلالم نافذة من داخل السوق وبعضها مجاور للسوق. كما واستخدمت سلالم في داخل حمام العين من مدخله على طريق الواد، حيث يتكون من شاحط يشتمل على ثماني درجات ومسطبتين واحدة عند المدخل واخرى عند باب صالة الحمام، وتقع هذه السلالم بين جدارين جزء منها يقع اسفل الحاصل الأول في سوق القطانين. أما خان تنكز فقد استندت سلالم خارجية على الجزء الشمالي الشرقي من الجدار الشمالي للساحة المكشوفة، حيث يتم الوصول من خلالها الى الطابق العلوي في الخان. أما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة فقد استخدمت السلالم الحلزونية الشكل في داخل المأذنتين للوصول الى شرفة المؤذن، وتستند هذه الدرجات مكان اتساعها على جدار المأذنة. ويظهر سقف سلالم مأذنة باب السلسلة بشكل متدرج حيث يتشكل من الجانب الآخر من السلالم العلوية، أما في مأذنة الغوانمة فقد استخدم القبو البرميلي الشكل في سقف السلالم الداخلية[2]، واستخدمت سلالم خارجية للوصول الى المدخل الواقع على مستوى الطابق الثاني من قاعدة المأذنة. وتتكون هذه السلالم من عدة شواحط ومساطب ترتفع باتجاه الشمال ثم باتجاه الغرب، وتستند على جدار بناء يقع على ساحة الحرم، وفي الجانب الآخر من السلالم يقع درابزين حجري.

4.1.9 المقرنصات: استعملت المقرنصات كعنصرانشائي أو كعنصر زخرفي في العمارة الاسلامية، وقد تستخدم هذه المقرنصات كعنصر انشائي وفي ذات الوقت تخدم كعنصر زخرفي. وحيث استخدمت المقرنصات كعنصر انشائي فذلك لتحويل المسقط المربع الى دائرة عن طريق عمل محاريب Squinches في الزوايا لتقوم فوقها رقبة القبة الدائرية الشكل أو المثمنة. وتتكون المقرنصات من مجموعة من الصفوف كما يظهر في مدخل المدرسة التنكزية ومدخل سوق القطانين الشرقي، حيث تمَّ تحويل التجويف القائم الزاويا الى نصف قبة كروية الشكل.

[1]. العمري، مسالك الابصار، ج1، ص163.

[2]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.182 p. 248

كما ويظهر ذلك ايضاً في مجموعة من الغرف في حمامي الشفا والعين، حيث تمَّ تحويل المسقط المربع للغرف الى قباب عن طريق المحاريب في الأركان وعلى اضلاع المربع، لتقوم فوقها القباب الدائرية أو البيضاوية الشكل.







صورة 42، 43: المقرنصات في اعلى مدخل المدرسة التنكزية.
من موقع http://Archnet.org
Image ID: ICR2038, ICR2039
Courtesy of the Creswell Archive



صورة 44، 45: المقرنصات في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي.
(تصوير الباحثة)

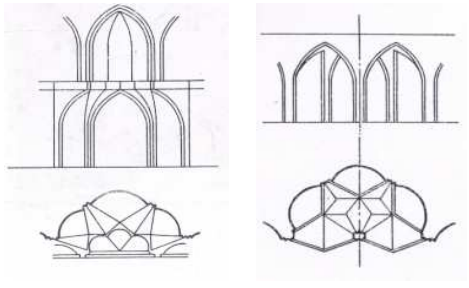
4.2 العناصر الزخرفية :

لقد شكلت العناصر الزخرفية وحدات هامة ومكملة لعمائر الأمير تنكز. وقد ارتكزت هذه العناصر على قيم فنية تشكيلية اساسها طبيعة معالجة المساحة من خلال اللون، والخط، وتوظيف التباين بين الظل النور، وملمس السطح، والايقاع؛ حيث أنَّ تكرار وحدات زخرفية على ايقاع معين إنما يؤدي الى تكوين وحدة متكاملة من العنصر الزخرفي، والذي يحقق تبعاً لذلك الصفة الجمالية. وقد ارتكز نمط الزخارف على اشكال زخرفية سواء نباتية أو هندسية أو باستعمال الخط، وتوجد في بعض الاحيان زخارف هندسية مع زخارف نباتية في مسطح واحد، أو زخارف نباتية مع كتابات

في مسطح واحد. وقد تشكلت الزخارف النباتية بتعبير تجريدي من اشكال اوراق الاشجار وفروع النباتات بشكل منحني ومتشابك ومتتابع (والذي عُرف بزخارف الأرابيسك)[1]. أما الزخارف الهندسية فتعتمد على تشكيل خطوط ممتدة ومتداخلة وتكرارها بايقاع منتظم، والزخارف الكتابية اعتمدت على نص الآيات القرآنية ونصوص تاريخية.

أما أبرز العناصر الزخرفية التي شكلت عنصراً جمالياً في عمائر الأمير تنكز فهي:

4.2.1 المقرنصات: بالإضافة الى استخدام المقرنص كعنصر انشائي في عمائر تنكز كما تمَّ ذكره سابقاً في نص الحديث عن العناصر الانشائية، فإنه قد استخدم كذلك كعنصر زخرفي. حيث تمَّ التشكيل بالمقرنصات في مدخل المدرسة التنكزية والمدخل الشرقي لسوق القطانين (باب القطانين)، مضيفاً صفة جمالية لهذه المداخل عن طريق التنسيق بين الظل والنور الناتج من تباين السطوح البارزة وغيرها المغمورة في المقرنصات. وقد ظهرت المقرنصات كمجموعة من صفوف القوصرات (التجاويف) عددها ثلاثة صفوف في المدرسة التنكزية وتحمل فوقها نصف القبة الكروية الشكل بعقد مدبب. وفي مدخل سوق القطانين استخدمت خمسة صفوف من المقرنصات تحمل فوقها نصف القبة الكروية الشكل. ويسمى هذا النوع من المقرنصات تبعاً لشكله بالمقرنص بدلاية (Stalactite). وعلى جانبي المدخل تقع فتحتان تطلان على الرواق الغربي، والتي تعطي مضمون الاستمرارية للرواق حتى لا يُشكل بناء مدخل السوق عائقاً يحجب هذه الاستمرارية. ويعلو هذه الفتحات صفين من المقرنصات بدلاية. وفي داخل سوق القطانين عند الحاصل رقم 17و18 يقع مقرنص بثلاث صفوف في أعلى القبو، وقد نُقش عليه اسم المهندس محمد بن أحمد بن غليش، وهو المهندس القائم بالعمل[2]. وهذا النوع من المقرنصات يُعرف بالمقرنص البلدي.



(ب) (أ)

(أ) شكل مقرنص بدلاية
(ب) شكل مقرنص بلدي
من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 100

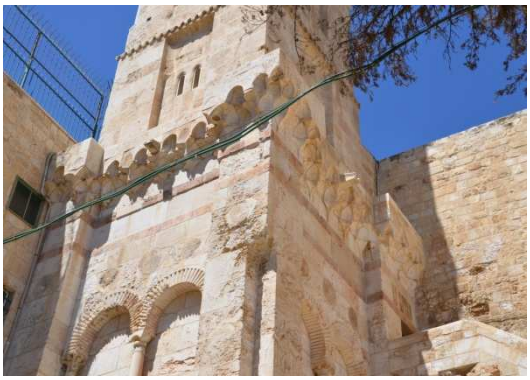


صورة 46: احدى الفتحتين الواقعتين على جانبي مدخل سوق القطانين، وتظهر المقرنصات بدلاية في اعلاها.
(تصوير الباحثة)

[1]. حسن، فنون الاسلام، ص250.

[2] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.98 p.278.

وفي مأذنة باب السلسلة تقع ثلاث صفوف من المقرنصات في اعلى القوصرات الواقعة في الطابق اسفل شرفة المؤذن. كما أنَّ هناك صفّ من المقرنصات الغير مكتمل يقع على الشريط الفاصل بين الطابق الثالث وشرفة المؤذن. وفي مأذنة الغوانمة استخدمت ثلاث صفوف من المقرنصات في أعلى الطابق الثاني للقاعدة. كما ويفصل صفّ من المقرنصات بشكل شريط الطابق الرابع عن الطابق الخامس للمأذنة. ويقع صفين من المقرنصات اسفل شرفة المؤذن، تشكل منظراً جمالياً للشرفة.



صورة 47: صفوف المقرنصات في اعلى الطابق الثاني لقاعدة مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

4.2.2 القوصرات: هي عبارة عن تجاويف مسمطة تعلوها عقود مدببة أو مقرنصات، وقد تُنَظم داخل هذه القوصرات فتحات. استخدمت لإعطاء تنويع للمسطحات تفادياً للملل، كما وقد استخدمت بشكل ايقاعي في تحويل المسقط المربع الى دائرة لحمل القبة. وقد استخدمت القوصرات بشكل ظاهر في مأذنة الغوانمة حيث تقع في الجزء الأسفل الشرقي والجنوبي من القاعدة قوصرات بشكل مستطيل يعلوها شريط من المقرنصات، وفي الجزء العلوي من القاعدة تقع قوصرات يعلوها قوس على هيئة حدوة الفرس، ثمَّ يقع على مختلف طوابق المأذنة قوصرات بتجاويف بسيطة يعلو البعض منها أقواس مدببة الشكل وتنظم في داخلها فتحات النوافذ.



صورة 48: القوصرات في مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

وفي الجزء العلوي المثمن الشكل فوق شرفة المؤذن تقع قوصرات على جميع الجوانب وتعلوها اقواس مدببة الشكل وتتخللها فتحات صغيرة. وفي مأذنة باب السلسلة تقع تجاويف بشكل دائري على واجهة الطابق الثاني من المأذنة، ويعلوها في الطابق الثالث قوصرات تتخللها نوافذ طولية، ويقع على جوانب كل منها أعمدة وتعلوها في الواجهة الشمالية والجنوبية ثلاث صفوف من المقرنصات بخمس وحدات، أما في الواجهة الشرقية والغربية فتقع الثلاث صفوف من المقرنصات بثلاث وحدات.

أما في داخل البناء فقد استخدمت القوصرات في الحمامات، حيث تظهر عدة قوصرات أسفل القباب بشكل محاريب صغيرة، كما في حمام العين. أيضاً صممت عدة قوصرات على جدران الحمامات الداخلية وفي الطابق العلوي من سوق القطانين في داخل الرُبع، وذلك لاستخدام الوافدين

الى الحمام أو الرُبع، والبعض منها ثُبتت بداخلها احواض المياه الرخامية، وغالبية هذه القوصرات تعلوها عقود مدببة الشكل.

4.2.3 المداميك الملونة (الأبلق): استعملت المداميك الملونة باستخدام الأحجار الجيرية البيضاء اللون مع الرخام الملون سواء الأحمر أو الأسود أو الأصفر. وقد تمَّ تطبيق هذا الاتجاه في تبادل الوان الاحجار كعنصر زخرفي لاحياء الواجهات وتنوع التعبير الزخرفي عليها وابراز عناصرها. ففي مدخل باب القطانين الشرقي يظهر الأبلق باللونين الأحمر والكريمي(البيج) على العقد المدبب الشكل في اعلى المدخل. كما واستخدم الأبلق باللونين الأسود والبيج في العقد ذو الثلاثة أقواس الذي يعلو باب المدخل، ويظهر الأبلق في القسم الأوسط من العقد بشكل شعاعي.



صورة 49: الصنج الحجرية في اعلى باب المدرسة التنكزية (تصوير الباحثة)

وفي الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية استخدم الأبلق باللونين الأصفر والأسود[1] في العقد المدبب فوق النافذتين في القاعة الوسطى للطابق العلوي المخصص للصوفيين، ولكنها تظهر حالياً باللونين الأصفر والأبيض.

4.2.4 الصنج الحجرية المعشقة (اللحامات المتداخلة): تُعتبر الصنج المعشقة كنوع من الأبلق ولكن بتشكيل متداخل وبأشكال هندسية أو نباتية. وتستعمل في النواحي التشكيلية الزخرفية فوق فتحات الأبواب والنوافذ، كما ولها هدف انشائي في حال وقوعها فوق فتحة الباب مباشرة، حيث أنَّ قوة الرابط فيما بينها تشكل تماسكاً لعقد الباب. ففي مدخل المدرسة التنكزية، استخدم صفين من الصنج الحجرية المعشقة باللونين الاسود والابيض كعنصر زخرفي، الأول يقع بين عقد الباب والشريط الكتابي، والثاني يقع فوق الشريط الكتابي، وقد اتخذ الصفين الاشكال الهندسية المتداخلة، البسيطة في الصف الأول والمعقدة في الصف



صورة 50: رسم باب القطانين من داخل السوق، للفنان Bauernfeind, Gustav 1886

[1].العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص111.

الثاني. كما وتظهر الصنج المعشقة فوق الفتحتين على جانبي باب القطانين من الداخل باللونين الأسود والأبيض كعناصر زخرفية. أما بعض دكاكين سوق القطانين والمتواجدة في الجزء الشرقي من السوق، فقد استخدمت الصنج المعشقة لوظيفة انشائية حيث شكلت الأوتار فوق فتحات الدكاكين، وتحمل فوقها العقود.

4.2.5 الشريط الكتابي: استخدم الشريط الكتابي كعنصر زخرفي على واجهات المباني أو في داخل البناء. وقد استخدم نص الآيات القرآنية بشكل يتلائم وطبيعة استخدام المكان، مثل أنْ تُستخدم النصوص التي لها علاقة بالقبلة فوق المحراب، أو الآيات القرآنية التي لها علاقة بتعمير المساجد توجد على ابواب المساجد واماكن العبادة، وهكذا... . كما وتضمنت الكتابات على معلومات تعريفية تخص الباني وسنة البناء وشعار القائم بالبناء (الرنك). وقد استخدمت الالوان في الكتابة، من بينها الطراز المُذَّهَب[1] كما في المدرسة التنكزية، حيث امتد شريط كتابي مُذَهَب على جوانب المدخل وفوق باب المدخل بين صفي الصنج الحجرية المعشقة. ويتضمن الشريط رنك الأمير تنكز وهو الكأس داخل دائرة في ثلاث مواضع، على الجوانب القائمة مع جدار المدخل وفوق الباب مباشرة. ونَصْ النقش الكتابي يشتمل على البسملة ثم هدف انشاء البناء (لنيل رضوان الله وغفرانه) واسم القائم بالبناء وسنة البناء[2].

وقد استخدم الشريط الكتابي كعنصر زخرفي في داخل البناء لربط المستويات مع بعضها (الأفقية والعمودية)، أو لوصل رقبة القبة أو العقد مع السطح العمودي، كما يظهر في داخل المدرسة التنكزية؛ حيث يقع شريط كتابي على جدران المدرسة الداخلية يمتد على جدران الايوانات، ويختلف عرضه في بعض الجوانب حيث يقل فوق محيط المحراب وفوق فتحات الابواب والنوافذ.

وفي مدخل سوق القطانين الشرقي (باب القطانين)، اشتملت البوابة على نص كتابي بموضعين؛ الأول: النص المكتوب على الشريط النحاسي الواقع على مصراعي الباب الخشبي لباب القطانين، والذي ينص بأنَّ هذا الباب المبارك قد جُدِدَ في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، مع

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109.

[2] . Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 223

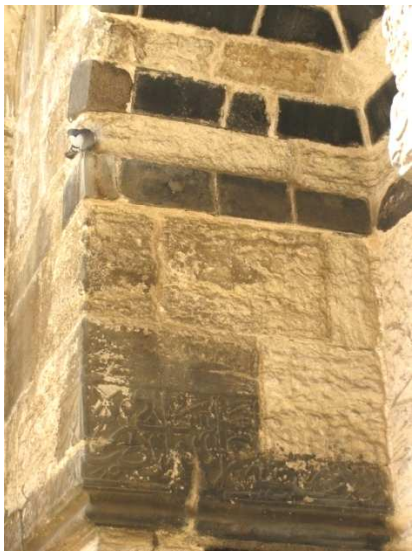


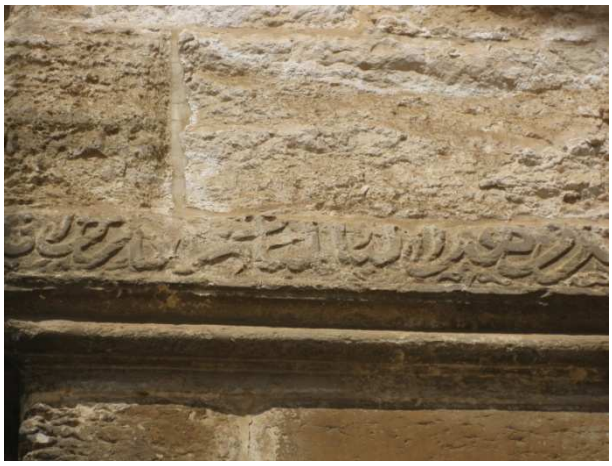


صورة 51، 52: باب القطانين الخشبي والشريط النحاسي الواقع عليه. (تصوير الباحثة)

ذكر القابه والدعاء له، بإشارة من الأمير تنكز حامي الممالك الشامية، وذكر أدعية له ثم تاريخ البناء. والثاني: شريط كتابي نُقِشَ بالطراز المذهب[1] ويقع اعلى وتر (عتب) الباب، ينص ما بقي منه ظاهراً على البسملة وعلى نقشْ خاص بتجديد فتح الباب في عهد السلطان الناصر محمد بإشارة من الأمير تنكز والدعاء له وتاريخ البناء.

وفي خان تنكز يقع الشريط الكتابي في بهو المدخل منقوشاً على وتر مدخل الساحة المكشوفة للخان، ويظهر رنك الأمير تنكز(الكأس داخل دائرة) في ثلاث مواضع؛ في منتصف النص الكتابي على الوتر، وعلى الجدارين الجانبيين الداعمين للوتر، ويشتمل نص الكتابة على البسملة ثم نص بناء هذا المكان (السوق والرُبَع اعلاه) بأمر من الأمير تنكز والدعاء له وتاريخ البناء.

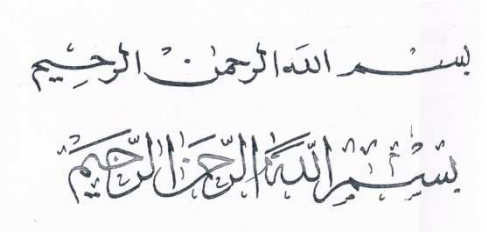




صورة 53، 54: الشريط الكتابي المنقوش الواقع اعلى باب القطانين الشرقي. (تصوير الباحثة)

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162.

أما طراز الخط الذي استعمل في الأشرطة الكتابية، فقد تنوع بين الخط النسخ والخط الثلث، والغالب هو الخط الثلث. وهناك تشابه بين الخطين، مع فارق أنَّ خط النسخ تتميز حروفه بالزوايا الحادة أما حروف الثلث فهي ذات زوايا مرنة. وامتازت بتداخل كلماتها في بعضها البعض وبكثرة تشكيل الحروف[1].



الفرق بين خط النسخ والثلث الظاهر بالبسملة. من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 134ب

4.2.6 الرنك: استعملت الرنوك كختم لتمييز الأمير، وهي تدل على المرتبة والمكانة المتميزة التي وصل اليها[2]، فالكأس يشير الى الجاشنكير(ذواق السلطان) أي المُؤَمَنْ على حياة السلطان، وقد نُقِشت في عدة مواضع تتخلل النص الكتابي في الأشرطة الكتابية، وقد تمَّ توضيح موقعها سلفاً في خلال ذكر الشريط الكتابي. كما وقد ظهرت على المشكاة الخاصة بالأمير تنكز.



صورة 55: رنك الأمير تنكز (الكأس داخل حلقة) الواقع اعلى مدخل ساحة خان تنكز. (تصوير الباحثة)

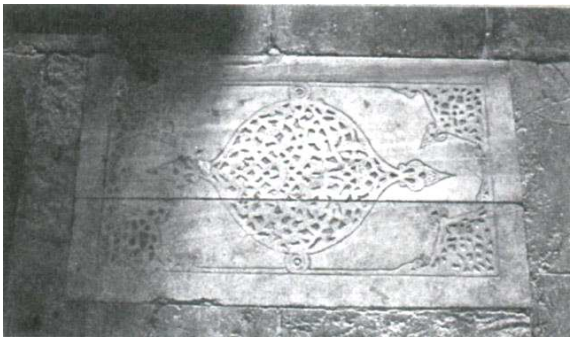
4.2.7 التكسيات الرخامية: يتم تكسية الحوائط الداخلية بالرخام خاصة في المباني الدينية كنوع من الاظهار الجمالي لداخل البناء، حيث يتم استخدام الرخام الملون بإيقاع معين. ويتخلل التكسية احياناً تكوينات بأشكال هندسية، كما ويتم حفر الرخام بأشكال هندسية أو نباتية. ويظهر ذلك في داخل المدرسة التنكزية حيث تمتد التكسيات الرخامية الملونة على جميع جدران المدرسة الداخلية[3] بارتفاع حوالي ثلاثة امتار، حيث تمتد الى بداية عقد المحراب في حائط القبلة وتتخللها الواح رخامية منقوشة بأشكال زخرفية، ويعلوها الشريط الكتابي. وتظهر ايضاً التكسيات الرخامية في

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص65.

[2]. يُمكن النظر الى شرح عن الرنوك في: مقالات أثرية بالمناسبة العشرية، مقالة "رنوك مملوكية من تل تعنك" لنائل جلال، في الصفحات من 132-134.

[3]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109.

الايوان الجنوبي حيث تمتد الواح رخامية بشكل طولي على جانبي المحراب، ويعلوها الواح رخامية ملونة باللون الأحمر الداكن، محاطة بأشرطة مزخرفة باشكال نباتية، ويعلوها شريط آخر مزخرف باشكال اقواس مسمطة ومزخرف داخلها بموزاييك الرخام بأشكال هندسية. أما المحراب فيمتد من الاسفل على شكل اقواس مسمطة ملونة ومزخرفة يعلوها الواح طولية من الرخام متعاقبة الالوان، الابيض والاحمر او الاخضر، ويعلوها شريط كتابي نصه" ... اتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا". ويعلوه نصف القبة الكروية المزخرفة باشكال نباتية والوان متعددة منها الأخضر والذهبي.. محاطة من الداخل بأشكال هندسية على شكل مثلثات متتابعة. ويحيط بقبة المحراب من الخارج تكسية رخامية باشكال هندسية متداخلة يعلوها الشريط الكتابي. وفي مسجد الخانقاة في الطابق العلوي للمدرسة، تمتد التكسيات بالرخام الملون على جدار المسجد والمحراب[1].





صورة 56، 57: بعض التكسيات الرخامية داخل المدرسة التنكزية.
من موقع: http://Archnet.org
Image ID: ICR2043, IMG27015
Courtesy of the Creswell Archive, Ashmolean Museum. And Michael Hamilton Burgoyne.

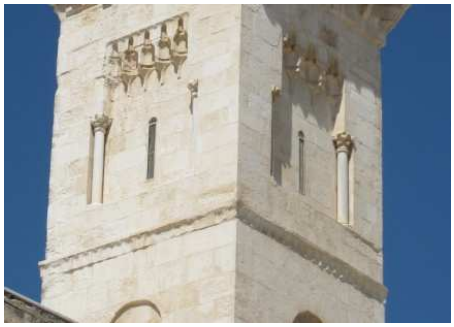




صورة 58، 59: محراب مسجد المدرسة التنكزية في الايوان الجنوبي.
من موقع: www.aqsaonline.org

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111؛ Kenney, Power and Patronage in Medieval Syria, p. 104

4.2.8 الكورنيش: وهي عبارة عن اشرطة بارزة تمتد وتحدد مساحة معينة أو ارتفاع معين. وقد تظهر بشكل خط ممتد أو يتخللها اشكال زخرفية. استعملت في باب القطانين بشكل بروز يفصل واجهة المدخل بشكل افقي، ويرتفع الى مستوى بداية عقود الفتحات. كما واستعملت في مأذنة باب السلسلة ومأذنة الغوانمة بشكل بروز يحيط بالمأذنة من جوانبها الأربعة ويحدد طوابق المأذنة من الخارج، ويظهر بشكل سلسلة من المقرنصات وأيضاً بشكل محاريب صغيرة مفرغة.



صورة 60: الكورنيش بشكل محاريب في مأذنة باب السلسلة



صورة 61: الكورنيش بشكل مقرنصات ومحاريب مفرغة في مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

لقد شكلت هذه العناصر الزخرفية بمختلف وحداتها وتشكيلاتها النباتية أو الهندسية أو الخطية مع العناصر الانشائية سواء الداخلية أو الخارجية طرازاً معمارياً مميزاً لعمائر الأمير تنكز، توحدت فيه اشكال عمارته واتخذت بُعداً معمارياً وزخرفياً، فأصبحت معالم مميزة في ظل فن العمارة الاسلامية.

4.3 المواد المستخدمة في البناء :

4.3.1 الحجر: استعمل الحجر كمادة انشائية اساسية في عمائر تنكز، وذلك لتوفره في محيط المنطقة نسبياً الى توفر مواد انشائية اخرى كالطوب أو الخشب الذي يندر توفره. كما أنَّ الحجر كمادة انشائية تعطي صفة الصلابة والتوازن والديمومة، ولذلك فقد طغت المنشآت من الحجر على أي مادة اخرى. وحيث أنَّ مدينة القدس تقع على منطقة جبلية تحيطها الوديان، فقد توفرت مناطق كمحاجر لاقتلاع الاحجار على مختلف انواعها وصلابتها، اساسها الحجر الجيري، وقد يتوفر مع مادة اخرى أو تتباين نسبة صلابته[1]، وقد يتباين لونه. كما وقد استخدم الحجر الاسود خاصة في اضفاء التباين في الوان الحجر (الابلق)، والذي عُرف بحجر موسى، حيث تمَّ جلبه من المنطقة المحيطة بمقام النبي موسى شرق مدينة القدس على طريق البحر الميت[2].

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 41.
[2]. Burgoyne, The Noble Sanctuary, p. 207.

وقد تمَّ استخدام مادة الحجر في جميع عمائر الأمير تنكز كمادة انشائية اساسية، وفي داخل البناء كذلك حيث استخدم الحجر في عقود اواوين المدرسة وفي ارضياتها المبلطة باللون الابيض وفي بركة الماء داخل صحن المدرسة، كما وقد استخدم في الادراج الداخلية في المدرسة، وفي الحمامين في المساطب والادراج وبعض الاحواض وبركة غرفة الاستقبال في حمام العين، وقد استخدمت مادة الكلس مع الحجر[1].

4.3.2 الرخام: استخدم الرخام الملون في عدة مواضع في عمائر الأمير تنكز، وقد كان يتم جلب الرخام الملون باللون الوردي من محاجر بالقرب من مدينة بيت لحم، والرخام باللون الاصفر من منطقة دير ياسين على بعد حوالي 5 كم غرب مدينة القدس[2]. وقد استخدم الرخام في تشكيل الابلق وفي الصنج الحجرية المعشقة في الواجهات، كما في باب القطانين ومدخل المدرسة التنكزية، وفي اعلى الحواصل داخل سوق القطانين. وقد استخدم الرخام الملون في ارضية المدرسة على مختلف الطوابق، كما وفي تكسية الجدران بالرخام الملون وفي المحراب سواء في الايوان الجنوبي للمدرسة أو مسجد المدرسة في الطابق العلوي، حيث استخدم الرخام بتشكيلات هندسية (موزاييك الرخام). وفي حمامي الشفا والعين استخدمت الأرضيات الرخامية الملونة، وايضاً التشكيلات الرخامية خاصة الاشكال النجمية وهو ما يُعرف بالاطباق النجمية، والتي بقي منها ظاهراً في الغرفة الدافئة الملحقة الغربية في حمام العين[3]. كما واستخدم الرخام في احواض المياه وفي البركة الواقعة في غرفة الاستقبال في حمام الشفا.

4.3.3 الفخار: استخدمت مادة الفخار بشكل اسطوانات في الفتحات التي تتخلل القباب في غرف حمامي الشفا والعين للسماح بدخول الضوء الى داخل الحمام. ويتم تثبيتها بحيث تظهر بتشكيلات زخرفية على القباب، وتكون مغطاة بالزجاج بعضه ملون.

---

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109–112.

[2].Burgoyne, The Noble Sanctuary, p. 207

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 291

4.3.4 الخشب: لم تكن مادة الخشب هي المادة الاساسية في الانشاء وذلك لصعوبة الحصول عليه وقلة توفره في المنطقة. ومع ذلك فقد وُجدت بعض الاسقف الخشبية، حيث تبين الوقفية بأنَّ بعض الغرف في طابق الميزانين والطابق العلوي للمدرسة مسقوفة بالخشب، كما أنَّ المسجد العلوي والايوان شماله والمجلس سقوفها من الخشب المنجور المزخرف والملون بألوان اللازوردي والذهبي. وقد شاع استخدام الخشب في الابواب والنوافذ، حيث تنص الوقفية على استخدام خشب الجوز لمصراعي باب المدرسة التنكزية بصفائح نحاس اصفر اللون، وفي مصراعي ابواب الغرف في داخل المدرسة والتي في العادة تُدهن. وفي النوافذ فقد استخدم الخشب لمصراعي بعض النوافذ في المدرسة التنكزية والمُطَعَّم بالعاج والابنوس[1].



صورة 62: الاشكال الهندسية التي تُشكل الطبقة الخارجية من باب القطانين. من موقع www.alaqsa-online.net

واستخدم الخشب في باب مدخل سوق القطانين الشرقي ومكون من عدة الواح خشبية بشكل طولي، فيه حشوة الباب مزدوجة بحيث يظهر القسم أو الطبقة الداخلية باتجاه السوق بشكل مغاير عن الطبقة الخارجية. فالطبقة الداخلية مكسوة بأشرطة نحاسية مزخرفة بالكتابات تعمل على تثبيت الالواح الخشبية ببعضها البعض، ومثبتة بواسطة فصلات نحاسية بشكل نصف كروي، وفي اعلاه عدة فصلات بارزة. أما الطبقة الخارجية والتي في العادة تكون غير ظاهرة حيث يتم فتح مصراعي الباب، إلا أنها تتشكل من مجموعة من الالواح الخشبية والتي تأخذ اشكال هندسية.

4.3.5 المعدن: استخدم معدن الحديد في المصبعات الحديدية لتوفير الحماية على فتحات النوافذ، وهذه المصبعات مكونة من قضبان اسطوانية منظمة بشكل رأسي وأفقي. وقد استعملت هذه المصبعات في جميع فتحات النوافذ والتي تكون في الغالب بشكل مستطيل على واجهات المدرسة التنكزية ورباط النساء وسوق القطانين في الرُبَع وحمامي الشفا والعين، ايضاً في داخل البناء على الفتحات بين الغرف وبين الايوانات والغرف في المدرسة.

أما النحاس فقد استخدم بشكل كسوة من صفائح المعدن مثبتة على الباب الرئيسي لمدخل المدرسة التنكزية، وعلى باب القطانين حيث استخدمت اشرطة من النحاس لتثبيت الالواح الخشبية، وثبتت بواسطة مسامير نحاسية، ونُقش عليها بالخط الثلث.

[1] العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109-111.

أما معدن البرونز فقد استخدم في مدقات الابواب، حيث تظهر مدقة باب سوق القطانين مصنوعة من البرونز المشغول، بشكل دائرة تتوسطها نصف كرة بارزة، واربع انصاف كرات اخرى بارزة ايضاً، ومثبتة على قرص مثبت بالباب الخشبي.



صورة 63: مدقة باب القطانين من البرونز المشغول (تصوير الباحثة)

كما واستخدم البرونز في الـــهلال، وهو عبارة عن زخرفة معدنية تأخذ اتجاه القبلة وتعلو قباب المساجد والمآذن كما في مأذنتي باب السلسلة والغوانمة، وذلك لتمييز المساجد الاسلامية.



الزخرفة المعدنية بشكل الهلال
اعلى مأذنة الغوانمة (رسم الباحثة)

4.3.6 الزجاج: استخدم الزجاج في تغطية الفتحات الدائرية في اعلى قباب حمامي الشفا والعين، وبعض من الزجاج ملون، بحيث يسمح بمرور اشعة الشمس بالوان متنوعة الى داخل غرف الحمام، والتي بدورها تضفي منظراً جميلاً وشعوراً بالارتياح لمرتادي الحمامات. كما واستخدم الزجاج في صناعة القناديل، كالقنديل أو المشكاة الزجاجية الخاصة بالمدرسة التنكزية، وهي مشكاة مطلية بالمينا ومذهبة. وتتكون المشكاة من الرقبة وهي بشكل مخروطي، والجسم الذي يقع منتفخاً من الوسط ومسحوباً من أعلى ومن اسفل حيث يلتحم مع الرقبة من اعلى ومع القاعدة من الأسفل والتي تقع بشكل مخروطي على شكل قمع مقلوب. وللمشكاة مجموعة من المقابض عددها ستة واقعة بشكل بارز على الجسم، يتم من خلالها تعليق المشكاة بواسطة سلاسل نحاسية مثبتة بقطعة نحاسية في الأعلى.



صورة 64: مشكاة مسجد المدرسة التنكزية الخاص بالأمير تنكز. محفوظة حالياً بالمتحف الاسلامي في الحرم القدسي الشريف.
(تصوير الباحثة)

تقع زخارف متعددة على القنديل بأشكال نباتية وتوريقات متشابكة كما واستخدمت الكتابات بخط الثلث على رقبة وجسم القنديل، فالنص على رقبة القنديل هو الآية القرآنية" إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام"، حيث كان هناك اهتمام بالآيات القرآنية الخاصة بالنور أو الخاصة بالمساجد التي صنعت هذه المشكاوات لإنارتها، لتبقى دائماً مضاءة وعامرة بالمصلين. والنص على جسم القنديل "برسم مدرسة المقر العالي المولوي الأميري السيفي تنكز كافل الممالك الشريفة بالشام المحروسة"، حيث تشير الى المكان الذي ستُعلق فيه المشكاة والتعريف بصاحب المشكاة (وهو الأمير تنكز) والقابه ووظيفته. ويتخلل الكتابات رنك الأمير تنكز في عدة مواضع. كما واستخدمت عدة الوان في القنديل كالذهبي والأزرق والأحمر والأسود، واستخدمت الاطر في تحديد المساحات والكتابات على سطح القنديل[1].

[1]. يُمكن النظر الى الوصف الدقيق للمشكاة من: Abu Khalaf, Islamic Art, pp. 78-79؛ سلامة، المخطوطات القرآنية، ص14.

الفصل الخامس

التحليل المعماري لعمائر الأمير تنكز والنتائج



الفصل الخامس

أعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام

5.1 اعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من حيث التخطيط والواجهات والنسب المعمارية:

إنَّ الفترة الزمنية الطويلة التي قضاها الأمير تنكز في منصب نائب دمشق، كان لها أثرها في إثراء الحركة العمرانية في بلاد الشام ومصر؛ حيث قام بإنشاء مختلف الطرز من العمائر في كل من نابلس كالجامع المعروف بجامع المساكين، والذي حوله تنكز من مشفى صليبي الى جامع في عام 1342م، وخان وبيمارستان عمره تنكز عام 741هـ/ 1340م في صفد، وخان المنة للسبيل في جلجولية، وخان في الطيرة في منطقة طولكرم، وجامع في عجلون، وجامعه ومدرسته في دمشق، وداره في حي الكافوري في القاهرة، وغيرها من العمائر.... والتي تميزت بالطابع الاسلامي المملوكي، كما وبرزت عمائره من خلال انظمة تخطيطها واسلوب العناية بواجهاتها فشكلت سلسلة من عمائر الأمير تنكز. وغدت جنباً الى جنب مع عمائر مملوكية اخرى اساساً لتوثيق نظام التخطيط والقيم الجمالية، وابراز الطراز المعماري المملوكي بين الطرز المعمارية السابقة واللاحقة.

ففي بلاد الشام تشهد عمائره وأملاكه لسعة نفوذه ورغبته في ترسيخ أثر له في المنطقة من خلال تعدد أعماله وممتلكاته، والتي قام بإدراجها جميعها الكاتب محمد دهمان في كتابه ولاة دمشق[1]. وقد تميزت من بين اعماله المعمارية عدة مباني في مدينة دمشق منها دار الذهب (والتي عُرفت سابقاً بدار الفلوس، لاحقاً انتقل اليها الأمير تنكز، ثم قام مكانها خان السبيعي وقسم من قصر العظم[2])، وجامع تنكز، ودار القرآن والحديث التنكزية (والتي عُرفت لاحقاً بالمدرسة الكاملية،

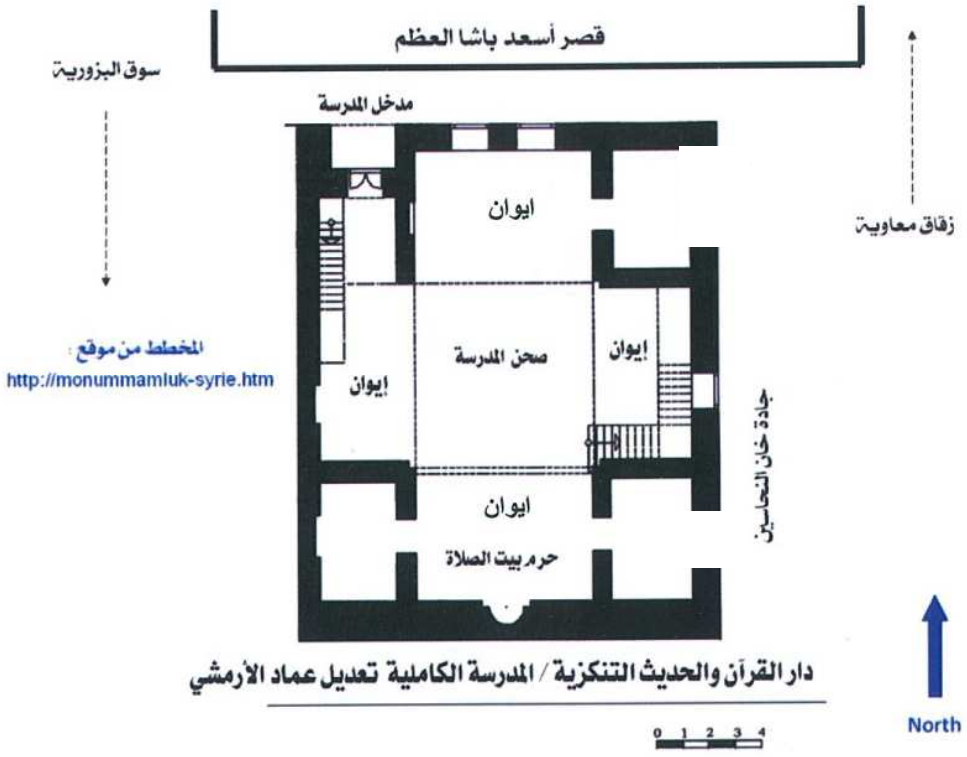
---

[1]. يمكن النظر الى قائمة اعمال وممتلكات الأمير تنكز، وكيفية تقييمها مادياً في الصفحات من 167- 168 والصفحات من 176- 179 من كتاب "ولاة دمشق" للكاتب محمد دهمان.

[2]. دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص167.

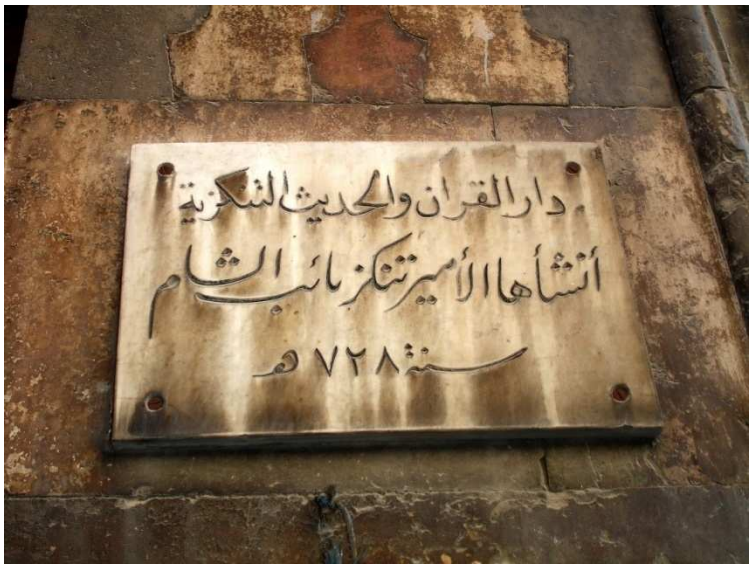
نسبة الى صاحبها الشيخ محمد كامل القصاب الذي اشتراها وجددها وقام بإحياءها)، وتربة زوجته ستيته، وغيرها من الأعمال. والتي من الملاحظ أنَّ الأمير تنكز قد أمر ببناء العديد من عمائره في تاريخ يتوافق مع أمره بالبناء في مدينة القدس، مما يؤكد لنا بأنَّ الأمير قد سعى الى النهوض بالحركة العمرانية في بلاد الشام عامة ولم يكن اختياره عشوائياً، ومدى اهتمامه بمدينة القدس ومكانتها عنده، حيث حظيت بما لمدينة دمشق من عناية واهتمام.

كما قد توحدت عناصر انشائية معمارية واخرى زخرفية بين عمائره في مدينة القدس واخرى في المدن الاخرى. بالإضافة الى تشابه الاستعمال الوظيفي لعمائره؛ فدار القرآن والحديث التنكزية في دمشق هي مدرسة لتعليم اصول الدين والحديث النبوي، فيها الطلبة والمشايخ، كما وأنَّ المدرسة التنكزية في القدس لها نفس الوظيفة وفيها دار حديث فيه الطلبة والمحدثين كما وفيها الصوفيين.
والتخطيط للمدرسة ذات الايوانات الأربع قد استخدم في المدرسة التنكزية في مدينة القدس كما واستخدم في دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق، والتي انشأت في عام 728هـ/ 1327م في نفس تاريخ بناء المدرسة التنكزية في القدس. ويقع المدخل على جانب الواجهة بشكل يحجب الرؤية عن الداخل، ثمَّ يتوزع مخطط الدار الواقع على طابقين الى صحن المدرسة المكشوف واربع ايوانات، يقع في الايوان القبلي الجنوبي محراب المسجد، ويعلو فتحات الايوانات عقود مدببة الشكل.



دار القرآن والحديث التنكزية / المدرسة الكاملية تعديل عماد الأرمشي

مخطط رقم 24: المسقط الأفقي لدار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق
من الموقع الالكتروني مدارس دمشق الشام القديمة Facebook/ Madrasas in Damascus



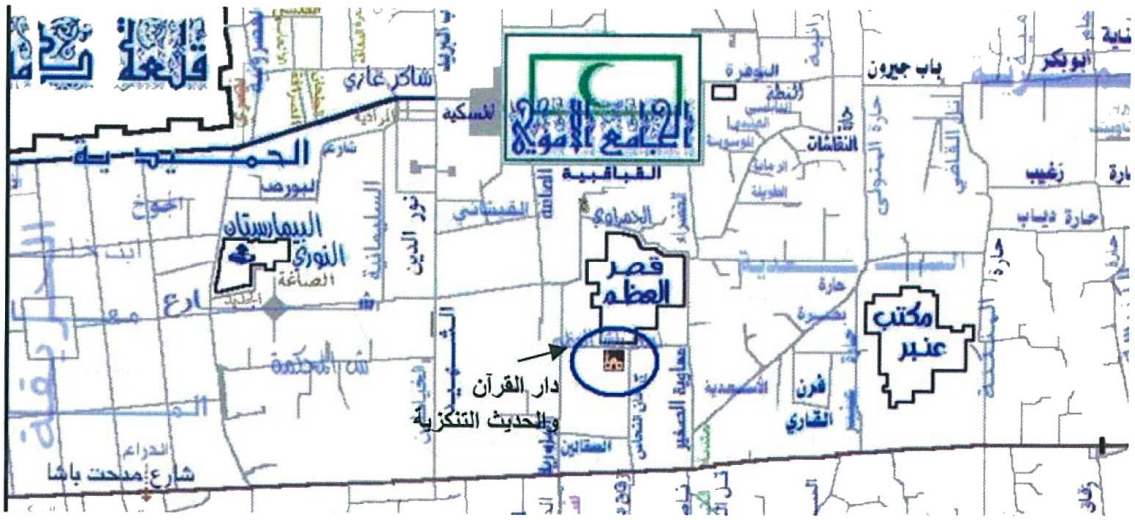
صورة 65: دار القرآن والحديث التنكزية/ دمشق من الموقع الالكتروني http://www.yasmin-alsham.com/vb/showthread.php?6048

ولدار القرآن والحديث التنكزية مدخل يتشابه مع مدخل المدرسة التنكزية، حيث يقع بشكل مجوف عميق وعلى ارتفاع شاهق، مسقوف بنصف قبة كروية الشكل مزخرفة على شكل صدفة على واجهتها عقد مدبب الشكل، مزخرف بمثلثات متعاقبة بارزة. وتقع القبة محمولة على ثلاث صفوف من المقرنصات بدلاية. كما يقع بناء المدخل من المداميك المتعاقبة الالوان (الأبلق) باستخدام الأحجار باللونين الأحمر والأبيض. ويشتمل المدخل على صفّ من الصنج الحجرية المعشقة بالألوان المتعاقبة الاحمر والابيض والاسود. ويقع اسفل منها شريط كتابي، ومحفور في بلاطة فوق الباب نص يذكر اسم المنشِأ وهو الأمير تنكز والقابه ولِمَنْ تمَّ وقْفْ المدرسة كما وتاريخ البناء. ويحدد المدخل اطار بارز كما في مدخل سوق القطانين في القدس.



صورة 66: مدخل دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق من موقع www.yasmin-alsham.com

أما بالنسبة لموقع دار القرآن والحديث التنكزية فهي واقعة ضمن حدود منطقة ذات اهمية حضارية؛ بداخل اسوار مدينة دمشق القديمة في منطقة قريبة من دار الذهب المنسوبة للأمير تنكز، والواقع جزء منها في بناء قصر اسعد باشا العظم حالياً، بين منطقة سوق القمح والذي تُعرف بدايته الشمالية بسوق العطارين أو البزورية وبين طريق خان النحاسين، وبقربها حمام[1]. وهذا الاهتمام في انتقاء الموقع المميز للمباني انما انعكس كذلك في اختيار موقع المدرسة التنكزية، والتي وقع اختيار موقعها ضمن مجموعة من المعطيات للمكان والأهداف، والتي تمَّ ذكرها في الفصل الثالث في قسمه الثاني.



خارطة توضح موقع دار القرآن والحديث التنكزية. من موقع Facebook/ Madrasas in Damascus



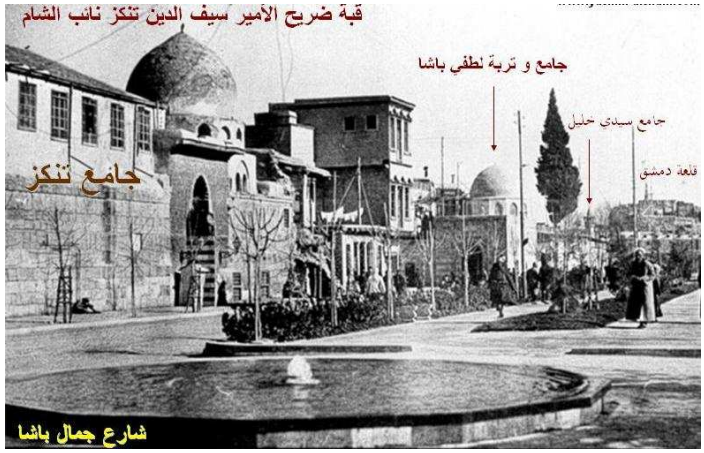
صورة 67: صورة جوية لموقع جامع تنكز في مدينة دمشق

أما جامع تنكز ويُعرف كذلك بالجامع السيفي التنكزي، فقد شرع في بناءه في 717هـ/ 1317م واكتمل في 718هـ/ 1318م. ويُعدُّ أحد الجوامع الثمانية العظيمة في دمشق وكانت تبلغ مساحته 6177 م^2 . وقد اختار له الأمير تنكز موقعاً مميزاً حيث يقع على هضبة حكر السماق، وكانت هذه الهضبة تطل على الجزيرة الخضراء (ساحة المرجة حالياً)، ويُشرف على نهر بانياس (فرع من فروع نهر بردى) حيث يتوسط صحنه النهر وكان يتوضأ

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، قسم1، ص123 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص172.

منه الناس[1]. ويُشرف على أعظم شارع في مدينة دمشق وهو شارع جمال باشا ويُعرف حالياً بشارع النصر.





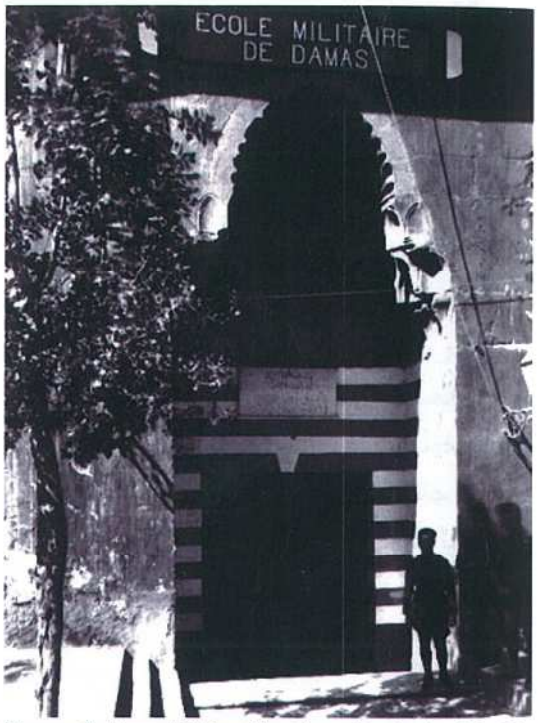
صورة 68: جامع تنكز. الصور67، 68 من موقعي www.naseemalsham.com و www.yasmin-alsham.com

والظاهر بأنَّ الأمير تنكز كان يُعنى دائماً بايجاد مناطق خدمات متكاملة، ليس مجرد مباني مستقلة، فإنه قد قام ببناء حماماً عُرف بحمام تنكز أمام جامعه وسوقاً صغيرةً وداراً وتربته بجانب الجامع، مثلما عُني ببناء مجمع التنكزية في مدينة القدس وهي منطقة خدمات متكاملة كما سبق ذكره، تشتمل على المدرسة والمسجد والرباط والحمام والخان والسوق.

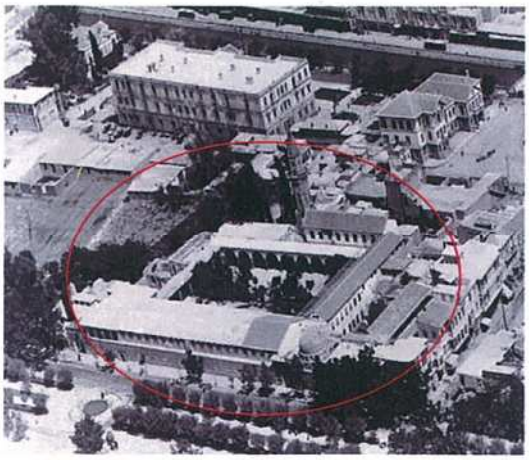
يشتمل الجامع على عناصر معمارية واخرى زخرفية تؤكد على وحدة الطراز المعماري المملوكي كما ووحدة وتميز عمائر تنكز، فتقع الواجهة الحجرية الاساسية للجامع بارتفاع يزيد عن ثلاثة امتار ويعلوها طبقة من الطين فيها نوافذ طولية الشكل، ثم سقف الجامع على شكل جملون مشابه للجامع الأموي في دمشق. وتُشرف الواجهة على شارع جمال باشا ويتخللها أربعة مداخل، اثنان يؤديان الى الواجهة الشمالية، واثنان يؤديان الى صحن المسجد. والى يمين الداخل من المدخل الأول تقع قبة الضريح، وهذا المدخل منخفض عن مستوى الشارع ويقع بتجويف على ارتفاع شاهق، في اعلاه قبة نصف كروية مزخرفة بأشكال شعاعية تشابهت معها تماماً نصف القبة الكروية اعلى مدخل المدرسة التنكزية في القدس، ومحمولة على ثلاث صفوف من المقرنصات بدلاية. ويقع بناء المدخل من المداميك الملونة (الأبلق) باللونين الأسود والأصفر. أما المدخل الآخر للجامع فيتكون من باب يُنزل اليه بدرجات لانخفاضه ايضاً عن مستوى الشارع، يقع في تجويف بسيط فيظهر محاطاً باطار وتعلوه بلاطة حجرية منقوشة.

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص425–426 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص168–169؛ موقع الكتروني www.yasmin-alsham.com/vb/showthread.php?4707





صور 69، 70:مدخلي جامع تنكز من الواجهة الجنوبية الأول يؤدي الى الضريح، والأخر يؤدي الى صحن المسجد. من موقع www.1sy.info/total/mosque/17mosque.htm



صورة 72: منظر عام لجامع تنكز عام 1926م للباحث عماد الأرمشي



صورة 71:مدخل جامع تنكز. من موقع www.naseemalsham.com

ومحراب الجامع يتشابه مع محراب المدرسة التنكزية من خلال عناصره الزخرفية، حيث يتكون تجويف المحراب من الواح طولية من الرخام متعاقبة الالوان، يعلوها شريط مزخرف باشكال مسمطة ذات الثلاثة أقواس مشابهة لتلك في اسفل الالواح الطولية الرخامية في محراب التنكزية. ومزخرف داخلها بموزاييك الرخام باشكال هندسية. ويعلوها نصف القبة الكروية الشكل بعقد مدبب، ومزخرفة باشكال نباتية وتوريقات ملونة، في منتصفها شكل مزهرية على هيئة الكأس مشابه لرنك تنكز تخرج منه الزخارف النباتية، وتظهر مثل هذه المزهرية ايضاً ولكن بشكل

مختلف قليلاً في قبة محراب المدرسة التنكزية. يحيط بالقبة من الخارج قوس عريض مزخرف بزخارف هندسية ونباتية وعلى جانبيه رخام مزخرف باشكال الاطباق النجمية. يحيط به اطار من الصنج الحجرية المعشقة، يعلوها بلاطة منقوشة بالخط الثلث.

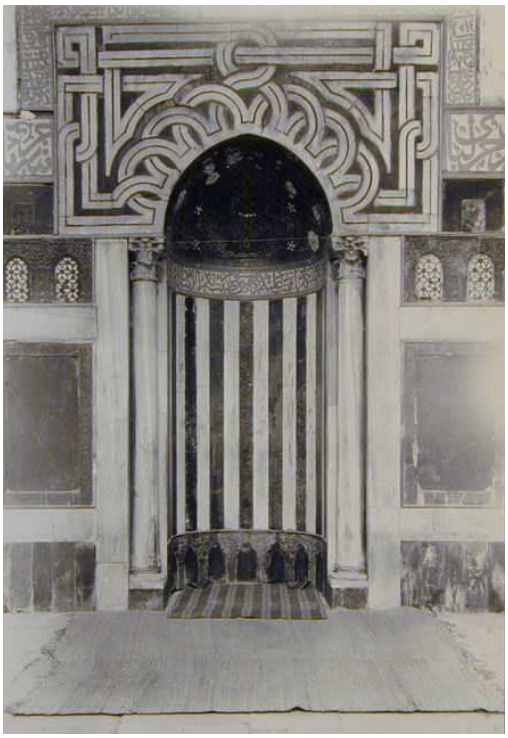
ويقع على جانبي المحراب تجويفان تقع فيهما النوافذ، ويعلوهما قباب نصف كروية مزخرفة من الداخل ويحيط بهما من الخارج عقود مدببة الشكل مزخرفة بالأبلق الذي يمتد الى الداخل. وعلى الجانبين تقع زخارف على شكل الاطباق النجمية يحيط بها اطار من الصنج الحجرية المعشقة.



صورة 73: محراب جامع تنكز في دمشق
من دهمان، ولاة دمشق، 170



صورة 74: محراب جامع تنكز في دمشق. من دهمان، ولاة دمشق، 170



صورة 75: محراب المدرسة التنكزية في القدس.من موقع
http://Archnet.org .imageID:ICR2041
Courtesy of the Creswell Archive, Ashmolean Museum.

أما مأذنة المسجد فتقع في شمالي المسجد، وهي أقدم منارة مملوكية في دمشق. ولها في داخلها درجان احدهما للصاعد والآخر للنازل، ويعلو فوق بابها نقش باسم المنشِأ[1]. تتألف من قاعدة طولية مربعة الشكل كما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة، ويعلوها طابق بشكل ثماني في اعلاه شريط كتابي منقوش، تعلوه مقرنصات تحمل شرفة المؤذن ذات الدرابزين الحجري المفرغ والمزخرف مشابه لذلك في مأذنة الغوانمة. ويتخلل هذا الطابق قوصرات ذات عقود مزخرفة على جانبيها اعمدة، وبعضها مسمط والبعض الآخر فيه فتحات طولية الشكل في اسفلها شرفة حجرية صغيرة. ويعلو هذا الطابق طابق ثالث مثمن الشكل تتخلله فتحات بعقود على هيئة حدوة الفرس، وتنتهي في اعلاها بشكل مخروطي يرتفع في اعلاه الهلال المعدني.



صورة 76: مأذنة جامع تنكز في دمشق. من موقع WWW.1sy.info

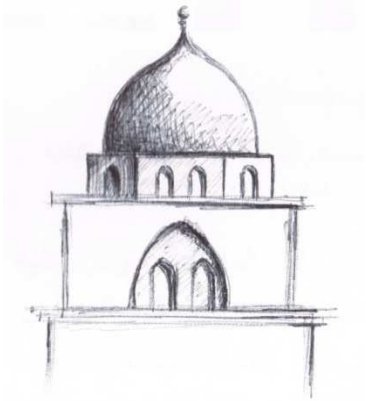
أما تربة أو مدفن تنكز والمعروف بالتربة التنكزية فتقع بجانب جامع تنكز في دمشق من الناحية الشرقية. وقد دُفن بها بعد نقل تابوته من الاسكندرية عام 744هـ/ 1343م[2]. وقد جاء المدفن ملحق بالمسجد ولكن كبناء مستقل، واحتل جزءاً من الواجهة الرئيسية المطلة على الشارع الرئيسي. ومصمم بشكل بناء مربع تتخلله قوصرات ذات عقود مدببة، فيها تجاويف غير نافذة تنعكس أيضاً بهذا الشكل من الداخل. ويعلوه بناء ثماني الشكل تتعاقب على اضلاعه قوصرات تظهر من الخارج البعض منها مسمط والبعض الآخر نافذ. وقد استخدم هذا الشكل والقوصرات لحمل القبة الكروية الشكل والتي ترتفع من منتصفها باتجاه الأعلى الى السماء (مشابهة لقباب اضرحة السلاطين المماليك في مصر). وتقع القبة محمولة على الحنيات Squinches في الزوايا الأربع وحنيات اخرى تتوسطها، وقد تشابهت معها بعض قباب حمامي الشفا والعين، خاصة الغرفة الدافئة الرئيسية والملحقة في حمام العين.

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص171.

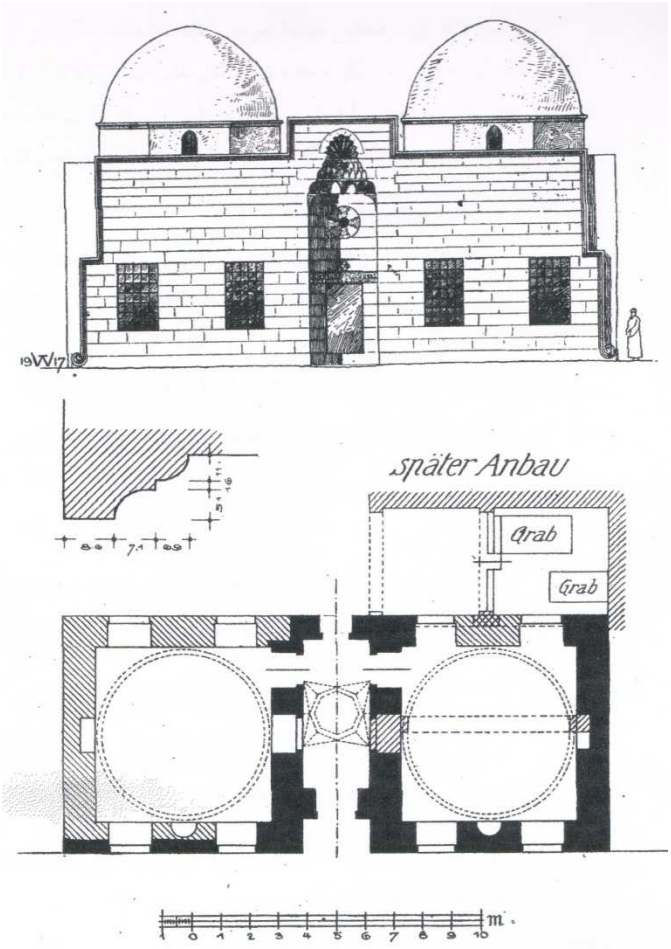
[2]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص238-239 .



صورة 77: قبة تربة تتكز من الداخل. من موقع http://naim-almadani.com



Sketch التربة التتكزية (رسم الباحثة)



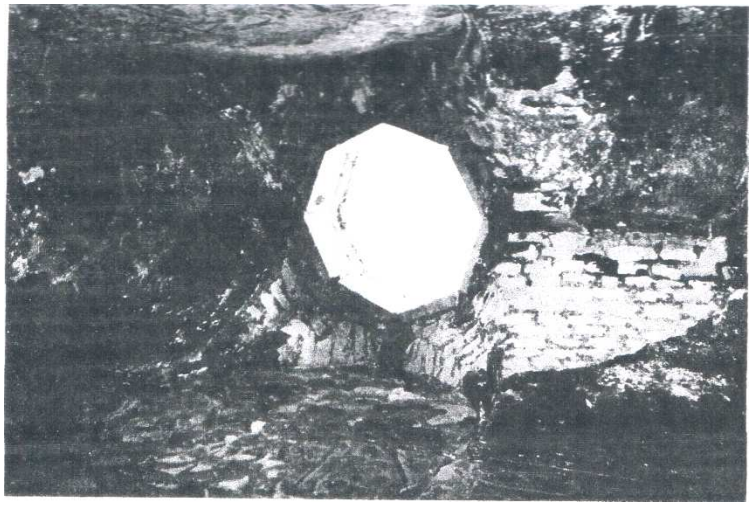
مخطط رقم 25: الواجهة الرئيسية والمسقط الافقي للتربة الكوكبائية من دهمان، ولاة دمشق، 175

كما وقد أمر الأمير تنكز بتشييد قبة (مدفن) لزوجته ستيته بنت الأمير سيف الدين عمر كوكبائي المنصوري، والتي عُرفت بالتربة الكوكبائية والواقعة داخل اسوار مدينة دمشق القديمة في مركز الحي الاسلامي عند زقاق المحكمة. وكانت قد أوصت زوجته بإنشاء ضريح لها تعلوه قبة ومسجد للصلاة ورباط للنساء، وتمَّ ذلك عام 730هـ/ 1329م حسب النقش الواقع اعلى المدخل. وتضمن الضريح على اربعة اقسام، هي: قبة الدفن ومسجد، والى جانبها الغربي مكتب للأيتام ورباط للنساء[1].

وقد جاء تصميم البناء على شكل مربعين بينهما المدخل الرئيسي، وترتفع فوق كلا المربعين قبة كروية الشكل، والتي تشابهت مع القبة الرئيسية للمدرسة التنكزية في القدس، حيث تمَّ تحويل الشكل المربع الى مثمن لحمل القبة بطريقة المثلثات الكروية Pendentives، وجاءت القبة من الحجر ومضلعة الشكل باستخدام ما يُعرف بـــ Folded cross vault من الداخل لتنتهي في اعلاها بالمنور الثماني الشكل. أما واجهة الضريح فقد اشتملت على نوافذ مستطيلة الشكل بارتفاع بسيط عن مستوى

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص274–275 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص172.

الأرض، وذلك للسماح للقراءات القرآنية والصلوات بالوصول الى مسمع المارة من خلال هذه النوافذ، والتي قد اغلقت بواسطة المصبعات الحديدية لتوفير الحماية لداخل البناء. أما المدخل الرئيسي فيقع مشابهاً لمدخل دار القرآن والحديث التنكزية في دمشق كما ومدخل المدرسة التنكزية في القدس، حيث يقع بشكل مجوف عميق وعلى ارتفاع البناء وتنتهي في اعلاه نصف قبة كروية الشكل مزخرفة على شكل صدفة، قد يتباين مركز الصدفة في كل قبة، حيث يقع بعضها من الاعلى والآخرمن الاسفل. ومحمولة على ثلاثة صفوف من المقرنصات. ويقع شريط كتابي فوق باب المدخل منقوش عليه النص التالي:" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه التربة المباركة المقر الشريف العالي المولوي الأمير الكبيري الغازي المجاهدي الملكي المخدومي السيفي سيف الدنيا والدين تنكز نائب السلطنة المعظمة بالشام المحروس عزَّ نصره وكان الفراغ في شهر ذي الحجة سنة ثلاثين وسبعمائة". كما ويحيط بالواجهة كورنيش حجري مزخرف كما في بوابة سوق القطانين في مدينة القدس[1].



صورة 78: قبة التربة الكوكبائية من الداخل

من دهمان، ولاة دمشق، 174

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص174.







صور 79، 80، 81: المدخل الرئيسي للتربة
الكوكبائية والشريط الكتابي اعلى الباب وباب المدخل
من موقع http://Archnet.org
Images ID: IMG07648
IMG07649
IMG07650

من خلال دراسة بعض الأمثلة لعمائر الأمير تنكز في مدينة دمشق، ومقارنتها من حيث التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية خاصة، مع عمائره في مدينة القدس، نستطيع أنْ نستخلص من ذلك بأنَّ الأمير تنكز قد سعى دوماً لايجاد منطقة مميزة لإنشاء واقامة عمائره عليها. وهذا يتضح من خلال موقع جامعه ودار القرآن والحديث التنكزية والتربة الكوكبائية ودار الذهب في دمشق، كما في المدرسة التنكزية وسوق القطانين وبقية عمائره في القدس. حيث تقع في مناطق هامة حضارياً؛ قريبة من معالم دينية رئيسية وواقعة في مراكز نشاط ديني وتجاري، وعلى شوارع رئيسية، وقريبة من مصادر المياه. فعلى سبيل المثال نلاحظ قرب منطقة دار الذهب والتي قد نقل الأمير تنكز اليها مركز الحكم عند انشاءها بعد أنْ كان في قلعة دمشق، فزادت اهميتها حيث احتضنت هذه المنطقة مركز حكم نائب دمشق ومركز ديني تعليمي وثقافي، بالإضافة الى قربها من الجامع الأموي والمناطق التجارية.

كما قد عُنِيَ باسلوب تخطيط عمائره، فلم يكن تخطيطها عشوائياً إنما متأثراً بأنظمة التخطيط المعمارية السابقة. فمثلاً تخطيط جامعه جامع تنكز جاء متأثراً بنظام تخطيط المساجد ذات الصحن

المكشوف والأروقة المحيطة بالمسجد مشابهاً بذلك الجامع الأموي في دمشق. كما وتشابه معه من خلال اسلوب تسقيف المسجد حيث اعتمد على الشكل الجملوني في التسقيف. وقد اعتمد الشكل المربع في تخطيط مدارسه، حيث تتكون مساقطها الأفقية من صحن المدرسة والايوانات الأربعة المحيطة به، ويظهر ذلك في دار القرآن والحديث التنكزية في دمشق كما وفي المدرسة التنكزية في القدس.

أما تأثره بالعمارة المملوكية في مصر فقد ظهر من خلال التخطيط لضريحه ضريح تنكز في دمشق، حيث وقع ضمن مساحة بناء الجامع ولكن بشكل كتلة منفصلة عن بقية عمارة الجامع، مثلما جاء تصميم الجوامع والمدارس في القاهرة كمدرسة الناصر محمد بن قلاوون ومدرسة السلطان حسن، بحيث يشغل المدفن مكاناً رئيسياً من البناء، فيطل على الشارع الرئيسي. كما وتأثرت قبة ضريح تنكز بشكل قباب أضرحة المماليك في مصر.

أما على صعيد العناصر المعمارية والزخرفية في عمائر تنكز فنلاحظ تشابه هذه العناصر كالقباب والمداخل والعقود والمقرنصات وطراز الكتابة وغيرها، بحيث شكلت وحدة في طرازٍ معماريٍ متميز لبلاد الشام خاصة لم تؤثر فيها عامل البعد الجغرافي لهذه المناطق بعضها عن بعض.

الخاتمة:

مما سبق نستنتج أنَّ عصر المماليك الممتد لفترة 267 عاماً قد شكل حقبة تاريخية هامة من تاريخ الامم. والتي قد تباينت مراحله بين العظمة والازدهار وبين الضعف والانحلال. متأثراً بذلك بعدة عوامل داخلية وخارجية سياسية واجتماعية واقتصادية، تعاقبت في خلالها ادوار سلاطين وحكام المماليك، الذين تباينت سلطتهم بين حكام اقوياء اشداء وذوي نشأة دينية سليمة وتدريبات عسكرية قوية، وبين حكام ضعفاء ذوي نشأة دينية غير متينة وفاقدي لثبات القوة العسكرية، والذي قد ادى بدوره الى كثرة الفتن والقلاقل بالاضافة الى تدخل قوى خارجية طمعاً في السيطرة والنفوذ. ومع أنَّ فترة حكم المماليك كانت تعج بهذه التناقضات إلا أنها قد لمعت بنهضة ثقافية وعمرانية تميزت بها عن سائر الحقب السابقة وطغت بها على جميع شوائب ذلك العصر.

وأنَّ مظاهر ازدهار جوانب الحياة المختلفة في العصر المملوكي، من نشاط فكري وعلمي وثقافي تتجلى في ما وصلنا من طرز الشواهد المعمارية المختلفة واسلوب تخطيطها وزخارفها. فالبرغم من أنَّ الشكل العام للعمارة والذي يتكون من بناء ثلاثي الابعاد، قد ارتكزعلى اشكال رئيسية بسيطة وهي الدائرة والمربع، إلا أنه قد شُكل بتأثيرات تاريخية وجغرافية ودينية وثقافية، أنتجت طرزاً معمارية لها سمات مُمَيزة لهذا العصر.

وأنَّ الفترة التي تولى بها الأمير تنكز نيابة دمشق والممتدة لفترة 28 عاماً، خلال فترة الحكم الثالثة للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، كان لها أثرها الايجابي على مختلف مدن بلاد الشام. فبالإضافة الى الصفات الحميدة التي تميزت بها الشخصية القوية للأمير تنكز ، فإنه قد امتلك رؤية وحُسن تخطيط وثبات في تنفيذ مخططاته، كما وكانت لديه رغبة وتوجه بأن يكون له دور فعّال في الحفاظ على وتطوير الأماكن الدينية الواقعة ضمن حدود سلطته خلال فترة توليه منصب النيابة، من خلال اضافة وتجديد خدمات للمدينة ولمركزها الديني. وظهر ذلك من خلال دوره البارز في تطوير النسيج الحضري للمدن، خاصة مدينتي دمشق والقدس، وذلك لأن مركز نيابته كانت في مدينة دمشق، أما مدينة القدس فذلك يعود لمركزها الديني واهميتها الحضارية بين الدول المجاورة. فتوجه لإنشاء مجمعات معمارية يهدف من خلال الاستعمال الوظيفي لأبنيتها التقرب الى الله، وتوفير خدمات وسبل الراحة للناس فيحظى على حبهم وولائهم ودعائهم له، كما ويكتسب تخليداً لذكراه من خلال استمرارية أداء هذه المجمعات لوظائفها.

بالتالي نستطيع أنْ نبين الأسباب والدوافع وراء تبني الأمير تنكز لفكرة انشاء مجمع معماري في مدينة القدس، وهي:

- **ترسيخ نفوذه واسمه:** فقوة نفوذ الأمير تنكز السياسي كنائب دمشق، شكَّل له دافعاً لايجاد منطقة ترتبط بذكر اسمه في مدينة مقدسة، ويكتسب من خلالها مزيداً من الثقة لدى السلطان وعامة الناس، خاصة وأنَّ مدينة القدس في حينها لم تزل ولاية تابعة لنيابة دمشق. فساهم ذلك في تعزيز مكانة الأمير واقترنت هذه المنطقة باسمه، فاستمر ذكره ومباركة اعماله حتى يومنا هذا.
- **وازعه الديني:** من خلال ترسيخه لهدف المماليك بجعل مدينة القدس مركزاً حضارياً دينياً اسلامياً.
- **تحقيق حلول حضرية:** من خلال ايجاد منطقة خدمات متكاملة في مدينة القدس، والتي كان لها مكانة خاصة في قلوب المسلمين، يوفر من خلالها حلولاً حضريةً وعمليةً لكافة فئات المجتمع، خاصة وأنَّ المدينة يؤمها العديد من الحجاج والتجار وطالبي العلم.

فعمل على ايجاد واختيار موقعاً في المدينة يقع ضمن حدود منطقة هامة حضارياً ودينياً، فكانت من أهم اسباب اختيار الأمير تنكز لهذا الموقع هو قربه من منطقة الحرم القدسي الشريف، لنيل فضائل عمل الخير ولمضاعفة الأجر عند الله تعالى. كما ووقوعه في منطقة هامة حضارياً وتجارياً عند التقاء محورين رئيسيين من طرق المدينة، وكثرة أعداد الوافدين الى المسجد الأقصى من هذه المنطقة، سواء من العلماء والمتصوفين وطالبي العلم أو التجار أو الزائرين بالاضافة الى أهل المدينة. فتوفير منطقة خدمات من اماكن عبادة وسكن وأماكن لممارسة النشاط التجاري، وأماكن صحية واجتماعية، فكانت فكرة إقامة مجمعه المعماري حلاً مثالياً عملياً يُلبي احتياجات العامة. وأنَّ اتساع مساحة هذه المنطقة بحيث شكلت فراغاً كافياً لتنفيذ كامل مخطط مجمعه، خاصة وأنَّ هذه المنطقة كانت خالية نسبياً من أية منشأة معمارية، فقط ما بقي من أنقاض آثار معمارية هُدِمَت من فترات سابقة. ومع جدية الأمير تنكز في تحمل مسؤولية تطوير الأماكن الدينية وتجديد الخدمات، فإنه يحور العثرات ويحلل كل معطيات المكان ويحولها لخدمة مشاريعه.

فعمل على تنفيذ مخطط تفصيلي، ضمن خطة مدروسة وتسلسل زمني ومكاني محدد. فاتبع منهجية معينة في تنفيذ مخططه، حيث قام بتعمير المرحلة الاولى من مجمعه المعماري الذي اشتمل على المدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة والمطهرة، واوجد مساحة خضراء وهي حاكورة السقاية وحديقة النارنج حيث شكلت رابط طبيعي مرن لهذه الكتل المعمارية الصلبة. واتسمت هذه المرحلة بإنشاء مباني ذات طابع ديني. ثم استكمل العمل في المرحلة الثانية، والتي اشتملت على حمامي الشفا والعين وخان تنكز وسوق القطانين، واتسمت بطابع تجاري،

فارتبطت بالمرحلة الاولى من خلال أنَّ العائد المادي لهذه المباني يُنتفع بها في تجديد والاعتناء بمباني المرحلة الاولى والحفاظ عليها لاستمرارية اداءها لوظائفها. فاستطاع بذلك ربط الأبنية في مجمعه مع بعضها البعض فراغياً ومادياً ووظيفياً ضمن حيز واحد وأيضاً ربطها ككتلة واحدة مع رمز المكان الديني المتمثل بالمسجد الأقصى من خلال تلاصقها معه. بالتالي أوجد منطقة خدمات متكاملة، شكلت مركز نشاط ديني وتجاري واستطاع من خلالها الأمير تنكز ادخال مفهوم جديد لأنظمة التخطيط في مدينة القدس، والمتمثل **بمنظومة المجمعات المعمارية** ودمجها مع نسيج المخطط الحضري المتماسك للمدينة.

وكما أنَّ هذا المخطط ككتلة واحدة مرتبط مع مركز المدينة الديني والحضاري والتجاري، فإنَّ الكتل المعمارية المُشَكِلة لهذا المجمع إنما ارتبطت ايضاً مع بعضها بوحدة العناصر المعمارية والزخرفية، كالقباب والمداخل والعقود والمقرنصات والصنج الحجرية المعشقة والاشرطة الكتابية، وارتبطت ايضاً بطراز عمائر تنكز في مدينة دمشق، حيث كانت بداية انجازاته المعمارية فيها في المرحلة الاولى لتوليه منصب النيابة، ثم تطورت هذه الانجازات وتوسعت حدود اماكنها ولكنها بقيت ضمن مساعي الأمير تنكز في توحيد اختياره لمميزات اماكن اقامته لعمائره، كما عناصرها المعمارية والزخرفية. وتُبين هذه الوحدة والتنوع والدقة في العناصر المعمارية والزخرفية التي تتشكل منها عمائر تنكز سواء في فراغاتها الداخلية أو واجهاتها الخارجية، استقطاب الأمير للبنائين والحرفيين المهرة من دمشق ومناطق اخرى للعمل بمشروعه في القدس، فادخلوا عناصر جديدة للعمارة في المدينة كالقبوات المتداخلة والذي لم يتم استخدامها سابقاً كما والتخطيط المحوري. فتشابهت عمائره في المدن المختلفة وطُبعت بصبغة موحدة بحيث اعتُبِرت أعمال الأمير تنكز شواهد معمارية تُظهر الجوانب المختلفة للفكر المملوكي والعصر المملوكي البارز.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

- **المصادر العربية:**

1) ابن كثير،اسماعيل بن عمرالحافظ الدمشقي. **البداية والنهاية**، ج13 وج14، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1966م.
2) بن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن الأتابكي. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج9 وج11، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة، 1963م.
3) بن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن الأتابكي. **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، ج1 (تحقيق احمد يوسف نجاتي)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1956م.
4) الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحيّ بن العماد. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج7 وج8، دار المسيرة، بيروت، 1979م.
5) الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين. **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج1 وج2، 1283هـ.
6) الدواداري، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك. **كنز الدُّرر وجامع الغُرر**، ج8 الدُّرة الزكية في اخبار الدولة التركية (تحقيق أ. هارمان)، القاهرة، 1971م.
- الدواداري، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك. **كنز الدُّرر وجامع الغُرر**، ج9 الدُّرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر (تحقيق هـ. ر. رويمر)، القاهرة، 1960م.
7) الاصطخري، أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي. **مسالك الممالك**، ليدن، 1937.
8) الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج4، ط2 (اعتناء س. ديررينغ)، فيسبادن، 1974م.
ـ الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج10 (اعتناء سوبله وعمارة)، فيسبادن، 1980م.
ـ الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج24 (اعتناء البخيت والحياري)، شتوتكارت، 1993م.
9) الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **تُحفة ذوي الألباب** فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب (تحقيق احسان خلوصي وزهير الصمصام)، وزارة الثقافة، دمشق، 1992م.
10) الصفدي، **أعيان العصر وأعوان النصر**، ب ت.
11) العسقلاني، احمد بن نورالدين علي بن حجر. **إنباء الغُمر بأنباء العُمر**، ج2، ب ت .

12) العمري، ابن فضل الله. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج1(تحقيق احمد باشا)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924م.
13) العيني، بدر الدين. **عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان**، ب ت.
14) القلقشندي، أبي العباس احمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج4 وج5، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة، 1963م.
15) الكتبي، محمد بن شاكر. **فوات الوفيات والذيل عليها**، مج1 (تحقيق احسان عباس)، دار صادر، بيروت، 1973م.
16) المقدسي، ابوعبدالله بن ابي بكر البشاري. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مطبعة بريل، ليدن، 1877م.
17) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج1 وج2 (تصحيح محمد مصطفى زيادة)، ط2، القاهرة، 1956، 1972.
ـــ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج4 (تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور)، دار الكتب، القاهرة، 1973.
18) المقريزي، تقي الدين ابي العباس احمد بن علي. **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ج1 وج2، ط2، المركز الاسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1987م.
19) النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل. مخطوط **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية** (تحقيق حمد احمد عبدالله يوسف)، 1994م.
20) النعيمي، عبد القادر بن محمد. **الدارس في تاريخ المدارس**، (تحقيق جعفر الحني)، مطبعة الترقى، دمشق، 1948م.
21) اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى. **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر** (تحقيق احمد حطيط)، ط1، دار عالم الكتب، بيروت، 1986م.

- المراجع:

22) الألفي، ابو صالح. **الفن الاسلامي**، ط2، دار المعارف، لبنان ودار المعارف، مصر، 1974م.
23) الامام، رشاد. **مدينة القدس في العصر الوسيط**، الدار التونسية، تونس، 1976م.
24) آصلان آبا، اوقطاي. **فنون الترك وعمائرهم** (ترجمة احمد محمد عيسى)، ط1، استانبول، 1987م.
25) ابوخلف، مروان. **من معالم الحضارة الاسلامية في فلسطين**، المغرب، 2001م.

26) ابوخلف، مروان والهودلية، صلاح. **مقالات أثرية بالمناسبة العشرية**، المطبعة العربية الحديثة، القدس، 2004م.
27) بكّار، يوسف. **بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته**، (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام) مج1، ط1، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمَّان، 1983م.
28) بيضون، عيسى محمود. **دليل المسجد الأقصى المبارك**، ط1، 1993م.
29) الحجي، حياة ناصر. **السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1983م.
30) الحجي، حياة ناصر. **صور من الحضارة العربية الاسلامية في سلطنة المماليك**، ط1، دار القلم، الكويت، 1992م.
31) حسن، زكي محمد. **فنون الاسلام**، دار الفكرالعربي، ب ت.
32) حميد، نزار فوزي. **فلسطين التاريخية الأرض الانسان الحضارة**، ط1، دار الكرامة، دمشق، 2003.
33) خسرو، ابو معين ناصر القبادياني المروزي. **سفرنامة**، ب ت.
34) الدجاني، برهان و شكيل، هادية. **الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين**، ط1، بيروت، 1994م.
35) دهمان، محمد احمد. **ولاة دمشق في عهد المماليك**، ط2، دار الفكر، دمشق، 1981م.
36) دهمان، محمد احمد. **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، ط1، دار الفكر، دمشق، 1990م.
37) الزيدي، مفيد. موسوعة التاريخ الاسلامي **العصر المملوكي**، دار أسامة، عمَّان ، 2003م.
38) سلامة، خضر. **المخطوطات القرآنية في المتحف الاسلامي في الحرم الشريف**، ط1، لبنان، 2003م.
39) السيد، حكيم أمين عبد. **قيام دولة المماليك الثانية** (تقديم محمد مصطفى زيادة)، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م.
40) العارف، عارف. **المفصل في تاريخ القدس**، ط2، مطبعة المعارف، القدس، 1986م.
41) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **العصر المماليكي في مصر والشام**، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.
42) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك**، (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام)، مج1، ط1، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمَّان، 1983م.

43) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996م.
44) العبادي، احمد مختار. **في التاريخ الأيوبي والمملوكي**، الاسكندرية، 2000م.
45) عبد المهدي، عبد الجليل حسن. **المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ج2، ط1، عمَّان، 1981م.
46) عثامنة، خليل. **فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي**، ط1، بيروت، 2006م.
47) العريني، السّيد الباز. **المماليك**، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م.
48) العسلي، كامل جميل. **معاهد العلم في بيت المقدس**، عمَّان، 1981م.
49) العسلي، كامل جميل. **وثائق مقدسية تاريخية**، ط1،مج1، مطبعة التوفيق، عمَّان، 1983.
50) العسلي، كامل جميل. **من آثارنا في بيت المقدس**، عمَّان، 1982م.
51) عكاشة، ثروت. **القيم الجمالية في العمارة الاسلامية**، دار المعارف، القاهرة، 1981م.
52) العلمي، احمد. **المدارس المملوكية في القدس**، القدس، 1999م.
53) علي، علي السيد. **القدس في العصر المملوكي**، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1986م.
54) الغامدي، علي محمد علي عودة. **بلاد الشام قبيل الغزو المغولي**، ط1، مكة المكرمة، 1988م.
55) غوانمة، يوسف حسن درويش. **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**، دار الحياة، عمَّان، 1982م.
56) غوانمة، يوسف حسن درويش. **دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الاسلامي**، دار الفكر، عمَّان، 1983م.
57) قاسم، عبده قاسم. **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، 2007م.
58) القحطاني، هاني محمد. **مبادئ العمارة الاسلامية وتحولاتها المعاصرة**، بيروت، 2009م.
59) الكيلاني، شمس الدين و باروت، محمد جمال. **الطريق الى القدس**، أبوظبي، 2000م.
60) مصطفى، صالح لمعي. **التراث المعماري الاسلامي في مصر**، بيروت، 1975م.
61) **الموسوعة الفلسطينية**، مج4، ط1، دمشق، 1984م.
62) نجم، رائف. **كنوز القدس**، ط1، مطابع Sagdos, Brugherio، ميلانو، 1983.
63) وزارة الاوقاف، مؤسسة احياء التراث. **منارات مقدسية**، القدس، 2010م.

Bibliography:

1) Abu Khalaf, Marwan F. .**Islamic Art through the Ages**, Jerusalem, 1998.
2) Atil, Esin. Renaissance of Islam **Art of the Mamluks**, Washington D.C. 1981.
3) Auld, Sylvia J. . **The Mamluks and the Venetians** (Palestine Exploration Quarterly), London, 1991.
4) Ayalon, M. Rosen. **The Islamic Architecture of Jerusalem** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
5) Bahat, Dan. **Carta's Historical Atlas of Jerusalem**, Jerusalem, 1973.
6) Bahat, Dan. **The Illustrated Atlas of Jerusalem**, 1990.
7) Bahat, Dan. **Jerusalem Down Under** (B.A.R. 21.6), 1995.
8) Boas, Adrian J. . **Jerusalem in The Time of the Crusades**, London, 2001.
9) Briggs, Martin S. . **Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine**, London, 1924.
10) Burgoyne, M. Hamilton. **The Noble Sanctuary**(al-Haram al-Sharif) **under Mamluk Rule** (Where Heaven and Earth Meet), Jerusalem, 2009.
11) Burgoyne, M. Hamilton. **Mamluk Jerusalem An Architectural Study**, London, 1987.
12) Da Poggibonsi, Nicolo. **A Voyage Beyond the Seas**.
13) Dow, Martin. **The Islamic Baths of Palestine**, London, 1996.
14) Frescobaldi, Gucci and Sigoli. **Visit to the Holy Places**, Jerusalem, 1948.
15) Hawari, Mahmoud. **Ayyubid Jerusalem**, An Architectural and Archaeological Study, London, 2007.
16) Hillenbrand, Robert. **Islamic Architecture**, New York, 1994.
17) Hoag, John D. . **Islamic Architecture**, London, 1979.
18) Kenney, Ellen. **Power and Patronage in Medieval Syria**, Chicago, 2009.
19) Kroyanker, David. **Jerusalem Architecture**, Italy, 1994.
20) Landay, Jerry M. . **Dome of the Rock**, Italy, 1972.
21) Le Strange, Guy. **Palestine Under the Moslems**, 1890.

22) Mazar, A. . **The Aqueducts of Jerusalem** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
23) Muir, William. **The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt**, London, 1896.
24) Prawer, J. . **Jerusalem in Crusader Days** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
25) Rosovsky, Nitza. **City of the Great King**, U.S.A. 1996.
26) Sharon, Arieh. **Planning Jerusalem**, Jerusalem.
27) Sims, Eleanor and others. **Architecture of the Islamic World**, London, 1978.
28) Warren, Charles and Conder, Claude. **The Survey of Western Palestine**, London, 1884.
29) Wilson, R.E. and Warren, R.E. . **The Recovery of Jerusalem**, New York, 1871.
30) Zahlan, A.B. .**The Reconstruction of Palestine**, London, 1997.

مراجع المواقع الالكترونية:

http://Archnet.org
www.aqsaonline.org
www.alaqsa-online.net
Facebook/Madrasas in Damascus
http://www.yasmin-alsham.com
www.naseemalsham.com
www.1sy.info
http://naim-almadani.com

فهرس المخططات

مخطط رقم 1 أ. الخطوط الكنتورية لمدينة القدس القديمة ومحيطها	75
مخطط رقم 1 ب. مقاطع A-A و B-B	76
مخطط رقم 2 الخطوط الكنتورية للقدس القديمة	76
مخطط رقم 3 مدينة القدس القديمة	77
مخطط رقم 4 أ: منطقة الحرم القدسي	79
مخطط رقم 4 ب: المخطط المقترح للآثار المعمارية أسفل التنكزية ورباط النساء والمنطقة المحيطة	79
مخطط رقم 4 ج: مقطع قوس ويلسون ومستوى بركة البراق	80
مخطط رقم 4د: منظور لقوس ويلسون الواقع أسفل المدرسة التنكزية	80
مخطط رقم 5 : مخطط اعادة رسم وتجميع المساقط الافقية من كتاب Mamluk Jerusalem للمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة مع اضافة التحديد للمباني والمحور الممتد من المدرسة والرباط	82
مخطط رقم 6: المسقط الافقي للمدرسة البلدية	83
مخطط 7: المخطط المقترح للآثار المتبقية أسفل المدرسة البلدية والمنطقة الواقعة جنوبها	84
مخطط رقم 8: مخطط المرحلة الأولى للمجمع المعماري، مسقط افقي وثلاثي الأبعاد	85
مخطط رقم 9 : مخطط مدينة القدس في الفترة الصليبية	86
مخطط رقم 10 : موقع المباني الأيوبية في مدينة القدس القديمة	87
مخطط رقم 11 أ (مدينة القدس القديمة في الفترة الرومانية)	90
مخطط رقم 11 ب (مدينة القدس القديمة في الفترة الصليبية)	90
مخطط رقم 12: مخطط إعادة ترسيم المسقط الأفقي لخان تنكز	92
مخطط رقم 13: المسقط الأفقي لسوق القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين	92
مخطط رقم 14: المخطط الكامل لمجمع التنكزية	93
مخطط رقم 15: مخطط موقع المباني المملوكية في حدود منطقة الدراسة	94

مخطط رقم 16: المسقط الافقي للطابق الأرضي للمدرسة التنكزية	98
مخطط رقم 17: المسقط الافقي للطابق الأرضي لرباط النساء	100
مخطط رقم 18 المسقط الأفقي لمأذنة باب السلسلة	102
مخطط رقم 19: المسقط الافقي لسوق القطانين	104
مخطط رقم 20: المسقط الأفقي للطابق الأرضي لخان تنكز	107
مخطط رقم 21: المسقط الأفقي لحمام الشفا	108
مخطط رقم 22: المسقط الأفقي لحمام العين	110
مخطط رقم 23: قنوات المياه	113
مخطط رقم 24: المسقط الأفقي لدار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق	155
مخطط رقم 25: الواجهة الرئيسية والمسقط الافقي للتربة الكوكبائية	162

فهرس الصور

صورة 1، 2: دكاكين من الجزء الشرقي من سوق القطانين	88
صور 3 ، 4 (للباحثة): دكاكين من الجزء الغربي من السوق	88
صورة 5: باب القطانين الشرقي	89
صورة 6: المدرسة التنكزية. منظر داخلي باتجاه الايوان الجنوبي حيث يظهر الصحن والمحراب	99
صورة 7 ، 8 : مأذنة باب السلسلة من الزاوية الشمالية الشرقية ومن الزاوية الغربية	102
صورة 9: منظر عام لسوق القطانين باتجاه الشرق	105
صورة 10: احدى فتحات التهوية والاضاءة في السوق	105
صورة 11: المقرنصات على السقف أمام حمام الشفا ويظهر اسم المهندس عليها بالنص: محمد بن أحمد بن غليش رحمه الله	106
صور 12، 13، 14: صور توضيحية لسقف غرف حمام الشفا والفتحات الفخارية التي تتخلل القباب	109
صورة 15: نافورة تتوسط غرفة المشلح في حمام العين	110
صور توضيحية (16–20) من داخل وسطح حمام العين	111
صورة 21: مأذنة الغوانمة من الجهة الجنوبية	112
صورة 22: القناة السفلية، نفق عند موقع رقم 22	114
صورة 23: الكأس	115
صورة 24: قسم من وقفية الأمير تنكز السجل 92 ص 430	118
صورة 25: القبة أعلى مدخل المدرسة التنكزية	130
صورة 26: تُظهر التضليع في قبة القاعة الرئيسية في حمام الشفا.	130
صور (27–29) صور من داخل حمام العين	131
صورة 30: الأعمدة على جوانب مأذنة باب السلسلة	132
صورة 31: المدخل الغربي لسوق القطانين	133
صورة 32–33 Trefoil Arch في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي ورباط النساء	134

صورة 34: منظر داخلي من رباط النساء، يظهر فيه القبو النصف برميلي الشكل Barrel Vault	134
صورة 35: نظام تسقيف سوق القطانين بالقبوات النصف برميلية	135
صورة 36: القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز	135
صورة 37: القبوات النصف برميلية في قاعة مدخل خان تنكز	135
صورة 38: مدخل المدرسة التنكزية	136
صورة 39: بعض فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية	137
صورة 40: مأذنة الغوانمة من الناحية الجنوبية تظهر فيها فتحات النوافذ	138
صورة 41: الدرج الحجري المؤدي الى مدخل مأذنة الغوانمة الواقع على مستوى الطابق الثاني	138
صورة 42، 43: المقرنصات في اعلى مدخل المدرسة التنكزية.	140
صورة 44، 45: المقرنصات في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي.	140
صورة 46: احدى الفتحتين الواقعتين على جانبي مدخل سوق القطانين، وتظهر المقرنصات بدلاية في اعلاها.	141
صورة 47: صفوف المقرنصات في اعلى الطابق الثاني لقاعدة مأذنة الغوانمة	142
صورة 48: القوصرات في مأذنة الغوانمة	142
صورة 49: الصنج الحجرية في اعلى باب المدرسة التنكزية	143
صورة 50: رسم باب القطانين من داخل السوق، للفنان Bauernfeind, Gustav 1886	143
صورة 51، 52: باب القطانين الخشبي والشريط النحاسي الواقع عليه.	145
صورة 53، 54: الشريط الكتابي المنقوش الواقع اعلى باب القطانين الشرقي.	145
صورة 55: رنك الأمير تنكز (الكأس داخل حلقة) الواقع اعلى مدخل ساحة خان تنكز.	146
صورة 56، 57: بعض التكسيات الرخامية داخل المدرسة التنكزية.	147
صورة 58، 59: محراب مسجد المدرسة التنكزية في الايوان الجنوبي.	147
صورة 60: الكورنيش بشكل محاريب في مأذنة باب السلسلة	148

صورة 61: الكورنيش بشكل مقرنصات ومحاريب مفرغة في مأذنة الغوانمة	148
صورة 62: الاشكال الهندسية التي تُشكل الطبقة الخارجية من باب القطانين.	150
صورة 63: مدقة باب القطانين من البرونز المشغول	151
صورة 64: مشكاة مسجد المدرسة التنكزية الخاص بالأمير تنكز. محفوظة حالياً بالمتحف الاسلامي في الحرم القدسي الشريف.	151
صورة 65: دار القرآن والحديث التنكزية/ دمشق	156
صورة 66: مدخل دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق	156
صورة 67: صورة جوية لموقع جامع تنكز في مدينة دمشق	157
صورة 68: جامع تنكز. الصور67، 68	158
صور (69-70): جامع تنكز	159
صورة 71: مدخل جامع تنكز	159
صورة 72: منظر عام لجامع تنكز	159
صورة 73: محراب جامع تنكز في دمشق	160
صورة 74: محراب جامع تنكز في دمشق.	160
صورة 75: محراب المدرسة التنكزية في القدس.	160
صورة 76: مأذنة جامع تنكز في دمشق.	161
صورة 77: قبة تربة تنكز من الداخل.	162
صورة 78: قبة التربة الكوكبائية من الداخل	163
صور 79، 80، 81: المدخل الرئيسي للتربة الكوكبائية والشريط الكتابي اعلى الباب وباب المدخل	164

الفهرس

إقرار: ..... أ

الشكر والتقدير ..... ب

ملخص الرسالة: ..... ج

Abstract: ..... ه

المقدمة: ..... ز

الفصل الأول: نشأة المماليك وتطورهم العمراني 1

1.1 نشأة المماليك: 2

1.1.1 أصلهم: 2

1.1.2 المماليك الأتراك أو البحرية:- 5

1.1.3 عوامل ضعف دولة المماليك البحرية :- 17

1.1.4 المماليك الجراكسة أو البرجية :- 19

1.1.5 عوامل ضعف دولة المماليك البرجية:- 28

1.2 العمران في العصر المملوكي: 31

1.2.1 أبرز الانجازات المعمارية: 36

1.2.2 مميزات العمارة المملوكية: 41

الفصل الثاني: الإدارة المملوكية لبلاد الشام 44

2.1 الأوضاع الداخلية في بلاد الشام: 45

2.2 الوضع الإداري لمدينة القدس: 48

2.3 الحياة الثقافية في مدينة القدس: 54

الفصل الثالث: أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس 65

3.1 لمحة عن حياة الأمير سيف الدين تنكز: 66

3.1.1 نشأته: 66
3.1.2 صفاته وألقابه: 67
3.1.3 أهم أعماله وأملاكه: 69
3.1.4 وفاته وما قيل فيه: 71
3.2 انجازات الأمير تنكز المعمارية: 75
3.2.1 الوصف المعماري لعمائر الأمير تنكز: 95
3.2.2 المدرسة التنكزية: 95
3.2.3 رباط النساء: 100
3.2.4 مأذنة (منارة) باب السلسلة: 102
3.2.5 السقاية (سقاية العادل): 104
3.2.6 سوق القطانين: 104
3.2.7 خان تنكز: 107
3.2.8 حمّام الشفا: 109
3.2.9 حمّام العين: 111
3.2.10 مأذنة (منارة) الغوانمة: 114
3.2.11 قناة العروب: 115
3.2.12 الكأس: 116
3.3 أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية: 117
3.3.1 النص الكامل لوقفية الأمير تنكز: 120
الفصل الرابع: العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز 130
4.1 العناصر الإنشائية: 131
4.1.1 القباب: 131

4.1.2 الأعمدة: 134
4.1.3 الأوتار (Lintels): 135
4.1.4 العقود أو الأقواس (Arches):... 135
4.1.5 القبوات (Vaults): 136
4.1.6 المداخل:..... 138
4.1.7 النوافذ:. 138
4.1.8 السلالم:..... 140
4.1.9 المقرنصات:. 141
4.2 العناصر الزخرفية :..... 142
4.2.1 المقرنصات: 143
4.2.2 القوصرات: 144
4.2.3 المداميك الملونة (الأبلق):..... 145
4.2.4 الصنج الحجرية المعشقة (اللحامات المتداخلة): 145
4.2.5 الشريط الكتابي: 146
4.2.6 الرنك:..... 148
4.2.7 التكسيات الرخامية:..... 148
4.2.8 الكورنيش:..... 150
4.3 المواد المستخدمة في البناء : 150
4.3.1 الحجر:..... 150
4.3.2 الرخام: 151
4.3.3 الفخار:..... 151
4.3.4 الخشب:. 152

4.3.5 المعدن: 152

4.3.6 الزجاج:.....153

الفصل الخامس: التحليل المعماري لعمائر الأمير تنكز والنتائج 155

5.1 اعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من حيث التخطيط والواجهات والنسب المعمارية: ...156

الخاتمة: 168

المصادر والمراجع العربية والأجنبية 171

فهرس المخططات 177

فهرس الصور 179

الفهرس.....182

عمادة الدراسات العليا

جامعة القدس

الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس

دراسة تاريخية، معمارية وفنية

نادين مهيب عفيف طوقان

رسالة ماجستير

القدس- فلسطين

1435هـ/ 2014م

الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري
في مدينة القدس
دراسة تاريخية، معمارية وفنية

اعداد الطالبة

نادين مهيب عفيف طوقان

بكالوريوس هندسة معمارية- جامعة البتراء- الأردن

المشرف

أ.د. مروان أبوخلف

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في الآثار من المعهد العالي للآثار في جامعة القدس

القدس - فلسطين

1435هـ/ 2014م

جامعة القدس

عمادة الدراسات العليا

برنامج المعهد العالي للآثار

إجازة الرسالة

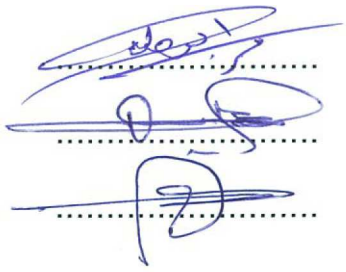
الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس
دراسة تاريخية، معمارية وفنية

اسم الطالبة: نادين مهيب عفيف طوقان

الرقم الجامعي: 20810094

المشرف: د. مروان ابوخلف

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ 1/ 3/ 2014 من لجنة المناقشة المدرجة أسماؤهم وتوقيعاتهم:



رئيس لجنة المناقشة: أ. د. مروان ابوخلف

الممتحن الداخلي: د. ابراهيم ابو أعمر

الممتحن الخارجي: د. جمال عمرو

القدس– فلسطين

1435هـ/ 2014م

إهداء

الى ذكرى مَنْ وطئت أقدامهم هذه الأرض المباركة

مِنْ علماء وأبطال وشخصيات تاريخية بارزة

ممن جُبِلَتْ أُصولهم ودمائهم وعَرقهم مع تراب الأرض

فأهدتها حضاراتٍ عظيمةٍ متتاليةٍ قامت عليها

وأنعشتها بنسائِم تفوحُ بهجةً وتنشرُ السِحر في العقول

وجعلتها موطناً للعِلم والثقافة والعمران

فإلى ذكرى الأمير تنكز الناصري الذي أثمرت جهوده

بصروحٍ شامخةٍ تتباهى بها مدينتنا، القدس

إقرار:

أقِرُ أنا معدة الرسالة بأنها قُدمت لجامعة القدس، لنيل درجة الماجستير، وأنها نتيجة أبحاثي الخاصة، باستثناء ما تمَّ الاشارة له حيثما ورد، وأنَّ هذه الرسالة، أو أي جزء منها، لم يقدم لنيل درجة عليا لأي جامعة أو معهد آخر.

التوقيع: .....

نادين مهيب عفيف طوقان

التاريخ: .....

الشكر والتقدير

أبدأ بحمد الله وشكره على ما قدَّرني وأعانني على اتمام هذا البحث، فالحمد لله ربِّ العالمين.

وأتقدم الى الأستاذ الدكتور مروان أبوخلف بجزيل الشكر والعرفان على متابعته ودعمه ومساندته لي في جميع مراحل كتابة واعداد البحث. واشكر كل مَنْ قدَّم لي يدّ المساعدة في مراحل التحضير للرسالة، وأخص بالذكر السيد حسين غيث وجميع العاملين في مكتبة الآثار البريطانية، لحُسن تعاملهم وتقديمهم المساعدة لي أثناء زياراتي الى المكتبة، وامدادي بالعديد من المراجع الهامة التي استعنت بها في فصول البحث. والى اساتذتي في جامعة القدس لِما قدموه من معلومات وخبرات اثناء مرحلة الدراسة.

ويرجع الفضل الأكبر في وصولي الى هذه المرحلة من الدراسة الى أهلي، أبي وأمّي واختي، فأُكِن لهم كلَّ الشكر والامتنان لدعمهم وتحفيزهم المتواصل لي. والى زوجي لصبره ومشاركته لي في أثناء قيامي بالبحث والدراسة، فأرجو أنْ اكون مدعاة لفخرهم ولأولادي كامل وعمر.

ملخص الرسالة:

تناول موضوع الرسالة الأعمال المعمارية للأمير تنكز الناصري في مدينة القدس، في الفترة الواقعة ما بين عامي 1312م و 1340م، ودراستها كوحدة معمارية متكاملة تمَّ تحليلها معمارياً وزخرفياً، لبيان علاقة هذه المنشآت بعضها ببعض وماهية التركيب الفراغي فيما بينها، وربْطِها مع محيطها وعلاقتها كمخطط تفصيلي مع المخطط العام للمدينة، لما لها من أهمية في الإضافة على المخطط الهيكلي لمدينة القدس القديمة، وتطوير مفهوم المخطط الحضري لها، بالإضافة الى الأهمية التاريخية والأثرية والطراز المعماري المتميز لهذه المنشآت. والتي ساهمت في إظهار طابع معماري إسلامي في العصر المملوكي الذي وُصف بالعصر الذهبي في فن العمارة والبناء.

وتكمُن أهمية هذه الدراسة في تسليط الضوء على جانب من جوانب العمارة المملوكية التي كان لها أثرها في اضافة نموذج تخطيط جديد لمدينة القدس وتطوير المخطط العام للمدينة من خلال الأعمال المعمارية للأمير سيف الدين تنكز الناصري، حيث كان له دوراً بارزاً في تطوير النسيج الحضري للمدن من خلال الحفاظ على إرثها المعماري وتطوير الأماكن الدينية الواقعة ضمن حدود سلطته خلال فترة توليه منصب النيابة، خاصة مدينة القدس لمركزها الديني وأهميتها الحضارية. فعمل على تطوير الفكر المعماري في تخطيط المدينة، من خلال طرحه لنظام المجمعات المعمارية كأسلوب في التخطيط ودمجه مع نسيج المخطط الحضري المتماسك للمدينة.

وقد هدفت الدراسة الى بيان أهمية الجانب العمراني لمدينة القدس في تلك الفترة، وابراز جميع مناحي اسلوب الأمير تنكز في التخطيط والتطوير الحضري، خاصة وأنَّ جميع الدراسات والأبحاث التي تطرقت الى ذكر الأمير تنكز سواء من الناحية الاجتماعية أو انجازاته المعمارية، لم يتم فيها التطرق الى جانب أعماله المعمارية بشكل مُفَصَّلْ، بالرغم من مدى التأثيرالإيجابي الذي خلَّفه نمط مخطط مجمعه المعماري على محيط منطقة المسجد الأقصى المبارك، بالإضافة الى المخطط العام للمدينة. فإنَّ الأمير تنكز استطاع تنفيذ مخططه ضمن خطةٍ مدروسةٍ وتسلسلٍ زمني ومكاني محدد من خلال اتباعه منهجية معينة كان اساسها تقسيم تنفيذ المشروع الى مرحلتين: الاولى اتسمت بإنشاء مباني ذات طابع ديني، كالمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة والمطهرة.
والمرحلة الثانية اتسمت بطابعها التجاري، واشتملت على حمّاميّ الشفا والعين وخان تنكز وسوق القطانين. وارتبطت هذه المرحلة بالمرحلة الاولى من خلال أنَّ العائد المادي لهذه المباني يُنْتَفَع بها في التجديد والاعتناء بمباني المرحلة الاولى والحفاظ عليها لاستمرارية أداءها لوظائفها.

وللوصول الى دراسة متكاملة فقد تمَّ الاستناد في منهج وخطوات الرسالة على مناهج البحث العلمي كالمنهج الوصفي من خلال متابعة الوصف التاريخي والمعماري للمواضيع المتعلقة بالأمير تنكز

واعماله، والتي قد تضمنتها المصادر والمراجع التاريخية المختلفة والمخطوطات بالاضافة الى الكتب الخاصة بالعمارة والفنون والوثائق والسجلات الرسمية، كالوقفية التي وضعها الأمير ووضحت معلومات هامة عن منشآت دينية وخيرية واجتماعية وتعاملات مختلفة تمت في تلك الفترة. كما اعتُمِدَ المنهج التحليلي في الرسالة من خلال دراسة المخططات المعمارية لعمائر تنكز والبحث في الدوافع وراء انشاءها، وعلاقتها مع بعضها ومع الحيز الذي أُنشأت فيه. حيث أنها وإنْ شكلت مجمعاً معمارياً إلا أنَّ دراسة التخطيط الحضري والعلاقة التي تربط هذه المباني مع بعضها البعض لم يتم دراسته سابقاً، فهل كان فضاءً فراغياً أم ابنية تمَّ ازالتها أو البناء فوقها، وما الرؤية التي امتلكها الأمير تنكز واراد تحقيقها من خلال عمائره وعلاقتها مع المكان واسلوب تخطيطها. ثمَّ اجراء الدراسة التحليلية لعمائر تنكز خارج نطاق مدينة القدس، واجراء المقارنات مع عمائره في المدينة، لاستنباط النتائج والوصول الى اتمام دراسة شاملة لأعمال الأمير تنكز في مدينة القدس.

وبالتالي فإنَّ الدراسة قد خلُصَتْ الى بيان أهمية ربط أعمال الأمير تنكز ضمن مجمع التنكزية وطرح الأسباب والدوافع المقترحة وراء تبني الأمير لفكرة انشاء مجمع معماري في القدس، والمنهجية الشاملة التي اتبعها في تنفيذه، وتطبيقه لذلك من خلال اقامته لمنطقة خدمات متكاملة ضمن مجمعه يوفر من خلالها حلولاً حضريةً وعمليةً لكافة فئات المجتمع، خاصة وأنَّ المدينة كانت مركز استقطاب للعديد من الحجاج والتجار وطالبي العلم والزائرين، بالإضافة الى سكان المدينة. فاستطاع بذلك ربط الأبنية مع بعضها فراغياً ومادياً ووظيفياً، ورَبْطِهَا جميعها ككتلة واحدة مع رمز المكان الديني بقربها من المسجد الأقصى المبارك. بالاضافة الى توحيد العناصر المعمارية والزخرفية التي شُكلت منها عمائره مع انجازاته المعمارية المختلفة في مدن وبلدان اخرى، بحيث طُبعت جميعها بصبغة موحدة جعلت من أعمال الأمير تنكز المعمارية شواهد لبراعة منهجية تخطيطه ورؤيته الثاقبة في الإضافة على المخططات الحضرية للمدن الى جانب ابرازه للجوانب المختلفة للفِكر الهندسي المملوكي.

The Architectural Works of Al-Amir Tankiz Al-Nasiri in Jerusalem city
Historical and Architectural study

Prepared by: Nadine Muhib Afif Toukan
Supervised by: Dr. Marwan Abu Khalaf

Abstract:

The Thesis addresses the architectural works of Al-Amir Tankiz Al-Nasiri in Jerusalem, in the period between 1312 A.D. and 1340 A.D., where these works are studied as an integrated architectural unit, analyzed architecturally and decoratively to show the connection between the structures and the composition of the surrounding space between them, highlighting its importance to the overall structural plan of the city and its urban planning development concept in relation to the historical, archeological and architectural style importance of these outstanding structures. These works illustrated the Islamic architecture that was formed with the influence of functional intent, as well as the social factor in terms of certain traditions and beliefs namely the Islamic faith. The Mamluk dynasty, highlighted a new stage in the history of architecture of cities, preserving the Islamic characteristics, which made the Mamluk era worthy of what was considered to be the golden age in the art of architecture.

The significance of this study that it emphasizes the main aspect of the Mamluk architecture which had an impact on introducing a new planning form to the layout of Jerusalem city and to the improvement of its general plan through the architectural works of Al-Amir Saif Eddin Tankiz Al-Nasiri. Therefore, he had a significant and active role in the Mamluk era, through his urban planning, preservation of its' architectural heritage and the development of religious places located within the limits of his authority especially the city of Jerusalem for its religious and cultural significance. Tankiz was able to introduce a new planning concept with his systematic architectural complex and combine it with the cohesive urban plan of the city.

The study aimed to establish the importance of Al-Amir Tankiz's technique towards the city planning development of Jerusalem, particularly when all the other studies and researches which addressed Al-Amir Tankiz both in terms of social or architectural achievements did not introduce his design work in details. Eventhough, his architectural complex pattern had its positive impact on the surrounding area of Al-Aqsa mosque as well as to the general plan of the city.

Following certain methodology, Tankiz was able to implement his plan effectively and efficiently dividing his project into two phases: the first, was characterized by establishing buildings of religious theme (Al-Tankaziyya, Ribat Al-Nisa', the Bab al-Silsila Minaret and the Mathara). The second phase consisted of commercial buildings (Al-Shifa and Al-Ain bathhouses, Khan Tankiz and Suq Al-Qattanin). Tankiz idea was to employ the

financial return of the second phase buildings to the renovation of the first phase structures to ensure the continuity of their functioning.

The study undertook a scientific research methodology which was based on a descriptive methodology; research made on all historical and architectural writings (manuscripts, historical references, Architectural books, official documents (Alwaqfieh) related to Al-Amir Tankiz works. An analytical methodology; studying the architectural plans of Tankiz's structure, his vision and purpose of his project, the site archeology, its space planning and the relation between the buildings which form a COMPLEX. As well, making comparison in his designs throughout his architectural projects in the region.

In conclusion, the study emphasizes on the new concept developed by Tankiz having an integrated services area within a compound; linking structures to become one functional complex, of which provides practical urban solutions for all segments of society, especially since the city was a center of attraction and frequently visited by many pilgrims, traders, learners and visitors, as well as the city's residents.
He was able to link the buildings within one space, physically and functionally to become a singular bloc in contiguity with Al-Aqsa Mosque. He also linked these building structures by unifying the architectural and decorative elements which also formed his various architectural achievements in different cities in other countries, and this standardized his scheme. Which conclude that Al-Amir Tankiz's architectural work is considered evidence of his exceptional systematic planning and his vision in the adding up to the urban planning of cities as well as highlighting the different aspects of the Mamluk architectural concepts.

المقدمة:

القدس، أرض الحضارات المختلفة، والمعرض الإبداعي الحي الذي كشف عن طبيعة تفكير الشعوب التي مرّت بها، والتي ساهمت في التطور الحضاري والمعماري الذي وصلت إليه. فلقد واكبت مدينة القدس مختلف جوانب الحياة الدينية والسياسية والإجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية لأمم متعددة، حيث شكلت أرضها قاعدةً رئيسة لأمم عديدة منذ ما قبل الاسلام لبناء حضاراتها عليها. حيث كان للموقع الجغرافي لمدن بلاد الشام عامةً ومدينة القدس خاصةً بوقوعها بين بلدان الشرق والغرب، الأثر الأكبر في أطماع امبراطوريات للسيطرة عليها. فقدّمت الإمبراطوريات اليونانية والرومانية والبيزنطية ثقافاتها المعمارية من خلال صروح ضخمة، هدفت من خلالها الى إرساء مفهوم القوة لتدعيم سيطرتها على هذه المناطق.

ومع ظهور الاسلام شكلت الحضارة العربية الإسلامية على مدى العصور منذ العصر الأموي حتى العصر العثماني الطابع المعماري المتميز في مدينة القدس، حيث جعلت هذه الحضارة من المدينة مقصداً للعلم والعلماء ومنارةً ثقافيةً تُرَسِخُ أساساً لبناء الحضارة والسلام، على عكس الحضارات الأخرى السابقة التي اتخذت من المدينة مسرحاً للنزاعات والعدوان بغية السيطرة. وقد تم إنشاء عمارة متميزة بنسبها المعمارية المتقنة وزخارفها الرائعة، وكان لعاملين طبيعيين اساسيين الأثر في ذلك، أولاً العامل الجغرافي من حيث طبيعة مناخ منطقة البحر الأبيض المتوسط عامةً والقدس خاصةً، وثانياً العامل الطوبوغرافي حيث تتميز المنطقة بطوبوغرافية جبلية. فقد اعتُمِدَ الشكل المكعب البسيط في العمارة والذي اصبح الشكل المهيمن للعمارة الاسلامية، حيث يُوفر واجهات بفتحات قليلة وصغيرة من الخارج تضمن الخصوصية الإجتماعية، وصحن داخلي مفتوح يوفر الإنارة والتوزيع الحراري المناسب، وتم التكيف مع هذا الشكل للتأقلم مع العوامل الطبيعية الأساسية المؤثرة فيه، من خلال التوزيع الوظيفي المتناغم للمساحات والحدّ من امكانية سيطرة الملل والجمود على الواجهات من خلال التنوع في الزخارف المستخدمة، كما وساعدت طوبوغرافية المنطقة من هذا الحدّ حيث أوجدت انسيابية في توزيع الكتل المعمارية بشكل متوازن مع المنحدرات.

ومن العمارة التي تميزت على مدى العصور الاسلامية بناء قبة الصخرة المشرفة في العصر الأموي والتي لا يمكن تجاهل وصفها في أي من كتب التاريخ والعمارة والآثار والفن، كما وبناء المدرسة الصلاحية والمدرسة التنكزية والمدرسة الأشرفية وسوق القطانين وتكية خاصكي سلطان....الخ، في العصور الأيوبية والمملوكية والعثمانية.

ولقد غدا عصر سلاطين المماليك بفترة العصور الاسلامية المتأخرة في 1250م في تمثيل مرحلة جديدة في تاريخ مدينة القدس، حيث استطاع المماليك السيطرة على الحكم ونزع السلطة من ايدي

الأيوبيين من خلال احترافهم العسكري واحترامهم النظام وتمسكهم بالإسلام كعقيدة، بالرغم من أصولهم غير الإسلامية، إلا أنه قد تمَّ تعليمهم الدين الاسلامي في منشآت اسلامية، فأظهروا انتمائهم الكامل للدين الاسلامي على مدى فترة حكمهم الممتدة لنحو 267 عاماً، الأمر الذي أثّر في قيام دولتهم على اساس الدفاع عن الكيان الإسلامي وجَعَلَ مبدأ سياستهم من شقين حربي وديني، هذا الأمر الذي جعل المدينة تنعم بالأمن والاستقرار من خلال قوتهم العسكرية، وتشهد الثراء والازدهار.

وبالتالي فإن السياسة الدينية لدى السلاطين والأمراء المماليك قد انعكست على إبراز اهتمامهم بين كافة المسلمين بمدينة القدس ومؤسساتها الدينية والاجتماعية والخيرية، لوعيهم بمكانتها الدينية وخصوصيتها المقدسة عند عموم المسلمين، فعملوا على إنشاء وتعمير العديد من المنشآت المختلفة من أماكن الإقامة (الخانات) والخانقاوات للمتصوفين وأماكن الدراسة والعبادة. فأنشأوا المدارس من أجل ترسيخ المكانة الدينية للمدينة، والأسواق التي تضمنت على العديد من المحال التجارية بالإضافة الى أماكن للسكن، والحمّامات للراحة والمآذن والأسبلة والأضرحة....الخ. ولم يتوانوا في اقتطاع جزء من ثرواتهم الضخمة في سبيل رعاية مقدسات المسلمين والعناية بالمؤسسات العلمية والخيرية، من أجل ظهورهم دائماً في صورة رعاة الدين القائمين على خدمته، وتوفير الحياة الجيدة بشتى مجالاتها في المدينة. ولم يقتصر اهتمامهم على المؤسسات الدينية الاسلامية فحسب، بل إن الطوائف المسيحية تمتعت بالحرية الدينية في المدينة، وقاموا بترميم واصلاح مؤسساتهم الدينية.

ومن منطلق حرص سلاطين المماليك في انشاء عمائر ترسخ غايتهم في اظهار مكانة مدينة القدس، فقد أبدعوا في تصاميم العمارة، سواء من الداخل أو الواجهات الخارجية، والتي شكلت طرازاً معمارياً يُحتذى به. وأصبح للعصر المملوكي الدور البارز في تشكيل الطابع المعماري لمدينة القدس، بما طبعه من طرازٍ متميزٍ وتحفٍ معماريةٍ شامخةٍ الى يومنا، تشهد بأصالة هذا العصر، وبعمق الفكر المعماري المنقطع النظير، الذي هدف الى إنشاء عمائر وتركيب فراغاتها الداخلية وعلاقتها مع بعضها البعض بشكل يخدم هدفها الوظيفي، وتزخر بالزخارف الراقية المتنوعة، مما جعلها تحاكي الوظيفتين الإنشائية والجمالية في آنٍ واحد. فاستخدام الإيوانات في التخطيط المحوري للمدارس، واستخدام القباب، كما التصميم المتوازن للمآذن وتحديد مستوياتها بواسطة الزخارف الخارجية، حقق الهدف الوظيفي والجمالي بشكل متناغم. وبالرغم من اختلاف الوظيفة الداخلية للمباني، إلا أنه بالإمكان تمييز عناصر موحدة تميز واجهات العمارة المملوكية. فقد جاءت معظم المباني المملوكية ملاصقة لبعضها البعض، على طول المحاور المطلة عليها وبالقرب من منطقة الحرم القدسي، بالتالي شكلت أهمية في بعدها الثنائي، حيث أن الواجهة الأمامية للمبنى هي فقط الظاهرة، وعكست هذه الواجهات الغنية بالعناصر المتميزة من اطار الواجهة والمقرنصات

والأدراج والمكسلتين والمصبّعات الحديدية وغيرها، اسلوباً راقياً وفرضت ارتفاعات هذه الواجهات عظمة ومهابة للمباني، وأرست اساساً راسخاً في الفن المعماري.

ويُمكننا متابعة وملاحظة ذلك في المباني التي أُنشِئَت خلال فترة حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطان المملوكي في مصر ونائبه على بلاد الشام الأمير سيف الدين تنكز الناصري في الفترة الواقعة ما بين عامي 1312م و 1340م، حيث تُعتبر المرحلة الزمنية التي تمت فيها نيابة الأمير تنكز على بلاد الشام عامة ومدينة القدس خاصة، من المراحل المتميزة في العصر المملوكي، حيث عُنِيَ الأمير بتطوير المدينة وذلك لأهميتها الدينية، فسعى الى اقامة منطقة خدمات متكاملة يُعزز من خلالها المكانة الدينية للمدينة كما ويحقق مكانة اقتصادية وخيرية واجتماعية وثقافية لها. فعمل على تعمير واعادة استخدام العديد من المنشآت المعمارية كالأسواق والخانات والمدارس والمآذن والحمّامات، وتُعتبر هذه المنشآت كاملة على اختلاف وظائفها معالماً معماريةً وأثريةً في مدينة القدس، وتحفاً معماريةً يُشار إليها بالعظمة والدقة على المستويين المعماري والفني حتى يومنا هذا.

ومن خلال تعقُب المنشآت المعمارية في القدس، يتبين أنه قد تم إنشاء العديد من العمائر المملوكية على فترات متعاقبة لحكم السلاطين المماليك والأمراء في مختلف مناطق المدينة، من مدارس وخانات وحمّامات،...الخ. ولكن تُعد أعمال الأمير تنكز اعمالاً متميزة ومتفردة، حيث أنها ارتبطت جميعها ضمن نطاق مساحة واحدة والتي من خلالها كان للأمير دوراً بارزاً في التأثير على تخطيط مدينة القدس ومخططها العام، من خلال طرحه لنظام المجمعات المعمارية كاسلوب في التخطيط ودمجه مع نسيج المخطط الحضري للمدينة. وستتناول هذه الرسالة موضوع دراسة هذا المجمع المعماري كوحدة معمارية متكاملة من خلال التخطيط الحضري للمنطقة الواقع فيها، وابراز المنشآت الواقعة ضمن المجمع وتحليلها معمارياً وزخرفياً، ووضع هذه المعلومات عن عمائر تنكز في مجموعة خاصة لما لها من اهمية تاريخية أثرية وطرازٍ معماري متميزٍ.

وقد تمَّ تقسيم الدراسة الى الفصول التالية:

الفصل الأول: تطرق في هذا الفصل للحديث عن نشأة المماليك تاريخياً (أصولهم، تقسيم عهدهم، البعض من أبرز سلاطينهم وعوامل ضعف دولتهم) ثمَّ تطورهم العمراني.

الفصل الثاني: تناول هذا الفصل الجوانب الادارية المملوكية لبلاد الشام، من خلال الحديث عن التقسيمات الادارية (النيابات) فيها، والوضع الاداري لمدينة القدس كما الجوانب المختلفة للحياة الثقافية فيها.

الفصل الثالث: تطرق هذا الفصل للمحة عن حياة الأمير تنكز من جوانبها المختلفة (كنشأته، صفاته، القابه وأهم اعماله...)، ثمَّ الحديث عن انجازات الأمير المعمارية ضمن مجمعه المعماري ذات الأثر البارز في التطور المعماري للنسيج الحضري لمدينة القدس.

الفصل الرابع: تناول هذا الفصل العناصر المعمارية والزخرفية لعمائر تنكز، كما والمواد المستخدمة في البناء. وتمَّ اعتماد معظم هذا الفصل على المشاهدة والوصف.

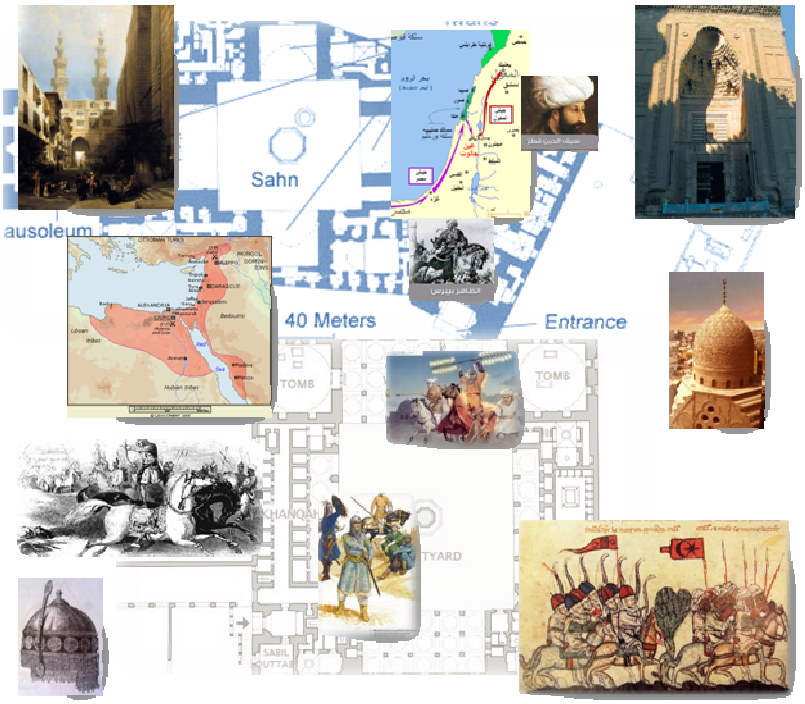
الفصل الخامس: تمَّ الحديث عن الأعمال المعمارية للأمير في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من خلال تحليلها معمارياً وزخرفياً.

فأرجو الوصول الى اتمام دراسة شاملة لأعمال الأمير تنكز في مدينة القدس، والتي آمل من خلالها أنْ اكون بتوفيق من الله قد ساهمت مع الجهود العلمية التي بُذِلَت في سبيل توثيق واظهار المعلومات القيمة لهذه العمائر، مع اضافة مجهود متواضع في عرضها بمضمون جديد وكدراسة متكاملة عن أعمال الأمير تنكز التي جمعت ما بين الآثار والتخطيط والعمارة والفنون، وجَعْلِها منفعة للجميع.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

نشأة المماليك وتطورهم العمراني



الفصل الأول

نشأة المماليك وتطورهم العمراني

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول الحديث عن نشأة المماليك تاريخياً من خلال التطرق الى أصولهم وسلاطينهم ثم عوامل ضعفهم وانهيارهم. أما القسم الثاني فيتناول موضوع العمران في العهد المملوكي بشكل عام، موضحاً قِوام هذه النهضة العمرانية وما انبثق عنها من انشاء مختلف الطرز المعمارية، بالإضافة الى الوصف البسيط لبعض أبرز الانجازات المعمارية في تاريخ هذه الدولة، وما امتازت به من مميزات.

1.1 نشأة المماليك:

1.1.1 أصلهم: هم أقواماً من الأتراك والشراكس أو الجراكس الذين كانوا يؤخذون أسرى في الحروب أو يُفتدون من التتار أو يتم شراؤهم للخدمة في الجيش ويُجلبون الى البلاد الإسلامية[1]، أو يُقدموا كهدية للسلطان. وأصل الكلمة في اللغة العربية يعود الى الفعل مَلَكَ، ومملوك اسم مفعوله ويُقصد به الرقيق الأبيض، حيث كان يتم شرائهم واستملاكهم، فأُطلقت عليهم هذه الصفة والمُسمى[2] . ولكن لا يمكن الخلط بين هذه التسمية وكلمة " عبد "، الذي يتم شراؤه للقيام بمهام متدنية الأهمية، وغالباً يكون أسمر اللون، أما التعريف بالمملوك فهو الفرد الذي يتم المتاجرة به قبل أن يصل سن النضج ويكون من خارج حدود الدولة الإسلامية، ليتم تربيته ولينشأ نشأة اسلامية، وتكون خدمته في الجيش أو في بلاط السلطان، ويُشكل هو والمماليك الآخرين قوة اساسية للسلطان أو الحاكم[3]. ولكن مع مرور الزمن أصبح هذا الوصف لا يتناسب بتعريف المماليك لعظمة قوتهم وحنكتهم وانجازاتهم العسكرية والثروة العمرانية التي خلّفوها من بعدهم[4].

---

[1]. Atil, Renaissance of Islam, p.12 ؛ الموسوعة الفلسطينية، مج4 طب1، 1984، ص290

[2]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص1.

[3] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem p.53.

[4]. حميد، فلسطين التاريخية، الأرض الانسان الحضارة ص341 .

في بادئ الأمر كان يتم شراء المماليك من قبائل تركية فقط من آسيا الوسطى ولاحقاً من آسيا الغربية. وكانوا جميعاً من اصل غير مسلم وذلك تماشياً مع عقيدة الاسلام بمنع اقتناء خدم من المسلمين. ومن بداية نشأتهم يتم تدريبهم فن القتال والفروسية الى جانب التعليم الأساسي، ثم يتم اختيار الصفوة منهم ليكونوا المرافقين والخدم الشخصي للسلطان، فشكلوا الحرس المملوكي على مدى العصور وتباعاً الدولة المملوكية. وبسبب بعدهم عن موطنهم الأصلي وعن عائلاتهم كانوا موالين تماماً للسلطان، الذي كان بدوره يعطيهم حريتهم ويكسبهم القوة، خاصة البارزين منهم[1].

وكان أول من استخدمهم هم الخلفاء العباسيون الذين اكثروا من شراء المماليك لدعم قوتهم وسلطتهم خشية من نفوذ الفرس، كما أنه عند بدء تفكك الدولة العباسية ورغبة الحكام في الاستقلال بولاياتهم، دفعهم الى شراء المماليك ليشكلوا جيشاً يحقق لكل منهم رغباته ومطامعه. وكانت مصر من بين هذه الولايات التي شهدت ازدياد في أعداد المماليك من الأتراك والديلم[2]، خاصة من قِبَل خلفاء الدولة الفاطمية الأواخر في وقت لاحق.

حتى قيام الدولة الأيوبية التي اشتهرت بعظمتها وقوتها وسطوتها وازدياد جموع المماليك فيها، حيث اتخذ السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب والذي قضى على الدولة الفاطمية، عسكره من الأكراد والأتراك خاصة، وأزال الأجناس الأخرى. إلا أنَّ الإنقسام الداخلي الذي شهدته الدولة الأيوبية في بدايات القرن الثاني عشر الميلادي عقب وفاة صلاح الدين الأيوبي عام 1193م[3]، والأخطار الخارجية التي تعرضت لها من قِبل القوى الصليبية والخوارزمية والمغولية، وتحالفها مع السلاطين الأيوبيين في بعض الأحيان من أجل تحقيق مكاسب سياسية، جعل من أمر النزاعات على الحكم بين الأمراء الأيوبيين من أولوياتهم، وأدى ذلك الى إضعاف وحدة الدولة الأيوبية وانتشار الفوضى في مصر وبلاد الشام، خاصة بعد وفاة السلطان الكامل ملك مصر في 635هـ/ 1238م، حيث كان بوفاته بداية لتفكك الدولة الأيوبية وانهيارها. الأمر الذي دفع بالأمراء الأيوبيين الى الإكثار من شراء المماليك وتدريبهم ليشكلوا منهم فرقاً عسكرية خاصة وقوة وسنداً لهم في صراعاتهم القائمة. وكان من بينهم الملك الصالح نجم الدين أيوب (ابن الكامل) الذي أسس هذه المجموعة من المماليك بعد توليه الحكم على دمشق في 636هـ/ 1239م ليشكلوا نظاماً عسكرياً، حيث دخل في صراعات داخلية ضدَّ أخيه السلطان العادل وأمراء آخرين للهيمنة على الحكم، فكان في حاجة الى جيش قوي يسانده ويساعده في دحر المؤامرات على السلطنة،

---

[1] . Auld, S, J. Palestine Exploration Quarterly, pp. 85-87; Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.3-5; Atil, Renaissance of Islam, p.12.

[2]. الديلم: هي المنطقة الجبلية من بلاد جيلان، والواقعة في الجنوب الغربي من بحر قزوين، وقد نُسِبَ إليها سكانها فعُرفوا بالديلم أو الديالمة. (المقريزي، السلوك ج1 قسم1 ، ص23، حاشية 1)

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج1، ص94؛ عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص1-3 .

واستطاع بعد ذلك من دخول القاهرة سلطاناًعليها لمدة عشر سنوات من 637هـ – 647هـ/ 1240م– 1249م[1]. إلا أنه بوفاته ازداد نفوذ المماليك بقوتهم وعددهم واصبحوا يدبروا المؤامرات ضدَّ الأمراء، فكان لهم الرأي في عزل أو تعيين الأمراء تبعاً لمصالحهم الشخصية. وقد امتاز المماليك بالقوة والشجاعة والمنظر الحسن والبشرة البيضاء اللون، وبسبب تربيتهم العسكرية كان مفهومهم لأحقية اعتلاء الحكم تقوم على اساس الشجاعة والذكاء وليس على اساس الوراثة، فاستطاعوا الوصول الى حكم مصر في 1250م بعد الخلاف بينهم وبين الملك المعظم غيّاث الدين توران شاه (ابن الملك نجم الدين ايوب)، الذي أُعلن عنه سلطاناً في دمشق وهو في طريقه الى مصر، بعد النصر الكبير الذي حققه المماليك ضدّ الحملة العسكرية للصليبيين بقيادة الملك الفرنسي لويس التاسع في فارسكور قرب دمياط في مصر. وقد شكلّ هذا الانتصار للمماليك احساساً بتفوقهم وازدياداً لقوتهم، فتنبه الملك الى محاولتهم الاستيلاء على السلطة والغدر به مما أدى الى توتر علاقته معهم، وازداد استياء المماليك منه خاصة بعد انشغاله باللهو وسوء ادارته للمُلك، فلم يستغل النصر الذي تحقق لتأكيد بسط نفوذه على مصر إنما كان يفتقر الى الحنكة السياسية وغير مكترث بأمور الدولة الأيوبية في مصر.

فاتفقوا على قتله وبتأييد من زوجة أبيه شجرة الدّر تمّ ذلك[2]، حيث مات في فارسكور وسقط في مياه النيل بعد أن دامت مدة ملكه واحد وسبعون يوماً. بالتالي انتهى حكم الدولة الأيوبية على مصر بعد حكم دام واحداً وثمانين عاماً من 567هـ – 648هـ/ 1169م–1250م، واصبحت السيطرة لقوة المماليك البحرية[3]. إلا أنّ هذا الأمر كان له ردة فعل لدى الأيوبيين في بلاد الشام، فتوجهوا الى مصر للقضاء على القوة المملوكية الناشئة، وحدثت صدامات كثيرة أسفرت في نهايتها الى عقد معاهدة سنة 651هـ/ 1253م، بموجبها تم الاتفاق على الإعتراف بالدولة المملوكية الناشئة وأن تكون فلسطين بما فيها القدس حتى نهر الأردن للمماليك، أما الأجزاء الشمالية لبلاد الشام فتبقى في أيدي الأيوبيين تحت حكم الملك الناصريوسف بن أيوب حاكم دمشق والملك المغيث عمر حاكم الكرك.

إلا أنّ بلاد الشام استمرت في معاناة الفوضى والقلق في عهد خلفاء صلاح الدين الأيوبي، واستمر الصراع بين أيوبية الشام ومماليك مصر حتى عام 1259م حين اشتد الخطر التتاري على الدول الأيوبية، فما كان من الملك الناصر يوسف إلا طلب العون من المماليك لمجابهة القوة التترية. فخرج سلطان المماليك قطز لمواجهة قوات التتار والتقى الطرفان في عام 1260م والذي شهد

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص10–11.

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص20–22 ؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص188–189.

[3]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، قسم2، ص360–361.

موقعة عين جالوت ونقطة تحول حاسمة في الصراع ضدّ الصليبيين والتتار حين نالت القوات المملوكية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري النصر في المعركة[1]. وهكذا استطاعت حينها القوة الناشئة لدولة المماليك في مصر تحقيق الامن والاستقرار من خلال السيطرة على بلاد الشام وطرد بقايا الصليبيين منها. فامتد حكم المماليك لمصر وبلاد الشام مدة قرن ونصف من الزمن بين عامي 648هـ –922هـ/ 1250م– 1517م[2]، وفي أثناء سلطتهم الحاكمة استمروا في خلالها بجلب المزيد من المماليك الى مصر من أصول مختلفة سواء من الصقالبة أو اليونانيين أو الاسبان أو الألمان وتربيتهم وتدريبهم، وقام المماليك بدورهم في خدمة اسيادهم والدفاع عنهم، حتى ضعف دولتهم وازالة نفوذها على يد العثمانيين[3].

وقد قُسِّم عهدهم الى قسمين:-

1. عهد المماليك الأتراك أو المماليك البحرية 648هـ – 784هـ/ 1250م– 1382م
2. عهد المماليك الجراكسة أو المماليك البرجية 784هـ – 922هـ/ 1382م– 1517م

1.1.2 المماليك الأتراك أو البحرية:-

يُعد المماليك الأتراك من جند الملك الصالح نجم الدين أبو الفتوح أيوب، معظمهم من بلاد القَبْجَاق[4] وبلاد القوقاز قرب بحر قزوين. كان عددهم حوالي سبعمائة وخمسون الى ثمانمائة مملوك، وكانوا موالين تماماً للملك، فعظمت مكانتهم عنده وجعل منهم أمراء لدولته، وسمَّاهم المماليك البحرية لأنه قد بنى لهم واسكنهم معه قلعة الروضة على جزيرة الروضة وسط النيل في مصر[5]. وقد يكون هناك سبب آخر لهذه التسمية ولكنه غير مرجح، هو أنَّ هؤلاء المماليك كان يتم جلبهم عن طريق البحر بصحبة التجار ولذلك سُمّوا بالبحرية[6]، فعُرفت هذه الفرقة بالبحرية الصالحية، وكان أمراؤهم هم الذين اسسوا الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام[7].وقد انقسموا لاحقاً الى المماليك الظاهرية اتباع الظاهر بيبرس والمماليك الأشرفية اتباع السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

---

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ص394–396.

[2]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص305.

[3]. الزيدي، العصر المملوكي، ص21.

[4]. القَبْجَاق: يُعَد القَبْجَاق فرع من الترك الذين تعود اصولهم الى حوض نهر إرتش، وتنقلوا الى أن استقروا بحوض نهر إتل(الفلجا) في جنوب روسيا، فعُرفت تلك المنطقة بالقَبْجَاق، كما عُرفت به دولة المغول المعروفة باسم القبيلة الذهبية.(المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 قسم3 ص663).

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج2 ص236؛ عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص176–177.

[6]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص5.

[7] .Atil, Renaissance of Islam, p.12.

كان من أبرز سلاطينهم:-

أ. **الملكة عصمة الدين الصالحية الملقبة بشجرة الدُّر وأم خليل،** كما عُرفت باسم المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة الملك المنصور خليل[1]. كانت في الأصل جارية تركية ويُقال أرمنية اشتراها الملك الصالح نجم الدين أيوب وحظيت بمكانة عالية عنده فتزوجها، وانجبت منه ابنهما خليل الذي مات وهو صغير. ويُنسب تلقيبها بالمستعصمية الى أنها كانت جارية للخليفة العباسي في بغداد المستعصم قبل أن يشتريها الملك الصالح أيوب[2]. إلا أنها بعد وفاة الملك وبتآمرها مع المماليك البحرية لقتل ابنه توران شاه استطاعت الوصول الى حكم مصر واصبحت سيدة البلاد في عام 648هـ - 1250م، وتم اقامة الأمير عزالدين أيبك التركماني الصالحي على رأس جيشها[3]. إلا أنَّ تنصيب شجرة الدُّر على مصر لم يرضِ الخليفة العباسي المستعصم لإستنكاره بحكم امرأة للبلاد[4]، كما لم يُرضِ أيوبي بلاد الشام وواجهه الأمراء في الشام برفض تقديم الولاء لها، وبأنهم اصحاب الحق الشرعي في حكم مصر، فاتفقوا على مواجهة المماليك في الشام وفي مصر. فأدرك المماليك في مصر الخطر الذي يهدد سلطتهم بعدم اعتراف أمراء الشام بحكمهم، فاقترحوا زواج شجرة الدُّر من الأمير أتابك[5] العساكر عزالدين أيبك، وتم ذلك في عام 648هـ - 1250م، وتخلت له شجرة الدُّر عن السلطة بعد أن حكمت ما يُقارب الثمانين يوماً، فأصبح زوجها ملكاً وراح يُدعى الملك المعز عزالدين أيبك الجاشنكير التركماني[6].

ب. **السلطان الملك المعز عزالدين أيبك الجاشنكير التركماني الصالحي،** تركي الأصل، اسمه أيبك وهو اسم تركي مُرَّكب من لفظين وهما "أي" بمعنى القمر و"بك" بمعنى أمير. لُقب بالصالحي النجمي حيث كان من حرس الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذي أحضره من أولاد التركماني فعُرف بذلك بالتركماني، وأصل أولاد التركماني يعود الى بلاد التركمان مع أنهم عرب غسانية، فنُسبوا الى غسان كما نُسبوا الى التركمان، وقد أتوا الى بغداد كما سكنوا اليمن[7]. لقد ارتفع شأنه عند الملك الصالح فنصّبه من أمراءه برتبة جاشنكيره فعُرف بالجاشنكير أي ذوّاق طعام السلطان،

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص21-22.

[2]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1 قسم 2، ص361-362.

[3]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص197 ؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص189.

[4] .Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.8

[5]. اتابك: لقب من زمن السلاجقة مكون من لفظين، أتا بمعنى أب وبك بمعنى أمير، أي الأمير الوالد، درج بهذا المعنى للشخص المسؤول عن تربية اولاد الملوك وتعليمهم، ثم أصبح يدل في العصرين الأيوبي والمملوكي على قائد العسكر. (بن تغرى بردى، المنهل الصافي، ج1،ص7،حاشية6؛ الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص35).

[6]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ص237 ؛ الزيدي، المصدر السابق، ص22-23.

[7]. المقريزي، السلوك في معرفة دول الملوك، ج1 قسم2، ص368؛ بن تغرى بردى، المنهل الصافي،ج1،ص5-6.

حيث يقوم بتذوق الطعام قبل السلطان تحسُباً من أن يكون قد دُسَّ فيه السم، وله رنكة أي شعار تتناسب وهذا المنصب وهي صورة مائدة[1].

بعد وفاة الملك الصالح أيوب ومقتل ابنه الملك توران شاه، تنصّب الأمير أيبك أتابك العساكر أي مقدم العسكر في السلطنة مع شجرة الدُّر وقد عُرف حينها بين أمراءه بالدين والكرم والرأي السديد، تزوج من شجرة الدُّر لاحقاً وأقيم ملكاً على مصر. إلا أنَّ أمراء بلاد الشام اتفقوا على تنصيب واحد من بني أيوب ليشارك في السلطنة وذلك لتخوفهم من الملك المعز أيبك، فأجمعوا على إقامة الأشرف مظفر الدين موسى بن أيوب ملكاً، إلا أنه لم يكن له سوى اللقب في شراكة الملك وذلك لصغر سنه حيث لم يتعدى العشرسنوات من العمر وأن يظهر اسمه مع الملك على التواقيع والمراسيم وينقش على السكة ويتم الخطبة لهما في المنابر، وكانت أمور الدولة جميعها تُدار من قِبَل الملك المعز أيبك[2]. حتى عام 650هـ – 1252م حين وصول خبر بحركة التتار على بغداد فألغى المعز اسم الأشرف من الخطبة وانفرد بالسلطنة وقام بالقبض على الأشرف وسجنه، فكان بالتالي آخر ملوك الأيوبيين في مصر[3].

امتدت مدة حكمه سبع سنوات استمرت في خلالها النزاعات بين الأيوبيين في بلاد الشام تحت حكم الملك الناصر يوسف بن أيوب والمماليك في مصر، إلى أن تم الاتفاق على الصلح عام 651هـ – 1253م بأمر من الخليفة العباسي المستعصم بالله، وذلك لتوحيد الجهود لمواجهة الخطر المغولي للعالم الاسلامي[4].

فقضى أيبك معظم ايامه في ساحات القتال في مصر وسوريا وفلسطين، وكان شجاعاً صارماً ظالماً سفاكاً للدماء حيث قتل العديد دون ذنب ليوقع مهابته بين الناس[5].

وفي خلال فترة حكمه واجهت زوجته شجرة الدُّر صعوبة في تركه يحكم بنفسه وشعرت بندم لتخليها عن السلطة، ففرضت قوتها عليه وهي التي عُرفت بشخصيتها القوية وسطوتها فاستبدت بالأمور السياسية وحاولت التخلص من زوجها فبادرت بالاتصال بالملك الناصر يوسف لإعلامه بنيتها التخلص من زوجها والزواج به فيصبح سلطاناً على مصر، ولكنه شعر بأن هذا قد يكون خديعة فامتنع عن الجواب. إلا أنه لم يمنع شجرة الدُّر من تنفيذ ما تريد خاصة بعد علمها بنية

---

[1]. الجَاشْنكِير: لقب مركب من لفظين فارسيين، الأول: جاشنا ومعناه الذَّوقْ، والثاني: كير بمعنى المتعاطي لذلك أو الذي يقوم بالتذوق.(القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، ص460)؛ بن تغرى بردى، المنهل الصافي،ج1، ص5، حاشية (3) و(4)؛ Palestine Exploration Quarterly, The Mamluks and the Venetians, p.87.

[2]. المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ص369–370؛ بن تغرى بردى، المصدر السابق، ج1، ص6–7.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2،ص237.

[4]. الزيدي، العصر المملوكي، ص23.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص238 ؛ المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك ج1 قسم2، ص404.

زوجها من الزواج بأُخرى، فحرّضت الخدم على قتل المعز أيبك وساعدت في ذلك، مما أدى الى غضب مماليكه فتوجهوا الى شجرة الدُّر وقتلوها انتقاماً لسيدهم وكان ذلك في عام 655هـ – 1257م.

تولى من بعده المُلك ابنه السلطان الملك نورالدين علي بن أيبك وتلّقبَ بالمنصور. كان عمره خمسة عشر عاماً، ولصغر سنه عُيِّن الأمير سيف الدين قطز نائباً له ومدبراً لأمور الدولة، والذي قام بدوره بعزل الملك المنصور بعد أن دام حكمه سنتين وثمانية أشهر. ففي عام 656هـ – 1258م استولى المغول على عاصمة الخلافة العباسية وقتلوا الخليفة المستعصم بالله ودمروا وحرقوا، فشكلوا خطرا هدد بلاد الشام ومصر، رأى الأمير سيف الدين قطز الفرصة سانحة للسيطرة على الحكم، فخلع الملك المنصور عام 657هـ – 1259م واعتقله وأنهى حكمه، بحجة خوفه من الغزو المغولي وأن البلاد بحاجة الى سلطان قوي يقاتل العدو، ليس الى صبيٍّ يشغله اللعب ومستهتر بأمور الدولة، فانتقل له الحكم وأصبح الأمير سيف الدين قطز سلطاناً[1].

ج. **السلطان سيف الدين قطز بن عبدالله المعزي، اسمه الأصلي محمود بن ممدود[2]**، عُرف بالمعزي لأنه من مماليك الملك المعز أيبك، هو من الخوارزميين فهو ابن أخت الملك خوارزم شاه، تم أسره في حروب التتار ثم احضاره الى مصر واشتراه الملك المعز أيبك، لُقب بالملك المظفر واتصف بالشدة والحزم[3].

شهد عام 658هـ –1260م معركة عين جالوت، حيث هدد الزحف المغولي بقيادة هولاكو بلاد الشام ومصربعد سيطرتهم على بغداد وزحفهم نحو حلب، مما دفع بالملك الناصر يوسف حاكم دمشق الى طلب العون من الملك قطز من مصر والمغيث عمر حاكم الكرك، إلا أنّ الملك الناصر قام بالفرار لشدة خوفه واضطرابه متجهاً نحو غزة، كما أنّ معظم الناس رحلوا وتركوا دمشق خالية[4]. واتجه المغول نحو دمشق بعد أخذ حلب، فقرر من بقي فيها من الناس تسليم المدينة الى هولاكو الذي قُرأت فرماناته بأمان أهل دمشق[5]. واستمر المغول بالزحف نحو بعلبك وغزة وبانياس، حينها أرسل هولاكو خطاباً الى الملك قطز في مصر يهدده ويطلب منه التسليم، مما دفع بالملك الى قطع رؤوس الرُسل وتعليقهم، ونادى بالخروج الى الجهاد في سبيل الله، وأمر الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بأن يسير وجيشه نحو غزة لاستطلاع أخبار التتار، فنزل بها ودفع

---

[1]. بن تغرى بردى، المنهل الصافي، ج1، ص11–14؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص24–25 ؛
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p.9.

[2]. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج24، ص252 ؛ المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص435.

[3]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص198 ؛ Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, p. 9

[4]. المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص419.

[5]. المقريزي، المصدر السابق، ص 423–424.

التتار الى الرحيل عنها فتملكها[1]. فأمره السلطان قطز بأن يتحرك باتجاه بيسان حيث وافاه عند عين الجالوت وهي بلدة صغيرة بين بيسان ونابلس في فلسطين، وبها دارت المعركة الحاسمة بين المسلمين بقيادة الملك المظفر قطز والأمير بيبرس البندقداري وبين المغول بقيادة كتبغا نائباً عن هولاكو بحلب وبيدرا نائباً عنه بدمشق، حيث أن هولاكو قد اضطُر الى العودة الى آسيا الصغرى لوجود فتنة داخلية في بلاده بوفاة اخيه الخان الأعظم على جميع التتار، ووجود الطامعين في المُلك من أبناء بيت جنكزخان.

تقدم الملك المظفر قطز في طليعة العسكر لقتال المغول وأبلى بلاءً حسناً في المعركة التي انتهت بانكسار التتار وقَتْلْ كتبغا ومنَّ الله على المسلمين بالنصر. بعد انقضاء المعركة وورود الخبر الى دمشق بانهزام التتار فرّوا منها بعد أن استولوا عليها مدة سبعة اشهر وعشرة أيام، وانحصرت سيطرتهم عند حدود العراق. بعدها وصل الملك المظفر الى دمشق واسترد سائر بلاد الشام من الفرات الى حدّ مصر بمعاونة الأمير ركن الدين بيبرس[2]. وأصلح من حال البلاد وعيّن النواب والولاة ودانوا له بالولاء وجعل من دمشق نيابة مستقلة يرأسها أمير ذو رتبة عالية، وبهذا فإنَّ السلطان قطز هو الذي أدخل النظام الإداري المملوكي بتقسيم البلاد الى نيابات وأنهى النظام الإداري الأيوبي[3]، الذي اعتمد على تقسيم المملكة بين أمراء البيت الحاكم، حيث كانكل أمير يُعهد إليه بإقليم من أقاليم الدولة[4]. وقد وعد بيبرس بتوليته نيابة حلب، وخرج من دمشق قاصداً مصر وفي خلال طريق عودته انحرف عن المسار بغية الصيد ومعه الأمراء، إلا أنَّ الأمير بيبرس قد انتهز الفرصة للغدر لعدم وفاء الملك له بتوليته حلب وولاها لآخر، فقبض على الملك المظفر هو والأمراء المتآمرين معه وقتلوه قرب الصالحية بمصر، وكانت مدة ملكه لا تتعدى السنة[5]. دفِنَ ببلدة القُصَيّر وبقيّ قبره فيها يُترحم عليه ويُشتم من قتله إلى أن تم نقله الى مكان غير معروف بأمر السلطان الذي حكم بعده وهو ركن الدين بيبرس البندقداري[6].

د. **الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتح بيبرس البندقداري الصالحي النجمي**، هو تركي الأصل من بلاد القَبْجاق، اشتراه الأمير علاءالدين أيدكين البندقدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أخذه منه، ثم ترقّى في مناصب الدولة حتى أصبح ملكاً لمصر وبلاد الشام. كان شجاعاً حكيماً

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص26.

[2]. المقريزي، السلوك، ج1، قسم 2، ص430–433.

[3]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، ص397.

[4]. الغامدي، بلاد الشام قبيل الغزو المغولي، ص36.

[5]. المقريزي، المصدر السابق، ص435.

[6]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج24، ص253.

مقداماً قيادياً ذو مهابة وله صوت جهوري، طويل القامة، أسمر اللون وعينيين زرقاوين وفي احداهما غشاوة. كان خفيف الحركة ومولع بالتنقل[1].

تَلَقَبَ بيبرس ومعنى اسمه الأمير الفهد[2] بالملك القاهر، ثمَّ أشار عليه أحد وزراءه بأن يغير هذا اللقب الى الملك الظاهر، حيث لم يُلقب به أحد قبله، فأصبح يُعرف بالملك الظاهر بيبرس[3]. كما عُرف بيبيرس البندقداريّ[4] نسبة الى الأمير علاء الدين البندقدار، وهي كلمة فارسية بمعنى حامل البندقية[5].

يُعد أول المماليك العُظماء حيث استمرت مدة حكمه سبعة عشرسنة، قضاها في العديد من الحملات الموفقة ضدَّ الصليبيين والتتار، حيث قاد العسكر في معركة عين جالوت مع الملك المظفر قطز وحققوا النصر ضدّ التتار، وكان له الفضل في فتح العديد من البلاد ودحر الصليبيين عنها مثل قيسارية، صفد، طبريا وبانياس وغيرها، فتملك سائر اقليم مصر والشام وآخر ما فتح كانت قيصرية عاصمة سلاجقة الروم.

الى جانب انتصاراته الحربية قام بتدبير أمور الدولة، فعُنيَّ بالجيش حتى وصل عدد عسكره اثنى عشر ألفاً وهم خاصته، منهم أربعة آلاف يخرجوا معه في غزواته عُرفوا بجيش الزحف، والثلث الآخر بدمشق والثلث الأخير بحلب، يتم استدعاءهم اذا اقتضى الأمر[6]. كما قام بشراء جنود من اجناس مختلفة من بلاد القبْجاق وتركستان ومصر وشكّل منهم جيش ضخم وصل عدده الأربعون ألف فارس[7].

كما اهتم بتعمير البلاد فحسَّن الأقنية والموانئ والتحصينات حين أمر بإعادة تعمير القلاع المهدمة وأبراج المراقبة، واهتم بالأماكن المقدسة فبنى الجوامع وعمَّر مؤسسات دينية وخيرية. وأنشأ نظاماً للبريد بين القاهرة ومختلف أنحاء دولته، مما جعل من أعماله تلك وادارته الحكيمة للبلاد

---

[1]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 2، ص637؛ Muir, TheMameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 30-31

[2]. المقريزي، المصدر السابق، ص368.

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ص437.

[4]. البندقدار : هو حامل كيس البندق خلف السلطان أو الأمير. والبندق هي كرات من الطين أو الحجارة أو الرصاص، تُستخدم في تطيير الحمام. وقد استخدمها الرُماة بعدة طرق سواء رمي بالأقواس أو بالأنابيب التي يتم ضغط الهواء بها واطلاق البندق. (المقريزي، السلوك ج1 قسم2، ص350، حاشية 2؛ عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص420)؛ والبندقدار لفظ مكون من كلمتين فارسيتين، أحدهما بُنْدُق، والبندق الذي يُرمى به، وقد يكون البندق الذي يؤكل وهو الجِلَّوْز بالعربية، وثانيهما دار بمعنى ممسك فيكون المعنى ممسك البُنْدُق. (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص458–459).

[5] .Muir, The Mameluke or Slave Dynasty, p. 13

[6]. المقريزي، المصدر السابق، ص638.

[7]. الزيدي، العصر المملوكي، ص35.

عاملاً شجع الناس على حبه، فكانت له شعبيته وأيضاً قوته التي عُرف بها في انحاء بلاده وخارجها.

وقد قام بإحياء الخلافة العباسية في مصر بعد سنة من توليه المُلك، بعد أن تم القضاء عليها في بغداد من قِبَلْ هولاكو[1]. حيث أراد بذلك تأكيد شرعية حكمه وأن تكون له سنداً في حكم المماليك، فأصبح يُدير أمور السلطنة كلها بشرعية من أمير المؤمنين الذي احتفظ بهذا اللقب للخليفة العباسي[2]. استمرت حياة الظاهر بيبرس في سلسلة من الصراعات الداخلية والخارجية والحروب، كما التعمير والتحسين والتي من خلالها اشتهر بالشجاعة والعزيمة والسيرة الحسنة، واستطاع تحويل الدولة المملوكية من دولة ناشئة الى دولة قوية، حتى عام 676هـ –1277م حين دخل الى دمشق وتوفي فيها مسموماً وتم دفنه هناك[3].

هـ. **السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي النجمي العلائي الصالحي،** هو من أسرة قلاوون والتي تعني "البطة"، حيث أنَّ العديد من أسماء السلاطين والأمراء المماليك كانت لها دلالات لأشياء أو حيوانات أو صفات في اللغة التركية أو الفارسية أو التترية[4]. وهو قبجاقي الجنس، من قبيلة مرج أُغْلِي، تم احضاره الى مصر وهو صغير واشتراه الأمير علاءالدين آق سنقر الساقي العادلي بألف دينار ولذلك عُرِفَ بالألفي، كما نُعِتَ بالعلائي بأنه من مماليك الأمير علاءالدين. عند وفاة الأمير انتقل سيف الدين الى الملك الصالح نجم الدين ايوب وأصبح من مماليكه[5]. تبدَّل حاله حتى أصبح في عهد الملك الظاهر بيبرس الأقوى في بلاط السلطان والرجل المُعتمد في الصراعات الحربية، حتى أنَّ الملك الظاهر قد صاهَرَهُ لرغبته في بقاء الحكم لأولاده من بعده ولاعتقاده بعدم وجود أطماع لقلاوون في الحكم، إلا أنَّ الأمير سيف الدين الذي تنصَّب أتابك العساكر في عهد سلطنة الملك العادل سلامش بن الظاهر بيبرس في 678هـ – 1279م، ظهرت لديه طموحات بالسيطرة على العرش[6]، خاصة أن الملك كان قد بلغ عمره سبع سنوات عند توليه الحكم، فقام الأمير بتدبير أمور الدولة وكان يُذكر اسمه مع اسم الملك على المنابروكان يتصرف كالملوك لمدة ثلاثة أشهر[7]، وبفضل شخصيته القوية وبُعد نظره استطاع ترسيخ سلطته ونفوذه وعمل على تمهيد الطريق لنفسه لتولي الحكم، فقام بحبس عدة أمراء من اتباع الظاهر

---

[1]. الموسوعة الفلسطينية، مج 4، ص 291 ؛ Muir, The Mameluke or Slave Dynasty, p. 14؛
Atil, Renaissance of Islam, p.13.

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص28.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم2، ص635 .

[4]. المقريزي، المصدر السابق، ص368.

[5]. المقريزي، السلوك، ج 1 قسم3 ص663؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2 ص238.

[6]. الزيدي، المصدر السابق، ص39.

[7]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3 ص663.

بيبرس وأبعد الكثيرين، واستبدلهم بأعوان مخلصين له. وتناقل أمْرْ صِغَرْ سِن الملك العادل وعجزه على إدارة شؤون الدولة كما يجب، فتم الاتفاق على خلع الملك العادل سلامش ونفيه الى الكرك وإقامة قلاوون سلطاناً وتلقَّبَ حينها بالملك المنصور وحكم مصر ما بين عامي 678هـ – 689هـ / 1279م –1290م[1].

كان لأمر تولي السلطان سيف الدين قلاوون الحكم وقعاً محبباً لدى الناس حيث استبشروا بحلول العدل والإصلاح وتعميم الخير والأمن وزوال الظلم، ودخلوا في طاعته بقبولٍ دون صَدّ[2]، فقد عُرِفَ بالشجاعة والهيبة والحُلم وقربه من نفوس الناس، وكان جميل المنظر، عريض المنكبين، ذا رقبة قصيرة، طليقاً بلغة الترك والقَبْجاق وقليل المعرفة باللسان العربي[3]. كانت له مآثر كثيرة منها تعمير منشآت عدة كالمدارس والأربطة والبيمارستانات والمساجد، وتجديد القلاع والحصون[4]. كما استطاع مواجهة التتار والصليبيين في معارك عديدة تكللت بالنصر، وواجه ثورات وفتن داخلية واستطاع التغلب عليها وإبطالها، فقد بدأ بعض أمراء المماليك الظاهرية عصيان حكم قلاوون وأرادوا التحالف مع الصليبيين، فقام أعوانه بالقبض عليهم وسَجْنْ بعضهم وإعدام البعض الآخر، الأمر الذي دفع بالملك المنصور الى إنشاء مجموعة أخرى من المماليك لتكون مخلصة له وقائمة على حمايته وخدمته، واختارهم من المماليك الجراكسة وشكلوا فرقة مقاتلة جديدة[5]، كانت النواة الأولى لقوة المماليك الجراكسة.

أما آخر غزواته فكانت عند خروجه لمواجهة جموع الصليبيين الذين وصلوا عكا من ايطاليا، وقتلوا أعداداً كبيرة من المسلمين فيها، فأراد أن يثأر لهم وجهّزَ للسير الى بلاد الشام عام 689هـ/ 1290م، إلا أنه وهو بطريقه قد ألمَّ به المرض واشتدَّ، الى أن مات بمخيمه تجاه مسجد تِبْر خارج القاهرة في الطريق الى الشام.

وبهذا فقد قضى مدة ملكه ما يُقارب الأحدَ عشرَ سنة[6]. عُرف بها بأنه من أعظم سلاطين المماليك بعد الظاهر بيبرس، وبأنه الوحيد الذي امتدت سلطة الحكم لأبناءه من بعده حتى أربعة أجيال[7]. فتولى الحكم من بعده ابنه الثاني الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، حيث أنَّ ابنه الأكبر علاءالدين علي بن قلاوون كان قد تسلطن في حياة والده وعُرِفَ بالملك الصالح، إلا أنه قد مرض

---

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص39–40.

[2]. الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج8، 232–233.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3، ص756.

[4]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص200؛ الزيدي، المصدر السابق، ص40.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص238؛ الزيدي، المصدر السابق، ص41.

[6]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص754–755.

[7]. الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص291.

وتوفي قبل والده. كما أنَّ الناصر محمد بن قلاوون قد مَلَكَ أيضاً، أما الأمير أحمد فقد مات في فترة سلطنة اخيه الأشرف خليل[1].

وتُعد فترة حكم أسرة قلاوون الممتدة لما يزيد عن قرن من الزمن بين عامي 678هـ – 784هـ/ 1279م – 1382م الفترة المزدهرة في حكم المماليك، حيث تميزت بالعلم والفن والأدب، والسعي لتأكيد حكم السلطان من خلال مجابهة وطمس أي تهديدات داخلية أو مؤثرات خارجية، ومحاولة ترسيخ مفهوم وحدة الدولة، مما جعل السلطان يُشَكل رمزاً للأمن والاستقرار والوحدة[2].

و. **السلطان الملك الناصر ناصرالدين أبو الفتح محمد بن قلاوون،** هو ابن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي العلائي الصالحي، وُلد في مصر عام 684هـ، اتصف بِقِصَر القامة وبلون بشرته البيضاء وفي عينيه حَوَلْ وبأحد رجليه عَرَجْ. درس القانون وعِلْمْ اللاهوت في دمشق. استقر في السلطنة ثلاث مرات، الأولى كانت بعد مقتل أخيه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عام 693هـ / 1293م، حينها أُقيم سلطاناً وهو في التاسعة من العمر[3]. لكنه واجه صعوبات عديدة وذلك لمبدأ أحقية المُلك عند المماليك، حيث كانت على أساس تولي الحكم من لديه القوة والشجاعة وليست على أساس الوراثة، وكان الملك الناصر حينها لصغر سنه لم تتحول شخصيته الى شخصية القائد الحازم النافذ الشجاع، بالتالي لم يكن له سوى اسم المَلِكْ في السلطة، أما أمور الدولة فقام بتدبيرها نائب السلطنة الأمير زين الدين كتبغا[4]، الذي استغل لاحقاً أمر الفتنة الداخلية التي أثارها المماليك الأشرفية وفسادهم في المدينة، فتوجه الى الأمراء والى الخليفة العباسي لاقناعهم بحاجة البلاد الى سلطان قوي يسيطر على الأوضاع الداخلية والخارجية، فتم له ذلك بخلع الملك الناصر محمد بعد سنة واحدة تقريباً من توليه الحكم، وأقيم مكانه وأصبح الأمير كتبغا سلطاناً. إلا أنَّ أصوله المغولية وسوء ادارته للحكم قد أدارت إليه فعلته وتم خلعه بعد سنتين من توليه الحكم، عاشت خلالهما البلاد حياة الفقر والفساد وانتشار الأوبئة والمجاعة[5]، ليحكم بعده السلطان الملك حسام الدين لاجين المنصوري والذي دامت مدة حكمه اكثر من سنتين بقليل حيث قُتِلَ عام 698هـ / 1299م، تم بعدها تولية الحكم للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثانية، وعمره أربعة عشر عاماً، واستمر حكمه لمدة عشر سنين وأربعة أشهر[6]، حقق في خلالها

---

[1]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص755؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص42.

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص39.

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص437؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص260؛ Muir, The Mameluke, pp. 82-83.

[4]. المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص794؛ الزيدي، المصدر السابق ، ص44–45.

[5]. المقريزي، السلوك،ج1قسم3، ص806؛ الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص356؛
Muir, The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt, pp. 48-49

[6]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص437؛ العيني، عقد الجمان، ص558.

نصراً بارزاً على التتار في معركة "مرج الصُفَّر" بأرض شَقحب جنوبي دمشق[1]، كما استطاع مواجهة الفتنة الداخلية والقضاء على مفتعليها، وتم إبعاد الصليبيين الذين هددوا سواحل بلاد الشام. إلا أنَّ مشاعر الضيق كانت تتزايد لدى الملك الناصر من تصرفات ونوايا أعوانه الأمير سالار نائب السلطنة والأمير بيبرس الجاشنكير الأستادار[2]، وفكّر في التخلص من سيطرتهما عليه. كما أن وفاة والدته أشلون ابنة الأمير سكناى بن قراجين بن جيغان المعروفة بأم الناصر محمد[3] عام 702هـ / 1302م كانت عاملاً اساسياً في مرارة هذه المشاعر، فقرر الملك الناصر ترك السلطنة وخَلْعْ نفسه ليستريح، فادعى بخروجه لأداء فريضة الحج واتجه الى الكرك، حيث أقام هو ومماليكه في قلعة الكرك. وتسلطن بعده الملك المظفر بيبرس الجاشنكير، وهو أول سلطان ذا أصول جركسية، إلا أنه لم يدُم طويلاً على العرش حيث أنه لم يحظَ بقبول الأمراء له، بل وجهوا خطابات الى السلطان الناصر محمد يُعربوا عن رغبتهم في عودته الى عرشه، كما أنَ الناس قد ضجروا من سوء حكم الملك بيبرس الذي عَلِمَ برغبة السلطان الناصر استرداد عرشه، فخلع نفسه بعد أحد عشر شهراً وانتهت بذلك فترة حكمه ليعود السلطان الناصر محمد في سلطنته الثالثة[4]، وعمره خمسة وعشرون عاماً، وتُعَد أطول فتراته في الحكم حيث امتدت لمدة اثنتين وثلاثين عاماً من عام 709هـ / 1309م الى 741هـ / 1341م. وقد ثبَّت فيها حكمه حيث اتسعت خبرته وتمرسه في الحياة السياسية وإدارة شؤون الحكم، فأصبح ملكاً راشداً ذو مكانة عالية ومآثر كثيرة، حيث استطاع تحقيق الاستقرار في أرجاء دولته، فقضى على الفتن وقهر التتار وألزم بلاد الأرمن بمستحقات مادية وسيطر على بلاد الحجاز واليمن، فاتسع نطاق دولته وفَرَضَ مهابته في داخلها وخارجها. وكان له رؤية واضحة لمستقبل الدولة، فعمد على تدبير شؤونها سواء السياسة أو الاقتصادية أو الاجتماعية، فطوَّر المؤسسات واستحدث مناصب ونشَّطَ الحياة الزراعية التي أدت الى ازدهار الحركة التجارية وتطور الاقتصاد في الدولة. كما اهتم بالعمران فأنشأ العديد من

---

[1]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص361؛ الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر ج9، ص87-88؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص52. وقعة شقحب: وعُرفت كذلك بغباغب، لأنها اشتملت على أطراف شقحب وغباغب والصنمين وهي قرى في المنطقة ذات أراضي وعرة وأحجار سوداء.(العيني، عقد الجمان، ص680).

[2]. الزيدي، المصدر السابق، ص53-54

الأستادار: هي لفظ فارسي أصله أصطاسرا ويعني أصطا كبير، أي سرا تعني الكبير، ثم تعربت الكلمة وعَنَت أستاذ، فكانت استاذ الدار، ثم تحورت الكلمة وأصبحت أستادار، أي الاستاذ الكبير.(المقريزي، السلوك ج1 قسم 3، ص794) وهي وظيفة من وظائف الدولة يقوم صاحبها بتولي شؤون بيوت السلطان جميعها من الحاشية والغلمان والمطابخ والشراب، وله مطلق التصرف في النفقات ذات الخصوص. (عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص411). أما القلقشندي فيذكر أنَّ الإسْتَدَّار هو مركب من لفظين فارسيين أحدهما إسْتذ بمعنى الأخْذ، والثانية الدار بمعنى مُمْسِك، فأصبحت المتولِّى للأخْذ وهو من وظائف أرباب السيوف، ويتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصَرفه، وتُمْتَثَل أوامره فيه. ثمَّ ادمجت الذال مع الدال في الإستذدار وصارت إسْتَدَّار. (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص457).

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ص755؛ المقريزي، السلوك ج2 قسم2، ص523.

[4]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص239؛ الزيدي، المصدر السابق،ص 54-58؛ Muir,The Mameluke,pp.62-63

القصور كالقصر الأبلق في القاهرة، والمدارس كالمدرسة الكريمية بباب حطة في القدس، والمساجد كمسجد القلعة في القاهرة، والميادين كالميدان الناصري لسباق الخيل في القاهرة، واهتم بتعمير الجسور والقناطر وغيرها من العمائر. كما شجع الحركة العلمية التي انتجت فيض وافر في شتى العلوم والتي كان عمادها المؤسسات الثقافية من مدارس وجوامع وخانقاوات وبيمارستانات منذ الدولة الزنكية الى الدولة الأيوبية ثم الى الدولة المملوكية، والتي تُوِجَتْ بانجازات في كافة الميادين الثقافية في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون. والذي امتاز بأنه أطول عهود السلاطين المماليك حيث امتد في ولاياته الثلاثة مدة ثلاثاً وأربعين سنة وسبعة أشهر[1]، كان في خلالها ملكاً عظيماً جمع من المحاسن ما انفرد به عن غيره من الملوك، حيث أنه لم يكن قط إلا من طبقات الملوك فهو ابن ملك وأخو ملكين وأب لملوك وأُحيط بالملوك فكانت بداية ملكه نهاية مَلِكْ آخر[2]. وكان حازماً ذكياً كريماً حيث اشتهر بعطاءه، مسامحاً مُطاعاً في داخل بلاده وخارجها، حيث كان ملوك بلاد الشرق وبلاد الغرب يُهادونه ويُراسلونه ومنهم بوسعيد ملك التتار، حيث استطاع تحقيق الصُلح عام 721هـ/ 1323م مع هذه القوة والعدو الدائم لبلاد المسلمين[3].

وقد اتصف الملك الناصر بالحشمة والتروي وضبط النفس واتزان الكلام، فلم يتفوه بكلام فاحش حتى في مواضع غضبه الشديد، وإذا غضب على أحد لا يأخذه غضبه الى تذنيبه فوراً إنما يتروى مدة طويلة الى أن يختار له العقاب المناسب، وذلك بأنه كان يكره الظلم فيسعى الى ذكره بالجميل، وعَدَمْ إقرانه بالظلم أو الجور. كان كثير العناية بأُمرائه ومماليكه حيث كان يدعوهم بأسمائهم ويذكر ألقابهم، ويُغدق عليهم بالمال الوفير والثياب الفاخرة والخيول، كما كان شديد الفطنة بمعرفة مماليك والده وأولادهم واسمائهم ووظائفهم وكانت له مهابته وحرمته بين الجميع.

كان شغوفاً بجمع المال والجواهر واللؤلؤ، فاقتنى منها النادر والنفيس، وبالرغم من ذلك كان زاهداً في ملابسه، لا يميل الى الفاخر منها إنما الى البسيط الخالي من الجواهر أو الذهب. لكنه كان ينتفع بها في نيل مقاصده فيحمل منها الهدايا الثمينة الى ملوك الشرق والغرب الذين بدورهم خضعوا له ومالوا الى مصادقته، فساعد ذلك في توفير الأمن والاستقرار في البلاد بشكل لم تشهده من قبل، كما أدى الى ازدهار الحركة التجارية الخارجية بين مصر ومختلف الدول.

كان للملك الناصر نزعة في التدين، فيؤدي الفرائض وكان يكره شرب الخمر ويُنزل عقوبة على شاربيه ويُبعد عنه أمرائه الذين يشربونه.

---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص438-439؛ اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص40-41.

[2]. الدواداري، كنز الدرر وجامع الغرر ج8، ص352-353.

[3]. الصفدي، الوافي بالوفيات ج4، ص370-371، Atil, Renaissance of Islam, p.15.

كان يحرص على الإحاطة بأمور وأعباء الدولة، ويتفرد بالأحكام، فقام بإبطال منصب نائب السلطنة لينشغل بأمور مملكته لوحده، وعمل على إبطال عدة مظالم من ضرائب وضمانات أو التخفيف منها، وقام بإعادة إقطاع أرض مصر والشام بما عُرف بالروك الناصري، حيث أعاد مسح الأراضي الزراعية وأعاد تقسيمها على اساسٍ عادلٍ بين الأمراء والجنود والعامة بحيث لم يظلم أحداً[1].

لقد اتصف بالدبلوماسية التي اتقنها واشتهر بها أكثر من بروزه في ساحات القتال كما اتصف بالمكر والدهاء واتباع الحيل لتنفيذ مآربه خاصة عند ظنه بأمراءه نيتهم السوء له، فيقوم بالتدبير والايقاع بهم ومعاقبتهم[2].

كان للناصر هواياته الخاصة حيث كان شغوفاً بالخيل، له معرفة بأصولها وانسابها واثمانها، فيُنفق على شرائها الكثير كما على الاعتناء بها حتى بلغ عدد خيوله بضع آلاف. كما كان يحب الصيد وعمل على جلب الطيور الجوارح التي تُعين على الصيد، وله اهتمام بجمع الأغنام والأوز.

وقد اكثر الملك الناصر من شراء المماليك والجواري خاصة عند قُرب نهاية فترة ملكه حيث بالغ في ذلك، وأنعم عليهم بالخير الوفير والعطايا وتعليم الأدب، لينتقلوا في وظائف الدولة ويصلوا الى مراتب عالية[3].

وبِرغم أنَّ الملك الناصر قد عُرِفَ بكثيرمن الصفات الحميدة وتمتع بمحبة الناس، إلا أنَّ استبعاده عن السلطة عدة مرات وانتزاع حكمه من قِبَلْ من حوله أثَّر في جعله اكثر حذراً وحيطة واكثر قلقاً، وزاد من شعوره بالخطر من مؤامرات وأطماع أمرائه فكانت أحياناً تسيطر عليه مشاعر الحقد والانتقام، مما دفعه للسعي الدائم لإبعاد إمكانية الغدر والدفاع عن حكمه وملكه، حيث كان دائم التغيير والتبديل في مناصب أعوانه وأمرائه وإذا اشتبه في اخلاص أحدهم لعرشه قام باعتقاله ونفيه أو قتله، بالرغم من تقربه منهم واغداقه عليهم بالعطايا المادية والألقاب وأحياناً المصاهرة. وهذا ما قد حصل مع العديد من أمرائه ومنهم الأمير سيف الدين تنكز الناصري الذي تمت فترة ولايته على بلاد الشام من 1312م– 1340م[4]، والذي سيشغل موضوع الدراسة.

وفي عام 741هـ / 1341م توفي السلطان الملك الناصر محمد، بعد معاناته مع المرض وهو في السابعة والخمسون من العمر، ودُفِنَ في القبة المنصورية بين القصرين في مصر. له من الأبناء

---

[1]. المقريزي، السلوك ج2 قسم2، ص532–537.

[2]. اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص100؛ Muir, The Mameluke, p. 73.

[3]. المقريزي، السلوك ج2 قسم 2، ص524–531.

[4]. اليوسفي، المصدر السابق، ص99.

أربعة عشر بعضهم توفي أو قُتِلَ، وسبع بنات. تولى السلطنة من أبناءه ثمانية، أولهم أبا بكر[1]، الذي عهد له بالحكم من بعده قُبيل وفاته بيومين، ولقبه بالملك المنصور وأوصاه بالأمراء وأوصى الأمراء به[2].

1.1.3 عوامل ضعف دولة المماليك البحرية :-

استمر الحكم في اسرة قلاوون من أولاد الناصر محمد وأحفاده لمدة طويلة تعدَّت الأربعين سنة، فتولى عرش مصر والشام ثمانية من أولاده واثنان من أحفاده واثنان من أبناء أحفاده[3]. ويعود هذا الأمر الى تعلق الناس بأسرة قلاوون، فما عانوه من فتن ومجاعات وأوبئة وفقر خلال الفترات التي تخللت عزل الملك الناصر محمد عن العرش، وعلى نقيضه ما ذاقه الناس من طعم حياة الاستقرار والأمن والرخاء أيام الملك الناصر، دفعهم الى التمسك في إبقاء الحكم ضمن إطار أسرة قلاوون لاعتقادهم بأنَّ هذا يحقق ضمان لحياة الاستقرار تلك. إلا أنَّ تعاقب عدد كبير من أبناء وأحفاد الناصر محمد على الحكم ومعظمهم كانوا صغاراً في السن وقليلي الخبرة في أمور الدولة، أدى الى زيادة أطماع الأمراء في الحكم واستبدادهم بالأمور المالية وقدرتهم على السيطرة، فعينوا وعزلوا السلاطين تبعاً لمصالحهم، فلم يدم حكم غالبية السلاطين منهم سوى بضع سنوات أو شهور قليلة ثم يتم نفيه أو سجنه أو قتله.

هذا العامل كان من العوامل الأساسية في اضعاف الدولة المملوكية الأولى وبدء انهيارها، فَفَقَدَ السلاطين هيبتهم وسلطتهم فيما زادت سيطرة الأمراء على شؤون الدولة والتصرف بالأموال والأنفس. كما أنَّ الصراع قد دبَّ بين الأمراء، فأصبحت الدولة تُعاني من تعدد الأحزاب الذين انشغلوا عن مصالح الدولة التي أصبحت تعاني حالة الفوضى الشديدة[4].

كما أنَّ انتشار وباء الطاعون أو الوباء الأسود في أنحاء العالم مشرقه ومغربه، وفي بلاد الشام ومصر عام 749هـ / 1348م خلال فترة حكم السلطان الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون بدورته الأولى، كان من العوامل التي ساعدت في ضعف وانحلال الدولة المملوكية، حيث أنَّ هذا الوباء قد فتك بالملايين من البشر وصاحب ذلك آثار خطيرة من مجاعات وتردي حال الأراضي الزراعية لعدم وجود من يفلحها وانتشار الآفات الزراعية التي ترتبت عليها أزمات اقتصادية وسياسية، فزادت أحوال البلاد سوءاً[5]. كما أدى الى خلل في النظام الإقطاعي الذي بنيت

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2، قسم 2، ص523، ص546؛ الحنبلي، الأنس الجليل ج2، ص439.

[2]. ابن كثير، البداية والنهاية، ج13، ص190؛ المقريزي، المصدر السابق، ص523.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص239-240.

[4]. عاشور، العصرالمماليكي في مصر والشام، ص125-126، ص134.

[5]. العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص263؛ Atil, Renaissance of Islam, p.16.

عليه دولة سلاطين المماليك؛ إذ استطاع العديد من عامة الناس الإستيلاء على الإقطاعات التي كانت مخصصة لجنود الجيش المملوكي.

وفي عصر أحفاد الناصر محمد ازداد الانحلال الخلقي، الذي أَثَّرَ بشكل سلبي على مهابة السلاطين وبالتالي قوة الدولة، حيث أنَّ السلاطين قد انغمسوا بالملذات وشرب الخمر واللهو عوضاً عن القيام بمتابعة شؤون دولتهم[1].

ومن العوامل الخارجية التي كان لها أثر في اضعاف دولة المماليك هو ما نهجه الصليبيون من طرق لِشل الاقتصاد المصري، إيماناً منهم بأنَّ الدولة المملوكية تَستَمِدْ ثروتها وقوتها من التجارة الخارجية، فنادوا الى فرض حصار اقتصادي على شواطئ مصر والشام للحيلولة دون وصول السفن التجارية بالتالي كساد التجارة. كما شنَّ الصليبيون بقيادة ملك قبرص عام 767هـ / 1365م هجمة عنيفة على مدينة الاسكندرية، وكانت حينها الدولة تعاني زيادة في الاضطرابات الداخلية والفوضى أيام السلطان الأشرف شعبان حفيد الناصر محمد بن قلاوون، الذي أُقيم سلطاناً عام 764هـ/ 1363م وله من العمر عشر سنوات، فاستطاع الصليبيون اقتحام المدينة وتدميرها بالتخريب والحرق والنهب والاعتداء لمدة ثلاثة أيام، دون وجود أي صدّ من قِبَلْ المسلمين. الى أُن غادر الملك وأسطوله محملاً بالبضائع المنهوبة والأسرى قبل وصول أي جيوش انقاذ من القاهرة. فشكلت هذه الغارة كارثة على مدينة الاسكندرية وميناِئها الأشهر في الدولة الاسلامية، إذ ضَعُفَ نشاطها التجاري واهتزت مكانتها الاقتصادية[2].

لقد شكلت هذه العوامل مجتمعة أساساً في ضعف اتزان الدولة المملوكية الأولى وايذاناً بنهاية حكم سلاطين المماليك البحرية، بحيث أنه بعد سبعة عشر عاماً من غارة الصليبيين على الاسكندرية سقطت دولة بني قلاوون، لتقوم دولة مكانها وهي دولة المماليك الثانية والتي عُرفت بدولة المماليك الجراكسة أو البرجية. وهي ليست دولة مختلفة تماماً وانما هي نفس الدولة ولكن غلب على سلاطينها العرق الجركسي، وانتهى بظهورها عهد سيطرة الأمراء المتنافسين والمسيطرين على السلاطين الضعفاء صغار السن وبدأ ظهور السلاطين الأقوياء من جديد ولكن بأسس مختلفة، حيث تمهدت الطريق أمام أمراء آخرين للهيمنة على الحكم، ومنهم الأمير المملوكي برقوق الذي استطاع في ظل هذه الظروف السيئة خَلْع السلطان الصالح زين الدين حاجى عام 784هـ / 1382م وهو آخر سلطان من سلالة الناصر محمد بن قلاوون، وأعلن نفسه سلطانا. فانقضت

[1]. عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص135.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص 136–139؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص264–265.

دولة المماليك البحرية الأتراك بعد حكم دام مائة وست وثلاثون سنة ونصف، وبدأت هذه المرحلة الجديدة[1].

1.1.4 المماليك الجراكسة أو البرجية :-

يُعد أصل المماليك الجراكسة من جند الملك السلطان المنصور سيف الدين قلاوون، حين عَمَدَ في عام 681هـ/ 1281م الى تكوين فرقة خاصة له من المماليك، غير الفرق الأخرى السابقة مثل فرقة الظاهرية مماليك الظاهر بيبرس، لتتفرد هذه الفرقة الجديدة بالموالاة الخالصة للسلطان فيكون اعتماده الكامل عليها من دون الأُخر[2]. ولقد بلغ عدد هذه الفرقة ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك، طغى عنصر الجركس على غالبيتهم، وقد تم جلبهم من اقليم كوبان وهي مناطق القسم الشمالي الغربي من القوقاز، من الجزء الجنوبي لشبه جزيرة القِرَم، بقرب اسواق ثغر كفا، والتي اعتُبرت من اكبر اسواق الرقيق الأبيض في العصور الوسطى، كما أنَّ قسماً منهم تم جلبه من مناطق الشاطئ الشرقي للبحر الأسود الى أطراف بلاد الأبخاز جنوباً، وكان من فروعهم السركس والأركس والكسا والآص[3].

ولقد وقع اختيار السلطان المنصور سيف الدين قلاوون على العنصر الجركسي ليكون الأساس في تكوين فرقته الجديدة وذلك تجنباً منه للأجناس السابقة في الدولة المملوكية الأولى من الأتراك والخوارزمية والتركمان والتتار، كما أنَّ وفرة العنصر الجركسي في الأسواق وقلة ثمنه مقارنة بالعناصر التركية السابقة كانت عاملاً مساعداً لهذا الاختيار.

لقد عُنيَّ السلطان قلاوون بإقامة مماليكه الجُدد بالقرب منه، ليشكلوا حصناً له، فاسكنهم في أبراج القلعة وطباقها، حيث كانت ابراج القلعة كبيرة تتسع لجميع الفرق المملوكية الجديدة، خاصة بعد إقامة السلطان لبرج عظيم ذو طبقات وقاعات بالقرب من باب السر الكبير، عُرِفَ بالبرج الكبير، وقد خصَّ به مماليكه الجُدد، اضافة الى أبراج اخرى مثل البرج الأحمر، وبرج الزاوية، وبرج الحداد، وبرج الرملة، وبرج الإمام وغيرها، والتي اقامت بها الفرق المملوكية القديمة. وبذلك فقد عُرفت هذه المجموعة من المماليك الجُدُد بالمماليك البرجية نسبة الى مكان اقامتها[4].

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار ج2، ص240-241؛ العبادي، في التاريخ الأيوبي والمملوكي، ص265؛ عبده قاسم، في تاريخ الأوبيين والمماليك، ص288-289.

[2]. السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص11-12.

[3]. المقريزي، السلوك، ج1 قسم3، ص756؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار،ج2، ص241؛ السيد، المصدر السابق، ص12؛ مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص13.

[4]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص204؛ السيد، المصدر السابق، ص12-13.

اشتهر المماليك البرجية بصفات الشجاعة والفروسية، ولقد حظوا بعناية خاصة من قبل السلطان المنصور قلاوون، فنشأوا على التربية الدينية وحُسن التدريب. كما أن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون قد اهتم أيضاً بعد أبيه بهذه المجموعة من المماليك، فأكثر منهم وميزهم بالترقية الى وظائف السلاحدارية[1] والجمقدارية[2] والجاشنكيرية والأوشاقية[3]، حتى أُطلق عليهم اسم الأشرفية نسبة الى الأشرف خليل[4].

فأضحى المماليك البرجية على درجة من وفرة العدد والقوة والتماسك، مما مكنهم من شقّ طريقهم نحو اقامة دولة جديدة لهم. فاستطاع المماليك البرجية لاحقاً من التغلغل الى مقاليد الحكم، وعند توليهم السلطة بعد القضاء على الدولة المملوكية التركية كان من أبرز سلاطينهم :-

أ. السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين بَرْقوق بن أنس[5] العثماني اليلبغاوي الجركسي، يُعد أول ملوك الدولة المملوكية الجركسية والمؤسس الحقيقي لها، والثاني من المماليك الجراكسة الذين اعتلوا الحكم، بعد الأمير بيبرس الجاشنكير الذي تسلطن عام 708هـ/ 1307م أيام السلطان الناصرمحمد بن قلاوون، ولكنه لم يدم طويلاً وتم عزله[6]. وهو السلطان الخامس والعشرون من ملوك الترك المماليك. تلقب بالملك الظاهر حيث تمت مبايعته على السلطنة وقت الظهيرة.

أصله من بلاد الجركس من فرع الكسا. أُخِذَ من بلاده وتم بيعه في مدينة القِرَم وهو في العشرين من عمره، فاشتراه الخواجا فخر الدين عثمان بن مُسافر وجلبه الى القاهرة، ولذلك عُرِفَ بالعثماني. ثم اشتراه منه الأمير يلبغا العمري الخاصكي الناصري في حدود عام 764هـ/ 1363م[7]، واسمه حينئذ " الطَنْبُغَا " فسمّاه برقوق لوجود نتوءٍ في عينيه[8]، ثم اعتقه بعد مدة قصيرة لا تزيد عن أربع سنوات وجعله من بين مماليكه المقربين، لِما أظهره من ذكاء وفطنة وحُسْنِ خُلق وتواضع وإحسان ودراية في موضوع الفقه والعلوم الدينية والتفوق في ميدان فنون الحرب والفروسية. وكان حسن المظهر، عريض الكتفين ذو أدب ووقار ورزانة عقل[9].

---

[1]. السلاحدار: لفظ مركب من كلمتين السلاح كلمة عربية ودار كلمة فارسية، فهو لقب حامل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمره، بمعنى ممسك السلاح ويُعهد إليه العناية بالأسلحة.(دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص91؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص462).

[2]. الجمقدار: هو الشخص الذي يمشي على يمين السلطان موجهاً نظره إليه على طول مسافة السير في المواكب السلطانية، حاملاً عصاً لها رأس ضخم مُذهب. (عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام، ص427).

[3]. الأوشاقية أو الأوجاقية: هي فرقة من خدم السلطان تقوم بركوب الخيل للتسيير والرياضة.(القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص454 ؛ عاشور، المصدر السابق، ص419).

[4]. المقريزي، المواعظ الاعتبار، ج2، ص214؛ السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص12-13.

[5]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص440.

[6]. عاشور، المصدر السابق، ص148.

[7]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج11، ص221؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241؛ الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص440.

[8]. العسقلاني، إنباء الغُمر بأنباء العُمر، ج2، ص66؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص6.

[9]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص6؛ السيد، المصدر السابق، ص38، ص108.

لكن عند مقتل يلبغا الناصري تشتتت مماليكه فتنقل الحال ببرقوق من مصر الى الكرك حيث سُجنَ عدة سنوات ثم قام بخدمة الأمراء في بلاد الشام ومصر، فحظي بإمرة طبلخاناة[1] ثم أخذ امرة مائة وتقدمة ألف[2] كما صارأمير آخور[3] ثم صار اتابك العساكر، وكان ذلك حتى عام 782هـ الى أن قام بخلع السلطان حاجى حفيد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وتسلطن، فكانت توليته للمُلك عام 784هـ/ 1382م[4].

امتد حكمه لمدة حوالي الواحد وعشرون سنة، حتى توفي عام 801هـ/ 1399م، وتم خلعه في اثناءها لمدة ثمانية اشهر عام 1389م حين قُبِضَ عليه ونُفِي الى الكرك وأُعيد السلطان الصالح حاجى ليكون الملك في تلك الفترة الوجيزة[5].

استطاع الملك الظاهر سيف الدين برقوق بسياسته الحكيمة ودهاءه أن يقضي على دولة المماليك الأتراك واستكثر من جلب الجراكسة، واستطاع الحفاظ على قوة دولته حيث رسخ لها اساساً بالوقوف في وجه المغول والصليبيين، واقام علاقات ودية مع الدول التي تتشارك معه بالمصالح الأدبية والمادية، فغدت دولة المماليك الجراكسة دولة ذات نفوذ امتد حتى شمل جميع المناطق التي كانت تحت سيطرة دولة المماليك الأتراك. كما اعتمدت على نظام حكم عسكري يقوم على رأسه السلطان يعاونه في الحكم مجلس الدولة ونواب السلطان في النيابات المختلفة، ولم يعُد نظام الحكم وراثياً كما كان في دولة المماليك الأتراك.

كما كان لبرقوق عناية بالنواحي الثقافية والعمرانية، حيث بنى المدرسة الجركسية في القدس، وعمَّرَ بركة بالجهة الغربية لمدينة القدس والتي تعرف ببركة السلطان، وعمَّرَ خان السلطان الذي كان يُعرف بالوكالة، على طريق باب السلسلة في القدس. كما اهتم بشؤون دولته وابطل العديد من المظالم والمكوس التي كانت قد فُرِضَتْ من مَنْ سَبَقَهُ[6]. فنعُمَت الدولة بالسيادة والقوة بجهود

---

[1]. أمير طبلخاناه: هي مرتبة من مراتب أرباب السيوف، تقل درجة عن مرتبة أمير مائة مقدم ألف، يكون لصاحبها أحقية في دق الطبول على بابه كما يفعل السلطان ولكن بصورة مصغرة. ويُطلق عليه أيضاً أمير أربعين لأنه يكون في خدمته أربعين مملوك وقد يزدادوا الى سبعين أو ثمانين.
وأصل الكلمة طبلخاناه مكون من لفظين، هما طبل باللغة العربية، وخاناه وهي كلمة فارسية بمعنى مكان الفرقة الموسيقية السلطانية، أو الفرقة نفسها، حيث تقوم بدق الطبول بالقلعة كل يوم بعد صلاة المغرب، كما تكون بصحبة السلطان في اسفاره وحروبه.(المقريزي، السلوك،ج1قسم1، ص46 حاشية(2)؛ عاشور، العصر المماليكي، ص414).

[2]. أمير مائة مقدم ألف: هي أعلى مراتب الأمراء وهي مرتبة حربية خاصة بأرباب السيوف، حيث يكون في خدمة صاحبها مائة مملوك ويتقدم ألف جندي في أوقات الحروب. وقد شغل هؤلاء الأمراء الوظائف العليا في الدولة مثل نائب السلطنة، نائب دمشق، الاستادار، نائب حلب، وغيرها من المناصب الكبرى.(المقريزي، السلوك، ج1قسم1، ص239، حاشية(1)).

[3]. أمير آخور: لفظ مكون من كلمتين، الأولى عربية بمعنى أمير، والثانية فارسية بمعنى المعلف، فتصبح أمير المعلف أي المسؤول عن أمر الدواب. وكانت هذه الوظيفة يقوم متوليها بالاشراف على اسطبل السلطان أو الأمير ورعاية ما فيها من الخيل والإبل. (المقريزي، السلوك،ج1قسم 2، ص438، حاشية(3)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص461).

[4]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج11، ص223؛ المقريزي ، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241.

[5]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص241.

[6]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص440-441؛ الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص292

برقوق لتثبيت حكمه بالرغم من المطامع والثورات التي حُبِكَت ضده، وبعد سنوات من النزاعات والضعف التي هيمنت على دولة المماليك الأتراك في نهاياتها.

ب. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري، هو أحد مماليك الظاهر برقوق والحاكم السابع لدولة المماليك الجراكسة بعد الملك الظاهر برقوق. أُخِذَ من بلاد الجركس وتم بيعه بالقِرم، ثم أوتي به الى مدينة ملطية حيث اشتراه نائبها الأمير دقماق المحمدي، فعُرف بالدقماقي، ثم أرسله الى الملك الظاهر برقوق الذي أعتقه لاحقاً. تنقل في مناصب الدولة الى أن قام بانتزاع السلطنة لنفسه، بعد أن كان وصياً على السلطان الملك الصالح محمد بن ططر لصغر سنه، فتولى السلطنة مكانه عام 825هـ/ 1422م ولقب نفسه " الملك الأشرف".

دام حكمه لمدة تزيد عن ستة عشر عاماً[1]، امتازت بشكل عام بسوء الأحوال الاقتصادية بسبب سياسة الاحتكار وكثرة الضرائب، وبالرغم مما اتصف به الملك الأشرف برسباي من حسن الخلق والشجاعة والتواضع والمهابة وحُسن المظهر، إلا أن قسوة حكمه وحبه لجمع المال قد قلل من محبة الناس له. وقد عاشت البلاد مرحلة من الاستقرار والهدوء الظاهري[2]، حيث أن الطائفية قد سادت اثناء حكم الملك الاشرف، فكانت المماليك مقسمة الى سبع طوائف منها الظاهرية والناصرية والمؤيدية وغيرها... وكانت هذه الطوائف متخالفة في باطنها، الأمر الذي ساعد في بدء ضعف قوة المماليك وانكسارهم فيما بعد[3].

إلا أن طول مدة حكم الملك الأشرف برسباي قد أتاح له المجال لتحقيق نصر سياسي خارجي بغزو جزيرة قبرص عدّة مرات وإدخالها تحت حكم المماليك في مصر. حيث أن هذه الجزيرة كانت تشكل مركزاً للعمليات العسكرية ضدّ موانئ المسلمين وتهديداً لتجارتهم. فاستطاع في عام 1426م، بعد غزوتين سابقـــتيـــن موفقتين، تحقيق النصر على جزيرة قبرص بأكملها واخضاعها تحت حكمه. فكانت هذه الحملة تسجل نصراً سياسياً خارجياً للملك الأشرف تعوضه عن فشله السياسي الداخلي في حكم البلاد[4].

لقد كان للملك الأشرف برسباي اعتناء بالمنشآت المعمارية، كسائر السلاطين المماليك. فمن الآثار الظاهرة من عهده في مدينة القدس هي المدرسة الباسطية والمدرسة القادرية والمدرسة العثمانية،

---

[1]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص244؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص441؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص238.

[2]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص239؛ عاشور، العصر المماليكي، ص177.

[3]. المقريزي، المصدر السابق، ج1، ص95.

[4]. قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص302-303؛ عاشور، المصدر السابق، ص169-177.

كما يعود له الفضل في تجديد سبيل شعلان، وقد انشأ المدرسة الأشرفية بين القصرين في القاهرة، وغيرها من المآثر العمرانية[1].

توفي الملك الأشرف برسباي بعد مرضه عام 841هـ/ 1438م، وكان قد عهد الى ابنه ابو المحاسن يوسف بالسلطنة من بعده، وأقام الأمير جقمق وصياً عليه، الذي بدوره ما لبث أن خلع الملك يوسف الملقب بالملك العزيز بعد أربعة أشهر من توليه السلطة، وسجنه وتولى العرش مكانه وتلقب بالملك الظاهر جقمق[2].

ج. السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق بن عبدالله العلائي الجركسي الظاهري، تم سبيه وهو صغير من بلاد الجركس واحضاره الى القاهرة حيث اشتراه الأمير اينال اليوسفي وقام بتربيته، ثم طلبه الملك الظاهر برقوق فأصبح من مماليكه ونُسب إليه. تنقل في وظائف الخدم والمناصب الحكومية الى أن أصبح أميراً وصياً على الملك العزيز ابو المحاسن يوسف ابن السلطان برسباي[3]، حيث انتهز فرصة صغر سن السلطان يوسف وأثبت عدم أهليته لتولي الحكم لسوء تصرفه، فخلعه وتولى السلطنة وكان ذلك في عام 842هـ/ 1438م، ودام حكمه مدة خمسة عشر عاماً. عُرف خلالها بالاعتدال في حكمه مقارنة بالملك الأشرف برسباي، فدّبر أمر توزيع المناصب الادارية والعسكرية على اعوانه الطموحين، وصرف لهم العطايا والهبات وصرف مالاً كثيراً في جهات الخير. كما كان متديناً حرَّم المعاصي وشرب الخمر، ورعاً حيث لم يدخر الأموال في خزائنه الخاصة، شجاعاً، له دراية بأنواع الفروسية، عفيفاً وكان محباً للعلماء والفقهاء مهتماً بمرافقتهم. وكان له اهتماماً بالتعمير فأُنشأت في أيامه عمائر كثيرة من جوامع، قناطر، جسور وغيرها[4].

واجه العديد من الثورات الداخلية ضده عند توليه الحكم، واستطاع القضاء عليها بقسوة، الأمر الذي دفعه الى التفكير في صرف انظار المماليك عن أمور النزاعات والثورات الداخلية بتوجيه اهتماماتهم وطاقاتهم نحو الجهاد. كما أن رغبته في تحقيق نصراً بارزاً لنفسه كما فعل الاشرف برسباي، يجعل به الناس لا يتفكرون لأمر اغتصابه للمُلك، دفعه الى التجهيز لغزو جزيرة رودس في شرق البحر المتوسط، والتي كانت تشكل مركزاً هاماً للصليبيين يشنون منها غاراتهم على الشواطئ المصرية.

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص240؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص208

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص114.

[3]. المقريزي، السلوك،ج4 قسم3، ص1086.

[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2،ص442؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص291؛ الزيدي المصدر السابق، ص114.

فقام السلطان جقمق بإرسال ثلاث حملات عسكرية، كانت آخرها شبه موفقه تم بموجبها الصلح بين الطرفين والتعهد بعدم التعرض للسفن التجارية الاسلامية[1].

تمتعت البلاد خلال فترة حكمه بالأمن والسلم الداخليين، بالرغم من وقوع مظالم من الأمراء المماليك على أفراد المجتمع، وعدم معاقبة السلطان لهم لتخوفه منهم. كما سادت العلاقات الودية بين بلاده والبلاد الاسلامية المجاورة.

توفي السلطان جقمق بعد مرضه عام 857هـ/ 1453م، وأمر بولاية العهد لابنه عثمان، الذي لم يستطع البقاء في الحكم وتم خلعه[2].

د. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر اينال العلائي الناصري، هو جركسي الأصل جلبه الخواجا علاء الدين الى مصر فعُرف بالعلائي، ثم اشتراه الظاهر برقوق، ونُسب الى الناصر فرج بن برقوق الذي أعتقه. كان طويلاً خفيف اللحية فاشتهر باينال الاجرود. تنقل في مناصب الدولة الى أن تسلطن[3]، وتُعد المدة التي تولى فيها الملك الأشرف اينال الحكم، والممتدة لفترة ثماني سنوات ما بين عامي 857هـ/ 1453م الى 865هـ/1461م، من السنوات الهامة في تاريخ دولة المماليك الجراكسة ولكن ذات التأثير السلبي، حيث كثرت ثورات المماليك الأجلاب، الذين تم جلبهم من قبل السلاطين على مدى سنوات حكمهم، فقد ثاروا سبع مرّات في عهد السلطان اينال، وازداد اعتدائهم وظلمهم للناس، فنشروا الفساد ونهبوا وخربوا البلاد واصبحوا أقوياء باستطاعتهم العزل والتعيين في المناصب، ولم يستطع السلطان ايقافهم لضعف شخصيته وحسن خلقه فلم يستطع مواجهتهم، بالرغم من أنه كان قائداً بحرياً وحربياً، فأصبحت البلاد في عهده تعاني فشلاً في سياسة الحكم وانتشار الفتن والاضطرابات والسرقة وقلة الأمن وضعف الأحوال التجارية. الأمر الذي دفعه عند شعوره بقرب أجله الى خلع نفسه من السلطنة، وعهد بها الى ابنه أحمد بن اينال.

فشكلت فترة حكمه حلقةً ضعيفةً في تاريخ المماليك الجراكسة وعاملاً مساعداً في انحلال قوة هذه الدولة[4].

هـ. السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر قايتباي بن عبدالله الظاهري، هو من أصل جركسي، كان من مماليك الأشرف برسباي، ثم أعتقه الملك الظاهر جقمق في عهده فنُسِبَ إليه، تنقل في مناصب الدولة الى أن تمت مبايعته للسلطنة عام 872هـ/ 1468م، حيث لُقِب بالملك

---

[1]. عاشور، العصر المماليكي، ص178-179؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص303-304.

[2]. الزيدي، العصر المملوكي، ص116.

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص444 ؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص305.

[4]. عاشور، المصدر السابق، ص181؛ الزيدي، المصدر السابق، ص117-118.

الأشرف، كما لُقب بخادم الحرمين الشريفين المسجد الأقصى ومسجد الخليل وذلك لحبه لمدينة القدس التي قضى بها ما يُقارب الخمسة أعوام قبل أن يتولى السلطنة[1].

تميز عهده بين السلاطين الجراكسة بطول مدته التي بلغت نحو تسعة وعشرين سنة، حتى عام 901هـ/ 1496م، ويُعد عهده من أفضل عهود دولة المماليك الجراكسة، حيث امتاز السلطان قايتباي بالشجاعة والفروسية والذكاء وحسن ادارة الحكم والخبرة والحكمة[2] والتواضع وكثرة الخيرات فعُرف عنه الكثير من الصفات الحميدة والأعمال الجليلة ما جعله ملكاً وسلطاناً نبيلاً وعظيماً. وقد استطاع الإبقاء على زمام الأمور في دولته لهذه المدة الطويلة وذلك لاختياره مماليك مخلصين له من حوله ومرتبطين به بمصالحهم الخاصة، كما وتعامله مع خصومه بقسوة وحزم، ونزاهته في التعامل بأموال الدولة، فبالرغم من إكثاره من فرض الضرائب وجمع الأموال إلا أنه كان ينفقها في الإنشاء والتعمير وفي الحروب وفي الترميم والإصلاح، ويوزع الخيرات على من له حاجة بها[3].

وتُعد آثار السلطان الأشرف قايتباي ظاهرة من خلال المنشآت العديدة التي شيدها في أنحاء دولته، حيث عُرف عنه شغفه بالسفر والتنقل، الأمر الذي مكنه من تخليد اسمه اينما ذهب من خلال إنشاء القلاع والمدارس والمساجد والأسبلة وغيرها، كما الإصلاح والترميم لمنشآت أقامها أسلافه.

وتشهد لذلك مآثره الكثيرة في مدينة القدس ومنها المدرسة الأشرفية بقرب باب السلسلة وسبيل قايتباي بين باب السلسلة وباب السكينة، كما مسجد قايتباي في القاهرة والذي يُعرف بأنه من أجمل المباني المشيدة في ذلك العصر، وقلعة قايتباي في الاسكندرية ورمم الجامع الأموي بدمشق، وأقام منبراً عظيماً للمسجد الحرام وأنشأ بجانب المسجد مدرسة ورباطاً، وأنشأ مدرسة بالمدينة المنورة، وأصلح عين عرفة وبئر زمزم وغيره الكثير...[4]

وقد تخلل حكم السلطان الأشرف قايتباي العديد من التهديدات والمصاعب،حيث أنه واجه قوى التركمان على الحدود الشمالية للدولة التي عانت عدم استقرار في تلك الفترة، كما أن نفوذ العثمانيين أخذ يزداد وأصبحت قوتهم تشكل خطراً على دولة المماليك.

وقد ازدادت الأوضاع سوءاً خاصة في اواخر عهد السلطان قايتباي حيث كثر جمع الأموال للحروب مما شكل أزمة مالية على الدولة، كما أن انتشار الوباء عام 1492م وما ترتب عليه من

---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 616-617 ؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص210، حاشية(1).

[2]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص8-9؛ عاشور، العصر المماليكي، ص182.

[3]. الزيدي، العصر المملوكي، ص127؛ Atil, Renaissance of Islam, p.17.

[4]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص7-8؛ عاشور، المصدر السابق، ص182-183؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص213؛ الزيدي، المصدر السابق، ص126.

موت آلاف الأشخاص وقحط وغلاء الأسعار بسبب ندرة الموارد، أدى الى تخلخل الوضع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي في الدولة، مضافاً الى ذلك استمرار النزاعات والصراعات بين أمراء المماليك.

وبهذا فإن أيام السلطان قايتباي الأخيرة كانت بائسة وكانت صحته تزداد سوءاً، وما لبث أن تنازل عن السلطنة لابنه محمد قايتباي، حتى توفي في اليوم التالي وكان ذلك عام 901هـ/1496م، ودُفن في قبة بناها بتربة بصحراء مصر شرقي القاهرة[1].

و. السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه بن عبدالله الجركسي المعروف بالغوري نسبة الى طبقة الغور أحد الطبقات المعدة لتعليم المؤدبين بمصر.

كان من خدم السلطان الأشرف قايتباي ثم ترقى في مناصب الدولة فكان أمير عشرة[2] ثم أخذ نيابة طرسوس وحلب وملطية ثم ترقى الى أمير ألف، وهكذا الى أن أُختير سلطاناً عام 906هـ/ 1501م وكان قد تجاوز الستين من عمره.

اتصف بالفطنة والدهاء والرأي السديد والتعسف فاستطاع قمع الأمراء وفرْض هيبته في انحاء الدولة التي عمل جاهداً لإعادة النظام والاستقرار إليها. إلا أنه كان شديد الطمع في جمع الأموال كثير الظلم، حيث أنه اتبع سياسة تعسفية لحل مشكلة الوضع المالي المتأزم للدولة، ففرض الضرائب وضاعف الرسوم وأبطل الميراث بحيث اذا مات أحد، أخذ جميع ماله، فاستطاع بذلك جمع المال الكثير وامتلأت خزائن الدولة، إلا أنه كان ذلك على حساب الشعب الذي ازدادت أحواله سوءاً بسبب كثرة الضرائب الباهظة. على نقيض مماليكه الذين أكثر من شراءهم وأنفق عليهم الكثير فاظهروا الفساد في الدولة وظلموا الناس. كما أنفق على نفسه، فاهتم بالخيول والجواهر وعُني بفخامة بلاطه وعظمة مظهره. كما أنفق من ذلك المال في التشييد والإعمار، فمن مآثره المعمارية مسجداً ومدرسة ومدفناً في حي الغورية المسمى باسمه، كما أنشأ جوامع ومدارس وقصور ومنتزهات في مصر، كما أولى عناية لطريق الحج وقام بها عدة خانات وآبار وغير ذلك من الأعمال المعمارية[3].

واجه السلطان الغوري بعض الثورات الداخلية من قبل المماليك والأجلاب والعربان، إلا أن الخطر الحقيقي كان خارجياً وكانت تشكله قوة البرتغاليين الذين هددوا مركز مصر الاقتصادي كوساطة تجارية بين الشرق والغرب، فحقق البرتغاليون النصر لأنفسهم عام 1513م بعد سنوات

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص9؛ عاشور، العصر المملوكي، ص183.

[2]. أمير عشرة: وهي مرتبة حربية، تقل درجة عن أمير طبلخاناه، حيث يكون في خدمة صاحبها عشرة مماليك، ويكون من هذه الطبقة صغار الولاة. (المقريزي، السلوك، ج1 قسم1، ص239، حاشية (1)؛ عاشور، المصدر السابق، ص 415) .

[3]. الحنبلي، المصدر السابق، ج8، ص113–114؛ عاشور، المصدر السابق، ص185–186؛ Atil, Renaissance of Islam, p.18.

من الصراع واستطاعوا نقل زمام التجارة من ايدي المماليك الى أيدي البرتغاليين، فضاعت مكانة مصرالتجارية وساعد ذلك في عوامل ضعف الدولة[1].

كما أن خطراً خارجياً آخر قد شكل تهديداً لدولة المماليك تمثل في قوة الدولة العثمانية التي اتسعت سيطرتها لتشمل آسيا الصغرى والبلقان الى أواسط اوروبا، وارادت التوسع لضم الدولة الاسلامية، فتنبه السلطان الغوري لهذا الخطر الذي بات يهدد حدود دولة المماليك وجهز الاستعدادات للمواجهة، فالتقى الطرفان بموقع مرج دابق إحدى قرى بلدة عزاز شمالي حلب عام 1516م. فأبلى المماليك بلاءً حسناً حتى اقتربوا من تحقيق النصر، إلا أن الخيانة من قبل خاير بك نائب حلب الذي أخذ يشيع الأكاذيب بين صفوف جيش المماليك، قد أدارت اتجاه المعركة وجعلت الجيش المملوكي يتراجع، مما سبب في سقوط السلطان الغوري من فوق فرسه ميتاً، بحيث لم يستطع تحمل قسوة الموقف. وبهذا كان النصر حليفاً للعثمانيين وكانت موقعة مرج دابق فاصلاً حدد مستقبل مصر والشام في القرون التي تلت[2].

وهكذا انتهى حكم السلطان قانصوه الغوري بعد سلطة دامت ما يُقارب الستة عشر سنة، تولى من بعده السلطة في مصرالأمير طومان باي، حيث أن بلاد الشام كانت قد وقعت تحت سيطرة الدولة العثمانية وسلطانهم سليم العثماني.

ز. الملك الأشرف طومان باي الجركسي، هو آخر سلاطين دولة المماليك الجراكسة، وهو ابن أخ السلطان الغوري الذي ولاه نيابة السلطنة في أثناء غيابه لمواجهة العثمانيين، ثم تمّ اختياره لتولي الحكم في مصر عام 1516م، بعد الهزيمة التي مُنيّ بها المماليك ضدّ العثمانيين. فتمنع في بداية الأمر لعلمه بالأحوال السيئة التي تدور حول السلطنة والسلطان، إلا أنه لاحقاً قَبِلَ ولاية الحكم بعد أن أخذ عهداً من الأمراء بأن يرضوا بقوله ولا يخونوه أو يغدروا به.

ومنذ بداية توليه الحكم واجه خطرالعثمانيين على مصر، فخرج للدفاع عن دولته، وأظهر شجاعة وبسالة في كل موقعة سواء في الريدانية شمالي القاهرة عام 1517م ولاحقاً في الصليبة أو في وردان، ولكن جميعها كانت تنتهي بانتصار العثمانيين، وذلك لوقوع الخيانة أيضاً من قبل خاير بك وشركاءه، مما سبب في تفرق رجال طومان باي من حوله، وعدم استقرارهم في المواجهة وانما الفرار. وهكذا استمر الحال إلى أن وجد السلطان طومان باي نفسه وحيداً عاجزاً عن المقاومة، فقرر اللجوء الى أحد مشايخ العربان الذي خانه أيضاً وقام بتسليمه الى السلطان سليم العثماني، الذي أمر بدوره إعدام طومان باي بالرغم من اعجابه بشجاعته وعزة نفسه، فتم اعدامه عام

---

[1]. عاشور، العصر المملوكي، ص186.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص187–193؛ الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص114؛ العريني، المماليك، ص263–264.

922هـ/ 1517م وسقط ميتاً على عتبة باب زويلة في القاهرة، وأمرالسلطان سليم بدفنه قرب مدفن الغوري. بذلك تكون نهاية سلطنة المماليك الجراكسة وحكمهم على مصر وبلاد الشام، والتي تولى فيها الحكم اثنان وعشرون سلطاناً، ثمَّ كانت بداية لحكم دولة العثمانيين[1].

1.1.5 عوامل ضعف دولة المماليك البرجية:-

لقد كان لعدة عوامل مجتمعة الأثر في ضعف دولة المماليك الجراكسة وتخلخلها ثم انهيارها، منها عوامل سياسية وعسكرية حيث أحاطت قوى خارجية بالدولة، وكثرت هجمات الأعداء لأطماعهم بالسيطرة والقوة، كما تعددت الفتن والثورات الداخلية ضدّ السلاطين المماليك خاصة في المرحلة الأخيرة من تاريخ دولتهم. ويعود ذلك الى انّ سلاطين المماليك في فترة القرن الخامس عشر كانوا يشترون مماليكهم كبار السن أو تخطوا سن البلوغ، والذين عُرفوا بالجلبان أو الأجلاب. فكان من الصعب تنشأتهم على الولاء لاستاذهم أو غرس المحبة في نفوسهم، فنشأوا ورابطة الاخلاص والمحبة ضعيفة بينهم وبين استاذهم، كما وبينهم انفسهم في الطائفة الواحدة. مما جعل اولئك الجلبان يشكلون خطراً على السلطان، وأصبح بامكانهم عزل أو اقامة السلاطين تبعاً لأهواءهم حيث زادت قوتهم وكثرت ثوراتهم. على عكس سلاطين المماليك في فترة منتصف القرن الثالث عشر، حيث كانوا يشترون مماليكهم صغار السن ويقومون بتربيتهم وتنشأتهم على أسس الولاء والمحبة، فيشبوا ونفوسهم تمُنّ بالولاء للسلطان الذي له الفضل في تربيتهم.

هذا الأمر الذي جعل سياسة الحكم ضعيفة وأدى الى وهن سلطة أواخر السلاطين المماليك الجراكسة وعجزهم عن السيطرة الفعّالة على الحكم[2].

كما وأن مستوى التربية التي حظي بها المماليك في الدولة الأولى كان على درجة عالية من التدريبات العسكرية وتدريبات الفروسية والتنشأة الخلقية السليمة، والتي لم ينعم بتلك التنشأة المماليك في دولة المماليك الجراكسة، حيث ضعُف نظام الفروسية وتمَّ إهمال التدريبات الحربية التي أدت الى ضعف الجيش المملوكي، كما أن التربية الاخلاقية لم تكن على درجة كافية، بحيث تشكل رادعاً لهم عن الفساد واللهو والفحش والجهل والعبث وسوء التصرف بشكل عام[3].

وقد أدى ذلك الى تعدد السلاطين المماليك قُبيل نهاية حكمهم، وأصبحوا يحكمون لفتراتٍ قصيرة ومحددة، مما يؤكد على مدى حالة عدم الاستقرار والفوضى وعدم ثبات الحكم الذي ساد في البلاد.

---

[1]. الحنبلي، شذرات الذهب، ج8، ص115-116؛ عاشور، العصرالمماليكي، ص194-199.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص181 ص184؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص298؛ الموسوعة الفلسطينية ،مج4، ص293.

[3]. السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ص115-116.

كما أن ضعف قوة سيطرة السلاطين المماليك الجراكسة خاصة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، وكثرة الفتن والقلاقل، أدى الى ظهور قوى خارجية جديدة ذات نفوذ. حاولت استغلال الوضع السيئ للبلاد، فظهرت قوة البرتغاليين الذين هددوا السيادة المملوكية على طريق البحر الأحمر والحقوا الهزيمة بالقوات الاسلامية، وانتزعوا طرق الخط التجاري عبر مصر كحلقة وصل تجارية بين الشرق والغرب واوروبا، لتفقد بذلك مصر هيبتها كقوة تجارية في البحر الأحمر[1].

كما أن الدولة العثمانية قد شكلت خطراً على استمرارية حكم دولة المماليك، فسرعان ما اتسعت رقعة حدود الدولة العثمانية، واقتربت من الحدود الشمالية للدولة المملوكية. والتي استطاعت لاحقاً بسبب تفكك الطوائف المملوكية المتعددة الاستيلاء على السلطة الكاملة للشام ومصر[2].

كما كان هناك قوة اخرى تتنامى هي قوة الدولة الصفوية" الشيعية" في الشرق، والتي كانت تشكل مصدر خطر وتنافُس على زعامة العالم الاسلامي، مما دفع بالمماليك الى التواطؤ مع القوة الصفوية ضدّ العثمانيين الذين كانوا بدورهم قد تحالفوا سابقاً مع المماليك في دائرة صراع ضدّ قوى عالمية اخرى تريد السيطرة لزعامة البلاد الاسلامية، الأمر الذي أدى الى اصرار الدولة العثمانية لضم البلاد الاسلامية الى امبراطوريتهم واستطاعوا تحقيق ذلك وسدّ الفجوة التي شكلتها الدولة المملوكية بكونها الحلقة الأضعف في سلسلة صراعات القوى العالمية[3].

ومن العوامل الاخرى التي أثرت في ضعف قوة السيادة المملوكية هو العامل الاقتصادي، حيث ساءت الأحوال الاقتصادية في البلاد نتيجة لتكرار مراحل الجفاف والقحط وانتشار الأوبئة التي كان نتاجها الفتك بالآلاف من الأرواح، وندرة القوت وغلاء الاسعار والمجاعات. وبالرغم من هذا التدهور المتكرر للوضع الاقتصادي خلال فترة حكم أواخر السلاطين المماليك، إلا أن النزاعات والخلافات التي بالأساس شكلت نواة لضعف الدولة، باتت مستمرة بين طوائف المماليك، الذين ازدادت اعدادهم ومراتبهم ومخصصاتهم بحيث شكلت عبئاً على خزينة الدولة، وازداد أمر الرشوة والفساد لتحصيل هذه الأموال التي لم تعد الدولة قادرة على سدادها[4].

فكان لهذه العوامل السياسية والاقتصادية السيئة ناتج أثَّرَ على العامل الاجتماعي، حيث تغيرت به مميزات المجتمع الذي عُرف بالايمان والتقوى والتصوف وانتشار الزهد في العقود الأولى للسيادة

---

[1]. عاشور، العصر المملوكي، ص186–187؛ قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص304.

[2]. قاسم، المصدر السابق، ص305؛ Landay, Dome of The Rock, p.110.

[3]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص325–328.

[4]. قاسم، المصدر السابق، ص299؛ عاشور، العصر المماليكي، ص183؛ الموسوعة الفلسطينية، مج 4، ص293؛ Atil, Renaissance of Islam, p.17 ؛ Landay, Dome of the Rock, p.106 .

المملوكية، وتحول الى مجتمع تسيطر عليه الصفات السيئة، من تفشي ظاهرة الفساد والجشع والرشوة والاحتيال وسرقة أموال الناس والدولة والتنازع الدائم على المناصب، مما أدى الى غياب العدالة وانتشار الظلم والفقر والتسول والأمراض، في حين عاش الحكام حياة البذخ مع ممارسة الانحلال والفسق والفجور وشرب الخمر وغيره، مما أفقدهم هيبتهم وسيطرتهم واحترامهم بين عامة الشعب[1].

وبهذا يُمكن اعتبار عهد المماليك الممتد لفترة 267 عاماً والتي تولى خلالها السلطة 47 سلطاناً، عهداً يعج بالتناقضات حيث أنَّ طول هذه المدة وتعدد السلاطين سواء العظماء أو صغار السن، طبع ميزات لهذه الحقبة ففيها العزّ والذل، وفيها العظمة والانهيار، وفيها القوة والضعف وفيها الوفاء والفتن، وفيها الارتفاع والمجد كما السقوط والوهن[2].

إلا أن العوامل التي أثرت في ضعف دولة المماليك الجراكسة كانت لها نتائج قاسية من خزينة دولة خاوية وموارد مستهلكة وجيش ضعيف ومتقهقر وأوضاع داخلية متردية أدى الى عجز المماليك الكامل عن حماية البلاد الاسلامية ودَفَعَ بالدولة المملوكية الجركسية أن تنهار أمام قوة الدولة العثمانية.

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص300-301.

[2]. العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص217.

1.2 العمران في العصر المملوكي:

تُعتبر العمارة الاسلامية بشكل عام الشاهد المادي الأبرز الذي يجسد الحضارة الاسلامية، وقد بُنيت ضمن نطاق عوامل دينية واجتماعية وثقافية وسياسية وعسكرية واقتصادية وجغرافية باستخدام اساليب معينة لتخدم اغراض انسانية محددة. فأنتجت هذه العوامل مجتمعة أنماط مختلفة من العمارة، فظهرت العمارة الدينية كالمساجد والجوامع والمدارس والمقابر، والعمارة السكنية كالقصور والبيوت، والعمارة المدنية كالمراكزالحكومية والمحاكم والبلديات، والعمارة التجارية كالأسواق والخانات، والعمارة الدفاعية كالقلاع والأبراج والموانئ والبوابات والأسوار، والعمارة الصحية كالمشافي (البيمارستانات) والحمامات، والعمارة الصناعية كالمشاغل والمعاصر[1].

ومن بين العصور الاسلامية المتعاقبة وآثار عمارتها الشاهدة عليها، يُعتبر العصر المملوكي هو العصر الذهبي في فن العمارة والبناء[2]، فقد حذا سلاطين المماليك حذو اسلافهم من سلاطين الأيوبيين والفاطميين والعباسيين وغيرهم في الاهتمام بالحركة العمرانية. وبالرغم من أن اهتمام سلاطين الأيوبيين والمماليك كان مركزا باتجاه تحريرالبلاد الاسلامية من براثن قبضة الصليبيين والمغول وكانت جهودهم منصبة على أمر الجهاد وصدّ العدو، إلا أنهم لم ينسوا أمر ترسيخ الهوية العربية الاسلامية في البلاد التي كانت تحت سيطرتهم فأكثروا من إنشاء المؤسسات العلمية والثقافية والتعليمية الاسلامية في مصر وبلاد الشام وفلسطين.

وقد تدرج الأمر من حركة عمرانية مصاحب لها تحويل مؤسسات ذات طابع ديني ووظيفي مختلف لمؤسسات اسلامية في العصر الأيوبي، الى نهضة عمرانية كاملة في العصرالمملوكي تشهد لها آثارها المعمارية الباقية والبارزة والتي تُظهر أسس فن عمارتها وفن زخارفها المتميز.

ولم يقتصر أمر الاهتمام بالحركة الثقافية والعمرانية على السلاطين المماليك وحدهم كالظاهر بيبرس والمنصور قلاوون وأبناءه الأشرف خليل والناصر محمد بن قلاوون ثم السلطان حسن بن الناصر محمد، ومن بعدهم الظاهر برقوق وابنه فرج بن برقوق والأشرف قايتباي، انما تعداه الى نواب السلاطين الذين اسهبوا في اهتمامهم بالمنشآت المعمارية أمثال نائب الشام الأمير تنكز الحسامي ونائب غزة الأمير علم الدين سنجرالجاولي، وغيرهم من الذين تعدت انجزاتهم المعمارية ما قد انجزه السلاطين انفسهم. كما كان للأمراء المماليك وبعض الأعيان من المحسنين دور كذلك في الحركة العمرانية بما أنشأوه من مؤسسات خيرية كالمدارس والزوايا والاسبلة وغيرها....[3]

---

[1] .Zahlan, The Recontruction of Palestine, pp.395-396.

[2]. حسن، فنون الاسلام، ص71.

[3]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص401-402.

وتعود اسباب هذه النهضة العمرانية في العصر المملوكي بالأساس الى انتشار الأمن والاستقرار في الدولة خاصة في بداية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن الهجري، الأمر الذي تبلور عنه وجود نهضة تعليمية، دعت الحاجة الى ترسيخها انشاء مؤسسات مختلفة تُعنى بأمور التعليم والتثقيف جنباً الى جنب مع توفير الراحة لطالبي العلم.

وقد كان لنظرة العامة من الناس على المماليك بأنهم طائفة من الأتراك الأجانب أثره الايجابي في دفع الحكام المماليك على تأكيد انتمائهم للدين الاسلامي وتطبيقهم لشعائر الدين، فجاءت اعمالهم مركزة على أمر تأسيس العديد من المؤسسات الدينية والتعليمية والاجتماعية، فغدت حضارتهم ذات طابع ديني الى جانب الصبغة العسكرية.

وكان لأمر احياء الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ/1261م، على يد الظاهر بيبرس عاملاً اكسب مدينة القاهرة نفوذاً سياسياً ودينياً، وجعل السلاطين المماليك يظهرون كحماة للدين الاسلامي، فكان الإقدام على تشييد العمائر المختلفة أمراً يدعم هذه الخطوة ويؤكد على أحقية المماليك في السيطرة على العالم الاسلامي[1].

كما أن توفر الثروة والمال الوفير في هذه الحقبة نتيجة للعلاقات التجارية مع دول الشرق والغرب وازدهار اقتصاد الدولة، مكّن السلاطين والأمراء وغيرهم من أصحاب الخير من استغلال هذه الثروة في انشاء ودعم مؤسسات دينية وتعليمية وخيرية، تشهد لمقدار هذا الانفاق من المال والجهد عظمة العمائر المملوكية الفائقة الروعة والرقي.

وقد كان لرغبة سلاطين وحكام المماليك في التقرب الى عامة الشعب أثره في ازدهار التعليم. فقد كان أمر الحياة اليومية هو الاساس الذي تمحورت حوله اهتمامات السلاطين والأمراء حيث تعددت مظاهر هذه الرغبة من خلال الاهتمام بتوفير الخدمات لكافة فئات الناس، وسدّ احتياجاتهم في مختلف جوانب حياتهم سواء الدينية أو الثقافية والتعليمية أو الاجتماعية أو الصحية أو التجارية. وأُنشئت لذلك العمائر المتعددة والتي اختلفت وظيفياً تبعاً للغاية من انشاءها. فأقيمت الجوامع والمساجد خدمة لأهل الدين لتسهيل اقامة الشعائر الدينية. ولم يقتصر الهدف من انشاء هذه المؤسسات الدينية على كونها مراكز للتعبد وقراءة القرآن الكريم فحسب، انما شكلت صرحاً تعليمياً كذلك من خلال كونها مؤسسات عُنيت بالعلم والتدريس وتقديم التوجيه والنصح، فكانت تضم اعداداً من الطلبة ورجال العلم والفقهاء.

[1]. الزيدي، العصر المملوكي، ص245–246؛ الحجي، صور من الحضارة العربية الاسلامية، ص12، ص135.

وقد اختص سلاطين المماليك الفقهاء والعلماء بالعناية الخاصة، فأوجدوا مجالس تشاور معهم، وحرصوا على توثيق علاقاتهم بهم وعلى مرافقتهم، حيث شكل العلماء في مفهومهم القوة الروحية، وانفسهم القوة العسكرية، فكان لا بدّ من وجود روابط قوية بينهم تُشكل دعماً اساسيا هدفه خدمة المجتمع والنهوض به[1].

وكان أمر تدريس العلوم الدينية من علم دراسات القرآن كعلم التفسير وعلم القراءة هو من أولويات السلاطين. كما الاهتمام بعلم التاريخ وعلم اللغة العربية كأداة اساسية لتعلم واتقان العلوم الاخرى، فأقيمت مؤسسات هدفها الاساسي العلم ونشر التعليم. فأسست المدارس للصغار والتي عُرفت بالكتاتيب، كما أُنشئت المدارس لرواد العلم والتعليم والتي ارتبطت بالفكر المذهبي. وقد بلغ عدد المدارس التي اقيمت في عهد المماليك في دمشق ما يقارب 125 مدرسة، وفي القاهرة 82 مدرسة وفي القدس ما يُقارب 50 مدرسة. وكان الهدف الرئيسي من الاكثار في انشاء المدارس هو خدمة الدين الاسلامي وما يتعلق به من أمورعقائدية وتشريعية. كما اقيمت دور الحديث التي كان لها دوراً في تعليم أصول الحديث النبوي والفقه والشريعة والسيرة النبوية وغيرها[2].

وقد أُولي عنايةً انشاء مكاتب سبيل لتعليم أيتام المسلمين القرآن والقراءة والكتابة وتوفير المسكن والملبس لهم كسباً للأجر والثواب. وتم الحاقها بالمدارس أو الجوامع من أجل تيسير الاشراف عليها والعناية بها بالشكل الجيد.

كما كان للمؤسسات ذات الطابع الديني الخيري جزءاً يسيراً من هذا الاهتمام، حيث أُنشئت الخانقاوات للمتصوفين، والتي شكلت تعبيراً عن التوجه الاسلامي للثقافة الصوفية الاسلامية، يمارس فيها المتصوفون طقوسهم للتقرب الى الله، كما يقيمون بها ويقدمون خدماتهم لطالبي الانتفاع ببركتهم. وقد تميزت الخانقاوات بالعصر المملوكي بحسن التنظيم وبأعلى درجات اساليب التعليم وبنخبة من العلماء والمشايخ[3].

كما أن الأربطة والزوايا شكلت ملجأً للزهاد المنقطعين للعبادة والعلم ومكاناً للفقراء والمحتاجين، تُوَفَر لهم فيها منافع تعليمية واجتماعية. كما عُنيت هذه المؤسسات بالنساء، فاقتصرت بعض الأربطة على خدمة النساء اللواتي تقطعت بهن السُبل، فكان يتم ايوائهن وتعليمهن[4].

---

[1]. الزيدي، العصرالمملوكي، ص296؛ الحجي، صور من الحضارة العربية، ص135، ص146، ص195؛ عاشور، العصر المماليكي، ص384؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص512.

[2]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص204، ص404؛ الزيدي، المصدر السابق، ص257.

[3]. الحجي، المصدر السابق، ص161، ص187.

[4]. الحجي، المصدر السابق، ص163-165.

وقد عُني سلاطين وأمراء المماليك بإنشاء مبانٍ مخصصة لدفنهم، وتُعرف بالمدافن (التُرب) والمشاهد والمزارات. وكانت التربة أو الضريح عبارة عن مبنى يتخذ عادة الشكل المربع وتقع في مركزه قبة، فأصبحت " القبة" اسماً مرادفاً للتربة.

وكان انشاء الترب تقليداً عرف قبل العصر المملوكي، ولكنه لم يقتصر حينها على السلاطين والأمراء، انما كان يتم انشاء هذه المباني أيضاً للعلماء والفقهاء والمتصوفين. أما سلاطين وأمراء المماليك فقد اختصوا هذه الاماكن لهم واحياناً لأسرهم.

وكانت تأتي هذه المباني إما مستقلة أو أن تُلحق بمسجد أو مدرسة أو خانقاة، وحينها تفرض عظمتها من خلال الموقع الرئيسي الذي تشغله في المجمع أو من خلال واجهتها الرئيسية المسيطرة على واجهة المجمع. وكان بعض هذه التُرب ذو حجم ضخم بحيث يشتمل على العديد من المرافق للعاملين في خدمة التربة، أو اجنحة للزائرين القادمين لزيارة القبور في المناسبات والأعياد حيث خصصت لهم مساكن للإقامة والاستراحة، وهناك أجنحة فخمة عادة في الدور العلوي مخصصة لإقامة السلطان وعائلته وحاشيته.

والى جانب كون هذه الترب مزارات فإنه كانت يُرتب بها دوماً تلاوة القرآن وتجري بها عملية تدريس منتظمة لأمور العلوم الدينية، كموضوع تفسير القرآن والحديث النبوي[1].

كما كان للمماليك اهتماماً بالخدمات الصحية، فانشئت البيمارستانات والتي كانت تقدم مستوى عالي من الخدمات الطبية، اضافة الى ذلك فقد تم تشجيع الأطباء، حيث اقتضت كثرة الحملات العسكرية مرافقة الأطباء للعساكر، للعناية بصحة الأمراء والقادة. مما دفع الأطباء الى زيادة وتطوير مستواهم العملي والعلمي من خلال الاهتمام بالعلوم الاخرى والتي لها علاقة بعلم الطب كعلم الأحياء والنبات والكيمياء وغيرها، الى جانب الإحاطة بحقول المعرفة الاخرى كالفلسفة واللغة والأدب وغير ذلك من العلوم النظرية[2].

ولقد شكلت الحمّامات مكاناً لتوفير خدمات صحية واجتماعية في آنٍ معاً، فكان يتم استغلال هذه الأماكن للاغتسال وللمعالجة الطبية للذين يُعانون من امراض جلدية أومشاكل الأعصاب والمفاصل. كما كان الحمّام يُشكل مكاناً تُمارس فيه الأنشطة الاجتماعية، من تبادل الأحاديث ولغايات التزيُن قبيل المناسبات الاحتفالية. وقد كانت هذه الحمّامات تعمل ضمن نطاق حدود

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص31–32؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص412–413؛ القحطاني، مبادئ العمارة الاسلامية، ص198.

[2]. عثامنه، المصدر السابق، ص418.

صحية واجتماعية وأخلاقية، فكان يتم الاعتناء بنظافة مرافق الحمّام كاملة الى جانب الالتزام بقواعد الآداب الدينية والأخلاقية.

وقد عُنِيَّ سلاطين المماليك عناية خاصة ببناء الحمّامات، وكانت جزءاً من اهتمامهم بتوفير خدمات كاملة لعامة الناس، وضمن اطار اعمالهم الخيرية لكسب الأجر ومحبة الشعب.

لقد أولى المماليك عناية بتوفير المياه للمدن، ليس لأن الماء مصدر للحياة الحضارية فقط، وانما لارتباط المياه بالعقيدة الاسلامية لإقامة الشعائر الدينية. فحرص السلاطين والأمراء على بناء القنوات في الأماكن التي تنقصها المياه، لتكون من ضمن أعمالهم الخيرية لمنفعة الناس. فكان يتم انشاء الأسبلة والبرك لتيسير المياه للمارة والمنتفعين[1]. وقد كان لفظ سبيل وفعلها الثلاثي أسبل بمعنى صبَّ المياه، قد ظهر في الفترة المملوكية بمعنى عين المياه، وذلك تأكيداً على استمرار الصدقة وفعل الخير في "سبيل" الله[2].

كما لم يُهمل السلاطين المماليك بناء الجسور والقناطر في أنحاء الدولة المملوكية، لتساعد السكان والمسافرين على الوصول الى غاياتهم بأمان ودون مشّقة. ولم يقتصر اهتمام سلاطين المماليك والأمراء على أمر التنقلات الداخلية فحسب، إنما تعداه الى توفير الأمن للقوافل على الطرق الخارجية وضمان الراحة للمسافرين والتجار من خلال تشييد الخانات على طول الطرق التجارية الرئيسية[3]، والتي أقيمت كمحطة للراحة، ومكان آمن لمبيت المسافرين حيث أُحيطت هذه الأماكن بالأسوار العالية التي تتخللها أبراج الحراسة، واستُخدمت أيضاً كمخازن للبضائع المنقولة. وهناك نوع آخر من الخانات التي أقيمت في داخل المدن، وتُعرف أيضاً بالفنادق أو الوكالات أو القيساريات (القياسر)، تشترك جميعها بنفس الوظيفة وقد تتباين قليلاً بمساقطها الأفقية. وتقع في مركز المنطقة التجارية حيث تقوم على توفير نُزُل للتجار ومكان لتخزين وتصريف بضائعهم. وكان لهذه العناية باستمرار النشاط التجاري وتطويره أن يقوم بعض كبار التجار أنفسهم بإنشاء الخانات، فلا تكون المبادرة فقط من السلاطين أو نوابهم[4]. وكان لهذه الخانات دوراً بارزاً في ازدهار الحركة التجارية وتمتع مصر وبلاد الشام بالثراء[5].

لقد كانت هذه المنشآت من أهم الطرز المعمارية التي لها علاقة مباشرة بحياة عامة الناس، ولكن بالرغم من التطور والازدهار والرقي الذي وصلت إليه العمارة المملوكية وتنوع طرزها،

---

[1]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص 423، ص431-432.

[2]. بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص89.

[3]. عثامنه، المصدر السابق، ص438؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص233؛ Sims, Architecture of the Islamic World, p.97.

[4]. عثامنه، المصدر السابق، ص433-434؛ مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص72-75.

[5]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص86.

واستخدام عناصر معمارية وزخارف متميزة أضفت لها طابعاً مميزاً، إلا أنه بسقوط الدولة المملوكية الجركسية تحت الحكم العثماني، أدى الى تراجع عمارة ذلك العصر ويعود ذلك الى تأثيرات العمارة العثمانية وترحيل خيرة المهندسين والعمال الى اسطنبول[1].

1.2.1 أبرز الانجازات المعمارية:

أما أبرز الانجازات المعمارية في دولة المماليك فكانت كثيرة ومتعددة، وقد تأثرت العمارة المملوكية بتأثيرات معمارية من العصور السابقة، فيظهر تأثير العمارة الفارسية والعمارة الساسانية في تخطيط المساجد والمدارس، حيث أصبح المسقط العام للمسجد أو المدرسة أو المجمع هو الصحن المحاط بأربعة ايوانات أكبرها ايوان القبلة. ومن أبرز الأمثلة على ذلك في مصر مدرسة السلطان الظاهر بيبرس (660هـ -662هـ/ 1262م-1263م)، ومسجد ومدرسة ومدفن وبيمارستان السلطان المنصور قلاوون بالنحاسين (683هـ -684هـ/ 1283م - 1285م)، ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون (695هـ -703هـ/ 1295م -1304م)، وخانقاه ومدفن بيبرس الجاشنكير(706هـ -709هـ/ 1306م ـ1310)، ومدرسة ومسجد ومدفن السلطان حسن (757هـ -764هـ/ 1356م ـ1362م) والذي يُعتبر المَعْلَم الأبرز للعمارة الاسلامية في مصر، ومدرسة ومدفن وخانقاه برقوق بالنحاسين (786هـ -788هـ/1384م-1386م)[2]. وفي القدس تعتبر المدرسة التنكزية (729هـ/ 1328-1329م) الواقعة في الجزء الجنوبي من طريق باب السلسلة، من أبرز الأمثلة على مخطط المدرسة ذي الايوانات الأربعة، كما والمدرسة الأشرفية والتي قام السلطان الأشرف قايتباي بإعادة بناءها عام (887هـ/ 1483م)[3].

وهناك امثلة لاستخدام الأروقة حول الصحن في المساقط الأفقية للمساجد بتأثيرات من العصور السابقة، منذ الفتح الاسلامي 20هـ/ 640م وحتى نهاية العصر الفاطمي 567هـ/ 1171م، إلا أنها تختلف في العصر المملوكي بصغر مسطح الصحن المكشوف بالنسبة للأجزاء الاخرى المغطاة من الأروقة بعكس العصور السابقة، ومثال على ذلك في مصر المسجد الكبير للظاهر بيبرس (1267م-1269م)، ومسجد الناصر محمد بالقلعة (735هـ/ 1335م)، ومسجد فرج بن برقوق (811هـ/ 1408م) ومسجد الأشرف برسباي (841هـ/ 1437م)[4].

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص14.

[2]. مصطفى، المصدر السابق، ص19-20؛ حسن، فنون الاسلام، ص73؛ آصلان آبا، فنون الترك وعمائرهم، ص59-60؛
Hoag, Islamic Architecture, pp.80 -82

[3]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص388؛
Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 47 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.223

[4]. مصطفى، المصدر السابق، ص20-21؛ Hoag, Islamic Architecture, pp.78-79.

وقد يقوم بعض سلاطين المماليك كالظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون بإنشاء مسجدين بحيث يكون احدهما على نظام المدرسة ذات مسقط الصحن وأربعة ايوانات، ويكون داخل حدود المدينة بحيث يكون قريباً من الطلاب، أما الآخر فيكون على نظام الأروقة ويُبنى خارج المدينة ويكون للصلاة والعبادة[1].

وهناك نوع آخر يجمع بين المسقطين، أي الإيوانات والأروقة في مسقط واحد، ومثال على ذلك في مصر خانقاه فرج بن برقوق بمدافن المماليك (801هـ –813هـ/ 1399م ـ1411م)، وقد كانت مساقط الخانقاوت لا تختلف عن مساقط المدارس إلا في بعض الأحيان. ويُعتبر مسجد وخانقاه فرج بن برقوق من أعظم المنشآت الدينية الخيرية، حيث ضمَّ الى جانب المسجد والخانقاه ضريحين لأسرة برقوق وسبيلين وكتّابين ورَبْعاً سكنياً. كما وترتفع بالمبنى منارتان متماثلتان وتتميز قبتان متماثلتان كبيرتان في طرفي المبنى بزخارفها المحفورة بالحجر على شكل رقمي" ٧ و٨"، وقبة اخرى صغيرة فوق المحراب[2].

لاحقاً تطورت هذه المساقط خاصة في نهاية العصر المملوكي الجركسي، بحيث صغرت مساحة الصحن والايوانات الجانبية، كما وتداخلت الفراغات مع بعضها، وتمت تغطية الصحن بفانوس خشبي به فتحات زجاجية ملونة، أضفت على العمارة الاسلامية رونقاً ورُقِياً، مثلما توضح مدرسة ومسجد ومدفن قايـتبـاي بالصحراء الشرقية في القاهرة (877هـ – 879هـ/ 1472م–1474م)، وكذلك مدرسة ومدفن الغوري (909هـ –910هـ/ 1504م–1505م)[3].

لقد برزت هذه النماذج للعمارة المملوكية في مصر باعتبارها مركزاً لحكم سلاطين دولة المماليك، أما بلاد الشام فإنَّ الاهتمام ببناء المدارس خاصة أو المساجد كان قد تراجع بعد عام 1250م، أي بعد سقوط دولة الأيوبيين والتي كان مركز قوتها يتمحور في بلاد الشام، خاصة بعد الظاهر بيبرس الذي كان له اهتمام بالتعمير في سوريا. أما مَنْ تبعه من السلاطين فإنه كان نادراً اهتمام أي سلطان بإنشاء مجمع في سوريا كما تم انشاؤه في مصر. ويُستثنى من بلاد الشام فلسطين باعتبار اهميتها الدينية حيث استمر الاهتمام بإعمارها حتى عهد قايتباي. وبذلك فإنَّ الاهتمام بإنشاء المدارس في القاهرة قد حظي بالاهمية المميزة دوناً عن أمر تعميرها في بلاد الشام، وأصبح اهتمام المماليك منصباً أكثر حول بناء الأضرحة والمساجد التي تشتمل على المدافن.

---

[1]. حسن، فنون الإسلام، ص24.

[2]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص21؛ عكاشة، القيم الجمالية في العمارة الاسلامية، ص200–201.

[3]. مصطفى، المصدر السابق، ص21؛ عكاشة، المصدر السابق، ص200–201.

وكان هناك اختلاف في تخطيط المدارس في بلاد الشام عنها في مصر، حيث امتازت بالمرونة في استخدام وتحويل الايوانات في المدرسة، وتغيير حجمها. فقد يتم تحويل ايوان الى مدخل وأحياناً يتم تركه مكشوفاً وتحويره لخدمة زيادة مساحة الصحن الداخلي المكشوف. كما وهناك امكانية تحويل ايوانين الى تربة ومسجد، وبهذا فإن مرونة تحويل الايوانات بحيث يمكن أن يتم تصغيرها لتصبح تجويفاً في الحائط أو تكبيرها لتصبح مسجداً، قد أثَّر في مخطط المسقط الأفقي للمدارس، الذي أصبح بشكله الأساسي ذا ايوانين. وأصبح الاهتمام مركزاً على الواجهة المطلة على الطريق باحتواءها المدخل الرئيسي وبعض النوافذ، أما بقية المبنى فيكون امتداده بشكل عمودي على الطريق.

ومن الأمثلة على ذلك في دمشق المدرسة الظاهرية (676هـ/ 1277–1278م) وفيها ضريح الظاهر بيبرس، ومدرسة الشيخ حسن راعي الهِمة (863هـ/1459م)، ومدرسة السيّدة، والمدرسة الرشيدية (750هـ/ 1349م) والمدرسة الجقمقية (822هـ/1419م) ومسجد الطُرُزية (825هـ/ 1422م).

أما التأكيد على استخدام المدرسة كمسجد فيكون بإضافة مأذنة الى المبنى، كالمدرسة الصفهية والتي قام ببناءها القاضي ابن الصفه في (868هـ/ 1464م) والمدرسة الأنصارية وكلتاهما في مدينة حلب.

أما مدينة القدس والتي حظيت بالاهتمام، فقد تعددت المدارس التي تم انشاؤها مثل المدرسة الدوادارية (697هـ/ 1298م) والمدرسة الخاتونية (784هـ/ 1382م) والمدرسة السلامية (700هـ/ 1300م) والمدرسة الطشتمرية (785هـ/ 1383م) والمدرسة المُزهرية (885هـ/ 1480م) والمدرسة الجواهرية (844هـ/ 1440م) والمدرسة الأسعردية (760هـ/ 1359م) والمدرسة التنكزية (729هـ/ 1328–1329م) والمدرسة الأشرفية (887هـ/ 1483م) والتي قام بإعادة بناءها الأشرف قايتباي وتُعتبر أبرز الأمثلة للمدارس المملوكية خارج مدينة القاهرة. وقد تمَّ في جميع المدارس التركيز في تخطيطها على المداخل، حيث تمت العناية بزخرفتها لإعتبار ضيق الطرق في المدينة، الأمر الذي دعى الى حاجة اظهار المباني[1].

أما الأسبلة فقد تُبنى كوحدة معمارية منفردة، كما في سبيل الناصر محمد بن قلاوون (726هـ/ 1326م) في القاهرة[2]، وفي القدس كسبيل قايتباي (887هـ/ 1483م) وسبيل علاء الدين البصيري المعروف أيضاً بسبيل باب الحبس (666هـ/ 1267م)[3]. أو أن يُلحق بالسبيل كُتّاب

[1] .Hillenbrand, Islamic Architecture, pp.202-203

[2]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص33.

[3]. العسلي، من آثارنا، ص223، ص238.

على الطابق العلوي، وقد عُرف حينها بمكتب السبيل. وقد يأتي السبيل والكُتّاب كأحد العناصرالمعمارية المكونة لمبنى المدرسة أو الخانقاه او المسجد ويشغل ركناً هاماً من أركان المبنى، وحينها يتم تمييز واظهار السبيل والكُتّاب عن طريق معالجة الحوائط بطريقة مخالفة لحوائط المبنى الاخرى، حيث يتم استخدام الرخام الملون مثل الأبيض والأسود، وتغيير الفتحات به كما وابراز شرفات الكُتّاب الخشبية المزخرفة، ويظهر ذلك بوضوح في مدينة القاهرة في سبيل مسجد فرج بن برقوق (811هـ/ 1408م)، وكُتّاب مدرسة الأشرف برسباي (829هـ/ 1425م)، كما وفي مسجد ومدرسة ومدفن قايتباي بالصحراء الشرقية (877هـ -879هـ/ 1472م- 1474م)، وأيضاً في قبة وسبيل الغوري (909هـ -910هـ/ 1504م- 1505م)[1].

أما المدافن فإن مدفن شجرة الدّر(648هـ/ 1250م) يُعتبر من أبرز الأمثلة على المدفن الواقع كمبنى مستقل. أما المدافن الملحقة بالمباني فهي متعددة في القاهرة، ويُعتبر مدفن مدرسة برقوق بالنحاسين (786- 788هـ/ 1384-1386م) ومدفن خانقاه بيبرس الجاشنكير ومدفن مدرسة السلطان حسن (757-764هـ/ 1356-1362م) من أروع الأمثلة في اظهار أهمية المدفن بإبراز موقعه في المجمع المعماري، كما ومدفن قايتباي ومدفن برسباي[2].

وفي القدس يُعتبر مدفن "بركة خان" ذو الزخارف الحجرية الرائعة، على طريق باب السلسلة من ضمن مجموعة ترب انشأت في المدينة لدفن أمراء كانت منيتهم في المدينة أو في خارجها، وذلك للإيمان في الدين الاسلامي بأن البعث يوم القيامة سيكون من مدينة القدس، فتم اقامة العديد من التُرب خاصة في المنطقة المحيطة بالحرم القدسي الشريف[3].

ومن أبرز الأمثلة على عمارة البيمارستانات، يظهر بيمارستان قلاوون بالقاهرة (683-684هـ/ 1284-1285م) والمعروف بالبيمارستان المنصوري نسبة الى المنصور قلاوون الألفي والملحق بمدرسته ومدفنه، كشاهد على مدى الاهتمام بمختلف العلوم الطبية من خلال الأقسام المتعددة فيه[4].

وقد ظهرت الحمّامات كطراز معماري استوجبته تعاليم الدين الاسلامي ومناخ منطقة الشرق الأوسط الحار نسبياً، وجاءت طريقة التشغيل مشابهة للطريقة التي استعملها الرومان من خلال التدرج في التنقل بين الغرف تبعاً لدرجة الحرارة، بحيث يضمن للمستحم الراحة والسلامة في الانتقال بين درجات الحرارة المختلفة، ويظهر ذلك في الحمّام المؤيدي (823هـ/ 1420م) في القاهرة. ومن الحمّامات الشهيرة أيضاً ولكن المدّمرة، حمّام بشتاك بالقاهرة (740هـ/ 1339م)،

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص33-36.

[2]. مصطفى، المصدر السابق، ص31-32؛ حسن، فنون الاسلام، ص77.

[3] .Kroyanker, Jerusalem Architecture, p.47

[4]. مصطفى، المصدر السابق، ص71؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص420.

والذي لم يبقَ من آثاره سوى مدخله[1]. كذلك في مدينة القدس يشتهر حمامي الشفا والعين في سوق القطانين[2].

وكان من أبرز الجسور التي أقيمت، جسر دامية على نهر الأردن في منطقة الأغوار بأمر السلطان الظاهر بيبرس عام 665هـ/ 1266م. كما وقناطر أرسوف في منطقة الساحل الفلسطيني في فترة النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وقناطر برقوق في القدس[3].

وكما تم ذكره فإن العلاقات التجارية في الدول المملوكية كانت تشغل اهتماماً كبيراً من قبل السلاطين والأمراء، ولذلك عُنيوا بإنشاء الخانات التي هدفت بالأساس الى توفير الأمان للتجار ولبضائعهم على الطرق التجارية، كما وتوفير الراحة والمسكن لهم ومخزن لبضائعهم. وقد تم إنشاء العديد من الخانات كان من ابرزها خان الظاهر بيبرس (662هـ/ 1263–1264م) في ماميلا خارج اسوار القدس، وخان يونس في غزة المُقام على الطريق التجاري بين مصر والشام، من قِبَل الأمير يونس بن عبدالله النوروزي، وخان العقبة (914هـ/ 1508–1509م) الذي بقيت آثاره مدمَرة منذ عهد الأيوبيين الى أن قام السلطان قانصوه الغورى بترميمه وتجهيزه على طريق الحج بين مصر والشام[4].

أما الخانات التي كانت تُقام داخل المدن الكبرى ووسط الأسواق، والتي عُرِفت كذلك بالوكالات أو القياسر فكان من أبرزها وكالة قايتباي بالقرب من باب النصر بالقاهرة (885هـ/ 1480–1481م)، ووكالة الغورى في القاهرة (909–910هـ/ 1504–1505م)، والتي تتكون من عدة طوابق عددها خمسة، تُطِل على صحن داخلي مشترك ومفتوح، ويُشكل فيها الطابقين السفليين مكان لتخزين البضائع، أما الطوابق العليا فهي تتشكل من وحدات سكنية منظمة بشكل عمودي يتخللها أدراج منفصلة كل على حِدة. أما الوكالات في بلاد الشام فتختلف عن مثيلاتها في مصر، حيث أنها لا تتعدى الطابقين، طابق أرضي وطابق علوي مكون من غرف تفتح على دهليز ثم يُطل الدهليز على الصحن، أما في الأمثلة المصرية فإن الغرف عبارة عن مساكن مطلة مباشرة على الصحن. ومن بين الوكالات والخانات التي أُنشأت في فلسطين، خان تنكز الذي أقامه نائب دمشق الأمير تنكز الحسامي بسوق القطانين في القدس. كما وخان أو وكالة السلطان الذي جُدِدَ

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص76؛ حسن، فنون الإسلام، ص81.

[2]. العسلي، من آثارنا، ص175، ص190.

[3]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص438– 439.

[4]. عثامنه، المصدر السابق، ص435– 438.

أيام السلطان برقوق، وخان الزيت؛ حيث أنَّ بعض الخانات قد عُرِفَتْ تبعاً لنوع البضاعة التي اختصت بها.[1]

1.2.2 مميزات العمارة المملوكية:

لقد تم ذكر بعض أبرز الإنجازات المعمارية للسلاطين أو الأمراء المماليك، حيث أنَّ أعمالهم متعددة لا يُمكن حصرها. وكان لجُل هذا الاهتمام بالحركة العمرانية أنْ أصبح للعمارة مميزات خاصة تمتاز وتتميز بها، يمكن قراءة بعض منها من خلال أنَّ العمارة المملوكية امتازت بالآتي:-

- أنَّ العمارة الاسلامية عامة والمملوكية خاصة اتسمت بطابع تعدُد الوظيفية، فالبناء نفسه يتم استخدامه لوظائف متعددة مثل المسجد أو الخانقاة أو الضريح؛ فالمسلمون لم يقوموا بالعبادة فقط في المسجد، ولم يتلقوا التعليم الديني فقط في المدرسة، ولم يتم دفنهم فقط في الأضرحة، إنما تم توظيف المباني لعدة غايات واستخدامات، ولذلك نشأت ظاهرة المجمعات المعمارية، حيث أنَّ المجمع يتكون من أكثر من بناء كالمسجد والمدرسة والخانقاة والمدفن والكُتّاب والسبيل. وقد اتخذت هذه المجمعات بُعداً عمودياً في تكوينها نظراً لضيق المساحة المتاحة والنسيج الحضاري المتماسك[2].
- تأثرت العمارة المملوكية بحضارات مختلفة، فظهرت تأثيرات ساسانية وفارسية وايرانية ورومانية وبيزنطية واناضولية، فارتقت العمارة المملوكية بصبغات مختلفة أكدت على طابعها المتميز[3].
- تُعتبر العمارة المملوكية هي عمارة احتواء، حيث أنه بالرغم من الاعتناء بالواجهات الخارجية والمداخل إلا أنَّ المبنى يفتقر الى ما يوضح شكله أو حجمه أو وظيفته، فمن الصعب الادراك من خلال السطح الخارجي للمبنى ما يحويه داخله من ملامح رئيسية، وبذلك فإن البناء من الخارج يظهر وكأنه قلعة من الحجر، أما من الداخل فتذوب الكتلة وتظهر كنحت لاحتواء الفراغ.
- امتازت العمارة المملوكية باستهدافها للجماعة، بإنشاء العمائر المختلفة التي أقيمت لخدمة عامة الناس، في حين أنَّ القائمين عليها كانوا يقصدون بها كفارة أو تقرباً الى الله.
- للعمارة المملوكية صلة وثيقة بالعقيدة الاسلامية ومظاهرها المختلفة سواء الدينية أو السياسية أو الاجتماعية[4].

---

[1]. Sims, Architecture of the Islamic World, p.90;
مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص73-74؛ عثامنه، المصدر السابق، ص434- 435؛ عكاشة، القيم الجمالية، ص212-214

[2]. القحطاني، مبادئ العمارة الاسلامية، ص196-197؛ Hillenbrand, Islamic Architecture,p.6.

[3]. مصطفى، المصدر السابق، ص13؛ Hoag, Islamic Architecture, p. 7.

[4]. القحطاني، المصدر السابق، ص284-285؛ عكاشة، المصدر السابق، ص146 ص150.

- امتازت العمارة المملوكية بالاهتمام بالنسب، حيث روعي علاقة ارتفاع البناء مع عرض الطريق وذلك لتوفير الاضاءة والتهوية المناسبة لداخل المبنى. كما وروعي تنظيم الفراغات بين المباني بحيث تشكل رابط فيما بينها[1].
- امتازت العمارة المملوكية بتخطيط الصحون المحاطة بأربعة ايوانات لخدمة المذاهب الأربعة. وهذا تصميم تجريدي يمتاز بمرونته ويحقق سهولة في اختيار الاستخدام الوظيفي للمبنى، حيث أن العمارة الاسلامية بشكل عام تُؤْثِرْ أهمية الاستعمال على الشكل وتُخْضِعْ الشكل للاستعمال[2].
- لقد أولى المماليك عناية خاصة بواجهات عمائرهم؛ فجاءت الواجهات كبيرة ومرتفعة، وظهر التنوع والاتقان في العناصر المعمارية من المداخل، المآذن، القباب، العقود، الأعمدة وغيرها...، وكان الحِرص بألا يكون المدخل في وسط الواجهة، بل في ركن منها وأن يكون مرتفعاً ويتم الصعود إليه بدرجات، ويكون المدخل شاهقاً قد يمتد الى ارتفاع البناء وفيه عمق. كما أسرفوا في الزخارف والنقش على الحجر بزخارف توريقية وأشكال هندسية ونباتية. وعمدوا الى تغطية المساحات وعدم ترك أي مساحة دون زخرفتها، فلجأوا الى تكرار الموضوعات الزخرفية. وكانت تعكس هذه الزخارف وكثرتها أهمية القائم على البناء، فكلما زادت الزخارف وتنوعت كلما كانت مرتبته أعلى. كما لجأوا الى تغطية الجدران بالفسيفساء والأرضيات بالرخام المُلون، وأبدعوا في زخرفة المآذن والقباب سواء من الداخل أو من الخارج[3].
- استخدام المقرنصات كعنصر انشائي وزخرفي، واستخدام الحنيات العمودية الطويلة التي قد تُفْتَحْ فيها نوافذ وتنتهي في أعلاها بالمقرنصات. واستخدام الأشرطة الكتابية التي ظهرت فيه ضُروب مختلفة من الكتابة، واستخدام الأبلق (الحجارة الملونة) باللونين الأحمر والأصفر أو الأسود والأبيض، واستخدام التعشيق، والمصبغات الحديدية، والرنوك، والمكسلتين (المسطبتين)[4].
- تميز تصميم المآذن المملوكية بالانتقال من المسقط المربع الى المسقط الدائري. والتدرج في نِسب مستويات المأذنة، بحيث تتناقص كلما ارتفعنا الى أعلى بغية جذب النظر الى أعلى. كما تم التأكيد على موقع المأذنة بوضعها بجوار المدخل، في حين أنها وُضعت فوق المدخل في العصرين الفاطمي والأيوبي.

---

[1]. مصطفى، التراث المعماري الإسلامي، ص91-92.

[2]. عكاشة، القيم الجمالية، ص148.

[3]. حسن، فنون الاسلام، ص71 ص80؛ Hillenbrand, Islamic Architecture, p.195 .

[4]. حسن، المصدر السابق،ص79 ص677؛ عكاشة، المصدر السابق، ص74؛Kroyanker, Jerusalem Architecture, pp. 50-51.

- تميزت العمارة المملوكية بكثرة استخدام الحجر، وصناعة الزجاج بالمينا، وتطعيم الخشب بالنحاس والتكفيت بالفضة[1]، وتقدمت صناعة الأسقف الخشبية ذات المقرنصات[2].

وأخيراً فقد كان لهذه السِّمات الرئيسية للعمارة المملوكية أنْ صبغتها بطابعٍ مميزٍ وراقٍ وبريقٍ لمعت به عن سائر العمائر الاخرى على مدى الزمان، وأبرزت عصرها الذي تستحق ما وُصِفَ به بأنه العصر الذهبي في الفن المعماري.

[1]. التكفيت بالفضة: حفر في النحاس يملأ بأسلاك الفضة.(مصطفى، التراث المعماري الاسلامي في مصر، ص118).

[2]. عكاشة، القيم الجمالية، ص200؛ مصطفى، المصدر السابق ، ص13 ص114.

الفصل الثاني

الإدارة المملوكية لبلاد الشام



الفصل الثاني:

الإدارة المملوكية لبلاد الشام

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول الإدارة المملوكية الداخلية لبلاد الشام والتقسيمات الادارية (النيابات) فيها، ومهام وصلاحيات النواب مع ذكر لمكانة نيابة الأمير تنكز على دمشق. أما القسم الثاني فيتناول الحديث عن الوضع الاداري لمدينة القدس خاصة، وادراجها لأهميتها الدينية والجغرافية نيابة مثل سائر النيابات الاخرى. ويأتي القسم الثالث لبيان اهمية مدينة القدس من خلال التطرق الى مختلف جوانب الحياة الثقافية فيها، من حركة النشاط الفكري والعلمي والحضاري والمعماري.

2.1 الأوضاع الداخلية في بلاد الشام:

لقد تمكن سلاطين المماليك من السيطرة الكاملة على بلاد الشام وذلك عقب معركة عين جالوت في 658هـ/ 1260م، وقاموا بتقسيمها ادارياً الى ستة أقسام كبرى. كل من هذه الأقسام يرأسها نائب[1] لسلطان المماليك في القاهرة، ينوب عنه ويقوم بأعماله فيها، لذلك أُطلق عليها اسم نيابات، وكان هذا النائب أمير كبير من أمراء المماليك يتم تعيينه فقط من قِبَلْ السلطان المملوكي في مصر، والذي ينفرد أيضاً بأحقية تعيين أو عزل كبار الموظفين في النيابات الشامية.

وقد ظهرت هذه النيابات تدريجياً تِبعاً للظروف التي أوجبت اقامتها وحسب تغيرات الصراع مع الصليبيين، فكان يتم إبراز أهميتها وتسليحها بالعوامل الإدارية والعسكرية والاقتصادية لكي تستطيع مجابهة أطماع الغزو الصليبي المستمر على المنطقة. فكان أولها نيابة دمشق ونيابة حلب عام 1260م، عقب معركة عين جالوت، ثم نيابة الكرك عام 1263م في عهد الظاهر بيبرس، ونيابة صفد عام 1266م، ثم نيابة طرابلس التي أُنشأت في عهد قلاوون الذي استولى على المدينة من الصليبيين عام 1289م. أما حماة والتي اختار المماليك بأنْ تبقى تحت حكم الأيوبيين فقد

[1]. النائب: هو لقب مَن يقوم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص453).

أصبحت نيابة عام 1314م بعد وفاة الملك المؤيد علي آخر ملوك بني أيوب عليها. ثم أُضيفَ في القرن الرابع عشر الميلادي (الثامن الهجري) نيابة غزة والتي أقامها الناصر محمد بن قلاوون ونيابة حمص ثم نيابة القدس وملطية.

لقد تميزت هذه النيابات باتساع حدود مساحتها، وكان يتبع لها ادارياً عدد من المدن والموانئ والقلاع المهمة. وقد انقسمت كل من هذه النيابات الى أقسام ادارية صغيرة عُرفت بالولايات أو النيابات الصغيرة. وكان كل نائب من نواب الشام يدين بالولاء الكامل للسلطان المملوكي في مصر، ولكنه كان سلطاناً في نيابته، فكان له حاشيته ومماليكه واتباعه وأمراءه ووزراءه[1]، وتمتع في بيوته بالخدمة ووظائف الأمراء كما في بيوت السلطان، وقد كان هذا النائب برتبة "مقدم ألف". كما وُجدت في كل نيابة من نيابات الشام وظائف إدارية قُسِّمَت الى ثلاثة أقسام، الأول: الوظائف العسكرية وهم أرباب السيوف ومنهم نائب القلعة أو مقدم العسكر ووالي المدينة والحاجب. الثاني: الوظائف الديوانية وهم أرباب القلم ومنهم صاحب الرسائل وناظر المال، أما الثالث: الوظائف الدينية كالقاضي والمفتي والمحتسب ووكيل بيت المال[2].

وقد تفاوتت أهمية نيابات الشام من ناحية الرتبة، فلم تكن جميعها في مرتبة واحدة، فكانت نيابة دمشق وحلب من أرفع هذه النيابات مقاماً، أما أوسطها مرتبة فكان نيابة حماة وطرابلس وصفد، وأدناها نيابة غزة وحمص والكرك. وقد أكدت على تلك المراتب الرسائل والكتب التي تضمنت الألقاب والصفات الصادرة عن السلطان الى نواب هذه النيابات. وبالرغم من تصدر نيابة دمشق وحلب للمرتبة الأعلى بين النيابات، إلا أنَّ نيابة دمشق تميزت بأهمية نيابتها عن سائر النيابات الاخرى، فكان في دمشق كل ما في مصر من الوظائف وفاق نائبها أهمية النواب الآخرين، فأُطلق على نيابة الأمير فيها بنيابة الشام أو مملكة الشام والنائب بملك الأمراء[3]. وقد أكد على أهمية نيابة دمشق سعة المناطق التابعة لها، إذ اتسعت الصلاحيات الادارية لنائبها لتشمل أجزاء واسعة من الأراضي اللبنانية والفلسطينية والأردنية.

كما أكد سلاطين المماليك في القاهرة على أهمية نيابة دمشق وتميُز نائبها من خلال زيادة صلاحياته وموافقتهم على تدخله في شؤون النيابات الاخرى، فكانوا يحولون تقاريره بخصوص ما

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص13؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص33؛ اليوسفي، نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر، ص62؛ الزيدي، العصر المملوكي، ص193-194.

[2]. الموسوعة الفلسطينية، مج4، ص291؛ دجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص404؛ الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص299.

[3]. ملك الأمراء: وهو من ألقاب كُفَّال الممالك من نُواب السلطنة، كأكابر النُّواب بالممالك الشامية، فهو يقوم مقام الملك في التصرف والتنفيذ، والأمراء في خدمته كخدمة السلطان. وتستخدم كثيراً في مخاطبة النواب في المكاتبات (القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص455).

يجري في النيابات وبشأن النواب الى قرارت سلطانية يتم تنفيذها دون البحث في مصداقيتها، الأمر الذي أدى الى وجود العديد من الخلافات بين نواب الشام ونائب دمشق لوجود المنافسة فيما بينهم ومخالفة النواب لتعليمات وأوامر نائب دمشق لشعورهم بوجوب تساويهم معه وبأنهم جميعاً نواب للسلطان، الذي كان بدوره يُقَوّي سلطة ملك الأمراء ويؤكد على علو كلمته.

وقد اعتاد نائب دمشق على زيارة السلطان في مصر مرَّة في السنة، عن طريق غزة حيث يُقيم فيها لحين موافقة السلطان بهذه الزيارة، وعندها يُطْلِع السلطان على أحوال بلاد الشام والأمور الخاصة بأمن الدولة وأمور الموظفين والخطط المستقبلية.

وقد تعدد نواب بلاد الشام، ولكن كانت لنيابة الأمير سيف الدين تنكز" ملك الأمراء" على دمشق أهمية خاصة، حيث استمر في النيابة ما يُقارب الثمانٍ وعشرين سنة، من سنة 1312م الى أواخر سنة 1340م وقد احتل خلالها مكانة عالية، حيث أنه وفي عام 720هـ/ 1320–1321م أصدر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً بتجريد نيابات الشام من الاستقلالية ومنعهم من الاتصال مع السلطان مباشرة، إنما افتُرِضَ من النواب الآخرين إذا أرادوا الاتصال مع السلطان أنْ يبعثوا أولاً الى نائب دمشق ويراجعونه بالأمور المتعلقة بشؤون نياباتهم، ويقوم هو بدوره بالاطلاع على كتبهم ثم ختمها وبعثها الى السلطان[1].

وفي أواخر حكم السلاطين المماليك وبالأخص في فترة حكم السلطان قانصوه الغوري (1501–1516م) تم استحداث أمر إداري لم يكن سابقاً، حيث تم إسناد أكثر من نيابة في آن واحد لأمير واحد. ويتم ارجاع سبب هذه الظاهرة الى سيطرة الاضطراب والقلاقل بكثرة في تلك الفترة، الأمر الذي أدى الى محاولة جعل القيام بالمسؤوليات لرجل واحد يكون الأكثر قدرة على تحملها بين النواب الآخرين، من أجل ضمان الهدوء الداخلي والحدّ من التمردات والعصيان. وقد شكلت هذه الخطوة ركيزة في أمر توكيل النيابات اعتمد عليها العثمانيون بعد احتلالهم لبلاد الشام[2] .

[1]. اليوسفي، نزهة الناظر، ص63–65؛ عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص303–305 ص321.

[2]. عثامنه، المصدر السابق، ص302–303.

2.2 الوضع الإداري لمدينة القدس:

لقد اتخذ أمر إدارة مدينة بيت المقدس أهمية تدريجية في العصور السابقة للعصر المملوكي، وذلك لمكانتها الدينية والسياسية والجغرافية، حيث كانت إدارتها في الفترة الأيوبية بيد أمير من أمراء السلطان والذي عُرِفَ بلقب" وال"، واستمرت القدس كولاية من ولايات الشام حتى أوائل عصر سلاطين المماليك حيث كانت ولاية صغيرة تتبع نيابة دمشق إدارياً، وفي قلعتها نائب صغير يعينه نائب دمشق. وكان يُطلَق احياناً على الوال لقب النائب. أما نائب دمشق فكان يملك صلاحية تعيين ولاة المدينة وجميع أصحاب المناصب الادارية فيها. ولكنه أيضاً يخضع لقوة السلطة المركزية لسلاطين المماليك في القاهرة والذين تتجاوز صلاحياتهم الادارية صلاحيات جميع النواب[1].

واستمرت القدس ولاية تابعة لنيابة دمشق الى أنْ أقام السلطان الناصر محمد بن قلاوون نيابة غزة، وعين نائباً لها الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الجاولي عام 745هـ، فأصبحت القدس ولاية تابعة لنيابة غزة الى جانب ولايات الخليل ونابلس وقاقون واللد والرملة[2].

لاحقاً تم تحويل ولاية بيت المقدس الى نيابة، فصارت ثالث نيابات فلسطين المملوكية بعد صفد وغزة، حيث شكلت صفد المركز السياسي والعسكري، وغزة المركز التجاري والاقتصادي، والقدس المركز الديني والثقافي[3].

وتأتي النية في تحويل بيت المقدس لنيابة عام 767هـ/ 1365–1366م، عندما تمَّ تحديد رتبة أمير طبلخاناة في منصب نائب، وبهذا تكون رتبة الأمير لهذا المنصب الإداري العامل الذي يُوضح أهمية تحويل بيت المقدس الى نيابة. كما وأنه في عام 777هـ/ 1375–1376م، خلال سلطنة الأشرف شعبان بن حسين، تمت نيابة الأمير تمراز المؤيدي على القدس وكان أول من وُليَ نيابتها. ثم توالى على هذا المنصب العديد من الأمراء الذين كان يتم تعيينهم من قِبَلْ السلطان المملوكي في القاهرة[4].

وقد كان الهدف من أمر استحداث نيابة القدس ذا بُعدٍ سياسي وإداري، لإعطاءها الاستقلالية الادارية وإلغاء تبعيتها، فدولة المماليك ارتكزت على شطري قوة؛ القوة العسكرية وتتمثل بقوة السلطان ومماليكه من حوله، فكان دائم السعي للتقرب الى كبار الأمراء وخَلْقْ مناصب عليا كبيرة

---

[1]. عثامنه، فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي، ص323–324؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص33.

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، ص13.

[3]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص298.

[4]. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص199؛ عثامنه، المصدر السابق، ص325.

لهم، وقوة الدافع الديني، بأن المماليك هم حماة الدين الاسلامي وتَمَثَّلَ ذلك بعنايتهم ورعايتهم للمقدسات الاسلامية مما دفعهم الى هذا التطور الاداري[1].

كما أنَّ مدينة القدس بقيت مطمعاً يراود الفرنج والتتار. فبعد سقوط عكا بيد المسلمين عام 690هـ/ 1291م وكانت آخر معاقل الصليبيين في فلسطين، بقيت فكرة السيطرة على بيت المقدس أملاً يراود الفرنج، فقاموا بحصار اقتصادي ضدَّ المماليك، وأقاموا حلف مع التتار والغرب الأوروبي لإبقاء حدود دولة المماليك الشرقية في خطر دائم ومن أجل محاولة استعادة الأراضي التي فقدوها في بلاد الشام وأهمها بيت المقدس. وقد أدى عدم يأسهم واستمرار محاولاتهم وهجماتهم لعدة سنوات من أجل إعادة السيطرة على بلاد الشام، الى ادراك السلطان الأشرف شعبان بن حسين لهذا الخطر، فعمد الى رفع رتبة نائب القدس الى أمير طبلخاناة، وزوده بالقوات والمعدات لأجل تمكينه من صدِّ هذا الخطر. كما أنَّ حالة الاستقرار التي شهدتها البلاد بوجه عام وبيت المقدس بشكل خاص، وحُسن إدارة السلطان الأشرف شعبان وقمعه لعدد من الأمراء الطامعين والمتمردين، كان له الأثر في قرار هذا التحويل، وبقيت النيابة حينها مرتبطة بنائب دمشق. الى أنْ عمد السلطان الظاهر برقوق الى جَعْل القدس نيابة مستقلة يتم تعيين نائبها فقط من قِبَلْ السلطان المملوكي في القاهرة بإصدار كتاب تعيين، ولا يحق لنائب دمشق أو أي جهة اخرى بعزله إلا بأمر من السلطان. وذلك لكي تستطيع مواجهة خطر التتار الذي هدد بلاد الشام بقوة فعمل على تحصينها اقتصادياً وعسكرياً، وعيَّنَ الأمير قردم الحسيني في منصب نيابة بيت المقدس عام 796هـ/ 1393م[2].

إنَّ هذا المشهد التاريخي والصراع الدائم للسيطرة على بيت المقدس إنما يؤكد أهمية هذه المدينة وتمتعها بمكانة دينية وروحية وتاريخية واقتصادية لدى المسلمين، الأمر الذي دفع المماليك الى جعلها نيابة مستقلة كسائر النيابات الكبرى وعينوا فيها الأمراء الكبار وجعلوا لها مناصب عليا وأصبحت مركز حُكم كغيرها من مدن بلاد الشام الهامة الاخرى[3].

وبالنسبة لحدود نيابات فلسطين المملوكية (خارطة (1)) فقد اشتملت نيابة صفد على أجزاء من جنوب لبنان والجولان وأغوار الأردن. وتكونت من إحدى عشر ولاية، يرأس كل ولاية والٍ برتبة جندي يتم تعيينه من قِبَلْ نائب صفد.

أما نيابة غزة، وكانت تُعرف بالشام الأعلى فامتدت حدودها الى مناطق كثيرة شملت مناطق ساحلية وأخرى جبلية. فحدّها من الشمال قاقون ومن الشرق الخليل ومن الغرب البحر الأبيض

---

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص34-35.

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص16-19؛ علي، المصدر السابق، ص35-36.

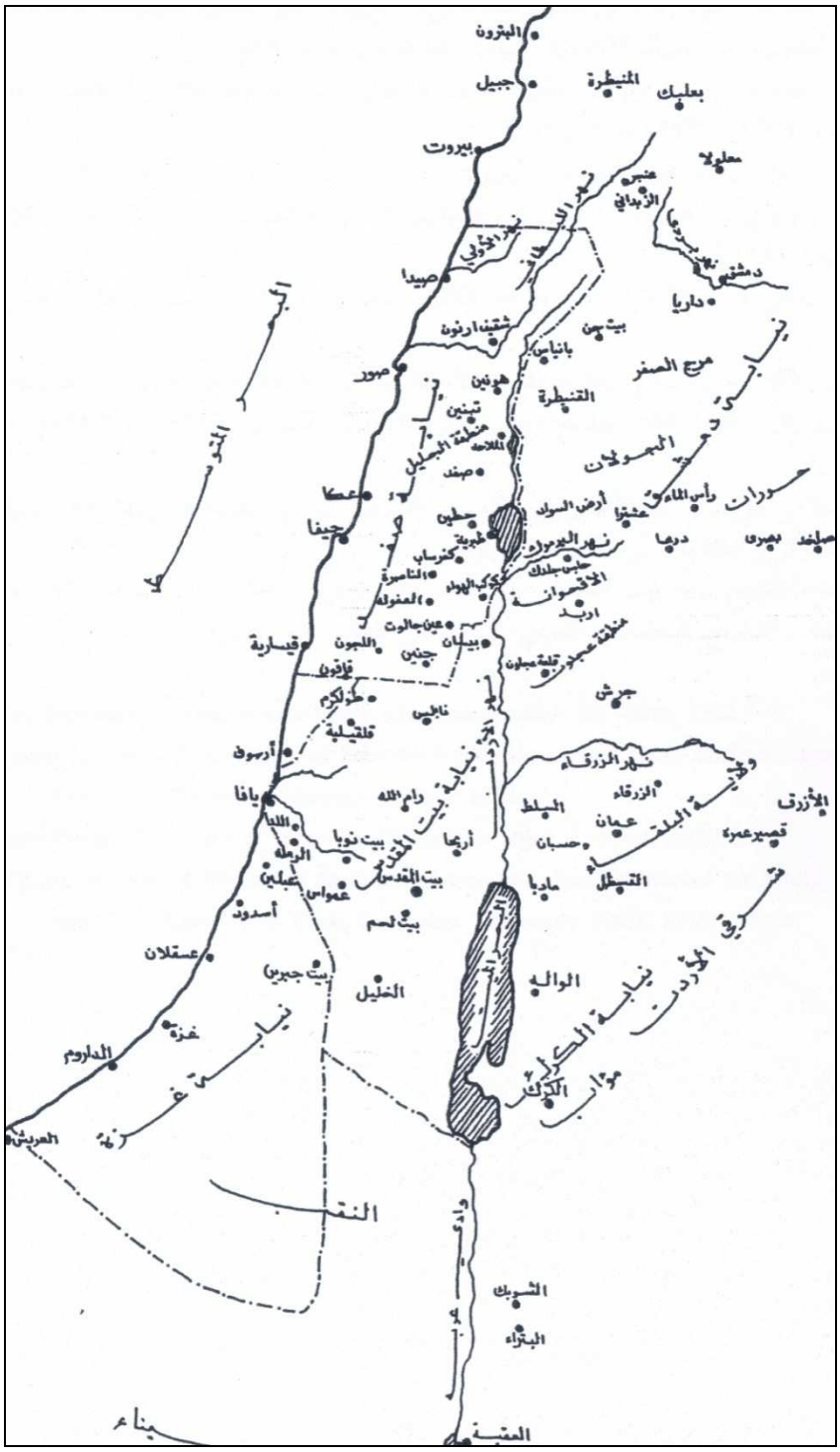
[3]. غوانمة، المصدر السابق، ص21.

المتوسط ومن الجنوب سيناء والنقب حتى حدود العريش أول الأراضي المصرية. وقد ضمَّتْ عند استحداثها سبع ولايات، تم لاحقاً ضم بعضاً من هذه الولايات الى نيابة بيت المقدس واخراجها من نيابة غزة.

أما نيابة بيت المقدس فكان أغلبها جبالاً وأوديةً، حيث اشتملت على المنطقة المحيطة بالقدس الى نهر الأردن المُسمى بالشريعة، ثم الى الرملة طولاً. وامتدت عرضاً من البحر المتوسط الى البحر الميت. وكان لنيابة بيت المقدس ثلاث ولايات وهي: ولاية الخليل، ولاية نابلس وولاية الرملة[1].

ولأهمية نيابة بيت المقدس فقد وُجِدَت فيها معظم الوظائف الإدارية التي وُجِدَت في النيابات الاخرى، كالوظائف العسكرية والوظائف الدينية والوظائف الديوانية. فالوظائف العسكرية وهي وظائف أرباب السيوف وعلى رأسهم نائب السلطنة، الذي يرأسه أمير برتبة كبيرة كرتبة مقدم ألف، تتم توليته النيابة بمرسوم سلطاني يُقرأ على القضاة والمماليك وأعيان المدينة والمجتمعين حول النائب عند دخوله المسجد الأقصى، وقد تنافس على هذا المنصب العديد من الأمراء والقادة. وكان النائب يُقيم في قصر خاص سُمِيَ بدار النيابة، الواقعة قرب مأذنة الغوانمة في الزاوية الشمالية الغربية من سور المسجد الأقصى، بجانب الرواق الغربي. وكان الوالي سابقاً يُقيم في قلعة بيت المقدس الواقعة عند باب الخليل في الجهة الغربية من المدينة، وبعد استقلال نيابة بيت المقدس كان نوابها يُقيمون في زاوية الدركاة قرب البيمارستان الصلاحي. وكان النائب يجلس في الايوان الخاص المعروف بايوان الحكم أو دار العدل، لينظر في شؤون نيابته ويحكم بين الناس ليحقق العدل ضمن حكم الشرع ويعلمهم أمور دينهم. وكان للنائب استقلاليته في معظم الأمور الداخلية لنيابته، كالأمور الادارية والمالية والعسكرية، وله مطلق التصرف فيها. وكانت تُدَقُ الطبلخاناة على باب بيته كل ليلة بعد صلاة المغرب، كما يحدث للسلطان المملوكي في القاهرة.

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص401-403.



خارطة (1): نيابات فلسطين في العصر المملوكي

من الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي،432

وفي بعض الأحيان كان يُجمع الى منصب نائب السلطنة وظيفة جليلة عُرفت بإدارة المقدس وهي وظيفة ناظر الحرمين الشريفين؛ القدس والخليل، فيُطلق عليه" ناظر الحرمين ونائب السلطنة بالقدس الشريف وبلد سيدنا الخليل". وهي وظيفة أضافت الى نائب السلطنة القوة والتشريف اللذان لم يحظَ بهما أيٌ من نواب بلاد الشام. وقد اهتم المماليك بتطوير هذه الوظيفة عن اسلافهم الأيوبيين خاصة في العناية بالمرافق الدينية والانفاق عليها لأمر الترميم والإصلاح، كما والتأكيد على إسناد هذه الوظيفة الى أمراء أتقياء صالحين أو علماء أجلاء.

إلا أنه وفي أواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي تبدل الأمر حين انتشرت ظاهرة الفساد الإداري في أواخر عهد سلاطين المماليك الجراكسة، فتولى هذا المنصب نواب عُرفوا بالظلم والقسوة، ومنهم من استخدم وسيلة الرشوة لشراء منصب النيابة من اصحاب القرار وحتى من السلطان نفسه. فباتت الوظائف رفيعة المستوى سهلة المنال لمن يُغَلِّي الثمن من الفاسدين والجُهال، وبذا فقد أساؤوا الى النيابة والى رِفعة هذا المنصب والى سكان بيت المقدس[1].

ومن الوظائف العسكرية الاخرى في النيابة وظيفة نائب القلعة ووالي المدينة والحاجب والدوادار. فنائب القلعة يكون من أمراء مقدم ألف أو أمراء طبلخاناة ويتم توليته بمرسوم سلطاني. ونيابة القلعة منفصلة عن نيابة السلطنة، ويقوم فيها نائبها بإبلاغ السلطان في القاهرة أمور نائب السلطنة والموظفين الاداريين، كما وتُسنَدْ إليه مهام الحفاظ على القلعة وتجديدها وصيانتها والاهتمام بما فيها من ذخائر ومؤن، والاشراف على فتح واغلاق ابواب القلعة كما والاشراف على حراس القلعة لحماية أسوارها.

أما والي المدينة فيكون من الجند وتتم توليته من قِبَل نائب بيت المقدس، ويقوم بالمحافظة على الأمن ومراقبة أمور الناس فيعاقب من تثبُتْ عليه الإساءة والفساد، ويحافظ على أموال الناس وأرواحهم.

ومهمة الحاجب الذي يتولاها أحد أمراء المماليك فهي الاهتمام بالجند وتفقد أحوالهم ونقل أخبارهم الى النائب، ويحكم بين الناس ويفض المنازعات، كما ويقوم بمهام النيابة في مقام النائب اذا غاب عنها لفترة ولحين عودته[2].

---

[1]. الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص299؛ غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص228–230؛ غوانمة، تاريخ بيت المقدس، ص30–31.

[2]. القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص199؛ دجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين، ص405–407؛ غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص230.

أما آخر هذه الوظائف فهي وظيفة الدوادار[1]، ومهمته تقديم البريد الى النائب كما وتبليغ رسالاته واشراكه في القصص ومشاورته فيمن يحضر لمقابلته، وأحياناً يُكَلَفُ بمهام حربية.

أما الوظائف الدينية فمنها ناظر الحرمين الشريفين ومشيخة الصلاحية والقضاة والخطابة والتداريس والمحتسب وناظر البيمارستان. والوظائف الديوانية وهم أرباب الأقلام فمنهم كاتب الدست وناظر بيت المال وناظر الجيش[2].

ومثلما حظيت نيابة بيت المقدس بالوظائف الهامة فقد تمتعت بالقوة العسكرية والقوة الاقتصادية، وتمثلت قوتها العسكرية بجيشها وقواتها الخاصة، والتي بلغت أعداداً كبيرة اشتملت على الأمـــراء والأجناد والمماليك وأحياناً رجال القبائل. كانت مهامها الحفاظ على الأمن والاستقرار في داخـــل حدود النيابة وخارجها، كالقضاء على المتمردين وقمع الفتن وخوض المعارك ضدَّ العثمانيين.

أما ازدهارها الإقتصادي فكانت ركيزته الاساسية هي التبادل التجاري الداخلي والخارجي مع دول اسلامية ودول أوروبية، فاشتهرت المدينة بأسواقها المتعددة والمتخصصـــة للســـلع وببضـــائعها المتنوعة. كما كان للنشاط السياحي الداخلي لزيارة الأماكن الدينية المقدسة وحركة الحجـــاج فـــي مواسمها نصيبه في دعم هذا الازدهار.

وبذلك فقد كان لأهمية بيت المقدس الادارية والعسكرية والاقتصادية أثره في ظهور نهضة علمية رائدة، فأصبحت قِبْلَةً للعلماء والفقهاء وطالبي العلم، وتمخض عنها إنشاء العديد مـــن المـــدارس والزوايا والخانقاوات وغيرها من الصروح العلمية والدينية[3].

---

[1]. الدَّوَادَار: هو لفظ مركب من كلمتين، عربي وهو الدواة وفارسي وهو دار بمعنى ممسك الدواة. وهو لقب الشخص الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير، ويهتم بكافة الأمور المتعلقة به. والدوادارية: هي وظيفة نقل الرسائل والأمور عن السلطان وعرض القصص والبريد. (دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص77؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم 2، ص237 حاشية (3)؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص462).

[2]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص29 ص34-35.

[3]. غوانمة، دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين، ص246-249.

2.3 الحياة الثقافية في مدينة القدس:

لقد كان للفكر الديني أثره في تطور الحياة الثقافية في بلاد الشام، حيث خرجت أول بعثة علمية من بلاد الحجاز الى بلاد الشام بعد الفتوحات الاسلامية مباشرة بغية نشر الدين الاسلامي وتعليم اهلها وتثقيفهم بأمور دينهم. وقد ساعد أمر استقرار الوضع العام في بلاد الشام بتشكيل أرضاً خصبةً لقيام حركة علمية ارتبطت بالاسلام فكرياً، حيث تركزت موضوعاتها بالدراسات الاسلامية المتمثلة بعلوم قراءة القرآن والتفسير والحديث والفقه وما ارتبط به من دراسات اللغة العربية كعلوم النحو والبلاغة والشعر، كما والاهتمام بالدراسات الانسانية كالسيرة والتاريخ.
وبما أنَّ فلسطين كانت احدى أهم أقطاب بلاد الشام، فقد امتدت اليها النهضة العلمية، وبرز من رجالها العديد من العلماء في شتى العلوم والفنون منذ القرن الأول الهجري، أمثال رجاء بن أبي سلمة، والفقيه العالم رجاء بن حيوة الكندي ، وروح بن زنباع الجذامي وغيرهم[1].

وتوالت حركة الازدهار الثقافية والعلمية في بلاد الشام وبلاد الرافدين حتى القرن الثالث الهجري، حيث اعْتُبِرَ عصر العلوم والإبداع الفكري في العراق، حين وصلت بغداد أوج عظمتها العلمية. في حين أنَّ بلاد الشام لم تصل الى هذه الدرجة من الثقافة كالعراق عامة وبغداد خاصة ولكنها مع ذلك ازدهرت فكرياً ونبغ من مدنها العديد من العلماء، خاصة في الثقافة الأدبية؛ حيث اعْتُبِرَ القرن الرابع الهجري هو عصر الابداع الأدبي والشعري في بلاد الشام بشكل عام، حين ظهر العديد من الشعراء أمثال أبي فراس الحمداني، وأبي العلاء أحمد بن سليمان المعري وغيرهم كثير. أما مدينة القدس خاصة فاتخذت جانب آخر من الحركة العلمية حيث اصطبغت بالثقافة الدينية وسيطر عليها الطابع الديني المحافظ، الى أنْ تصدرت في القرن الخامس الهجري حركة الازدهار الثقافي، فانتعشت فيها الحركة العلمية والثقافية، خاصة العلوم الدينية كالحديث والفقه والتفسير، وأصبحت فلسطين عامة ومدينة القدس خاصة قبلة للعلماء والفقهاء، كما استقطبت أعداداً من علماء الشرق والغرب، خاصة في أواخر القرن الخامس الهجري، حيث ترافق مع هذه الحركة نشوء العديد من المدارس وانتشار حلقات الدرس[2] والمناظرة.

واستمرت هذه الحيوية العلمية على هذا الشكل الى أنْ كان الغزو الصليبي لبلاد الشام واحتلال بيت المقدس في أواخر القرن الخامس الهجري في 492هـ/ 1099م. والذي قُتِلَ على أثره العديد من العلماء والأدباء، مما أدى الى إخماد شعلة هذا النشاط الثقافي طيلة فترة الاحتلال الصليبي للبلاد، حتى عام 583هـ/ 1187م عندما تمَّ تحرير بيت المقدس من العدوان الصليبي على يد

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص141.

[2]. حلقات الدرس: مفردها حلقة وسُمي الدرس بالحلقة وأحياناً الزاوية لأنَّ الطلاب يتحلقون أي يشكلون حلقة أو دائرة حول الشيخ. (غوانمة، المصدر السابق، ص184).

صلاح الدين الأيوبي، فعادت للبلاد الحركة الثقافية والفكرية من جديد، وإنْ كانت بعد فترة من الزمن؛ حيث أنَّ الصليبيين كانوا قد محوا معالم الحياة الاسلامية من المدينة المقدسة وذلك بتحويلهم الأماكن المقدسة الى أماكن مسيحية، فعمل صلاح الدين على اصطحاب العديد من العلماء الأجلاء معه وتم إنشاء العديد من العمائر المختلفة في بلاد الشام ومصر من أجل دعم وتنشيط الدراسات الدينية واللغوية، خاصة أنَّ الأيوبيين أرادوا نشر المذهب السني، فعملوا على بناء المدارس في العصر الأيوبي ثم لاحقاً في أوائل العصر المملوكي، فبلغ عددها في مدينة حلب وضواحيها ست وأربعين مدرسة، وفي دمشق تسعين مدرسة للمذاهب الأربعة. وقام صلاح الدين بترتيب أمور المدينة المقدسة وأنشأ فيها العديد من المؤسسات العلمية والاجتماعية كالمدارس والخانقاوات والبيمارستانات وغيرها. كما نشطت العلوم الاخرى الى جانب العلوم الدينية كعلوم اللغة العربية والعلوم الطبيعية في الهندسة والنجوم والفلك والعلوم الإنسانية، والتي كان عِمادها خيرة العلماء والفقهاء.

وفي العصر المملوكي فقد ازدهرت الحياة الفكرية في بيت المقدس واصبحت مركز استقطاب للعلماء والفقهاء من الشرق والغرب، أمثال الشيخ الرباني علاء الدين علي العشقي البسطامي والشريف موسى بن أحمد بن منصور شرف الدين العدوي المغربي المالكي وغيرهم الكثير[1].

وقد ازدادت هذه الحركة خاصة بعد أنْ أخذت دولة المسلمين بالتراجع سياسياً وحضارياً في الأندلس بعد أنْ تعمقت المسيحية في سيطرتها عليها. كذلك بعد سقوط بغداد في 656هـ/ 1258م بيد التتار وانهاء الخلافة العباسية فيها، لا سيما وأنَّ المسلمين كانوا قد ارتبطوا بهذه الزعامة الروحية التي كانت تُذَكِرهم بأمجاد وعظمة الماضي، ولم يعتادوا الحياة منذ أيام الرسول –صلى الله عليه وسلم– دون وجود نفوذ للخلافة في حياتهم. فكان النشاط الديني والعلمي يتكاثف حول الخلافة، وأينما يحلُّ الخليفة يتواجد حوله العلماء ورجال الدين تبركاً به ورغبة بصحبته. وبالتالي فإنَّ انتهاء دور الخلافة في بغداد أدى الى زعزعة وجود العلماء والفقهاء، ورغبتهم في الهروب واللجوء الى من يُعيد لهم الاستقرار في نفوسهم. فعندها قام السلطان الظاهر بيبرس بإحضار أحد أبناء العباسيين الى القاهرة حيث تمت مبايعته خليفة على المسلمين، وقام هو بدوره بتفويض السلطان المملوكي في حكم البلاد. وبذا فبإحياء الخلافة العباسية في القاهرة عام 659هـ/ 1261م، أصبحت المقر الجديد الذي استقطب علماء المسلمين ووفر لهم الدعم الأدبي والمادي[2].

فكان لهذا الاضطراب وعدم استقرار المسلمين سواء في بلاد الشرق أو الغرب أُنْ أدى الى هجرة علماءها الى مصر والشام والديار المقدسة خاصة الى مدن القاهرة وحلب ودمشق والقدس ومكة

---

[1]. غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص142–145 ص147–152.

[2]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص80 ص88–89؛ غوانمة، المصدر السابق، ص145.

والمدينة، إلا أنَّ مدينة القدس كانت الأوفر حظاً فقد آثرها العديد من العلماء ورجال الدين الذين لم يستطيعوا الاستمرار بالبقاء في مدن مكة المكرمة أو المدينة المنورة بالرغم من مكانتهما الدينية، وذلك لافتقارهما لظروف الحياة الطبيعية المريحة فيهما وبُعدهما عن مركز النشاط الحضاري للعالم الاسلامي. على نقيض مدينة القدس التي وفرت لهم الجو المناسب لحياة مريحة، وتمتعت بوقوعها في دائرة النشاط الحضاري[1]. الأمر الذي أدى الى تطور نشاط علمي في كافة المجالات العلمية والأدبية والدينية، خاصة أنَّ هذا النشاط قد جُبِلَ بخبرات علماء من أقطار مختلفة بلغ عددها زهاء اثنين وعشرين قطراً بين القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) والتاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، وتراوح عدد المدن التي خرج منها هؤلاء العلماء ما بين ستين وسبعين مدينة من شتى البلدان مثل العراق وايران والهند وتركستان وبلخ وشيراز واذربيجان وهراة وقرمان والمغرب والأندلس واليمن وغيرها...، وأصبحت مدينة القدس من مراكز الاشعاع العلمي والفكري والحضاري[2].

وقد اتسعت دائرة النشاط العلمي لتشمل دراسات العلوم الدينية من فقه وحديث وتفسير وتصوف وغيرها. وكانت هذه الدراسات هي المحور الاساسي في دائرة هذا النشاط، والتي خصتها مناهج التدريس في ذلك العصر بالاهتمام الأشمل. ثم تأتي علوم الدراسات الأدبية من اللغة والأدب والنثر والنحو والبلاغة والتاريخ وغيرها، فأدت المدارس من خلالها خدمة جليلة للعلم من خلال حفظ هذه العلوم الدينية واللغوية. كما وأكدت على هذا النشاط العلمي وجود العديد من المؤلفات والتراجم التي تزخر بأعداد كبيرة من سيَر أبناء مدينة القدس أو من الوافدين إليها. كما كان هناك اهتمام بدراسات العلوم العقلية والتجريبية ولكن على نطاق أضيق كدراسات الحساب والجبر والمنطق وغيرها. وقد كان للطب أيضاً دراساته الخاصة التي كانت تُدَرَسْ في البيمارستانات المنتشرة في المدن المختلفة[3].

وقد ترتب على هذا النشاط امتداداً متطوراً عن العصر الأيوبي الذي يُعتبر فيه فترة التأسيس الفعلي لمعاهد العلم، فتم انشاء العديد من المؤسسات التعليمية، سواء للتعليم في المراحل الأولى من الطفولة حتى سن العشرين أحياناً، أو المرحلة الثانية للتعليم العالي. وازداد عدد العلماء والفقهاء وأصحاب الفكر وطلاب العلم الذين قصدوا مدينة القدس للاقامة والتحصيل العلمي، نذكر بعضاً من أسماء العلماء ورجال الدين والفقهاء الذين كان لهم دوراً في حركة النشاط العلمي والثقافي وارتبطت أسماؤهم بمدينة القدس، سواء من المقيمين بها أو من الوافدين إليها أو من

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص89-90.

[2]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص512؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص178 هامش(5).

[3]. الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص521.

الذين ترددوا عليها لتحصيلهم العلمي ومزاولة نشاطهم في البحث والدراسة. وإن كان من الصعب ذكر وضبط جميع اسماء هؤلاء العلماء الذين تزخر بسيرهم كتب التراجم والتاريخ. فمن العلماء الذين كان لهم نشاط في العلوم الدينية نذكر منهم القاضي شيخ الاسلام بدر الدين أبو عبدالله محمد بن ابراهيم بن سعدالله ابن جماعة الكناني، الذي تولى قضاء القدس، توفي سنة 733هـ/ 1332م وله كتابات كثيرة منها 'التبيان لمهمات القرآن'، و'الفوائد اللائحة في سورة الفاتحة' وغيرها[1].... ونذكر أيضاً الشيخ كمال الدين أبو المعالي محمد بن الأمير ناصرالدين بن أبي شريف المقدسي، توفي سنة 906هـ وقد تولى التدريس في المدرسة الأشرفية كما والمدرسة الصلاحية، وتتلمذ عنده المؤرخ مجيرالدين الحنبلي فكتب فيه سيرة مفصلة. سمع عن كثيرين من علماء الاسلام وحفظ ودرس الكثير من العلوم الدينية واللغوية، حتى قيل عنه بأنه صار نادرة وقته وأعجوبة زمانه. وصار قدوة بيت المقدس ومفتيه وعين أعيان المعيدين بالمدرسة الصلاحية، وتميز عن غيره من العلماء حتى أصبحت طلباته أوامرمنفذة من قِبَل السلطان أو ممن دونه. له العديد من المصنفات والتي انتشرت في سائر الأقطار، ومنها 'الاسعاد بشرح الإرشاد في الفقه'، و' الفرائد في حلّ شرح العقائد'، وغيرها[2]...

ومن العلماء الذين برزوا في ميدان علوم اللغة العربية نذكر شهاب الدين بن جبارة المقدسي النحوي الحنبلي، توفي سنة 728هـ واشتغل بعلوم العربية وشرح الشاطبية؛ وهي من الكتب التي ركز عليها علماء القراءات، فكان اهمها 'حرز الأماني ووجه التهاني– الشاطبية' للشيخ أبي محمد القاسم الشاطبي، وشرح الرائية في الرسم. كذلك نورالدين البدرشي المالكي المصري، توفي سنة 878هـ وقد اشتغل بالنحو وألّفَ فيه، وعبدالله بن محمد الواسطي وله كتاب 'الكنز في القراءات العشر'[3].

وفي علم التاريخ حيث يشهد له مؤرخان ارتبطا بمدينة القدس، أولهما الإمام شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن نورالدين علي بن حجر، ولد في مصر ونشأ بها، وهو عسقلاني الأصل، فعُرِفَ بابن حجر العسقلاني. وهو من مؤرخي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، توفي سنة 852هـ/1448م وقد تردد على مدينة القدس ودرس بها وله من المؤلفات كتابه في التاريخ 'إنباء الغمر بأنباء العمر'، وله الفضل في طرح فكرة الكتاب الشامل لوفيات قرن بأكمله وتسمية هذه الكتب بعناوين القرون، كما وله الفضل في ذكر تراجم كتاب ضخم اشتمل على تراجم العديد من العسكريين والقادة والعلماء والفقهاء والأدباء في القرن الثامن للفاضلات المحدثات من النساء،

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص90–91؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص156.

[2]. عاشور، المصدر السابق، ص91؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص516–517. انظر ترجمة الشيخ كمال الدين المقدسي من: الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص706–710.

[3]. عاشور، المصدر السابق، ص91؛ الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص521.

كما في كتابه في التراجم 'الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة'، وهو الهجري حسب الترتيب الأبجدي. ومن أشهر مؤلفاته الضخمة المتعددة في الحديث والفقه والتراجم كتابه 'فتح الباري في شرح البخاري' ويقع في ثلاثة عشر مجلداً، وغيرها الكثير. أما العلّامة الثاني فهو مجيرالدين أبو اليمن عبدالرحمن بن محمد بن عبدالرحمن العمري المقدسي العليمي الحنبلي، ولد بالقدس وتوفي بها سنة 927هـ وكان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباي، وكان قاضياً للقدس. ومن مؤلفاته كتابه 'الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل'، حيث كان شاملاً لعدة موضوعات منها الفتوحات وتراجم الأعيان والفضائل والبناء والحوادث السياسية والأحوال الاجتماعية والاقتصادية.[1]

أما العلوم العقلية والتجريبية فقد برز منهم شيخ الاسلام شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عماد الدين بن علي المصري المقدسي والمعروف بابن الهائم، وفد الى القدس واشتغل بها حتى صار من شيوخ المقادسة. توفي عام 815هـ/1412م وقد نبغ بالعلوم الرياضية حيث كان له مهارة بالحساب والفرائض وله فيها مؤلفات كثيرة منها 'التحفة القدسية' وهو منظومة في الفرائض، و'ترغيب الرائض في علم الفرائض'. كما له مخطوطة هامة في دراسة الحساب بعنوان 'مرشدة الطالب الى أسنى المطالب' والتي تدل على سعة اطلاع وعلم ابن الهائم في ميدان علوم الرياضيات. ومن علماء الرياضيات أيضاً موسى بن محمد الخليلي شرف الدين وله من المؤلفات الكثير منها مخطوط 'رسالة في الاسطرلاب ومعرفة الأوقات'[2].

أما العلوم الطبية فقد ظهر العديد من الأطباء الذين درسوا ومارسوا الطب، والذي يُعتبر امتداداً لنشاط مدرسة الطب من العصر الأيوبي، ومنهم أحمد بن محمد بن عبدالله بن عمرو بن عوض المقدسي الأصل وعُرف بابن المحتسب، كان عطاراً وتوفي عام 772هـ. وهناك أيضاً محمد بن حسن بن أحمد بن محمد الشمس أبوعبدالله الكردية المقدسي وعُرف بابن الكردية، كان من علماء القدس الذين اشتغلوا بالطب وتوفي عام 843هـ. كما قد وُجِدَ التخصص في فروع العلوم الطبية، حيث يُستدل على ذلك من أحد مؤلفات جمال الدين يوسف بن أحمد بن عبد الهادي المقدسي الحنبلي، المتوفي سنة 880هـ، ويقع تحت عنوان 'الاتقان في أدوية اللثة والاسنان'. كما كان لعلماء بيت المقدس مساهمة أيضاً في علوم الفلك والكواكب والنجوم[3].

ولم يقتصر هذا المجهود العلمي على العلماء فقط وإنما كان للمرأة دورا كذلك في الحركة العلمية والدينية، فاشتهرت منهن زينب بنت أحمد بن عبد الرحيم المقدسية وعُرفت بـ "بنت الكمال" ولها

---

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص92؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص144-147. انظر: بن تغري بردي، المنهل الصافي، ص130-132 عن سيرة ابن حجر العسقلاني.

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص455-456؛ عاشور، المصدر السابق، ص92؛ علي، المصدر السابق، ص148.

[3]. علي، المصدر السابق، ص151.

نشاط في العلوم الدينية. كما واشتهرت زينب بنت أحمد بن عمر المقدسية، توفيت سنة722هـ. وهناك أيضاً ست العرب بنت سيف الدين علي المقدسية، وتوفيت سنة 734هـ، وهناك الكثير غيرهن يضيق البحث لذكرهن جميعاً[1].

ولم تقتصر أهمية دور العلماء والفقهاء في الدراسة والبحث العلمي فحسب وإنما لعبوا دوراً بارزاً كذلك في الحياة العامة في مدينة القدس؛ حيث كان لهم نفوذ مباشر على المسلمين باعتبارهم المثل الديني الأعلى وحماة العقيدة الاسلامية، كما كان لهم تأثير على الحكام حيث حرص هؤلاء على التقرب من العلماء من خلال مصاهرتهم ليكتسبوا مركزاً بين أفراد المجتمع خاصة وأنهم الغرباء فيه.

وقد عزز من تأثير العلماء على طبقات المجتمع المختلفة وطبقة الحكام كثرة ثرواتهم حيث أشرفوا على كثير من الأوقاف، كذلك توليهم مناصب هامة وعليا من مناصب الدولة، كما أنَّ دورهم الديني والقضائي والسياسي والتجاري والمالي والاجتماعي والذي مكنهم من التعامل المستمر مع أبناء المدينة، ساعدهم لكي يصبحوا المتحدثين الرسميين عنهم في كثير من الشؤون القانونية والدينية والاجتماعية والتجارية. وأصبحت كلمتهم لها هيبتها سواء بين الحكام الذين كانوا يخشون غضب العلماء ورجال الدين، أو بين العامة من سكان المدينة[2].

لقد عُني السلاطين والأمراء بمدينة القدس خاصة وأقاموا فيها العديد من المنشآت العلمية والدينية والاجتماعية والخيرية، من أجل توفير المناخ الملائم للعامة والراحة لسكان القدس ورواد العلم على حدٍّ سواء، خاصة بعد أنْ عانت البلاد من الاحتلال الصليبي لفترة من الزمن.

ولم يقتصر هذا الاهتمام بتعزيز مدينة القدس ثقافياً ودينياً على السلاطين والأمراء فقط، وانما شاركت النساء الثريات بالعمل على إقامة المدارس، حيث بلغ عددها ثلاث مدارس في مدينة القدس وحدها، وبلغ عدد المدارس التي بُنيت زمن المماليك في المدينة قرابة خمسين مدرسة، نذكر بعضاً منها: كالمدرسة الدوادارية، وهي مدرسة وخانقاة، أسسها الأمير علم الدين سنجر الدوادار سنة 695هـ/ 1295م، والمدرسة التنكزية التي أسسها الأمير تنكز سنة 729هـ/ 1328م، والمدرسة الأرغونية التي أسسها نائب الشام أرغون الكاملي سنة 759هـ/ 1357م، والمدرسة الطشتمرية وأسسها الأمير طشتمر العلائي سنة 784هـ/ 1382م، والمدرسة العثمانية التي أسستها احدى السيدات اللواتي كانت لهن مشاركة في اقامة المدارس وهي السيدة أصفهان خاتون وقامت بتأسيسها سنة 840هـ/ 1436م، والمدرسة الجوهرية ومؤسسها الأمير جوهر

[1]. عاشور، بعض أضواء جديدة على مدينة القدس، ص90-91.

[2]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص173-174.

القنقباي الخازندار سنة 844هـ/ 1440م، والمدرسة الأشرفية وكانت أفخم مدارس القدس بناءً كما تفوقت بين مدارس القدس بمستواها الأكاديمي في فترة مؤسسها السلطان الملك الأشرف قايتباي سنة 887هـ/1482م. هذا بالإضافة الى المدارس الاخرى التي تم انشاؤها في عصر الأيوبيين، وبقيت قائمة طوال عصر المماليك وبعدهم.

كما واشترك أهل الخير وأعيان من بلاد اسلامية مجاورة في إنشاء معاهد علم وذلك تبركاً بالمدينة المقدسة، فبلغ عدد هذه الخانقاوات والأربطة والزوايا ما يقارب المئة مُنشأة[1].

ولقد كان لعدة عوامل أثرها في تطور الحركة العلمية في مدينة القدس فكان النمو الاقتصادي عاملاً مساعداً، حيث نعمت البلاد بحالة من انتعاش الأحوال الاقتصادية، الأمر الذي دفع السلاطين والحكام والتجار الى المشاركة والتسابق في إقامة معاهد العلم ومكنهم من الإنفاق عليها بسخاء. فظهرت الكثير من المدارس الفخمة كما وأوقفوا عليها الأوقاف الطائلة للإنفاق عليها. وقد تباينت دوافعهم، فبالنسبة للسلاطين والأمراء كان هدفهم الأساسي هو تحقيق غاية سياسية وتثبيت أقدامهم في مجتمع هم غرباء عنه ومحاولة التقرب الى الشعب واسترضاءهم للقبول بهم حكاماً عليهم، واعتمدوا بذلك على النزعة الدينية للدفاع عن البلاد الاسلامية ضدَّ العدوان الخارجي من خلال مفهوم بأنهم حُماة للدين الاسلامي وحُماة للمسلمين. وإنْ كان هذا لا يمنع وجود بعض السلاطين الذين اتصفوا بالتقوى والصلاح فعلاً، فكانت غايتهم التقرب الى الله وهذا ما أظهروه من خلال كتاباتهم المنقوشة على مداخل المؤسسات التي أمروا بإنشائها. أما الحكام والأمراء فتركز هدف أغلبهم في انقاذ أموالهم من المصادرات، بحيث يضعون ثرواتهم في بناء هذه المؤسسات التي يصعب على السلطان مصادرتها كما ويقوموا بوقف أموالهم وأملاكهم فتُصبح مصونة لا تُصادر، ويضمنوا لأنفسهم وذريتهم نصيباً من ريعها. والبعض الآخر منهم كان وازعه الديني هو الأساس وراء وقف العديد من المنشآت ذات الايرادات الوفيرة، فضمنوا لمنشآتهم وأملاكهم البقاء والاستمرار. أما البعض وعددهم قليل فكان تعصبه لمذهبه الفقهي هو وازعه أمام إنشاء مؤسسة لضمان إتّباع ذلك المذهب. ولكن مهما اختلفت دوافعهم فإنَّ ترجمتهم لهذه العناية من خلال إنشاء المرافق المختلفة، أدت الى انجازات كانت حصيلتها بلا شك مكسباً للعلم والعمارة[2].

وكما تمتعت مدينة القدس بحالة من الاستقرار الاقتصادي الذي دَعَمَ حركة النشاط العمراني، فقد انتعشت كذلك الحالة التجارية والاحوال الزراعية فيها وارتبط بأثرها سيادة الأمن والاستقرار في

---

[1]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص511 ص513؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص152.

[2]. الدجاني وشكيل، المصدر السابق، ص512؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص32 ص153.

البلاد. فإنَّ تدفق أعداداً من المماليك الى مدينة القدس ممن نُفوا إليها أو ممن آثروا الإقامة فيها، كان له أكبر الأثر في رواج التجارة فيها، حيث شكلوا حلقة المستهلك والممول للسلع والمنتجات، مما أدى الى ازدهار التجارة ونشوء الاسواق المتعددة والمتخصصة حسب طبيعة السلع التي كانت تُباع بها، ولكنها جميعاً تشابهت من حيث تخطيطها الهندسي، فكانت عبارة عن شوارع طويلة مسقوفة إما بالعقود الحجرية أو أسقف من ألواح خشبية لحماية المارة من عوامل الجو المختلفة سواء الحارة أو الماطرة، ويتخللها نوافذ أو فتحات لينفذ من خلالها الضوء. وعلى جانبي الشارع توجد الدكاكين والمحلات التجارية، فضلاً عن وجود بعض الحوائط المنخفضة الممتدة داخل السوق يستخدمها المارة للجلوس، أو يتم استخدامها من قِبَل التجار لعرض بضائعهم، وتُقفل الاسواق بأبواب كبيرة.

كما لم يغفل المماليك عن حماية التجار الوافدين الى مدينة القدس أو الحجاج القادمين إليها وتوفير الراحة والأمان لهم، فأُنشأت الخانات أو القيساريات والتي انتعشت انتعاشاً كبيراً منذ القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي)، وكانت قبلاً في القرنين الخامس والسادس الهجريين تُعرف بكلمة دار أو دار الوكالة ثم حلّت تدريجياً كلمة "خان" مكان دار الوكالة أو القيسارية أو الفندق. وقد شملت وظيفتها لتكون مؤسسة تقوم بمهمة التجارة الى جانب وجود المخازن لحماية وحفظ أموال التجار، وكذلك اشتمالها على الفنادق لتوفير المسكن لهؤلاء الناس[1]. وبذلك فإنَّ الحركة التجارية في البلاد قد ساهمت في تطور الحركة العمرانية من خلال انشاء هذه العمائر المتمثلة في الأسواق والخانات أو القيساريات.

وكما كان للحركة التجارية أثرها في تدعيم الحركة العمرانية، فإنَّ الحالة الاجتماعية كان لها نصيب أيضاً في هذه الحركة العمرانية، من خلال الاهتمام بالمنشآت الاجتماعية والصحية كإنشاء الأسبلة والحمامات والبيمارستانات. والتي عُنِيَ بها سلاطين وأمراء المماليك، من خلال تجديد المباني القائمة أو إقامة مبانٍ جديدة. فكان هدفهم الأساسي من إقامة الاسبلة هو التأكيد على سياستهم الدينية، حيث أنَّ الماء ضروري لممارسة الشعائر الدينية، وبذلك فقد روعي في موقع الأسبلة بأن كانت معظمها على الطريق الرئيسي المؤدي الى الحرم القدسي ليتسنى للمصلين أو الزوار شرب الماء قبل الدخول للصلاة. كما حرصوا على توفير مياه الشرب للناس وتوصيلها الى المدينة خاصة انَّ مدينة القدس كانت تعاني قلة المياه بسبب ندرة الأمطار وعدم وجود أنهار بها، فاهتموا بتعمير القنوات لتوصيل المياه وإنشاء الآبار لتخزينها. ولم يقتصر اهتمام السلاطين بتوصيل المياه للمدينة لتوفيرها كمياه للشرب أو لأداء الفرائض الدينية، إنما لاستخدامها كذلك في

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص200–203؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص39.

الحمامات العامة[1]. حيث عرفت مدينة القدس الحمامات كمرافق عامة منذ حوالي المائة العاشرة قبل الميلاد، حيث ذكرت اسطورة شعبية بأنه قد تمَّ بناء حمّام لبلقيس ملكة سبأ بباب الأسباط، وأنه أول حمّام وُجد على وجه الأرض[2]. ثمَّ كان يقصد هذه الحمامات الناس من مختلف الأجناس رجالاً أو نساءً ومن مختلف الطبقات، وذلك لأغراض اجتماعية كتبادل الأخبار أثناء الاستحمام أو لأغراض صحية لعلاج بعض الأمراض. وكان لزاماً انشاء هذه الحمامات العامة ذلك بأن الناس في ذلك العصر وطوال العصور الوسطى لم يعهدوا وجود حمامات في منازلهم بشكل عام، وقد يرجع ذلك الى مشاكل الصرف الصحي في المدن في ذلك الوقت. وبذلك فقد عُني سلاطين المماليك وأمراءهم بإنشاء الحمامات والعناية بها وتوفير سُبل الراحة والخصوصية والاعتناء بالصحة العامة فيها[3].

ومن المنشآت الاخرى كانت البيمارستانات والتي عُني بها سلاطين المماليك وأصحاب الجاه والمال، سواء بتجديد ما كان قائماً أو بإقامة أبنية حديثة. ويرجع وجود البيمارستان في مدينة القدس الى العصر الفاطمي حيث وصفه الرحالة الفارسي ناصر خسرو عندما زار المدينة عام 438هـ/ 1047م. ولم تكن مهمة انشاء البيمارستان فقط لعلاج المرضى إنما خدمت كمدرسة لتعليم العلوم الطبية. وقد قُسمت البيمارستانات لأقسام حسب الأمراض المختلفة، كما وُجد بها العديد من الموظفين القائمين بالمهام المختلفة. وكان يُلحق بالبيمارستان صيدلية كانت تسمى شرابخاناه وفيها أنواع من الأشربة والأدوية والعطريات وغيرها. وبالتالي فإن هذه المؤسسات الاجتماعية من اسبلة وحمامات وبيمارستانات كانت ذات أهمية كبيرة في حياة عامة الناس ولذلك فقد حظيت برعاية الكثير من سلاطين وأمراء ونواب وحكام المماليك[4].

وبهذا التطور والازدهار الثقافي والعمراني، فقد طُبعت المدينة بالطابع الاسلامي وكانت في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي مدينة عامرة ومزدهرة، تفوقت في ذلك على المدن الأوروبية[5]. وكانت من جملة المدن الاسلامية التي يجوبُها الرحالة، والذين تعددت غاياتهم، فمنهم من يسعى للترحال للاطلاع ووصف أرجاء الدولة الاسلامية الواسعة لتسهيل مهمة الحكام في تدبير أمور دولتهم، ومنهم من يسعى طلباً للعلم كذلك التوسع بالتجارة، ومنهم من يتم ارساله لغاية معينة كرسول من قِبَلْ الحكام، أما أكثرهم فكان يقوم بالترحال لأداء فريضة الحج[6]، وكانت مدينة

---

[1]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص241-243 .

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج1، ص125؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص169.

[3]. علي، المصدر السابق، ص245.

[4]. علي، المصدر السابق، ص247 ص250.

[5]. الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، ص439.

[6]. بكّار، بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته، ص325.

القدس مقصداً دينياً يسعى الجميع للوصول إليها، فأصبحت منبراً يُقبل إليها العديد من الرحالة لزيارة أماكنها المقدسة ووصفها، بالإضافة الى المؤرخين الذين شغلتهم مدينة القدس واحتلت مكاناً في نفوسهم فوصفوها بدقة، أمثال مجيرالدين الحنبلي والمقدسي. ومن الرحالة فهناك ثلاثة ايطاليين زاروا المدينة عام 1384م وذكروا عن مدينة القدس بأن فيها بيوت قديمة وجميلة وشوارعها نظيفة ومعظمها مسقوف أو مقبب وفيها اسواق متخصصة للسلع كما أنَّ دكاكينها نظيفة جداً، وهي مدينة تعج بالناس والبيوت. وبالنسبة لموقعها فإنّ جزء منها يقع على سهل وجزء آخر على منحدر ومحاطة جزئياً بأسوار بعضها سميكة وأحجارها ضخمة. كما وصفوا المدينة بوقوعها في بلاد جميلة وخصبة ومعتدلة الحرارة والبرودة، وفيها من الخيرات الكثير[1]. كما وصفها رحالة آخر وأكد على وصف الآخرين بأن بناء بيت المقدس كان أتقن عمارة وأحسن رؤية من أي مكان آخر[2]، كما شاركهم الرأي مؤرخين كُثر من بينهم المقدسي والاصطخري حيث وصفا المدينة وشوارعها وأهلها ومناخها وخيراتها[3].

كما وكان للرحالة أبو معين الدين ناصر خسرو القبادياني المروزي دليلاً على طابع مدينة القدس حيث وصفها في رحلته التي استغرقت حوال السبع سنوات، بلغ فيها مدينة بيت المقدس سنة 438هـ/ 1047م وكان برفقته أخوه الأصغر وغلام هندي، فوصفها بأنها مدينة مشيدة على قمة جبل، ومحصنة بسور من الحجر والجص، ولها بوابات حديدية وليس بقربها اشجار بسبب وقوعها على رأس القمة، وأرض المدينة مبلطة بالحجارة وبها أبنية عالية وأسواق جميلة فيها صناع كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاصة. وأراضي بيت المقدس جبلية كلها، فيها أشجار زيتون وتين تنبت كلها بغير ماء فقط مياه الأمطار، ويُصدر اهلها زيت الزيتون الى أطراف العالم، وفيها اشجار حور وفيها الكثير من الخيرات. أما المياه التي تُجمع في أحواضها فقد عدَّه الرحالة بأنه أعذب وأنقى من أي ماء آخر. كما وصف المناطق المحيطة بالمدينة وصفاً دقيقا مع ذكر المعتقدات والأقاويل التي عُرفت حول هذه الأمكنة كسهل الساهرة ووادي جهنم وعين سلوان. وقد اهتم بالعمارة فقد وصف المسجد الأقصى وقبة الصخرة والساحات والحوائط والبوابات وصفاً دقيقاً دعَّمَه بالمقاييس والأرقام الدقيقة، حتى غدت رحلته مرجعاً فيه توثيقاً شاملاً للعديد من البلدان والمدن والمناطق[4].

أما العلاّمة المؤرخ مجيرالدين الحنبلي فإنه يصف مدينته معتزاً ومفاخراً بها حيث يصفها بأنها "مدينة عظيمة محكمة البناء بين جبال وأودية وبعض بناء المدينة مرتفع على علو وبعضه

---

[1] .Frescobaldi, Gucci, Sigoli, A Visit to the Holy Places,p.127 p.180

[2] .Da Poggibonsi, A Voyage Beyond the Seas, p.10

[3]. المقدسي، احسن التقاسيم، ص165-166 ؛ الاصطخري، مسالك الممالك، ص56-57.

[4]. خسرو، سفرنامه، ص14-15 ص19.

منخفض في واد"، وهناك أبنية في المناطق المرتفعة واخرى في المنخفضة، وشوارع المدينة بعضها وعر وبعضها سهل، والمدينة مكتظة بالبناء ويصف اسواقها وحاراتها وشوارعها وكنائسها وأديرتها وغيرها من المؤسسات الدينية والثقافية، وقد ذكر بأنَّ البناء" غاية في الاحكام والاتقان جميعه بالأحجار البيض النحت وسقفه معقود وليس في بنائه لبن لا في سقفه خشب". أما المياه في المدينة فتُجمع من مياه الأمطار في الآبار المعدة لخزن المياه، كما وذكر واصفاً عيون الماء كعين سلوان وبئر أيوب والبرك والقنوات. أما وَصْفْ محيط المدينة فإنه يذكر بأن بيت المقدس تقع على جبال كثيرة الوعر والأحجار، والسير فيها وإليها فيه مشقة، وفيها أشجار من أنواع الفاكهة المختلفة من عنب وتين وتفاح وغيرها...

بالتالي فإنَّ أهمية مدينة القدس جعلتها مقصداً دينياً وعلمياً وإن كان هناك مشقة في الوصول إليها، كما يؤكده قول الشاعر الحافظ ابن حجر عند زيارته بيت المقدس في الأبيات التالية:-

الى البيت المقدَّس جئت أرجو جنان الخـــلد نزلا من كريـــــم

قطعـــنا في محـــبته عقـــابا ومـــا بعد العقاب ســـوى النعيم[1]

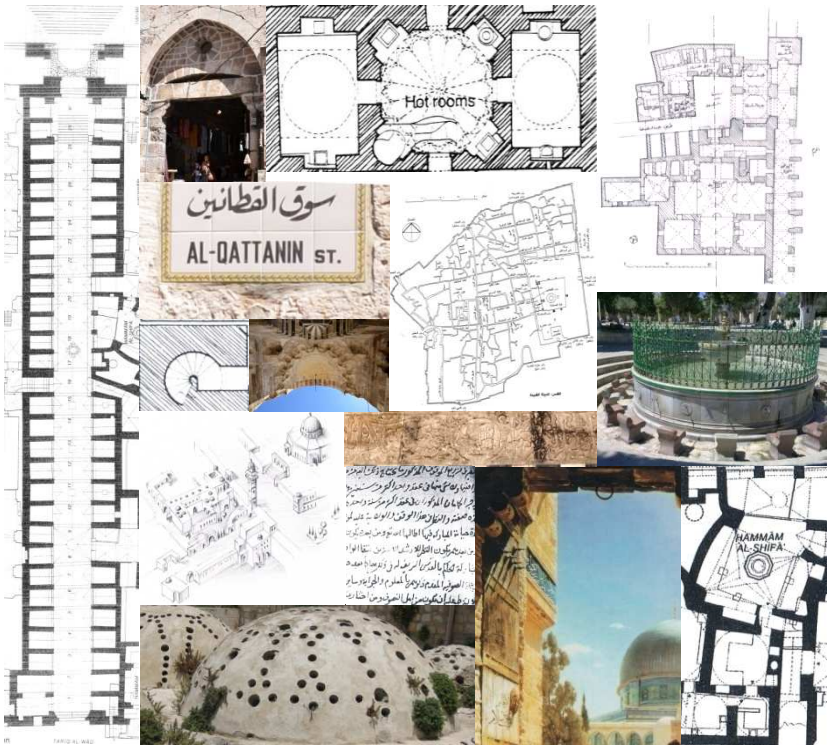
بعد هذا العرض المختصر لأهمية ومكانة مدينة القدس بين المدن الاخرى، حيث أنَّ الحديث حتماً يطول في ذكر المدينة وذلك لأهميتها من جميع الجوانب تاريخياً ومعمارياً وأثرياً وعلمياً ودينياً وسياسياً وغيره... وكثرة المؤلفات التي كُتبت في شأن المدينة، يمكن الاستدلال الى مظاهر نشاط الحياة الفكرية والعلمية في فترة عصر المماليك حيث تتجلى من خلال توافد العديد من العلماء وهجرتهم للمدينة المقدسة طلباً للعلم والمعرفة، الأمر الذي أثْرته حالة الاستقرار العامة في البلاد وسيادة الأمن والازدهار والثراء في المدينة. فاستقطبت المدينة أعداداً كبيرة من العلماء بالاضافة الى العلماء المحليين، الأمر الذي أدى الى كثرة عدد الفقهاء والعلماء بالنسبة لصغر حجم مساحة المدينة نسبياً، فغدت مدينة القدس من احدى المراكز الحضارية الهامة. حيث نشأت فيها العلوم المختلفة وتطورت في شتى المجالات الدينية والتاريخية والعلمية واللغوية وغيرها. ولعب فيها دوراً تَفَوق العلماء في هذه المجالات وانتشار عدد كبير من المؤلفات والتراجم والرسائل.

فكان لتكاتف هذه العوامل المختلفة من أمور مدينة آمنة ومستقرة تنعم بالثراء والازدهار الثقافي والعلمي أثره في كثرة المؤسسات التعليمية والخيرية والاجتماعية، وإنَّ مدى ضخامة عدد هذه المنشآت بالنسبة لمدينة صغيرة كمدينة القدس هو خير برهان على مدى هذا النشاط العلمي.

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص400-401 ص406 ص409.

الفصل الثالث

أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس



الفصل الثالث

أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس

يتناول هذا الفصل بقسمه الأول حياة الأمير تنكز من جوانبها المختلفة. والقسم الثاني يخص انجازات الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس وتحليلها. أما القسم الثالث فيتناول أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية.

3.1 لمحة عن حياة الأمير سيف الدين تنكز:

3.1.1 نشأته:

هو سيف الدين أبو سعيد خليل تنكز بن عبدالله الأشرفي الحسامي الناصري. ولد في دمشق ثم جلبه التاجر الخواجا علاء الدين السيواسي وهو صغير الى مصر، فنشأ بها عند الملك الأشرف خليل بن قلاوون وكان من مماليكه. ثم اشتراه الأمير حسام الدين لاجين، الذي اشترك في مؤامرة قتل الأشرف خليل بن قلاوون وتنقل بين منصب نيابة السلطنة عام 694هـ/ 1294م وبين اعلان نفسه سلطاناً باسم المنصور لاجين عام 696هـ/ 1296م، ولكن قد تمَّ الغدر به وقتله عام 698هـ/ 1299م. حينها انتقل تنكز الى الملك الناصر محمد بن قلاوون وأصبح من خاصكيته[1] وخدم السلطان الناصر وشهد معه وقعة وادي الخازندار ثم وقعة شقحب. تدرج في مناصب الدولة حيث أمره السلطان إمرة عشرة قبل توجهه الى الكرك، الذي رافقه اليها، ولاحقاً جعله أمير طبلخاناة. وبسبب استمرار وجود النزاعات الداخلية بين النواب والأمراء المماليك، عمل الناصر محمد في فترة توليته الثالثة للحكم، ما بين عامي 709هـ/ 1309م الى عام 741هـ/ 1341م على التخلص من العديد من الأمراء الذين سلبوه سلطته في فترات توليته السابقة، فقام باسناد

[1]. الخاصكية: هو لفظ مملوكي، مفرده الخاصكي. وهم المماليك الذين يختارهم السلطان من الأجلاب، ويكونوا صغار السن ويجعلهم في حرسه الخاص. وأُطلقَ عليهم هذا الاسم الخاص لأنهم يتميزون عن غيرهم حتى عن أكابر الأمراء بحضورهم على السلطان في أوقات خلواته وفراغه، ويكونوا في طرفي كل نهار في خدمة القصر والاسطبل، ويركبون مركوب السلطان ليلاً ونهاراً، ويتوجهون في المهمات الشريفة حاملين سيوفهم ومرتدين لباسهم المطرز المزركش، فيتأنقون ويتميزون في مركوبهم وملابسهم.(دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص66).

المهام الى اشخاص يناصرونه، وسعى الى تدريب الأمير سيف الدين تنكز وتعليمه أمور النيابة والأحكام ثم ولاّه نيابة دمشق عام 712هـ/ 1312م، فحلَّ مكان جمال الدين أقوش الأفرم ونزل بدار السعادة[1]، وكان أول أمير يقفز قفزة واحدة الى النيابة. وقد تمكن الأمير تنكز من أمور نيابته حيث استطاع عام 715هـ/1315م من السير بالعساكر الى ملطية وافتتحها، وعظم شأنه وعدَل واشتدت قسوة عقوبته حتى هابه الأمراء ونواب الشام ولم يتجرأوا على ظلم أحد خوفاً من قمعه وشدته.

وكان السلطان الناصر محمد على علاقة جيدة مع الأمير تنكز فولّاه جميع بلاد الشام وكتب الى كل من نواب حماة وحمص وطرابلس وصفد للرجوع إليه. وكان يستشيره في أمور دولته ويأخذ برأيه ولا يُرَدُ له مطلب بل يُوَقِعُ بالتواقيع السلطانية على قراراته بأمور النيابة أو الاقطاعات أو غير ذلك. حتى ازداد نفوذ تنكز خاصة أنه ارتبط مع السلطان الناصر محمد بعلاقة النسب والمصاهرة حيث تزوج السلطان من ابنة تنكز خوندة قطلوبنك وكانت من المقربات للسلطان. وتزوج ولديّ تنكز من بنات السلطان عام 739هـ/ 1339م. وكان يُكرمه كرماً زائداً عند زياراته وفي المناسبات، ويزيد في إكرامه وإنعامه كل مرَّة، فعظمت ثروته وازدادت أملاكه[2].

3.1.2 صفاته وألقابه:

اتصف الأمير تنكز ببياض البشرة المائلة الى السمرة قليلاً. وكان رشيق القامة، حسن الشكل مليح الشعر، خفيف اللحية وقليل الشيب.

كان مُغرماً بالصيد فيتوجه له مع العسكر عدة مرّات في السنة. كان متواضعاً لا عنده خديعة ولا مكر، ولم يتصف بحدة الذكاء فلم ينظر الى عواقب الأمور، وكان لا يحتمل على الأذى ولا يداري عن خطأ حتى ولو للأمراء فكان صارماً وشديداً، إلا أنَّ ذلك كان مُرحباً به من قِبَلْ الكثيرين، فلم يتمكن أحد في ولايته من ظلم أحد. كان الناس في أيامه قد أمِنوا كل سوء فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وأزال المظالم وقمع الفساد وولّى الوظائف لمن هو أهلٌ لها، وأنعم الرتب لمن يستحقها، فكان يعطي الطبلخانات والتقادم[3] والإقطاعات والنيابات والوظائف الدينية من القضاة

---

[1]. دار السعادة: دار بمعنى ممسك وهي لفظ فارسي. كانت تقع غربي التكية الأحمدية (جامع الأحمدية) في سوق الحميدية بدمشق، وكانت داراً للملك الأمجد الأيوبي صاحب بعلبك، ثم امتلكها الملك الأشرف. وفي العهد المملوكي أصبحت مقراً لنواب دمشق، فانتقل هذا الاسم من دمشق الى بقية الممالك المملوكية، بحيث بات في كل من القاهرة وحمص وحماة وحلب دار السعادة. وقد انتقل هذا الاسم في العهد العثماني الى بلاد الأتراك بحيث سُميت بعض قصور السلاطين بدار السعادة. (دهمان، معجم الألفاظ التاريخية، ص72).

[2]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص251؛ بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج9، ص327؛ اليوسفي، نزهة الناظر، ص113؛ الحجي، صور من الحضارة العربية الاسلامية، ص25 حاشية (3).

[3]. التقادم: جمع تقدمة وهي الرتبة العسكرية التي ينالها المقدم، ومنها مقدم الألوف الذي يتولى قيادة ألف عسكري، ومقدم الجيش الذي يتولى أمرة الجيش. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص232 حاشية4).

والخطابة ونظر الجامع[1] والحسبة[2] وأنظار المباشرات الدينية[3]، دون أنْ يأخذ مقابلها مالاً أو رشوة. وكان مقصده الحق والعمل به ونصرة الشرع وايصال الحق الى مستحقه، فعدل بين رعاياه وأكرمهم حتى أنَّ أموالهم كانت موفرة عليهم فشهدوا في أيامه الأمن والعفة والحياة الكريمة والعدل ووفرة المال والبضائع والحاجات. وكان له اهتمام بالعلم والتعمير فكان يوقر الفضلاء لعلمهم، ويرعى أمور دينه من الصلاة والزكاة والدعاء، حتى صار أعظم رجل في الدولة بعد السلطان وأعدل أمير من أمراء عصره[4].

أما ألقابه فقد عُرِفَ بالأشرفي نسبة الى الملك الأشرف خليل بن قلاوون، كما عُرِفَ بالحسامي نسبة الى السلطان حسام الدين لاجين، كما وعُرِفَ بالناصري نسبة الى الملك الناصر محمد بن قلاوون.

وقد تَلَقَبَ بالأمير الكبير المُهيب العادل الفريد، والعالم وذلك لأنه سمع صحيح البخاري من ابن شحنة الدمشقي، كما سمع كتاب الآثار للطحاوي وصحيح مسلم وسمع من عيسى المطعم وأبي بكر ابن عبد الدايم، وقرأ عليه أحد المحدثين ثلاثيات البخاري بالمدينة المنورة.

كما وحظي بألقاب كالأتابكي والزاهدي والعابدي، التي كان يُنْعِم عليه السلطان الناصر محمد بها. أما النعوت فقد قيل عنه" معز الاسلام والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين"، وهذا نعت لم يحظَ به أي من النواب أو غيرهم على اختلاف مراتبهم ومناصبهم من قِبَلْ السلطان.

ولعلو منزلته وصفاته الحسنة وأملاكه المتزايدة فقد كُتِبَ له: " أعزَّ الله أنصار المقرّ الكريم العالي الأميري"، وأيضاً "المقرّ الشريف العالي المولوي الأمير الكبيري الغازي المجاهدي الملكي المخدومي السيفي سيف الدنيا والدين عزَّ نصره"[5].

---

[1] . نظر الجامع: ومتوليها الناظر الذي يكون مسؤولاً عن الأموال ويتصرف بها ويكون محاسباً عليها. وناظر الجامع الأموي يكون مسؤولاً عن أوقاف الجامع ووجوه الصرف وأرزاق المستخدمين فيه.(الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية1).

[2]. الحسبة: يقوم بها المحتسب وعمله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحدث بأمر المكاييل والموازين والعيار، فيكون مسؤولاً عن أمور الأسواق. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية2).

[3]. أنظار المباشرات الدينية: أي نظر ديوان الصدقات والأوصياء والأيتام والحرمين والمدارس. (الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص233 حاشية3).

[4]. الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص251 ص253؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص420؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص510–511؛ الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، ج1، ص448–449 ص451–452؛ دهمان، ولاة دمشق في عهد المماليك، ص166–167؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2،ص232–233.

[5]. دهمان، المصدر السابق، ص156ص174؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص420–421؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص252.

3.1.3 أهم أعماله وأملاكه:

لقد كانت المدة التي أقام بها الأمير سيف الدين تنكز نائباً على دمشق والممتدة لفترة 28 سنة مدة طويلة، جعلت البلاد تنعم بحالة من الاستقرار خاصة أنه لم يحصل في زمنه غارات من قِبَلْ التتار أو فتن داخلية، وذلك بأنَّه قد عُنِيَ بأمور نيابته واهتم بإنصاف رعاياه وإزالة الظلم والفحش، وكان يتفقد أحوال الرعية متخفياً ليلاً، ثمَّ يُشير بما يجب عمله واصلاحه. وقد اهتم بالأمور الداخلية فمنع شُرب الخمر حتى للأمراء أو أولادهم، وأنزل عقوبة بالغة لمن يُخالف هذا الأمر، فتعذر وجود الخمر في أيامه. كما لم يُقْدِم على أخذ الهدايا إنما أغدق على الناس بالمال وصرفه للفقراء والمحتاجين وأرباب البيوت. ومنع الأمراء من استغلال الفلاحين والمزارعين في أعمالهم كما اهتم بإصلاحات المدينة، فجدَّدَ قنوات المياه وتم تنظيفها وإعادة استخدامها مما قلل من انتشار الأوبئة والأمراض. وأمر بهدم الأملاك التي استجدها الناس فضيَّقوا بها الشوارع والطرق العامة، فوسَّعَ الطرق ورصفها وسهلها لراحة الناس. كما عُنِيَ بالأوقاف الاسلامية فعمَّرها وأمر بعدم صرف ريعها لمستحقيها حتى تكتمل عمارتها، واهتم بالأسرى وأكثرمن تحرير رقابهم حتى أنه أنعم على التجار بالأرباح الوفيرة لمن يفك أَسْرَهُمْ ويدفع المال الى آسريهم. وازدهر العمران في دمشق في هذه الفترة ازدهاراً بارزاً وطغى على العديد من أعمال غيره من النواب الذين كانت مدة حكمهم قصيرة نسبياً، فأُنشأت العديد من الأبنية في أنحاء المدينة وتوسعت أرجاؤها وأُنشأت عدة أحياء وحارات خارج سور دمشق. وقد جَهِدَ تنكز في كل عملٍ ينفعُ دمشق ويوفر الراحة لأهلها فأحبوه وأكثروا من الدعاء له.

وقد أنشأ العديد من الأبنية الفخمة من مدارس وجوامع وحمّامات وقياسر وخوانق وربط وزوايا، ومنها الجامع المعروف باسمه" جامع تنكز" بحكر السماق[1] بدمشق ويُعد أحد الجوامع الثمانية العظيمة في دمشق، تمَّ بناءه عام 717هـ –718هـ، وله منارة مملوكية وفيه روائع فنية، والى جانبه أنشأ تربة وحمّاماً، كما عمَّرَ تربة لزوجته الست ستيتة بنت الأمير سيف الدين عمر الكوكبائي وتشتمل على أربعة أقسام وهي قبة للدفن ومسجد للصلاة ومكتب للأيتام ورباط للنساء، وعمَّرَ داراً للقرآن بجانب داره دار الذهب عُرِفَت بدار القرآن والحديث التنكزية وهي الآن معروفة بالمدرسة الكاملية. وقد عمَّرَ قلعة جعبر[2] التي تقع على حدود بلاد الشام وبلاد التتار بعد

---

[1]. حكر السماق: وهو مكان بدمشق عُرِفَ بشارع جمال باشا، يمتد من أول سوق الحميدية الغربي وباب القلعة الغربي الى محطة الحجاز غرباً، ويُعرف حالياً بشارع النصر.(الصفدي، تحفة ذوي الألباب،قسم 2، ص239 حاشية1).

[2]. جعبر: هي بلدة صغيرة في سوريا وقلعة بين الرقة وبالس، قرب صفين. عُرِفَتْ قديماً باسم دوسر، ثم عُرِفَتْ باسم جعبر نسبة الى أعرابي أعمى من بني قشير اسمه جعبر بن مالك ، وكان يقطع الطريق ويلتجأ إليها وقد استولى عليها. ثمَ صارت الى عدد من السلاطين أولهم السلطان ملك شاه السلجوقي الذي أخذها من جعبر بن مالك وتبعاً سلاطين آخرين، حتى تملكها الملك العادل الأيوبي (أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي)، لاحقاً دمرها هولاكو بعد فتحه بغداد وبقيت بذلك خراباً الى أيام الأمير تنكز، الذي قام بتعميرها.(دهمان، ولاة دمشق، ص158–160).

أنْ دمرها هولاكو وبقيت خراباً فشحنها بالرجال والسلاح والذخائر، وتُعَدُ عمارتها من أعظم الأعمال الكبيرة التي قام بها الأمير تنكز.

كما أنه قد قام بالعديد من الأعمال الخيرية في فسطين، ففي القدس أنشأ مدرسة وداراً للحديث وخانقاة ورباطاً وحمامين وخاناً وسوقاً أوقفه على المسجد الأقصى وساق الماء الى ساحة المسجد الأقصى. وأنشأ جامعاً بنابلس وبيمارستاناً بصفد، كما أنشأ جامعاً بعجلون وله في سائر بلاد الشام عمائر وآثار عديدة[1]. وزادت أمواله وعظُمَتْ أملاكه المنتشرة في عدة مناطق، فله في دمشق قصور وأبنية فخمة من أهمها دار الذهب القديمة والجديدة وهي الدار التي أقام بها، وله قصر خارج دمشق بالقطائع، وله دار فخمة وحمام بجانب جامعه الكبير جامع تنكز بدمشق، وله دور أخرى مثل دار الزمرد ودار الزردكاش كما له عدة حمّامات بدمشق أمثال حمّام القابون وحمّام العمري وله بساتين وحدائق وجنان عديدة كبستان العادل وبستان الرزاز وجنينة وبستان غيث وله العديد من العقارات الاخرى كالخانات والاسطبلات والحوانيت والأفران. كما وله أملاك اخرى عديدة في حمص وبيروت والبقاع، كالدور والحمّامات والاسطبلات والحوانيت والبساتين والقصور والطواحين والقرى. كما كان له أملاك خارج دمشق كصفد وعجلون والقدس ونابلس والرملة وجلجولية ومصر، فله في القاهرة بحي الكافوري داره العظيمة المعروفة به واسطبل وحمّام وحوانيت. هذا الى جانب ممتلكاته من المماليك والجواري والخيول والدواب والجواهر والذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة والقماش والثياب الفاخرة والأثاث. فَتُعَدُ ثروته ثروة عظيمة، إلا أنَّ قيمة ما تركه الأمير تنكز من أموال وأملاك لم يختص بها وحده إنما تنعَّم العشرات غيره من الأمراء بمثل قيمة هذا المال. ولكن الذي اختص به عن غيره وكان صفة حسنة هو أنه كان له كاتب خاص، مهمته الأساسية والوحيدة هو تسجيل ما عند الأمير من أموال على مدار العام، وعندما يمر العام يُخْرِج زكاتها لذوي الحاجة، أما الأمراء الآخرين فلم يتصفوا بهذه الخصلة الحميدة[2].

ولهذا فقد نَعُمَ الأمير تنكز بالحياة الرغيدة التي عصبها المال الوفير والأملاك الطائلة كما وأنه بمقدرته وحرصه على العدل في ذات الوقت استطاع توفير الراحة للناس وعاشوا في فترة نيابته حياة مستقرة.

---

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص157 ص165–166 ص172؛ المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص510–512؛ الكتبي، فوات الوفيات، مج1،ص252؛ الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص451؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ط1، ص133 ص144.

[2]. دهمان، المصدر السابق، ص167 ص176–179؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص429–432؛ المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ الصفدي، أعيان العصر، ج1، ص458.

3.1.4 وفاته وما قيل فيه:

بما أنَّ الأمير تنكز لم يوصف بحدة الذكاء فإنه لم ينظر الى عواقب الأمور وأغفل عنها، ولم يعتبر بعقوبة مَنْ تَقَدَمَ غيره من النواب والأمراء وما آل إليه حالهم من قتلٍ و نفيٍ ومصادرة أموالهم وأملاكهم، بسبب غضب أي من السلاطين عليهم. فاطمأن للسلطة اللامحدودة التي منحها إليه السلطان الناصر محمد، ومارس قوته وسعة نفوذه مرتكزاً على علو شأنه وماله وجاهه ومكانته العظيمة والمتميزة عند السلطان، فأصبح غير مبالٍ بما يصدر عنه من قول أو فعل، وغافلاً عن المتربصين له الذين يوشون به وينقلون عنه الأخبار للسلطان ، ويحيكون حوله المؤامرات.

ولقد كان السلطان الناصر محمد بدوره كثير الشك وتباينت سياسته إزاء كبار رجال دولته، حتى أعوانه المقربين الذين ما يلبث أنْ يرفع من شأنهم حتى يسعى الى التخلص منهم، وذلك خشية منه على سلطانه من قوتهم وهيبتهم وخوفاً من تكرار ما حلَّ به في سلطته الأولى والثانية. فكان لذلك إنْ أراد التخلص من أحدهم حقد عليه ولكنه يُظْهِر له الحُبَّ والاحترام ويصبر عليه حتى ولو لفترة طويلة، إلى أنْ تأتي الفرصة المناسبة له لتنفيذ مبتغاه[1].

وهذا ما قد حصل مع الأمير تنكز، فبعد تقربه منه واعتماده عليه ومصاهرته، تغير حاله وأصبح يكن له البغض ويتربص له وصمّمَ على الامساك به، وكان لسبب هذا التحول عدة أحداث منها:
أنَّ الأمير تنكز لم يأبه في بعض الأحيان لمطالب السلطان الناصر محمد، وإنما تمسك برأيه، وهذا ما قد حصل في حادثة عندما غضب تنكز على جماعة من مماليكه وسجنهم، فكتب له السلطان يتشفع لأحد من المماليك ولكنه لم يُجِبه لمطلبه، فغضب عليه السلطان خاصة وأنه قد بعث إليه عدة مرّات لشفاعة المملوك ولكنه ردَّ له أمره.

وفي حادثة اخرى حين بعث نائب بلاد الروم رسولاً يحمل رسالة الى الملك الناصر محمد ولم يبعث بواحدة الى الأمير تنكز، فعدَّ ذلك تنكز إهانة له وردَّ الرسول من دمشق. وحين علِمَ السلطان بذلك لم يعجبه، وعدَّه تدخلاً بأموره من قِبَلِ تنكز وتعدياً على شؤونه وحجزاً لحريته، حيث اعتبره أنه يريد الاطلاع على كل شأن من شؤون المَلِكْ.

ومن الأمور الاخرى التي أثرت في السلطان وجعلته عازماً على الامساك بالأمير تنكز، أنَّ الأخير استأذن من السلطان للسفرالى ناحية جعبر، فردَّ عليه بالمنع تكراراً، فغضب تنكز وتفوه بكلام تم نقله الى السلطان الذي تأثَّر بهذا الكلام وأخذ يبني عليه التخيلات.

---

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص161.

كما أنَّ الأمير تنكز قد عزم على التوجه الى بلاد التتار وعلم أهل دمشق بذلك، فنقل أحدهم بعض الكلام الى السلطان الناصر وقد حرَّف به، فتغير السلطان تغيراً عظيماً[1]. بعدها شَعَرَ تنكز بتغير حال السلطان تجاهه، فعزم لاحقاً على أنْ يخرج محملاً أمواله الى قلعة جعبر بحجة الصيد. ولكن أمر الفساد والتربص به وبأعماله وبأقواله منعته من ذلك، حين علم السلطان بنيته اللجوء الى قلعة جعبر. فأمر بإرسال حملة عسكرية من الأمراء والنواب والمماليك للقبض على الأمير تنكز وذلك لخروجه عن طاعة السلطان. وتم تجهيز الاستعدادات للإحاطة بالأمير الذي علم بالأمر فدخل الى دار السعادة وحاول تجهيز نفسه ومماليكه للدفاع، لكن بوصول الأمير سيف الدين طشتمر نائب صفد الى دمشق ومعه عدداً وفيراً من الجنود والأمراء، تم تبليغ الأمير تنكز مرسوم السلطان بالقبض عليه. ولعلمه بأنَّ الفوضى قد عمَّتْ في دمشق وبأنَّ الناس ينهبون، آثَرَ إخماد الفتنة وعدم إشهار السلاح، فخرج إليهم مستسلماً وأُخذ سيفه وقُيد خلف مسجد القدم، وكان ذلك في عام 740هـ/1340م. ففرح السلطان لخبرالقبض عليه بسهولة ظناً منه بأنَ هذا الشأن سيكون صعباً وقد شَكَلَ له قبلاً قلقاً شديداً[2].

بقي تنكز مسجوناً الى أنْ تم نقله الى القاهرة عام 741هـ/ 1340م وهو مريض وأُنزل بمكان ضيق بقلعة الجبل، ثمَّ بعث له السلطان بتهديد ليعترف بأمواله، ولكنه نفى بأن يكون لديه أموال وأنَّ ما لديه سوى وديعة للأيتام وأنكر أنه قد خرج عن الطاعة فأمر السلطان بإرساله الى الاسكندرية واعتقل فيها نحو الشهر، ثمَّ تمَّ قتله خنقاً أو سمَّاً على يد المُقدم ابراهيم بن صابر، كما قيل بأنه لمّا عَلِمَ باستخراج ودائعه وأخذِ أمواله، حصل له غيظ عظيم فأصابته حُمى شديدة وتوفي من أثر ذلك، وكان ذلك في منتصف محرم عام 741هـ/ 1341م، وتم دفنه في الاسكندرية وقد جاوز الستين من العمر. الى أنْ مات السلطان الناصر محمد بن قلاوون فنُقِلَ تنكز في تابوت الى دمشق عام 744هـ/ 1344م، ودُفن في تربته التي عمّرها بجانب جامعه، وقد تبعثرت أمواله بعد وفاته لكن دون أنْ يؤثر ذلك على أوقافه[3].

لقد أسِفَ أهل الاسكندرية ودمشق لموت تنكز، وحزنوا حزناً شديداً لأنه كان رجلاً كريماً عادلاً يُقيم حدود الله والصلاة والزكاة، إلا أنَّه في آخر عهده قد تغير حاله وتقلَّبَ سلوكه فبطش بين الناس واتخذ الأملاك وأخذ عدة أوقاف من أبناء الملوك، واستخدم الفلاحين لخدمته وقطع الزكاة، وظلم حيث بالغ في العقوبة وأخرج أناس من دمشق وساء خلقه كثيراً. وقد يعود ذلك الأمر لصفته

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2 قسم2، ص509؛ دهمان، ولاة دمشق، ص161 ص163.

[2]. الكتبي، فوات الوفيات، مج1، ص254-255؛ الصفدي، أعيان العصر، ص452-453؛ دهمان، المصدر السابق، ص163-165.

[3]. المقريزي، المواعظ والاعتبار، ج2، ص54؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص187-188؛ النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، قسم1، ص126؛ الصفدي، المصدر السابق، ص454-455؛ دهمان، المصدر السابق، ص165.

الملازمة له بأنه كان يتخيل خيالاً ويشتد غضبه كثيراً بحيث لا يقدر أحد على مجابهته أو الحديث معه[1].

وبالرغم من ذلك فإنَّ ما وفره الأمير تنكز لأهل دمشق خاصة وبلاد الشام عامة من حالة استقرار وازدهار وحياة كريمة، جعل الكثيرين يكتبون عنه ويُطروه ويترجموا له تراجم طويلة. فمن الأشعارالتي قيلت فيه حين قال صلاح الدين الصفدي في أبيات شعره، يصف حال أيام نيابة الأمير تنكز وصفاً شاملاً، فيقول:

ثم أتى مَنْ كان نِعْمَ النائبْ تَنْكِزُ جادَتْ قَبْرَه السَّحائبْ
فَنَشَر العَدْلَ بها والحُرمَهْ فانْتَعَشَتْ به وكانَتْ رُمّه
واتصلتْ أيامه وامتدّتْ وأَدْبَرتْ نُحُوسُها وارْتَدَّتْ
وأمّنَ البلادَ والعِبادا كأنّما أيامُه أعيادا
وسارَتِ القُفُولُ في الأقطارِ آمنةٌ من سائر الأخطارِ
بِهَيْبَةٍ تُراعُ منها الأُسْدُ وعِفّةٍ ما مثلُها تُحّدُ
وعَمّر الجامعَ والمدارسَ وكلَّ وقفٍ كان قبلُ دارسا
وجدَّد القُنِيَّ حتى نَظُفَتْ ورَسَتِ الأَقذارُ بعد ما طَفَتْ
ووسَّع الطريقَ في الأسواق فأصبحت نهاية الأشواق
وطارَ عنه الصِّيْتُ ما بينَ التترْ حتى استلانَ عَزْمُهُم ثم فَتَر
وقطع الفراتَ ثم اصطادا هناكَ أياماً وكم أعادا[2]

كما قال عند وفاة الأمير تنكز:

فكأنه برقٌ تألَّقَ بالحمى ثمَّ انطوى فَكأنه لمْ يلمعِ

كما قال فيه عند نقل تابوته من الاسكندرية الى دمشق:

إلى دِمَشْق نقلوا تنكزاً فَيَا لَهَا مِنْ آيةٍ ظاهرة
في جَنَّةِ الدُّنْيَا لَهُ جُثَّةٌ ونَفْسُهُ في جَنَّةِ الآخِرَة

كما قال أيضاً لنفس الحدث:

في نَقْلِ تَنْكِزَ سِرٌّ أَرَادَهُ الله رَبُّهْ
أتى بِهِ نَحْو أرض يُحِبُّهَا وَتُحِبُّهْ

---

[1]. المقريزي، السلوك، ج2قسم2 ص512.

[2]. الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص229-230.

وقد قال فيه عندما قُبِضَ عليه أبيات منها الآتية:

تَنَكَّـــرَ يَـــومَ تَـــنْكِزَ كُـــلُّ عُـــرْفٍ وسَـــامَ الـــذُلُّ فينَـــا كُـــلَّ سَـــامِ
وَمَـــالَ إلـــى المَنِيَّـــةِ كُـــلُّ مَـــوْلَى وَحَـــام عَلَـــى الرَّزِيَّـــةِ كُـــلُّ حَـــامِ
وَأَذْهَـــلَ يَـــوْمُه الألبـــابَ حَتَّـــى كأنَّـــا فِيـــهِ صَـــرْعَى بِالـمُـــدَامِ
بَكَيْـــتُ دِمَشْـــقَ لَـــمَّا غَـــابَ عَنهَـــا وأوحـــشَ أفـــقها بـــدرُ التَّمَـــامِ
فَيَـــا تَمْزِيـــق شَـــمْل العـــدلِ فِينَـــا ويَـــا تَفْرِيـــق ذاك الإنْتِـظَـــامِ
ويَـــا لِمُصِـــيبَةٍ بدِمَشْـــقَ حَلّـــتْ شَـــدَائِدُهَا بِأَحْـــدَاثٍ عِظَـــامِ
فَكَـــمْ مِـــنْ مُقْلَـــةٍ لِلحُـــزْنِ تَجْـــرِي مَـــدَامِعُهَا بِأَرْبَعَـــةٍ سِـــجَامِ
رَعَـــاهُ اللهُ مِـــنْ رَاعٍ أَمِـــينٍ أَنَـــامَ بِعَدْلِـــهِ عَـــيْنَ الأَنَـــامِ
وكَـــفَّ حَـــوَادِثَ الأَيَّـــامِ عَـــنْهُمْ فَلَـــمْ تَطْـــرق حِماهـــم بِانْتِقَـــامِ

وأيضاً في نفس القصيدة الأبيات التالية وتُبين حكم الأمير تنكز العادل:

ولِيـــتَ فَلَـــمْ تَخُـــنْ للهِ عَـــهدَاً ولَـــمْ تَجْـــذُبْكَ فِيـــهِ عُـــرَى المَـــلامِ
حَاشَـــا أن يـــراك الله يومـــاً تَعَـــدَّيْتَ الحَـــلالَ إلَـــى الحَـــرَام
وَنِلْـــتَ مِـــنَ السَّـــعَادَة وَالمَعَـــالي منَـــالاً حَـــازَ غَايَـــاتِ المَـــرَامِ
وَكُنْـــتَ تُحِـــبُّ نُـــورَ الـــدِّينِ طَبْعـــاً لأَنَّكُمَـــا سَـــوَاء فـــي الْتِـــزامِ
رَعَيْـــتَ كمَـــا رَعَـــى وَحَمَيْـــتَ مَـــا قَـــدْ حَمَـــى نَفْـــدِيكَ مِـــنْ رَاعٍ وَحَـــامِ
وَكُنْـــتَ إذَا دَجَـــا لَيْـــلُ القَضَـــايَا وَكَانَـــتْ مِـــنْ مُهِمَّـــاتٍ جِسَـــامِ
تُفَرِّجُهَـــا بِقَـــوْلٍ مِـــنْكَ فَصْـــلٍ لأَنَّ القَـــوْلَ مـــا قَالَـــتْ حَـــذَامِ[1]

وعندما ولى الأمير الطنبغا الصالحي نيابة الشام بعد الأمير تنكز، قال الشيخ صلاح الدين الصفدي عام 745هـ/ 1344م أبياتاً منها:

ألا هَـلْ لُيَـيْلاتٌ تقضَّـتْ عَلـى الحِـمى تَعُـودُ بِوَصْـلٍ للسُّـرورِ مُـنَجِّـزِ
لَيَـالٍ إذا رَامَ المُبَـالِغُ وَصْفَـها يُشَـبِّهُها حُسْنَـاً بأيـام تَـنْكِـزِ[2]

وبهذه الأبيات الشعرية التي وُصِفَ بها الأمير تنكز يتبين لنا ما تحلى به من صفات حميدة وأعمال صالحة وانجازات مميزة، استحق على اساسها التقدير والموالاة. وما قد تميزت به أيضاً فترة نيابته الطويلة من تحقيق أمجاد عسكرية وحياة اجتماعية مستقرة للعامة ومنارات علمية تشهد لها عمائره المتميزة والمنتشرة في مختلف المدن، مما جعله أيقونة لامعة بين نواب عصره.

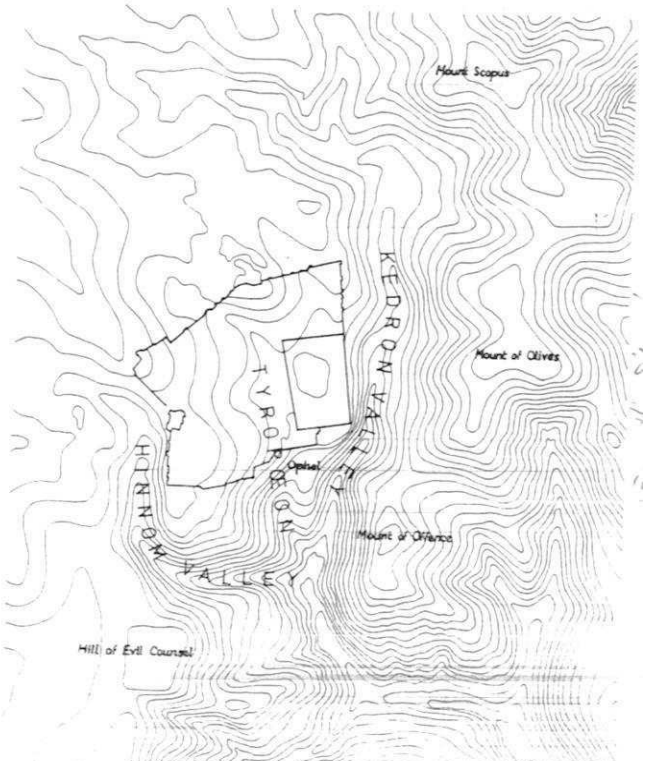
---

[1]. الصفدي، الوافي بالوفيات، ج10، ص432-435.

[2]. بن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج9، ص327؛ الصفدي، تحفة ذوي الألباب، قسم2، ص244.

3.2 انجازات الأمير تنكز المعمارية:

من خلال الحديث عن حياة الأمير تنكز وبعد التطرق الى جوانب مختلفة سياسية وثقافية في مدينة القدس، نستطيع أنْ نؤكد على أهمية الفترة الواقعة ما بين 712–740هـ/ 1312–1340م؛ وهي الفترة التي تولى بها الأمير تنكز نيابة بلاد الشام، وما كان له من دورٍ بارزٍ في تطور النسيج الحضري لمدينة القدس من خلال انجازاته المعمارية. وقد شكلت هذه المنشآت المميَّزة جزءاً اساسياً في عمارة مدينة القدس، مما يدفعنا لدراسة التخطيط الحضري للمنطقة وتبيان اهمية المجمع المعماري للأمير تنكز في المدينة؛ فكيف حقق بناء هذا الصرح المعماري في الجهة الغربية من الحرم القدسي، والمتمركز ما بين منطقة سوق القطانين شمالاً ومنطقة حارة المغاربة جنوباً. وما كانت عليه معطيات المكان قبل بناءه وما الدوافع وراء اختيار هذا المكان، وكيف استطاع هندسة وربط هذه العمائر والتي تمثلت بالمدرسة التنكزية، ورباط النساء، ومأذنة باب السلسلة، والسقاية أو المطهرة، وسوق القطانين، وخان تنكز، وحمَّاميّ الشفا والعين لتُشكل مجمعاً معمارياً ضخماً.



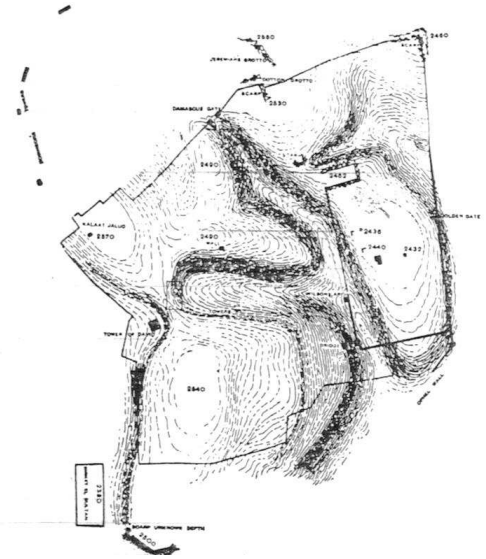
مخطط رقم 1 أ. الخطوط الكنتورية لمدينة القدس القديمة ومحيطها من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 40, fig. 3

فبشكل عام كان امتداد تطور البناء في مدينة القدس باتجاه الناحيتين الشمالية والغربية للمدينة، وذلك لوقوعها على اعلى تلة وطوبوغرافية المنطقة المحددة بتلال ووديان خاصة من الناحيتين الشرقية والجنوبية (مخطط رقم1 أ، ب). ويمتد أُخدود باتجاه الشمال الغربي، ومنفصل من الشمال الى الجنوب بوادٍ غير عميق عُرِفَ بوادي الطواحين (في الفترة المملوكية) أو طريق الواد[1]، كما عرَّفَه مجيرالدين الحنبلي بالشارع الأعظم[2] (مخطط رقم2). ويُعتبر هذا الطريق أحد الطرق الرئيسية في مخطط المدينة؛ حيث أنه الطريق الأقرب الى منطقة الحرم من الناحية الغربية والواصل من الجهة الشمالية للمدينة من باب العمود او باب دمشق، حيث كان الخط الرئيسي للحجاج القادمين من منطقة

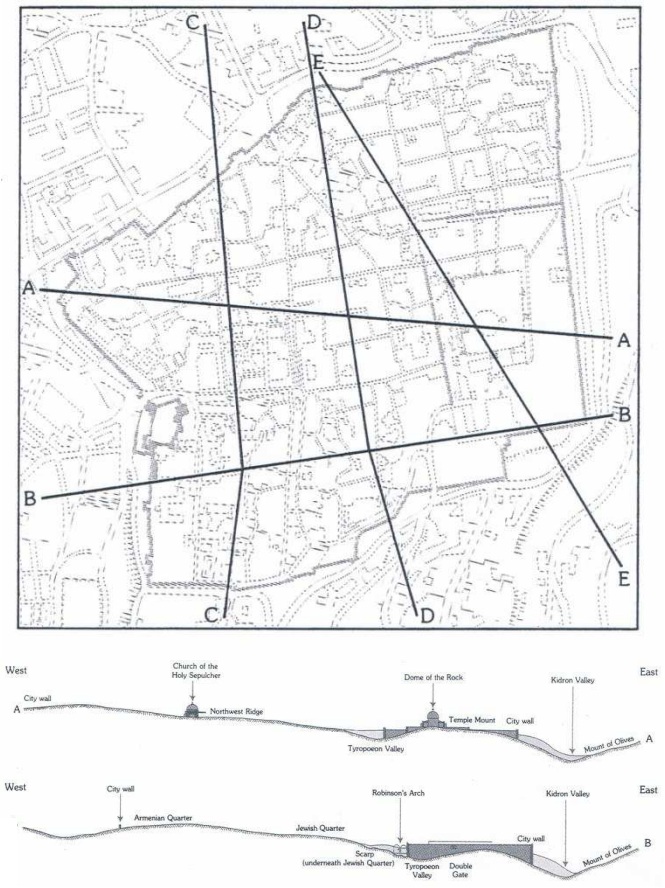
[1] Wilson and Warren,The Recovery of Jerusalem, pp. 5-6; Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 40

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص404.

الساحل الفلسطيني من الرملة، واللطرون، والقبيبة وغيرها الى القدس[1]. وقد شكل مصباً للطريق الوحيد المتجه من باب الأسباط باتجاه المدينة، كما ويتعامد هذا الطريق مع المحور الرئيسي الذي يصل بين قلعة داوود في الجهة الغربية عند باب الخليل



مخطط رقم 2 الخطوط الكنتورية للقدس القديمة
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 78, fig. 4



مخطط رقم 1 ب. مقاطع A-A و B-B
من Bahat, Illustrated Atlas, 15

أو باب يافا وبين منطقة الحرم عند باب السلسلة[2] والمعروف بطريق باب السلسلة[3]. والذي قد شكَّل أحد الخطين الرئيسيين في مخطط شبكة الطرق في الفترة الرومانية، واستمر هذا المحور كشريان رئيسي في المدينة عبر العصور المختلفة. كما ووصفه الحنبلي بأنَّه الشارع الأعظم أيضاً لأهميته، حيث يتم الخروج اليه من أهم أبواب المسجد (وهما باب السلسلة وباب السكينة) الى معظم أسواق

[1] .Prawer, Jerusalem in Crusader Days, p. 104

[2]. باب السلسلة: له عدة اسماء حيث عُرف قديماً بباب داوود(الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 383) وعُرف بالفترة المملوكية بباب السَحَرة (العمري، مسالك الأبصار،ج1،ص 163) وكما عُرف بالفترة الصليبية بِـ'Porta Speciosa 'The beautiful gate (Hawari, Ayyubid Jerusalem, p.74 ؛Prawer, Jerusalem in Crusader Days, p.103).

[3]. لقد عرَّفَ مجيرالدين الحنبلي طريق باب السلسلة بخط داوود وذلك كما ذكر بأنَّ سيدنا داوود كان له سرداب تحت الأرض معقود بالأقبية المحكمة البناء يمشي فيه من منزله بالقلعة التي عُرِفت قديماً بمحراب داوود الى باب السلسلة الذي عُرف قديماً بباب داوود (الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص403)؛ Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 203

البلدة وشوارعها[1]. وقد اعتُبر باب السلسلة الباب الأهم تجارياً وحضارياً في تلك الفترة بين المواقع الاخرى (مخطط رقم3).



مخطط رقم 3 مدينة القدس القديمة

من الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي الفرنجي، 474.

وبالتالي فإنَّ نقطة التقاء طريق الواد مع طريق باب السلسلة والتي شكَّلت مصبَّاً رئيسياً للوافدين الى منطقة الحرم، من الحجاج أو التجار أو اهل المدينة أو الزائرين، من جميع اتجاهات المدينة، قد شكَّلت منطقة جَذْبْ للأمير تنكز لتنفيذ مخططه الشامل. كما أنَّ وجود الأبنية القائمة في الناحية الشمالية والشمالية الغربية لمنطقة الحرم القدسي والتي قد تمَّ استغلال معظم هذه المنطقة للتطور العمراني من فترات سابقة، لتلائم منسوبها نسبياً مع منسوب ساحة الحرم[2]، قد دفع الأمير الى اختيار هذا الموقع في الناحية الغربية لقربه من منطقة الحرم ولاتساع مساحته، خاصة وأنَّ هذه المنطقة كانت فارغة من أية منشأة معمارية، فقط ما بقي من انقاض آثار معمارية هُدمت من

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص 383ص403 .

[2] .Rosovsky, City of The Great King, p. 399 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 78-80

فترات سابقة، مما شكَّل مساحة كافية لتنفيذ كامل المخطط في حدود منطقة واحدة. وبعد الدراسة والتحليل للمنطقة المحيطة بالحرم القدسي، وبالاطلاع على المخططات الخاصة بمنشآت الأمير تنكز وغيرها من المنشآت المجاورة، تُبين اهمية اختياره للموقع لاقامة منطقة خدمات متكاملة يحقق من خلالها مكانة اقتصادية وخيرية واجتماعية لمدينة القدس. فإنه من خلال متابعة التسلسُل الزمني للأعمال المعمارية للأمير تنكز، يتبين بأنَّ المدة التي قام الأمير بتشييد عمائره الواقعة في حدود منطقة الدراسة والواقعة ما بين 728–737هـ/ 1327–1337م تُعتبر مدة قصيرة نسبياً (وهي حوالي التسع سنوات) بالنسبة لعدد وحجم انجازاته، مما يُظهر إصراره وعزمه على إحياء المنطقة وربط المباني ببعضها البعض وتخصيص حيز في نطاق مساحة منطقة الحرم الشريف تقترن به اعمال تنكز، من اجل نيل فضائل عمل الخير في مدينة القدس لما لهذا الأمر من اهمية لدى حكام المماليك لمضاعفة الأجرعند الله تعالى.

وإنَّ اختيار الأمير تنكز لهذا الموقع في الجهة الغربية من الحرم لم يأتِ بمحض الصدفة، إنما كان هناك اعتبارات ومعايير لابدَّ وقد تمَّ أخذها بعين الاعتبار لإعادة تخطيط هذه المنطقة والتي كانت بداية تطورها بالمدرسة التنكزية، والتي قد شرع بتعميرها في عام 728هـ/ 1327م. فمع وجود آثار ابنية سابقة من فترات زمنية ماضية في موقع المدرسة ومحيطها قد سهَّلَ استغلال هذه المساحة واعادة تعميرها. فإنَّ المدرسة التنكزية تقع على بركة عُرفت ببركة البراق ويقع فوق البركة قبو سليماني قد استغله الأمير تنكز وجدده عند تعميره المدرسة. ويُعرف هذا القوس حالياً بقوس ويلسون، ويقع تحت الجانب الشرقي للمدرسة[1]. ولتوفير المياه للاستخدام داخل المدرسة فقد استُغِلت مياه البركة التي فُضِّلَ اهل المدرسة أولاً لاستخدامها ثم ما يحتاج اليه في حمامي الشفا والعين ثم بقية عامة الناس[2]. كما ويقع تحت حائط المدرسة القبلي مجموعة أقباء رومانية عُرفت قديماً باسطبلات الداوية[3] (مخطط رقم 4 أ، ب، ج، د)، وقد تمَّ استغلال هذه المنطقة عبر العصور المختلفة، ولكن مع حدوث الزلزال المدمِّر عام 702هـ/ 1303م في فترة الحكم المملوكي للبلاد، اثَّر على المنطقة وأدى الى دمار في الأبنية[4]، فأصبحت المنطقة ذات انقاض معمارية. مما حفَّزَ الأمير تنكز على اعادة هيكلية المنطقة بايجاد مزيج من أرض ممهدة للبناء بأساسات موجودة وبقايا آثار معمارية يُمكن استغلالها ودمجها مع اتجاه الأمير في هندسة مجمعه

---

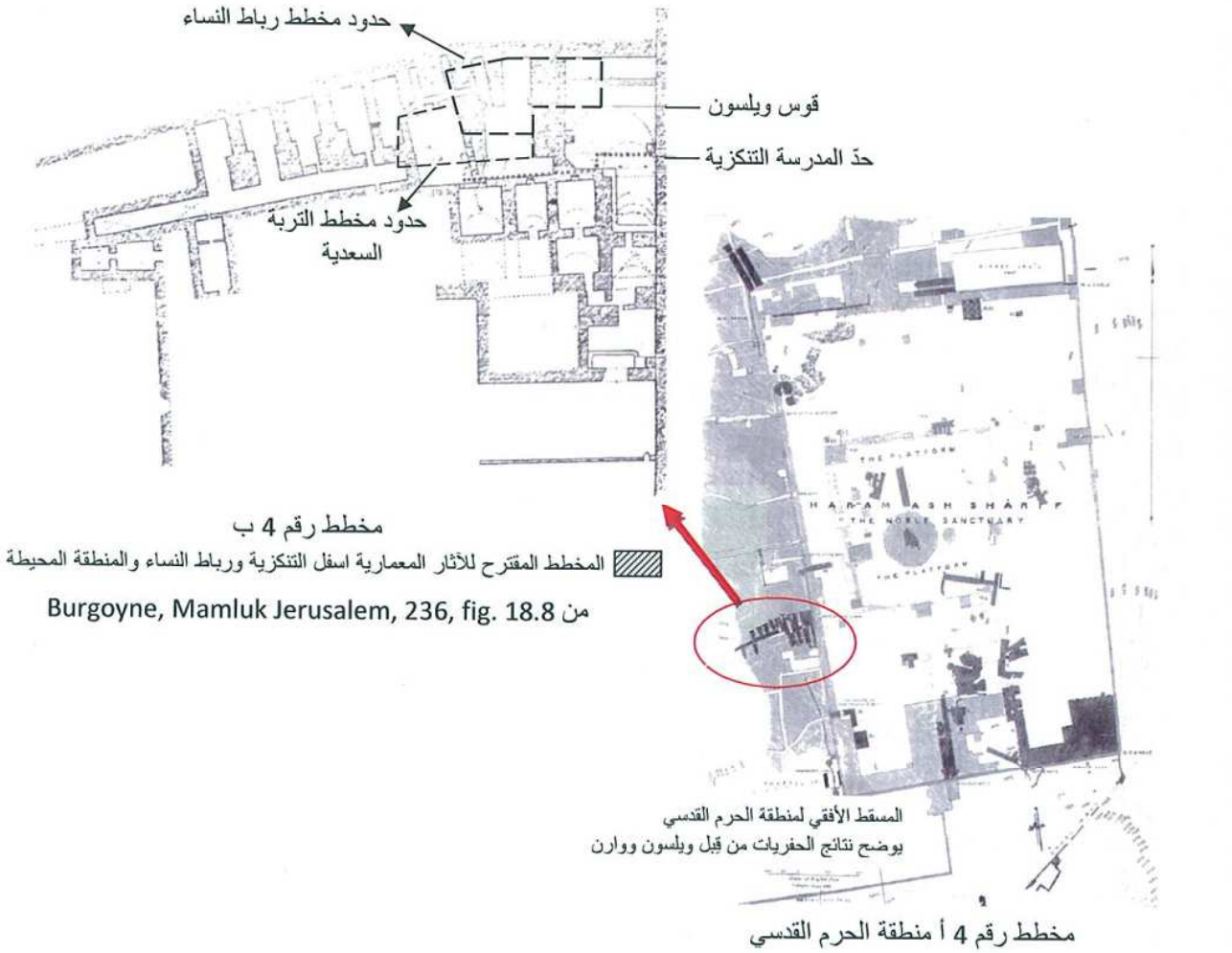
[1] Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 13؛ العسلي، من آثارنا، ص 127؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص 110
Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 193

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص 110.

[3]. كان يتم الدخول الى هذه الأقباء عبر باب خاص من حارة المغاربة في فترة تعمير المدرسة وقد اصبحت من حقوق المدرسة (العسلي، وثائق مقدسية، ص 109؛ العلمي، المدارس المملوكية في القدس، ص31؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.225) وهي قد شكلت فيما قبل سلسلة من الأقواس كان يعبر فوقها طريق يمتد من منطقة الحرم الى قصر هيرود بباب الخليل.
(Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 13).

[4]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.41 p.80.

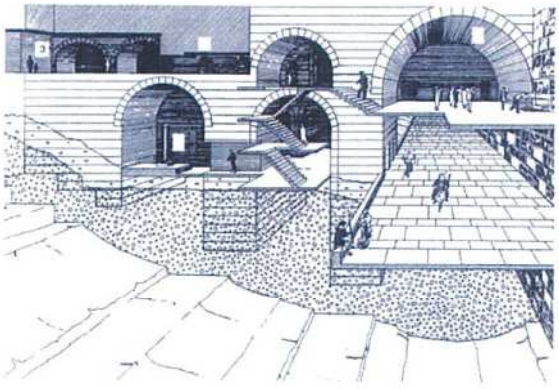
المعماري. آخذاً بعين الاعتبار طوبوغرافية المنطقة، وانخفاض منسوب بعض المناطق المحيطة بساحات المسجد الأقصى المبارك، وصعوبة البناء فيها والذي يحتاج الى تسويتها وانشاء اساسات ضخمة لتدعيم المباني فوقها لرفعها الى مستوى ساحة المسجد[1]، مما يتطلب مجهود وايدي عاملة كثيرة وزمن اضافي لاتمام البناء. ولكن مع وجود هذه البقايا المعمارية شكلت له اساسات لانشاء المدرسة على مستوى منسوب الطريق، لتشكل بذلك جزءاً من المرحلة الأولى لمشروع مجمعه المعماري الضخم والذي لابد وأنْ كان له رؤيته الخاصة في تحقيق تنفيذه، خاصة وأنه قد تمَّ ذكر المطهرة (المتوضأ) والحمامين القبلي والغربي من جملة الموقوفات للأمير تنكز في وقفيته المؤرخة بتاريخ سنة 730هـ/ 1330م، أي بعدة سنوات قبل اتمام تعمير هذه المنشآت.



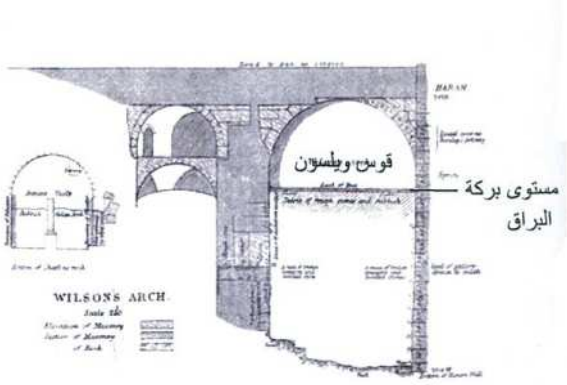
مخطط رقم 4 ب
المخطط المقترح للآثار المعمارية اسفل التنكزية ورباط النساء والمنطقة المحيطة
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 236, fig. 18.8

مخطط رقم 4 أ منطقة الحرم القدسي
من Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, 8

[1] . Bahat, Jerusalem Down Under, B.A.R.21.6, p.39.



مخطط رقم 4 د
منظور لقوس ويلسون الواقع اسفل المدرسة التنكزية
من Bahat, B.A.R.21.6 Jerusalem Down Under, 37



مخطط رقم 4 ج
مقطع قوس ويلسون ومستوى بركة البراق
من Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, 62

كما أنَّ اتجاه الأمير تنكز في البناء قد ارتكز على هدف المماليك بشكل عام، ألا وهو التأكيد على أهمية مدينة القدس وجعلها مركزاً دينياً وحضارياً، فعمل على انشاء مجمع التنكزية من أجل تحسين مكانة المدينة الدينية والثقافية، وكان هذا الموقع بجوار الحرم مفضلاً وذلك للحصول على بَرَكَة المكان بالبناء في أقرب منطقة للحرم، وهذا ما أكدته الكتابة في مسجد التنكزية بأنه بجوار المسجد الأقصى، وما أفضل من هذا الجوار[1]. كما أنَّ وازع الأمير تنكز الديني قد دفعه لتعديل المنطقة وتطوير المشهد الثقافي والحضاري لها بعدم ترك الآثار المتبقية من عمارة سابقة البناء على مدخل رئيسي للحرم القدسي من هذه الناحية، ولترسيخ اهمية اهتمام المماليك عامة وهو منهم بتعمير بيت المقدس وإنَّ عهدهم هو العهد الذهبي في تاريخ فن العمارة والبناء. وقد اهتم الأمير تنكز باختيار موقع مميز لمدرسته يتناسب مع مرتبته ومكانته في الدولة[2]، فبشكل عام كلما كانت العمارة مميزة ومتقنة وذات موقع مميز كلما دلَّتْ على مكانة القائم بالعمل وعلى علو شأنه في الدولة، وبذلك فإنَّ قوة الأمير تنكز السياسية وعلو مكانته وشأنه عند السلطان وعند سائر النواب والحكام وعامة الناس، قد تطلب منه الاختيار الأفضل كهذا الموقع ذا الأهمية الدينية والحضارية والواقع في مركز الحياة اليومية للمدينة.

ولتدعيم هذا الاختيار للأمير تنكز بالرغم من صِغَر المساحة المتوفرة للبناء نسبياً والمحددة من جميع الجهات، ولاصراره على اقامة كتلة معمارية شاملة من النواحي الدينية والثقافية، فقد عمل على الاتجاه ببناء المدرسة بشكل عمودي. وكان هذا اتجاه جديد في تطور العمارة في الفترة المملوكية، حقق من خلاله تعدد الاستخدام الوظيفي للمجمع. فمن خلال اتجاهه العمودي في البناء، أتاح له المجال في استغلال مرحلة التطور في انجاز القسم الثاني الجنوبي من الرواق الغربي

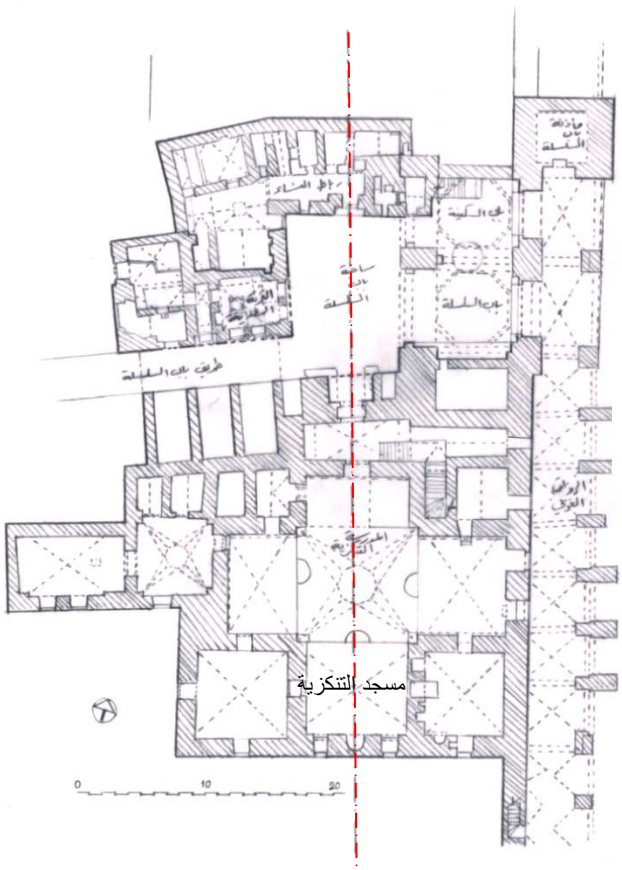
[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 65.
[2]. Burgoyne, Ibid, p. 80.

للحرم[1]، والذي تم عام 713هـ/1314–1315م [2]فشكل اساساً متيناً لتحمل ثقل جزء من المدرسة في طابقها العلوي والذي تشغله الخانقاة، مما أتاح المجال لابراز واجهة المدرسة الشرقية على الحرم مباشرة، بحيث يتجه نحوه الصوفية بنظرهم ووجدانهم اثناء تعبدهم ودراساتهم وليتبركوا بالمكان. وليس هذا فحسب وإنما عُني كذلك باسلوب المعالجة الخارجية للمجمع من خلال الاهتمام بطبيعة ادراك الفرد للمكان، فعمل على التدرج في استيعاب المكان خاصة للقادمين من باب الخليل نزولاً باتجاه الحرم عبر الساحة الوسطية أمام المدرسة، فحقق مدخلاً ضخماً وبذات الوقت شعوراً برابط مع المكان من خلال تناسُب حجم باب المدرسة وتراجعه الى الخلف مع طبيعة ادراك الانسان للحيز. وإنَّ هذا التجويف الى الداخل قد أكسَبَ مدخل المبنى اهميته وفخامته، كما واثرته مجموعة الزخارف التي صُممت عليه. كما وقد شكَّل اتجاه مدخل المبنى العمودي على الطريق والساحة المستطيلة الشكل أمام المدرسة محوراً رئيسياً يمتد في نهايته الى نقطة محورية وهي محراب مسجد التنكزية، وفي الجهة المقابلة للساحة على امتداد المحور مدخل رباط النساء، والذي راعى الأمير تنكز في اختيار موقعه منفصلاً عن المدرسة الشريعة الاسلامية من ناحية الفصل بين الرجال والنساء في أمور اجتماعية ودينية وحياتية[3]. ويظهر من مخطط الرباط الغير منتظم بأنه لربما قد تم بناء اجزاء منه على آثار سابقة ثم اضافة جزء آخر له، متماشياً بذلك مع حدود مخطط التربة السعدية 711هـ/ 1311م والواقعة على الزاوية بين طريق باب السلسلة والساحة امام الرباط، والذي يوضحه مخطط رقم4 ب.

وهكذا فقد عمل الأمير تنكز على استغلال الامكانيات المتاحة في المكان والاستفادة من افضلية ومميزات هذا الحيز ليستطيع من خلاله البدء في المرحلة الاولى لمشروعه والذي امتد على هذه الرقعة من الأرض المقدسة. والذي ساعده على اختيار هذا المكان للمدرسة والتي تشتمل على المسجد، هو قُرب وجود اساس قاعدة مأذنة سابقة البناء منذ العصر الأموي[4]. فبعد الانتهاء من تعمير المدرسة التنكزية ورباط النساء في 729هـ/ 1328–1329م، عمل الأمير تنكز على اعادة تعمير مأذنة باب السلسلة في 730هـ/ 1329–1330م، فقد وقع اختياره على هذه المأذنة خاصة لقربها من مجمع التنكزية ولوجود اساسات قائمة يمكن التعمير عليها، وببناءه لهذه المأذنة جعل هناك تكاملاً معمارياً في منطقة باب السلسلة (مخطط رقم 5).

---

[1]. Rosovsky, City of the Great King, p.401.
[2]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p.191.
[3]. Rosovsky, Ibid, p. 399.
[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص379؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.244.

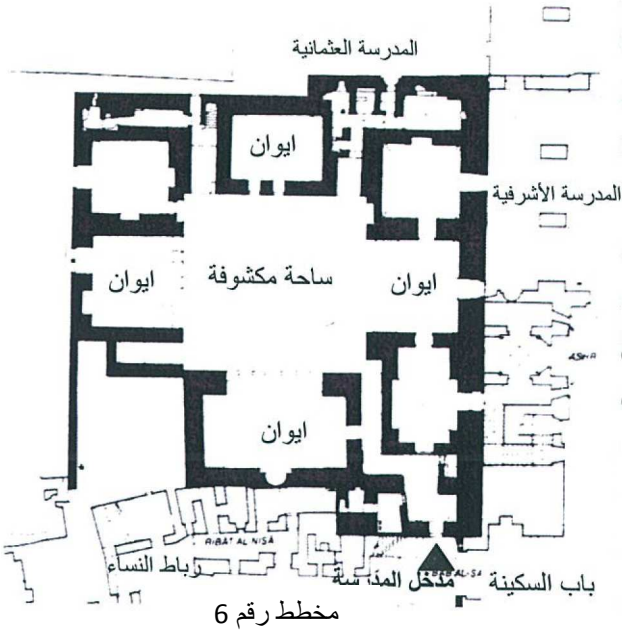


مخطط رقم 5 : مخطط اعادة رسم وتجميع المساقط الافقية من كتاب Mamluk Jerusalem للمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة مع اضافة التحديد للمباني والمحور الممتد من المدرسة والرباط

وللمضي قدماً لانعاش المنطقة القريبة من المسجد واستكمال تخطيطها، فقد اتجه الأمير تنكز لتنفيذ مخططه باتجاه شمالي المدرسة التنكزية ورباط النساء حيث المنطقة المواجهة لقبة الصخرة من الجهة الغربية. ولكن كان هناك محددات طبيعية اعاقت البناء، حيث انخفض منسوب هذه المنطقة عن مستوى ساحة المسجد بعدة امتار، مما لابد وقد تطلب جهداً كبيراً لردم المنطقة قبل الشروع في أي بناء. حيث أنَّ هذه المساحة لم يتم تعميرها سابقاً، الى منطقة السقاية أو المطهرة والتي قام بإنشاءها الملك العادل الأيوبي في 589هـ/ 1193م[1] والتي تقع على آثار معمارية لفترات سابقة حيث أن باب المطهرة (باب المتوضأ) مفتوح منذ الفترة الصليبية[2]، وأنَّ أسفل باب المطهرة كان هناك أقباء رومانية عمودية على الجدار الغربي للحرم[3]. لكن دُمرت المطهرة ولم يبقى من آثارها الا القليل، فأعيد تعميرها في الفترة المملوكية في عام 665هـ/ 1266–1267م، ولها مدخلها

[1] . Hawari, Ayyubid Jerusalem, p.52.
[2]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p.188.
[3]. Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, pp. 13-14.

الخاص من الجدار الغربي. ويتم الوصول الى المطهرة عبر زقاق باب المطهرة وطوله حـــوالي ثلاثون متراً، نزولاً الى مستوى حوالي خمسة امتار تحت مستوى ساحة المسجد الأقصـــى[1]. ثـــمَّ أعاد تعميرها الأمير تنكز عام 730هـــ/ 1329م وطوَّر في عمارتها وذلك لخدمة القادمين الـــى المسجد وتوفير سُبل الراحة لهم. وفي وقفية الأمير تنكز قد تم ذكر حـــاكورة عُرفـــت بحـــاكورة السقاية، ولربما قد امتدت من منطقة رباط النساء جنوباً، حيث ذُكِرَ أنَّ لها باباً من القبو السليماني السابق ذِكْره اسفل المدرسة التنكزية، الى منطقة المطهرة (السقاية) شمالاً والتي عُرفت الحاكورة باسمها تبعاً لها[2]. مما يدل على أنَّ هذه المنطقة كانت مساحة خضراء وذات منسوب منخفض عن مستوى ساحة المسجد.



مخطط رقم 6

المسقط الافقي للمدرسة البلدية

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 444

وبالتالي فقد بقيت المنطقة الواقعة بين رباط النساء جنوباً والمطهرة شمالاً منطقة مفتوحة، حيـــث أن المدرسة البلدية الواقعة شمالي رباط النساء قد تـــمَّ انشاؤها فيما بعد فـــي عـــام 782هـــــ/ 1380م، ويظهر من المسقط الأفقي للمدرسة (مخطط رقـــم 6) بأنه قد تم العناية بتخطيطها على اساس أربعة ايوانات وساحة وسطية كبيرة ومكشوفة ومجموعة من الغرف، علـــى غـــرار تخطـــيط المـــدارس المملوكية في القاهرة والتي يتم الدخول اليها عبر مدخلها الرئيسي الى ممر ثم الى الساحة الوسطية وذلك لاتساع المساحة المقترحة للبناء، وبذلك فإنَّ المساحة المتوفرة للبناء كانت سانحة لمثـــل هـــذا التخطيط المتعامد ولمساحات شاسعة كما في المدرسة البلدية. كما أنَّ المخطط العام للمدرسة يُظهر بأنها تقع ضمن حدود مربع مكتمل وبأنه لم يكن هناك معوقات معمارية في المنطقة بالرغم مـــن ترجيح بعض نتائج الحفريات في المكان بوجود آثار على شكل صليب ربما قد شـــكلت مقتـــرح لأساسات كنيسة صليبية أو بناء آخر لم يُستكمل بناؤه، ولكنه غير مؤكد، فلربما أنَّ هذه الاساسات قد أُنشأت للمدرسة البلدية لرفع منسوبها الى مستوى منسوب ساحة المسجد[3]. وحتى إنْ كانت على آثار هذه الكنيسة فإنَّ المخطط المقترح بشكله المتعامد أتاح المجال لأساسات المدرســـة البلديـــة وبناؤها على النظام المعماري المتعامد المعروف بـــِ Cruciform Structure (مخطط رقم 7).

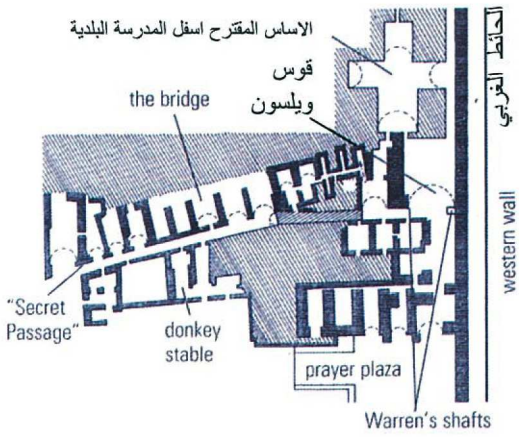
---

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص383 Hawari, Ayybid Jerusalem, pp.52-53

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص110.

[3] . Hawari, Ibid, p.75 ؛Bahat, B.A.R.21.6, Jerusalem Down Under, pp. 38-39.

وكما الحال بالنسبة للمدرسة العثمانية الواقعة بين المدرسة البلدية في الناحية الجنوبية وبين زقاق باب المطهرة في الناحية الشمالية، فقد تمَّ بناؤها عام 840هـ/ 1436–1437م. ويتبين مما قد ذُكر في نص الوقفية بوقوع حاكورة شرقي حمامي الشفا والعين عُرفت بحاكورة الطهارة، والمرجح أنَّ موقع هذه الحاكورة يقع مكان المدرسة العثمانية وهو امتداد لحاكورة السقاية[1]. أما الدخول الى المدرسة فيتم عبر زقاق باب المطهرة نزولاً بعدة درجات، بمعنى أنَّ منسوب المدرسة أيضاً يقع منخفضاً عن منسوب الحرم، وقد أوضح ذلك Burgoyne في سياق حديثه عن تطور العمارة في الرواق الشمالي والغربي للحرم، موضحاً أنَّ موقع المدرسة العثمانية كان غير محبذاً للبناء وذلك بأنه يُشرف على مطهرة الرجال من الناحية الغربية وبأنَّ منسوب الموقع ينخفض حوالي أكثر من مترين عن مستوى ساحة المسجد الأقصى، مما يتطلب اعمال سابقة للبناء لتهيأة الموقع حتى يتم رفع منسوب البناء الى مستوى ساحة المسجد[2].



مخطط رقم 7
المخطط المقترح للآثار المتبقية اسفل المدرسة البلدية والمنطقة الواقعة جنوبها
من Bahat, B.A.R. 21.6, Jerusalem Down Under,33

وعند وصف منطقة الرواق الغربي من قِبَل ابن فضل الله العمري في كتابه مسالك الأبصار[3] والمؤرخ بتاريخ 745هـ/ 1345م، فإنه لم يتم ذكر أي بناء واقع مكان المدرسة العثمانية، فقط تم ذِكر باب المطهرة وَوَصْفْ المطهرة وخلوتين احداهما للقيِّم. وبذلك فلو وُجدت أي عمارة أو بناء في المنطقة لتمَّ ذكره من قِبَل العمري. وعليه فإنَّ هذه المساحة والتي هي مكان المدرسة العثمانية كانت خالية معظمها من أية منشأة.

وبالنسبة للمدرسة الأشرفية أو السلطانية والواقعة شرقي المدرسة البلدية، فقد تمَّ بناؤها أيضاً بعد فترة الأمير تنكز، حيث بُنيت في المرحلة الأولى حوالي عام 873هـ/ 1468–1469م، ثم تمَّ الأمر بهدمها واعادة تعميرها مع الاضافة وتوسعة البناء من قِبَل السلطان الأشرف قايتباي فكان بناؤها بين عامي 885– 887هـ/ 1480–1482م[4]. وقد تم استغلال جزء من الرواق الغربي للحرم كجزء لا يتجزأ من مخطط المدرسة الحالي.

---

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص112.

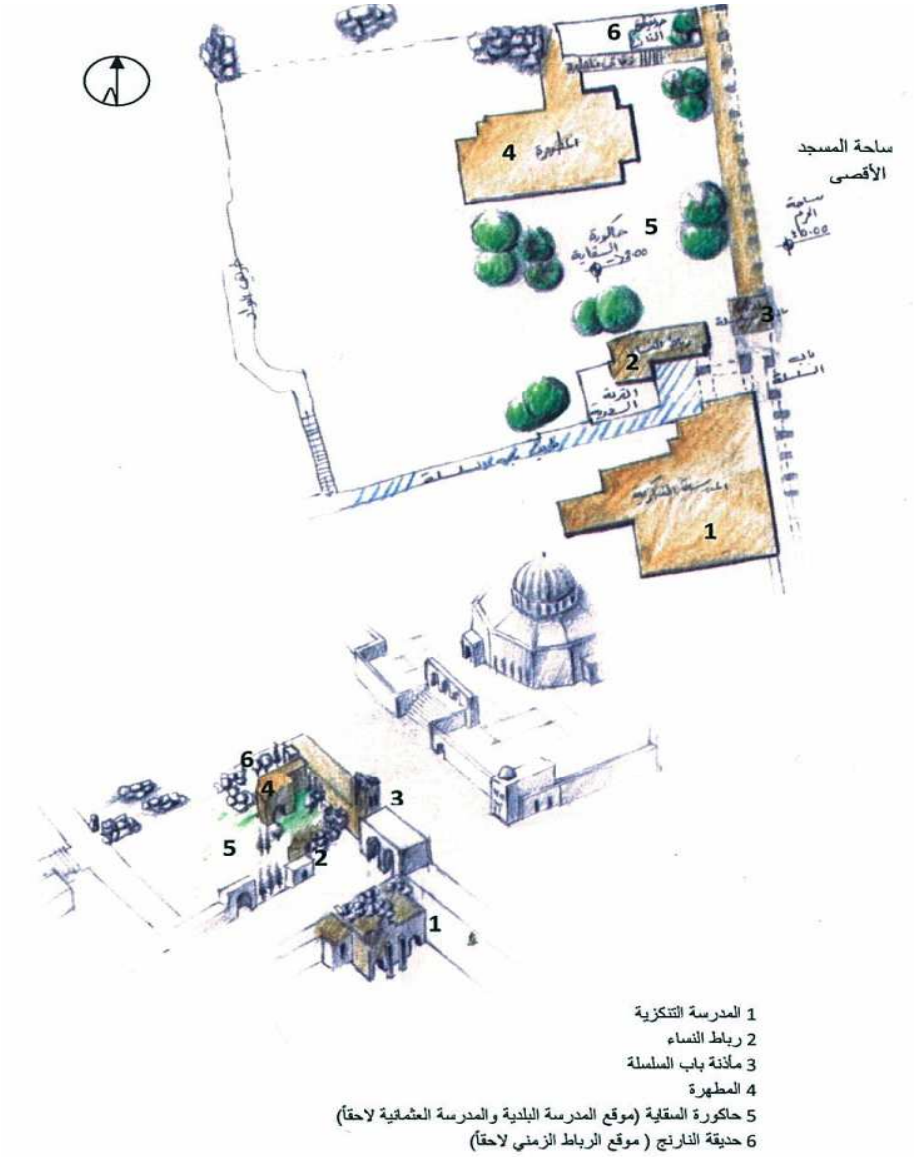
[2] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 83.

[3]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162–163.

[4]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387–388؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 591

وفي الناحية الشمالية من زقاق باب المطهرة يقع الرباط الزمني مقابلاً للمدرسة العثمانية، والذي تمَّ بناؤه عام 881هـ/ 1476–1477م، وما كان في هذا الموقع قبل انشاء هذا الرباط هو فقط مكان عبارة عن خلوة للقيِّم والبواب وقاعة كان لها باب، ولكنه يُستخدم الآن كنافذة واقعة تحت مستوى الرواق الغربي[1].

وكذلك كان هناك حديقة فيها أشجار حمضيات وورود عُرفت بحديقة النارنج، قد تم ذكرها في الوقفية بوصفها شرقي حمام الشفا[2]، فيُرجح بأن الرباط الزمني يقع مكانها، كما يُوضَح في مخطط رقم (8).



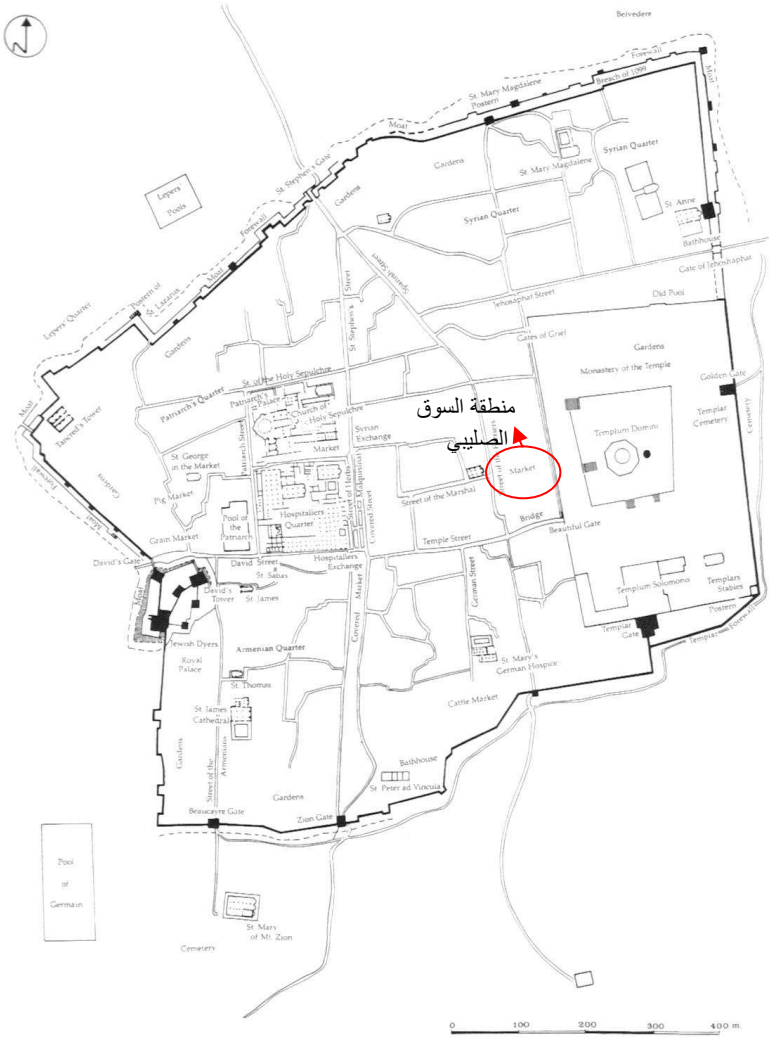
مخطط رقم 8

مخطط المرحلة الأولى للمجمع المعماري، مسقط افقي وثلاثي الأبعاد (رسم توضيحي للباحثة)

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 572 p. 576

[2]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111.

وبذلك فبعد الانتهاء من اعادة تعمير المطهرة او المتوضأ، عَمَدَ الأمير تنكز على استثمار منطقة سوق القطانين، فعمل على التوصية لدى السلطان الناصر محمد بهذا الخصوص والذي بدوره أمر بإنشاء مجمع تجاري يقع بين الحرم والمدينة. فتمَّ اختيار هذا المكان لسوق القطانين حيث يُعتبر هذا الموقع ذا طابع تجاري، لأنَّ منطقة طريق الواد هي منطقة تجارية عامرة منذ القِدم، حيث أنه خلال فترة الاحتلال الصليبي للبلاد اهتم الصليبيون باختيار مواقع لمبانيهم تكون حول الطرق التجارية الرئيسية مثل طريق واد الطواحين (طريق الواد)، وبالتالي بنوا سوقاً كبيراً في تلك المنطقة امتدَّ من طريق الواد باتجاه الحائط الغربي للحرم بتراجع اربعون متراً عن حدّ الحائط (مخطط رقم 9). لكن دُمر السوق لاحقاً في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي[1]، ولم يتم تطوير هذه المنطقة لاحقاً في الفترة الأيوبية وذلك لأنَّ فترة الحكم الأيوبي للبلاد عامة قد اصطبغت بأمر اهمية الدفاع عن البلاد، خاصة وأنَّ العدوان الصليبي لم يهدأ بتهديد المنطقة بين الحين والآخر لاعادة احتلالها، فكان الاهتمام منصباً نحو الأمور العسكرية والعمارة الدفاعية ومحاولة تطهير مدينة القدس من الآثار الصليبية، بتحويل الأماكن التي احتلها الصليبيون الى اماكن اسلامية وذلك لاسترجاع القوة الاسلامية للمدينة والطابع الاسلامي لها. وبالتالي كان هناك محدودية في التطور العمراني في المنطقة المحيطة بالحرم القدسي الشريف[2]. وحسب الدراسة المعمارية والاثرية للفترة الأيوبية، فإنه لم يكن هناك بناء في



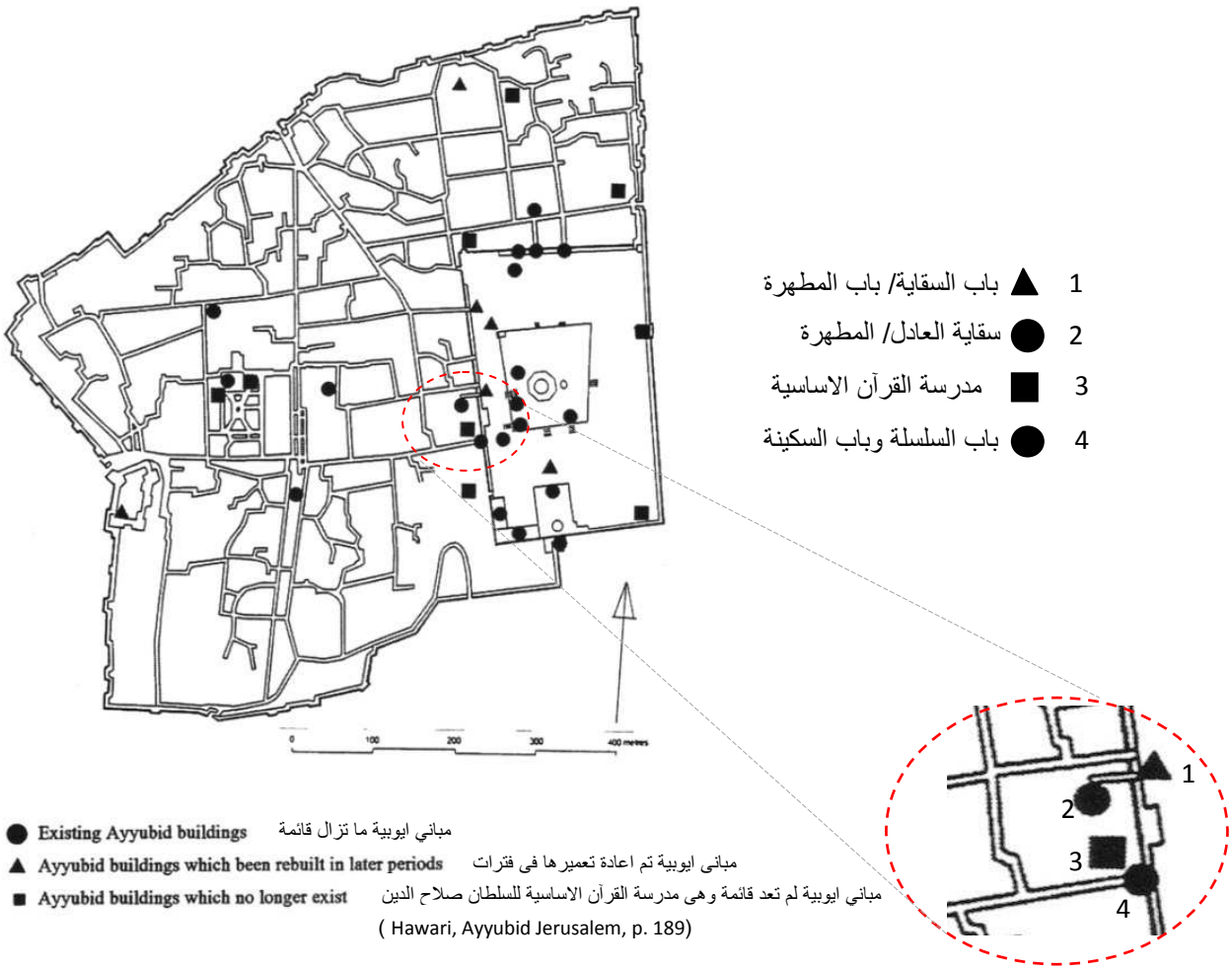
مخطط رقم 9 : مخطط مدينة القدس في الفترة الصليبية من Boas, Jerusalem in the Time of the Crusades,

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 80.

[2]. Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 200 ؛Burgoyne, Ibid, pp. 48-49

هذه المنطقة والذي يوضحه المخطط رقم (10) لموقع المباني الأيوبية في مدينة القدس[1]. حيث تمَّ توضيح موقع المباني الأيوبية التي ما تزال قائمة، كما والمباني التي تمَّ ترميمها واعادة تعميرهـــا في فترات لاحقة، ايضاً المباني الأيوبية التي لم تعد قائمة.



مخطط رقم 10 : موقع المباني الأيوبية في مدينة القدس القديمة

من Hawari, Ayyubid Jerusalem, 20, fig. 2

وعليه فإنَّ الآثار المعمارية المتبقية للسوق الصليبي شكلت اساساً سهَّلَ عملية اعادة البناء في منطقة السوق خاصة في القسم الغربي منه، حيث أُعيد تعمير هذا القسم والمدخل الغربي. واستكملت المرحلة الاخرى من بناء السوق في القسم الشرقي حتى تم ربطه مع ساحة المسجد الاقصى بواسطة البوابة العظيمة لباب القطانين، وكان ذلك في عام 737هـ/ 1336–1337م[2]. فشكل بذلك رابطاً اساسياً تجارياً بين منطقة طريق الواد ومنطقة الحرم الشريف. ويظهر الاختلاف في القسم الشرقي والذي يبدأ من مدخل حمام الشفا من داخل السوق باتجاه الشرق، عن القسم الغربي للسوق من خلال نمط واجهات الدكاكين في القسمين، حيث تختلف طرز الأقواس

[1] Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 20
[2] Rosovsky, City of the Great King, p. 403

والاحجار المستخدمة في البناء. فإنَّ طراز الأقواس في الجزء الشرقي يأتي بشكل مدبب ومحمول على اوتار وهذه الاوتار جميعها مبنية من الاحجار المعشقة، والتي تكسبها تماسكاً وتضفي نمطاً زخرفياً للواجهة. أما الأقواس في الجزء الغربي فإنَّ بعضها يأتي بشكل مدبب وبعضها بشكل قوس وبعضها محمول على وتر وبعضها الآخر يتوزع ثقله على الجانبين مباشرة مما يُظهر بأنه قد تمَّ تعمير هذه الحواصل تبعاً لما قد بقي منها. كما وقد اوضح Burgoyne بأنَّ نمط بناء مداميك الحجر (والتي بقي بعض منها في الجزء الغربي من السوق على ارتفاع معين) قد تعود الى الفترة الصليبية، ثم تمَّ اعادة استخدامها او التعمير عليها عند انشاء السوق المملوكي[1].

صور توضح الفرق في واجهات القسمين الشرقي والغربي لسوق القطانين





صور 1 ، 2 (للباحثة): دكاكين من الجزء الشرقي من السوق

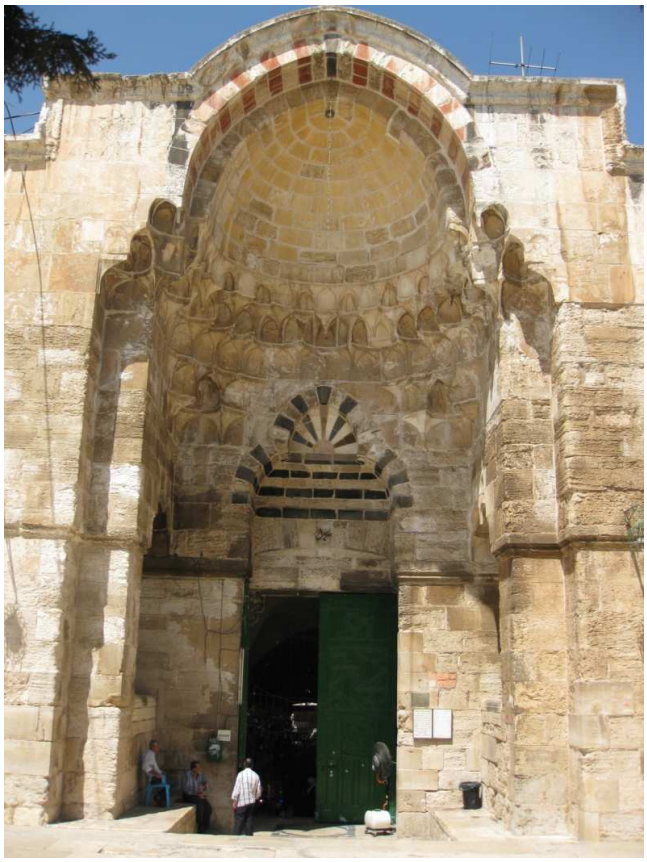




صور 3 ، 4 (للباحثة): دكاكين من الجزء الغربى من السوق

[1] . Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.273

وللتأكيد على أهمية انجاز بناء سوق القطانين فقد أظهر ذلك الأمير تنكز من خلال الاعتناء بتصميم باب القطانين الشرقي بالرغم من انخفاض مستوى السوق عن مستوى ساحة المسجد الأقصى. وعالج هذا الأمر من خلال الأدراج المستخدمة وهي حوالي العشرون درجة، مقسمة الى مرحلتين قبل البوابة وبعدها. وبالتالي فقد استطاع بطريقة مدروسة أنْ يستخدم ما يتم حفره لعمل الأدراج قبل البوابة من ناحية المسجد، وردمه لعمل ادراج بعد البوابة من ناحية السوق. وجاءت واجهة المدخل ذات ضخامة وزخارف رائعة، وعُني بذلك الأمير تنكز حرصاً على جعل الواجهات المطلة على منطقة المسجد الأقصى الشريف ذات طابع معماري وزخرفي متميز، وذلك رغبة منه لإظهار والتأكيد على مدى التطور في فن العمارة الاسلامية المصاحبة للثورة العمرانية في مدينة القدس والتي تُبرز الطابع المعماري والزخرفي المملوكي. ومما يؤكد على جمالية هذه المنطقة هو وصف ويلسون بأنَّ الواجهة الداخلية لساحة المسجد محاطة بأتقن وأجمل واجهات في العالم[1]. كما وكان اهتمامه بالواجهة الشرقية للسوق والواقعة على الجدار الغربي، ربما ليعطي مفهوم للسكان والحجاج بأهمية السوق، ولتظهر هذه البوابة بضخامتها وزخارفها من قريب أو بعيد وتبشر القادمين بأنهم على مشارف السوق.

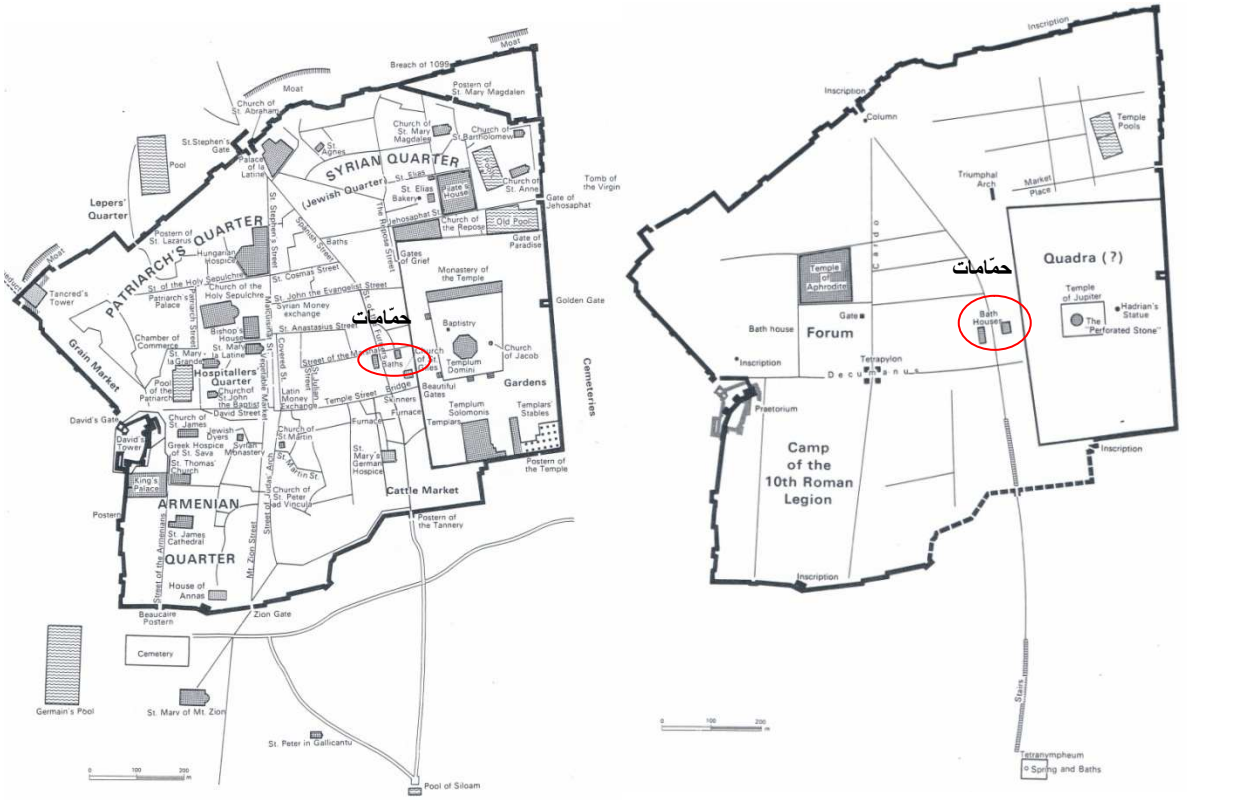


صورة 5: باب القطانين الشرقي

تصوير الباحثة

[1].Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 7

ولاستكمال المرحلة الثانية من مخطط الأمير تنكز لإعادة تخطيط المنطقة، وليستثمر ريع الحمامين والخان كما ذُكر في وقفيته مناصفة لأعمال الترميم في المدرسة التنكزية ومنطقة المسجد الأقصى[1]، ليضمن بذلك استمرارية المدرسة في أداء وظيفتها وليستمر اسم الأمير تنكز مذكوراً على مدى طويل من الزمن ومقروناً بالمدينة المقدسة، باشر بإعادة تعمير المساحة غربي المطهرة والتي أوحت له بتعمير حمام والمعروف بحمام الشفا. حيث أنَّ معطيات هذه المساحة أشارت الى وجود آثار سابقة لحمام من خلال الآثار المعمارية المتبقية وتَوَفُرْ المياه اللازمة للاستخدام داخل الحمام. حيث أنه عند اختيار موقع للحمام يُراعى عدة أمور منها الكثافة السكانية والقرب من المسجد والاحياء المزدحمة وتوفر الماء في المنطقة. وبذلك فقد عمل الأمير تنكز على انشاء حمّام على آثار اساسات سابقة لحمام من الفترة الصليبية ولربما قد وُجد حمام منذ الفترة الرومانية في هذه المنطقة[2]كما يظهر في (مخطط رقم 11 أ،ب).



مخطط رقم 11 أ (مدينة القدس القديمة في الفترة الرومانية) مخطط رقم 11 ب (مدينة القدس القديمة في الفترة الصليبية)
يظهر في المخططين وقوع حمامين في المنطقة غربي الحرم الشريف في مكان وقوع حمامي الشفا والعين
من Bahat, Carta's historical atlas, 21,33

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 80

[2]. يُعتقد أنَّ حمام الشفا يحتل مكاناً واحداً من الحمامين الذين أنشأهما الامبراطور هادريان في تلك المنطقة. (العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص184)؛

Dow, The Islamic Baths of Palestine, p. 87 ؛Bahat, Carta's historical atlas of Jerusalem, p.20

ويظهر من خلال اتجاه المخطط العام للحمام والواقع بشكل مائل على اتجاه السوق بأنه قد تمَّ استغلال ما تبقى من آثار الحمام السابق انشاؤه، وتعمير الحمام القائم حالياً على تلك الآثار[1]. ومما حفزه ايضاً لاختيار هذا الموقع لتعمير الحمام هو وقوع بئر عميق اسفل الحمام وعلى بُعد حوالي اربعة وعشرون متراً تحت سطح الأرض الحالي. وقد عُرف هذا البئر والبركة ببركة حمام الشفا، وكان يستقي منها الناس لفترة من الزمن[2]، وبذلك فإنَّ توفر المياه بشكل اساسي في هذا الموقع شجع الأمير تنكز على تعمير حمام الشفا بالرغم من مساحة المكان المحددة وعدم استطاعته الإضافة على مساحة الحمام، فقط الجزء الجنوبي الشرقي تم اضافته. حيث يحد الحمام من الشمال سوق القطانين ومن الجنوب المطهرة ومن الشرق حديقة النارنج ومن الغرب الخان الذي انشأه تنكز. ومن دوافعه أيضاً هو عدم وجود حمامات استشفائية في المدينة، وبذلك فقد حرص على انشاء حمام آخر هو حمام العين لخدمة كافة فئات المجتمع[3]؛ حيث أنَّ حمام الشفا كان مخصصاً للرجال أما الحمام الجديد أو حمام العين فقد استقبل النساء والرجال في اوقات مختلفة[4].

أما حمام العين فقد استطاع الأمير تنكز هندسة المخطط العام للحمام بشكل عمودي على سوق القطانين، فجاء المخطط منتظماً وموازياً لطريق الواد، واستطاع من خلاله استغلال المساحة التي مكنته من تصميم مساحات أوسع لغرف الحمام كما وعدد اكبر لغرف الحمام عن حمام الشفا. وقد يكون حمام العين يقع على آثار حمام سابق البناء منذ الفترة الرومانية[5]، كما يوضحه المخطط رقم 11أ، والذي يظهر فيه الحمام الغربي بشكله الطولي ولربما أنَّ آثار هذا الحمام كانت عاملاً مساعداً في تخطيط حمام العين بشكله الحالي، بالرغم من أنَّ Burgoyne لا يُرجح وقوع حمام العين على آثار حمام من فترات سابقة. وقد شكل منسوب الأرض المنخفض نسبياً عاملاً مساعداً لإقامة الحمام حيث تقع مستوى ارضية الحمام منخفضة بحوالي 1.6 م عن مستوى طريق الواد[6]، وإنَّ هذا الانخفاض إنْ كان طبيعياً أو بفعل عملية الحفر فإنه قد شكل عنصراً ايجابياً في كلتا الحالتين، حيث أنَّ انخفاض مستوى الحمام عن مستوى محيطه يُسَهل عملية تمديد وتوصيل المياه الى داخل الحمام كما وتوفر الأرض عازلاً طبيعياً اساسياً يمكن الاضافة عليه وتحسينه خاصة في منشآت صحية كالحمامات. وإنْ كان بفعل عملية الحفر فإنَّ ما تم حفره قد تم ردمه لتسوية مساحة اقامة الخان، مما يُظهر بأن العمل في المنطقة جاء بشكل متناسق ومكتمل ومتناغم وذا خطة مدروسة وهدف مسبق.

---

[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 88 p.273 p. 282.

[2]. Wilson and Warren, The Recovery of Jerusalem, p. 15 ؛Warren and Conder, The Survey of Western Palestine, p. 263
العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص 128 ص179.

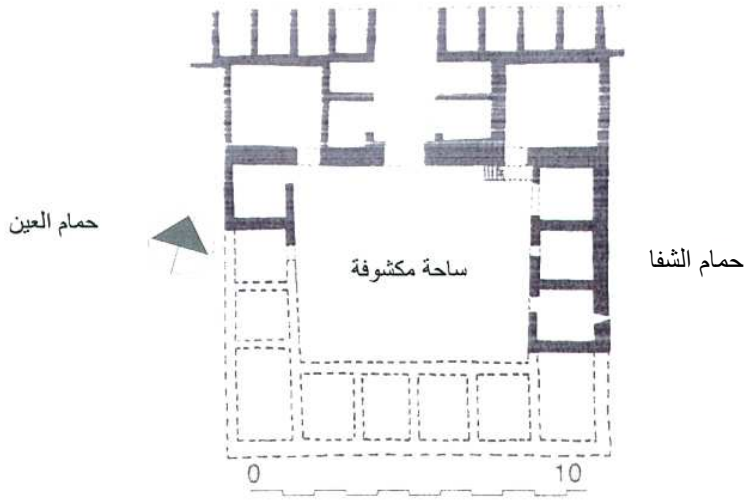
[3]. علي، القدس في العصر المملوكي، ص245.

[4]. العسلي، من آثارنا، ص171؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص144.

[5] Bahat, Carta's historical atlas of Jerusalem, p. 20

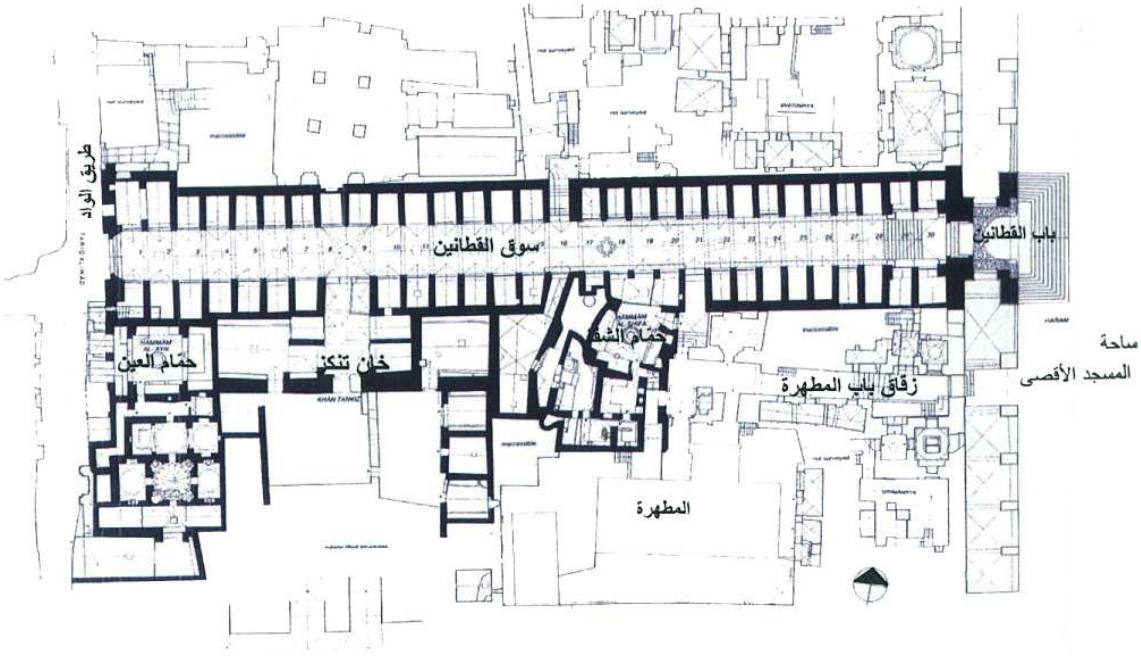
[6] Burgoyne, Ibid, p. 287

وقد وقع اختيار موقع الخان بين حمام الشفا وحمام العين، ويظهر من مخطط المسقط الأفقي للخان والمتماثل على الجانبين والخطوط المتعامدة على السوق بأنَّ المفهوم العام لتصميم الخانات والمكون من ساحة وسطية وغرف محيطة به على مستوى طابقين والمتعارف عليه في الدولة المملوكية قد تم تحقيقه في هذا الحيز من المساحة (مخطط رقم 12) مما يشير بعدم وجود عوائق للبناء، وبأنَّ هذه المساحة قد تم تهيأتها خصيصاً لاقامة خان تنكز عليها. هذا وقد تم الانتهاء من المرحلة الثانية لمجمع تنكز المعماري، التي اشتملت على سوق القطانين وباب القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين في عام 737هـ/ 1336–1337م (مخطط رقم 13) بمعنى أنَّ هذه المرحلة لتعمير هذا القسم من المخطط كان عملاً متكاملاً، شكل جزءاً من اعادة التخطيط الحضري الكامل لهذه المنطقة (مخطط رقم 14).



مخطط رقم 12 : مخطط اعادة ترسيم المسقط الافقي لخان تنكز

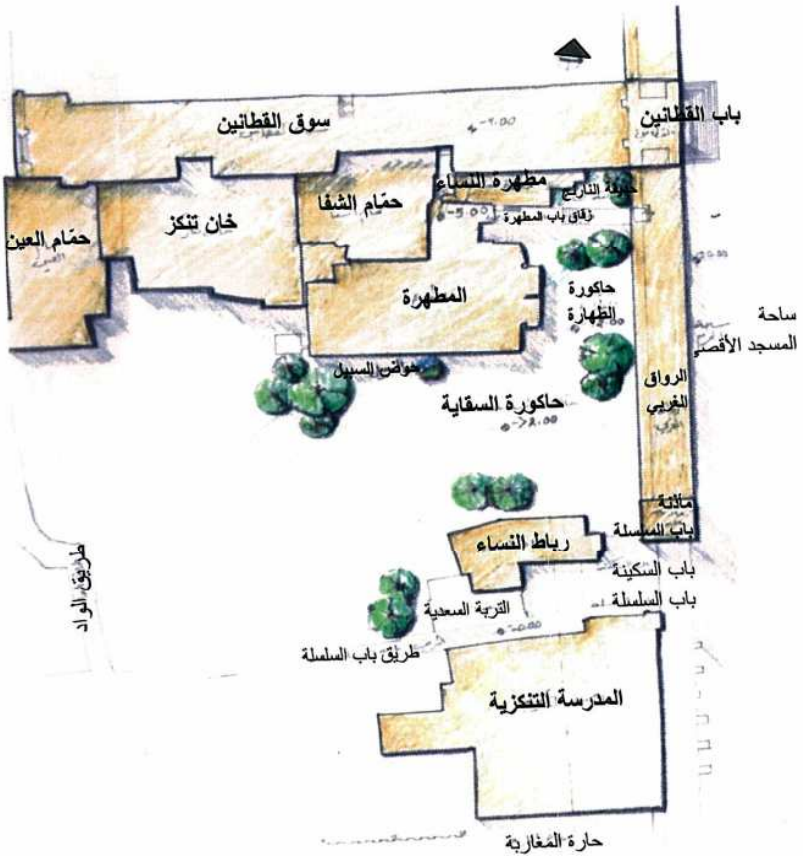
من Burgoyne ص284



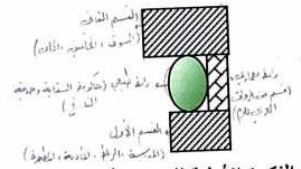
مخطط رقم 13

المسقط الأفقي لسوق القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين

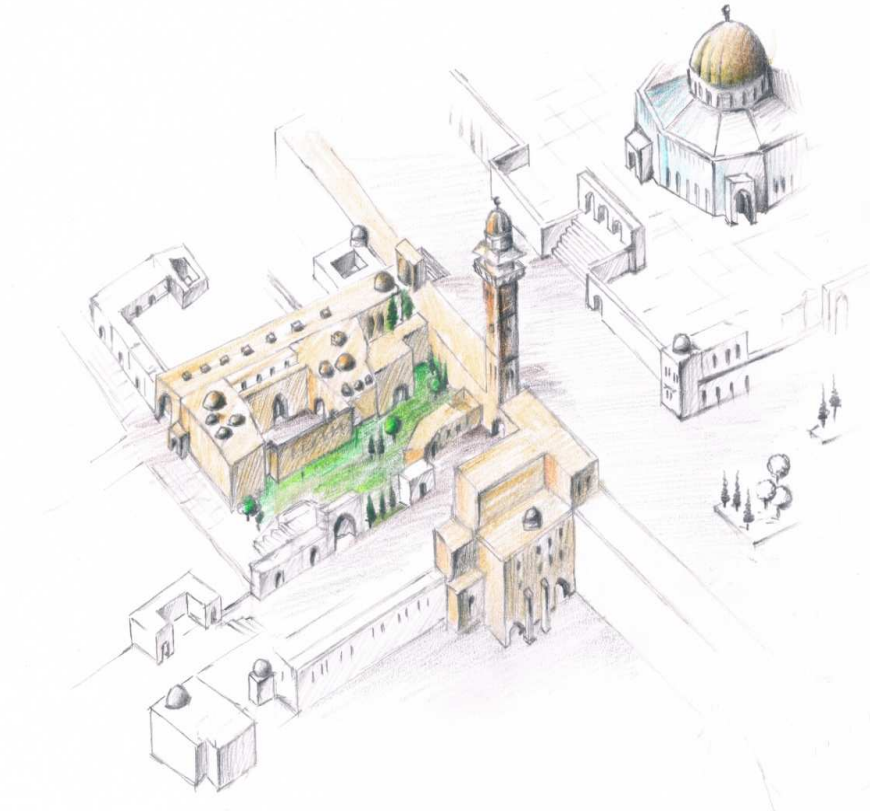
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 274, fig. 24.2



مخطط رقم 14: **المخطط الكامل لمجمع التنكزية**
(الموقع العام وثلاثي الابعاد)
اعادة تخطيط كامل الموقع والمقترح في فترة الامير تنكز (رسم توضيحي للباحثة)



الفكرة الأولية للمجمع بأشكال هندسية





مخطط رقم 15 : مخطط موقع المباني المملوكية في حدود منطقة الدراسة (للباحثة)

3.2.1 الوصف المعماري لعمائر الأمير تنكز:

بعد التحليل لهيكلية التخطيط الحضري للمنطقة التي اختارها الأمير تنكز لإنشاء مجمعه الخيري في مدينة القدس، والذي قد اضاف جزءاً بارزاً وهاماً للنسيج المعماري للمدينة المقدسة من خلال ابنية شُيدت على أُسس معمارية ثابتة فامتازت بقمة الاتقان وبطابعٍ زخرفيٍ راقٍ ومتميزٍ، نستطيع أن نصف بايجاز هذه المنشآت وتخطيطها المعماري حتى يتم استكمال موضوع الدراسة والتحليل. فمن هذه العمائر تندرج:

3.2.2 المدرسة التنكزية:

تقع بالجهة الغربية من الحرم القدسي وجزئياً فوق الرواق الغربي، عند باب الحرم المعروف بباب السلسلة، على جنوبي طريق باب السلسلة.

الواجهة الشمالية للمدرسة تطل على ساحة صغيرة بباب السلسلة، والواجهة الجنوبية كانت تحدها حارة المغاربة، أما الواجهة الشرقية فتُشكل جزء من الجهة الغربية للحرم، والواجهة الغربية تُشرف على المباني المجاورة في البلدة القديمة، ومنها دار الحاج ايوب المصري.

أمر ببناء المدرسة الأمير سيف الدين تنكز في سنة 728هـ/ 1327م عندما زار القدس بعد عودته من زيارة القاهرة، وتم الانتهاء من تشييد المدرسة سنة 729هـ/ 1328-1329م[1].

بناء المدرسة عبارة عن مجمع معماري مكون من ثلاثة طوابق، الأرضي وطابق الميزانين (المتوسط) والطابق العلوي، ويُقسم الطابق الأرضي الى احد عشر غرفة للفقهاء الحنفية والطابق العلوي الى احد عشر غرفة للصوفية. وكان للمدرسة دورها في الحركة الفكرية حيث اشتمل هذا المجمع على مدرسة ومسجد وخانقاة للصوفية ودار حديث ودار للأيتام وهي دار للقرآن[2]. كما وضمَّ المجمع رباطاً للمسنات من النساء، يقع منفصلاً عن بناء المدرسة في الناحية الشمالية الغربية المقابلة للمدرسة.

تغلب الاستطالة على مخطط المدرسة (مخطط رقم 16)، حيث يبلغ طوله من الشمال الى الجنوب 28م، وعرضه من الشرق الى الغرب 25م. وللمدرسة مدخلان؛ يقع احدهما على الحائط الشرقي للمدرسة مطل على ساحة المسجد، في نهاية الرواق الغربي، وهو باب صغير يُصعد منه بدرج صغير في حدود سماكة جدار الحائط باتجاه الشمال الى أعلى المدرسة والى سكن الصوفية[3].
أما المدخل الرئيسي فيقع على الواجهة الشمالية للمدرسة، وهو مدخل ذا بوابة عالية مبنية بالأحجار المتعاقبة الألوان الأبيض والأسود والأصفر (الأبلق)، تقوم على كل جانب من جانبيها مكسلة حجرية. ويعلو البوابة صنج حجرية معشقة وفوقها لوحة من الرخام عليها شريط كتابي يبين اسم الباني وسنة البناء منقوش بالخط النسخي المملوكي للكلمات التالية: " بسم الله الرحمن الرحيم. أنشأ هذا المكان المبارك راجياً ثواب الله وعفوه المقر الكريم السيفي تنكز الملكي الناصري عفا الله عنه وأثابه. وذلك في شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة". يتخلل الشريط الكتابي شعار الأمير تنكز(الكأس) في ثلاث مواضع، أولها فوق المدخل وثانيها على كلا جانبي

---

[1]. العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، ج1، ص163؛ العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، ص119؛ العلمي، المدارس المملوكية في القدس، ص29- 30؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص110؛ Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 223.

[2]. دار الأيتام والمقصود بها دار القرآن، ومن شروط دور القرآن أن يكون بها ثلاثون صبياً يتيماً او أقل يتلقون القرآن ويدرسون القراءات (عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، ج2، ط1، ص179).

[3]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، منارات مقدسية، ص81؛العسلي، وثائق مقدسية، ص110؛ Burgoyne, Ibid, p. 223 p. 229؛ Rosovsky, City of the Great King, p. 399.

الشريط في تجويف المدخل. ثم يعلو نقش التأسيس صنج حجرية معشقة أخرى، ثم يعلوها ثلاث صفوف من المقرنصات وتنتهي الى أعلاها نصف قبة مدببة بشكل محارة حجرية مزخرفة باشعاعات منبثقة من ثلاثة مراكز تمثل أشعة الشمس عند شروقها[1]. مرفق بالطابق الأرضي سلسلة من الدكاكين على الواجهة الرئيسية الشمالية للمدرسة مطلة على طريق باب السلسلة، وهي غير نافذة من داخل المدرسة.

يؤدي المدخل الى دركاه أو موزع وعلى شرقي الدركاه يوجد فراغ طولي مضاء بنافذة على حائط المدرسة الشرقي، ويفتح من الدركاه باب يقود الى داخل المدرسة المصلبة الشكل حيث تُعتبر المدرسة من أفضل الأمثلة في مدينة القدس للمدارس ذات التخطيط المتعامد (Cruciform)، حيث تتعامد أربعة ايوانات بشكل محوري على صحن مكشوف، يتوسطه حوض مثمن الشكل ونافورة من المرمر، ويأتي الضلع الشمالي للحوض بشكل مُقعَّر تأكيداً على المحراب المواجه في الجهة الجنوبية للمدرسة. تختلف أبعاد هذه الايوانات نتيجة للمساحة المنحصرة للموقع والمحددة من الناحية الشمالية بطريق باب السلسلة والمصطبة الأيوبية لباب السلسلة ومن الناحية الجنوبية بحد حارة المغاربة، ومن الشرق بحد جدار الحرم الغربي ومن الغرب بحد آثار أبنية قائمة سابقة تم استخدام جزء منها كغرف في المدرسة لاحقاً. وبالتالي فإنّ الايوان الجنوبي كان أكبر هذه الايوانات بُعداً، حيث بلغ عمقه 7.28م، ويُعتبر هذا الايوان هو مسجد المدرسة حيث يتمركز محراب على حائطه الجنوبي، كما تفيد الكتابة المنقوشة على لوحة الرخام على حائطها القبلي بعبارات منها الكلمات التالية: ".... البيت الحرام أول مسجد وضع على وجه الأرض واختار لعبادته مواطن لاقامة السنن والفرض. وجعل هذا المسجد جار المسجد الأقصى ونعم الجار الطاهر واجرى لبانيه جزيل الثناء والثواب الوافر لقوله تعالى ﴿**إِنَّمَا يُعَمِّرُ مَساجد الله مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر**﴾ اختار لعمارة بيوته من رضي فعله وقوله وأطال بالسعد والبذل طوله ....".

يفتح الايوان الجنوبي (القبلي) على غرفتين، الغرفة الشرقية واستخدمت كغرفة كاتب المحكمة عندما استخدمت المدرسة كمقر لمحكمة القدس الشرعية في الفترة العثمانية. والغرفة الغربية كانت مكتبة للمدرسة ثم قاعة للمحكمة لاحقاً. كما يُحيط من الشرق الايوان الشرقي، وهو أقل بُعداً عن الايوان الجنوبي حيث يبلغ عمقه 6.92م، كان يجري فيه أمر تدريس طلبة الحديث[2]. له شبَّاكان

---

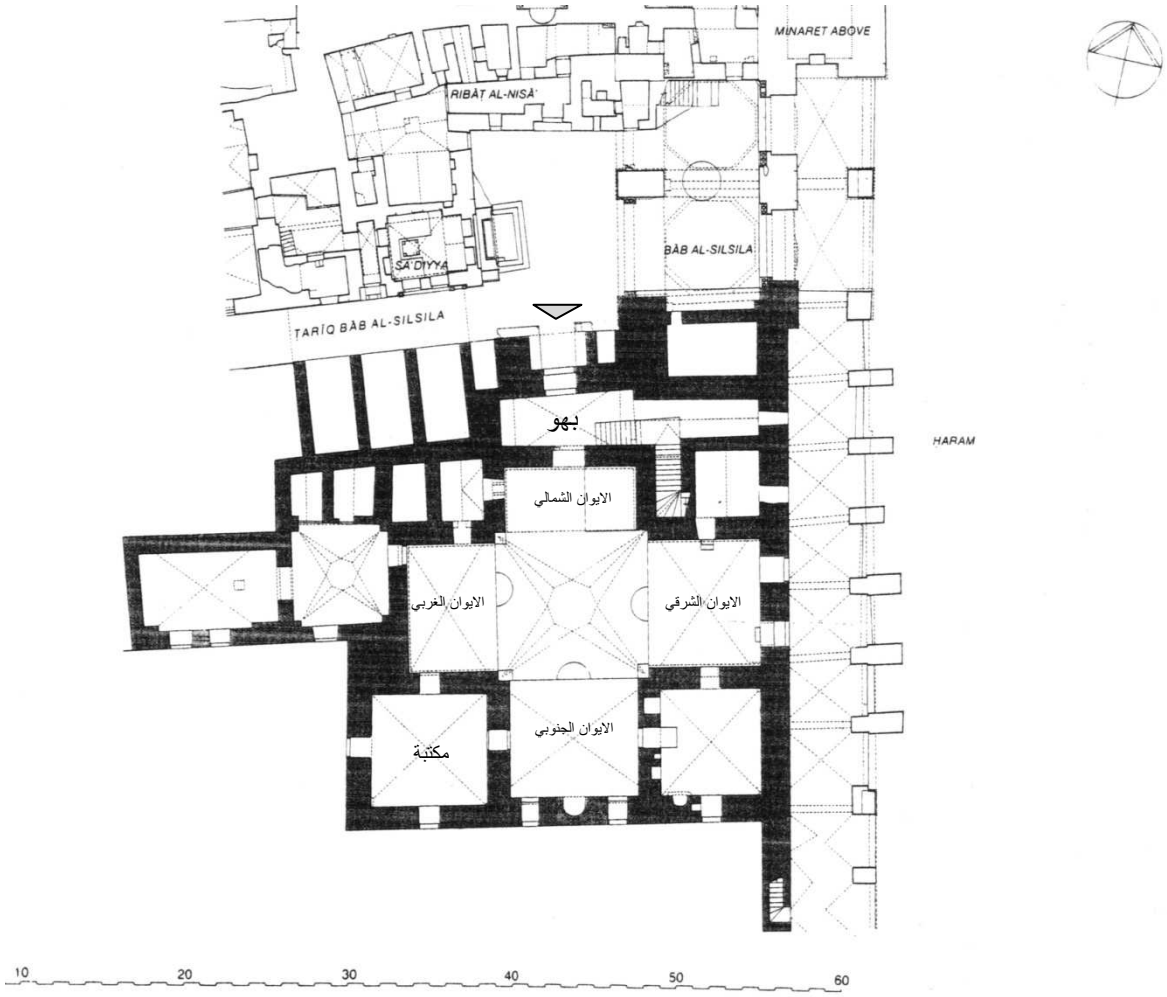
[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 230، العسلي، معاهد العلم، ص124؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص165؛ نجم، كنوز القدس، ص186؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، منارات مقدسية، ص81؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص244؛ ابوخلف، من معالم الحضارة الاسلامية، ص85.

[2] Burgoyne, Ibid , p. 223 pp. 231-232؛ العسلي، معاهد العلم ، ص122–124؛ غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص166؛ وزارة الأوقاف ومؤسسة احياء التراث، المصدر السابق ، ص81؛ العلمي، المدارس المملوكية، ص29 ص32؛ Rosovsky, City of the Great King, p. 399 p. 401.

على رواق الحرم الغربي، ذكرهما العمري بأنَّ ابوابهما من الآبنوس والعاج[1]. وفي الجهة المقابلة يقع الايوان الغربي الذي يقل عمقه بسبب تحديد لمساحته بالبناء الغربي القائم والذي تم استخدام الغرفتين المتتاليتين للايوان كجزء من غرف المدرسة، وتفتح احداهما على غرفتين من الناحية الشمالية. أما الايوان الشمالي فهو أصغرها مساحةً، حيث أنَّ بُعده قد حُدد بمدخل المدرسة والبهو(الدركاه) ويفتح الى غرفة من الناحية الغربية. يتم الصعود بواسطة درج حجري شرقي الدركاه الى طابق الميزانين، الذي يتألف من ممر وأربع غرف فوق الزاوية الشمالية الشرقية للمدرسة، ويتم اضاءتها وتهويتها عن طريق فناء وسطي مستطيل الشكل مفتوح الى أعلى. يستمر الصعود من نفس الدرج الى الطابق العلوي الذي شغل الخانقاة للصوفية. وقد امتد جزء من هذا الطابق فوق الرواق الغربي والجزء الآخر فوق طرف المدرسة الشمالي. حيث شغلت الغرف الكبيرة الشرقية غرف الصوفيين للتعبد، لإطلالتها على الحرم وساحته مباشرة، أما الغرف الأصغر في الناحية الشمالية الغربية فاستخدمت كغرف لسكن ومعيشة الصوفيين. اشتملت المدرسة كذلك على مطبخ ومطهرة وحمَّام وبئر لجمع مياه الأمطار[2].

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163.

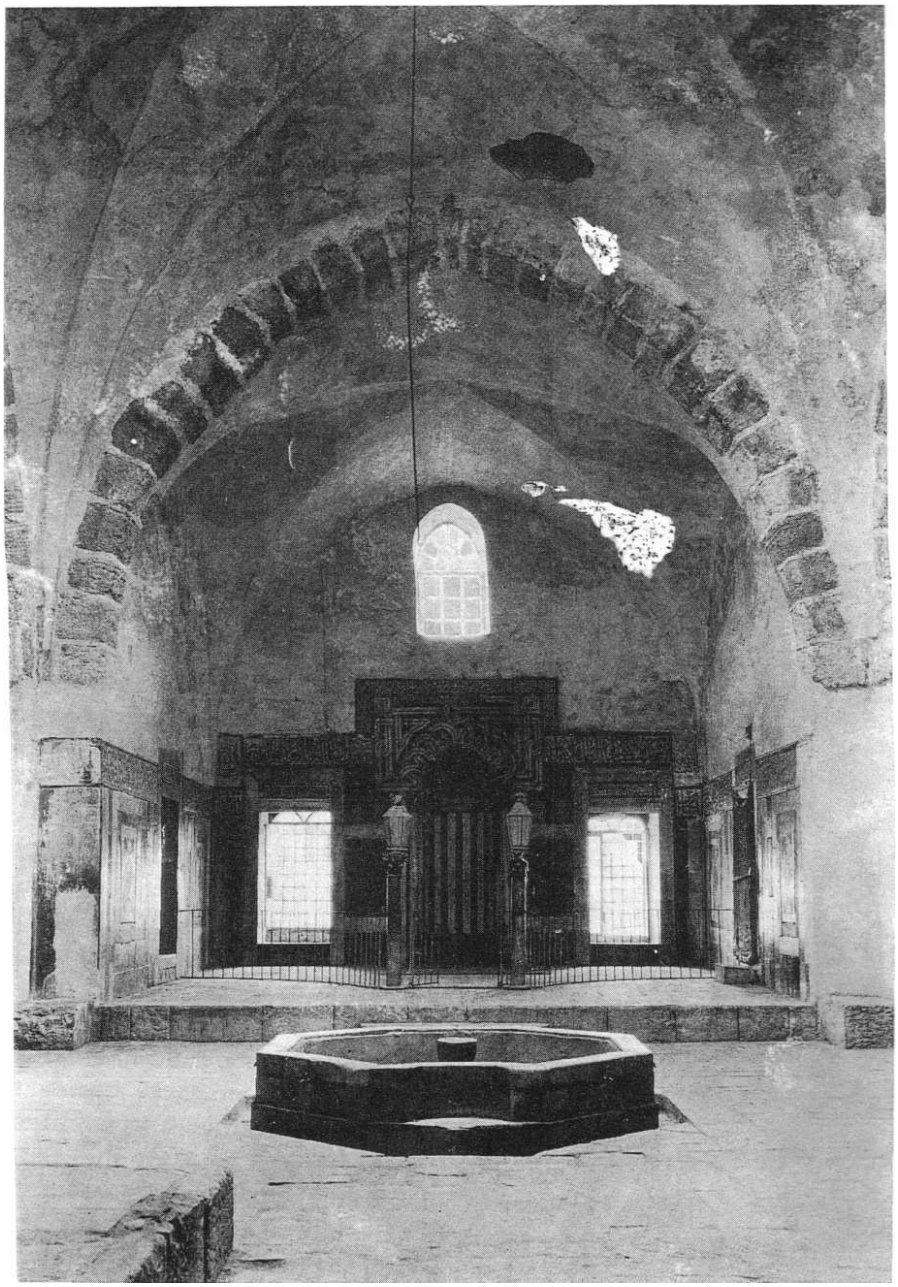
[2]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 223 pp. 231-234 p. 237؛ العسلي، معاهد العلـم ، ص122–123؛ وزارة الأوقـاف، منارات مقدسية، ص 81.



مخطط رقم 16

المسقط الافقي للطابق الأرضي للمدرسة التنكزية

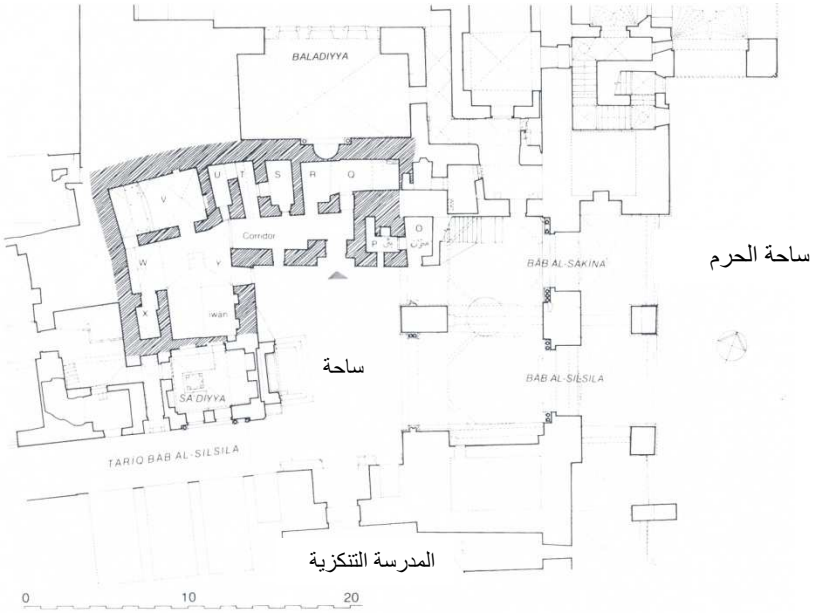
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 224, fig. 18.2



صورة 6: المدرسة التنكزية. منظر داخلي باتجاه الايوان الجنوبي حيث يظهر الصحن والمحراب
من Rosovsky, City of the Great King, 400, fig. 50

3.2.3 رباط النساء:

كما كان ملحقاً بالمدرسة رباطاً مجاوراً لها في الجهة الشمالية الغربية وهو **رباط النساء**، ويقع شمالي طريق باب السلسلة. مُكون من ايوانين وعدة غرف (مخطط رقم 17)، خُصص لرعاية اثنتي عشرة امرأة من المسلمات المسنات الفقيرات، احداهن تكون شيخة لهن، واخرى قيمة وبوابة، ولكل منهن حقٌ وواجبات عليهن القيام بها، وكن يتجمعن للصلاة وتلاوة القرآن والدرس.



مخطط رقم 17

المسقط الافقي للطابق الأرضي لرباط النساء

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 242, fig. 19.3

وبالتالي فإنَّ المدرسة التنكزية قد شملت العديد من الأقسام ولذلك عُرفت بمجمع التنكزية، حيث كانت مدرسة فيها المدرِّس والفقهاء، كما فيها داراً للحديث يرأسها شيخ المحدثين، والمحدثون هم الطلبة. وفيها الخانقاة للصوفية ويرأسهم شيخ الصوفية، وفيها تمَّ رعاية الأطفال الايتام وتعليمهم. كما وفيها رباط النساء وترأسهن شيخة الرباط. وقد كانت اعداد الطلبة الفقهاء أو المحدثون أو الصوفيون محددة وحسب شروط معينة، تم ذكر جميع هذه المعلومات في نص وقفية الأمير تنكز[1].

وقد استمرت المدرسة في أداء دورها في الحركة الفكرية في القدس حتى أواخر القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي في عهد السلطان قايتباي، حيث اتخذت مركزاً للقضاة والنواب وديواناً للقضاة ودار سكن لهم، وكان قد سكن فيها السلطان فرج اثناء اقامته في مدينة القدس. ثم عادت لتقوم بدورها الفكري في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي. أما في أواخر القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي في فترة الدولة العثمانية فقد استخدمت مقراً لمحكمة القدس الشرعية لمدة حوالي 200 سنة حتى أوائل الانتداب البريطاني. ثم اتخذت داراً لسكن رئيس المجلس الاسلامي الأعلى الحاج أمين الحسيني في عشرينيات القرن العشرين،

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص113–116.

ثم حُولت الى مدرسة شرعية حتى سنة 1969م حين اتخذتها السلطات الاسرائيلية مقراً لحرس الحدود، ولا تزال كذلك حتى الآن[1].

وبهذا فإنَّ لدور المدرسة التنكزية العظيم في الحياة الفكرية، ولبناءها المتميز بالفن المعماري الرائع، أنْ وصفها مجيرالدين الحنبلي بأنها" مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بناءها..."[2].

3.2.4 مأذنة (منارة) باب السلسلة:

تقع مأذنة باب السلسلة في الجهة الغربية من الحرم الشريف بين باب السلسلة وباب السكينة وبين المدرسة الأشرفية. وقد أعاد تعميرها الأمير تنكزعام 730هـ/ 1329–1330م، وذلك حسب النقش التذكاري الموجود على الجهة الشرقية لقاعدة المأذنة والذي ينص على:" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه المنارة المباركة في ايام مولانا السلطان الملك الناصر .... في سنة ثلاثين وسبعمائة".

يأتي بناء المأذنة على نظام بناء المآذن المملوكية في بلاد الشام حيث تتكون من قاعدة حجرية مربعة الشكل طول 4م وعرض 4م (مخطط رقم 18)، يقوم فوقها برج المأذنة المقسم الى طوابق وتظهر من خلال شريط مزخرف من الحجر البارز يفصل كل طابق عن الآخر، فالطابق الذي يلي القاعدة مربع الشكل أيضاً توجد به فتحات طولية على ثلاث جهات لادخال الضوء والهواء، ثم يأتي طابق آخر فوقه مربع الشكل تقع على جوانبه الأربع تجويفات فيها فتحات طولية تعلوها مقرنصات للزخرفة، وفوق هذا الطابق شرفة حجرية للمؤذن مربعة الشكل مرتكزة على كوابل حجرية ويحيط بها درابزين خشبي وثمانية أعمدة من الرخام، وفي وسطها المأذنة وتعلوها القبة. يأتي طول المأذنة ما بين 20 و30م وهذه النسبة بين ارتفاع المأذنة وعرضها يجعلها ترتفع بشكل جميل ومتناسق[3]. وتأتي أهمية هذه المأذنة كما يصفها مجيرالدين الحنبلي بأنها" المختصة بالأماثل من المؤذنين وعليها عمل المسجد واعتماد بقية المنائر"[4]، حيث يؤذن فيها أولاً للصلاة فتُعطى

---

[1] Burgoyne, Mamluk Jerusalem , pp. 71-72 p. 228 p. 240؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس ، ص127–130؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص81–82؛ نجم، كنوز القدس، ص185–186؛ العلمي، المدارس المملوكية، ص32–35؛ الدجاني وشكيل، الصراع الاسلامي، ص514؛ الكيلاني وباروت، الطريق الى القدس، ص305.

[2]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387؛ عبد المهدي، المدارس في بيت المقدس، ج2، ط1، ص43.

[3]. Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 48 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 244؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم1، ص399؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص163؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص59.

[4]. الحنبلي، الانس الجليل، ج2، ص379.

الاشارة للمؤذنين الآخرين للآذان. وقد عُرفت المأذنة لاحقاً بمنارة المحكمة وذلك عند اتخاذ المدرسة التنكزية مقراً لمحكمة القدس في العصر العثماني[1].



مخطط رقم 18 المسقط الأفقي لمأذنة باب السلسلة

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 246, fig. 20.3





صورة 7 ، 8 : مأذنة باب السلسلة

من الزاوية الشمالية الشرقية ومن الزاوية الغربية (تصوير الباحثة)

[1]. نجم، كنوز القدس، ط1، ص187.

3.2.5 السقاية (سقاية العادل):

تقع في الجهة الغربية من الحرم جنوبي سوق القطانين وشرقي حمّام الشفا. أنشأها الملك العادل سيف الدين أبوبكر بن ايوب عام 589هـ/ 1193م، حسب النقش بالخط النسخي الأيوبي فوق بوابة تؤدي الى المطهرة. وقد عُرفت بالسقاية في العصر الأيوبي وبالمتوضأ في العصر المملوكي ثم بالمطهرة في العصر العثماني.

يتم الدخول الى السقاية من خلال باب يُعرف بباب السقاية أو باب المطهرة، والواقع على الحائط الغربي بين باب القطانين وباب السكينة. وتقع عند آخر زقاق المطهرة السقاية وكان فيها بئر وبركة وسقاية (سبيل) لسقاية الناس وليستعملها المصلون للوضوء. وتُقسم الى قسمين: مطهرة للرجال مكونة من عدة غرف ومطهرة للنساء في الطابق العلوي وفيها مكان للسكن.

وقد تم تعمير السقاية بفضل أحد رجال السلطان المنصور قلاوون فعُرفت لذلك أيضاً بالسقاية المنصورية. وقد قام بتعميرها أيضاً علاء الدين البصير في فترة حكم الظاهر بيبرس في سنة 665هـ/ 1266–1267م. وحسب ما ذُكر في وقفية الأمير تنكز عام 730هـ/1329م فإنَّ الأمير تنكز قد قام بتعمير المطهرة وعُرفت بالمطهرة التنكزية، وأنها قد اشتملت على سبعة غرف منها مستحم وبها حوض حجر، ولكل غرفة حوض ماء يجري اليه الماء من قناة العروب[1]. كما ويقع جنوبي السقاية حوض السبيل الذي أنشأه تنكز ويُعرف بسبيل تنكز وقد تم ذكره في الوقفية[2].

3.2.6 سوق القطانين:

يقع سوق القطانين في الجهة الغربية من الحرم القدسي عند باب القطانين، ويمتد هذا السوق من الشرق الى الغرب حيث أنَّ له مدخلان؛ الأول من طريق الواد بالجهة الغربية، والثاني من ساحة المسجد الأقصى الشريف من الجهة الشرقية.

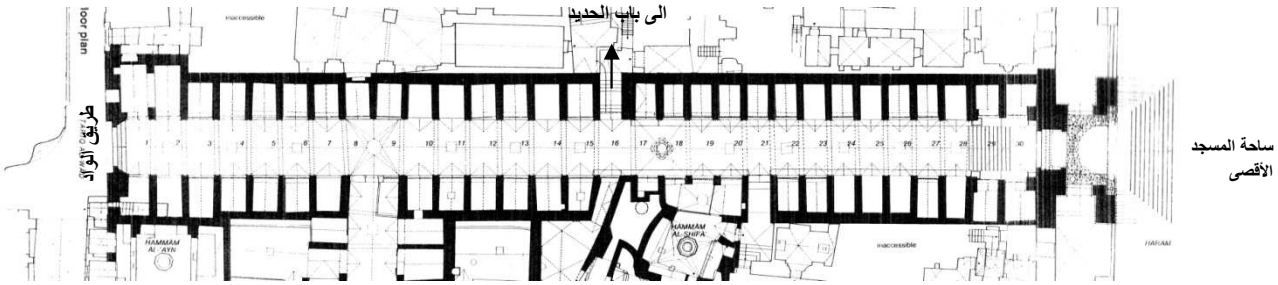
أنشأه الأمير سيف الدين تنكز سنة 737هـ/ 1336–1337م عندما أعاد بناء هذه المنطقة حيث أتمَّ بناء الرواق الغربي لساحة المسجد، من منارة باب السلسلة الى باب الناظر عام 737هـ/ 1336م، حيث أنَّ الجزء الشمالي من الرواق الغربي من باب الناظر الى باب الغوانمة كان قد بُني في عهد الملك الناصر محمد في 707هـ/ 1307م، والجزء الجنوبي قد بُني في عام 713هـ/ 1313م.

---

[1]. Le Strange, Palestine Under the Moslems, p. 188 ؛Hawari, Ayyubid Jerusalem, pp. 52-53؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص224–229.

[2]. العسلي، المصدرالسابق، ص241–242؛ العسلي، وثائق مقدسية، ص112.

طول هذا السوق يصل الى حوالي المائة متر، وعرضه عشرة أمتار (مخطط رقم 19). يشتمل على عدد كبير من الدكاكين المتشابهة البناء والحجم على كلا الجانبين، يصل عددها حوالي 50 دكاناً وحاصلاً، خُصصت لبيع الأقمشة القطنية والحريرية التي كانت تحملها القوافل التجارية من الهند عن طريق بغداد والبصرة والموصل. ويقع فوق صفيّ الدكاكين طابق علوي يشتمل على غرف للسكن تُعرف بالربع، وهي منفصلة تماماً عن الدكاكين حيث يتم الوصول اليها عبر أدراج عدة متفرقة سواء في الجهة الشمالية أو الجنوبية للسوق تؤدي الى اسطح يتم النفاذ منها الى داخل الربع. وتتم إضاءة هذه الربع وتهويتها من خلال فتحات مطلة على داخل السوق. يقع بين صفيّ الدكاكين ممر طولي مسقوف على شكل قبو نصف برميلي محمول على عقود مدببة الشكل، ويتخلله فتحات صُممت لأجل السماح للضوء والهواء ليتخللان السوق، باستثناء الجزء الشرقي من السوق والملاصق لباب القطانين فإنه مسقوف بطريقة الأقبية المتقاطعة. كما تمّ تزيين السقف بالمقرنصات التي تتدلى من بعض الفتحات المجوفة[1]. وينفذ من داخل السوق في الجهة الشمالية في منتصف السوق عدة درجات تؤدي الى طريق باب الحديد. وفي الجهة الجنوبية منفذ الى المطهرة ومداخل الى حمّام الشفا وخان تنكز[2].



مخطط رقم 19

المسقط الافقي لسوق القطانين

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 274, fig. 24.2

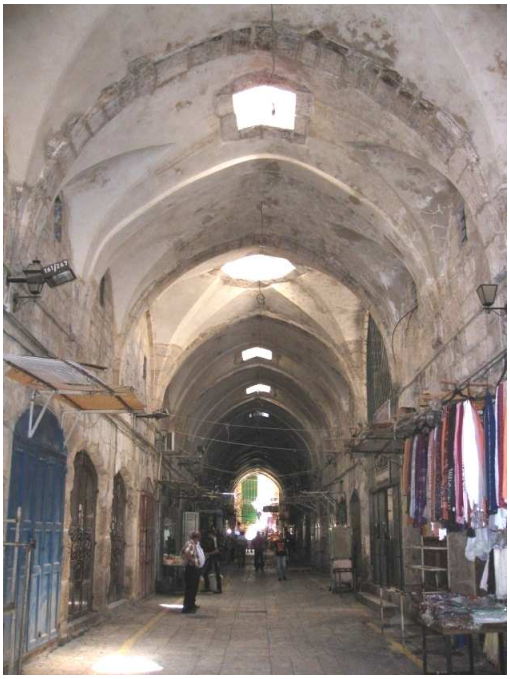
استمرت أهمية هذا السوق في العصر المملوكي كمحطة تجارية اساسية، إلا أنَّ هذه الأهمية تضاءلت عام 903هـ/ 1497م بعد تحول طريق التجارة إثر اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح الى أوروبا، فقلَّ على أثرها الاستخدام الوظيفي للسوق. وقد تمَّ ترميمه عدة مرّات في الفترات اللاحقة[3].

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 88 p. 280؛ Le Strange, p, p.188 p.191؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم 1، ص289؛ العسلي، من آثارنا، ص57؛ نجم، كنوز القدس، ص195؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص71؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص22؛ ابوخلف، من معالم الحضارة الاسلامية، ص110؛ Kroyanker, Jerusalem Architecture, p. 50.

[2]. Burgoyne, Ibid, p.279

[3]. العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص58؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص204.



صورة 9: منظر عام لسوق القطانين باتجاه الشرق
تصوير الباحثة



صورة 10: احدى فتحات التهوية والاضاءة في السوق
تصوير الباحثة

يُعتبر هذا السوق من أهم اسواق مدينة القدس حيث وصفه الحنبلي بأنه "سوق في غاية الارتفاع والاتقان، لم يوجد مثله في كثير من البلاد". كما وشأن **باب القطانين** الذي أتمَّ عمارته الأمير تنكز سنة 737هـ/ 1336م وذلك حسب النقش التذكاري فوق الباب والذي ورد نصه كالآتي: " بسم الله الرحمن الرحيم جدد هذا الباب المبارك في أيام مولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين محمد بن قلاوون بالمباشرة العالية السيفية تنكز الناصري أعز الله انصاره في شهور سنة سبع وثلاثين وسبع مائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله". وقد وصفه مجيرالدين بأنه" باب عظيم بناؤه في غاية الاتقان"[1].

وقد سُمي باب القطانين بهذا الاسم نسبة الى السوق الذي ينتهي إليه كما عُرف ببوابة تجار القطن، يُنزل إليه بعشر درجات من داخل ساحة الحرم، وله مصاطب على جانبيه، وهو متقن العمارة والزخرفة حيث أنه باب مرتفع يتكون من مصراعان من الخشب المصفح بالنحاس المذهب المخرم، وفوقه الشريط الكتابي ويأتي فوقه عقد ثلاثي التجويفات ملون بأحجار سوداء وبيضاء، ويقع فوقه مجموعة من المقرنصات فوقها نصف قبة تنتهي الى عقد حجري مدبب الشكل من الأحجار الحمراء والبيضاء اللون[2]. أما بوابة سوق القطانين الغربية فقد أُعيد بناؤها على آثار بوابة أُنشأت سابقاً، ويظهر ذلك من خلال طبيعة الأحجار المستخدمة سابقاً والتي استخدمت عند

[1]. الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص401 ص 383؛ بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص100.

[2]. Briggs, Muhammadan Architecture, p. 106؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص161–162؛ النابلسي، الحضرة الأنسية، ص290؛ الحنبلي، المصدر السابق، ج2، ص404.

إعادة التعمير. والبوابة تتشكل من قوس مدبب الشكل بتجويف الى الداخل وتحته أحجار مبنية بشكل دائري تستند على قوس مبسّط الشكل، على دعامة من مجموعة احجار ينفذ تحتها المدخل الذي يرتفع مقدار أربع درجات عن طريق الواد، ولا يوجد له أبواب حيث أنه يؤدي الى السوق، فقط ابواب الدكاكين تغلق كما باب القطانين الشرقي كان يُغلق ليلاً وتحت الحراسة.





صورة 11: المقرنصات على السقف أمام حمام الشفا
ويظهر اسم المهندس عليها بالنص: محمد بن أحمد بن غليش رحمه الله
(تصوير الباحثة)

تمَّ تنفيذ بناء باب وسوق القطانين من قِبَل المهندس السوري محمد بن أحمد بن غُليش الشامي من دمشق، حيث يظهر اسمه على زخارف المقرنصات الموجودة على السقف في داخل السوق، عند مدخل حمام الشفا. وله عدة أعمال في القاهرة مشابهة لطراز عمارة سوق القطانين[1].

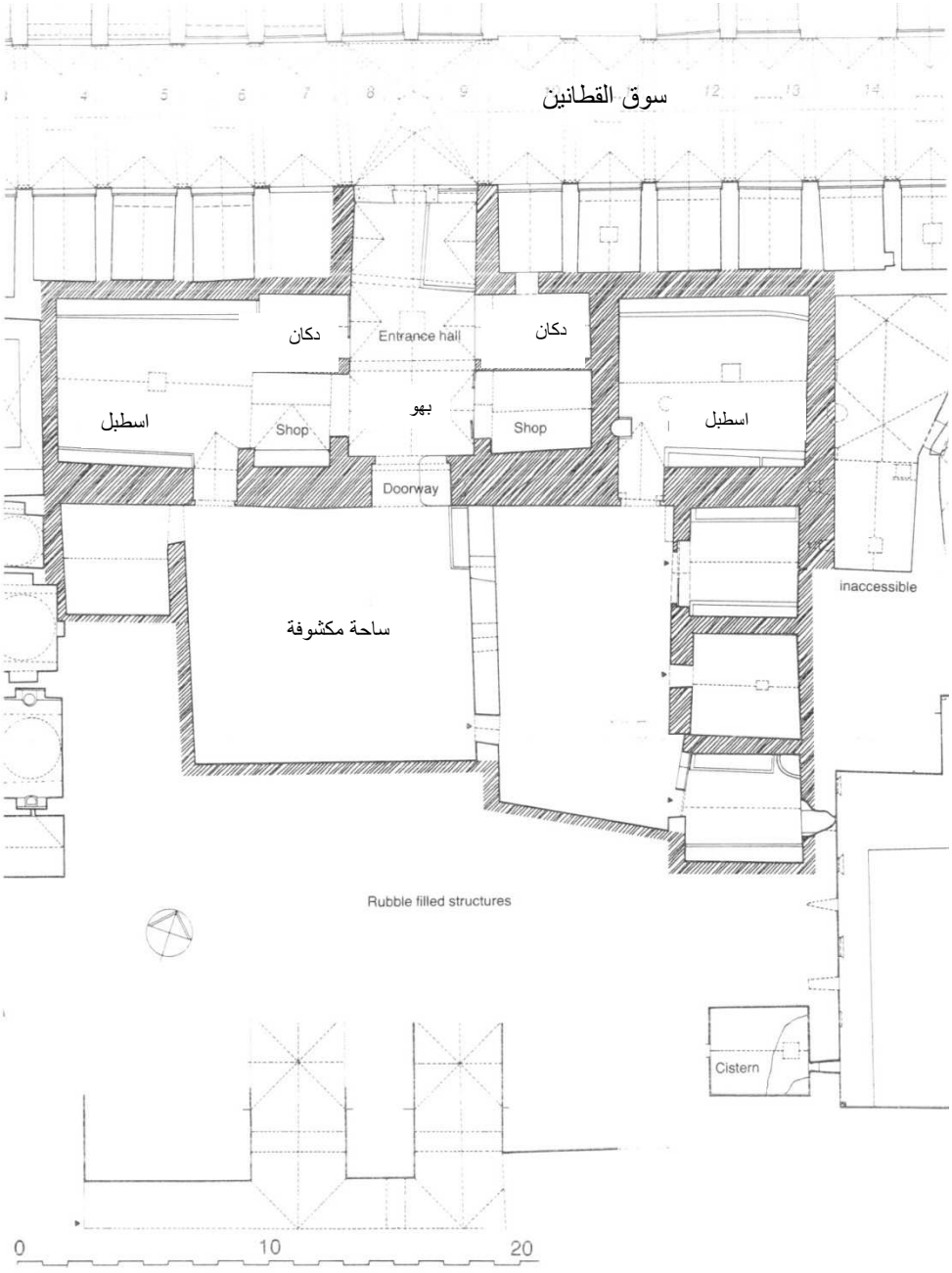
3.2.7 خان تنكز:

لم يكن سوق القطانين مجرد قيسارية، إنما اشتمل على خان المعروف بخان تنكز وحمَّامي الشفا والعين. أما **خان تنكز** فيُعرف أيضاً بخان اوتوز بير[2]، ويقع في الجهة الجنوبية من السوق على بُعد سبعة حواصل من مدخل السوق الغربي. أمر ببناءه الأمير تنكز سنة 737هـ/ 1336م، وتبلغ مساحته 32x22م^2 . تخطيط الخان تبع التصميم العام للخانات من حيث صف الغرف على طابقين حول صحن مكشوف (مخطط رقم 20). ويتم الدخول اليه من خلال بوابة من داخل سوق القطانين تؤدي الى بهو مستطيل الشكل يقع على كلا جانبيه دكاكين واسطبلات يغطيها سقف برميلي الشكل. وفي نهاية البهو من الناحية الجنوبية مدخل عرضه 2.76م يؤدي الى الصحن المكشوف وهي ساحة مكشوفة تتجمع حولها عدد من الغرف على الطابق الأرضي والعلوي، ونُقش فوق هذا المدخل نص كتابي يبين اسم الباني وسنة البناء وشعار(رنك) الأمير تنكز؛ الكأس داخل اطار دائري الشكل، في ثلاث مواضع حيث يظهر على جانبي الدعامة فوق المدخل وفي وسطها، وتقع

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 98 p. 279.

[2].اوتو زبير Utuz Bir : كلمة تركية تعني الرقم 31(Bahat, The Illustrated Atlas of Jerusalem, p. 115)

فوق المدخل نافذة تسمح بمرور الضوء الى البهو. أما الطابق العلوي فيتألف من مجموعة من الغرف فوق البهو وعلى امتداد السوق وحول الساحة المكشوفة، وقد استخدمت لسكن ومبيت نزلاء الخان[1].



مخطط رقم 20

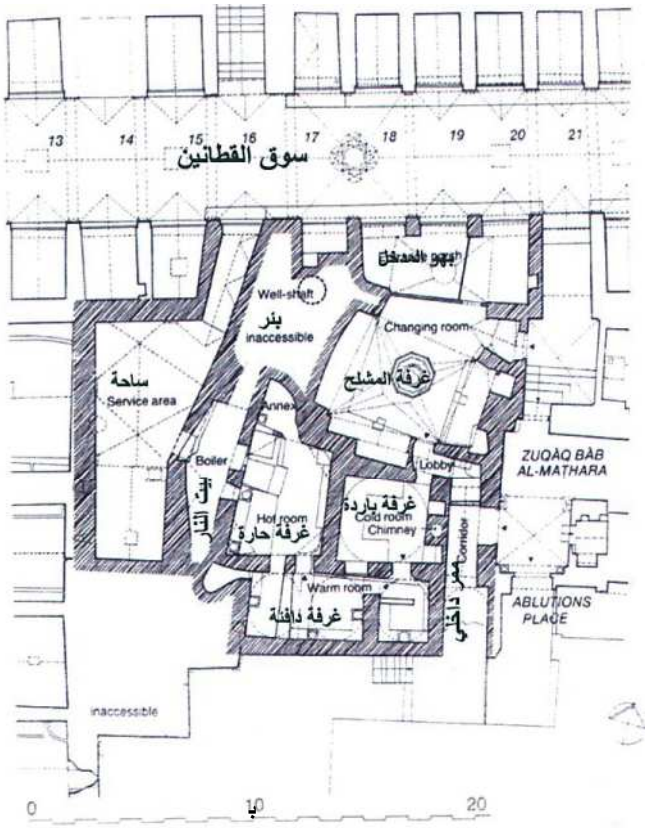
المسقط الأفقي للطابق الأرضي لخان تنكز

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem,283, fig. 24.6

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p. 277 p.280؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص63 ص65 ص69 ص72؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص148.

3.2.8 حمّام الشفا:

يتوسط الخان الحمامين الذين أنشأهما الأمير تنكز، حيث يقع حمّام الشفا شرقي الخان وحمّام العين غربه. تمّ انشاء **حمّام الشفا** في سنة 737هـ/ 1336م، وقد عُرف بهذا الاسم للاعتقاد بأنَّ من يستحم فيه يشفى من مرضه، نظراً لما به من مياه معدنية تشفي الأمراض الجلدية، وهذا الاعتقاد مرتبط باسم سيدنا ايوب حيث يُقال بأنه قد استحم في هذا الحمّام وشُفي. كما عُرف بحمّام عاشورا، وهو العاشر من محرم حيث استحب الاستحمام بهذا الحمّام للاعتقاد بأنَّ مياهه تختلط مع مياه زمزم في هذا اليوم، فتصبح المياه لها قدرة هائلة على شفاء الأمراض[1].



مخطط رقم 21
المسقط الأفقي لحمام الشفا
من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 282, fig. 24.5

كانت تُستمد مياه الحمّام من برك سليمان خلال قناة العروب من ينابيع وادي العروب. ويُعتقد بأنه عند انسداد هذه القناة فإنَّ ماءه كانت تُستمد من آبار تحت قبة الصخرة، حيث أنَّ هناك اعتقاد بأنَّ هذه الآبار تحت الصخرة، تخرج منها المياه في أربع اتجاهات، أحدهما باتجاه الجنوب الى حمّام الشفا، وربما كذلك أنَّ مياهه كان يتم توفيرها من ماء عين سلوان[2].

يتبع نظام تخطيط الحمّام (مخطط رقم21) نظام الحمامات الرومانية من حيث التدرج في التنقل بين غرف الحمّام، حيث يتم الدخول الى الحمّام من مدخله الرئيسي الواسع الواقع في ممر سوق القطانين وهناك مدخل آخر جانبي من السوق أيضاً، من الناحية الشرقية ينفذ كذلك الى المشلح (غرفة او قاعة تغيير الملابس) التي يتوسطها حوض ماء بارد رخامي ثُماني الشكل فيه مجموعة من الفتحات تشكل مخارج مياه النافورة، ويمتد على جوانبه الثلاثة مصاطب حجرية يستخدمها المستحمون للجلوس[3]. ثم يتم الانتقال عبر ممر الى الغرفة الباردة ثم الى غرفة شبه منفصلة

---

[1]. العسلي، من آثارنا، ص185 88. Dow, The Islamic Baths of Palestine, p.

[2]. العسلي، المصدر السابق، ص179؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص245؛ Dow, Ibid, p. 29.

[3]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111–112 ؛ وزارة الأوقاف، منارات مقدسية، ص142؛
Burgoyne, Mamluk Jerusalem , p.282 pp. 284-285.

بجدار على ارتفاع منخفض عُرفت ببيت الدواء حيث تتم فيها المداواة، ثم الى الغرفة الدافئة ثم الحارة والتي تُعرف بالحمّام السخن أو ببيت النار، ومن الغرفة الحارة هناك غرفتين، شمالية فيها بركة ماء ساخنة عُرفت بخلوة أيوب؛ حيث استخدم الحمّام وشُفي فعُرفت هذه الغرفة باسمه، أما الغرفة الجنوبية فعُرفت بخلوة النبي داوود. ويغطي هذه الغرف اسقف مقببة يتخللها فتحات فخارية مغطاة بالزجاج بعضه ملوَّن، حيث يتخلل الضوء عبر الغرف من خلالها ولا تسمح بإخراج الحرارة. وتشتمل الغرف على كوات وخزائن ومصاطب واجران لاستخدامات المستحمين، وجميع أرضيات الغرف مغطاة بالرخام الملون[1].

ولتوفير المياه الساخنة في الحمّام وتسخين الأرضيات في غرف الحمّام تقع غرفة التسخين (الأقميم أو الاقمين)[2] بجانب الغرفة الساخنة وتحتها الموقد أو الفرن، ويتم تخديمها من خلال مدخل آخر منفصل من ممر السوق يقع غربي الحمّام وتُوضع فيه الوقود في جانبه الجنوبي. وللتخلص من المياه التي تم استخدامها في الحمام يتم تجميعها عبر قنوات على جوانب الغرف، ومنها الى مجمع رئيسي في الناحية الجنوبية الشرقية للغرفة الدافئة، والذي يُشكل أيضاً مكان تصريف المياه للمطهرة المجاورة[3].







صور 12 ، 13 ، 14
صور توضيحية لسقف غرف حمام الشفا
والفتحات الفخارية التي تتخلل القباب
تصوير الباحثة

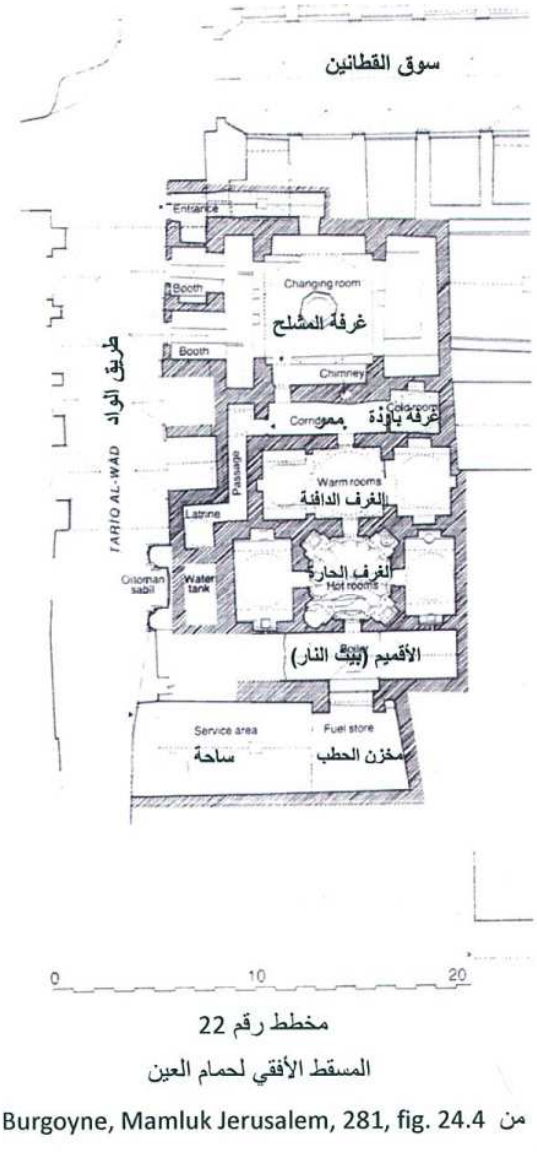
[1]. العسلي، من آثارنا، ص183–184؛ Dow, The Islamic Baths of Palestine, pp.88-90؛ Kroyanker, Jerusalem Architecture, p.50.

[2]. الأقميم أو الاقمين أو القميم: بمعنى فرن الحمّام (العسلي، وثائق مقدسية، ص123).

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 286-287.

3.2.9 حمّام العين:

أما **حمّام العين** فيقع عند إلتقاء طريق الواد مع باب سوق القطانين الغربي. أنشأه تنكز عام 737هـ/ 1336م وقد عُرف بحمّام العين نسبة الى عين العروب التي كان يستمد ماءه منها بواسطة قناة السبيل، التي كانت تزود الماء من العين الى مدينة القدس.



مخطط رقم 22

المسقط الأفقي لحمام العين

من Burgoyne, Mamluk Jerusalem, 281, fig. 24.4

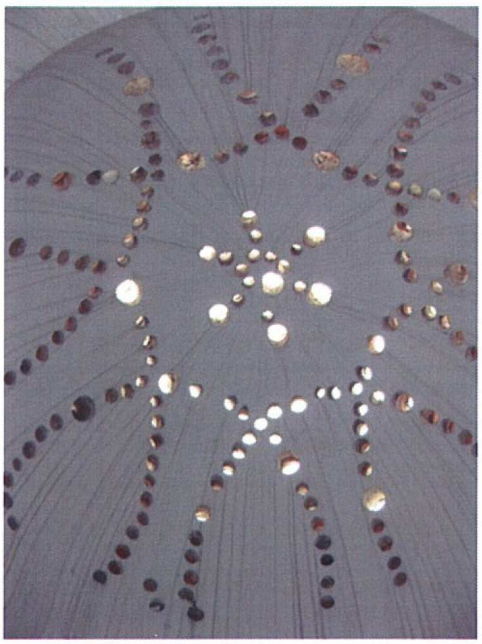
اتجاه المخطط العام للحمّام جاء بشكل عمودي على ممر سوق القطانين، أما تخطيط الحمّام (مخطط رقم 22) فهو أيضاً اشتمل على الغرف الثلاث الرئيسية التي يتم الدخول اليها من خلال باب الحمّام من طريق الواد ثمَّ يتم النزول بدرجات الى باب صالة الاستقبال الرئيسية، حيث أنَّ أرضية الحمّام منخفضة عن مستوى أرضية طريق الواد بحوالي 1.6م. وهذه الصالة التي تُعرف بالمشلح يقع في وسطها بركة فيها نافورة ماء، وتشتمل على مصاطب لاستعمال المستحمين. ثمَّ يتم الانتقال من غرفة المشلح خلال باب في جداره الجنوبي الى غرف الحمّام الاخرى حيث يشتمل على غرفتين دافئتين وغرفتين ساخنتين وبيت النار أو الأقميم أي الغرفة التي يوجد بها جهاز التدفئة. وتشتمل الغرف على مصاطب واجران مياه لاستعمال المستحمين. وكانت أرضية الحمام مغطاة بالرخام الملون[1].



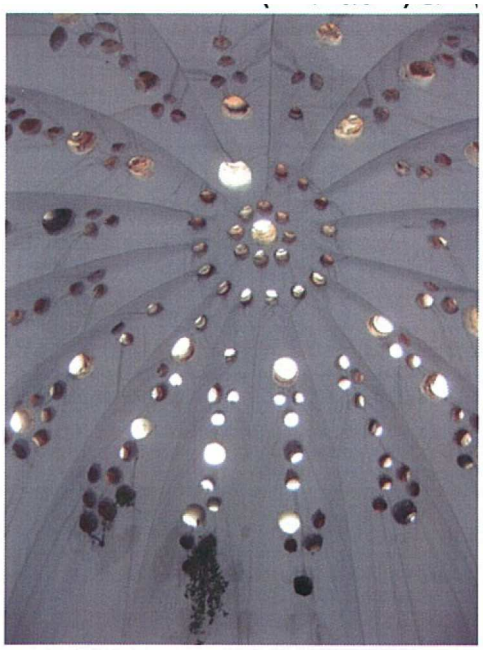
صورة 15: نافورة تتوسط غرفة المشلح في حمام العين (تصوير الباحثة)

[1]. Dow, The Islamic Baths of Palestine, pp. 90-91 ؛Burgoyne, Mamluk Jerusalem, pp. 287-288 p. 291 ؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص190 ص195.

صور توضيحية من داخل وسطح حمام العين (تصوير الباحثة)



صورة 16: قبة الغرفة الدافئة الرئيسية في حمّام العين



صورة 17: قبة الغرفة الحارة الرئيسية في حمّام العين



صورة 18: سطح حمّام العين من الناحية الجنوبية الغربية





صور 19 ، 20: أجران المياه من داخل غرف حمّام العين

كانت هذه الانجازات المعمارية للأمير تنكز التي تقع ضمن حدود المربع المخصص للدراسة والبحث والتي تراوح اتمام تشييدها ما بين عامي 729هـ/ 1328–1329م و 737هـ/ 1336–1337م، هذا بالإضافة الى أعمال معمارية اخرى قام بها الأمير تنكز في محيط الحرم القدسي وداخله منها:

3.2.10 مأذنة (منارة) الغوانمة:

تقع في الركن الشمالي الغربي من ساحة المسجد الأقصى عند باب الغوانمة، وتُعرف أيضاً بمنارة قلاوون ومنارة السرايا. بُنيت في عام 677هـ/ 1278م في عهد السلطان الملك منصورالدين لاجين، ثم جددها الأمير تنكز في عام 730هـ/ 1329–1330م[1]، وذلك وفق النقش بخط النسخ المملوكي ما نصه: "بسم الله الرحمن الرحيم أمر بعمارة هذه المنارة المباركة في أيام مولانا السلطان الملك الناصر... في سنة ثلاثين وسبعماية"[2].



صورة 21: مأذنة الغوانمة من الجهة الجنوبية
تصوير الباحثة

المأذنة عبارة عن بناء مربع الشكل على نظام بناء المآذن في بلاد الشام ويقع على قاعدة مربعة حجرية مرتفعة، طول 5م وعرض 5م تنتهي بمجموعة من المقرنصات، يظهر من القاعدة الجانبين الشرقي والجنوبي فقط، أما الجانبين الشمالي والغربي فيشكلان جزء من صخر الحرم في تلك الزاوية. ويقوم فوقها عدة طوابق يفصل فيما بينها افريز حجري مزخرف، ويتخللها عدة تجاويف وفتحات للتهوية والاضاءة. وتنتهي بمجموعة اخرى من المقرنصات يعلوها شرفة حجرية بدرابزين وأعمدة رخامية صليبية ومظلة خشبية يتوسطها بناء المأذنة المربع والأصغر حجماً من مربع المأذنة في الطوابق الأسفل، ويعلوه مثمن ثم القاعدة التي تقوم فوقها قبة المأذنة. يتم الصعود الى المأذنة من خلال درج خارجي يصل الى الطابق الثاني ثم يتم الدخول الى المأذنة والصعود من خلال درج حلزوني الشكل الى شرفة المأذنة. وتُعتبر هذه المأذنة من أعظم ابنية المآذن واتقنها عمارة. ويُعتقد بأنها تقع على آثار منارة سابقة البناء في عهد الأمويين[3].

---

[1]. بيضون، دليل المسجد الأقصى المبارك، ص59.

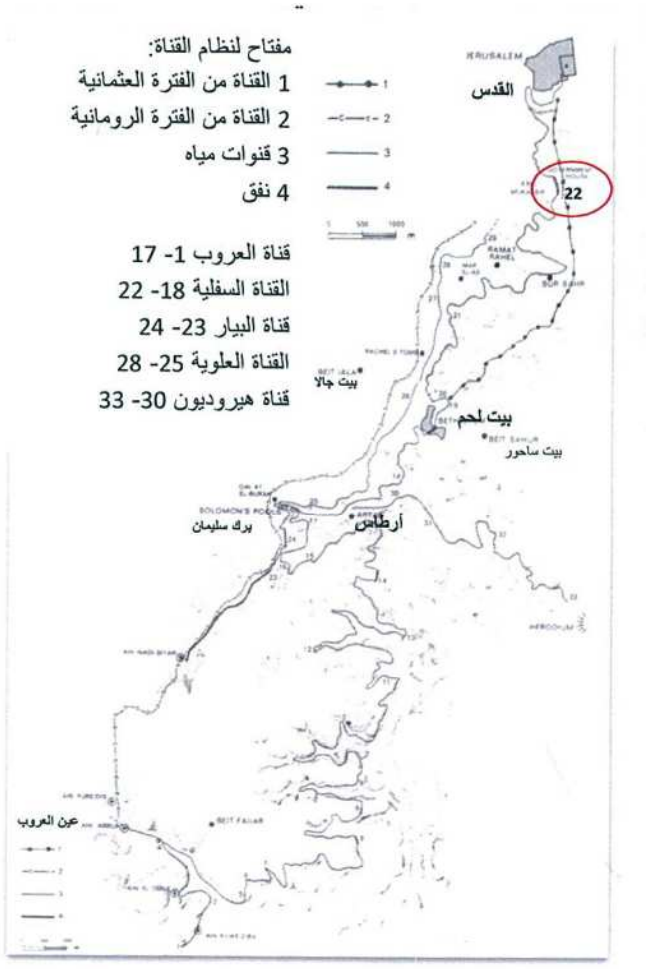
[2]. النابلسي، الحضرة الأنسية، قسم1، ص400.

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 178 p. 180؛ النابلسي، المصدر السابق، قسم1، ص400؛ العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص159؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص379–380.

3.2.11 قناة العروب:

تصل هذه القناة المياه من عين العروب الواقعة على بعد حوالي 19كم جنوبي مدينة القدس، حيث تتجمع مياه هذه العين في برك سليمان الواقعة بين مدينتي بيت لحم والخليل، ويتم توصيلها الى مدينة القدس عبر هذه القناة التي تعود الى فترة حوالي القرن السادس ق.م.

كان يتم توفير المياه عبر قناتين: قناة علوية وقناة سفلية، أما القناة السفلية فهي الأقدم والأكثر شهرة وتم تعميرها عدة مرات خاصة في عهد هيروديون، وقد عرفها المسلمون باسم قناة السبيل، وكانت هذه القناة بطول 21كم ومتعرجة وذلك لضمان انحدار المياه بقوة وبسرعة. وكانت تبدأ من عين العروب حيث الينابيع ترتفع حوالي 810م فوق سطح البحر، وتمتد حتى تصل الى برك سليمان وعيون أرطاس حيث هناك ينابيع اعلى البرك ترتفع حوالي 800م فوق سطح البحر، وينابيع اخرى اسفل البرك ترتفع حوالي 765م فوق سطح البحر، وتسير المياه الى بيت لحم ثم باتجاه بركة السلطان عبر صور باهر والثوري، ثم تسير بمحاذاة البركة من الناحيتين الغربية والشمالية حتى تدخل مدينة القدس بين باب المغاربة وباب النبي داوود (باب صهيون)، ثم تسير القناة الى طريق باب السلسلة (قرب درج العين) ومن هناك تدخل الى الحرم على ارتفاع 735م فوق سطح البحر، وتمتد منها قنوات الى الأسبلة والبرك والحمامات وغيره... (مخطط رقم 23). وقد عمل الأمير تنكز على اعادة تعمير هذه القناة واستنفذ جهوداً ضخمة لتنفيذ مثل هذا المشروع المعقد، حيث أنَّ طول القناة تمتد لعدة كيلومترات في منطقة ذات طوبوغرافية صعبة، مما تطلَّب خطة هندسية ومعمارية مدروسة وايادي عاملة كثيرة. وقد ابتدأ في اعمار القناة عام 727هـ/ 1327م وانتهى منها بعد عام في 728هـ/ 1327–1328م، إذ تدفقت المياه في حوض "الكأس" الذي أعاد تعميره الأمير



مخطط رقم 23 قنوات المياه (من Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,83)

تتكز أيضاً. ويُعتبر مشروع قناة العروب من المشاريع البارزة لسد الحاجة المتزايدة للماء في مدينة القدس، وقد ظلت هذه القناة تزود المدينة بالمياه حتى قُرب نهاية الحكم العثماني حيث تم تعمير أجزاء من القناة السفلية في 1902م[1].



صورة 22: القناة السفلية، نفق عند موقع رقم 22
من Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,81

3.2.12 الكأس:

يقع الكأس في الجهة الجنوبية من صحن قبة الصخرة بين المسجد الأقصى ودرج صحن الصخرة المواجه له. وهو عبارة عن حوض رخامي دائري الشكل، وفي وسطه نافورة ماء تشبه الكأس وعلى جوانبه فتحات لتدفق المياه الى الحوض. وعلى جوانب الحوض تخرج المياه ليستعملها المصلون للوضوء كما استعملت مياهه للشرب، ثم تسيل المياه في مجرى حول الحوض للتخلص منها.

وقد تم انشاء الكأس في عهد السلطان الملك العادل سيف الدين ابوبكر بن ايوب عام 589هـ/ 1193م. ثم أعيد تعميره لاحقاً مرات عدة، ومنها عندما قام الأمير تنكز بتعمير قناة السبيل في 727–728هـ/ 1327–1328م عمَّر الكأس وأجرى اليه المياه من القناة[2].

---

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.41؛ Dow, The Islamic Baths, pp. 28-29 p. 84 ؛Mazar, The Aqueducts of Jerusalem,pp. 80-81؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص145–146؛ الحنبلي، الانس الجليل، ج2، ص387؛ العارف، المفصل في تاريخ القدس، ص204؛ الامام، مدينة القدس في العصر الوسيط، ص183؛ عثامنة، فلسطين في العهدين الايوبي والمملوكي، ص423–424؛ Wilson, The Recovery of Jerusalem, p. 19 .

[2]. Hawari, Ayyubid Jerusalem, p. 183 ؛ الحنبلي، الأنس الجليل، ج2، ص387؛ علي، القدس في العصر المملوكي، ص243؛ العسلي، من آثارنا في بيت المقدس، ص229؛ العارف، المفصل، ص204؛ بيضون، دليل المجد الأقصى المبارك، ص90.

هذا بالاضافة الى أعماله الاخرى داخل المسجد الأقصى كتجديد الشباكين والرخام غربي المنبر وشرقي المحراب[1]، كما وترميم قبة الصخرة وسقفها وتعمير القلعة[2] .



صورة 23: الكأس

تصوير الباحثة

3.3 أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية:

تُعد وقفية الأمير تنكز والمؤرخة بتاريخ الثاني عشر من شهر جمادي الاول لسنة 730هـ من الوثائق الهامة التي تضع اساساً في بيان وتوضيح معلومات هامة عن كيفية عقد الوقفية، والمعاملات التي كانت تتم في ذلك الوقت، ووصف لأمور تفصيلية دقيقة من التعاملات، والأجور، والعمال وما كان يتم وقفه من أوقاف غنية متعددة. كما وقد اوضحت الوقفية من خلال التفاصيل التي ذُكرت في نصها العديد من الأمور الدينية والخيرية والاجتماعية التي اتسم بها المجتمع الاسلامي في تلك الحقبة من الزمن.

ولهذه الاهمية فقد عمل المؤرخ كامل العسلي على نقل النص كاملاً وضبطه في بعض مواقع الكلمات التي كانت مطموسة أو لم تكن واضحة تماماً، وذلك ضمن الفصل الأول في كتابه **وثائق**

[1]. العارف، المفصل، ص203؛ Ayalon, The Islamic Architecture of Jerusalem, p. 96

[2]. Bahat, The Illustrated Atlas of Jerusalem, p. 115

مقدسية تاريخية– المجلد الأول لعام 1983. والذي تمَّ فيه بيان مصدر هذه الوقفية وهو سجلات المحكمة الشرعية في القدس، السجل رقم 92 المؤرَخ سنة 1020هـ، وتشغل كلمات هذه الوقفية البالغة حوالي 4700 كلمة خمس صفحات من السجل (من الصفحة 426 الى الصفحة 430). وقد ذكر المؤرخ العسلي نبذة مختصرة عن الأمير سيف الدين تنكز ثم اوضح اهمية هذه الوقفية لمختلف فئات المجتمع، لِما تحويه من معلومات تُفيد علماء اللغة واختصاصيي التربية والتعليم من خلال انها تعكس سمات للغة العربية في العصر الوسيط واشتمال نصها على تراكيب لغوية مختلفة. كما وتهم علماء الاجتماع والاقتصاد، واختصاصيي العمارة الاسلامية والوثائقيين، كما والقضاة والمشتغلين بالشريعة الاسلامية عامة ومنحى الوقف خاصة، حيث أنَّ هذه الوثيقة تقدم نموذجاً خاصاً لشكل الوقفية واجزاءها وطريقة عقدها وابرامها. كما وتقدم وصفاً لبعض العمائر الاسلامية في مدينة القدس، بالاضافة الى معلومات توضيحية عن اساليب التعليم ومرتبات المعلمين وموضوعات تخص الطلبة. ثم تطرق الى ذكر العقارات التي وقفها تنكز مع بيان بعض تفاصيل مضمون هذه الوثيقة. ثم نَقْلْ النص الكامل للوقفية مع الانتهاء ببيان بعض الهوامش الخاصة بالنص.

وعليه فإنَّ هذه الوقفية والتي سيتم نقلها كاملة كما في كتاب كامل العسلي في الصفحات التالية تُعد شاملة، فقد جاء مضمونها على الشكل التالي:

البدء بالأدعية يليه ذكر فضائل عمل الخير وبخاصة الصدقات، ثم دعاء للأمير تنكز مع ذكر القابه مفصلة. بعدها تعدد الوقفية العقارات التي وقفها تنكز، وتصفها وصفاً دقيقاً من الداخل والخارج ومواد البناء المستخدمة فيها مع ذكر موقعها وحدودها، كما وتم التطرق الى البناء اسفل هذه المنشآت.

وهذه الموقوفات بالترتيب هي:

1) المدرسة التنكزية
2) المسجد (في الايوان القبلي للمدرسة)
3) رباط النساء
4) الحمامين القبلي والغربي وهما حمّامي الشفا والعين
5) الطهارة أو المتوضأ
6) حوض السبيل (يقع حد المتوضأ من ناحية القبلة)
7) ضيعة عين قينة وهي عين قينيا قضاء رام الله، بما تشتمل من اراضي ومزارع وطواحين وينابيع واشجار وغيره.....

وبعد شرح هذه الموقوفات تفصيلاً تطرق في النص الى الشروط الواجب توفرها في الفقهاء في المدرسة وواجباتهم وحقوقهم وادعيتهم، كما الأمر بالنسبة للمحدثين والصوفية فقد ذكر الشروط الواجب توفرها فيهم وعددهم ووظائفهم، وماهية قراءاتهم وتحديد مكان تواجدهم في داخل المدرسة لإقامة صلواتهم واجتماعاتهم. ثم تناولت الوثيقة الأمور الخاصة برباط النساء، فذكرت عددهن والشروط الواجب توفرها فيهن وواجباتهن تخصيصاً، كما والأدعية والقراءات الواجب عليهن اقامتها. بعد ذلك تم ذكر المطهرة والانتفاع بها كما والاعمال الخاصة للعناية بها.

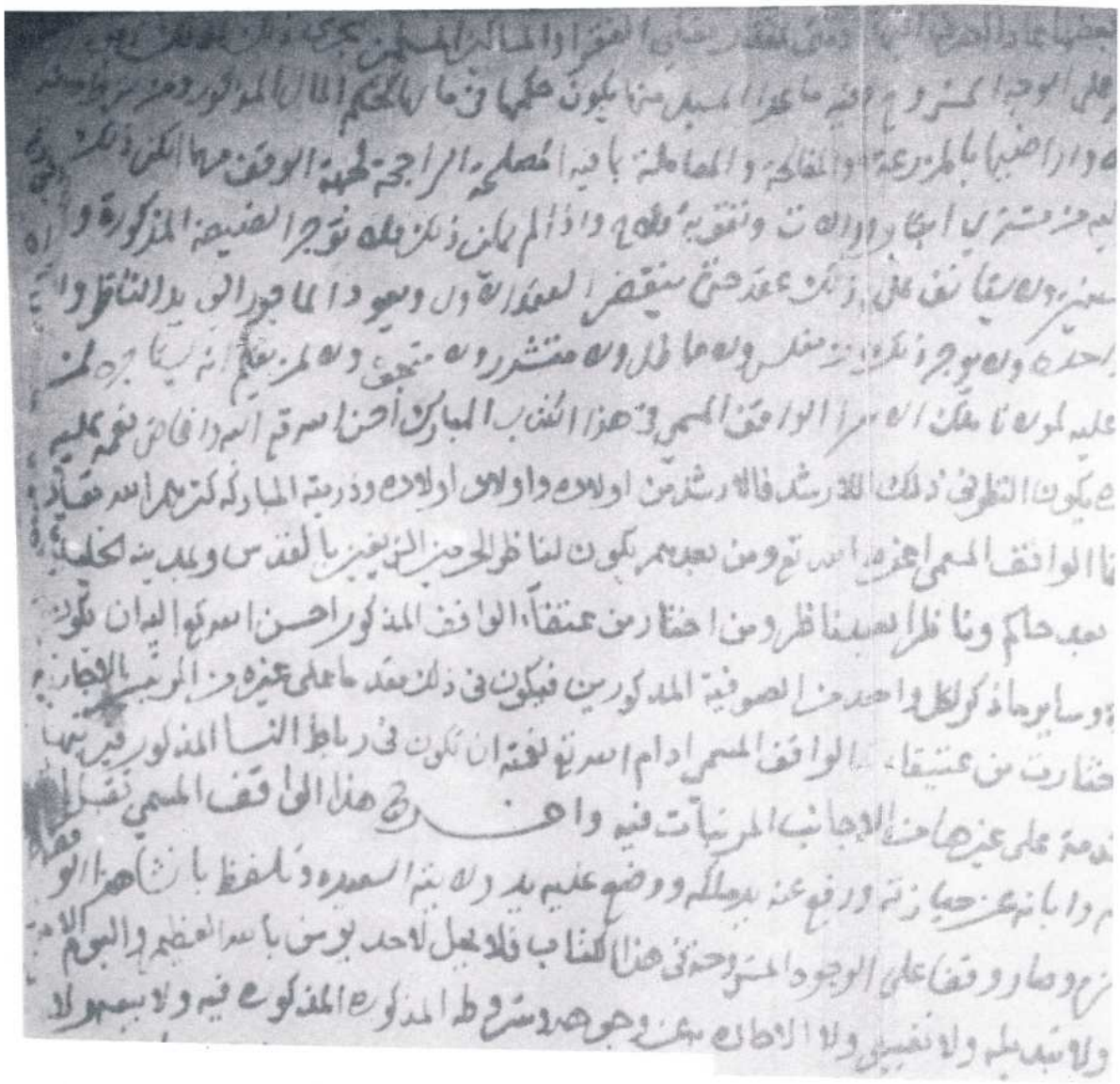
أما الحمامات وضيعة عين قينيا فقد اوقفها الواقف على أنْ يُنْتَفَع من ريعها لعمارة واصلاح وتجديد كامل الموقوفات السابق ذكرها. كما وحدد المصروفات قيمةً ونوعاً التي وجب صرفها للمدرس في المدرسة والفقهاء والمحدثين والصوفية المقيمين والواردين وتحديد مخصصاتهم حسب مراتبهم، كما والعاملات في رباط النساء والقيِّم على المطهرة، كل ذلك بحق واجب معلوم.

وهذه الأمور الكاملة المتعلقة بالوقف تقع على عاتق ناظر الوقف، فبالاضافة الى امور الصرف فهو المسؤول أيضاً عن الأمور الخاصة بتأجير الضيعة والحمامين، كمدة العقد والشروط الواجب توفرها بالمستأجر. وبعد الانتهاء من تفصيل جميع هذه الامور المتعلقة بالوقف، تمَّ ذكر أمر ولاية الوقف لمن تنتقل من بعد الأمير تنكز من أولاده وأحفاده وذريته حسب رشدهم، ومِنْ بعدهم مِنْ بقية الناس البارزين كالنظّار أو الحكام أو الصوفية ...

وفي النهاية تمَّ ذكر شروط استمرار الوقف، مع الاشارة الى اقرار الأمير تنكز بكامل مضمون الوثيقة وتأريخها لعام 730هـ، والاشهاد على ذلك.

3.3.1 النص الكامل لوقفية الأمير تنكز:

أما النص الكامل للوقفية مع تضمينه صورة عن قسم منها كما جاءت في السجلات، فهو:



صورة 24: قسم من وقفية الأمير تنكز
السجل 92 ص 430

قيد بأذن المولى العالم العامل المدقق الكامل سيد قضاة الاسلام سند الموالي العظام حسنة الليالي والايام عبد الحليم مصطفى (١) دام علاه في اوايل شهر جمادى الاولى سنة ١٠٢٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم صلي (٢) على سيدنا محمد وعلى جميع الانبيا الكرام وسلم هذا نسخة كتاب وقف شرعي ثابت محكوم به منفذ لدى حكام الشريعة المطهرة مسطر بمستندات مضمونة الحمد لله ميسر انواع الخيرات ومسهل اسبابها ومولي مواهب المبرات المخلصة لوجه وهابها وجاعل الطاعات في مرضاته اقرب سبلها وابوابها وقابل القربات ممن اخلصها طلبا لاجرها ورغبة في ثوابها نحمده حمدا .... * من سحابها ونشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة ننتفع بها حين لا ينفع شيء ونشهد ان محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى اله واصحابه الذين تأدبوا بمحاسن شريعته واجتنبوا محارم نواهيه فسعدوا باجتنابها .

اما بعد فان اولى ما ادخر الانسان ليوم معاده ... * خالقه عند قيام اشهاده واقرض الله القرض الحسن فاخصب وادى مراده الصدقة التي يدخر المتصدق بها الثواب ويدرأ بها عن نفسه وبيل العذاب وتكون له على الصراط جوازا وعلى ثواب العمل الصالح طرازا فان من فضايلها ان النار تتقا بها حتى بشق ثمرة ويرقا الى الله تعالى ولو مثقالا من ذرة وتلقى .. * اشد الكفاح ويأمن المتصدق بها البلا ويتحقق له بحصولها الفلاح لا سيما صدقات الاوقاف التي هي من اعلا الصدقات واسناها وارفعها قدرا عند الله تع واعلاها فانها الصدقات الجارية والدخاير الباقية يجلوها .... * والعيان ويتلوها الاثر واللسان ولا ينقطع نفعهما وان طال الزمان ، وقد بدأ نبينا صلى الله عليه وسلم بذكرها حيث قال « اذا مات العبد انقطع عمله الا من ثلاث صدقة جارية او علم ينتفع به او ولد صالح يدعوا له » (٣) ولما اتصل ذلك بعلم مولانا المقر (٤) الاشرف العالي المولوي الاميري السيدي الكبيري العالمي المجاهدي الشاغري (٥) المرابطي المؤيدي المظفري المنصوري الهمامي القوامي النظامي المشيدي المهدي الزعيمي السيفي ركن الاسلام ذخر الانام ملك الامرا كهف الفقرا مقدم العساكر ذي المفاخر والمآثر غياث المجاهدين حصن المسلمين ظهير الملوك والسلاطين سيف امير المؤمنين ابي سعيد تنكز عبد الله الملكي الناصري نايب السلطنة المعظمة بالبلاد الشامية

* تراغ في الامل .

المحروسة ادام الله تع ايامه واعلا اعلامه بادر الى تحصيل هذه الصدقات الاتي ذكرها التي تقرب بها الى الله الكريم رجاء رحمته وفضله العميم واشهد بها على نفسه الكريمة حرسها الله تع من يضع خطه آخره من العدول في حال صحته وسلامته ادامها الله تع واختياره وطواعيته وجواز امره وتصرفاته انه وقف وحبس وسبل وابد حرم وتصدق بجميع ما يأتي ذكره مما هو جار في ملكه المبارك وتحت يده الكريمة مما هو معلوم عنده فمن ذلك جميع المدرسة المباركة التي انشأها الواقف المسمى مولانا ملك الامرا المشار اليه تقبله الله منه وهي بمدينة القدس الشريف جوار الحرم الشريف على الباب المعروف بباب السلسلة ويغلق على هذه المدرسة المذكورة باب خاص مكبر بمصراعين من خشب الجوز بصفايح نحاس اصفر ببوابة معقودة بالحجر النحيت الابيض والاسود والاصفر وبها طراز مذهب مكتوب فيه اسم الواقف المسمى شرفه الله تع وكرمه وتشمل هذه المدرسة المذكورة على اربعة اواوين معقودة بالكلس والحجر في كل واحد منها شباك حديد مطل الى حارة المغاربة ولكل واحد من الشبابيك المذكورة والمجلسين المشار اليهما باب بمصراعين منجور معظم بالعاج والابنوس . وهذا الايوان القبلي وقفه الواقف المسمى تقبل الله تع منه مسجدا لله تع له حرمة المساجد وكرامتها وسبله وفي الايوان الشرقي من هذه المدرسة المذكورة شباكان حديد يطلان الى الحرم الشريف لكل واحد منهما باب بمصراعين منجور معظم بالعاج والابنوس وجميع هذه المدرسة المذكورة مؤزرة بالرخام الملون وارضها مفروشة بالرخام الملون ولها عراقية و ... خشب ورفرف مدهون وفي وسط هذه المدرسة المذكورة بركة مثمنة يجري لها الماء من قناة العروب بحق واجب معلوم من معلم مشترك ينقسم ماؤه بين جهات الحرم الشريف وبين هذه المدرسة المذكورة من الفرع المساق من قناة العروب بحق واجب معلوم ولهذه المدرّسة مطبخ برسم المرتبين بهذه المدرسة المذكورة الاتي ذكرهم . ولهذه المدرسة طهارة تشمل على خمسة بيوت مبنية بالحجارة النحيت والكلس احدها مستحم وفي كل بيت منها جرن حجر يجري اليه الماء من قناة العروب المذكورة بمقسم خاص بها بحق واجب معلوم . وجميع اواوين هذه المدرسة المذكورة مبلطة بالبلاط الابيض وحايط هذه المدرسة القبلي مبني على اقبا رومية تعرف قديما باصطبلات الداوية (٧) وهي من حقوق هذه المدرسة المذكورة ويتطرق الى هذه الاقبا من حارة المغاربة بباب خاص . وتحت الجانب الشرقي من هذه المدرسة

المذكورة قبو سليماني (٨) قديم جدده الواقف المسمى تقبل الله منه وبها بير لجمع ماء الاشتية الذي ينزل اليه من طرق اعدت له في اسطحة المدرسة المذكورة طوله خمسة واربعون ذراعا بالذراع القاسمي وعرضه تسعة عشرة ذراعا بالذراع المذكور ويستقى الماء من هذا القبو من طاقة في بيت استجده الواقف المسمى ادام الله تع نعمته ملاصق لرباط النسا الاتي ذكره على ظهر القبو المذكور وفي هذا البيت جرن حجر طوله ثلاثة اذرع بالذراع القاسمي وعرضه ذراعان بالذراع المذكور والى جانب هذا القبو الى الحرم الشريف من باب السلسلة . حد هذا القبو من القبلة الحايط الذي انشأه الواقف المسمى اعز الله تع انصاره من جهة حارة المغاربة ومن الشرق سور الحرم الشريف ومن الشام الحاكورة المعروفة بحاكورة السقاية وفيها بابه ومن الغرب اقبا خراب . وهذا القبو السليماني المذكور من حقوق المدرسة المذكورة وعند الحاجة بالماء المجتمع فيه يقدم اهل المدرسة ، ثم ما يحتاج الحمامان الاتي ذكرهما في دواراتهما عند قلة مايهما الجاري اليهما وانقطاعه عنهما ثم ساير خلق الله . وفي هذه المدرسة المذكورة اثنان وعشرون بيتا فيها في السفل من هذه المدرسة المذكورة احد عشر بيتا برسم الفقها الحنفية الاتي ذكرهم منها بيت برسم بواب المدرسة المذكورة والباقي في علو المدرسة المذكورة وهو احد عشر بيتا برسم الصوفية الاتي ذكرهم وجميع هذه البيوت معقودة بالكلس والحجارة ولكل بيت منها باب خاص مكبر وعلى ظهر بوابة المدرسة المذكورة طبقة ذات منافع ومرافق ومراقد شرقي وغربي وسقفها خشبي ولها طاقات مطلة الى جهة الشمال وشبابيك حديد ولها مرتفق خاص وعلى ظهر بيتين من بيوت العلو المقدم ذكرها طبقة بسقف خشب لها طاقات مطلة الى جهة القبلة ومنافع ومرافق ومرتفق خاص ويصعد الى ذلك والى المسجد الاتي ذكره من السلم الحجر .... المدرسة المذكورة وهاتان الطبقتان المذكورتان برسم سكن من يختار الناظر في هذا الوقف اسكانه فيهما وظهر ذلك جميعه واهويته .... وفايض مياهه واوساخ مرتفقاته تنصرف الى قناة الوسخ التي استجدها الواقف المسمى بحق واجب . حد هذه المدرسة المذكورة من القبلة حارة المغاربة ومن الشرق الحرم الشريف ومن الشمال الطريق واليه يفتح باب هذه المدرسة ومن الغرب دار تعرف بدار الحاج ايوب المصري ومنه جميع .... بناء المسجد وما لاصقه من الابنية من شام وهو الذي انشاه الواقف المسمى

اعز الله انصاره على الصفات الاتي ذكره بالطريق الصحيح المعتبر الشرعي (٩) في مجلس الحكم العزيز بدمشق المحروسة المولوي القضايي الغزي المقدسي الحنبلي اجله الله تع ، على ظهر القبو الذي داخل الحرم الشريف المعروف بعمارة ابن حسن . ويصعد الى ذلك من السلم الحجر المتقدم ذكره وسقف هذا المسجد المشار اليه خشب منجور مجرى بالذهب واللازورد (١٠) وجدره مرخمة بالرخام الملون وفي قبلته خشب محراب مرخم بالرخام الملون ولها عامودا رخام وشباكا حديد مطلان الى الحرم الشريف لكل واحد منهما باب بمصراعين مدهون افرنجي وفي شرقيه ثلاثة شبابيك حديد مطلة الى الحرم الشريف ايضا ولكل واحد منهما باب بمصراعين مدهون افرنجي ويفتح بابه شاما وهو بمصراعين مدهون افرنجي (١١) والشباك الغربي منه مبني على سور الحرم الشريف وفيه ثلاثة شبابيك حديد بابواب مدهونة افرنجي وشباك الى ظهر المدرسة المذكورة ويلي هذا المسجد المعمور بذكر الله تع من شامه ايوان سقفه منجر مجرى بالذهب واللازورد ونصف ارضه من جهة الشرق مما يلي الحرم الشريف مرخم بالرخام الملون وله قنطرتان معقودتان بالحجر النحيت الاصفر والاسود على ثلاثة عواميد رخاما ابيض وله درابزين (١٢) ابيض ويتطرق منه الى مجلس له باب خاص بمصراعين مدهون افرنجي بسقف خشب منجور مجرى بالذهب واللازورد وفيه من شرقه شبكان حديد مطلان الى الحرم الشريف ولكل منهما باب بمصراعين مدهون ومن غربيه الحايط المبني على سور الحرم الشريف المتقدم ذكره وفيه بابان يتطرق من احدهما الى الطبقة المار ذكرها والثاني يتطرق منه الى سطح المدرسة المذكورة في هذا الكتاب ومنه جميع (الرباط) بالقرب من المدرسة المذكورة المعد لاقامة النسا الاتي ذكرهن فيه وهو مبني بالحجارة والكلس ويغلق عليه باب خاص ومنه جميع بيوت الحمامين القبلي والغربي المتجاورين اللذين انشأهما الواقف المسمى اعز الله تع انصاره وهما بمدينة القدس الشريف بوادي الطواحين فالقبلي منهما وهو ... يغلق عليه باب خاص يدخل منه الى مشلح (١٣) فيه مساطب مستديرة به مبنية بالحجر والكلس وفيه بركة الماء البارد مرخمة هي وما حولها وارض المشلح المذكور بالرخام الملون وفي غرب هذا المشلح روشن (١٤) يصعد اليه بسلم حجر وفي شرقيه ثلاثة شبابيك حديد بابواب مطلة الى الجنينة التي فيها اشجار نارنج (١٥) وورود هذه الجنينة مضافة الى هذا الحمام من حقوقه ويدخل من

هذا المشلح الى داخل هذا الحمام ويشتمل على قبة معقودة بجامات زجاج تحتها اربعة اجرنة رخاما وعلى اربع مقاصير معقودة قبابا بجامات (١٦) منهن ثلاث موزرات بالرخام الملون تشتمل كل واحدة منهن على جرنين رخاما والرابعة تشتمل على جرن واحد رخاما وفي بيت الزجاج من هذا الحمام جرن رخام وطشتية مرخمة برسم الماء البارد وارض جميع هذا الحمام المذكور ومقاصره مرخم ذلك جميعه بالرخام الملون ويتصل بهذا الحمام اتميمه (١٧) المبارك وفيه آلته المتخذ لمايه وفي هذا الاتمين مصنع (١٨) يجري الماء وينقسم الماء بينه وبين الحمام الاتي ذكره الذي هو الغربي من الحمامين المذكورين وهو الصغير منهما ، وجميع داخل هذا الحمام وارضه مرخم ذلك جميعه بالرخام الملون وفي الاتمين المقدم ذكره آلة هذا الحمام ايضا المعدة لمايه الجار وقدراه وحق هذين الحمامين من الماء من قناة تعرف بالعروب وهو حق واجب معلوم حد هذين الحمامين المذكورين من القبلة الطهارة (١٩) الاتي ذكرها التي انشاها الواقف المسمى احسن الله تع اليه ومن الشرق حاكورة الطهارة ومن الشمال الطريق السالك الى الحرم الشريف من باب يعرف بباب السقاية وفيه ينفتح باب الحمام الغربي ايضا المذكور ومن الغرب الطريق السالك من وادي الطواحين (٢٠) الى البركة الواصل اليها الماء من قناة العروب وفيه ينفتح باب الحمام الكبير ومنه جميع الطهارة (١٩) التي انشاها الواقف المسمى اعز الله تع انصاره وهي بالقرب من ذلك ويغلق عليها باب خاص وتشتمل على سبعة بيوت احدها مستحم وبها حوض حجر ولكل بيت منها جرن حجر ويجري الماء الى ذلك بحق واجب معلوم من قناة العروب وفايض مياه هذه الطهارة واخبائها تنصرف الى قناة الوسخ المذكورة بحق واجب فظهورها خواص (٢١) لها حدها من القبلة حوض السبيل الذي انشاها الواقف المسمى تقبل الله تع منه وجعله مسبلا لجميع خلق الله تع وبير ؟ الواصل اليه من فايض بركة قناة العروب وتمام الحد الطريق وفيه بابها ومن الشرق المصنع المختص بالحمامين المتقدم ذكرهما ومن الشمال الحمام القبلي ومن الغرب الطريق ومن ذلك جميع الضيعة ومزارعها المعروفة بعين قنية من عمل القدس الشريف وتشتمل هذه الضيعة ومزارعها على اراضي عاطلة وعامرة وسهل ووعر واقاصي وادائي ومصايف ومشاتي ومروج وصير (٢٢) وبيادر وطواحين تدور بماء الاشتية واشجار زيتون ونارنج وكروم عنب مختلف الاجناس وبساتين وجنايين وتين وخروب وغير

ذلك ودمنة برسم سكن فلاحيها وبها اعين ماء نبع سادحة (٢٤) حد هذه الضيعة ومزارعها بكمالها من القبلة اراضي قرية نوبا وتمام الحد اراضي قرية كفرتيا ومن الشرق اراضي قرية رام الله وتمام الحد اراضي لدنا ومن الشمال اراضي قرية دير بن شعبان وتمام الحد اراضي قرية الرأس ومن الغرب اراضي قرية دجانية وتمام الحد اراضي قرية دير بزيع بجميع حقوق ما ذكر وسمي ووصف وحدد وطرق ذلك ومرافقه وسفله وعلوه وابنيته واحجاره ورخامه وبلاطه واخشابه ورفوفه وابوابه وحديده وبقية الاته وما يختص به من القنى والمجاري وبكل حق هو لذلك داخل فيه وخارج عنه معروف به منسوب اليه فابدا المدرسة المبدا بذكرها وما بها من الابنية سفلا وعلوا فقد وقف الواقف المسمى ذلك تقبل الله منه وقفا صحيحا شرعيا على الفقها الحنفية والمحدثين والصوفية وشرطه ان يكون حافظا لكتاب الله تع عالما بمذهب الامام سراج الدين ابي حنيفة النعمان ابن ثابت رضي الله تع عنه ملازما لذكر الدرس بهذه المدرسة المذكورة على جاري العادة في ذكر الدروس وان يكون اماما في الصلوات الخمس بالمسجد الذي هو الايوان القبلي من المدرسة المذكورة وصلاة التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم من كل سنة بمن يحضر الى المسجد المشار اليه من كافة المسلمين وان يستعرض المتوسطين والمبتديين من الفقها والمتفقهة بالعلم الشريف ويحث من يحضر منهم عنده في درس المدرس ويفعل مثل ذلك بعد صلاة العصر كل ذلك في ايام ذكر الدروس وخمسة عشر فقيها ومتفقها يرتبون ثلاث طبقات منتهيون ومتوسطون ومبتديون ويكن منهم خمسة اشخاص مزوجين وعلى كل واحد منهم حضور هذه المدرسة ... الدرس وملازمة الاشتغال بها والمبيت فيها على جاري العادة ومن مضت منهم عليه اربع سنين من حين ترتيبه بالمدرسة المذكورة ولم يكمل حفظ كتاب في مذهب الامام ابي حنيفة رضي الله عنه ويظهر عليه الفقه فيستبدل الناظر على هذا الوقف غيره ويقدم الفقيه الغريب على الفقيه من اهل القدس ويقدم العزب على المزوج منهم وعلى هؤلاء المذكورين اجمعين من المدرس والمعيد والفقها والمتفقهين الاجتماع لذكر الدروس في الايوان القبلي المشار اليه وان يقرا كل واحد منهم جزا من ثلاثين جزا من كتاب الله تع العزيز في الربعة الشريفة ويختمون (قراتهم) بقراة سورة الاخلاص والمعوذتين (٢٥) وفاتحة الكتاب العزيز

واوايل السورة التي تذكر فيها البقرة ثم يدعو المدرس عقب ذلك لمولانا السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين ابي الفتح محمد خلد الله تع سلطانه وللواقف المسمى تقبل الله تع منه ولذريته المباركة كثرهم الله تع ويستغفر الله تع لهم ويسأله ان يجعل ثواب ذلك في صحايف الواقف المسمى احسن الله تع اليه ثم يذكر المدرس على جاري العادة . ومن شرط كل واحد من الجماعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح وتضبط غيبة الفقها ممن يعينه الناظر في هذا الوقف لذلك ومن غاب منهم لعذر شرعي سومح في مدة الغيبة في جامكيته (٢٦) وجرايته الاتي ذكرهما ومن غاب منهم بغير عذر شرعي نقص من جامكيته وجرايته بقدر مدة غيبته واما المحدثون بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم الشيخ ومن شرطه ان يكون عالي الرواية مقصودا بالسماع عليه والاخذ عنه حسن الضبط والقاري للحديث النبوي على قايله افضل الصلوة واتم السلام وشرطه ان يكون جيد الضبط حسن القراة (٢٧) وان يقرا في الميعاد بهذه المدرسة من صحيح البخاري رضي الله عنه ما تيسر فاذا اكمل قراة جميع الصحيح المذكور في المواعيد قرا من صحيح الامام مسلم رضي الله عنه حتى يكمل قراة جميعه كذلك وكلما فرغ من قراة هذين الصحيحين في المواعيد اعاد قراتهما كذلك وعشرون محدثا وعلى كل واحد منهم ان يحفظ في كل يوم من ايام الميعاد حديثا واحدا من الاحاديث الثابتة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ويعرضه على الشيخ بعد فراغ الميعاد وعلى جميع هولا الجماعة المذكورين من الشيخ والقاري والمشتغلين في الحديث ان يجتمعوا كل يوم بعد صلوة الظهر في الايوان الشرقي من المدرسة المذكورة ويقرا كل احد منهم ما تيسر من كتاب الله تع في الربعة الشريفة ويختمون القرآن بقراة ما ذكر من ختم قراة الفقها من القرآن العظيم ثم يدعو الشيخ كدعاء المدرس المقدم ذكره ثم يقرا القاري من احد الصحيحين المذكورين كما ذكر على جاري العادة في ذلك ويضبط القاري اسماء الحاضرين من المرتبين وغيرهم على جاري عادة المحدثين ومن شرط كل واحد من هولا الجماعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح وحكمهم في الغيبة كما ذكر في حق الفقها واما الصوفية المنتسبون الى الاقتدا بسادة مشايخ الصوفية رضي الله عنهم وهم الشيخ المرتب للمشيخة عليهم وخمسة عشر صوفيا يكون واحد منهم خادما واخر ملباخا لهم وعليهم اجمعين ان يجتمعوا صبيحة كل يوم قبل طلوع الشمس في

المسجد العلوي المبني على ظهر القبو المذكور في هذا الكتاب ويقرا كل واحد منهم ما تيسر من كتاب الله تع في الربعة الشريفة ويجتمعون للقراة بقراة ما تقدم ذكره ثم يذكرون الله تع ويختمون الذكر بالصلوة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر مرات فيقولون اللهم صلي على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الامي وعلى آل محمد وازواجه وذريته كما باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم في العالمين انك حميد مجيد وسلم ، ورضي الله عن اصحاب رسول الله اجمعين ثم يدعو الشيخ كدعاء المدرس المتقدم ذكره ثم يقرا واحد منهم ما تيسر من رسالة الامام القشيري (٢٨) رضي الله عنه ويفعلون مثل ذلك بعد صلوة العصر وعليهم المبيت بالمدرسة المذكورة على جاري العادة ومن شرط هولا الجماعة المذكورين ان يكون كل واحد منهم من اهل الخير والدين والصلاح ومن شرط هذا الوقف ان يرتب الناظر في الوقف في المدرسة المذكورة مقريا وقيمين وبوابا وعلى المقري قراة ربع جزء من ثلاثين جزا من كتاب الله تع العظيم في المصحف الكريم بالايوان الشرقي من تلك المدرسة المذكورة عند الشباك المطل الى الحرم الشريف بعد صلاة الصبح في كل يوم من الايام ثم يقرا بعد ذلك شيا من تفسير القرآن العظيم ثم يدعو كدعاء المدرس المقدم ذكره وعلى كل واحد من القيمين فرش هذه المدرسة المذكورة وفرش المسجد العلوي ... من شامه (٢٩) بالحصر والبسط وتنظيف ذلك جميعه وكنسه وايقاد مصابيحه وطفيها وغسل بركة المدرسة وغسل طهارتها وكنسها على جاري العادة في ذلك جميعه وان يؤذنا بالنوبة على باب المدرسة المذكورة في الاوقات الخمس وصاحب النوبة يقيم الصلوة ويبلغ خلف الامام ويتولى احضار الربعة الشريفة الى الايوانين المشار اليهما من المدرسة المذكورة عند اجتماع الجماعة فيها من الفقها والمحدثين ومفرق الاجزا الكريمة (٣٠) على الجماعة المشار اليهم وجمعها بعد فراغهم من القراة في الصندوق المعد لها ثم يرفع الربعة الشريفة الى المكان المختص بها في المدرسة المذكورة ثم يفعل كذلك عند اجتماع الجماعة الصوفية في المسجد العلوي المشار اليه وعلى البواب بهذه المدرسة ملازمتها وحفظها في الليل والنهار وفتح باب المدرسة وغلقه في الاوقات التي جرت العادة بها ومن شرط كل واحد من هولا الاربعة المذكورين ان يكون من اهل الخير والدين والصلاح ومن شرط هذا الوقف أن يرتب ناظر الوقف للموقوف المذكور في هذا الكتاب معمارا (٣١) وجابيا وكاتبا على جاري العادة ويكون كل واحد منهم

من اهل الخير والدين والصلاح وأما الرباط المجاور للمدرسة المشار اليه بأعاليه فقد وقفه الواقف المسمى تقبلها الله منه على اثنتي عشرة امراة مسلمات ديانات خيرات صالحات عجايز خاليات عن الازواج فقيرات مقيمات في الرباط المذكور تكون احداهن شيخة لهن واخرى قيمة للرباط المذكور وبوابة وعلى الفقيرات الواردات الى هذا الرباط وعلى الشيخة المشار اليها ان تأم (٢٢) بهن في الطوات الخمس وفي صلوات التراويح في ليالي شهر رمضان المعظم من كل سنة وعلى القيمة البوابة فرش الرباط المذكور بالحصر والبسط وتنظيفه وكنسه وغسل طهارته وحفظ الرباط المذكور كما تقدم في حق بواب المدرسة المذكورة وايقاد مصابيحه وطفيها وعليهن اجمعين ان يجتمعن في احدى ايواني الرباط المشار اليه بعد صلاة الصبح في كل يوم ويقران سورة الاخلاص والمعوذتين وفاتحة الكتاب العزيز ثم يذكرن الله تع ويصلين على محمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم ثم تدعو شيختهن كدعاء المدرس المقدم وحكمهن في الغيبة كما تقدم في غيبة غيرهن واما الطهارة المجاورة للحماميين المقدم ذكرهما فقد وقفها الواقف المسمى تقبل الله تع منه على كافة المسلمين ينتفعون على جاري العادة في مثل ذلك ويرتب الناظر في الوقف لها قيما برسم غسلها وكنسها وايقاد مصباحها وطفيه وفتح بابها وغلقه على جاري العادة واما الحمامان والضيعة المعروفة بعين قينة ومزارعها المشار الى ذلك جميعه في هذا الكتاب المبارك وما هو من حقوق ذلك فقد وقفه الواقف المسمى تقبل الله ذلك منه وقفا صحيحا شرعيا على جميع الجهات المتقدم ذكرها وعلى مصالح الاماكن الموقوفة المشار اليها بأعاليه وعلى ما يأتي ذكره فيه على ان يبدا ناظر الوقف المذكور مما يتحصل تحت يده من اجور ذلك وريعه ومغله بعمارة جميع الموقوف المذكور في هذا الكتاب واصلاحه وتجديد ما يهي من ابنيته وبفرش المدرسة والمسجد العلوي الذي على القبو المشار اليه في هذا الكتاب وبما لاصقه ... وبفرش رباط النسا المذكور بالحصر والبسط وتنوير ذلك جميعه على العادة في مثل ذلك كله ويبتاع في كل سنة بخمسين درهما فضة من المتعامل بها شمعا برسم صلاة التراويح وبخورا من الطيب يبخر به بالمسجد الذي هو الايوان القبلي من المدرسة المذكورة عند صلوة التراويح بالمسجد المذكور ويبتاع ايضا في عيد الاضحى في كل سنة راسين من البقر وكبشين مليحين من الغنم الضان مما يجري في الاضحية ويضحي بذلك في ايام التضحية ويفرق اللحم على اهل

الوقف المذكور وعلى غيرهم من صعاليك المسلمين على ما يراه الناظر في الوقف ويبتاع ايضا شمعا يشعل عند قراة القرآن العظيم في المصحف الكريم بعد صلوة الصبح في كل يوم من الايام في الايوان الشرقي من المدرسة المذكورة بقدر ما يحتاج اليه في ذلك ويبتاع الناظر في الوقف عند ختم قراة كل واحد من صحيحي البخاري ومسلم رضي الله عنهما بماية درهم من الدراهم المتعامل بها حلوا (٢٣) ويفرقها على الحاضرين من المحدثين وغيرهم على ما يراه وما فضل بعد ذلك يصرف منه الناظر في هذا الوقف الى الجهات المذكورة المعينة المشار اليها في هذا الكتاب والى من ذكر معها فيه على ما يفصل فيه من الجامكيات والجرايات والطعام وغير ذلك على الوجه الذي يشرح فيه فيصرف للمدرس بالمدرسة المذكورة في كل شهر من الشهور ستين درهما فضة وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى المعيد بالمدرسة المشار اليها في كل شهر من الشهور ثلاثين درهما فضة وفي كل يوم من الايام ثلثي رطل من الخبز والى كل واحد من الفقها المنتهين في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل والي (٢٤) من الفقها المتوسطين في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الفقها المبتدين في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل واحد من الخبز والى شيخ المحدثين في كل شهر من الشهور اربعين درهما فضة وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى قاري الحديث النبوي على قايله افضل الصلوة واتم السلام في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الجماعة المحدثين في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الجماعة المحدثين في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى شيخ الصوفية في كل شهر من الشهور ستين درهما فضة وثلث رطل من زيت الزيتون وثلث رطل صابون وفي كل يوم من الايام رطلا واحدا من الخبز والى كل واحد من الصوفية في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وسدس رطل من زيت الزيتون وسدس رطل صابون ويزاد الخادم والطباخ للطعام الآتي ذكرها على معلوم كل واحد منهما المتقدم ذكره في كل شهر من الشهور خمسة دراهم فضة ويصرف الى كل واحد

من الصوفية الخمسة عشر المشار اليهم فيه في كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من الصوفية الواردين على الصوفية المقدم ذكرهم في مدة عشرة ايام من حين وروده عليهم في كل يوم منها نصف درهم ونصف رطل من الخبز ويزود عند سفره بخمسة دراهم ويقتصر في كل شهر على عشرة من الواردين ولا يزاد عليهم ويقدم الغربا من الصوفية والواردين عليهم بعد عتقاء الواقف المسمى اعز الله انصاره على اهل القدس الشريف ويصرف الناظر من ريع الوقف المذكور ما يكفي في عمارته ويطبخ في كل يوم من الايام بلحم الضأن برسم الصوفية المشار اليهم من المقيمين والواردين ويكون ذلك على جاري عادتهم واصلاحهم ؟ في صنع طعامهم ويفرق عليهم بالنصيب ويكون نصيب كل شخص منهم قدر اوقية من اللحم قبل الطبخ ويضاف الى ذلك حلوا تعمل للمذكورين في ليالي الجمع على عادة الصوفية ويفرق عليهم بالنصيب لكل شخص منهم اوقية ويعمل ايضا للمذكورين في المواسم والاعياد من الطعام والحلوا ما يراه الناظر في الوقف ويفرق عليهم بالنصيب ايضا ويكون لشيخ الصوفية المشار اليه من ذلك جميعه نصيبان ويصرف ناظر الوقف الى شيخة رباط النسا في كل شهر من الشهور عشرين دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى القيمة البوابة بالرباط المذكور في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحدة من الفقيرات العجايز العشرة في كل شهر من الشهور سبعة دراهم ونصف درهم وفي كل يوم من الايام ثلث رطل من الخبز والى كل واحدة من الفقيرات الواردات الى الرباط المذكور مدة عشرة ايام من حين ورودها في كل يوم منها ربع درهم فضة وثلث رطل من الخبز ويقتصر في ذلك على عشر من الواردات الى الرباط المذكور من غير زيادة عددهن ويقدم الواردات الفقيرات الغريبات على الفقيرات من اهل القدس وكذلك في النساء المرتبات في الرباط المذكور ويصرف الناظر في هذا الوقف الى قاري القرآن العظيم في المصحف الكريم بعد صلاة الصبح في كل شهر من الشهور خمسة عشر درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى كل واحد من قيمي المدرسة وبوابها في كل شهر من الشهور عشرين درهما فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز والى قيم الطهارة المذكورة فيه في كل شهر من الشهور عشرة دراهم فضة وفي كل يوم من الايام نصف رطل من الخبز وجميع ما ذكر في هذا الكتاب المبارك

من الدراهم فهو من الدراهم (٢٥) المتعامل بها يوميذ ومن الخبز فهو من خبز الحنطة الطيب ومن الرطل والاوقية فهو الرطل القدسي والاوقية القدسية (٢٦) يجري ذلك كذلك على الوجه المشروح في هذا الكتاب على قوم بعد قوم وانفار بعد انفار ابدا ما امكن الصرف في المصارف المذكورة ومتى تعذر الصرف في مصرف من المصارف المشار اليها او اكثر صرف الناظر في الوقف ما كان مصروفا اليه في بقية المصارف على ما يراه ناظر الوقف ومتى تعذر الصرف في جميع المصارف المذكورة صرف الناظر ما كان مصروفا الى عتقاء الواقف المسمى تقبل الله تع منه عتى ما يراه الناظر في الوقف المذكور ومتى تعذر الصرف على العتقا صرف ذلك صدقة على الفقراء والمساكين المسلمين من امة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على ما يراه الناظر من وجوه البر والقربات التي يتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى ومتى امكن الصرف في المصارف المذكورة او في بعضها عاد الصرف اليها ومتى تعذر فعلى الفقرا والمساكين المسلمين يجري ذلك كذلك وجودا وعدما واذا تعذر الانتفاع بالاماكن الموقوفة على الوجه المشروح فيه ما عدا المسبل منها يكون حكمها في مالها كحكم المال المذكور ومن شرط ... الوقف ان الناظر فيه يستغل الضيعة المذكورة واراضيها بالمزارعة والمفالحة والمعاملة بما فيه المصلحة الراجحة لجهة الوقف مهما امكن ذلك ويصرف من ريع الموقوف المذكور ما يحتاج ذلك اليه من مشتري ابقار والات وتقوية فلاح واذا لم يمكن ذلك فلا تؤجر الضيعة المذكورة واراضيها ولا شيء منها في عقد واحد اكثر من سنتين ولا يستانف على ذلك عقد حتى ينقضي العقد الاول ويعود الى يد الناظر ولا يؤجر الحمامان المذكوران في عقد اكثر من سنة واحدة ولا يؤجر ذلك من مفلس ولا عاطل ولا متشرد ولا متجول ولا لمن يعلم انه يستأجره لمن هذه صفته والنظر في هذا الوقف والولاية عليه لمولانا ملك الامرا الواقف المسمى في هذا الكتاب المبارك احسن الله تع اليه وافاض نعمه عليه مدة حياته المباركة فيها اطالها الله تع ومن بعده يكون النظر في ذلك للأرشد فالارشد من اولاده واولاد اولاده وذريته المباركة كثرهم الله تعالى ومن بعدهم يكون النظر للأرشد الاسن من عتقا الواقف المسمى اعزه الله تع ومن بعدهم يكون لناظر الحرمين الشريفين بالقدس وبمدينة الخليل بمشاركة الحاكم بالقدس الشريف له في ذلك حاكما بعد حاكم وناظرا بعد ناظر ومن اختار من عتقا الواقف المذكور احسن الله تع اليه ان يكون من جملة الصوفية المقدم ذكرهم

بالمعلوم والجراية وساير ما ذكر لكل واحد من الصوفية المذكورين فيكون في ذلك مقدما على غيره من المرتبين بالاجازة ولا يشترط عليه ان يكون من اهل التصوف ومن اختارت من عتيقات الواقف المسمى ادام الله تع نعمته ان تكون في رباط النسا المذكور فمرتبها الناظر من جملتهن بالمعلوم والجراية وتكون متقدمة على غيرها من الاجانب المرتبات فيه واخرج هذا الواقف المسمى تقبل الله منه جميع ما وقفه في هذا الكتاب عن ملكه وابانه عن حيازته ورفع عنه يد ملكه ووضع عليه يد ولايته السعيدة وتلفظ بانشا هذا الوقف على الوجه المشروح فيه وقد صح هذا الوقف ولزم وصار وقفا على الوجوه المشروحة في هذا الكتاب فلا يحل لاحد يؤمن بالله العظيم واليوم الاخر ويعلم انه الى ربه الكريم صاير نقض هذا الوقف ولا تبديله ولا تغييره ولا الاحادة به عن وجوهه وشروطه المذكورة فيه ولا بيعه ولا اتلافه ولا المناقلة به ولا بشيء منه ولا يخرج الى ملك احد من ساير الناس اجمعين بل كلما مر بهذا الوقف زمن اكده وكلما اتى عليه عصر او اوان اخلده وسدده فهو محرم بحرمات الله مدفوع عنه بقوة الله متبع فيه مرضات الله لا يوهنه تقادم دهر ولا يبطله انقراض عصر وهذا الواقف المسمى خلد الله سعادته ونعمته يستعدي الى الله عز وجل على من يتصد وقفه هذا بفساد او يرومه بنقض وعناد ويحاكمه اليه ويخاصمه لديه يوم القيامة يوم الحسره والندامة يوم التناد يوم عرض الاشهاد يوم عطش الاكباد يوم يكون الله تع هو الحاكم بين العباد يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار « فمن بدله بعد ما سمعه فانما اثمه على الذين يبدلونه ان الله سميع عليم » (٢٧) وقد وقع اجر هذا الواقف المسمى احسن الله اليه على الله العظيم الذي يجزي المتصدقين ولا يضيع اجر المحسنين واشهد مولانا ملك الامراء الواقف المسمى اعلاه ادام الله تع ايامه واعلا اعلامه على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه في هذا الكتاب المبارك بعد قراته لديه واحاطة علمه الكريم بجميع ما تضمنه على الوجه المشروح فيه في اليوم المبارك الثاني عشر من شهر جمادى الاولى سنة ثلاثين وسبعمائة من الهجرة النبوية المحمدية على صاحبها مني الف الف تحية .

مثال

اشهدني مولاي المقر الكريم العالي المولوي الهمامي السيفي ملك الامرا المسمى اعلاه ادام الله ايامه واعلا اعلامه على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه من الوقف المسطور في هذا الكتاب فشهدت عليه بذلك وتلفظ بالوقف اعز الله انصاره بالوقف على الوجه المشروح فيه وكتبه محمد بن عبد الله الشافعي في ثاني عشر جمادى الاولى من شهور ثلاث وسبعين وسبعمائة (٢٨) .

مثال

اشهدني مولاي المقر الاشرف العالي المولوي الناصري الكريمي العادلي الفقيري السيفي ملك الامراء اعز الله انصاره على نفسه الكريمة حرسها الله تع بجميع ما نسب اليه اعلاه فشهدت عليه بذلك وبلفظه بالوقف بحضوري في ثاني عشر جمادي الاولى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة (٢٨) .

والله اعلم .

هوامش

(١) يستفاد من السجل رقم (٩٢) من سجلات المحكمة الشرعية في القدس الذي يبدأ في ٩ ربيع ثان ١٠٢٠ وينتهي في ٤ ذي القعدة سنة ١٠٢٠ ان عبد الحليم مصطفى كان قاضي القدس خلال هذه الفترة .

(٢) كذا في الاصل .

(٣) مسلم ، وصية ١٤ ، الترمذي ، احكام ٢٦ .

(٤) المقر : من الالقاب الاصول في زمن المماليك وكان يلي في المرتبة لقب المقام ، وهو لقب السلطان . وفي اواخر القرن السابع اخذ مركزه في الانخفاض فصار يختص بكبار الامراء واعيان الوزراء والعسكريين .

(٥) الكلمة الصحيحة هي المثاغري . وهي تتكرر في الالقاب . وهي بمعنى المرابطي . والكلمة مشتقة من الثغر ، وهي الفرجة التي يدخل منها العدو ، او الحدود بين المتعادين .

وفي صبح الاعشى ج ٦ ص ٧ — ٣٥ شرح لجميع هذه الالقاب الواردة في هذين السطرين على الوجه التالي باختصار :

الاشرف : من القاب المقام والمقر ، وهو افعل التفضيل من الشرف .

العالي : من الالقاب التي يشترك فيها ارباب السيوف والاقلام ، ويوصف به المقام والمقر والجناب والمجلس .

المولوي : نسبة الى المولى (السيد) . للمبالغة وهو من القاب اكابر ارباب السيوف والاقلام .

السيدي : نسبة الى السيد للمبالغة . والسيد من الالقاب السلطانية . والسيدي من الالقاب الخاصة بالجناب الشريف وما فوقه .

الكبيري : نسبة الى الكبير للمبالغة . وهو من الالقاب المشتركة بين ارباب السيوف والاقلام .

العالمي : نسبة الى العالم للمبالغة . والعالم من القاب السلطان . والعالمي من الالقاب المشتركة بين ارباب السيوف والاقلام وان كان المختص في نحتته العلماء .

المرابطي : المرابط من الالقاب السلطانية . وهو الذي يلازم ثغر العدو . والمرابطي نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

المؤيدي : المؤيد (بفتح الياء) من الالقاب السلطانية (وبكسرها) من القاب الامراء . والمراد انه يؤيد الملك والمؤيدي بالكسر من القاب اكابر ارباب السيوف نسبة الى المؤيد للمبالغة

المجاهدي : نسبة الى المجاهد للمبالغة . والمجاهد من الالقاب السلطانية . والمجاهدي من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

الامري : من القاب ارباب السيوف .

المظفري : المظفر من الالقاب السلطانية . والمظفري نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف .

المنصوري : المنصور من الالقاب السلطانية . والمنصوري نسبة اليه للمبالغة . وهو من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم .

الهمامي : الهمام من القاب ارباب السيوف . والهمامي نسبة اليه للمبالغة .

التوامي : بفتح التاء من القاب ارباب السيوف وهو نسبة الى التوام ، وهو العدل .

النظامي : من القاب الوزراء ، وهو نسبة الى النظام . والمراد انه يكون به انتظام الامور .

المشيدي : من القاب اكابر ارباب السيوف . من التشييد وهو رفع قواعد البناء .

المهدي : من القاب اكابر ارباب السيوف . نسبته الى المهد وهو الذي يمهد الممالك ويدوخها .

الزعيمي : من القاب اكابر ارباب السيوف كنواب السلطنة وهو نسبة الى الزعيم بمعنى السيد والكافل .

(٦) هي القناة التي تعرف بقناة السبيل . وهي ترجع الى القرن الاول الميلادي . وكانت تجلب الماء من ينابيع العروب وبرك سليمان الى القدس . وقد عمرها الحكام المسلمون مرارا ، ومنهم الواقف الامير تنكز الناصري .

(٧) الداوية ، هم فرسان الهيكل الصليبيون (Templars)
وكلمة « الداوية » كلمة محرفة عن كلمة سريانية تعني « الفقراء » اذ ان الاسم اللاتيني الاصلي لهؤلاء هو : Pauperes Commilitions Christi اي فرسان المسيح الفقراء

(٨) كثيرا ما كان المسلمون ينسبون الاشياء القديمة التي لا يعرفون اصلها الى سليمان وداود عليهما السلام خطأ ... ومن ذلك برك سليمان وبرج داود (قلعة باب الخليل) . ومن ذلك ايضا هذا القبو « السليماني » المزعوم .

(٩) كذا في الاصل ، والصحيح « فسي » .

(١٠) اللازورد : معدن مشهور يستخرج من جبال ارمينيا وفارس واجوده الصافي الشفاف الازرق الضارب الى حمرة وخضرة يتخذ للحلي (كلمة فارسية) .

(١١) هذه الكلمات الاربع مكررة .

(١٢) درايزين ودوروبزين وللدرابزون ... كلمة يونانية الاصل .

(١٣) الغرفة او القاعة التي تخلع فيها الملابس في الحمام .

(١٤) الروشن (الجمع رواشن) كلمة فارسية تعني الكوة (في الجدار او ما شاكل ذلك) .

(١٥) النارنج ضرب من الليمون .

(١٦) الجامات جمع جام وهو الكأس (فارسية) .

(١٧) الاشيم والاشمين والتميم : قرن الحمام .

(١٨) حوض الماء .

(١٩) وهي التي تعرف اليوم بالمطهرة ، وكانت تعرف قبلا بالمتوضأ . وقبل ذلك بالسقاية . انشاها الملك العادل الايوبي ، وعمرها علاء الدين ايدغدي وسيف الدين تكز وغيرهما .

(٢٠) السواد — اليوم .

(٢١) اي تابعة لها .

(٢٢) عين قينيا ، قرية في الشمال الغربي من رام الله ما تزال موجودة . مساحة القرية ١٩ دونما . وكان عدد سكانها سنة ١٩٦١ (٢٣٥) شخصا .

(٢٣) جمع « صيرة » : وهي حظيرة البقر او الغنم .

(٢٤) المقصود غنية بالماء .

(٢٥) المعوذتان : قل اعوذ برب الفلق (سورة الفلق) وقل اعوذ برب الناس (سورة الناس) .

وسورة « الاخلاص » و « الفلق » و « الناس » هي السور الثلاث الاخيرة في القران الكريم . روي عن عائشة رضي الله عنها ان النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا اوى الى فراشه جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما « قل هو الله احد » و « قل اعوذ برب الفلق » و « قل اعوذ برب الناس » . (صحيح البخاري ج ٢ ص ١٤٣ ، طبعة بولاق).

(٢٦) الجابكية هي الجراية او المرتب .

(٢٧) يلاحظ اسقاط الهمزة من « القراءة » و « يقرأ » والقارىء وهؤلاء السخ . على جاري العادة زمن المماليك .

(٢٨) الرسالة القشيرية في التصوف كانت مشهورة في القدس .

(٢٩) شماله = شمالة .

(٣٠) مارق الاجزاء كان خازن الكتب في المدرسة .

(٣١) مهندس ، بلغة اليوم .

(٣٢) كذا في الاصل بدلا من « تؤم » .

(٣٣) طوا = حلوى .

(٣٤) وربما خطأ من الناسخ . والمقصود « واحد » .

(٣٥) كان الدينار يزن عادة ٤ر٢٣ غم من الذهب ، والدرهم ٢ر٩٧ غم من الفضة . اما الفلوس فكانت من النحاس . وكان الدرهم يساوي ٢٤ فلسا . اما نسبة الدينار الى الدرهم فكانت ١٠ : ٧ .

(المكاييل والاوزان الاسلامية ، لفالتر هنتس ، توجبة كامل العسلي ص ٩ و ١٠) .

(٣٦) في القدس كان الرطل في العصور الوسطى يساوي ٨٠٠ درهم = ٥ر٢ كغم . وكانت الاوقية ١٢/١ من الرطل .

(المكاييل والاوزان الاسلامية ، ص ٣٢) .

(٣٧) من بدله بعد ما سمعه السخ .. الاية رقم ١٨١ من سورة البقرة .

(٣٨) لم استطع تفسير تاريخ هذين الاشهادين وهو سنة ٧٧٣ ؟ مع ان تاريخ الوثيقة الثابت هو ٧٣٠ . (الامير تنكز توفى سنة ٧٤١)

الفصل الرابع

العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز



العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز

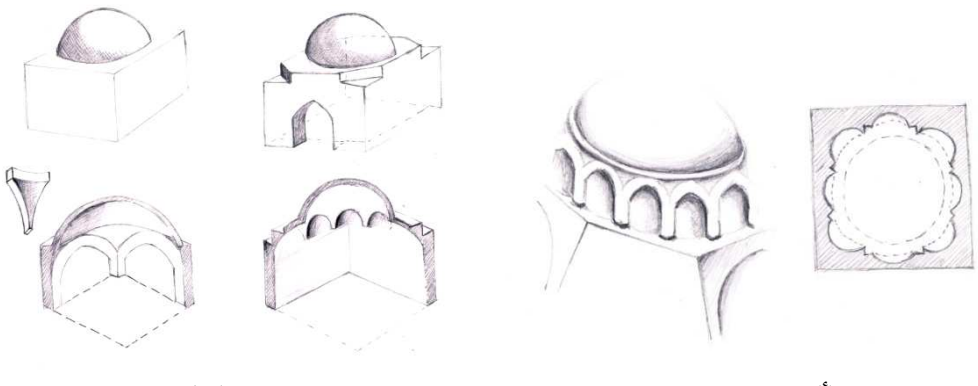
لقد تميزت العمارة المملوكية بشكل عام بمميزات خاصة تمَّ التطرق لذكرها في القسم الثاني من الفصل الأول. ويظهر من خلال تحليل العمارة المملوكية بأنها أقيمت على فلسفة معينة ارتبطت بشكل أساسي مع غاية المُنْشِأ، وهدفه من اقامة البناء، وما اراد ايصاله للمتلقي. فكان لابد من وجود رمز للبناء وقيمة تهدف لأبعد من مجرد الشكل والوظيفة؛ فهذا الرمز يرتبط مع عمق الايمان، أما العناية بالشكل أو لغرض وظيفي فقط، فإنما يؤدي الى الاعتقاد بأنَّ الايمان ارتبط بهدف مادي، مما يؤكد على الأنانية وحبِّ العظمة الشخصية.

ولتحقيق بناء العمارة المملوكية المتميزة فقد تمَّ استغلال عناصر معمارية انشائية وزخرفية مختلفة من قباب، وأعمدة، وعقود، ومقرنصات، ومداخل، وغيرها... . شكلت هذه العناصر جزءاً هاماً من عمارة الأمير تنكز، سيتم بيانها بالآتي:-

4.1 العناصر الإنشائية:

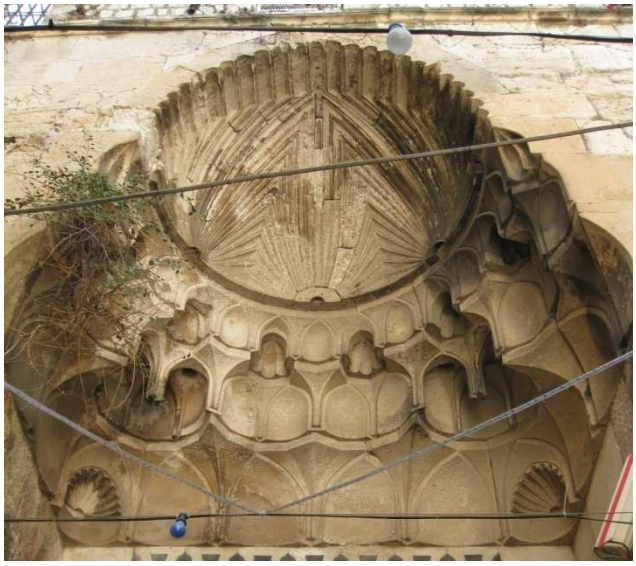
4.1.1 القباب: استعملت القباب في تغطية المسطحات سواء كانت ذات مساحة متسعة أم صغيرة. وقد ظهرت انواع كثيرة من القباب منها النصف كروية؛ التي قد تأتي بشكل قوس دائري أو مدبب قليلاً، أو المضلعة أو البيضاوية، ومنها قباب كبيرة ذات مناور. وتنقسم القباب من حيث طريقة الانتقال والتحول من الشكل المربع الى الدائرة لنوعين: الأول منها هي القباب المحمولة على حنية في كل زاوية من زوايا المربع (Squinches). وقد استعملت في هذه الطريقة المقرنصات كعنصر انشائي في تحويل المسقط المربع الى دائري، عن طريق مجموعة من صفوف القوصرات المتتالية. أما النوع الثاني فهي القباب المحمولة على مثلثات كروية (Pendentives)[1]. وقد تأتي هذه القباب إما محمولة بإحدى الطريقتين السابقتين مباشرة فوق الشكل المربع، أو يفصل بينها وبين الشكل المربع شكل اسطواني (الرقبة) عادة ما تتخلله مجموعة من الفتحات.

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص101؛ حسن، فنون الاسلام، ص154.



(أ) (ب)

رسم توضيحي دون مقياس رسم (للباحثة): (أ) تحويل المربع الى دائرة بطريقة الحنيات Squinches
(ب) تحويل المربع الى دائرة بطريقة المثلثات الكروية Pendentives



صورة 25: القبة أعلى مدخل المدرسة التنكزية
تصوير الباحثة

وتأتي القبة المركزية في المدرسة التنكزية والتي تقع فوق صحن المدرسة، محمولة بطريقة المثلثات الكروية مع استخدام التضليع في القبة والذي يُعرف بـــ ' Folded cross vault' للانتقال الى الشكل الثماني في أعلى القبة والذي يشكل المنور. وقد استخدمت هذه الطريقة أيضاً في غرفة اخرى تقع على مستوى الطابق الثاني في المدرسة. وقد استخدمت القباب في تغطية مساحات غرف اخرى في المدرسة بالطريقة نفسها، لكن دون مناور إنما بأشكال زخرفية في أعلى القبة. أما قبة مدخل المدرسة التنكزية فقد استخدمت نصف قبة كروية الشكل مع مقطع لعقد مدبب الشكل محمولة على مجموعة صفوف من القوصرات التي شكلت المقرنصات.



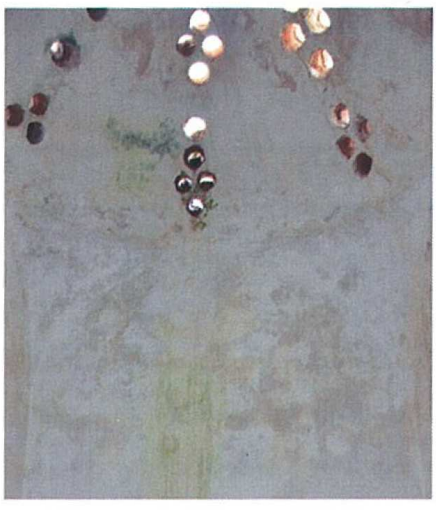
صورة 26: تُظهر التضليع في قبة القاعة الرئيسية في حمام الشفا. (تصوير الباحثة)

وفي باب القطانين الشرقي أيضاً فقد استخدمت نصف قبة كروية ذات مقطع عقد بشكل مدبب قليلاً، محمولة على مجموعة صفوف من المقرنصات والتي استخدمت لهدف انشائي وزخرفي.

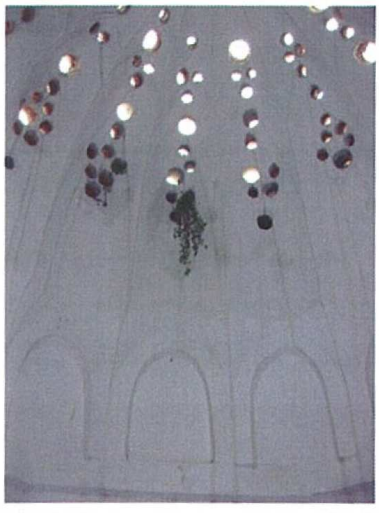
وقد استخدمت ايضاً القبة في القاعة الرئيسية (المشلح) في حمّام الشفا ومحمولة بطريقة المثلثات الكروية مع استخدام

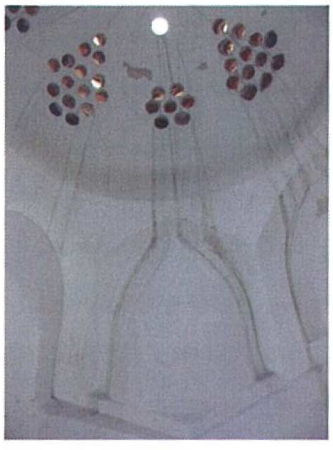
التضليع في القبة (Folded cross vault)، حيث تنتهي في اعلاها بمنور ثماني الشكل. واستخدم ايضاً في الغرفة الباردة قبة محمولة على مثلثات كروية، يتخللها مجموعة من الفتحات الفخارية الاسطوانية الشكل لإدخال الضوء الى داخل الغرفة. أما الغرف الدافئة المتتالية فقد جاء سقفها بشكل قباب بيضاوية الشكل محمولة على مثلثات كروية، وفي الغرفة الساخنة استخدمت الحنيات في زوايا المربع لرفع القبة البيضاوية الشكل.

وفي حمّام العين استخدمت قبة محمولة على مثلثات كروية ذات اتجاهين في القاعة الرئيسية (المشلح)، وتنتهي القبة في منتصفها بفتحة دائرية الشكل (المنور). أما الغرف الاخرى المتعددة في الحمام، فجزء منها مسقوف بقباب دائرية متغيرة الاحجام ومحمولة على مثلثات كروية، والجزء الآخر كالغرفة الدافئة الرئيسية واخرى الملحقة فتقع القبة الدائرية الشكل محمولة على حنيات في الزوايا الأربع، وحنيات اخرى تتوسطها. والغرفة الدافئة الاخرى الملحقة تأتي القبة بشكلها البيضاوي ومحمولة على الحنيات. أما الغرفة الساخنة الرئيسية فتقع قبتها بشكلها المميز على قاعدة مثمنة الشكل، مما دعى الى تقسيم كل مجموعة من الحنيات الثلاث على كل ضلع من اضلاع المثمن، وبالتالي فقد جاءت القبة محمولة على ستة عشر حنية تنتهي بأقواس مدببة الشكل ومكونة من ستة عشر قوصرة. وتتخللها مجموعة من الفتحات الفخارية بشكل زخارف هندسية. وقد تميزت احدى الغرف الساخنة الملحقة بشكل الحنيات حيث تشكلت من قوسين متداخلين على الزوايا وحنيات اخرى بينها، حملت القبة الكروية الشكل التي تتخللها الفتحات الفخارية.



صورة 27: صورة توضيحية من احدى غرف حمام الشفا لطريقة حمل القبة على المثلثات الكروية.





صور 28، 29: صور من داخل حمام العين توضح طريقة حمل القبة على الحنيات، وقبة الغرفة الساخنة الرئيسية المحمولة على ستة عشر حنية. تصوير الباحثة

لقد جاءت هذه القباب سواء في المدرسة التنكزية وباب القطانين وحمامي الشفا والعين من النوع المحمول مباشرة على المسقط المربع أو المثمن الشكل بواسطة المثلثات الكروية أو الحنيات. أما النوع الذي يفصل فيه الشكل الاسطواني (الرقبة) Drum بين المسقط المربع أو المثمن وبين القبة، فقد استخدم في مأذنتي باب السلسلة والغوانمة (صورة 21). فقد تمَّ رفع الشكل المثمن في مأذنة باب السلسلة على المربع، وتخللته بعض الفتحات الصغيرة الطولية الشكل للإضاءة والتهوية، وتم تحويل الشكل المثمن الى دائري عن طريق الرقبة الاسطوانية الشكل، لحمل قبة بصلية الشكل. وفي مأذنة الغوانمة كذلك، فقد تمَّ رفع الشكل المثمن للطابق العلوي على الشكل المربع للمأذنة، وتحويل الشكل المثمن من الداخل الى الشكل الاسطواني عن طريق مجموعة من الاقواس الداخلية، والتي تنعكس من الخارج فتظهر على شكل القوصرات عددها ثمانية، تنتهي كل واحدة بعقد مدبب الشكل.

4.1.2 الأعمدة: استعملت الأعمدة كعناصر حاملة في العمارة عامة، ولكن في الأعمال المعمارية للأمير تنكز والتي تقع قيد الدراسة، لم يكن للأعمدة المستخدمة والظاهرة وظيفة انشائية. ففي الطابق الثاني للمدرسة التنكزية تمَّ استخدام ثلاثة أعمدة[1] دون وظيفة انشائية في اكتاف ووسط النوافذ الواقعة على الواجهة الشرقية لايوان الخانقاة والمطلة على الحرم. كما وقد تمَّ اعادة استخدام أعمدة من عمارة سابقة البناء، كالأعمدة الصليبية الواقعة على جانبي المحراب في الايوان الجنوبي في الطابق الأرضي للمدرسة التنكزية[2]. وفي مأذنة باب السلسلة فقد أُعيد استخدام أعمدة من عمارة سابقة كنوع من الزخرفة على جانبي القوصرات التي تعلوها المقرنصات على الجوانب الأربعة للمأذنة. كما وفي مأذنة الغوانمة فقد تمَّ اعادة استخدام أعمدة على جوانب ووسط اقواس مسمطة على جانبي القاعدة، واستخدام أعمدة على اركان المأذنة الأربع وعند شرفة المؤذن لحمل مظلة السقف.



صورة 30: الأعمدة على جوانب مأذنة باب السلسلة (تصوير الباحثة)

[1] العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص111

[2]. لقد ذكر ذلك Burgoyne بالاعتماد على شكل قواعد وتيجان الأعمدة (Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 237)

4.1.3 الأوتار (Lintels): تمتد الأوتار بين الأعمدة أو في الفراغ بين جدارين، وتستعمل كعنصر انشائي لمقاومة القوى الأفقية الناتجة عن دفع العقود، ولها وظيفة غير انشائية حيث تستعمل لحمل مصابيح الانارة. وقد يعلو فوق هذه الأوتار اقواس، ويظهر ذلك في المدخل الغربي لسوق القطانين، حيث يتكون الوتر من مجموعة من الأحجار المتراصة في منتصفها keystone ويعلوه قوس دائري الشكل، وفي مدخل سوق القطانين الشرقي استخدم وتر مكون من صفّ من ثلاثة احجار يعلوها قوس دائري الشكل. كما ونجد ذلك في بعض واجهات الحواصل في سوق القطانين حيث استخدمت في انشاء هذه الأوتار مجموعة من الأحجار المتداخلة فوق فراغ المدخل، ويُطلق عليه حينها بالقوس المسطح، ويعلوه قوس مدبب الشكل مكون من مجموعة من الأحجار. وفي خان تنكز تمَّ استخدام الوتر على مدخل الصحن الداخلي المكشوف، ويعلوه قوس مكون من ثلاثة احجار ضخمة الحجم.


صورة 31: المدخل الغربي لسوق القطانين (تصوير الباحثة)

4.1.4 العقود أو الأقواس (Arches): استعملت العقود لربط المسافة بين جدارين أو عمودين بشكل أقواس. وقد تنوعت هذه العقود فمنها العقد الدائري، والعقد المدبب، وعقد حدوة الفرس، والعقد ثلاثي الاقواس، وغيرها من اشكال العقود... .

وقد شاع استخدام العقد المدبب في عمائر الأمير تنكز، حيث استعمل في تغطية فتحات الايوانات وفي عقود الشبابيك والأبواب. ففي المدرسة التنكزية استعمل العقد المدبب في اعلى المدخل وعلى فتحة الايوانات الأربعة المطلة على الصحن الداخلي. كما واستعمل هذا العقد في المحراب، وفي الواجهة الخارجية المطلة على الحرم فاستخدم العقد المدبب في اعلى النافذتين في منتصف الطابق العلوي. أما الواجهة المطلة على حارة المغاربة، فقد استخدمت العقود المدببة على الفتحات الثلاثة في اسفل الجدار، كما وفي الطابق العلوي فقد استخدمت هذه العقود على الشبابيك الجنوبية. أما في رباط النساء فقد استخدم نوع آخر من العقود، وهو العقد ذو الثلاثة اقواس Trefoil arch حيث شكَّل أعلى المدخل الرئيسي للرباط، وقد وُجِدَ مثل هذا العقد على الجزء الداخلي للمدخل الشرقي لسوق القطانين. وفي سوق القطانين فقد استخدم العقد المدبب في المدخل الغربي للسوق، كما وفي العقد الخارجي للمدخل الشرقي للسوق، وفي مدخل خان تنكز وفي حمامي الشفا والعين، استخدم هذا العقد في قاعة الاستقبال (المشلح) لحمام العين وفي اعلى القوصرات (الحنيات) الحاملة للقباب في غرف الحمام المختلفة.

وقد استخدم نوع آخر من العقود في حمام العين وهو العقد القوسي او الموتور Segmental arch وهو قوس بشكل جزء من دائرة، حيث ظهر في قاعة الاستقبال على الواجهة الغربية للقوصرة الغربية والمطلة على طريق الواد. كما واستخدم هذا العقد في بعض واجهات مداخل الحواصل في سوق القطانين.




صورة 32، 33: Trefoil Arch في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي ورباط النساء (تصوير الباحثة)

4.1.5 القبوات (Vaults): وهي مجموعة من الأقواس او العقود المتعاقبة او المتداخلة، وتستعمل في تغطية المسطحات. استعملت القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل Barrel vaults، والقبوات المدببة والمتقاطعة Cross vaults ، والقبوات المتداخلة Folded cross vaults في تغطية الايوانات والقاعات والغرف والدهاليز في عمائر الأمير تنكز، سواء أكانت هذه المساحات مستطيلة الشكل او مربعة الشكل. ففي المدرسة التنكزية استخدمت القبوات النصف دائرية في عدة غرف في طوابق المدرسة الثلاثة (الأرضي والميزانين والعلوي)، كما وقد استخدمت القبوات المدببة والمتقاطعة في بهو المدخل الرئيسي للمدرسة وفي تغطية الايوانات الثلاثة في الطابق الأرضي، وفي غرف اخرى في الطابق الأرضي كما وفي طابق الميزانين والطابق العلوي. أما القبوات المتداخلة فقد استخدمت بشكل رئيسي في تغطية صحن المدرسة كما وفي غرفة اخرى على مستوى الطابق الأرضي وفي عدة غرف على مستوى الطابق العلوي. وهذا الشكل من القبوات يوفر امكانية عمل فتحات في السقف للإضاءة والتهوية. وفي رباط النساء استخدمت القبوات النصف دائرية البرميلية والقبوات المدببة والمتقاطعة في تسقيف قاعات وغرف الرباط.



صورة 34: منظر داخلي من رباط النساء، يظهر فيه القبو النصف برميلي الشكل Barrel Vault (تصوير الباحثة)

وفي سوق القطانين فقد استخدم التسقيف بنظام القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل على طول السوق، كما واستخدمت القبوات المدببة والمتقاطعة فوق مساحة الادراج الداخلية عند مدخل السوق الشرقي، وعند مدخل حمام الشفا. وقد استخدم نظام القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز، حيث تنتهي الى منور ثماني الشكل.



صورة 35: نظام تسقيف سوق القطانين بالقبوات النصف برميلية

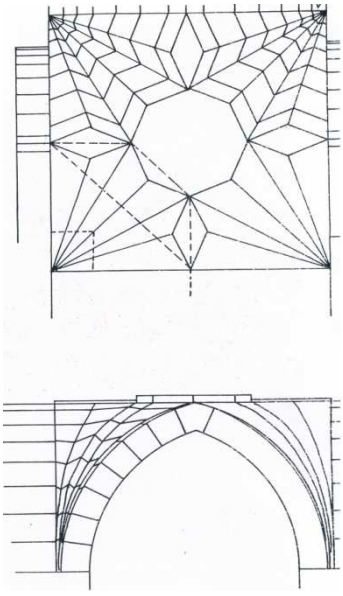
وفي خان تنكز استخدم نظام القبوات النصف برميلية بشكل اساسي، حيث استعملت في تسقيف قاعة المدخل مع استخدام الأقواس المتداخلة، وأيضاً في بقية غرف وقاعات الخان.



صورة 36: القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز (تصوير الباحثة)



صورة 37: القبوات النصف برميلية في قاعة مدخل خان تنكز (تصوير الباحثة)

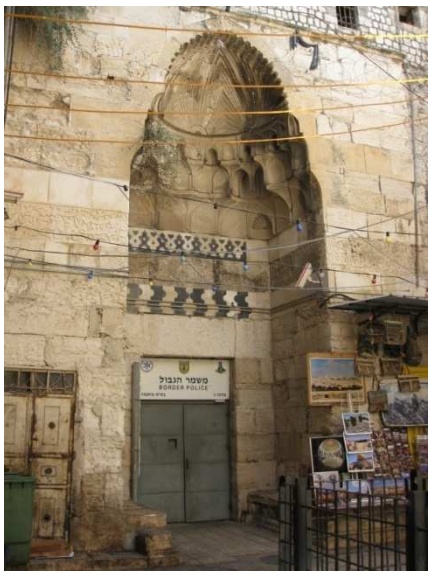


رسم توضيحي للقبوات المتداخلة من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 209

أما حمّام الشفا فقد استخدم في قاعة الاستقبال قبوات متداخلة تنتهي الى منور ثماني الشكل، واستخدمت القبوات النصف برميلية فوق الممر على الجانب الشرقي من الحمام وفي غرفة على جانب الحمام الغربي. وفي حمّام العين استخدم نظام التسقيف بالقبوات النصف دائرية البرميلية فوق درج مدخل الحمام من طريق الواد، ولتسقيف بعض الغرف.

كما واستخدمت القبوات النصف دائرية البرميلية الشكل في مأذنة الغوانمة لتسقيف الممر المؤدي من باب المأذنة (الواقع على مستوى الطابق الثاني في المأذنة) الى مدخل المأذنة والواقع على الجهة الشمالية. والتسقيف بالقبوات النصف برميلية أيضاً فوق الدرج الحلزوني الشكل داخل المأذنة والمؤدي الى شرفة المؤذن.

4.1.6 المداخل: اتُبع نظام المداخل الشاهقة والمجوفة في بعض عمائر الأمير تنكز، حيث امتد مدخل المدرسة التنكزية تقريباً الى ارتفاع البناء كله، وظهر المدخل بشكل عميق ومجوف، مسقوف بنصف قبة كروية الشكل محمولة على ثلاثة صفوف من المقرنصات. ويقع على جانبي بوابة المدخل مكسلتين، وتفتح البوابة على بهو المدخل (الدركاه) ومنه باب آخر يفتح على صحن المدرسة. وهذا النظام المتبع غالباً في العمائر الاسلامية وذلك لحجب الرؤية المباشرة عن داخل المبنى من الساحة او الطريق العام. وفي رباط النساء صُمم المدخل المرتفع والمجوف ويعلوه عقد ذو الثلاثة اقواس، ويمتد هذا العقد الى الداخل ليشكل عقد مدبب الشكل يقع فوق بوابة المدخل.



صورة 38: مدخل المدرسة التنكزية
تصوير الباحثة

أما مدخل سوق القطانين الشرقي فقد تميز بارتفاعه وعمق تجويفه، ويقع المدخل بشكل بناء منفصل يعلوه قوس مدبب الشكل وقبة نصف كروية محمولة على مجموعة صفوف من المقرنصات. وتقع فتحة تعلوها المقرنصات على كلا جانبي المدخل وتطل على الرواق الغربي. أما الجانب الداخلي من المدخل يقع عقد ذو الثلاثة اقواس مزخرف بالحجارة السوداء والبيضاء اللون (الابلق)، ويرتفع هذا العقد فوق باب القطانين المصنوع من الخشب، والمثبت من الناحية الظاهرة عند فتحه بعدد من الكسوات بشكل أشرطة من النحاس والمزخرفة بكتابات ومثبتة بمجموعة من المسامير النحاسية. وتقع بين الشريطين الأوسطين مقرعة الباب والمصنوعة من البرونز المشغول.

4.1.7 النوافذ: لقد شكَّل عامل الخصوصية والأمان الاساس في تصميم النوافذ وموقعها على واجهات العمائر الاسلامية، ولذلك فقد اتبع نظام للتهوية وللإضاءة من خلال فتحات تطل على الصحن الداخلي، وإنْ دعى الأمر لوجود فتحات خارجية فإنها تكون صغيرة الحجم وتقع فى أعلى الواجهات لحجب الرؤية عن داخل المبنى. كما وقد روعي أمر ايصال القراءات القرآنية والصلوات الى الأفراد عن طريق موقع الفتحات في المباني التعليمية والدينية. وهذا ما يظهر في المدرسة التنكزية، حيث اعتمد أمر الاضاءة والتهوية بشكل اساسي على الصحن الداخلي الذي يعلوه القبة والمنور. وفي الواجهة الشرقية للطابق الأرضي صُممت نوافذ مستطيلة الشكل في الايوان الشرقي للمدرسة حيث يجتمع الشيخ والمحدثين وتُقام الدراسات والقراءات القرآنية والأدعية، وهذه الفتحات نافذة على الرواق الغربي للحرم. كما وقد صممت فتحات مستطيلة



صورة 39: بعض فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية (تصوير الباحثة)

الشكل على الواجهة الجنوبية في الطابق الأرضي واخرى تنتهي بأقواس مدببة الشكل كما في النافذة فوق المحراب، وفتحات اخرى داخلية كالفتحات النافذة بين الايوانات، وهي عبارة عن نوافذ مغلقة بشبكة من المعدن.

وفي الطابق العلوي صُممت فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للخانقاة والمطلة على الحرم، حيث يقع مجمع قاعات اقامة الصلوات للصوفيين، حيث يؤدون دراساتهم وشعائرهم الدينية، وهذه النوافذ مستطيلة الشكل ويعلو النافذتين في القاعة الشمالية الشرقية قوس دائري الشكل، أما النافذتين في القاعة الوسطى فيعلوهما قوسان مدببا الشكل. وبقية النوافذ إما مطلة على سطح المدرسة أو على الساحة الوسطية امام المدرسة أو على المساحة المكشوفة في هذا الطابق، أو تكون فتحات داخلية بين الغرف، وجميعها صُممت لتوفير الاضاءة والتهوية. وفي رباط النساء أيضاً استخدمت فتحات عددها قليل مستطيلة الشكل تعلو الواجهة المطلة على الساحة امام الرباط، أما الغرف الداخلية فقد صممت لها نوافذ داخلية مطلة على الممر او الايوان لتوفير الضوء والتهوية.

وفي الطابق العلوي لسوق القطانين صممت نوافذ مستطيلة الشكل لتوفير الاضاءة والتهوية للرُبَع (المساكن) من داخل ممر السوق. وفي حمّام العين استخدمت نوافذ تطل على طريق الواد، وواقعة في التجويفين الغربيين المطلين على قاعة الاستقبال. أما حمّام الشفا فتقع في شرقي قاعة الاستقبال ثلاثة شبابيك، كانت تطل سابقاً على حديقة النارنج ولكنها الآن غير نافذة وأحدها استخدم كباب للحمام[1]. أما فتحات الاضاءة في غرف الحمام المختلفة سواء حمام الشفا أو العين، فقد استخدمت فتحات المناور التي تعلو القباب في القاعتين الرئيسيتين (الاستقبال) لكلا الحمامين. وفي الغرف الاخرى استخدمت فتحات دائرية الشكل مكونة من مجموعة من الاسطوانات الفخارية وتعلوها طبقة من الزجاج، البعض منه ملون.

[1].العسلي، وثائق مقدسية، مج 1، ص111.

أما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة فقد صممت الفتحات بشكل طولي يتناسب مع شكل المأذنة الممتد الى أعلى، وهذه النوافذ توفر الاضاءة والتهوية على مختلف طوابق المأذنة، تنتهي بعض هذه النوافذ بأقواس دائرية الشكل. كما استخدم الشكل المربع للنوافذ الواقعة على الطبقة الاسطوانية الشكل اسفل القباب. وفي مأذنة الغوانمة استخدم الشكل الثماني في بعض فتحات النوافذ الواقعة على مستوى الطابق الرابع في المأذنة.

لقد كانت النوافذ في المباني تُغلق من الخارج بشبكة من الحديد تُعرف بالمصبعات الحديدية، تتكون من قضبان اسطوانية الشكل، تتقاطع مع بعضها افقياً ورأسياً. ويتم تثبيت القضبان الأفقية أولاً في فجوات مخصصة لذلك على حافتي النافذة، تتخلل هذه القضبان كرات مجوفة يتم انزال القضبان العمودية لاحقاً في هذه الكرات بشكل عمودي قبل أنْ يُثبت وتر النافذة. وتُغلق النافذة من الداخل بواسطة باب بمصراعين إما مدهون أو مُطعَّمْ بالعاج والأبنوس[1].



صورة 40: مأذنة الغوانمة من الناحية الجنوبية تظهر فيها فتحات النوافذ (تصوير الباحثة)

4.1.8 السلالم: تُعمل السلالم للانتقال من مستوى طابق الى مستوى طابق آخر. وتتكون السلالم من الشاحط Flight المكون من عدد من الدرجات، والمسطبة Landing. وقد صُممت السلالم في المدرسة التنكزية للانتقال من مستوى الطابق الأرضي الى طابق الميزانين ثمَّ الى الطابق العلوي. ويستند السلم على الحائط الجنوبي لبهو المدخل، حيث ترتفع عدة درجات الى المسطبة الأولى التي يقع فوقها جزء من طابق الميزانين، ثمَّ ترتفع درجات اخرى في شاحط بين جدارين الى مسطبة اخرى مكونة من عدة درجات، ثم الدخول مباشرة الى طابق الميزانين دون وجود مسطبة، واستمرار الادراج حتى يتم الوصول الى مستوى الطابق العلوي.



صورة 41: الدرج الحجري المؤدي الى مدخل مأذنة الغوانمة الواقع على مستوى الطابق الثاني (تصوير الباحثة)

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص109-111.

ويقع هذا الجزء الاخير من السلالم بشكل منفصل جزئياً عن المبنى حيث أنَّ له بناء صغير لتغطية السلالم. وهناك سلالم اخرى ثانوية يقع مدخلها من الجدار الشرقي للمدرسة تحت الرواق الغربي للحرم، وترتفع عبر هذا الجدار وتصل الى الطابق العلوي لسكن الصوفية ثم الى سطح المدرسة[1].

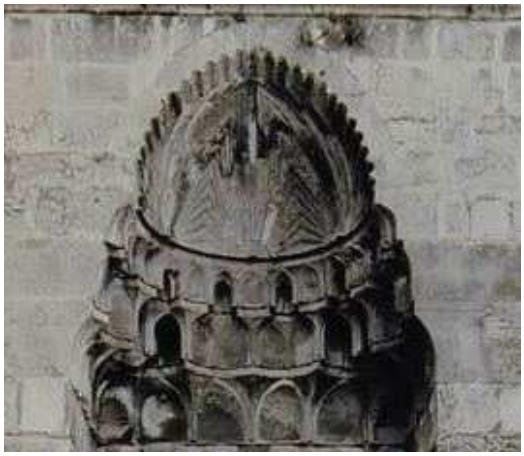
وفي سوق القطانين صممت عدة سلالم للوصول الى الرُبَع على الطابق العلوي للسوق. بعض من هذه السلالم نافذة من داخل السوق وبعضها مجاور للسوق. كما واستخدمت سلالم في داخل حمام العين من مدخله على طريق الواد، حيث يتكون من شاحط يشتمل على ثماني درجات ومسطبتين واحدة عند المدخل واخرى عند باب صالة الحمام، وتقع هذه السلالم بين جدارين جزء منها يقع اسفل الحاصل الأول في سوق القطانين. أما خان تنكز فقد استندت سلالم خارجية على الجزء الشمالي الشرقي من الجدار الشمالي للساحة المكشوفة، حيث يتم الوصول من خلالها الى الطابق العلوي في الخان. أما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة فقد استخدمت السلالم الحلزونية الشكل في داخل المأذنتين للوصول الى شرفة المؤذن، وتستند هذه الدرجات مكان اتساعها على جدار المأذنة. ويظهر سقف سلالم مأذنة باب السلسلة بشكل متدرج حيث يتشكل من الجانب الآخر من السلالم العلوية، أما في مأذنة الغوانمة فقد استخدم القبو البرميلي الشكل في سقف السلالم الداخلية[2]، واستخدمت سلالم خارجية للوصول الى المدخل الواقع على مستوى الطابق الثاني من قاعدة المأذنة. وتتكون هذه السلالم من عدة شواحط ومساطب ترتفع باتجاه الشمال ثم باتجاه الغرب، وتستند على جدار بناء يقع على ساحة الحرم، وفي الجانب الآخر من السلالم يقع درابزين حجري.

4.1.9 المقرنصات: استعملت المقرنصات كعنصرانشائي أو كعنصر زخرفي في العمارة الاسلامية، وقد تستخدم هذه المقرنصات كعنصر انشائي وفي ذات الوقت تخدم كعنصر زخرفي. وحيث استخدمت المقرنصات كعنصر انشائي فذلك لتحويل المسقط المربع الى دائرة عن طريق عمل محاريب Squinches في الزوايا لتقوم فوقها رقبة القبة الدائرية الشكل أو المثمنة. وتتكون المقرنصات من مجموعة من الصفوف كما يظهر في مدخل المدرسة التنكزية ومدخل سوق القطانين الشرقي، حيث تمَّ تحويل التجويف القائم الزاويا الى نصف قبة كروية الشكل.

[1]. العمري، مسالك الابصار، ج1، ص163.

[2]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.182 p. 248

كما ويظهر ذلك ايضاً في مجموعة من الغرف في حمامي الشفا والعين، حيث تمَّ تحويل المسقط المربع للغرف الى قباب عن طريق المحاريب في الأركان وعلى اضلاع المربع، لتقوم فوقها القباب الدائرية أو البيضاوية الشكل.







صورة 42، 43: المقرنصات في اعلى مدخل المدرسة التنكزية.
من موقع http://Archnet.org
Image ID: ICR2038, ICR2039
Courtesy of the Creswell Archive



صورة 44، 45: المقرنصات في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي.
(تصوير الباحثة)

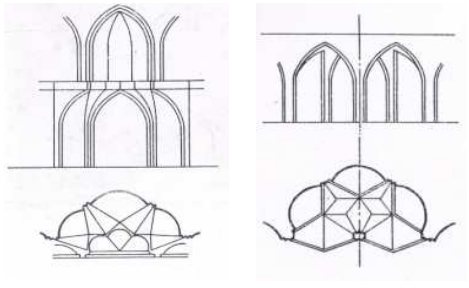
4.2 العناصر الزخرفية :

لقد شكلت العناصر الزخرفية وحدات هامة ومكملة لعمائر الأمير تنكز. وقد ارتكزت هذه العناصر على قيم فنية تشكيلية اساسها طبيعة معالجة المساحة من خلال اللون، والخط، وتوظيف التباين بين الظل النور، وملمس السطح، والايقاع؛ حيث أنَّ تكرار وحدات زخرفية على ايقاع معين إنما يؤدي الى تكوين وحدة متكاملة من العنصر الزخرفي، والذي يحقق تبعاً لذلك الصفة الجمالية. وقد ارتكز نمط الزخارف على اشكال زخرفية سواء نباتية أو هندسية أو باستعمال الخط، وتوجد في بعض الاحيان زخارف هندسية مع زخارف نباتية في مسطح واحد، أو زخارف نباتية مع كتابات

في مسطح واحد. وقد تشكلت الزخارف النباتية بتعبير تجريدي من اشكال اوراق الاشجار وفروع النباتات بشكل منحني ومتشابك ومتتابع (والذي عُرف بزخارف الأرابيسك)[1]. أما الزخارف الهندسية فتعتمد على تشكيل خطوط ممتدة ومتداخلة وتكرارها بايقاع منتظم، والزخارف الكتابية اعتمدت على نص الآيات القرآنية ونصوص تاريخية.

أما أبرز العناصر الزخرفية التي شكلت عنصراً جمالياً في عمائر الأمير تنكز فهي:

4.2.1 المقرنصات: بالإضافة الى استخدام المقرنص كعنصر انشائي في عمائر تنكز كما تمَّ ذكره سابقاً في نص الحديث عن العناصر الانشائية، فإنه قد استخدم كذلك كعنصر زخرفي. حيث تمَّ التشكيل بالمقرنصات في مدخل المدرسة التنكزية والمدخل الشرقي لسوق القطانين (باب القطانين)، مضيفاً صفة جمالية لهذه المداخل عن طريق التنسيق بين الظل والنور الناتج من تباين السطوح البارزة وغيرها المغمورة في المقرنصات. وقد ظهرت المقرنصات كمجموعة من صفوف القوصرات (التجاويف) عددها ثلاثة صفوف في المدرسة التنكزية وتحمل فوقها نصف القبة الكروية الشكل بعقد مدبب. وفي مدخل سوق القطانين استخدمت خمسة صفوف من المقرنصات تحمل فوقها نصف القبة الكروية الشكل. ويسمى هذا النوع من المقرنصات تبعاً لشكله بالمقرنص بدلاية (Stalactite). وعلى جانبي المدخل تقع فتحتان تطلان على الرواق الغربي، والتي تعطي مضمون الاستمرارية للرواق حتى لا يُشكل بناء مدخل السوق عائقاً يحجب هذه الاستمرارية. ويعلو هذه الفتحات صفين من المقرنصات بدلاية. وفي داخل سوق القطانين عند الحاصل رقم 17و18 يقع مقرنص بثلاث صفوف في أعلى القبو، وقد نُقش عليه اسم المهندس محمد بن أحمد بن غليش، وهو المهندس القائم بالعمل[2]. وهذا النوع من المقرنصات يُعرف بالمقرنص البلدي.



(ب) (أ)

(أ) شكل مقرنص بدلاية
(ب) شكل مقرنص بلدي
من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 100

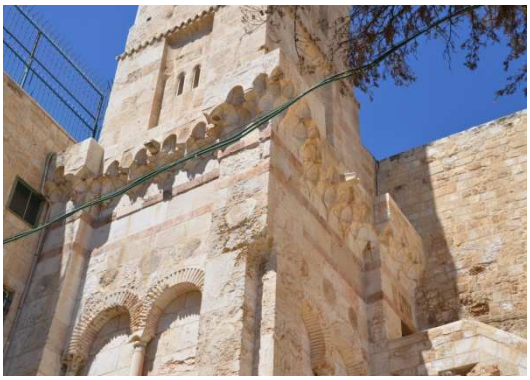


صورة 46: احدى الفتحتين الواقعتين على جانبي مدخل سوق القطانين، وتظهر المقرنصات بدلاية في اعلاها.
(تصوير الباحثة)

[1]. حسن، فنون الاسلام، ص250.

[2] .Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p.98 p.278.

وفي مأذنة باب السلسلة تقع ثلاث صفوف من المقرنصات في اعلى القوصرات الواقعة في الطابق اسفل شرفة المؤذن. كما أنَّ هناك صفّ من المقرنصات الغير مكتمل يقع على الشريط الفاصل بين الطابق الثالث وشرفة المؤذن. وفي مأذنة الغوانمة استخدمت ثلاث صفوف من المقرنصات في أعلى الطابق الثاني للقاعدة. كما ويفصل صفّ من المقرنصات بشكل شريط الطابق الرابع عن الطابق الخامس للمأذنة. ويقع صفين من المقرنصات اسفل شرفة المؤذن، تشكل منظراً جمالياً للشرفة.



صورة 47: صفوف المقرنصات في اعلى الطابق الثاني لقاعدة مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

4.2.2 القوصرات: هي عبارة عن تجاويف مسمطة تعلوها عقود مدببة أو مقرنصات، وقد تُنَظم داخل هذه القوصرات فتحات. استخدمت لإعطاء تنويع للمسطحات تفادياً للملل، كما وقد استخدمت بشكل ايقاعي في تحويل المسقط المربع الى دائرة لحمل القبة. وقد استخدمت القوصرات بشكل ظاهر في مأذنة الغوانمة حيث تقع في الجزء الأسفل الشرقي والجنوبي من القاعدة قوصرات بشكل مستطيل يعلوها شريط من المقرنصات، وفي الجزء العلوي من القاعدة تقع قوصرات يعلوها قوس على هيئة حدوة الفرس، ثمَّ يقع على مختلف طوابق المأذنة قوصرات بتجاويف بسيطة يعلو البعض منها أقواس مدببة الشكل وتنظم في داخلها فتحات النوافذ.



صورة 48: القوصرات في مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

وفي الجزء العلوي المثمن الشكل فوق شرفة المؤذن تقع قوصرات على جميع الجوانب وتعلوها اقواس مدببة الشكل وتتخللها فتحات صغيرة. وفي مأذنة باب السلسلة تقع تجاويف بشكل دائري على واجهة الطابق الثاني من المأذنة، ويعلوها في الطابق الثالث قوصرات تتخللها نوافذ طولية، ويقع على جوانب كل منها أعمدة وتعلوها في الواجهة الشمالية والجنوبية ثلاث صفوف من المقرنصات بخمس وحدات، أما في الواجهة الشرقية والغربية فتقع الثلاث صفوف من المقرنصات بثلاث وحدات.

أما في داخل البناء فقد استخدمت القوصرات في الحمامات، حيث تظهر عدة قوصرات أسفل القباب بشكل محاريب صغيرة، كما في حمام العين. أيضاً صممت عدة قوصرات على جدران الحمامات الداخلية وفي الطابق العلوي من سوق القطانين في داخل الرُبع، وذلك لاستخدام الوافدين

الى الحمام أو الرُبع، والبعض منها ثُبتت بداخلها احواض المياه الرخامية، وغالبية هذه القوصرات تعلوها عقود مدببة الشكل.

4.2.3 المداميك الملونة (الأبلق): استعملت المداميك الملونة باستخدام الأحجار الجيرية البيضاء اللون مع الرخام الملون سواء الأحمر أو الأسود أو الأصفر. وقد تمَّ تطبيق هذا الاتجاه في تبادل الوان الاحجار كعنصر زخرفي لاحياء الواجهات وتنوع التعبير الزخرفي عليها وابراز عناصرها. ففي مدخل باب القطانين الشرقي يظهر الأبلق باللونين الأحمر والكريمي(البيج) على العقد المدبب الشكل في اعلى المدخل. كما واستخدم الأبلق باللونين الأسود والبيج في العقد ذو الثلاثة أقواس الذي يعلو باب المدخل، ويظهر الأبلق في القسم الأوسط من العقد بشكل شعاعي.



صورة 49: الصنج الحجرية في اعلى باب المدرسة التنكزية (تصوير الباحثة)

وفي الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية استخدم الأبلق باللونين الأصفر والأسود[1] في العقد المدبب فوق النافذتين في القاعة الوسطى للطابق العلوي المخصص للصوفيين، ولكنها تظهر حالياً باللونين الأصفر والأبيض.

4.2.4 الصنج الحجرية المعشقة (اللحامات المتداخلة): تُعتبر الصنج المعشقة كنوع من الأبلق ولكن بتشكيل متداخل وبأشكال هندسية أو نباتية. وتستعمل في النواحي التشكيلية الزخرفية فوق فتحات الأبواب والنوافذ، كما ولها هدف انشائي في حال وقوعها فوق فتحة الباب مباشرة، حيث أنَّ قوة الرابط فيما بينها تشكل تماسكاً لعقد الباب. ففي مدخل المدرسة التنكزية، استخدم صفين من الصنج الحجرية المعشقة باللونين الاسود والابيض كعنصر زخرفي، الأول يقع بين عقد الباب والشريط الكتابي، والثاني يقع فوق الشريط الكتابي، وقد اتخذ الصفين الاشكال الهندسية المتداخلة، البسيطة في الصف الأول والمعقدة في الصف



صورة 50: رسم باب القطانين من داخل السوق، للفنان Bauernfeind, Gustav 1886

[1].العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص111.

الثاني. كما وتظهر الصنج المعشقة فوق الفتحتين على جانبي باب القطانين من الداخل باللونين الأسود والأبيض كعناصر زخرفية. أما بعض دكاكين سوق القطانين والمتواجدة في الجزء الشرقي من السوق، فقد استخدمت الصنج المعشقة لوظيفة انشائية حيث شكلت الأوتار فوق فتحات الدكاكين، وتحمل فوقها العقود.

4.2.5 الشريط الكتابي: استخدم الشريط الكتابي كعنصر زخرفي على واجهات المباني أو في داخل البناء. وقد استخدم نص الآيات القرآنية بشكل يتلائم وطبيعة استخدام المكان، مثل أنْ تُستخدم النصوص التي لها علاقة بالقبلة فوق المحراب، أو الآيات القرآنية التي لها علاقة بتعمير المساجد توجد على ابواب المساجد واماكن العبادة، وهكذا... . كما وتضمنت الكتابات على معلومات تعريفية تخص الباني وسنة البناء وشعار القائم بالبناء (الرنك). وقد استخدمت الالوان في الكتابة، من بينها الطراز المُذَّهَب[1] كما في المدرسة التنكزية، حيث امتد شريط كتابي مُذَهَب على جوانب المدخل وفوق باب المدخل بين صفي الصنج الحجرية المعشقة. ويتضمن الشريط رنك الأمير تنكز وهو الكأس داخل دائرة في ثلاث مواضع، على الجوانب القائمة مع جدار المدخل وفوق الباب مباشرة. ونَصْ النقش الكتابي يشتمل على البسملة ثم هدف انشاء البناء (لنيل رضوان الله وغفرانه) واسم القائم بالبناء وسنة البناء[2].

وقد استخدم الشريط الكتابي كعنصر زخرفي في داخل البناء لربط المستويات مع بعضها (الأفقية والعمودية)، أو لوصل رقبة القبة أو العقد مع السطح العمودي، كما يظهر في داخل المدرسة التنكزية؛ حيث يقع شريط كتابي على جدران المدرسة الداخلية يمتد على جدران الايوانات، ويختلف عرضه في بعض الجوانب حيث يقل فوق محيط المحراب وفوق فتحات الابواب والنوافذ.

وفي مدخل سوق القطانين الشرقي (باب القطانين)، اشتملت البوابة على نص كتابي بموضعين؛ الأول: النص المكتوب على الشريط النحاسي الواقع على مصراعي الباب الخشبي لباب القطانين، والذي ينص بأنَّ هذا الباب المبارك قد جُدِدَ في عهد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، مع

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109.

[2] . Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 223

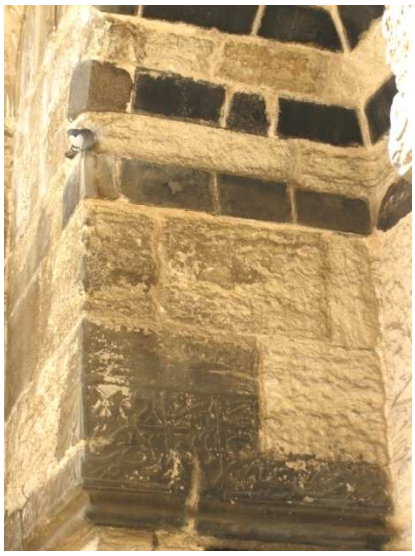


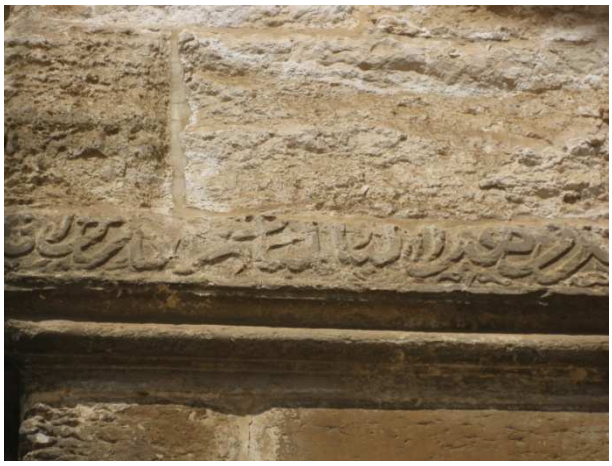


صورة 51، 52: باب القطانين الخشبي والشريط النحاسي الواقع عليه. (تصوير الباحثة)

ذكر القابه والدعاء له، بإشارة من الأمير تنكز حامي الممالك الشامية، وذكر أدعية له ثم تاريخ البناء. والثاني: شريط كتابي نُقِشَ بالطراز المذهب[1] ويقع اعلى وتر (عتب) الباب، ينص ما بقي منه ظاهراً على البسملة وعلى نقشْ خاص بتجديد فتح الباب في عهد السلطان الناصر محمد بإشارة من الأمير تنكز والدعاء له وتاريخ البناء.

وفي خان تنكز يقع الشريط الكتابي في بهو المدخل منقوشاً على وتر مدخل الساحة المكشوفة للخان، ويظهر رنك الأمير تنكز(الكأس داخل دائرة) في ثلاث مواضع؛ في منتصف النص الكتابي على الوتر، وعلى الجدارين الجانبيين الداعمين للوتر، ويشتمل نص الكتابة على البسملة ثم نص بناء هذا المكان (السوق والرُبَع اعلاه) بأمر من الأمير تنكز والدعاء له وتاريخ البناء.

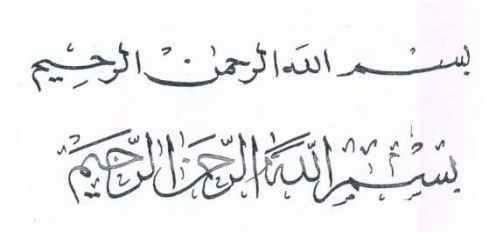




صورة 53، 54: الشريط الكتابي المنقوش الواقع اعلى باب القطانين الشرقي. (تصوير الباحثة)

[1]. العمري، مسالك الأبصار، ج1، ص162.

أما طراز الخط الذي استعمل في الأشرطة الكتابية، فقد تنوع بين الخط النسخ والخط الثلث، والغالب هو الخط الثلث. وهناك تشابه بين الخطين، مع فارق أنَّ خط النسخ تتميز حروفه بالزوايا الحادة أما حروف الثلث فهي ذات زوايا مرنة. وامتازت بتداخل كلماتها في بعضها البعض وبكثرة تشكيل الحروف[1].



الفرق بين خط النسخ والثلث الظاهر بالبسملة. من مصطفى، التراث المعماري، لوحة 134ب

4.2.6 الرنك: استعملت الرنوك كختم لتمييز الأمير، وهي تدل على المرتبة والمكانة المتميزة التي وصل اليها[2]، فالكأس يشير الى الجاشنكير(ذواق السلطان) أي المُؤَمَنْ على حياة السلطان، وقد نُقِشت في عدة مواضع تتخلل النص الكتابي في الأشرطة الكتابية، وقد تمَّ توضيح موقعها سلفاً في خلال ذكر الشريط الكتابي. كما وقد ظهرت على المشكاة الخاصة بالأمير تنكز.



صورة 55: رنك الأمير تنكز (الكأس داخل حلقة) الواقع اعلى مدخل ساحة خان تنكز. (تصوير الباحثة)

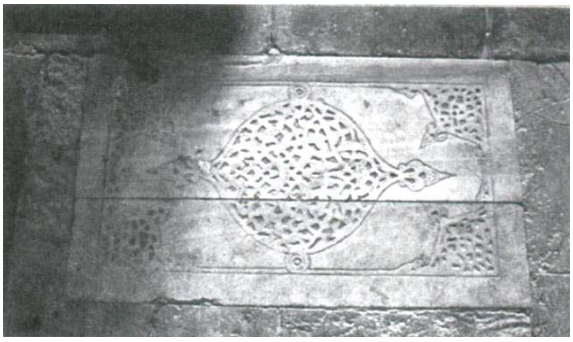
4.2.7 التكسيات الرخامية: يتم تكسية الحوائط الداخلية بالرخام خاصة في المباني الدينية كنوع من الاظهار الجمالي لداخل البناء، حيث يتم استخدام الرخام الملون بإيقاع معين. ويتخلل التكسية احياناً تكوينات بأشكال هندسية، كما ويتم حفر الرخام بأشكال هندسية أو نباتية. ويظهر ذلك في داخل المدرسة التنكزية حيث تمتد التكسيات الرخامية الملونة على جميع جدران المدرسة الداخلية[3] بارتفاع حوالي ثلاثة امتار، حيث تمتد الى بداية عقد المحراب في حائط القبلة وتتخللها الواح رخامية منقوشة بأشكال زخرفية، ويعلوها الشريط الكتابي. وتظهر ايضاً التكسيات الرخامية في

[1]. مصطفى، التراث المعماري الاسلامي، ص65.

[2]. يُمكن النظر الى شرح عن الرنوك في: مقالات أثرية بالمناسبة العشرية، مقالة "رنوك مملوكية من تل تعنك" لنائل جلال، في الصفحات من 132-134.

[3]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109.

الايوان الجنوبي حيث تمتد الواح رخامية بشكل طولي على جانبي المحراب، ويعلوها الواح رخامية ملونة باللون الأحمر الداكن، محاطة بأشرطة مزخرفة باشكال نباتية، ويعلوها شريط آخر مزخرف باشكال اقواس مسمطة ومزخرف داخلها بموزاييك الرخام بأشكال هندسية. أما المحراب فيمتد من الاسفل على شكل اقواس مسمطة ملونة ومزخرفة يعلوها الواح طولية من الرخام متعاقبة الالوان، الابيض والاحمر او الاخضر، ويعلوها شريط كتابي نصه" ... اتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا". ويعلوه نصف القبة الكروية المزخرفة باشكال نباتية والوان متعددة منها الأخضر والذهبي.. محاطة من الداخل بأشكال هندسية على شكل مثلثات متتابعة. ويحيط بقبة المحراب من الخارج تكسية رخامية باشكال هندسية متداخلة يعلوها الشريط الكتابي. وفي مسجد الخانقاة في الطابق العلوي للمدرسة، تمتد التكسيات بالرخام الملون على جدار المسجد والمحراب[1].





صورة 56، 57: بعض التكسيات الرخامية داخل المدرسة التنكزية.
من موقع: http://Archnet.org
Image ID: ICR2043, IMG27015
Courtesy of the Creswell Archive, Ashmolean Museum. And Michael Hamilton Burgoyne.

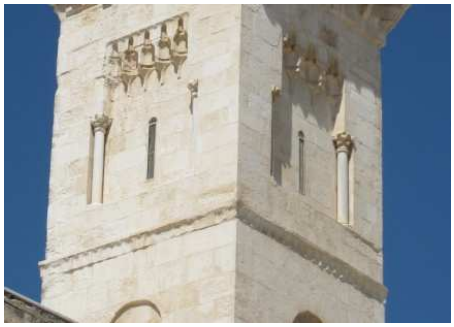




صورة 58، 59: محراب مسجد المدرسة التنكزية في الايوان الجنوبي.
من موقع: www.aqsaonline.org

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، ص111؛ Kenney, Power and Patronage in Medieval Syria, p. 104

4.2.8 الكورنيش: وهي عبارة عن اشرطة بارزة تمتد وتحدد مساحة معينة أو ارتفاع معين. وقد تظهر بشكل خط ممتد أو يتخللها اشكال زخرفية. استعملت في باب القطانين بشكل بروز يفصل واجهة المدخل بشكل افقي، ويرتفع الى مستوى بداية عقود الفتحات. كما واستعملت في مأذنة باب السلسلة ومأذنة الغوانمة بشكل بروز يحيط بالمأذنة من جوانبها الأربعة ويحدد طوابق المأذنة من الخارج، ويظهر بشكل سلسلة من المقرنصات وأيضاً بشكل محاريب صغيرة مفرغة.



صورة 60: الكورنيش بشكل محاريب في مأذنة باب السلسلة



صورة 61: الكورنيش بشكل مقرنصات ومحاريب مفرغة في مأذنة الغوانمة (تصوير الباحثة)

لقد شكلت هذه العناصر الزخرفية بمختلف وحداتها وتشكيلاتها النباتية أو الهندسية أو الخطية مع العناصر الانشائية سواء الداخلية أو الخارجية طرازاً معمارياً مميزاً لعمائر الأمير تنكز، توحدت فيه اشكال عمارته واتخذت بُعداً معمارياً وزخرفياً، فأصبحت معالم مميزة في ظل فن العمارة الاسلامية.

4.3 المواد المستخدمة في البناء :

4.3.1 الحجر: استعمل الحجر كمادة انشائية اساسية في عمائر تنكز، وذلك لتوفره في محيط المنطقة نسبياً الى توفر مواد انشائية اخرى كالطوب أو الخشب الذي يندر توفره. كما أنَّ الحجر كمادة انشائية تعطي صفة الصلابة والتوازن والديمومة، ولذلك فقد طغت المنشآت من الحجر على أي مادة اخرى. وحيث أنَّ مدينة القدس تقع على منطقة جبلية تحيطها الوديان، فقد توفرت مناطق كمحاجر لاقتلاع الاحجار على مختلف انواعها وصلابتها، اساسها الحجر الجيري، وقد يتوفر مع مادة اخرى أو تتباين نسبة صلابته[1]، وقد يتباين لونه. كما وقد استخدم الحجر الاسود خاصة في اضفاء التباين في الوان الحجر (الابلق)، والذي عُرف بحجر موسى، حيث تمَّ جلبه من المنطقة المحيطة بمقام النبي موسى شرق مدينة القدس على طريق البحر الميت[2].

[1]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 41.
[2]. Burgoyne, The Noble Sanctuary, p. 207.

وقد تمَّ استخدام مادة الحجر في جميع عمائر الأمير تنكز كمادة انشائية اساسية، وفي داخل البناء كذلك حيث استخدم الحجر في عقود اواوين المدرسة وفي ارضياتها المبلطة باللون الابيض وفي بركة الماء داخل صحن المدرسة، كما وقد استخدم في الادراج الداخلية في المدرسة، وفي الحمامين في المساطب والادراج وبعض الاحواض وبركة غرفة الاستقبال في حمام العين، وقد استخدمت مادة الكلس مع الحجر[1].

4.3.2 الرخام: استخدم الرخام الملون في عدة مواضع في عمائر الأمير تنكز، وقد كان يتم جلب الرخام الملون باللون الوردي من محاجر بالقرب من مدينة بيت لحم، والرخام باللون الاصفر من منطقة دير ياسين على بعد حوالي 5 كم غرب مدينة القدس[2]. وقد استخدم الرخام في تشكيل الابلق وفي الصنج الحجرية المعشقة في الواجهات، كما في باب القطانين ومدخل المدرسة التنكزية، وفي اعلى الحواصل داخل سوق القطانين. وقد استخدم الرخام الملون في ارضية المدرسة على مختلف الطوابق، كما وفي تكسية الجدران بالرخام الملون وفي المحراب سواء في الايوان الجنوبي للمدرسة أو مسجد المدرسة في الطابق العلوي، حيث استخدم الرخام بتشكيلات هندسية (موزاييك الرخام). وفي حمامي الشفا والعين استخدمت الأرضيات الرخامية الملونة، وايضاً التشكيلات الرخامية خاصة الاشكال النجمية وهو ما يُعرف بالاطباق النجمية، والتي بقي منها ظاهراً في الغرفة الدافئة الملحقة الغربية في حمام العين[3]. كما واستخدم الرخام في احواض المياه وفي البركة الواقعة في غرفة الاستقبال في حمام الشفا.

4.3.3 الفخار: استخدمت مادة الفخار بشكل اسطوانات في الفتحات التي تتخلل القباب في غرف حمامي الشفا والعين للسماح بدخول الضوء الى داخل الحمام. ويتم تثبيتها بحيث تظهر بتشكيلات زخرفية على القباب، وتكون مغطاة بالزجاج بعضه ملون.

---

[1]. العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109–112.

[2].Burgoyne, The Noble Sanctuary, p. 207

[3]. Burgoyne, Mamluk Jerusalem, p. 291

4.3.4 الخشب: لم تكن مادة الخشب هي المادة الاساسية في الانشاء وذلك لصعوبة الحصول عليه وقلة توفره في المنطقة. ومع ذلك فقد وُجدت بعض الاسقف الخشبية، حيث تبين الوقفية بأنَّ بعض الغرف في طابق الميزانين والطابق العلوي للمدرسة مسقوفة بالخشب، كما أنَّ المسجد العلوي والايوان شماله والمجلس سقوفها من الخشب المنجور المزخرف والملون بألوان اللازوردي والذهبي. وقد شاع استخدام الخشب في الابواب والنوافذ، حيث تنص الوقفية على استخدام خشب الجوز لمصراعي باب المدرسة التنكزية بصفائح نحاس اصفر اللون، وفي مصراعي ابواب الغرف في داخل المدرسة والتي في العادة تُدهن. وفي النوافذ فقد استخدم الخشب لمصراعي بعض النوافذ في المدرسة التنكزية والمُطَعَّم بالعاج والابنوس[1].



صورة 62: الاشكال الهندسية التي تُشكل الطبقة الخارجية من باب القطانين. من موقع www.alaqsa-online.net

واستخدم الخشب في باب مدخل سوق القطانين الشرقي ومكون من عدة الواح خشبية بشكل طولي، فيه حشوة الباب مزدوجة بحيث يظهر القسم أو الطبقة الداخلية باتجاه السوق بشكل مغاير عن الطبقة الخارجية. فالطبقة الداخلية مكسوة بأشرطة نحاسية مزخرفة بالكتابات تعمل على تثبيت الالواح الخشبية ببعضها البعض، ومثبتة بواسطة فصلات نحاسية بشكل نصف كروي، وفي اعلاه عدة فصلات بارزة. أما الطبقة الخارجية والتي في العادة تكون غير ظاهرة حيث يتم فتح مصراعي الباب، إلا أنها تتشكل من مجموعة من الالواح الخشبية والتي تأخذ اشكال هندسية.

4.3.5 المعدن: استخدم معدن الحديد في المصبعات الحديدية لتوفير الحماية على فتحات النوافذ، وهذه المصبعات مكونة من قضبان اسطوانية منظمة بشكل رأسي وأفقي. وقد استعملت هذه المصبعات في جميع فتحات النوافذ والتي تكون في الغالب بشكل مستطيل على واجهات المدرسة التنكزية ورباط النساء وسوق القطانين في الرُبَع وحمامي الشفا والعين، ايضاً في داخل البناء على الفتحات بين الغرف وبين الايوانات والغرف في المدرسة.

أما النحاس فقد استخدم بشكل كسوة من صفائح المعدن مثبتة على الباب الرئيسي لمدخل المدرسة التنكزية، وعلى باب القطانين حيث استخدمت اشرطة من النحاس لتثبيت الالواح الخشبية، وثبتت بواسطة مسامير نحاسية، ونُقش عليها بالخط الثلث.

[1] العسلي، وثائق مقدسية، مج1، ص109-111.

أما معدن البرونز فقد استخدم في مدقات الابواب، حيث تظهر مدقة باب سوق القطانين مصنوعة من البرونز المشغول، بشكل دائرة تتوسطها نصف كرة بارزة، واربع انصاف كرات اخرى بارزة ايضاً، ومثبتة على قرص مثبت بالباب الخشبي.



صورة 63: مدقة باب القطانين من البرونز المشغول (تصوير الباحثة)

كما واستخدم البرونز في الـــهلال، وهو عبارة عن زخرفة معدنية تأخذ اتجاه القبلة وتعلو قباب المساجد والمآذن كما في مأذنتي باب السلسلة والغوانمة، وذلك لتمييز المساجد الاسلامية.



الزخرفة المعدنية بشكل الهلال
اعلى مأذنة الغوانمة (رسم الباحثة)

4.3.6 الزجاج: استخدم الزجاج في تغطية الفتحات الدائرية في اعلى قباب حمامي الشفا والعين، وبعض من الزجاج ملون، بحيث يسمح بمرور اشعة الشمس بالوان متنوعة الى داخل غرف الحمام، والتي بدورها تضفي منظراً جميلاً وشعوراً بالارتياح لمرتادي الحمامات. كما واستخدم الزجاج في صناعة القناديل، كالقنديل أو المشكاة الزجاجية الخاصة بالمدرسة التنكزية، وهي مشكاة مطلية بالمينا ومذهبة. وتتكون المشكاة من الرقبة وهي بشكل مخروطي، والجسم الذي يقع منتفخاً من الوسط ومسحوباً من أعلى ومن اسفل حيث يلتحم مع الرقبة من اعلى ومع القاعدة من الأسفل والتي تقع بشكل مخروطي على شكل قمع مقلوب. وللمشكاة مجموعة من المقابض عددها ستة واقعة بشكل بارز على الجسم، يتم من خلالها تعليق المشكاة بواسطة سلاسل نحاسية مثبتة بقطعة نحاسية في الأعلى.



صورة 64: مشكاة مسجد المدرسة التنكزية الخاص بالأمير تنكز. محفوظة حالياً بالمتحف الاسلامي في الحرم القدسي الشريف.
(تصوير الباحثة)

تقع زخارف متعددة على القنديل بأشكال نباتية وتوريقات متشابكة كما واستخدمت الكتابات بخط الثلث على رقبة وجسم القنديل، فالنص على رقبة القنديل هو الآية القرآنية" إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام"، حيث كان هناك اهتمام بالآيات القرآنية الخاصة بالنور أو الخاصة بالمساجد التي صنعت هذه المشكاوات لإنارتها، لتبقى دائماً مضاءة وعامرة بالمصلين. والنص على جسم القنديل "برسم مدرسة المقر العالي المولوي الأميري السيفي تنكز كافل الممالك الشريفة بالشام المحروسة"، حيث تشير الى المكان الذي ستُعلق فيه المشكاة والتعريف بصاحب المشكاة (وهو الأمير تنكز) والقابه ووظيفته. ويتخلل الكتابات رنك الأمير تنكز في عدة مواضع. كما واستخدمت عدة الوان في القنديل كالذهبي والأزرق والأحمر والأسود، واستخدمت الاطر في تحديد المساحات والكتابات على سطح القنديل[1].

[1]. يُمكن النظر الى الوصف الدقيق للمشكاة من: Abu Khalaf, Islamic Art, pp. 78-79؛ سلامة، المخطوطات القرآنية، ص14.

الفصل الخامس

التحليل المعماري لعمائر الأمير تنكز والنتائج



الفصل الخامس

أعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام

5.1 اعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من حيث التخطيط والواجهات والنسب المعمارية:

إنَّ الفترة الزمنية الطويلة التي قضاها الأمير تنكز في منصب نائب دمشق، كان لها أثرها في إثراء الحركة العمرانية في بلاد الشام ومصر؛ حيث قام بإنشاء مختلف الطرز من العمائر في كل من نابلس كالجامع المعروف بجامع المساكين، والذي حوله تنكز من مشفى صليبي الى جامع في عام 1342م، وخان وبيمارستان عمره تنكز عام 741هـ/ 1340م في صفد، وخان المنة للسبيل في جلجولية، وخان في الطيرة في منطقة طولكرم، وجامع في عجلون، وجامعه ومدرسته في دمشق، وداره في حي الكافوري في القاهرة، وغيرها من العمائر.... والتي تميزت بالطابع الاسلامي المملوكي، كما وبرزت عمائره من خلال انظمة تخطيطها واسلوب العناية بواجهاتها فشكلت سلسلة من عمائر الأمير تنكز. وغدت جنباً الى جنب مع عمائر مملوكية اخرى اساساً لتوثيق نظام التخطيط والقيم الجمالية، وابراز الطراز المعماري المملوكي بين الطرز المعمارية السابقة واللاحقة.

ففي بلاد الشام تشهد عمائره وأملاكه لسعة نفوذه ورغبته في ترسيخ أثر له في المنطقة من خلال تعدد أعماله وممتلكاته، والتي قام بإدراجها جميعها الكاتب محمد دهمان في كتابه ولاة دمشق[1]. وقد تميزت من بين اعماله المعمارية عدة مباني في مدينة دمشق منها دار الذهب (والتي عُرفت سابقاً بدار الفلوس، لاحقاً انتقل اليها الأمير تنكز، ثم قام مكانها خان السبيعي وقسم من قصر العظم[2])، وجامع تنكز، ودار القرآن والحديث التنكزية (والتي عُرفت لاحقاً بالمدرسة الكاملية،

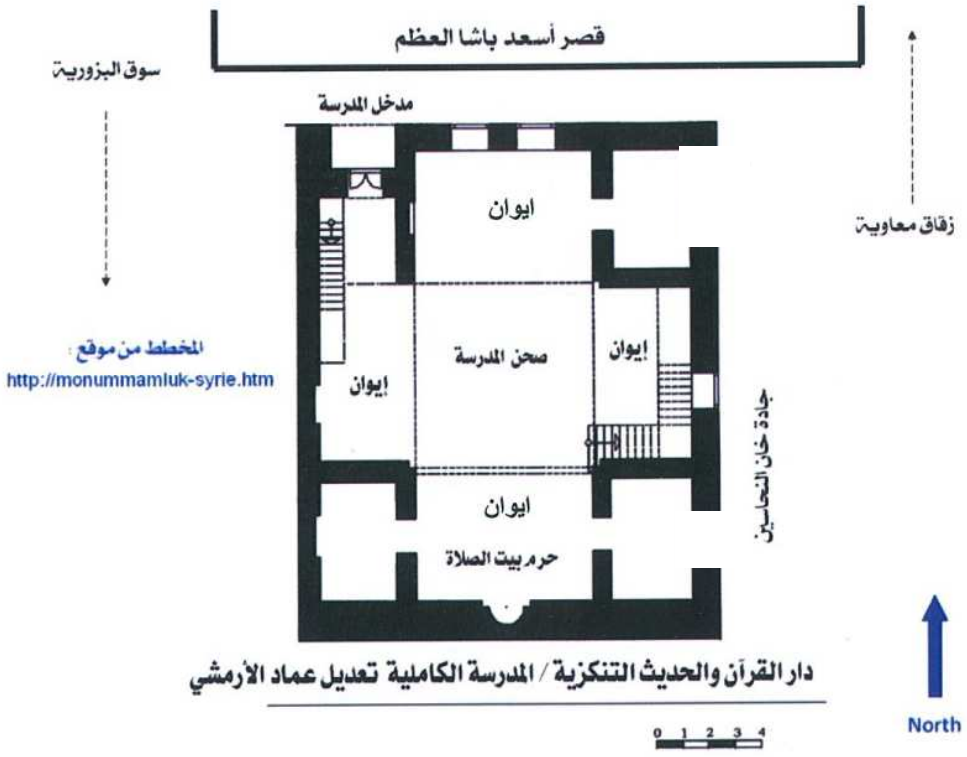
---

[1]. يمكن النظر الى قائمة اعمال وممتلكات الأمير تنكز، وكيفية تقييمها مادياً في الصفحات من 167- 168 والصفحات من 176- 179 من كتاب "ولاة دمشق" للكاتب محمد دهمان.

[2]. دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص167.

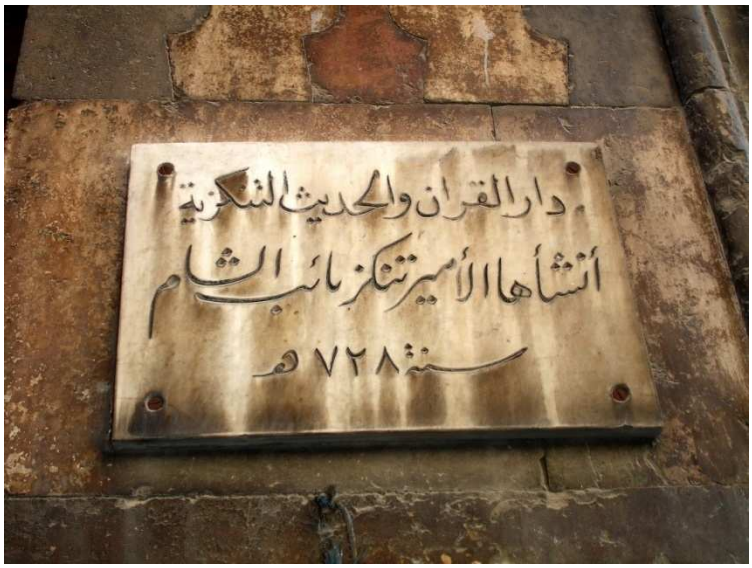
نسبة الى صاحبها الشيخ محمد كامل القصاب الذي اشتراها وجددها وقام بإحياءها)، وتربة زوجته ستيته، وغيرها من الأعمال. والتي من الملاحظ أنَّ الأمير تنكز قد أمر ببناء العديد من عمائره في تاريخ يتوافق مع أمره بالبناء في مدينة القدس، مما يؤكد لنا بأنَّ الأمير قد سعى الى النهوض بالحركة العمرانية في بلاد الشام عامة ولم يكن اختياره عشوائياً، ومدى اهتمامه بمدينة القدس ومكانتها عنده، حيث حظيت بما لمدينة دمشق من عناية واهتمام.

كما قد توحدت عناصر انشائية معمارية واخرى زخرفية بين عمائره في مدينة القدس واخرى في المدن الاخرى. بالإضافة الى تشابه الاستعمال الوظيفي لعمائره؛ فدار القرآن والحديث التنكزية في دمشق هي مدرسة لتعليم اصول الدين والحديث النبوي، فيها الطلبة والمشايخ، كما وأنَّ المدرسة التنكزية في القدس لها نفس الوظيفة وفيها دار حديث فيه الطلبة والمحدثين كما وفيها الصوفيين.
والتخطيط للمدرسة ذات الايوانات الأربع قد استخدم في المدرسة التنكزية في مدينة القدس كما واستخدم في دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق، والتي انشأت في عام 728هـ/ 1327م في نفس تاريخ بناء المدرسة التنكزية في القدس. ويقع المدخل على جانب الواجهة بشكل يحجب الرؤية عن الداخل، ثمَّ يتوزع مخطط الدار الواقع على طابقين الى صحن المدرسة المكشوف واربع ايوانات، يقع في الايوان القبلي الجنوبي محراب المسجد، ويعلو فتحات الايوانات عقود مدببة الشكل.



دار القرآن والحديث التنكزية / المدرسة الكاملية تعديل عماد الأرمشي

مخطط رقم 24: المسقط الأفقي لدار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق
من الموقع الالكتروني مدارس دمشق الشام القديمة Facebook/ Madrasas in Damascus



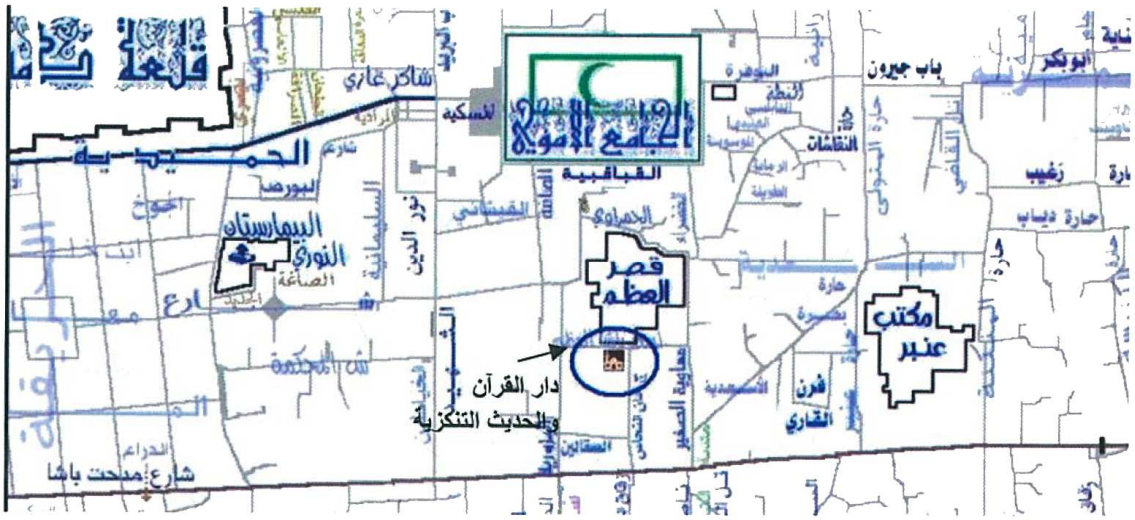
صورة 65: دار القرآن والحديث التنكزية/ دمشق من الموقع الالكتروني http://www.yasmin-alsham.com/vb/showthread.php?6048

ولدار القرآن والحديث التنكزية مدخل يتشابه مع مدخل المدرسة التنكزية، حيث يقع بشكل مجوف عميق وعلى ارتفاع شاهق، مسقوف بنصف قبة كروية الشكل مزخرفة على شكل صدفة على واجهتها عقد مدبب الشكل، مزخرف بمثلثات متعاقبة بارزة. وتقع القبة محمولة على ثلاث صفوف من المقرنصات بدلاية. كما يقع بناء المدخل من المداميك المتعاقبة الالوان (الأبلق) باستخدام الأحجار باللونين الأحمر والأبيض. ويشتمل المدخل على صفّ من الصنج الحجرية المعشقة بالألوان المتعاقبة الاحمر والابيض والاسود. ويقع اسفل منها شريط كتابي، ومحفور في بلاطة فوق الباب نص يذكر اسم المنشِأ وهو الأمير تنكز والقابه ولِمَنْ تمَّ وقْفْ المدرسة كما وتاريخ البناء. ويحدد المدخل اطار بارز كما في مدخل سوق القطانين في القدس.



صورة 66: مدخل دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق من موقع www.yasmin-alsham.com

أما بالنسبة لموقع دار القرآن والحديث التنكزية فهي واقعة ضمن حدود منطقة ذات اهمية حضارية؛ بداخل اسوار مدينة دمشق القديمة في منطقة قريبة من دار الذهب المنسوبة للأمير تنكز، والواقع جزء منها في بناء قصر اسعد باشا العظم حالياً، بين منطقة سوق القمح والذي تُعرف بدايته الشمالية بسوق العطارين أو البزورية وبين طريق خان النحاسين، وبقربها حمام[1]. وهذا الاهتمام في انتقاء الموقع المميز للمباني انما انعكس كذلك في اختيار موقع المدرسة التنكزية، والتي وقع اختيار موقعها ضمن مجموعة من المعطيات للمكان والأهداف، والتي تمَّ ذكرها في الفصل الثالث في قسمه الثاني.



خارطة توضح موقع دار القرآن والحديث التنكزية. من موقع Facebook/ Madrasas in Damascus



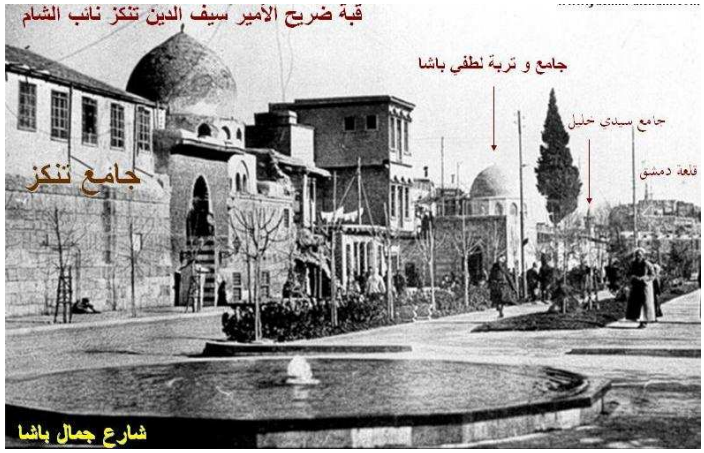
صورة 67: صورة جوية لموقع جامع تنكز في مدينة دمشق

أما جامع تنكز ويُعرف كذلك بالجامع السيفي التنكزي، فقد شرع في بناءه في 717هـ/ 1317م واكتمل في 718هـ/ 1318م. ويُعدُّ أحد الجوامع الثمانية العظيمة في دمشق وكانت تبلغ مساحته 6177 م^2 . وقد اختار له الأمير تنكز موقعاً مميزاً حيث يقع على هضبة حكر السماق، وكانت هذه الهضبة تطل على الجزيرة الخضراء (ساحة المرجة حالياً)، ويُشرف على نهر بانياس (فرع من فروع نهر بردى) حيث يتوسط صحنه النهر وكان يتوضأ

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج1، قسم1، ص123 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص172.

منه الناس[1]. ويُشرف على أعظم شارع في مدينة دمشق وهو شارع جمال باشا ويُعرف حالياً بشارع النصر.





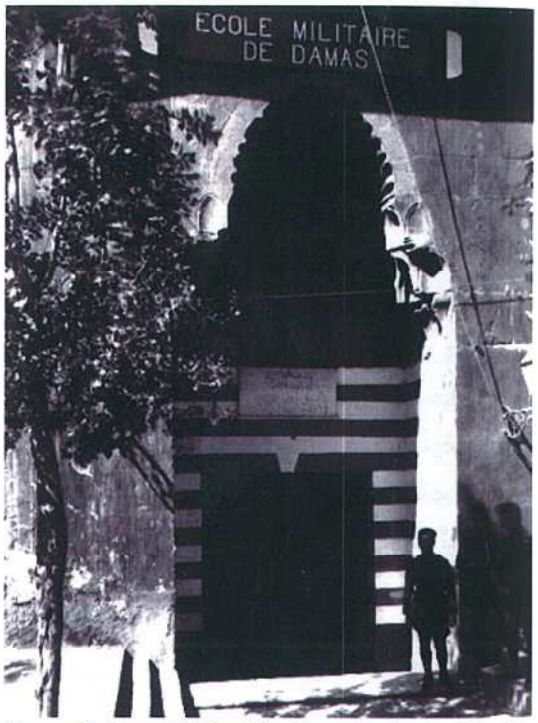
صورة 68: جامع تنكز. الصور67، 68 من موقعي www.naseemalsham.com و www.yasmin-alsham.com

والظاهر بأنَّ الأمير تنكز كان يُعنى دائماً بايجاد مناطق خدمات متكاملة، ليس مجرد مباني مستقلة، فإنه قد قام ببناء حماماً عُرف بحمام تنكز أمام جامعه وسوقاً صغيرةً وداراً وتربته بجانب الجامع، مثلما عُني ببناء مجمع التنكزية في مدينة القدس وهي منطقة خدمات متكاملة كما سبق ذكره، تشتمل على المدرسة والمسجد والرباط والحمام والخان والسوق.

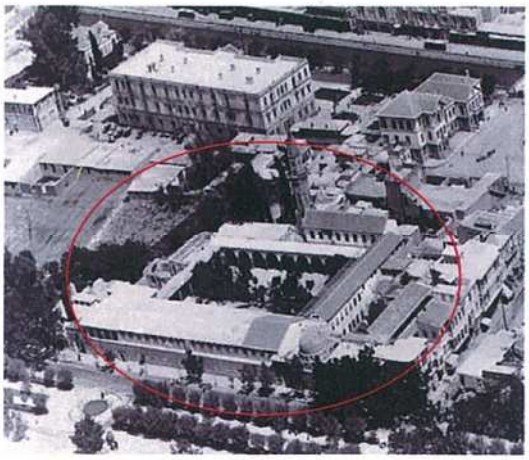
يشتمل الجامع على عناصر معمارية واخرى زخرفية تؤكد على وحدة الطراز المعماري المملوكي كما ووحدة وتميز عمائر تنكز، فتقع الواجهة الحجرية الاساسية للجامع بارتفاع يزيد عن ثلاثة امتار ويعلوها طبقة من الطين فيها نوافذ طولية الشكل، ثم سقف الجامع على شكل جملون مشابه للجامع الأموي في دمشق. وتُشرف الواجهة على شارع جمال باشا ويتخللها أربعة مداخل، اثنان يؤديان الى الواجهة الشمالية، واثنان يؤديان الى صحن المسجد. والى يمين الداخل من المدخل الأول تقع قبة الضريح، وهذا المدخل منخفض عن مستوى الشارع ويقع بتجويف على ارتفاع شاهق، في اعلاه قبة نصف كروية مزخرفة بأشكال شعاعية تشابهت معها تماماً نصف القبة الكروية اعلى مدخل المدرسة التنكزية في القدس، ومحمولة على ثلاث صفوف من المقرنصات بدلاية. ويقع بناء المدخل من المداميك الملونة (الأبلق) باللونين الأسود والأصفر. أما المدخل الآخر للجامع فيتكون من باب يُنزل اليه بدرجات لانخفاضه ايضاً عن مستوى الشارع، يقع في تجويف بسيط فيظهر محاطاً باطار وتعلوه بلاطة حجرية منقوشة.

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص425–426 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص168–169؛ موقع الكتروني www.yasmin-alsham.com/vb/showthread.php?4707





صور 69، 70:مدخلي جامع تنكز من الواجهة الجنوبية الأول يؤدي الى الضريح، والأخر يؤدي الى صحن المسجد. من موقع www.1sy.info/total/mosque/17mosque.htm



صورة 72: منظر عام لجامع تنكز عام 1926م للباحث عماد الأرمشي



صورة 71:مدخل جامع تنكز. من موقع www.naseemalsham.com

ومحراب الجامع يتشابه مع محراب المدرسة التنكزية من خلال عناصره الزخرفية، حيث يتكون تجويف المحراب من الواح طولية من الرخام متعاقبة الالوان، يعلوها شريط مزخرف باشكال مسمطة ذات الثلاثة أقواس مشابهة لتلك في اسفل الالواح الطولية الرخامية في محراب التنكزية. ومزخرف داخلها بموزاييك الرخام باشكال هندسية. ويعلوها نصف القبة الكروية الشكل بعقد مدبب، ومزخرفة باشكال نباتية وتوريقات ملونة، في منتصفها شكل مزهرية على هيئة الكأس مشابه لرنك تنكز تخرج منه الزخارف النباتية، وتظهر مثل هذه المزهرية ايضاً ولكن بشكل

مختلف قليلاً في قبة محراب المدرسة التنكزية. يحيط بالقبة من الخارج قوس عريض مزخرف بزخارف هندسية ونباتية وعلى جانبيه رخام مزخرف باشكال الاطباق النجمية. يحيط به اطار من الصنج الحجرية المعشقة، يعلوها بلاطة منقوشة بالخط الثلث.

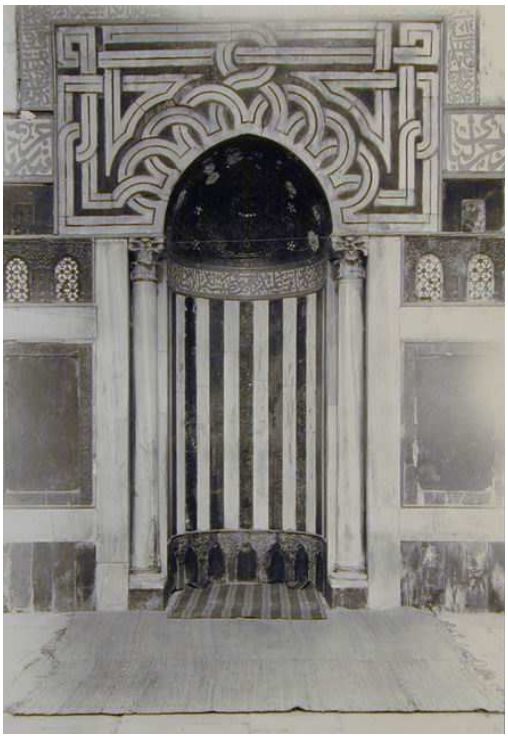
ويقع على جانبي المحراب تجويفان تقع فيهما النوافذ، ويعلوهما قباب نصف كروية مزخرفة من الداخل ويحيط بهما من الخارج عقود مدببة الشكل مزخرفة بالأبلق الذي يمتد الى الداخل. وعلى الجانبين تقع زخارف على شكل الاطباق النجمية يحيط بها اطار من الصنج الحجرية المعشقة.



صورة 73: محراب جامع تنكز في دمشق
من دهمان، ولاة دمشق، 170



صورة 74: محراب جامع تنكز في دمشق. من دهمان، ولاة دمشق، 170



صورة 75: محراب المدرسة التنكزية في القدس.من موقع
http://Archnet.org .imageID:ICR2041
Courtesy of the Creswell Archive, Ashmolean Museum.

أما مأذنة المسجد فتقع في شمالي المسجد، وهي أقدم منارة مملوكية في دمشق. ولها في داخلها درجان احدهما للصاعد والآخر للنازل، ويعلو فوق بابها نقش باسم المنشِأ[1]. تتألف من قاعدة طولية مربعة الشكل كما مأذنتي باب السلسلة والغوانمة، ويعلوها طابق بشكل ثماني في اعلاه شريط كتابي منقوش، تعلوه مقرنصات تحمل شرفة المؤذن ذات الدرابزين الحجري المفرغ والمزخرف مشابه لذلك في مأذنة الغوانمة. ويتخلل هذا الطابق قوصرات ذات عقود مزخرفة على جانبيها اعمدة، وبعضها مسمط والبعض الآخر فيه فتحات طولية الشكل في اسفلها شرفة حجرية صغيرة. ويعلو هذا الطابق طابق ثالث مثمن الشكل تتخلله فتحات بعقود على هيئة حدوة الفرس، وتنتهي في اعلاها بشكل مخروطي يرتفع في اعلاه الهلال المعدني.



صورة 76: مأذنة جامع تنكز في دمشق. من موقع WWW.1sy.info

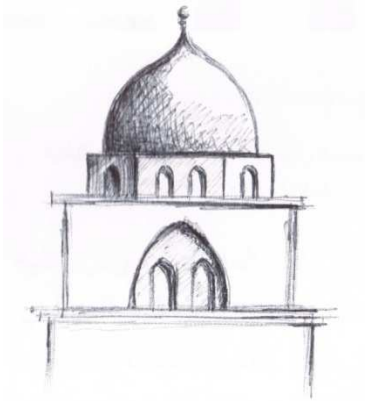
أما تربة أو مدفن تنكز والمعروف بالتربة التنكزية فتقع بجانب جامع تنكز في دمشق من الناحية الشرقية. وقد دُفن بها بعد نقل تابوته من الاسكندرية عام 744هـ/ 1343م[2]. وقد جاء المدفن ملحق بالمسجد ولكن كبناء مستقل، واحتل جزءاً من الواجهة الرئيسية المطلة على الشارع الرئيسي. ومصمم بشكل بناء مربع تتخلله قوصرات ذات عقود مدببة، فيها تجاويف غير نافذة تنعكس أيضاً بهذا الشكل من الداخل. ويعلوه بناء ثماني الشكل تتعاقب على اضلاعه قوصرات تظهر من الخارج البعض منها مسمط والبعض الآخر نافذ. وقد استخدم هذا الشكل والقوصرات لحمل القبة الكروية الشكل والتي ترتفع من منتصفها باتجاه الأعلى الى السماء (مشابهة لقباب اضرحة السلاطين المماليك في مصر). وتقع القبة محمولة على الحنيات Squinches في الزوايا الأربع وحنيات اخرى تتوسطها، وقد تشابهت معها بعض قباب حمامي الشفا والعين، خاصة الغرفة الدافئة الرئيسية والملحقة في حمام العين.

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص171.

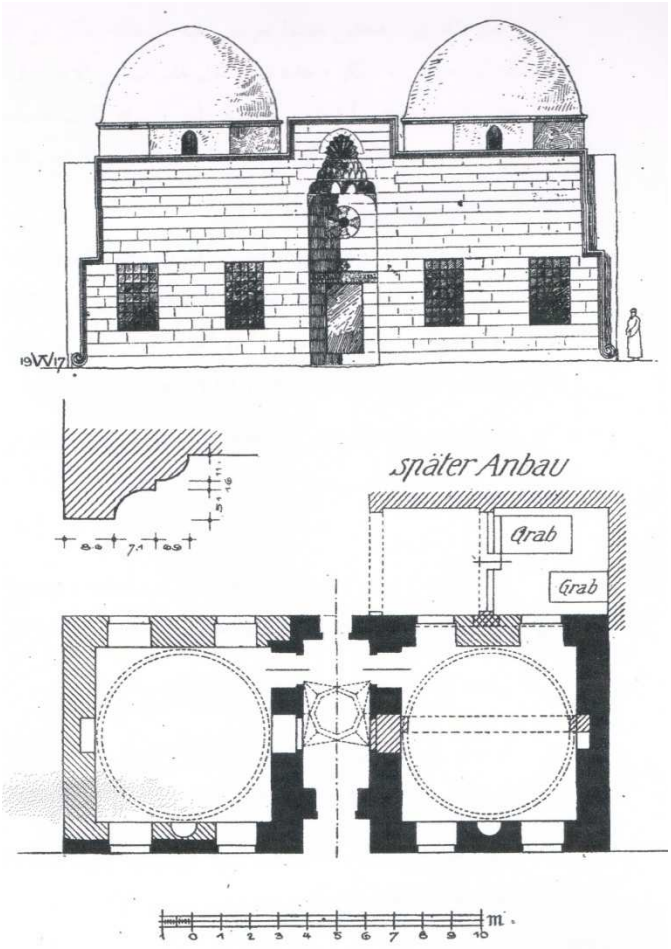
[2]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص238-239 .



صورة 77: قبة تربة تتكز من الداخل. من موقع http://naim-almadani.com



Sketch التربة التتكزية (رسم الباحثة)



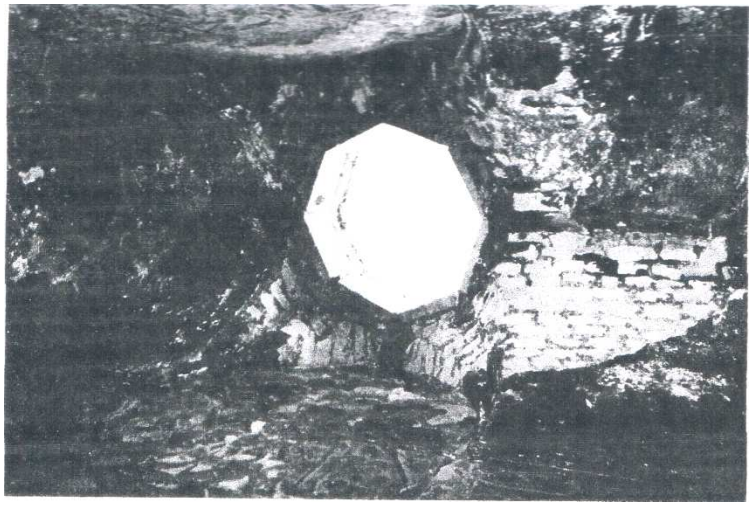
مخطط رقم 25: الواجهة الرئيسية والمسقط الافقي للتربة الكوكبائية من دهمان، ولاة دمشق، 175

كما وقد أمر الأمير تنكز بتشييد قبة (مدفن) لزوجته ستيته بنت الأمير سيف الدين عمر كوكبائي المنصوري، والتي عُرفت بالتربة الكوكبائية والواقعة داخل اسوار مدينة دمشق القديمة في مركز الحي الاسلامي عند زقاق المحكمة. وكانت قد أوصت زوجته بإنشاء ضريح لها تعلوه قبة ومسجد للصلاة ورباط للنساء، وتمَّ ذلك عام 730هـ/ 1329م حسب النقش الواقع اعلى المدخل. وتضمن الضريح على اربعة اقسام، هي: قبة الدفن ومسجد، والى جانبها الغربي مكتب للأيتام ورباط للنساء[1].

وقد جاء تصميم البناء على شكل مربعين بينهما المدخل الرئيسي، وترتفع فوق كلا المربعين قبة كروية الشكل، والتي تشابهت مع القبة الرئيسية للمدرسة التنكزية في القدس، حيث تمَّ تحويل الشكل المربع الى مثمن لحمل القبة بطريقة المثلثات الكروية Pendentives، وجاءت القبة من الحجر ومضلعة الشكل باستخدام ما يُعرف بـــ Folded cross vault من الداخل لتنتهي في اعلاها بالمنور الثماني الشكل. أما واجهة الضريح فقد اشتملت على نوافذ مستطيلة الشكل بارتفاع بسيط عن مستوى

[1]. النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج2، قسم1، ص274–275 ؛ دهمان، ولاة دمشق، ط2، ص172.

الأرض، وذلك للسماح للقراءات القرآنية والصلوات بالوصول الى مسمع المارة من خلال هذه النوافذ، والتي قد اغلقت بواسطة المصبعات الحديدية لتوفير الحماية لداخل البناء. أما المدخل الرئيسي فيقع مشابهاً لمدخل دار القرآن والحديث التنكزية في دمشق كما ومدخل المدرسة التنكزية في القدس، حيث يقع بشكل مجوف عميق وعلى ارتفاع البناء وتنتهي في اعلاه نصف قبة كروية الشكل مزخرفة على شكل صدفة، قد يتباين مركز الصدفة في كل قبة، حيث يقع بعضها من الاعلى والآخرمن الاسفل. ومحمولة على ثلاثة صفوف من المقرنصات. ويقع شريط كتابي فوق باب المدخل منقوش عليه النص التالي:" بسم الله الرحمن الرحيم أمر بانشاء هذه التربة المباركة المقر الشريف العالي المولوي الأمير الكبيري الغازي المجاهدي الملكي المخدومي السيفي سيف الدنيا والدين تنكز نائب السلطنة المعظمة بالشام المحروس عزَّ نصره وكان الفراغ في شهر ذي الحجة سنة ثلاثين وسبعمائة". كما ويحيط بالواجهة كورنيش حجري مزخرف كما في بوابة سوق القطانين في مدينة القدس[1].



صورة 78: قبة التربة الكوكبائية من الداخل

من دهمان، ولاة دمشق، 174

[1]. دهمان، ولاة دمشق، ص174.







صور 79، 80، 81: المدخل الرئيسي للتربة
الكوكبائية والشريط الكتابي اعلى الباب وباب المدخل
من موقع http://Archnet.org
Images ID: IMG07648
IMG07649
IMG07650

من خلال دراسة بعض الأمثلة لعمائر الأمير تنكز في مدينة دمشق، ومقارنتها من حيث التخطيط والعناصر المعمارية والزخرفية خاصة، مع عمائره في مدينة القدس، نستطيع أنْ نستخلص من ذلك بأنَّ الأمير تنكز قد سعى دوماً لايجاد منطقة مميزة لإنشاء واقامة عمائره عليها. وهذا يتضح من خلال موقع جامعه ودار القرآن والحديث التنكزية والتربة الكوكبائية ودار الذهب في دمشق، كما في المدرسة التنكزية وسوق القطانين وبقية عمائره في القدس. حيث تقع في مناطق هامة حضارياً؛ قريبة من معالم دينية رئيسية وواقعة في مراكز نشاط ديني وتجاري، وعلى شوارع رئيسية، وقريبة من مصادر المياه. فعلى سبيل المثال نلاحظ قرب منطقة دار الذهب والتي قد نقل الأمير تنكز اليها مركز الحكم عند انشاءها بعد أنْ كان في قلعة دمشق، فزادت اهميتها حيث احتضنت هذه المنطقة مركز حكم نائب دمشق ومركز ديني تعليمي وثقافي، بالإضافة الى قربها من الجامع الأموي والمناطق التجارية.

كما قد عُنِيَ باسلوب تخطيط عمائره، فلم يكن تخطيطها عشوائياً إنما متأثراً بأنظمة التخطيط المعمارية السابقة. فمثلاً تخطيط جامعه جامع تنكز جاء متأثراً بنظام تخطيط المساجد ذات الصحن

المكشوف والأروقة المحيطة بالمسجد مشابهاً بذلك الجامع الأموي في دمشق. كما وتشابه معه من خلال اسلوب تسقيف المسجد حيث اعتمد على الشكل الجملوني في التسقيف. وقد اعتمد الشكل المربع في تخطيط مدارسه، حيث تتكون مساقطها الأفقية من صحن المدرسة والايوانات الأربعة المحيطة به، ويظهر ذلك في دار القرآن والحديث التنكزية في دمشق كما وفي المدرسة التنكزية في القدس.

أما تأثره بالعمارة المملوكية في مصر فقد ظهر من خلال التخطيط لضريحه ضريح تنكز في دمشق، حيث وقع ضمن مساحة بناء الجامع ولكن بشكل كتلة منفصلة عن بقية عمارة الجامع، مثلما جاء تصميم الجوامع والمدارس في القاهرة كمدرسة الناصر محمد بن قلاوون ومدرسة السلطان حسن، بحيث يشغل المدفن مكاناً رئيسياً من البناء، فيطل على الشارع الرئيسي. كما وتأثرت قبة ضريح تنكز بشكل قباب أضرحة المماليك في مصر.

أما على صعيد العناصر المعمارية والزخرفية في عمائر تنكز فنلاحظ تشابه هذه العناصر كالقباب والمداخل والعقود والمقرنصات وطراز الكتابة وغيرها، بحيث شكلت وحدة في طرازٍ معماريٍ متميز لبلاد الشام خاصة لم تؤثر فيها عامل البعد الجغرافي لهذه المناطق بعضها عن بعض.

الخاتمة:

مما سبق نستنتج أنَّ عصر المماليك الممتد لفترة 267 عاماً قد شكل حقبة تاريخية هامة من تاريخ الامم. والتي قد تباينت مراحله بين العظمة والازدهار وبين الضعف والانحلال. متأثراً بذلك بعدة عوامل داخلية وخارجية سياسية واجتماعية واقتصادية، تعاقبت في خلالها ادوار سلاطين وحكام المماليك، الذين تباينت سلطتهم بين حكام اقوياء اشداء وذوي نشأة دينية سليمة وتدريبات عسكرية قوية، وبين حكام ضعفاء ذوي نشأة دينية غير متينة وفاقدي لثبات القوة العسكرية، والذي قد ادى بدوره الى كثرة الفتن والقلاقل بالاضافة الى تدخل قوى خارجية طمعاً في السيطرة والنفوذ. ومع أنَّ فترة حكم المماليك كانت تعج بهذه التناقضات إلا أنها قد لمعت بنهضة ثقافية وعمرانية تميزت بها عن سائر الحقب السابقة وطغت بها على جميع شوائب ذلك العصر.

وأنَّ مظاهر ازدهار جوانب الحياة المختلفة في العصر المملوكي، من نشاط فكري وعلمي وثقافي تتجلى في ما وصلنا من طرز الشواهد المعمارية المختلفة واسلوب تخطيطها وزخارفها. فالبرغم من أنَّ الشكل العام للعمارة والذي يتكون من بناء ثلاثي الابعاد، قد ارتكزعلى اشكال رئيسية بسيطة وهي الدائرة والمربع، إلا أنه قد شُكل بتأثيرات تاريخية وجغرافية ودينية وثقافية، أنتجت طرزاً معمارية لها سمات مُمَيزة لهذا العصر.

وأنَّ الفترة التي تولى بها الأمير تنكز نيابة دمشق والممتدة لفترة 28 عاماً، خلال فترة الحكم الثالثة للسلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاوون، كان لها أثرها الايجابي على مختلف مدن بلاد الشام. فبالإضافة الى الصفات الحميدة التي تميزت بها الشخصية القوية للأمير تنكز ، فإنه قد امتلك رؤية وحُسن تخطيط وثبات في تنفيذ مخططاته، كما وكانت لديه رغبة وتوجه بأن يكون له دور فعّال في الحفاظ على وتطوير الأماكن الدينية الواقعة ضمن حدود سلطته خلال فترة توليه منصب النيابة، من خلال اضافة وتجديد خدمات للمدينة ولمركزها الديني. وظهر ذلك من خلال دوره البارز في تطوير النسيج الحضري للمدن، خاصة مدينتي دمشق والقدس، وذلك لأن مركز نيابته كانت في مدينة دمشق، أما مدينة القدس فذلك يعود لمركزها الديني واهميتها الحضارية بين الدول المجاورة. فتوجه لإنشاء مجمعات معمارية يهدف من خلال الاستعمال الوظيفي لأبنيتها التقرب الى الله، وتوفير خدمات وسبل الراحة للناس فيحظى على حبهم وولائهم ودعائهم له، كما ويكتسب تخليداً لذكراه من خلال استمرارية أداء هذه المجمعات لوظائفها.

بالتالي نستطيع أنْ نبين الأسباب والدوافع وراء تبني الأمير تنكز لفكرة انشاء مجمع معماري في مدينة القدس، وهي:

- **ترسيخ نفوذه واسمه:** فقوة نفوذ الأمير تنكز السياسي كنائب دمشق، شكَّل له دافعاً لايجاد منطقة ترتبط بذكر اسمه في مدينة مقدسة، ويكتسب من خلالها مزيداً من الثقة لدى السلطان وعامة الناس، خاصة وأنَّ مدينة القدس في حينها لم تزل ولاية تابعة لنيابة دمشق. فساهم ذلك في تعزيز مكانة الأمير واقترنت هذه المنطقة باسمه، فاستمر ذكره ومباركة اعماله حتى يومنا هذا.
- **وازعه الديني:** من خلال ترسيخه لهدف المماليك بجعل مدينة القدس مركزاً حضارياً دينياً اسلامياً.
- **تحقيق حلول حضرية:** من خلال ايجاد منطقة خدمات متكاملة في مدينة القدس، والتي كان لها مكانة خاصة في قلوب المسلمين، يوفر من خلالها حلولاً حضريةً وعمليةً لكافة فئات المجتمع، خاصة وأنَّ المدينة يؤمها العديد من الحجاج والتجار وطالبي العلم.

فعمل على ايجاد واختيار موقعاً في المدينة يقع ضمن حدود منطقة هامة حضارياً ودينياً، فكانت من أهم اسباب اختيار الأمير تنكز لهذا الموقع هو قربه من منطقة الحرم القدسي الشريف، لنيل فضائل عمل الخير ولمضاعفة الأجر عند الله تعالى. كما ووقوعه في منطقة هامة حضارياً وتجارياً عند التقاء محورين رئيسيين من طرق المدينة، وكثرة أعداد الوافدين الى المسجد الأقصى من هذه المنطقة، سواء من العلماء والمتصوفين وطالبي العلم أو التجار أو الزائرين بالاضافة الى أهل المدينة. فتوفير منطقة خدمات من اماكن عبادة وسكن وأماكن لممارسة النشاط التجاري، وأماكن صحية واجتماعية، فكانت فكرة إقامة مجمعه المعماري حلاً مثالياً عملياً يُلبي احتياجات العامة. وأنَّ اتساع مساحة هذه المنطقة بحيث شكلت فراغاً كافياً لتنفيذ كامل مخطط مجمعه، خاصة وأنَّ هذه المنطقة كانت خالية نسبياً من أية منشأة معمارية، فقط ما بقي من أنقاض آثار معمارية هُدِمَت من فترات سابقة. ومع جدية الأمير تنكز في تحمل مسؤولية تطوير الأماكن الدينية وتجديد الخدمات، فإنه يحور العثرات ويحلل كل معطيات المكان ويحولها لخدمة مشاريعه.

فعمل على تنفيذ مخطط تفصيلي، ضمن خطة مدروسة وتسلسل زمني ومكاني محدد. فاتبع منهجية معينة في تنفيذ مخططه، حيث قام بتعمير المرحلة الاولى من مجمعه المعماري الذي اشتمل على المدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة والمطهرة، واوجد مساحة خضراء وهي حاكورة السقاية وحديقة النارنج حيث شكلت رابط طبيعي مرن لهذه الكتل المعمارية الصلبة. واتسمت هذه المرحلة بإنشاء مباني ذات طابع ديني. ثم استكمل العمل في المرحلة الثانية، والتي اشتملت على حمامي الشفا والعين وخان تنكز وسوق القطانين، واتسمت بطابع تجاري،

فارتبطت بالمرحلة الاولى من خلال أنَّ العائد المادي لهذه المباني يُنتفع بها في تجديد والاعتناء بمباني المرحلة الاولى والحفاظ عليها لاستمرارية اداءها لوظائفها. فاستطاع بذلك ربط الأبنية في مجمعه مع بعضها البعض فراغياً ومادياً ووظيفياً ضمن حيز واحد وأيضاً ربطها ككتلة واحدة مع رمز المكان الديني المتمثل بالمسجد الأقصى من خلال تلاصقها معه. بالتالي أوجد منطقة خدمات متكاملة، شكلت مركز نشاط ديني وتجاري واستطاع من خلالها الأمير تنكز ادخال مفهوم جديد لأنظمة التخطيط في مدينة القدس، والمتمثل **بمنظومة المجمعات المعمارية** ودمجها مع نسيج المخطط الحضري المتماسك للمدينة.

وكما أنَّ هذا المخطط ككتلة واحدة مرتبط مع مركز المدينة الديني والحضاري والتجاري، فإنَّ الكتل المعمارية المُشَكِلة لهذا المجمع إنما ارتبطت ايضاً مع بعضها بوحدة العناصر المعمارية والزخرفية، كالقباب والمداخل والعقود والمقرنصات والصنج الحجرية المعشقة والاشرطة الكتابية، وارتبطت ايضاً بطراز عمائر تنكز في مدينة دمشق، حيث كانت بداية انجازاته المعمارية فيها في المرحلة الاولى لتوليه منصب النيابة، ثم تطورت هذه الانجازات وتوسعت حدود اماكنها ولكنها بقيت ضمن مساعي الأمير تنكز في توحيد اختياره لمميزات اماكن اقامته لعمائره، كما عناصرها المعمارية والزخرفية. وتُبين هذه الوحدة والتنوع والدقة في العناصر المعمارية والزخرفية التي تتشكل منها عمائر تنكز سواء في فراغاتها الداخلية أو واجهاتها الخارجية، استقطاب الأمير للبنائين والحرفيين المهرة من دمشق ومناطق اخرى للعمل بمشروعه في القدس، فادخلوا عناصر جديدة للعمارة في المدينة كالقبوات المتداخلة والذي لم يتم استخدامها سابقاً كما والتخطيط المحوري. فتشابهت عمائره في المدن المختلفة وطُبعت بصبغة موحدة بحيث اعتُبِرت أعمال الأمير تنكز شواهد معمارية تُظهر الجوانب المختلفة للفكر المملوكي والعصر المملوكي البارز.

المصادر والمراجع العربية والأجنبية

- **المصادر العربية:**

1) ابن كثير،اسماعيل بن عمرالحافظ الدمشقي. **البداية والنهاية**، ج13 وج14، ط1، مكتبة المعارف، بيروت، 1966م.
2) بن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن الأتابكي. **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ج9 وج11، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة، 1963م.
3) بن تغري بردي، جمال الدين ابي المحاسن الأتابكي. **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، ج1 (تحقيق احمد يوسف نجاتي)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1956م.
4) الحنبلي، أبي الفلاح عبد الحيّ بن العماد. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ج7 وج8، دار المسيرة، بيروت، 1979م.
5) الحنبلي، أبو اليمن القاضي مجير الدين. **الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل**، ج1 وج2، 1283هـ.
6) الدواداري، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك. **كنز الدُّرر وجامع الغُرر**، ج8 الدُّرة الزكية في اخبار الدولة التركية (تحقيق أ. هارمان)، القاهرة، 1971م.
- الدواداري، أبي بكر بن عبدالله بن أيبك. **كنز الدُّرر وجامع الغُرر**، ج9 الدُّرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر (تحقيق هـ. ر. رويمر)، القاهرة، 1960م.
7) الاصطخري، أبي اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي. **مسالك الممالك**، ليدن، 1937.
8) الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج4، ط2 (اعتناء س. ديررينغ)، فيسبادن، 1974م.
ـ الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج10 (اعتناء سوبله وعمارة)، فيسبادن، 1980م.
ـ الصّفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **الوافي بالوفيات**، ج24 (اعتناء البخيت والحياري)، شتوتكارت، 1993م.
9) الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك. **تُحفة ذوي الألباب** فيمن حكم بدمشق من الخلفاء والملوك والنواب (تحقيق احسان خلوصي وزهير الصمصام)، وزارة الثقافة، دمشق، 1992م.
10) الصفدي، **أعيان العصر وأعوان النصر**، ب ت.
11) العسقلاني، احمد بن نورالدين علي بن حجر. **إنباء الغُمر بأنباء العُمر**، ج2، ب ت .

12) العمري، ابن فضل الله. **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**، ج1(تحقيق احمد باشا)، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1924م.
13) العيني، بدر الدين. **عقد الجمان في تاريخ اهل الزمان**، ب ت.
14) القلقشندي، أبي العباس احمد بن علي. صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج4 وج5، مطابع كوستا تسوماس وشركاه، القاهرة، 1963م.
15) الكتبي، محمد بن شاكر. **فوات الوفيات والذيل عليها**، مج1 (تحقيق احسان عباس)، دار صادر، بيروت، 1973م.
16) المقدسي، ابوعبدالله بن ابي بكر البشاري. **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، مطبعة بريل، ليدن، 1877م.
17) المقريزي، تقي الدين احمد بن علي. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج1 وج2 (تصحيح محمد مصطفى زيادة)، ط2، القاهرة، 1956، 1972.
ـــ المقريزي، تقي الدين احمد بن علي. **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج4 (تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور)، دار الكتب، القاهرة، 1973.
18) المقريزي، تقي الدين ابي العباس احمد بن علي. **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، ج1 وج2، ط2، المركز الاسلامي للطباعة والنشر، القاهرة، 1987م.
19) النابلسي، عبد الغني بن اسماعيل. مخطوط **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية** (تحقيق حمد احمد عبدالله يوسف)، 1994م.
20) النعيمي، عبد القادر بن محمد. **الدارس في تاريخ المدارس**، (تحقيق جعفر الحني)، مطبعة الترقى، دمشق، 1948م.
21) اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى. **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر** (تحقيق احمد حطيط)، ط1، دار عالم الكتب، بيروت، 1986م.

- المراجع:

22) الألفي، ابو صالح. **الفن الاسلامي**، ط2، دار المعارف، لبنان ودار المعارف، مصر، 1974م.
23) الامام، رشاد. **مدينة القدس في العصر الوسيط**، الدار التونسية، تونس، 1976م.
24) آصلان آبا، اوقطاي. **فنون الترك وعمائرهم** (ترجمة احمد محمد عيسى)، ط1، استانبول، 1987م.
25) ابوخلف، مروان. **من معالم الحضارة الاسلامية في فلسطين**، المغرب، 2001م.

26) ابوخلف، مروان والهودلية، صلاح. **مقالات أثرية بالمناسبة العشرية**، المطبعة العربية الحديثة، القدس، 2004م.
27) بكّار، يوسف. **بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته**، (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام) مج1، ط1، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمَّان، 1983م.
28) بيضون، عيسى محمود. **دليل المسجد الأقصى المبارك**، ط1، 1993م.
29) الحجي، حياة ناصر. **السلطان الناصر محمد بن قلاوون ونظام الوقف في عهده**، ط1، مكتبة الفلاح، الكويت، 1983م.
30) الحجي، حياة ناصر. **صور من الحضارة العربية الاسلامية في سلطنة المماليك**، ط1، دار القلم، الكويت، 1992م.
31) حسن، زكي محمد. **فنون الاسلام**، دار الفكرالعربي، ب ت.
32) حميد، نزار فوزي. **فلسطين التاريخية الأرض الانسان الحضارة**، ط1، دار الكرامة، دمشق، 2003.
33) خسرو، ابو معين ناصر القبادياني المروزي. **سفرنامة**، ب ت.
34) الدجاني، برهان و شكيل، هادية. **الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين**، ط1، بيروت، 1994م.
35) دهمان، محمد احمد. **ولاة دمشق في عهد المماليك**، ط2، دار الفكر، دمشق، 1981م.
36) دهمان، محمد احمد. **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، ط1، دار الفكر، دمشق، 1990م.
37) الزيدي، مفيد. موسوعة التاريخ الاسلامي **العصر المملوكي**، دار أسامة، عمَّان ، 2003م.
38) سلامة، خضر. **المخطوطات القرآنية في المتحف الاسلامي في الحرم الشريف**، ط1، لبنان، 2003م.
39) السيد، حكيم أمين عبد. **قيام دولة المماليك الثانية** (تقديم محمد مصطفى زيادة)، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م.
40) العارف، عارف. **المفصل في تاريخ القدس**، ط2، مطبعة المعارف، القدس، 1986م.
41) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **العصر المماليكي في مصر والشام**، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، 1976م.
42) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك**، (المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام)، مج1، ط1، مطابع الجمعية العلمية الملكية، عمَّان، 1983م.

43) عاشور، سعيد عبد الفتاح. **الأيوبيون والمماليك في مصر والشام**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1996م.
44) العبادي، احمد مختار. **في التاريخ الأيوبي والمملوكي**، الاسكندرية، 2000م.
45) عبد المهدي، عبد الجليل حسن. **المدارس في بيت المقدس في العصرين الأيوبي والمملوكي**، ج2، ط1، عمَّان، 1981م.
46) عثامنة، خليل. **فلسطين في العهدين الأيوبي والمملوكي**، ط1، بيروت، 2006م.
47) العريني، السّيد الباز. **المماليك**، دار النهضة العربية، بيروت، 1976م.
48) العسلي، كامل جميل. **معاهد العلم في بيت المقدس**، عمَّان، 1981م.
49) العسلي، كامل جميل. **وثائق مقدسية تاريخية**، ط1،مج1، مطبعة التوفيق، عمَّان، 1983.
50) العسلي، كامل جميل. **من آثارنا في بيت المقدس**، عمَّان، 1982م.
51) عكاشة، ثروت. **القيم الجمالية في العمارة الاسلامية**، دار المعارف، القاهرة، 1981م.
52) العلمي، احمد. **المدارس المملوكية في القدس**، القدس، 1999م.
53) علي، علي السيد. **القدس في العصر المملوكي**، ط1، دار الفكر، القاهرة، 1986م.
54) الغامدي، علي محمد علي عودة. **بلاد الشام قبيل الغزو المغولي**، ط1، مكة المكرمة، 1988م.
55) غوانمة، يوسف حسن درويش. **تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي**، دار الحياة، عمَّان، 1982م.
56) غوانمة، يوسف حسن درويش. **دراسات في تاريخ الأردن وفلسطين في العصر الاسلامي**، دار الفكر، عمَّان، 1983م.
57) قاسم، عبده قاسم. **في تاريخ الأيوبيين والمماليك**، 2007م.
58) القحطاني، هاني محمد. **مبادئ العمارة الاسلامية وتحولاتها المعاصرة**، بيروت، 2009م.
59) الكيلاني، شمس الدين و باروت، محمد جمال. **الطريق الى القدس**، أبوظبي، 2000م.
60) مصطفى، صالح لمعي. **التراث المعماري الاسلامي في مصر**، بيروت، 1975م.
61) **الموسوعة الفلسطينية**، مج4، ط1، دمشق، 1984م.
62) نجم، رائف. **كنوز القدس**، ط1، مطابع Sagdos, Brugherio، ميلانو، 1983.
63) وزارة الاوقاف، مؤسسة احياء التراث. **منارات مقدسية**، القدس، 2010م.

Bibliography:

1) Abu Khalaf, Marwan F. .**Islamic Art through the Ages**, Jerusalem, 1998.
2) Atil, Esin. Renaissance of Islam **Art of the Mamluks**, Washington D.C. 1981.
3) Auld, Sylvia J. . **The Mamluks and the Venetians** (Palestine Exploration Quarterly), London, 1991.
4) Ayalon, M. Rosen. **The Islamic Architecture of Jerusalem** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
5) Bahat, Dan. **Carta's Historical Atlas of Jerusalem**, Jerusalem, 1973.
6) Bahat, Dan. **The Illustrated Atlas of Jerusalem**, 1990.
7) Bahat, Dan. **Jerusalem Down Under** (B.A.R. 21.6), 1995.
8) Boas, Adrian J. . **Jerusalem in The Time of the Crusades**, London, 2001.
9) Briggs, Martin S. . **Muhammadan Architecture in Egypt and Palestine**, London, 1924.
10) Burgoyne, M. Hamilton. **The Noble Sanctuary**(al-Haram al-Sharif) **under Mamluk Rule** (Where Heaven and Earth Meet), Jerusalem, 2009.
11) Burgoyne, M. Hamilton. **Mamluk Jerusalem An Architectural Study**, London, 1987.
12) Da Poggibonsi, Nicolo. **A Voyage Beyond the Seas**.
13) Dow, Martin. **The Islamic Baths of Palestine**, London, 1996.
14) Frescobaldi, Gucci and Sigoli. **Visit to the Holy Places**, Jerusalem, 1948.
15) Hawari, Mahmoud. **Ayyubid Jerusalem**, An Architectural and Archaeological Study, London, 2007.
16) Hillenbrand, Robert. **Islamic Architecture**, New York, 1994.
17) Hoag, John D. . **Islamic Architecture**, London, 1979.
18) Kenney, Ellen. **Power and Patronage in Medieval Syria**, Chicago, 2009.
19) Kroyanker, David. **Jerusalem Architecture**, Italy, 1994.
20) Landay, Jerry M. . **Dome of the Rock**, Italy, 1972.
21) Le Strange, Guy. **Palestine Under the Moslems**, 1890.

22) Mazar, A. . **The Aqueducts of Jerusalem** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
23) Muir, William. **The Mameluke or Slave Dynasty of Egypt**, London, 1896.
24) Prawer, J. . **Jerusalem in Crusader Days** (Jerusalem Revealed), Jerusalem, 1975.
25) Rosovsky, Nitza. **City of the Great King**, U.S.A. 1996.
26) Sharon, Arieh. **Planning Jerusalem**, Jerusalem.
27) Sims, Eleanor and others. **Architecture of the Islamic World**, London, 1978.
28) Warren, Charles and Conder, Claude. **The Survey of Western Palestine**, London, 1884.
29) Wilson, R.E. and Warren, R.E. . **The Recovery of Jerusalem**, New York, 1871.
30) Zahlan, A.B. .**The Reconstruction of Palestine**, London, 1997.

مراجع المواقع الالكترونية:

http://Archnet.org
www.aqsaonline.org
www.alaqsa-online.net
Facebook/Madrasas in Damascus
http://www.yasmin-alsham.com
www.naseemalsham.com
www.1sy.info
http://naim-almadani.com

فهرس المخططات

مخطط رقم 1 أ. الخطوط الكنتورية لمدينة القدس القديمة ومحيطها	75
مخطط رقم 1 ب. مقاطع A-A و B-B	76
مخطط رقم 2 الخطوط الكنتورية للقدس القديمة	76
مخطط رقم 3 مدينة القدس القديمة	77
مخطط رقم 4 أ: منطقة الحرم القدسي	79
مخطط رقم 4 ب: المخطط المقترح للآثار المعمارية أسفل التنكزية ورباط النساء والمنطقة المحيطة	79
مخطط رقم 4 ج: مقطع قوس ويلسون ومستوى بركة البراق	80
مخطط رقم 4د: منظور لقوس ويلسون الواقع أسفل المدرسة التنكزية	80
مخطط رقم 5 : مخطط اعادة رسم وتجميع المساقط الافقية من كتاب Mamluk Jerusalem للمدرسة التنكزية ورباط النساء ومأذنة باب السلسلة مع اضافة التحديد للمباني والمحور الممتد من المدرسة والرباط	82
مخطط رقم 6: المسقط الافقي للمدرسة البلدية	83
مخطط 7: المخطط المقترح للآثار المتبقية أسفل المدرسة البلدية والمنطقة الواقعة جنوبها	84
مخطط رقم 8: مخطط المرحلة الأولى للمجمع المعماري، مسقط افقي وثلاثي الأبعاد	85
مخطط رقم 9 : مخطط مدينة القدس في الفترة الصليبية	86
مخطط رقم 10 : موقع المباني الأيوبية في مدينة القدس القديمة	87
مخطط رقم 11 أ (مدينة القدس القديمة في الفترة الرومانية)	90
مخطط رقم 11 ب (مدينة القدس القديمة في الفترة الصليبية)	90
مخطط رقم 12: مخطط إعادة ترسيم المسقط الأفقي لخان تنكز	92
مخطط رقم 13: المسقط الأفقي لسوق القطانين وخان تنكز وحمامي الشفا والعين	92
مخطط رقم 14: المخطط الكامل لمجمع التنكزية	93
مخطط رقم 15: مخطط موقع المباني المملوكية في حدود منطقة الدراسة	94

مخطط رقم 16: المسقط الافقي للطابق الأرضي للمدرسة التنكزية	98
مخطط رقم 17: المسقط الافقي للطابق الأرضي لرباط النساء	100
مخطط رقم 18 المسقط الأفقي لمأذنة باب السلسلة	102
مخطط رقم 19: المسقط الافقي لسوق القطانين	104
مخطط رقم 20: المسقط الأفقي للطابق الأرضي لخان تنكز	107
مخطط رقم 21: المسقط الأفقي لحمام الشفا	108
مخطط رقم 22: المسقط الأفقي لحمام العين	110
مخطط رقم 23: قنوات المياه	113
مخطط رقم 24: المسقط الأفقي لدار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق	155
مخطط رقم 25: الواجهة الرئيسية والمسقط الافقي للتربة الكوكبائية	162

فهرس الصور

صورة 1، 2: دكاكين من الجزء الشرقي من سوق القطانين	88
صور 3 ، 4 (للباحثة): دكاكين من الجزء الغربي من السوق	88
صورة 5: باب القطانين الشرقي	89
صورة 6: المدرسة التنكزية. منظر داخلي باتجاه الايوان الجنوبي حيث يظهر الصحن والمحراب	99
صورة 7 ، 8 : مأذنة باب السلسلة من الزاوية الشمالية الشرقية ومن الزاوية الغربية	102
صورة 9: منظر عام لسوق القطانين باتجاه الشرق	105
صورة 10: احدى فتحات التهوية والاضاءة في السوق	105
صورة 11: المقرنصات على السقف أمام حمام الشفا ويظهر اسم المهندس عليها بالنص: محمد بن أحمد بن غليش رحمه الله	106
صور 12، 13، 14: صور توضيحية لسقف غرف حمام الشفا والفتحات الفخارية التي تتخلل القباب	109
صورة 15: نافورة تتوسط غرفة المشلح في حمام العين	110
صور توضيحية (16–20) من داخل وسطح حمام العين	111
صورة 21: مأذنة الغوانمة من الجهة الجنوبية	112
صورة 22: القناة السفلية، نفق عند موقع رقم 22	114
صورة 23: الكأس	115
صورة 24: قسم من وقفية الأمير تنكز السجل 92 ص 430	118
صورة 25: القبة أعلى مدخل المدرسة التنكزية	130
صورة 26: تُظهر التضليع في قبة القاعة الرئيسية في حمام الشفا.	130
صور (27–29) صور من داخل حمام العين	131
صورة 30: الأعمدة على جوانب مأذنة باب السلسلة	132
صورة 31: المدخل الغربي لسوق القطانين	133
صورة 32–33 Trefoil Arch في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي ورباط النساء	134

صورة 34: منظر داخلي من رباط النساء، يظهر فيه القبو النصف برميلي الشكل Barrel Vault	134
صورة 35: نظام تسقيف سوق القطانين بالقبوات النصف برميلية	135
صورة 36: القبوات المتداخلة عند مدخل خان تنكز	135
صورة 37: القبوات النصف برميلية في قاعة مدخل خان تنكز	135
صورة 38: مدخل المدرسة التنكزية	136
صورة 39: بعض فتحات النوافذ على الواجهة الشرقية للمدرسة التنكزية	137
صورة 40: مأذنة الغوانمة من الناحية الجنوبية تظهر فيها فتحات النوافذ	138
صورة 41: الدرج الحجري المؤدي الى مدخل مأذنة الغوانمة الواقع على مستوى الطابق الثاني	138
صورة 42، 43: المقرنصات في اعلى مدخل المدرسة التنكزية.	140
صورة 44، 45: المقرنصات في اعلى مدخل سوق القطانين الشرقي.	140
صورة 46: احدى الفتحتين الواقعتين على جانبي مدخل سوق القطانين، وتظهر المقرنصات بدلاية في اعلاها.	141
صورة 47: صفوف المقرنصات في اعلى الطابق الثاني لقاعدة مأذنة الغوانمة	142
صورة 48: القوصرات في مأذنة الغوانمة	142
صورة 49: الصنج الحجرية في اعلى باب المدرسة التنكزية	143
صورة 50: رسم باب القطانين من داخل السوق، للفنان Bauernfeind, Gustav 1886	143
صورة 51، 52: باب القطانين الخشبي والشريط النحاسي الواقع عليه.	145
صورة 53، 54: الشريط الكتابي المنقوش الواقع اعلى باب القطانين الشرقي.	145
صورة 55: رنك الأمير تنكز (الكأس داخل حلقة) الواقع اعلى مدخل ساحة خان تنكز.	146
صورة 56، 57: بعض التكسيات الرخامية داخل المدرسة التنكزية.	147
صورة 58، 59: محراب مسجد المدرسة التنكزية في الايوان الجنوبي.	147
صورة 60: الكورنيش بشكل محاريب في مأذنة باب السلسلة	148

صورة 61: الكورنيش بشكل مقرنصات ومحاريب مفرغة في مأذنة الغوانمة	148
صورة 62: الاشكال الهندسية التي تُشكل الطبقة الخارجية من باب القطانين.	150
صورة 63: مدقة باب القطانين من البرونز المشغول	151
صورة 64: مشكاة مسجد المدرسة التنكزية الخاص بالأمير تنكز. محفوظة حالياً بالمتحف الاسلامي في الحرم القدسي الشريف.	151
صورة 65: دار القرآن والحديث التنكزية/ دمشق	156
صورة 66: مدخل دار القرآن والحديث التنكزية في مدينة دمشق	156
صورة 67: صورة جوية لموقع جامع تنكز في مدينة دمشق	157
صورة 68: جامع تنكز. الصور67، 68	158
صور (69-70): جامع تنكز	159
صورة 71: مدخل جامع تنكز	159
صورة 72: منظر عام لجامع تنكز	159
صورة 73: محراب جامع تنكز في دمشق	160
صورة 74: محراب جامع تنكز في دمشق.	160
صورة 75: محراب المدرسة التنكزية في القدس.	160
صورة 76: مأذنة جامع تنكز في دمشق.	161
صورة 77: قبة تربة تنكز من الداخل.	162
صورة 78: قبة التربة الكوكبائية من الداخل	163
صور 79، 80، 81: المدخل الرئيسي للتربة الكوكبائية والشريط الكتابي اعلى الباب وباب المدخل	164

الفهرس

إقرار: ..... أ

الشكر والتقدير ..... ب

ملخص الرسالة: ..... ج

Abstract: ..... ه

المقدمة: ..... ز

الفصل الأول: نشأة المماليك وتطورهم العمراني 1

1.1 نشأة المماليك: 2

1.1.1 أصلهم: 2

1.1.2 المماليك الأتراك أو البحرية:- 5

1.1.3 عوامل ضعف دولة المماليك البحرية :- 17

1.1.4 المماليك الجراكسة أو البرجية :- 19

1.1.5 عوامل ضعف دولة المماليك البرجية:- 28

1.2 العمران في العصر المملوكي: 31

1.2.1 أبرز الانجازات المعمارية: 36

1.2.2 مميزات العمارة المملوكية: 41

الفصل الثاني: الإدارة المملوكية لبلاد الشام 44

2.1 الأوضاع الداخلية في بلاد الشام: 45

2.2 الوضع الإداري لمدينة القدس: 48

2.3 الحياة الثقافية في مدينة القدس: 54

الفصل الثالث: أعمال الأمير تنكز المعمارية في مدينة القدس 65

3.1 لمحة عن حياة الأمير سيف الدين تنكز: 66

3.1.1 نشأته: 66
3.1.2 صفاته وألقابه: 67
3.1.3 أهم أعماله وأملاكه: 69
3.1.4 وفاته وما قيل فيه: 71
3.2 انجازات الأمير تنكز المعمارية: 75
3.2.1 الوصف المعماري لعمائر الأمير تنكز: 95
3.2.2 المدرسة التنكزية: 95
3.2.3 رباط النساء: 100
3.2.4 مأذنة (منارة) باب السلسلة: 102
3.2.5 السقاية (سقاية العادل): 104
3.2.6 سوق القطانين: 104
3.2.7 خان تنكز: 107
3.2.8 حمّام الشفا: 109
3.2.9 حمّام العين: 111
3.2.10 مأذنة (منارة) الغوانمة: 114
3.2.11 قناة العروب: 115
3.2.12 الكأس: 116
3.3 أعمال الأمير تنكز في الوثائق الوقفية: 117
3.3.1 النص الكامل لوقفية الأمير تنكز: 120
الفصل الرابع: العناصر المعمارية والزخرفية في عمارة الأمير تنكز 130
4.1 العناصر الإنشائية: 131
4.1.1 القباب: 131

4.1.2 الأعمدة: 134
4.1.3 الأوتار (Lintels): 135
4.1.4 العقود أو الأقواس (Arches):... 135
4.1.5 القبوات (Vaults): 136
4.1.6 المداخل:..... 138
4.1.7 النوافذ:. 138
4.1.8 السلالم:..... 140
4.1.9 المقرنصات:. 141
4.2 العناصر الزخرفية :..... 142
4.2.1 المقرنصات: 143
4.2.2 القوصرات: 144
4.2.3 المداميك الملونة (الأبلق):..... 145
4.2.4 الصنج الحجرية المعشقة (اللحامات المتداخلة): 145
4.2.5 الشريط الكتابي: 146
4.2.6 الرنك:..... 148
4.2.7 التكسيات الرخامية:..... 148
4.2.8 الكورنيش:..... 150
4.3 المواد المستخدمة في البناء : 150
4.3.1 الحجر:..... 150
4.3.2 الرخام: 151
4.3.3 الفخار:..... 151
4.3.4 الخشب:. 152

4.3.5 المعدن: 152

4.3.6 الزجاج:.....153

الفصل الخامس: التحليل المعماري لعمائر الأمير تنكز والنتائج 155

5.1 اعمال الأمير تنكز في مصر وبلاد الشام، ومقارنتها بعمائره في القدس من حيث التخطيط والواجهات والنسب المعمارية: ...156

الخاتمة: 168

المصادر والمراجع العربية والأجنبية 171

فهرس المخططات 177

فهرس الصور 179

الفهرس.....182